سید قطبؒ

فی ظلال القرآن

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء السابع

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية سورة المائده وأوائل سورة الأنعام

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يتألف هذا الجزء من بقية سورة المائدة - التي وردت أوائلها وسبق الحديث عنها في الجزء السادس - ومن أوائل سورة الأنعام إلى قوله تعالى : « ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة ... » وسنرجيء الحديث عن هذا الشطر الثاني من هذا الجزء إلى موضعه - حين نستعرض سورة الأنعام. ونمضي هنا في الحديث عن الشطر الأول المكون من بقية سورة المائدة.

لقد جاءت في التعريف بهذه السورة - في الجزء السادس - هذه العبارات :

« نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينشيء به أمة ؛ وليقيم به دولة ، ولينظم به مجتمعا ؛ وليربي به ضمائر وأخلاقا وعقولا ؛ وليحدد به روابط ذلك المجتمع فيما بينه ، وروابط تلك الدولة مع سائر الدول ، وعلاقات تلك الأمة بشتى الأمم .. وليربط ذلك كله برباط قوي واحد ، يجمع متفرقه ؛ ويؤلف أجزاءه ؛ ويشدها كلها إلى مصدر واحد ، وإلى سلطان واحد ، وإلى جهة واحدة .. وذلك هو « الدين » كما هو في حقيقته عند الله ؛ وكما عرفه المسلمون .. أيام أن كانوا « مسلمين » !

« ومن ثم نجد في هذه السورة - كما وجدنا في السور الثلاث الطوال قبلها - موضوعات شتى ؛ الرابط بينها هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه : إنشاء أمة ، وإقامة دولة ، وتنظيم مجتمع ، على أساس من عقيدة خاصة ، وتصور معين ، وبناء جديد ، الأصل فيه إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان ، وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك .

« وكذلك نجد بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه وتخليصه من أساطير الوثنية وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم إلى جانب تعريف الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها ، وحقيقة دورها ، وطبيعة طريقها ، وما في هذا الطريق من مزالق وأشواك وشباك يرصدها لها أعداؤها وأعداء هذا

Marfat.com

الدين .. إلى جانب أحكام الشعائر التعبدية التي تطهر روح الفرد المسلم ، وروح الجماعة المسلمة وتربطها بربها .. إلى جانب التشريعات الاجتماعية التي تنظم روابط مجتمعها ؛ والتشريعات الدولية التي تنظم علاقاتها بغيرها .. إلى جانب التشريعات التي تحلل وتحرم ألوانا من المآكل والمشارب والمناكح ، وألوانا من الأعمال والمسالك .. كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة ، تمثل معنى « الدين » كما أراده الله ، وكما فهمه المسلمون .. أيام أن كانوا «مسلمين».

* * *

وعلى ضوء هذا التصور العام لطبيعة السورة ومحتوياتها ، نستطيع أن نمضي مع بقيتها في هذا الجزء . فنجدها تضم بقية من موضوعات السورة التي أشرنا إليها ، والتي سبق بعضها في الجزء السادس .

نجد بقية عن المعسكرات المتعددة التي تواجه الأمة المسلمة في المدينة ـ ومن عجب أنها هي هي التي تواجه حركات البعث الإسلامي دائما ـ والعداء الذي تنطوي عليه صدورها ؛ مع التفاوت في مواقف بعض هذه المعسكرات ؛ وميل فئات منها للهدى كبعض فئات النصارى التي استجابت لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولانت قلوبها لما سمعت من الهدى ، وفازت بثواب الله وجنات تجري من تحتها الأنهار .

ونجد بقية من الحديث عن حق التشريع بالحل والحرمة ؛ والنهي عن الاعتداء بالتحريم والتحليل بغير سلطان من الله ؛ وتذكير الذين آمنوا بتقوى الله في هذا الأمر الذي يتعلق به الإيمان والكفر بعد ما أعلنوا الإيمان .

يتلو ذلك بقية من الأحكام التشريعية في الأيمان ، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والصيد في حالة الإحرام ، وحرمة الكعبة والأشهر الحرم والهدي والقلائد .. مع التنبيه المتكرر إلى وجوب الالتزام والطاعة لما يشرعه الله ـ سبحانه ـ وما يأمر به نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنهي والتحذير من المخالفة ، والتهديد بالعذاب الأليم ، والانتقام من الله ، والتذكير بالله الذي إليه يحشرون .

ثم بقية في تربية الجماعة المسلمة . بتقرير القيم التي تتعامل بها ، فلا تعجبها كثرة الخبيث

Marfat.com

ولكن يحبها الطيب الزكى . وفى أدبها الواجب مع ربها ومع رسولها . فلا تسأله عما لم يُبده ولا تطلب تفصيل ما أجمله .

ثم إبطال ما تبقى من تقاليد الجاهلية وشرائعها المتخلفة من شركها ووثنيتها ، فى بعض أنواع الأنعام والذبائح : كالبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة والحامى . . مع تقرير المصدر الوحيد الصحيح للتشريع فى أمور الحياة كلها ؛ ورد الأمر فى هذا إلى الله وحده ، لا إلى عرف البشر واصطلاحهم .

ذلك مع تنبيه الأمة المسلمة إلى عزها بذاتها ، وتضامنها فيما بينها ، وانفصالها عن سواها ؛ وتبعتها الخاصة ، وبراءتها من تبعات أهل الضلال ؛ ورد أمر جزائها وجزاء غيرها إلى الله وحده فى دار الجزاء .

وينتهى الحديث عن قضية التشريع كلها بحكم الإشهاد على الوصية فى حالة السفر والبعد عن الحاضرة ؛ وتنظيم الإسلام لمثل هذه الأقضية فى مجتمع مجاهد فى سبيل الله ، ويضرب فى الأرض كذلك للتجارة ابتغاء فضل الله . مع ربط التشريع بمخافة الله فى الدنيا والآخرة .

أما بقية السورة فتتضمن بقية فى تصحيح عقيدة النصارى – من أهل الكتاب – ومن أجل هذا يعاد عرض طرف من قصة مريم وعيسى ؛ والمعجزات التى أجراها الله على يديه ؛ ومسألة المائدة التى طلبها الحواريون .. ثم تعرض قضية ألوهية عيسى وأمه ودعاوى النصارى فيها ؛ حيث يكذب عيسى – عليه السلام – أن يكون هو قد ادعاها ، ويبرىء نفسه من هذه الفرية أمام ربه فى مشهد مرهوب من مشاهد القيامة ؛ ويدع أمر قومه لله ربه وربهم على ملأ من البشرية بأجمعها ، والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كلهم شهود ..

وتختم السورة بتقرير ملكية الله للسماوات والأرض وما فيهن ، وقدرته التى لا حدود لها ولا قيود : « لله ملك السماوات والأرض وما فيهن ، والله على كل شيء قدير » ..

***

ومن هذا الاستعراض السريع لبقية محتويات السورة ، يتجلى التماسك فى بنائها – حسب منهجها فى تناول هذه المحتويات وهو المنهج الذى أشرنا إليه فى مطالع السورة ونقلنا فقرات منه فى مطلع هذا البيان الوجيز .

فنمضى الآن بالتفصيل مع السورة فى مواجهة النصوص :

Marfat.com

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

هذه البقية من الحديث عن اليهود والنصارى والمشركين، ومواقفهم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن الأمة المسلمة؛ هي طرف من الحديث الطويل الذي تضمنته السورة من قبل خلال أكثر من (ربعين) فقد تناولت الحديث عن فساد عقيدة اليهود والنصارى معاً، وسوء طوية اليهود وسوء فعلهم، سواء مع أنبيائهم من قبل أو مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصرة المشركين عليه.. كما تناولت الحكم على عقيدة اليهود والنصارى التي انتهوا إليها بأنها «الكفر» لتركهم ما جاء في كتبهم وتكذيبهم بما جاءهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتوكيد بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.. ثم وجه الحديث إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغ ما أنزل إليه من ربه إلى الجميع مشركين ويهودا ونصارى؛ فكلهم ليسوا على شيء من دين الله؛ وكلهم مخاطب بالإسلام للدخول فيه. كما وجه الحديث إلى الأمة المسلمة لتتولى الله والرسول والذين آمنوا، ولا تتولى اليهود والنصارى، فإن بعضهم أولياء بعض؛ واليهود يتولون الذين كفروا؛ وقد لعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم .... الخ ...

Marfat.com

فالآن تجيء هذه البقية لتقرير مواقف هذه الطوائف جميعا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن الأمة المسلمة . ولتقرير الجزاء الذي ينتظر الجميع في الآخرة . .

لقد كانت هذه الأمة تتلقى هذا القرآن لتقرر ـ وفق توجيهاته وتقريراته ـ خطتها وحركتها، ولتتخذ ـ وفق هذه التوجيهات والتقريرات ـ مواقفها من الناس جميعا . فهذا الكتاب كان هو موجهها ومحركها ورائدها ومرشدها .. ومن ثم كانت تَغلب ولا تُغلب ، لأنها تخوض معركتها مع أعدائها تحت القيادة الربانية المباشرة ؛ مذ كان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية . .

وهذه الإرشادات الربانية ما تزال ؛ والتقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال . والذين يحملون دعوة الإسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الإرشادات كأنهم يخاطبون بها اللحظة ؛ ليقرروا على ضوئها مواقفهم من شتى طوائف الناس ؛ ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء ، ومن شتى الأوضاع والأنظمة وشتى القيم والموازين . . اليوم وغدا وإلى آخر الزمان . .

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ... »

إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطابا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن تكون كذلك خطابا عاما خرج مخرج العموم ، لأنه يتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان . وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم .. وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤديه . .

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا ؛ وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى ، ويجده كل من يتأمل !

نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا .. ولكن تقديم اليهود هنا ، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أصلا أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير

Marfat.com

العربي ! إنه ـ على الأقل ـ يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة ، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا ! وتقول : إن هذا «على الأقل» . ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا ..

وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة ، فإنه لا يتردد في تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمق إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا !

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة . وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة . وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهود على الإسلام وعلى رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل ؛ والتي لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا ، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعا (١)

لقد عقد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول مقدمه إلى المدينة ، معاهدة تعايش مع اليهود؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يصدق ما بين أيديهم من التوراة .. ولكنهم لم يفوا بهذا العهد ـ شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل ، حتى قال الله فيهم : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون . أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون . ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (٢)

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام ، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج ، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط !

---

(١) يراجع جانب من هذه الإشارات والتقريرات وتفسيرها في ظلال القرآن في الصفحات التالية .
(٢) البقرة ٩٩ ـ ١٠١ .

Marfat.com

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية ، وأفادتها من قرون السبي في بابل ، والعبودية في مصر ، والذل في الدولة الرومانية . ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد والأم المكر منذ اليوم الأول .

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة ؛ وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة : « ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » (١)

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق - يوم أن كان الناس مسلمين - استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه - لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه سبحانه - ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين ، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار . ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض .. حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض ؛ وهم الذين يستندمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة ، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين ، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل جذر من جذور هذا الدين !

وصدق الله العظيم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ..

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة ؛ وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم ، وبين قريش في مكة ، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة .. يهودي ..

والذي ألب العوام ، وجمع الشراذم ، وأطلق الشائعات ، في فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - وما تلاها من النكبات .. يهودي ..

والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي الروايات والسير .. يهودي ..

---

(١) النساء : ١

Marfat.com

ثم إن الذى كان وراء إثارة النعرات القومية فى دولة الخلافة الأخيرة ؛ ووراء الانقلابات التى ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال « الدستور » بها فى عهد السلطان عبد الحميد ، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدى « البطل » أتاتورك .. يهودى ..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود !

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية .. يهودى .. ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودى .. ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهود ! (١)

ولقد كانت الحرب التى شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا ، وأعرض مجالا ، من تلك التى شنها عليه المشركون والوثنيون ـ على ضراوتها ـ قديما وحديثا .. إن المعركة مع مشركى العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما فى جملتها . وكذلك كانت المعركة مع فارس فى العهد الأول . أما فى العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية .. (التى تعد الماركسية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام فى طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية ، التى سنتعرض لها فى الفقرة التالية .

فإذا سمعنا الله ـ سبحانه ـ يقول :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ..

ويقدم اليهود فى النص على الذين أشركوا . . ثم راجعنا هذا الواقع التاريخى ، فإننا ندرك طرفا من حكمة الله فى تقديم اليهود على الذين أشركوا !

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة ، التى ينغل الحقد فى صدورها على الإسلام وعلى نبى الإسلام ، فيحذر الله نبيه وأهل دينه منها .. ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله ! . . ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفىء أهله إليه ..

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين

---

(١) براجع فصل : اليهود الثلاثة : ماركس وفرويد ودركايم فى كتاب « التطور والثبات » لمحمد قطب

Marfat.com

ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » ..

إن هذه الآيات تصور حالة ، وتقرر حكما فى هذه الحالة .. تصور حالة فريق من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ : « الذين قالوا : إنا نصارى » .. وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا ..

ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالا للشك فى أنها تصور حالة معينة ، هى التى ينطبق عليها هذا التقرير المعين ، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها ، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذى فى تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة ، وموقف هذه المعسكرات منهم .. لذلك نجد من الضرورى ـ فى ظلال القرآن ـ أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التى ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص :

إن الحالة التى تصورها هذه الآيات هى حالة فئة من الناس ، قالوا : إنا نصارى . هم أقرب مودة للذين آمنوا : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .. فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم ..

ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد ، ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل من قالوا : إنا نصارى .. إنما هو يمضى فيصور موقف هذه الفئة التى يعنيها :

« وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين . ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » ..

فهذا مشهد حى يرتسم من التصوير القرآنى لهذه الفئة من الناس ، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا .. إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم ، ولانت

Marfat.com

قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذى سمعوه . والذى لا يجدون له فى أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ـ وهى حالة معروفة فى النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفى بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدى مالا يؤديه القول ؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف .

ثم هم لا يكتفون بهـذا الفيض من الدمع ؛ ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذى تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن ؛ والشعور بالحق الذى يحمله والإحساس بما له من سلطان . . إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذى تفيض عينـاه بالدمع ثم ينتهى أمره مع هـذا الحق ! إنمـا هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفا إيجابيا صريحا .. موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان فى لهجة قوية عميقة صريحة :

« يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ » . .

إنهم أولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذى عرفوه . ثم يدعونه ـ سبحانه ـ أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ؛ وأن يسلـكهم فى سلك الأمة القائمة عليه فى الأرض .. الأمة المسلمة ، التى تشهد لهذا الدين بأنه الحق ، وتؤدى هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق فى حياة البشر . . فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة ؛ ويشهدون ربهم على إيمـانهم بالحق الذى تدينه هـذه الأمة ؛ ويدعونه ـ سبحانه ـ أن يكتبهم فى سجلها ..

ثم هم بعد ذلك يستنـكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله ؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به ، ولا يأملوا ـ بهـذا الإيمـان ـ أن يقبلهم ربهم ، ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع القوم الصالحين :

« ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنـا ربنـا مع القوم الصالحين ؟ » . .

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق . . موقف الاستماع

Marfat.com

والمعرفة ، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة ، مع دعاء الله - سبحانه - أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق ؛ الذين يؤدون شهادتهم سلوكا وعملا وجهادا لإقراره في الأرض ، والتمكين له في حياة الناس . ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحده ؛ بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد : هو طريق الإيمان بالله ، وبالحق الذي أنزله على رسوله ، والأمل - بعد ذلك - في القبول عنده والرضوان :

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا : إنا نصارى ؛ وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحق ؛ وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح ، بالإيمان المعلن ، والانضمام إلى الصف المسلم ؛ والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال ؛ والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو ؛ مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين . .

لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا . بل يتابع خطاه لتكملة الصورة ، ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلا :

« فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء المحسنين » . .

لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم ؛ وصدق عزمتهم على المضي في الطريق ؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ؛ ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه ، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة - بكل تكاليفها في النفس والمال - منة يمن الله بها على من يشاء من عباده ؛ واعتبارهم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه ؛ ورجاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين . .

لقد علم الله منهم هذا كله ؛ فقبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاء لهم ؛ وشهد لهم - سبحانه - بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين :

Marfat.com

« فأثابهم الله - بما قالوا - جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . . وذلك جزاء المحسنين .. » .

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام . . والله - جل جلاله - قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين .

هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذى يقول عنه القرآن الكريم :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » . .

هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه ، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة . وهو فريق لا يتردد فى إعلان استجابته للإسلام ، والانضمام للصف المسلم ؛ والانضمام إليه بصفة خاصة فى تكاليف هذه العقيدة ؛ وهى أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها . وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله فى صفوف المحسنين . .

ولكن السياق القرآنى لا يقف عند هذا الحد فى تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا . بل إنه ليمضى فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا : إنا نصارى . ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون ، ولايستجيبون له ، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين :

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » ..

والمقصود قطعا بالذين كفروا وكذبوا فى هذا الموضع هم الذين يسمعون - من الذين قالوا إنا نصارى - ثم لا يستجيبون . . والقرآن يسميهم الكافرين كلما كانوا فى مثل هذا الموقف . سواء فى ذلك اليهود والنصارى ؛ ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء ؛ ماداموا فى موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق ؛ وفى موقف الامتناع عن الدخول فى الإسلام الذى لا يقبل الله من الناس دينا سواه .. نجد هذا فى مثل قول الله سبحانه :

« لم يكن الذين كفروا - من أهل الكتاب والمشركين - منفكين حتى تأتيهم البينة » ..

« إن الذين كفروا - من أهل الكتاب والمشركين - فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية » ..

Marfat.com

الجزء السابع .

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » ..

« لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » ..

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم » ..

فهو تعبير مألوف فى القرآن ، وحكم معهود .. وهو يأتى هنا للتفرقة بين فريقين من الذين قالوا : إنا نصارى ؛ وللتفرقة بين موقف كل فريق منهما تجاه الذين آمنوا ؛ وللتفرقة كذلك بين مصير هؤلاء وأولئك عند الله . . هؤلاء لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين . وأولئك أصحاب الجحيم ..

وليس كل من قالوا : إنهم نصارى إذن داخلين فى ذلك الحكم : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا » .. كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها .. إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآنى أمرها غامضا ، ولا ملامحها مجهلة ، ولا موقفها متلبسا بموقف سواها فى كثير ولا قليل ..

ولقد وردت روايات لها قيمتها فى تحديد من هم النصارى المعنيون بهذا النص :

أورد القرطبى فى تفسيره : « وهذه الآية نزلت فى النجاشى وأصحابه ، لما قدم عليهم المسلمون فى الهجرة الأولى ـ حسب ماهو مشهور فى سيرة ابن إسحاق وغيره ـ خوفا من المشركين وفتنتهم ؛ وكانوا ذوى عدد . ثم هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه ، حالت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب. فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة . فأهدوا إلى النجاشى وابعثوا له برجلين من ذوى رأيكم يعطيكم من عنده ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر . فبعث كفار قريش عمرو ابن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة بهدايا . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمرو ابن أمية الضمرى وكتب معه إلى النجاشى ؛ فقدم على النجاشى ، فقرأ كتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم دعا جعفر ابن أبى طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم. ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة « مريم » فقاموا تفيض أعينهم من الدمع .

Marfat.com

فهم الذين أنزل الله فيهم : « ولتجدن أقربهم موده للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » وقرأ إلى « الشاهدين » (رواه أبو داود . قال : حدثنا محمد ابن مسلمة المرادى ، قال : حدثنا ابن وهب . قال : أخبرنى يونس عن ابن شهاب ، عن أبى بكر ابن عبد الرحمن ابن الحرث ابن هشام . وعن سعيد ابن المسيب وعن عروة ابن الزبير : أن الهجرة الأولى هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة . وساق الحديث بطوله .

« وذكر البيهقى عن ابن إسحاق قال . قدم على النبى – صلى الله عليه وسلم – عشرون رجلا وهو بمكة ، أو قريب من ذلك ، من النصارى حين ظهر خبره ، من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة . فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عما أرادوا ، دعاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا : خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطل مجالستكم عنده حق فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركباً أحمق منكم – أو كما قال لهم – فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا نألو أنفسنا خيرا .. فيقال : إن النفر النصارى من أهل نجران . ويقال : إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » إلى قوله : « لا نبتغى الجاهلين » .

« وقيل : إن جعفرا وأصحابه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف ، فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيراء الراهب وإدريس وأشرف وأبرهة وثمامة وقثم ودريد وأيمن . فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة « يس » إلى آخرها ، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا به ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى . فنزلت فيهم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » .. يعنى وفد النجاشى . وكانوا

Marfat.com

أصحاب الصوامع . وقال سعيد ابن جبير : وأنزل الله فيهم أيضا « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » إلى قوله « أولئك يؤتون أجرهم مرتين » إلى آخر الآية . وقال مقاتل والكلبي كانوا أربعين رجلا من أهل نجران من بنى الحرث ابن كعب ، واثنين وثلاثين من الحبشة ، وثمانية وستين من أهل الشام . وقال قتادة : نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا به فأثنى الله عليهم » .

وهذا الذى نقرره فى معنى هذا النص ؛ والذى يدل عليه السياق بذاته ، وتؤيده هذه الروايات التى أسلفنا ، هو الذى يتفق مع بقية التقريرات فى هذه السورة وفى غيرها عن موقف أهل الكتاب عامة ـ اليهود والنصارى ـ من هذا الدين وأهله . كما أنه هو الذى يتفق مع الواقع التاريخى الذى عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرنا .

إن السورة وحدة فى اتجاهها وظلالها وجوها وأهدافها ؛ وكلام الله سبحانه لا يناقض بعضه بعضا . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . . وقد وردت فى هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات ، تحدد معنى هذا النص الذى نواجهه هنا وتجلوه . . نذكر منها :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

« قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين » . .

كذلك جاء فى سورة البقرة : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل : إن هدى الله هو الهدى ؛ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » . .

كذلك صدق الواقع التاريخى ما حذر الله الأمة المسلمة إياه ؛ من اليهود ومن النصارى

Marfat.com

سواء . وإذا كان الواقع التاريخى قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذى دخل فيه الإسلام عليهم المدينة ؛ فى صورة كيد لم ينته ولم يكف حتى اللحظة الحاضرة ؛ وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام فى كل أرجاء الأرض اليوم فى حقد خبيث وكيد لئيم . . فإن هـذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ـ فيما عدا الحالات التى وقع فيها ما تصفه الآيات التى نحن بصددها فاستجابت قلوب للإسلام ودخلت فيه . وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمى بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك ؛ يلاقون من ظلمها الوبال ! ـ أما التيار العام الذى يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التى لم يخب أوارها قط ـ إلا فى الظاهر ـ منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك !

لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله فى الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان ، كما تجلت فى حروب الإبادة التى شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين فى الأندلس ، ثم فى حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية فى إفريقية أولا ، ثم فى العالم كله أخيرا . .

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالميـة حليفتين فى حرب الإسـلام ـ على كل ما بينهما من أحقاد ـ ولـكنهم كانوا فى حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير : « بعضهم أولياء بعض » حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة . ثم مضوا فى طريقهم ينقضون هـذا الدين عروة عروة . وبعـد أن أجهزوا على عروة « الحـكم » ها هم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة « الصلاة » !

ثم ها هم أولاء يعيـدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين . فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام . عن طريق المساعدات المباشرة تارة ، وعن طريق المؤسسات الدولية التى يشرفون عليها تارة أخرى ! وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد .

وذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التى تتولى سحق حركات الإحياء والبعث

Marfat.com

الإسلامية فى كل مكان على وجه الأرض . وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم ، ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام ، فى زحمة الضجيج العالمى حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال !

هذا موجز سريع لما سجله الواقع التاريخى طوال أربعة عشر قرنا ؛ من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام ؛ لا فرق بين هذه وتلك ؛ ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك فى الكيد للإسلام ، والحقد عليه ، والحرب الدائبة التى لا تفتر على امتداد الزمان .

وهذا ما ينبغى أن يعيه الواعون اليوم وغدا ؛ فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة ؛ التى تنظر إلى أوائل مثل هذا النص القرآنى ــ دون متابعة لبقيته ؛ ودون متابعة لسياق السورة كله ،ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة ، ودون متابعة للواقع التاريخى الذى يصدق هذا كله ــ ثم تتخذ من ذلك وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التى تضمر لهم الحقد وتبيت لهم الكيد ؛الأمر الذى تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها ، وهى بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة .

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئا أكثر مما تخشى الوعى فى قلوب العصبة المؤمنة ــ مهما قل عددها وعدتها ــ فالذين ينيمون هذا الوعى هم أعدى أعداء هذه العقيدة . وقد يكون بعضهم من الفرائس المخدوعة ؛ ولكن ضررهم لا يقل ــ حينئذ ــ عن ضرر أعدى الأعداء ، بل إنه ليكون أشد أذى وضرا . .

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ؛ وهو لا يناقض بعضه بعضا ، فلنقرأه إذن على بصيرة . . .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ؛ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ،

Marfat.com

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ؛ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ؟ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ، ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ، لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ؛ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

Marfat.com

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ * قُلْ: لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ - وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ - فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ؛ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ * مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ؛ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا؛ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ؟!

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ؛ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا؛ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ؛ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ؛ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ؛ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا؛ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى؛ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ؛ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ - الْأَوْلَيَانِ - فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا؛ وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا،

Marfat.com

أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ؛ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ⑩٨

هذا القطاع بجملته يتناول قضية واحدة ـ على تعدد الموضوعات التي يتعرض لها ـ ويدور كله حول محور واحد . . إنه يتناول قضية التشريع فيجعلها هي قضية الألوهية . . الله هو الذي يحرم ويحلل . . والله هو الذي يحظر ويبيح . . والله هو الذي ينهى ويأمر . . ثم تتساوى المسائل كلها عند هذه القاعدة . كبيرها وصغيرها . فشئون الحياة الإنسانية بجملتها يجب أن ترد إلى هذه القاعدة دون سواها .

والذي يدعي حق التشريع أو يزاوله ، فإنما يدعي حق الألوهية أو يزاوله . . وليس هذا الحق لأحد إلا لله . . وإلا فهو الاعتداء على حق الله وسلطانه وألوهيته . . والله لا يحب المعتدين . . والذي يستمد في شيء من هذا كله من عرف الناس ومقولاتهم ومصطلحاتهم ، فإنما يعدل عما أنزل الله إلى الرسول . . ويخرج بهذا العدول عن الإيمان بالله ويخرج من هذا الدين .

وتبدأ كل فقرة من فقرات هذا القطاع بنداء واحد مكرر : « يا أيها الذين آمنوا » . . « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . . » . . « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . » . . « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب . . » . . « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . . » . . « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . . » . . « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم . . » . .

ولهذا النداء على هذا النحو مكانه ودلالته في سياق هذا القطاع الذي يعالج قضية التشريع فيجعلها هي قضية الألوهية وقضية الإيمان ، وقضية الدين . . إنه النداء بصفة الإيمان الذي معناه

Marfat.com

ومقتضاه الاعتراف بألوهية الله وحده ، والاعتراف له سبحانه بالحاكية . . فهو نداء التذكير والتقرير لأصل الإيمان وقاعدته ؛ بهذه المناسبة الحاضرة فى السياق . ومعه الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول ؛ والتحذير من التولى والإعراض ؛ والتهديد بعقاب الله الشديد ، والإطماع فى مغفرته ورحمته لمن أناب .

ثم . . بعد ذلك . . المفاصلة بين الذين آمنوا ومن يضل عن طريقهم ، ولا يتبع منهجهم هذا فى ترك قضية التشريع لله فى الصغيرة والكبيرة ؛ والتخلى عن الاعتداء على حق الله وسلطانه وألوهيته :

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون » . .

فهم أمة واحدة لها دينها ، ولها نهجها ، ولها شرعها ، ولها مصدر هذا الشرع الذى لا تستمد من غيره . ولا على هذه الأمة ــ حين تبين للناس منهجها هذا ثم تفاصلهم عليه ــ من ضلال الناس ، ومضيهم فى جاهليتهم . ومرجعهم بعد ذلك إلى الله .

هذا هو المحور العام الذى يقوم عليه هذا القطاع بجملته . أما الموضوعات الداخلة فى إطاره فقد أشرنا إليها فى التقديم لهذا الجزء إشارة مجملة . والآن نواجهها تفصيلا فى حدود هذا الإطار العام :

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم . ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . .

يا أيها الذين آمنوا . . إن مقتضى إيمانكم ألا تزاولوا أنتم ــ وأنتم بشر عبيد لله ــ

Marfat.com

خصائص الألوهية التي يتفرد بها الله . فليس لكم أن تحرموا ما أحل الله من الطيبات ؛ وليس لكم أن تمتنعوا - على وجه التحريم - عن الأكل مما رزقكم الله حلالا طيبا .. فالله هو الذي رزقكم بهذا الحلال الطيب . والذي يملك أن يقول : هذا حرام وهذا حلال :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين .وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ؛ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » ..

إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية . والحق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر ، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم . فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء .. وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم . فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه . والخارج على هذا المبدأ البديهي معتد لا شك في اعتدائه ! والذين آمنوا لا يعتدون بطبيعة الحال على الله الذي هم به مؤمنون . ولا يجتمع الاعتداء على الله والإيمان به في قلب واحد على الإطلاق !

هذه هي القضية التي تعرضها هاتان الآيتان في وضوح منطق لا يجادل فيه إلا معتد .. والله لا يحب المعتدين .. وهي قضية عامة تقرر مبدأ عاما يتعلق بحق الألوهية في رقاب العباد ؛ ويتعلق بمقتضى الإيمان بالله في سلوك المؤمنين في هذه القضية .. وتذكر بعض الروايات أن هاتين الآيتين والآية التي بعدهما - الخاصة بحكم الأيمان - قد نزلت في حادث خاص في حياة المسلمين على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب . وإن كان السبب يزيد المعنى وضوحا ودقة :

روى ابن جرير .. أنه - صلى الله عليه وسلم - جلس يوما فذكر الناس ، ثم قام ولم يزدهم على التخويف . فقال ناس من أصحابه : ما حقنا إن لم نحدث عملا ، فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ! فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والورك ، وأن يأكل بالنهار ؛ وحرم بعضهم النساء .. فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟ ألا إني أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم ، وأنكح النساء فمن رغب عن

Marfat.com

فليس منى » . فنزلت : « يا أيهـا الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحـل الله لـكم ولا تعتدوا ... الخ » .

وفى الصحيحين من رواية أنس ـ رضى الله عنه ـ شاهد بهذا الذى رواه ابن جرير :

قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألون عن عبادته . فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها . قالوا : أين نحن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم . أما أنا فأصلى الليل أبدا . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له . ولـكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وأخرج الترمذى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوتى ، فحرمت علىّ اللحم فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لـكم ... الآية » ..

فأما الآية الخاصة بالحلف والأيمان والتى جاءت تالية فى السياق :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانـكم ، ولـكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فـكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليـكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانـكم إذا حلفتم . واحفظوا أيمانـكم . كذلك يبين الله لـكم آياته لعلـكم تشكرون » ..

فالظاهر أنها نزلت لمواجهة هذه الحالة ـ وأمثالها ـ من الحلف على الامتناع عن المباح الذى آلى أولئك النفر على أنفسهم أن يمتنعوا عنه ، فردهم رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ عن الامتناع عنه ، وردهم القرآن الـكريم عن مزاولة التحريم والتحليل بأنفسهم ، فهذا ليس لهم إنما هو لله الذى آمنوا به . كما أنها تواجه كل حلف على الامتناع عن خير أو الإقدام على شر .

Marfat.com

فكل يمين يرى صاحبها أن هناك ما هو أبرّ ، فعليه أن يفعل ما هو أبرّ ، ويكفر عن يمينه بالكفارات المحددة في هذه الآية .

قال ابن عباس : سبب نزولها : القوم الذين حرموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم . حلفوا على ذلك . فلما نزلت « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » ، قالوا : كيف نصنع بأيماننا « فنزلت هذه الآية »

وقد تضمن الحكم أن الله - سبحانه - لا يؤاخذ المسلمين بأيمان اللغو ، التي ينطق بها اللسان دون أن يعقد لها القلب بالنية والقصد مع الحض على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللغو بها إذ أنه ينبغي أن تكون لليمين بالله حرمتها ووقارها ، فلا تنطق هكذا لغوا ..

فأما اليمين المعقودة ، التي وراءها قصد ونية ، فإن الحنث بها يقتضي كفارة تبينها هذه الآية « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » .

وطعام المساكين العشرة من « أوسط » الطعام الذي يقوم به الحالف لأهله.. و « أوسط » تحتمل أن تكون من « أحسن » أو من « متوسط » فكلاهما من معاني اللفظ . وإن كان الجمع بينهما لا يخرج عن القصد لأن « المتوسط » هو « الأحسن » فالوسط هو الأحسن في ميزان الإسلام .. أو « كسوتهم » الأقرب أن تكون كذلك من « أوسط » الكسوة .. أو « تحرير رقبة » لا ينص هنا على أنها مؤمنة .. ومن ثم يرد بشأنها خلاف فقهي ليس هذا مكانه .. « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » .. وهي الكفارة التي يعاد إليها في اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى .. وكون هذه الأيام الثلاثة متتابعة أو غير متتابعة فيه كذلك خلاف فقهي بسبب عدم النص هنا على تتابعها . والخلافات الفقهية في هذه الفرعيات ليست من منهجنا في هذه الظلال . فمن أرادها فليطلبها في مواضعها في كتب الفقه . إذ أنها كلها تتفق على الأصل الذي يعنينا وهو أن الكفارة رد لاعتبار العقد المنقوض ، وحفظ للأيمان من الاستهانة بها ؛ وهي « عقود » وقد أمر الله - سبحانه - بالوفاء بالعقود . فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبرّ فعل الأبر وكفر عن اليمين . وإذا عقدها على غير ما هو من حقه كالتحريم والتحليل ، نقضها وعليه التكفير .

Marfat.com

ونعود بعد ذلك إلى الموضوع الأصيل الذى نزلت الآيات بسببه .. فأما من ناحية « خصوص السبب » فإن الله يبين أن ما أحله الله فهو الطيب ، وما حرمه فهو الخبيث . وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما إختاره الله له . من وجهين : الوجه الأول أن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق بما يجرى فيه التحليل والتحريم من الرزق ، وإلا فهو الاعتداء الذى لا يحبه الله ، ولا يستقيم معه إيمان .. والوجه الثانى أن الله يحل الطيبات ، فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات ، التى بها صلاحه وصلاح الحياة ؛ فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ بصر الحكيم الخبير الذى أحل هذه الطيبات . ولو كان الله يعلم فيها شرا أو أذى لوقاه عباده . ولو كان يعلم فى الحرمان منها خيرا ما جعلها حلالا .. ولقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح ، والتوازن المطلق ، والتناسق الكامل ، بين طاقات الحياة البشرية جميعا ، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية ؛ ولا يكبت كذلك طاقة بناءة من طاقات الإنسان ، تعمل عملا سويا ، ولا تخرج عن الجادة . ومن ثم حارب الرهبانية ، لأنها كبت للفطرة ، وتعطيل للطاقة وتعويق عن إنماء الحياة التى أراد الله لها النماء ، كما نهى عن تحريم الطيبات كلها لأنها من عوامل بناء الحياة ونموها وتجددها .. لقد خلق الله هذه الحياة لتنمو وتتجدد ، وترتقى عن طريق النمو والتجدد المحكومين بمنهج الله . والرهبانية وتحريم الطيبات الأخرى تصطدم مع منهج الله للحياة . لأنها تقف بها عند نقطة معينة بحجة التسامى والارتفاع . والتسامى والارتفاع داخلان فى منهج الله للحياة ، وفق النهج الميسر المطابق للفطرة كما يعلمها الله .

وخصوص السبب ــ بعد هذا ــ لا يقيد عموم النص . وهذا العموم يتعلق بقضية الألوهية والتشريع ــ كما أسلفنا ــ وهى قضية لا تقتصر على الحلال والحرام فى المآكل والمشارب والمناكح . إنما هو أمر حق التشريع لأى شأن من شئون الحياة . .

ونحن نكرر هذا المعنى ونؤكده ؛ لأن طول عزلة الإسلام عن أن يحكم الحياة ــ كما هو شأنه وحقيقته ــ قد جعل معانى العبارة تتقلص ظلالها عن مدى الحقيقة التى تعنيها فى القرآن الكريم وفى هذا الدين . ولقد جعلت كلمة « الحلال » وكلمة « الحرام » يتقلص ظلهما فى حس الناس ، حتى عاد لا يتجاوز ذبيحة تذبح ، أو طعاما يؤكل ، أو شرابا يشرب ، أو لباسا يلبس ، أو نكاحا

Marfat.com

يعقد ... فهذه هي الشئون التي عاد الناس يستفتون فيها الإسلام ليروا : حلال هي أم حرام ! فأما الأمور العامة والشئون الكبيرة فهم يستفتون في شأنها النظريات والدساتير والقوانين التي استبدلت بشريعة الله ! فالنظام الاجتماعي بجملته ، والنظام السياسي بجملته ، والنظام الدولي بجملته ؛ وكافة اختصاصات الله في الأرض وفي حياة الناس ، لم تعد مما يستفتى فيه الإسلام !

والإسلام منهج للحياة كلها . من اتبعه كله فهو مؤمن وفي دين الله . ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله ، وخرج من دين الله . مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم . فاتباعه شريعة غير شريعة الله ، يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله .

وهذه هي القضية الكلية التي تعنيها هذه النصوص القرآنية ، وتجعلها قضية الإيمان بالله ، أو الاعتداء على الله .. وهذا هو مدى النصوص القرآنية . وهو المدى اللائق بجدية هذا الدين وجدية هذا القرآن ، وجدية معنى الألوهية ومعنى الإيمان ..

* * *

وفي سياق قضية التشريع بالتحريم والتحليل ، وفي خط التربية للأمة المسلمة في المدينة ، وتخليصها من جو الجاهلية ورواسبها وتقاليدها الشخصية والاجتماعية ، يجيء النص القاطع الأخير في تحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام . أي إلى الشرك بالله :

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين . ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » ..

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي . وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في مزاولتها ، وفي كونها من

Marfat.com

سمات ذلك المجتمع وتقاليده .. فلقد كانوا يشربون الخمر فى إسراف ، ويجعلونها من المفاخر التى يتسابقون فى مجالسها ويتكاثرون ؛ ويديرون عليها فخرهم فى الشعر ومدحهم كذلك ! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء منها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس ومن يلوذون بها ويلتفون حولها ! وكانت هذه الذبائح تنحر على الأنصاب وهى أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها (كما كانت تذبح عليها الذبائح التى تقدم للآلهة أى لكهنتها !) .. وفى ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التى تشبهها كان يجرى الميسر عن طريق الأزلام . وهى قداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه . فالذى قدحه (المعلى) يأخذ النصيب الأوفر ، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه . وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرها كلها !

وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ؛ ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

ولم يبدأ المنهج الإسلامى فى معالجة هذه التقاليد فى أول الأمر ، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة ؛ فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع . حاشا للمنهج الربانى أن يفعله ! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى . عقدة العقيدة . بدأ باجتثاث التصور الجاهلى الاعتقادى جملة من جذوره ؛ وإقامة التصور الإسلامى الصحيح . إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة .. بين للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق . وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق وما يكرهه . وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا ! أو يطيعوا أمرا ولا نهيا ؛ وما كانوا ليقلعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهى وبذلت لهم النصيحة .. إن عقدة الفطرة البشرية هى عقدة العقيدة ؛ وما لم تنعقد هذه العقدة أولا فلن يثبت فيها شىء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعى .. إن مفتاح الفطرة البشرية ها هنا . وما لم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة ودروبها ملتوية ، وكلما كشف منها زقاق انبهمت أزقة ؛ وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب ، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد ، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك .. إلى مالانهاية..

Marfat.com

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامى فى علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها ، من هذه الرذائل والانحرافات .. إنما بدأ من العقيدة .. بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله .. وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه فى الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاما ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية ! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه .. حتى إذا خلصت نفوسهم لله ؛ وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله .. عندئذ بدأت التكاليف ـ بما فيها الشعائر التعبدية ـ وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية .. بدأت فى الوقت الذى يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال . لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أيا كان !

أو بتعبير آخر : لقد بدأت الأوامر والنواهى بعد « الإسلام » .. بعد الاستسلام .. بعد أن لم يعد للمسلم فى نفسه شىء .. بعد أن لم يعد يفكر فى أن يكون له إلى جانب أمر الله رأى. أو اختيار .. أو كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » تحت عنوان : « انحلت العقدة الكبرى » :

« ... انحلت العقدة الكبرى .. عقدة الشرك والكفر .. فانحلت العقد كلها ؛ وجاهدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهى ؛ وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى ، فكان النصر حليفه فى كل معركة . وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ؛ ولا يجدون فى أنفسهم حرجا مما قضى ؛ ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ؛ وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد .. نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ؛ فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ؛ وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة (١) »

ومع هذا فلم يكن تحريم الخمر وما يتصل بها من الميسر أمرا مفاجئا .. فلقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل وخطوات فى علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة ، المتلبسة بعادات

---

(١) ص ٨٧ ـ ٨٨ من الطبعة الرابعة

Marfat.com

النفوس ومألوفاتها ، وللتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملابساتها .

لقد كانت هذه هي المرحلة الثالثة أو الرابعة في علاج مشكلة الخمر في المنهج الإسلامي :

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ... » فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع السكر (وهو الخمر) في مقابل الرزق الحسن .. فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » .. وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع . إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع ؛ ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع .

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب ، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. » والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب ؛ ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة . وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب - وخاصة عادة الصبوح في الصباح والغبوق بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين - وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي . وفيه - وهو أمر له وزنه في نفس المسلم - ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها !

ثم كانت هذه الرابعة الحاسمة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤا كاملا فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان :

عن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شفاء (١) .

(١) لعل آية النحل هي التي أثارت قلق عمر - رضي الله عنه - ورغبته في بيان شفاء . وقد كان عمر - كما حكى عن نفسه - رجل خمر في الجاهلية . مما يدل على تغلغل هذه العادة في المجتمع الجاهلي ..

Marfat.com

فنزلت التى فى البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . فدعى عمر - رضى الله عنه - فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء ؛ فنزلت التى فى النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى .. » الآية .. فدعى عمر - رضى الله عنه - فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء . فنزلت التى فى المائدة : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة البغضاء فى الخمر والميسر ؛ ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : « انتهينا . انتهينا » .. (أخرجه أصحاب السنن)

ولما نزلت آيات التحريم هذه ، فى سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد فى نوادى المدينة : « ألا أيها القوم . إن الخمر قد حرمت » .. فمن كان فى يده كأس حطمها ومن كان فى فمه جرعة مجها ، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه .. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر !

والآن ننظر فى صياغة النص القرآنى ؛ والمنهج الذى يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه :

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين »

إنه يبدأ بالنداء المألوف فى هذا القطاع :

« يا أيها الذين آمنوا » ..

لاستجاشة قلوب المؤمنين من جهة ؛ ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى ..

يلى هذا النداء الموحى تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر :

« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » ..

فهى دنسة لا ينطبق عليها وصف « الطيبات » التى أحلها الله . وهى من عمل الشيطان .

Marfat.com

والشيطان عدو الإنسان القديم ؛ ويكفي أن يعلم المؤمن أن شيئا ما من عمل الشيطان لينفر منه حسه ، وتشمئز منه نفسه ، ويجفل منه كيانه ، ويبعد عنه من خوف ويتقيه !

وفي هذه اللحظة يصدر النهي مصحوبا كذلك بالإطماع في الفلاح - وهي لمسة أخرى من لمسات الإيحاء النفسي العميق :

« فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ..

ثم يستمر السياق في كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس :

« إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ... » ..

بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان ، وغاية كيده ، وثمرة رجسه .. إنها إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم - في الخمر والميسر - كما أنها هي صد « الذين آمنوا » عن ذكر الله وعن الصلاة . . ويالها إذن من مكيدة !

وهذه الأهداف التي يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته . فما يحتاج الإنسان إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء - في الخمر والميسر - بين الناس . فالخمر بما تفقد من الوعي وبما تثير من عرامة اللحم والدم ، وبما تهيج من نزوات ودفعات . والميسر الذي يصاحبها وتصاحبه بما يتركه في النفوس من خسارات وأحقاد ؛ إذ المقمور لا بد أن يحقد على قامره الذي يستولي على ماله أمام عينيه ، ويذهب به غانما وصاحبه مقمور مقهور .. إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء ، مهما جمعت بين القرناء في مجالات من العربدة والانطلاق اللذين يخيل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة !

وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلا يحتاجان إلى نظر .. فالخمر تنسي ، والميسر يلهي ، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين ؛ وعالم المقامر كعالم السكير لا يتعدى الموائد والأقداح والقداح !

وهكذا عند ما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها من

Marfat.com

إيقاظ قلوب « الذين آمنوا » وتحفزها ، يجيء السؤال الذى لا جواب له عندئذ إلا جواب عمر رضى الله عنه وهو يسمع :

« فهل أنتم منتهون » ؟

فيجيب لتوه : « انتهينا . انتهينا » . .

ولكن السياق يمضى بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير :

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » . .

إنها القاعدة التى يرجع إليها الأمر كله : طاعة الله وطاعة الرسول .. الإسلام .. الذى لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله وللرسول .. والحذر من المخالفة ، والتهديد الملفوف :

« فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » . .

وقد بلغ وبين ، فتحددت التبعة على المخالفين ، بعد البلاغ المبين .

إنه التهديد القاصم ، فى هذا الأسلوب الملفوف ، الذى ترتعد له فرائص المؤمنين ! .. إنهم حين يعصون ولا يطيعون لا يضرون أحدا إلا أنفسهم . لقد بلغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأدى ؛ ولقد نفض يديه من أمرهم إذن فما هو بمسؤول عنهم ، وما هو بدافع عنهم عذابا ـ وقد عصوه ولم يطيعوه ـ ولقد صار أمرهم كله إلى الله سبحانه . وهو القادر على مجازاة العصاة المتولين !

إنه المنهج الربانى يطرق القلوب ، فتنفتح له مغاليقها ، وتتكشف له فيها المسالك والدروب . .

ولعله يحسن هنا أن نبين ما هى الخمر التى نزل فيها هذا النهى :

أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « كل مخمر خمر . وكل مسكر حرام » . .

وخطب عمر ـ رضى الله عنه ـ على منبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمحضر جماعة

Marfat.com

من الصحابة فقال : « يا أيها الناس قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل » .. (ذكره القرطبي فى تفسيره)

فدل هذا وذلك على أن الخمر تشمل كل مخمر يحدث السكر .. وأنه ليس مقصورا على نوع بعينه . وأن كل ما أسكر فهو حرام .

إن غيبوبة السكر ـ بأى مسكر ـ تنافى اليقظة الدائمة التى يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولا بالله فى كل لحظة ، مراقبا لله فى كل خطرة . ثم ليكون بهذه اليقظة عاملا إيجابيا فى نماء الحياة وتجددها ، وفى صيانتها من الضعف والفساد ، وفى حماية نفسه وماله وعرضه ، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها ونظامها من كل اعتداء . والفرد المسلم ليس متروكا لذاته وللذاته ؛ فعليه فى كل لحظة تكاليف تستوجب اليقظة الدائمة . تكاليف لربه ، وتكاليف لنفسه ، وتكاليف لأهله ، وتكاليف للجماعة المسلمة التى يعيش فيها ، وتكاليف للإنسانية كلها ليدعوها ويهديها . وهو مطالب باليقظة الدائمة لينهض بهذه التكاليف . وحتى حين يستمتع بالطيبات فإن الإسلام يحتم عليه أن يكون يقظا لهذا المتاع ، فلا يصبح عبدا لشهوة أو لذة . إنما يسيطر دائما على رغباته فيلبيها تلبية المالك لأمره . . وغيبوبة السكر لا تتفق فى شىء مع هذا الاتجاه .

ثم إن هذه الغيبوبة فى حقيقتها إن هى إلا هروب من واقع الحياة فى فترة من الفترات ؛ وجنوح إلى التصورات التى تثيرها النشوة أو الخمار . والإسلام ينكر على الإنسان هذا الطريق ويريد من الناس أن يروا الحقائق ، وأن يواجهوها ، ويعيشوا فيها ، ويصرفوا حياتهم وفقها ، ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام .. إن مواجهة الحقائق هى محك العزيمة والإرادة ؛ أما الهروب منها إلى تصورات وأوهام فهو طريق التحلل ، ووهن العزيمة ، وتذاوب الإرادة . والإسلام يجعل فى حسابه دائما تربية الإرادة ، وإطلاقها من قيود العادة القاهرة .. الإدمان .. وهذا الاعتبار كاف وحده من وجهة النظر الإسلامية لتحريم الخمر وتحريم سائر المخدرات .. وهى رجس من عمل الشيطان .. مفسد لحياة الإنسان .

وقد اختلف الفقهاء فى اعتبار ذات الخمر نجسة كبقية النجاسات الحسية . أو فى اعتبار

Marfat.com

شربها هو المحرم . والأول قول الجمهور والثانى قول ربيعة والليث بن سعد والمزنى صاحب الشافعى وبعض المتأخرين من البغداديين .. وحسبنا هذا القدر فى سياق الظلال .

وقد حدث أنه لما نزلت هذه الآيات ، وذكر فيها تحريم الخمر ، ووصفت بأنها رجس من عمل الشيطان أن انطلقت فى المجتمع المسلم صيحتان متحدتان فى الصيغة ، مختلفتان فى الباعث والهدف .

قال بعض المتحرجين من الصحابة : كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر .. أو قالوا : فما بال قوم قتلوا فى أحد وهى فى بطونهم (أى قبل تحريمها) .

وقال بعض المشككين الذين يهدفون إلى البلبلة والحيرة .. هذا القول أو ما يشبهه ؛ يريدون أن ينشروا فى النفوس قلة الثقة فى أسباب التشريع ، أو الشعور بضياع إيمان من ماتوا والخمر لم تحرم ؛ وهى رجس من عمل الشيطان ، ماتوا والرجس فى بطونهم !

عندئذ نزلت هذه الآية :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » ..

نزلت لتقرر أولا أن ما لم يحرَّم لا يحرم ؛ وأن التحريم يبدأ من النص لا قبله ؛ وأنه لا يحرم بأثر رجعى ؛ فلا عقوبة إلا بنص ؛ سواء فى الدنيا أو فى الآخرة ؛ لأن النص هو الذى ينشئ الحكم .. والذين ماتوا والخمر فى بطونهم ، وهى لم تحرم بعد ، ليس عليهم جناح ؛ فإنهم لم يتناولوا محرما ؛ ولم يرتكبوا معصية .. لقد كانوا يخافون الله ويعملون الصالحات ويراقبون الله ويعلمون أنه مطلع على نواياهم وأعمالهم .. ومن كانت هذه حاله لا يتناول محرما ولا يرتكب معصية .

ولا نريد أن ندخل بهذه المناسبة فى الجدل الذى أثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس : هل هو ناشئ عن أمر الشارع ــ سبحانه ــ بتحريمها ، أم إنه ناشئ عن صفة ملازمة للخمر فى ذاتها . وهل المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها ، أم إن هذه الصفة تلزمها من

Marfat.com

التحريم ... فهو جدل عقيم فى نظرنا وغريب على الحس الإسلامى ! .. والله حين يحرم شيئا يعلم ـ سبحانه ـ لم حرمه . سواء ذكر سبب التحريم أو لم يذكر . وسواء كان التحريم لصفة ثابتة فى المحرم ، أو لعلة تتعلق بمن يتناوله من ناحية ذاته ، أو من ناحية مصلحة الجماعة .. فالله سبحانه هو الذى يعلم الأمر كله ؛ والطاعة لأمره واجبة ، والجدل بعد ذلك لا يمثل حاجة واقعية . والواقعية هى طابع هذا المنهج الربانى .. ولا يقولن أحد : إذا كان التحريم لصفة ثابتة فى المحرم فكيف أبيح إذن قبل تحريمه !! فلا بد أن لله ـ سبحانه ـ حكمة فى تركه فترة بلا تحريم . ومرد الأمر كله إلى الله . وهذا مقتضى ألوهيته ـ سبحانه ـ واستحسان الإنسان أو استقباحه ليس هو الحكم فى الأمر ؛ وما يراه علة قد لا يكون هو العلة . والأدب مع الله يقتضى تلقى أحكامه بالقبول والتنفيذ ، سواء عرفت حكمتها أو علتها أم ظلت خافية .. والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

إن العمل بشريعة الله يجب أن يقوم ابتداء على العبودية .. على الطاعة لله إظهارا للعبودية له سبحانه .. فهذا هو الإسلام ـ بمعنى الاستسلام .. وبعد الطاعة يجوز للعقل البشرى أن يتلمس حكمة الله ـ بقدر ما يستطيع ـ فيما أمر الله به أو نهى عنه ـ سواء بين الله حكمته أم لم يبينها ، وسواء أدركها العقل البشرى أم لم يدركها ـ فالحكم فى استحسان شريعة الله فى أمر من الأمور ليس هو الإنسان ! إنما الحكم هو الله . فإذا أمر الله أو نهى فقد انتهى الجدل ولزم الأمر أو النهى .. فأما إذا ترك الحكم للعقل البشرى فمعنى ذلك أن الناس هم المرجع الأخير فى شرع الله .. فأين مكان الألوهية إذن وأين مكان العبودية ؟

ونخلص من هذا إلى تركيب الآية ودلالة هذا التركيب :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات . ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » ..

ولم أجد فى أقوال المفسرين ما تستريح إليه النفس فى صياغة العبارة القرآنية على هذا النحو وتكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح ، ومرة مع الإيمان ، ومرة مع الإحسان .. كذلك لم أجد فى تفسيرى لهذا التكرار فى الطبعة الأولى من هذه الظلال ما تستريح إليه نفسى

Marfat.com

الآن .. وأحسن ما قرأت ـ وإن كان لا يبلغ من حسى مبلغ الارتياح ـ هو ما قاله ابن جرير الطبرى : « الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل . والاتقاء الثانى الاتقاء بالثبات على التصديق والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل » ..

وكان الذى ذكرته فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع هو : « إنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال . فقد أجمل التقوى والإيمان والعمل الصالح فى الأولى . ثم جعل التقوى مرة مع الإيمان فى الثانية ، ومرة مع الإحسان ـ وهو العمل الصالح ـ فى الثالثة .. ذلك التوكيد مقصود هنا للاتكاء على هذا المعنى . ولإبراز ذلك القانون الثابت فى تقدير الأعمال بما يصاحبها من شعور باطنى . فالتقوى .. تلك الحساسية المرهفة برقابة الله ، والاتصال به فى كل لحظة . والإيمان بالله والتصديق بأوامره ونواهيه . والعمل الصالح الذى هو الترجمة الظاهرة للعقيدة المستكنة . والترابط بين العقيدة الباطنة والعمل المعبر عنها .. هذه هى مناط الحكم ، لا الظواهر والأشكال .. وهذه القاعدة تحتاج إلى التوكيد والتكرار والبيان » .

وأنا اللحظة لا أجد فى هذا القول ما يريح أيضا .. ولكنه لم يفتح على بشىء آخر .. والله المستعان .

* * *

ثم يمضى السياق فى مجال التحريم والتحليل ، يتحدث عن الصيد فى حالة الإحرام ، وكفارة قتله ، وعن حكمة الله فى تحريم البيت والأشهر الحرم والهدى والقلائد ، التى نهى عن المساس بها فى مطالع السورة .. ثم يختم هذه الفقرة بوضع ميزان القيم للنفس المسلمة وللمجتمع المسلم .. الميزان الذى يرجح فيه الطيب وإن قل ، على الكثير الخبيث :

« يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ؛ ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم ؛ هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ؛ والله عزيز ذو انتقام . أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا

Marfat.com

لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون . جعل الله الكعبة البيت الحرام ، قياما للناس ، والشهر الحرام والهدى والقلائد . ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأن الله بكل شىء عليم . اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم . ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون . قل : لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » ..

لقد قال تعالى للذين آمنوا فى أول هذه السورة :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد . يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وإذا حللتم فاصطادوا . . »

وكان هذا النهى عن إحلال الصيد وهم حرم ؛ وعن إحلال شعائر الله ، أو الشهر الحرام أو الهدى والقلائد ، أو قاصدى البيت الحرام ، لا يرتب عقوبة فى الدنيا على المخالف ؛ إنما يلحقه الإثم .. فالآن يبين العقوبة وهى الكفارة « ليذوق وبال أمره » ويعلن العفو عما سلف من إحلال هذه المحارم ؛ ويهدد بانتقام الله ممن يعود بعد هذا البيان .

وتبدأ هذه الفقرة كما تبدأ كل فقرات هذا القطاع بالنداء المألوف : « يا أيها الذين آمنوا .. » ثم يخبرهم أنهم مقدمون على امتحان من الله وابتلاء ؛ فى أمر الصيد الذى نهوا عنه وهم محرمون :

« يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » ..

إنه صيد سهل ، يسوقه الله إليهم . صيد تناله أيديهم من قريب ، وتناله رماحهم بلا مشقة . ولقد حكى أن الله ساق لهم هذا الصيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب ! .. إنه الإغراء الذى يكون فيه الابتلاء .. إنه ذات الإغراء الذى عجزت بنو إسرائيل من قبل عن الصمود له ، حين ألحوا على نبيهم موسى - عليه السلام - أن يجعل الله لهم يوما للراحة والصلاة لا يشتغلون فيه بشىء من شئون المعاش . فجعل لهم السبت . ثم ساق إليهم صيد البحر يجيئهم

Marfat.com

قاصدا الشاطىء متعرضا لأنظارهم فى يوم السبت . فإذا لم يكن السبت اختفى ، شأن السمك فى الماء . فلم يطيقوا الوفاء بعهودهم مع الله ؛ وراحوا ـ فى جبلة اليهود المروفة ـ يحتالون على الله فيحوطون على السمك يوم السبت ولا يصيدونه ؛ حتى إذا كان الصباح التالى عادوا فأمسكوه من التحويطة ! وذلك الذى وجه الله ـ سبحانه ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن يواجههم ويفضحهم به فى قوله تعالى : « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » ..

هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة المسلمة ، فنجحت حيث أخفقت يهود .. وكان هذا مصداق قول الله سبحانه فى هذه الأمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم . منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » ..

ولقد نجحت هذه الأمة فى مواطن كثيرة حيث أخفق بنو إسرائيل . ومن ثم نزع الله الخلافة فى الأرض من بنى إسرائيل وائتمن عليها هذه الأمة . ومكن لها فى الأرض ما لم يمكن لأمة قبلها . إذ أن منهج الله لم يتمثل تمثلا كاملا فى نظام واقعى يحكم الحياة كلها كما تمثل فى خلافة الأمة المسلمة .. ذلك يوم أن كانت مسلمة يوم أن كانت تعلم أن الإسلام هو أن يتمثل دين الله وشريعته فى حياة البشر . وتعلم أنها هى المؤتمنة على هذه الأمانة الضخمة ؛ وأنها هى الوصية على البشرية لتقيم فيها منهج الله ، وتقوم عليه بأمانة الله .

ولقد كان هذا الاختبار بالصيد السهل فى أثناء فترة الإحرام أحد الاختبارات التى اجتازتها هذه الأمة بنجاح . وكانت عناية الله ـ سبحانه ـ بتربية هذه الأمة بمثل هذه الاختبارات من مظاهر رعايته واصطفائه .

ولقد كشف الله للذين آمنوا فى هذا الحادث عن حكمة الابتلاء :

« ليعلم الله من يخافه بالغيب » ..

إن مخافة الله بالغيب هى قاعدة هذه العقيدة فى ضمير المسلم . القاعدة الصلبة التى يقوم عليها بناء العقيدة ، وبناء السلوك ، وتناط بها أمانة الخلافة فى الأرض بمنهج الله القويم ..

Marfat.com

إن الناس لا يرون الله ؛ ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون .. إنه تعالى بالنسبة لهم غيب، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه . . إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة ـ حقيقة الإيمان بالله بالغيب ومخافته ـ والاستغناء عن رؤية الحس والمشاهدة ؛ والشعور بهذا الغيب شعورا يوازى ـ بل يرجح ـ الشهادة ؛ حتى ليؤدى المؤمن شهادة : بأن لا إله إلا الله . وهو لم ير الله .. إن استقرار هذه الحقيقة على هذا النحو يعبر عن نقلة ضخمة فى ارتقاء الكائن البشرى ، وانطلاق طاقاته الفطرية ، واستخدام أجهزته المركوزة فى تكوينه الفطرى على الوجه الأكمل ؛ وابتعاده ـ بمقدار هذا الارتقاء ـ عن عالم البهيمة التى لا تعرف الغيب ـ بالمستوى الذى تهيأ له الإنسان ـ بينما يعبر انغلاق روحه عن رؤية ما وراء الحس ، وانكماش إحساسه فى دائرة المحسوس ، عن تعطل أجهزة الالتقاط والاتصال الراقية فيه ؛ وانتكاسه إلى المستوى الحيوانى فى الحس « المادى » !

ومن ثم يجعلها الله سبحانه حكمة لهذا الابتلاء ؛ ويكشف للذين آمنوا عن هذه الحكمة كى تحتشد نفوسهم لتحقيقها ..

والله سبحانه يعلم علما لدنيا من يخافه بالغيب . ولكنه ـ سبحانه ـ لا يحاسب الناس على ما يعلمه عنهم علما لدنيا . إنما يحاسبهم على ما يقع منهم فيعلمه الله ـ سبحانه ـ علم وقوع ..

« فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » ..

فقد أخبر بالابتلاء ، وعرف حكمة تعرضه له ، وحذر من الوقوع فيه ؛ وبذلت له كل أسباب النجاح فيه .. فإذا هو اعتدى ـ بعد ذلك ـ كان العذاب الأليم جزاء حقا وعدلا ؛ وقد اختار بنفسه هذا الجزاء واستحقه فعلا .

بعد هذا يجىء تفصيل كفارة المخالفة مبدوءا بالنهى مختوما بالتهديد مرة أخرى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم . ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره . عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » ..

Marfat.com

إن النهى ينصب على قتل المحرم للصيد عمدا . فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة .. فإذا كان القتل عمدا فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذى قتله . فالغزالة مثلا تجزىء فيها نعجة أو عنزة . والإبل تجزىء فيه بقرة . والنعامة والزرافة وما إليها تجزىء فيها بدنة .. والأرنب والقط وأمثالها يجزىء فيه أرنب . وما لا مقابل له من البهيمة يجزىء عنه ما يوازى قيمته . .

ويتولى الحكم فى هذه الكفارة اثنان من المسلمين ذوا عدل . فإذا حكما بذبح بهيمة أطلقت هديا حتى تبلغ الكعبة ، تذبح هناك وتطعم للمساكين . أما إذا لم توجد بهيمة فللحكمين أن يحكما بكفارة طعام مساكين ؛ بما يساوى ثمن البهيمة أو ثمن الصيد (خلاف فقهى) . فإذا لم يجد صاحب الكفارة صام ما يعادل هذه الكفارة ؛ مقدرا ثمن الصيد أو البهيمة ، وعجزا على عدد المساكين الذين يطعمهم هذا الثمن ؛ وصيام يوم مقابل إطعام كل مسكين . . أما كم يبلغ ثمن إطعام مسكين فهو موضع خلاف فقهى . ولكنه يتبع الأمكنة والأزمنة والأحوال .

وينص السياق القرآنى على حكمة هذه الكفارة :

« ليذوق وبال أمره » . .

ففى الكفارة معنى العقوبة ، لأن الذنب هنا مخل بحرمة يشدد فيها الإسلام تشديدا كبيرا : لذلك يعقب عليها بالعفو عما سلف والتهديد بانتقام الله ممن لا يكف :

« عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » .

فإذا اعتز قاتل الصيد بقوته وقدرته على نيل هذا الصيد ، الذى أراد الله له الأمان فى مثابة الأمان ، فالله هو العزيز القوى القادر على الانتقام !

ذلك شأن صيد البر . فأما صيد البحر فهو حلال فى الحل والإحرام :

« أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة » . .

فحيوان البحر حلال صيده وحلال أكله للمحرم ولغير المحرم سواء . . ولما ذكر حل صيد البحر وطعامه ، عاد فذكر حرمة صيد البر للمحرم :

Marfat.com

« وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما » . .

والذى عليه الإجماع هو حرمة صيد البر للمحرم . ولكن هناك خلاف حول تناول المحرم له إذا صاده غير المحرم . كما أن هناك خلافا حول المعنى بالصيد . وهل هو خاص بالحيوان الذى يصاد عادة . أم النهى شامل لكل حيوان ، ولو لم يكن مما يصاد وبما لا يطلق عليه لفظ الصيد .

ويختم هذا التحليل وهذا التحريم باستجاشة مشاعر التقوى فى الضمير ؛ والتذكير بالحشر إلى الله والحساب :

« واتقوا الله الذى إليه تحشرون » . .

وبعد . ففيم هذه الحرمات ؟

إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر فى زحمة الصراع . . إنها الكعبة الحرام ، والأشهر الحرام ، تقدم فى وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس . . بين الرغائب والمطامع والشهوات والضرورات . . فتحل الطمأنينة محل الخوف ، ويحل السلام محل الخصام ، وترف أجنحة من الحب والإخاء والأمن والسلام . وتدرب النفس البشرية فى واقعها العملى ــ لا فى عالم المثل والنظريات ــ على هذه المشاعر وهذه المعانى ؛ فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حالمة ، تعز على التحقيق فى واقع الحياة :

« جعل الله الكعبة البيت الحرام ، قياما للناس ، والشهر الحرام ، والهدى والقلائد . ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم . اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم ، ما على الرسول إلا البلاغ ؛ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . .

لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن فى البيت الحرام . وفى فترة الإحرام بالنسبة للمحرم حتى وهو لم يبلغ الحرم . كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التى لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب . . ولقد ألقى

Marfat.com

الله فى قلوب العرب - حتى فى جاهليتهم - حرمة هذه الأشهر . فكانوا لا يروعون فيها نفسا ، ولا يطلبون فيها دما ، ولا يتوقعون فيها ثأرا ، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالا آمنا للسياحة والضرب فى الأرض وابتغاء الرزق .. جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة - بيت الله الحرام - أن تكون مثابة أمن وسلام . تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع . كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن فى الزمان كالكعبة منطقة أمن فى المكان . ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان ، فجعله حقا للهدى - وهو النعم - الذى يطلق ليبلغ الكعبة فى الحج والعمرة ؛ فلا يمسه أحد فى الطريق بسوء . كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم ، معلنا احتماءه بالبيت العتيق .

لقد جعل الله هذه الحرمات منذ بناء هذا البيت على أيدى إبراهيم وإسماعيل ؛ وجعله مثابة للناس وأمنا ، حتى لقد امتن الله به على المشركين أنفسهم ؛ إذ كان بيت الله بينهم مثابة لهم وأمناء والناس من حولهم يُتخطفون ، وهم فيه وبه آمنون ، ثم هم - بعد ذلك - لا يشكرون الله ؛ ولا يفردونه بالعبادة فى بيت التوحيد ؛ ويقولون للرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ يدعوهم إلى التوحيد : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . فحكى الله قولهم هذا وجبههم بحقيقة الأمن والمخافة : « وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وفى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرام ، لا يعضد شجره ، ولا يُختلى خلاه[1] ، ولا ينفر صيده ، ولا تلتقط لقطته إلا لمعرّف » .

ولم يستثن من الأحياء مما يجوز قتله فى الحرم وللمحرم إلا الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور لحديث عائشة رضى الله عنها فى الصحيحين : « أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقتل خمس فواسق فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » ..

---

(١) يعضد شجره : يقطع . والخلا : الرطب من النبات . ويختلى أى يحش .

Marfat.com

وفى صحيح مسلم من حديث ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ زيادة الحية .

كذلك حرمت المدينة لحديث على ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة حرم مابين عير إلى ثور » .. وفى الصحيحين من حديث عباد ابن تميم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها ، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة » .

وبعد ، فإنها ليست منطقة الأمان فى الزمان والمكان وحدهما . وليس رواق الأمن الذى يشمل الحيوان والإنسان وحدهما . . إنما هى كذلك منطقة الأمان فى الضمير البشرى .. ذلك المصطرع المترامى الأطراف فى أغوار النفس البشرية .. هذا المصطرع الذى يثور ويفور فيطغى بشواظه وبدخانه على المكان والزمان ، وعلى الإنسان والحيوان ! . . إنهـا منطقة السلام والسماحة فى ذلك المصطرع ، حتى ليتحرج المحرم أن يمد يده إلى الطير والحيوان . وهما ـ فى غير هذه المنطقة ـ حل للإنسان . ولـكنهما هنا فى المثابة الآمنة . فى الفترة الآمنة . فى النفس الآمنة .. إنها منطقة المرانة والتدريب للنفس البشرية لتصفو وترق وترف فتتصل بالملأ الأعلى ؛ وتتهيأ للتعامل مع الملأ الأعلى ..

ألا ما أحوج البشرية للفزعة الوجلة ، المتطاحنة المتصارعة .. إلى منطقة الأمان ، التى جعلها الله للناس فى هذا الدين ، وبينها للناس فى هذا القرآن !

« ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وأن الله بكل شىء عليم » ..

تعقيب عجيب فى هذا الموضع ؛ ولـكنه مفهوم ! إن الله يشرع هذه الشريعة ، ويقيم هـذه المثابة ، ليعلم الناس أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم .. ليعلموا أنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم وهتاف أرواحهم . وأنه يقرر شرائعه لتلبية الطبائع والحاجات ، والاستجابة للأشواق والمكنونات .. فإذا أحست قلوب الناس رحمة الله فى شريعته ؛ وتذوقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم العميقة علموا أن الله يعلم ما فى السماوات والأرض وأن الله بكل شىء عليم .

إن هذا الدين عجيب فى توافيه الكامل مع ضرورات الفطرة البشرية وأشواقها جميعا ؛ وفى

Marfat.com

تلبيته لحاجات الحياة البشرية جميعا .. إن تصميمه يطابق تصميمها ؛ وتكوينه يطابق تكوينها. وحين ينشرح صدر لهذا الدين فإنه يجد فيه من الجمال والتجاوب والأنس والراحة مالا يعرفه إلا من ذاق !

وينتهى الحديث عن الحلال والحرام فى الحل والإحرام بالتحذير صراحة من العقاب مع الإطماع فى المغفرة والرحمة :

« اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم »

ومع التحذير إيحاء وإلقاء التبعة على المخالف الذى لا يثوب :

« ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ماتبدون وما تكتمون » ..

ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم ، ليزن به المسلم ويحكم . ميزان يرجح فيه الطيب ويشيل الخبيث . كى لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته فى أى وقت وفى أى حال !

« قل : لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » ..

إن المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب فى هذا السياق ، هى مناسبة تفصيل الحرام والحلال فى الصيد والطعام . والحرام خبيث ، والحلال طيب .. ولا يستوى الخبيث والطيب ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب . ففى الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف ، وبلا عقابيل من ألم أو مرض . وما فى الخبيث من لذة إلا وفى الطيب مثلها على اعتدال وأمن من العاقبة فى الدنيا والآخرة .. والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقابة القلب له ، يختار الطيب على الخبيث ؛ فينتهى الأمر إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة :

« فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون » ..

هذه هى المناسبة الحاضرة .. ولكن النص ــ بعد ذلك ــ أفسح مدى وأبعد أفقا . وهو يشمل الحياة جميعا ، ويصدق فى مواضع شتى :

لقد كان الله الذى أخرج هذه الأمة ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، يعدها لأمر عظيم هائل .. كان يعدها لحمل أمانة منهجه فى الأرض ، لتستقيم عليه كما لم تستقم أمة قط ، ولتقيمه

Marfat.com

فى حياة الناس كما لم يقم كذلك قط . ولم يكن بد أن تراض هذه الأمة رياضة طويلة . رياضة تخلصها أولا من جاهليتها ؛ وترفعها من سفح الجاهلية الهابطة وتمضى بها صعدا فى المرتقى الصاعد إلى قمة الإسلام الشامخة ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية ؛ وتربية إرادتها على حمل الحق وتبعاته . ثم تنتهى بها إلى تقييم الحياة جملة وتفصيلا وفق قيم الإسلام فى ميزان الله .. حتى تكون ربانية حقا .. وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم .. وعندئذ لا يستوى فى ميزانها الخبيث والطيب ؛ ولو أعجبها كثرة الخبيث ! والكثرة تأخذ العين وتهول الحس . ولكن تميز الخبيث من الطيب ، وارتفاع النفس حتى تزنه بميزان الله ، يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته ، وكفة الطيب ترجح على قلته .. وعندئذ تصبح هذه الأمة أمينة ومؤتمنة على القوامة .. القوامة على البشرية .. تزن لها بميزان الله ؛ وتقدر لها بقدر الله ؛ وتختار لها الطيب ، ولا تأخذ عينها ولا تهسها كثرة الخبيث !

وموقف آخر ينفع فيه هذا الميزان .. ذلك حين ينتفش الباطل ؛ فتراه النفوس رابيا ؛ وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته .. ثم ينظر المؤمن الذى يزن بميزان الله إلى هذا الباطل المتنفش ، فلا تضطرب يده ، ولا يزوغ بصره ، ولا يختل ميزانه ؛ ويختار عليه الحق الذى لا رغوة له ولا زبد ؛ولا عدة حوله ولا عدد .. إنما هو الحق .. الحق المجرد إلا من صفته وذاته ؛ وإلا من ثقله فى ميزان الله وثباته ؛ وإلا من جماله الذاتى وسلطانه !

لقد ربى الله هذه الأمة بمنهج القرآن، وقوامة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى علم — سبحانه — أنها وصلت إلى المستوى الذى تؤتمن فيه على دين الله .. لا فى نفوسها وضمائرها فحسب، ولكن فى حياتها ومعاشها فى هذه الأرض ، بكل ما يضطرب فى الحياة من رغبات ومطامع ، وأهواء ومشارب ، وتصادم بين المصالح ، وغلاب بين الأفراد والجماعات ثم بعد ذلك فى قوامتها على البشرية بكل ما لها من تبعات جسام فى خضم الحياة العام .

لقد رباها بشتى التوجيهات ، وشتى المؤثرات ، وشتى الابتلاءات ، وشتى التشريعات ؛ وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدى دورا فى النهاية واحدا ، هو إعداد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها ، وبمشاعرها واستجاباتها ، وبسلوكها وأخلاقها ، وبشريعتها ونظامها ، لأن

Marfat.com

تقوم على دين الله فى الأرض ، ولأن تتولى القوامة على البشر : . وحقق الله مايريده بهـذه الأمة . . والله غالب على أمره . . وقامت فى واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من دين الله .. حلمايتمثل فى واقع .. وتملك البشرية أن ترسمه فى كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها الله ..

* * *

بعد ذلك يتجه السياق إلى شىء من تربية الجماعة المسلمة وتوجيهها إلى الأدب الواجب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعدم سؤاله عما لم يخبرها به ؛ مما لو ظهر لساء السائل وأحرجه أو ترتب عليه تكاليف لا يطيقها ، أو ضيق عليه فى أشياء وسع الله فيها ، أو تركها بلا تحديد رحمة بعباده .

« ياأيهـا الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم . عفا الله عنها والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » ..

كان بعضهم يكثر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السؤال عن أشياء لم يتنزل فيها أمر أو نهى . أو يلحف فى طلب تفصيل أمور أجملها القرآن ، وجعل الله فى إجمالها سعة للناس . أو فى الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤذى السائل عنها أو يؤذى غيره من المسلمين .

وروى أنه لما نزلت آية الحج سأل سائل : أفى كل عام ؟ فكره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا السؤال لأن النص على الحج جاء مجملا : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والحج مرة يجزى . فأما السؤال عنه أفى كل عام فهو تفسير له بالصعب الذى لم يفرضه الله .

وفى حديث مرسل رواه الترمذى والدارقطنى عن على رضى الله عنـه قال : لمـا نزلت هذه الآية : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » قالوا : يا رسول الله أفى كل عام ؟ فسكت . فقالوا : أفى كل عام ؟ قال : « لا . ولو قلت نعم لوجبت » فأنزل الله :

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .. الخ الآية .

وأخرجه الدار قطنى أيضا عن أبى عياض عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يا أيها الناس كتب عليكم الحج » . فقام رجل فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه ، ثم عاد فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟ فقال : « ومن القائل ؟ » قالوا : فلان . قال : « والذى نفسى بيده لو قلت : نعم . لوجبت . ولو وجبت ما أطقتموها . ولو لم تطيقوها لكفرتم » . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ..

وفى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ... فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا (١) » فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : « النار » فقام عبد الله ابن حذافة فقال : « من أبى يا رسول الله ؟ فقال : « أبوك حذافة » .. قال ابن عبد البر : عبد الله ابن حذافة أسلم قديما ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وشهد بدرا ، وكانت فيه دعابة ! وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولما قال : من أبى يا رسول الله ؟ قال « أبوك حذافة » قالت أمه : ما سمعت بابن أعق منك . أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس !؟ فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقت به ..

وفى رواية لابن جرير ــ بسنده ــ عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر . فقام إليه رجل فقال : أين أنا ؟ قال : « فى النار » فقام آخر فقال : من أبى ؟ فقال : « أبوك حذافة » فقام عمر ابن الخطاب ، فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ نبيا وبالقرآن إماما . إنا يارسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلم من آباؤنا . قال : فسكن غضبه ، ونزلت هذه

(١) فى رواية أخرى لابن جرير ــ عن أنس ــ أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه فى المسألة فقال هذا الذى قال . وهناك رواية أخرى لابن جرير عن أبى هريرة سنذكرها فى صلب السياق .

Marfat.com

الآية « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .. الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهو قول سعيد ابن جبير . وقال : ألا ترى أن بعده : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » ؟

ومجموعة هذه الروايات وغيرها تعطى صورة عن نوع هذه الأسئلة التى نهى الله الذين آمنوا أن يسألوها ..

لقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب ، ولا ليشرع شريعة فحسب . ولكن كذلك ليربى أمة ، وينشئ مجتمعا ، وليكوّن الأفراد وينشئهم على منهج عقلى وخلقى من صنعه .. وهو هنا يعلمهم أدب السؤال ، وحدود البحث ، ومنهج المعرفة .. وما دام الله ـ سبحانه ـ هو الذى ينزل هذه الشريعة ، ويخبر بالغيب ، فمن الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها ؛ وأن يتركوا له كذلك كشف هذا الغيب أو ستره . وأن يقفوا هم فى هذه الأمور عند الحدود التى أرادها العليم الخبير . لا ليشددوا على أنفسهم بتنصيص النصوص والجرى وراء الاحتمالات والفروض . كذلك لا يجرون وراء الغيب يحاولون الكشف عما لم يكشف الله منه وما هم ببالغيه . والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم ، فهو يشرع لهم فى حدود طاقتهم ، ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم . وهناك أمور تركها الله مجملة أو مجهلة ؛ ولا ضير على الناس فى تركها هكذا كما أرادها الله . ولكن السؤال ـ فى عهد النبوة وفترة تنزل القرآن ـ قد يجعل الإجابة عنها متعينة فتسوء بعضهم ، وتشق عليهم كلهم وعلى من يجىء بعدهم .

لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوؤهم الكشف عنها ؛ وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا فى فترة الوحى فى حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وستترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها :

« يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم .. عفا الله عنها .. »

Marfat.com

أى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها وترك فرضها أو تفصيلها ليكون فى الإجمال سعة .. كأمره بالحج مثلا .. أو تركه ذكرها أصلا ..

ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ـ من أهل الكتاب ـ ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام . فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها . ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذى شاءه الله لعباده ما شدد عليهم،وما احتملوا تبعة التقصير والكفران.

ولقد رأينا فى سورة البقرة كيف أن بنى إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، بلا شروط ولا قيود ، كانت تجزيهم فيها بقرة أية بقرة .. أخذوا يسألون عن أوصافها ويدققون فى تفصيلات هذه الأوصاف . وفى كل مرة كان يشدد عليهم . ولو تركوا السؤال ليسروا على أنفسهم .

وكذلك كان شأنهم فى السبت الذى طلبوه ثم لم يطيقوه ! ..

ولقد كان هذا شأنهم دائما حتى حرم الله عليهم أشياء كثيرة تربية لهم وعقوبة !

وفى الصحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ذرونى ما تركتكم . فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .

وفى الصحيح أيضا : « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها . وسكت عن أشياء رحمة بكم ـ غير نسيان ـ فلا تسألوا عنها » ..

وفى صحيح مسلم عن عامر ابن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرما ، من سأل عن شىء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته » ..

ولعل مجموعة هذه الأحاديث ـ إلى جانب النصوص القرآنية ـ ترسم منهج الإسلام فى المعرفة ..

إن المعرفة فى الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفى حدود هذه الحاجة الواقعة .. فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية أن تنفق فى استجلائه واستكناهه ، لأن معرفته لا تواجه

Marfat.com

حاجة واقعية فى حياة البشرية . وحسب القلب البشرى أن يؤمن بهذا الغيب كما وصفه العليم به . فأما حين يتجاوز الإيمان به إلى البحث عن كنهه ، فإنه لا يصل إلى شىء أبدا ، لأنه ليس مزودا بالمقدرة على استكناهه إلا فى الحدود التى كشف الله عنها .. فهو جهد ضائع . فوق أنه ضرب فى التيه بلا دليل ، يؤدى إلى الضلال البعيد .

وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التى تتطلب هذه الأحكام .. وهذا هو منهج الإسلام ..

فنى طوال العهد المكى لم يتنزل حكم شرعى تنفيذى ـ وإن تنزلت الأوامر والنواهى عن أشياء وأعمال ـ ولكن الأحكام التنفيذية كالحدود والتعازير والكفارات لم تتنزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التى تتولى تنفيذ هذه الأحكام .

ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه ؛ فلم يكونوا يفتون فى مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل ؛ وفى حدود القضية المعروضة دون تفصيص للنصوص ، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوى الربانى :

كان عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يلعن من سأل عما لم يكن .. ذكره الدرامى فى مسنده .. وذكر عن الزهرى قال : بلغنا أن زيد ابن ثابت الأنصارى كان يقول إذا سئل عن الأمر : أ كان هذا ؟ فإن قالوا : نعم قد كان ، حدث فيه بالذى يعلم . وإن قالوا : لم يكن ، قال : فذروه حتى يكون . وأسند عن عمار ابن ياسر ـ وقد سئل عن مسألة ـ فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا . قال . دعونا حتى يكون ، فإذا كان تجشمناها لكم .

وقال الدرامى : حدثنا عبد الله ابن محمد ابن أبى شيبة ، قال : حدثنا ابن فضيل ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال : ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن فى القرآن ، منهن : « يسألونك عن الشهر الحرام » .. « ويسألونك عن المحيض » .. وشبهه .. ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم .

وقال مالك : أدركت هذا البلد (يعنى المدينة) وما عندهم علم غير الكتاب والسنة . فإذا

Marfat.com

نزلت نازلة ، جمع الأمير لها من حضر من العلماء ، فما اتفقوا عليه أنفذه . وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله - صلى الله عليه وسلم !

وقال القرطبي فى سياق تفسيره للآية : روى مسلم عن المغيرة ابن شعبة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات ، ومنعا وهات. وكره لكم ثلاثا : قيل وقال ؛ وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » .. قال كثير من العلماء : المراد بقوله : « وكثرة السؤال » : التكثير من السؤال فى المسائل الفقهية تنطعا ، وتكلفا فيما لم ينزل ، والأغلوطات ، وتشقيق المولدات . وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف . ويقولون : إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها ..

إنه منهج واقعى جاد . يواجه وقائع الحياة بالأحكام ، المشتقة لها من أصول شريعة الله ، مواجهة عملية واقعية .. مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة وملابساتها ، ثم تقضى فيها بالحكم الذى يقابلها ويغطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقا كاملا دقيقا ..

فأما الاستفتاء عن مسائل لم تقع ، فهو استفتاء عن فرض غير محدد . وما دام غير واقع فإن تحديده غير مستطاع . والفتوى عليه حينئذ لا تطابقه لأنه فرض غير محدد . والسؤال والجواب عندئذ يحملان معنى الاستهتار بجدية الشريعة ؛ كما يحملان مخالفة للمنهج الإسلامى القويم .

ومثله الاستفتاء عن أحكام شريعة الله فى أرض لا تقام فيها شريعة الله ، والفتوى على هذا الأساس ! .. إن شريعة الله لا تستفتى إلا ليطبق حكمها وينفذ .. فإذا كان المستفتى والمفتى كلاهما يعلمان أنهما فى أرض لا تقيم شريعة الله ؛ ولا تعترف بسلطان الله فى الأرض وفى نظام المجتمع وفى حياة الناس .. أى لا تعترف بألوهية الله فى هذه الأرض ولا تخضع لحكمه ولا تدين لسلطانه .. فما استفتاء المستفتى ؟ وما فتوى المفتى ؟ إنهما - كلاهما - يرخصان شريعة الله ، ويستهتران بها شاعرين أو غير شاعرين سواء !

ومثله تلك الدراسات النظرية المجردة لفقه الفروع وأحكامه فى الجوانب غير المطبقة .. إنها دراسة للتلهية ! لمجرد الإيهام بأن لهذا الفقه مكانا فى هذه الأرض التى تدرسه فى معاهدها ولا

Marfat.com

تطبقه فى عما كها ! وهو إيهام يبوء بالإثم من يشارك فيه ، ليخدر مشاعر الناس بهذا الإيهام !

إن هذا الدين جد . وقد جاء ليحكم الحياة . جاء ليعبد الناسَ لله وحده ، وينتزع من المغتصبين لسلطان الله هذا السلطان ، فيرد الأمر كله إلى شريعة الله ، لا إلى شرع أحد سواه .. وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ؛ ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها، ولتدلى بحكم الله فى الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملابساتها .

ولم يجئ هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار . ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة . ولا لتعيش مع الفروض التى لم تقع ، وتضع لهذه الفروض الطائرة أحكاما فقهية فى الهواء !

هذا هو جد الإسلام . وهذا هو منهج الإسلام . فمن شاء من « علماء » هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجد فليطلب تحكيم شريعة الله فى واقع الحياة . أو على الأقل فليكف عن الفتوى والقذف بالأحكام فى الهواء !

***

ويبدو ـ بالاستناد إلى رواية مجاهد عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ومن قول سعيد ابن جبير كذلك فى أسباب نزول الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ... » أن من بين ما كانوا يسألون عنه أشياء كانت فى الجاهلية . ولم نقف على معين للسؤال ماذا كان . ولكن مجىء الحديث فى السياق عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى بعد آية النهى عن السؤال يوحى بأن هناك اتصالا ما .. فنكتفى بهذا لنواجه النص القرآنى عن هذه العادات الجاهلية :

« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟ » ..

إن القلب البشرى إما أن يستقيم على فطرته التى فطره الله عليها ؛ فيعرف إلهه الواحد ، ويتخذه ربا ، ويعترف له وحده بالعبودية ويستسلم لشرعه وحده ؛ ويرفض ربوبية من عداه

Marfat.com

غيرض إذن أن يتلقى شريعة من سواه .. إما أن يستقيم القلب البشرى على فطرته هـذه فيجد اليسر فى الاتصال بربه ، ويجد البساطة فى عبادته ، ويجد الوضوح فى علاقاته به .. وإما أن يتيه فى دروب الجاهلية والوثنية ومنعرجاتها ، تتلقاه فى كل درب ظلمة ، ويصادفه فى كل ثنية وهم . تطلب إليه طواغيت الجاهلية والوثنية شق الطقوس لعبادتها ، وشق التضحيات لإرضائها؛ ثم تتعدد الطقوس فى العبادات والتضحيات ، حتى ينسى الوثنى أصولها ، ويؤديها وهو لا يعرف حكمتها ، ويعانى من العبودية لشق الأرباب ما يقضى على كرامة الإنسان التى منحها الله للإنسان .

ولقد جاء الإسلام بالتوحيد ليوحد السلطة التى تدين العباد ؛ ثم ليحرر الناس بذلك من العبودية بعضهم لبعض ؛ ومن عبوديتهم لشق الآلهة والأرباب .. وجاء ليحرر الضمير البشرى من أوهام الوثنية وأوهاقها ؛ وليرد إلى العقل البشرى كرامته ويطلقه من ربقة الآلهة وطقوسها . ومن ثم حارب الوثنية فى كل صورها وأشكالها ؛ وتتبعها فى دروبها ومنحنياتها . سواء فى أعماق الضمير ، أم فى شعائر العبادة ، أم فى أوضاع الحياة وشرائع الحكم والنظام .

وهذا منعرج من منعرجات الوثنية فى الجاهلية العربية ، يعالجه ليقومه ويسلط عليه النور ليبطل ما حوله من أساطير . ويقرر أصول التفكير والنظر ؛ وأصول الشرع والنظام فى آن :

« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون » ..

هذه الصنوف من الأنعام التى كانوا يطلقونها لآلهتهم بشروط خاصة ، منتزعة من الأوهام المتراكمة فى ظلمات العقل والضمير . البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى !!!

هذه الصنوف من الأنعام ما هى ؟ ومن الذى شرع لهم هذه الأحكام فيها ؟

لقد تشعبت الروايات فى تعريفها ، فنعرض نحن طرفا من هذه التعريفات :

« روى الزهرى عن سعيد ابن المسيب قال : البحيرة من الإبل يمنع درها للطواغيت (أى يحجز لبنها ويخصص للآلهة فلا يطعمها الناس وكهنة الآلهة هم الذين يأخذونه طبعا !) والسائبة من الإبل كانوا يسيبونها لطواغيتهم . والوصيلة كانت الناقة تبكر بالأنثى ، ثم تثنى

Marfat.com

بالأنثى فيسمونها الوصيلة ، يقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يذبحونها لطواغيتهم . والحامى الفحل من الإبل كان يضرب الضراب المعدود (أى يقوم بتلقيح عدد من النوق) فإذا بلغ ذلك يقال : حمى ظهره ، فيترك ، فيسمونه الحامى .

« وقال أهل اللغة : البحيرة الناقة التى تشق أذنها ، يقال : بحرت أذن الناقة أبحرها بحرا ، والناقة مبحورة وبحيرة ، إذا شققتها واسعا . ومنه البحر لسعته . وكان أهل الجاهلية يحرمون البحيرة ، وهى أن تنتج خمسة أبطن يكون آخرها ذكرا ، بحروا أذنها وحرموها وامتنعوا من ركوبها ونحرها ، ولم تطرد عن ماء ، ولم تمنع عن مرعى ، وإذا لقيها المعيى لم يركبها . قالوا : والسائبة المخلاة وهى المسيبة ، وكانوا فى الجاهلية إذا نذر الرجل لقدوم من سفر ، أو برء من مرض ، أو ما أشبه ذلك ، قال : ناقتى سائبة ، فكانت كالبحيرة فى التحريم والتخلية ... فأما الوصيلة فإن بعض أهل اللغة ذكر أنها الأنثى من الغنم إذا ولدت مع ذكر ، قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوها ؛ وقال بعضهم : كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإذا ولدت ذكرا ذبحوه لآلهتهم فى زعمهم . وإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه لآلهتهم . وقالوا : الحامى الفحل من الإبل إذا نتجت من صلبه عشرة أبطن ، قالوا : حمى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى » (١) .

وهناك روايات أخرى عن تعريف هذه الأنواع من الطقوس لا ترتفع على هذا المستوى من التصور ، ولا تزيد الأسباب فيها معقولية على هذه الأسباب .. وهى كما ترى أوهام من ظلام الوثنية المخيم . وحين تكون الأوهام والأهواء هى الحكم ، لا يكون هناك حد ولا فاصل ، ولا ميزان ولا منطق . وسرعان ما تتفرع الطقوس ، ويضاف إليها وينقص منها بلا ضابط . وهذا هو الذى كان فى جاهلية العرب ، والذى يمكن أن يحدث فى كل مكان وفى كل زمان ، حين ينحرف الضمير البشرى عن التوحيد المطلق ، الذى لا منعرجات فيه ولا ظلام . وقد تتغير الأشكال الخارجية ولكن لباب الجاهلية يبقى ، وهو التلقى من غير الله فى أى شأن من شؤون الحياة !

---

(١) عن كتاب أحكام القرآن للجصاص جزء ٢ ص ٥٩١ طبعة البهية المصرية .

Marfat.com

إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ؛ ولكنها حالة ووضع يتكرر - فى أشكال شتى - على مدار الزمان . فإما ألوهية واحدة تقابلها عبودية شاملة ؛ وتتجمع فيها كل ألوان السلطة ، وتتجه إليها المشاعر والأفكار ، والنوايا والأعمال ، والتنظيمات والأوضاع ، وتتلقى منها القيم والموازين ، والشرائع والقوانين ، والتصورات والتوجيهات .. وإما جاهلية - فى صورة من الصور - تتمثل فيها عبودية البشر للبشر أو لغيرهم من خلق الله .. لا ضابط لها ولا حدود . لأن العقل البشرى لا يصلح وحده أن يكون ضابطا موزونا مالم ينضبط هو على ميزان العقيدة الصحيحة . فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد فى كل حين ؛ ويفقد قدرته على المقاومة فى وجه الضغوط المختلفة مالم يقم إلى جانبه ذلك الضابط الموزون .

وإننا لنشهد اليوم - بعد أربعة عشر قرنا من نزول هذا القرآن بهذا البيان - أنه حينما انفك رباط القلب البشرى بالإله الواحد ، تاه فى منحنيات ودروب لا عداد لها ، وخضع لربوبيات شتى ، وفقد حريته وكرامته ومقاومته .. ولقد شهدت فى هذا الجانب الخرافى وحده فى صعيد مصر وريفها عشرات من الأوهام تطلق لها بعض صنوف الحيوان ، للأولياء والقديسين ، فى ذات الصورة التى كانت تطلق بها للآلهة فى الزمان القديم !

على أن المسألة فى تلك الطقوس الجاهلية - وفى كل جاهلية - هى القاعدة الكلية . هى نقطة الانطلاق فى طريق الإسلام أو فى طريق الجاهلية . هى .. لمن الحكم فى حياة الناس .. لله وحده كما قرر فى شريعته ؟ أم لغير الله فيما يقرره البشر لأنفسهم من أحكام وأوضاع وشرائع وطقوس وقيم وموازين ؟ أو بتعبير آخر : لمن الألوهية على الناس ؟ لله ؟ أم لخلق من خلقه ؟ أيا كان هذا الخلق الذى يزاول حقوق الألوهية على الناس !

ومن ثم يبدأ النص القرآنى بتقرير أن الله لم يشرع هذه الطقوس . لم يشرع البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامى .. فمن ذا الذى شرعها إذن لهؤلاء الكفار ؟!

« ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » ..

والذين يتبعون ماشرعه غير الله هم كفار . كفار يفترون على الله الكذب . مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله .. ومرة يقولون : إننا نشرع لأنفسنا

Marfat.com

ولا ندخل شريعة الله فى أوضاعنا .. ونحن مع هذا لا نعصى الله .. وكله كذب على الله :

« ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب وأكثرهم لا يعقلون » ..

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم الذى جاء به من عند الله . فهم لم يكونوا يجحدون الله البتة . بل كانوا يعترفون بوجوده وبقدرته وبتصريفه للكون كله . ولـكنهم مع ذلك كانوا يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون أن هذا شرع الله ! وهم بهذا كانوا كفارا . ومثلهم كل أهل جاهلية فى أى زمان وفى أى مكان يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون ـ أو لا يزعمون ـ أن هذا شرع الله !

إن شرع الله هو الذى قرره فى كتابه ، وهو الذى بينه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ليس مبهما ولا غامضا ولا قابلا لأن يفترى عليه أحد من عنده ما يفترى ، ويزعم أنه منه، كما يتصور أهل الجاهلية فى أى زمان وفى أى مكان !

ولذلك يصم الله الذين ادعوا هذا الادعاء بالـكفر . ثم يصمهم كذلك بأنهم لا يعقلون ! ولو كانوا يعقلون ما افتروا على الله . ولو كانوا يعقلون ماحسبوا أن يمر هذا الافتراء !

ثم يزيد هذه المفارقة فى قولهم وفعلهم إيضاحا :

« وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ماوجدنا عليـه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » ..

إن ماشرعه الله بين . وهو محدد فيما أنزل الله ومبين بما سنه رسوله .. وهذا هو المحك . وهـذه هى النقطة التى يفترق فيها طريق الجاهلية وطريق الإسلام . طريق الـكفر وطريق الإيمان . . فإما أن يدعى الناس إلى ما أنزل الله بنصه وإلى الرسول ببيانه فيلبوا . . فهم إذن مسلمون . و إما أن يدعوا إلى الله والرسول فيأبوا .. فهم إذن كفار . . ولا خيار . .

وهؤلاء كانوا إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا ! فاتبعوا ماشرعه العبيد ، وتركوا ماشرعه رب العبيد . ورفضوا نداء التحرر من عبودية العباد للعباد ، واختاروا عبودية العقل والضمير ، للآباء والأجداد .

ثم يعقب السياق القرآنى على موقفهم ذاك تعقيب التعجيب والتأنيب :

Marfat.com

« أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ؟ » ..

وليس معنى هذا الاستنكار لاتباعهم لآبائهم ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ، أن لو كان يعلمون شيئاً لجاز لهم اتباعهم وترك ماأنزل الله وترك بيان الرسول ! إنما هذا تقرير لواقعهم وواقع آبائهم من قبلهم . فآباؤهم كذلك كانوا يتبعون ماشرعه لهم آباؤهم أو ماشرعوه هم لأنفسهم . ولا يركن أحد إلى شرع نفسه أو شرع أبيه ، وبين يديه شرع الله وسنة رسوله ، إلا وهو لا يعلم شيئاً ولا يهتدى ! وليقل عن نفسه أو ليقل عنه غيره مايشاء : إنه يعلم وإنه يهتدى . فالله ــ سبحانه ــ أصدق وواقع الأمر يشهد . . وما يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول ! فوق أنه مفتر كفور !

* * *

فإذا انتهى من تقرير حال الذين كفروا وقولهم التفت إلى « الذين آمنوا » يقرر لهم انفصالهم وتميزهم ؛ ويبين لهم تكاليفهم وواجبهم ؛ ويحدد لهم موقفهم ممن سواهم ؛ ويكلهم إلى حساب الله وجزائه لا إلى أى مغنم فى هذه الأرض أو مأرب .

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

إنه التميز والمفاصلة بينهم وبين من عداهم . ثم إنه التضامن والتواصى فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة .

« ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ..

أنتم وحدة منفصلون عمن سواكم ، متضامنون متكافلون فيما بينكم . فعليكم أنفسكم . . عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها ؛ وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ؛ ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم . فأنتم وحدة منفصلة عمن عداكم ؛ وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض ، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم .

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادىء أساسية فى طبيعة الأمة المسلمة ، وفى طبيعة علاقاتها بالأمم الأخرى .

Marfat.com

إن الأمة المسلمة هى حزب الله . ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان . ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن ، لأنه لا اشتراك فى عقيدة ؛ ومن ثم لا اشتراك فى هدف أو وسيلة ؛ ولا اشتراك فى تبعة أو جزاء .

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ؛ وأن تتناصح وتتواصى ، وأن تهتدى بهدى الله الذى جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها . . ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئا أن يضل الناس حولها مادامت هى قائمة على الهدى .

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها فى دعوة الناس كلهم إلى الهدى . والهدى هو دينها هى وشريعتها ونظامها . فإذا هى أقامت نظامها فى الأرض بقى عليها أن تدعو الناس كافة ، وأن تحاول هدايتهم ، وبقى عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقيم العدل بينهم ؛ ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التى منها أخرجتهم . .

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، لا يعنى أنها غير محاسبة على التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما بينها أولا ، ثم فى الأرض جميعا . وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته ؛ وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته . وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت ، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه . . والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا ؛ وعلى البشرية كلها أخيرا .

وليس الغرض من بيان حدود التبعة فى الآية كما فهم بعضهم قديما ـ وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثا ـ أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ إذا اهتدى هو بذاته ـ ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله فى الأرض ـ إذا هى اهتدت بذاتها ـ وضل الناس من حولها .

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة فى كفاح الشر ، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان ـ وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته ، وهو المنكر الذى لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدى وهذا المنكر قائم .

Marfat.com

ولقد روى أصحاب السنن أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » .. وإنكم تضعونها على غير موضعها. وإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه ».

وهكذا صحح الخليفة الأول ـ رضوان الله عليه ـ ما ترامى إلى وهم بعض الناس فى زمانه من هذه الآية الكريمة. ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق. فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذى يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه!

وكلا والله! إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد. ولا يصلح إلا بعمل وكفاح. ولابد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله فى الأرض، ولرد المغتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، ولإقامة شريعة الله فى حياة الناس، وإقامة الناس عليها .. لا بد من جهد. بالحسنى حين يكون الضالون أفرادا ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة. وبالقوة حين تكون القوة الباغية فى طريق الناس هى التى تصدهم عن الهدى؛ وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم.

وبعد ذلك ـ لا قبله ـ تسقط التبعة عن الذين آمنوا، وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه:

« إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ».

***

والآن يجىء الحكم الأخير من الأحكام الشرعية التى تضمنها السورة، فى بيان بعض أحكام المعاملات فى المجتمع المسلم. وهو الخاص بتشريع الإشهاد على الوصية فى حالة الضرب فى الأرض، والبعد عن المجتمع. والضمانات التى تقيمها الشريعة ليصل الحق إلى أهله.

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت – حين الوصية – اثنان ذوا عدل منكم ، أو آخران من غيركم ، إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ، تحبسونهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بالله – إن ارتبتم – لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله ، إنا إذن لمن الآثمين . فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم .. الأوليان . . فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وما اعتدينا ، إنا إذن لمن الظالمين . ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ؛ واتقوا الله واسمعوا ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » ..

وبيان هذا الحكم الذى تضمنته الآيات الثلاث : أن على من يحس بدنو أجله ، ويريد أن يوصى لأهله بما يحضره من المال ، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان فى الحضر ، ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين . فأما إذا كان ضاربا فى الأرض ، ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه ، فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين :

فإن ارتاب المسلمون – أو ارتاب أهل الميت – فى صدق ما يبلغه الشاهدان وفى أمانتهما فى أداء ما استحفظا عليه ، فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما للصلاة – حسب عقيدتهما – ليحلفا بالله ، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر ، ولو كان ذا قربى ، ولا يكتمان شيئا مما استحفظا عليه . . وإلا كانا من الآثمين . . وبذلك تنفذ شهادتهما .

فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة . قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته ، من الذين وقع عليهم هذا الإثم ، بالحلف بالله أن شهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين . وأنهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة . وبذلك تبطل شهادة الأولين ، وتنفذ الشهادة الثانية .

ثم يقول النص : إن هذه الإجراءات أضمن فى أداء الشهادة بالحق ؛ أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين ، مما يحملهما على تحرى الحق .

«ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم » .

Marfat.com

وينتهى إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله ، ومراقبته وخشيته ، والطاعة لأوامره ، لأن الله لا يهدى من يفسقون عن طريقه ، إلى خير ولا إلى هدى :

« واتقوا الله واسمعوا . والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

قال القرطبي فى تفسيره عن سبب نزول هذه الآيات الثلاث :

« ... ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات الثلاث نزلت بسبب تميم الدارى ، وعدى ابن بدّاء روى البخارى والدارقطنى وغيرهما عن ابن عباس قال : كان تميم الدارى وعدى ابن بداء ، يختلفان إلى مكة ؛ فخرج معهما فتى من بنى سهم ، فتوفى بأرض ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما ، فدفعا تركته إلى أهله ، وحبسا جاما من فضة مخوصا بالذهب . فاستحلفهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما كتمتما ولا اطلعتما » . ثم وجد الجام بمكة . فقالوا : اشتريناه من عدى وتميم . فجاء رجلان من ورثة السهمى فحلفا أن هذا الجام للسهمى ، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا . قال : فأخذ الجام . وفيهم نزلت هذه الاية ... (لفظ الدار قطنى) » .

وواضح أن لطبيعة المجتمع الذى نزلت هذه الأحكام لتنظيمه دخلا فى شكل الإجراءات . وبعاق طبيعة هذه الإجراءات . فالإشهاد والائتمان على هذا النحو ، ثم الحلف بالله فى مجتمع بعد الصلاة . لاستجاشة الوجدان الدينى ، والتحرج كذلك من الفضيحة فى المجتمع عند ظهور الكذب والخيانة .. كلها تشى بسمات مجتمع خاص . تفى بحاجاته وملابساته هذه الإجراءات .

ولقد تملك المجتمعات اليوم وسائل أخرى للإثبات ، وأشكالا أخرى من الإجراءات ، كالكتابة والتسجيل والإيداع فى المصارف ... وما إليها ...

ولكن . أو فقد هذا النص قدرته على العمل فى المجتمعات البشرية ؟

إننا كثيرا ما نخدع ببيئة معينة ، فنظن أن بعض التشريعات وبعض الإجراءات قد فقدت فاعليتها ، ولم تعد لها ضرورة ، وأنها من مخلفات مجتمعات مضى زمنها ! لأن البشرية استجدت وسائل أخرى !

أجل كثيرا ما نخدع فننسى أن هذا الدين جاء للبشرية جميعا ، فى كل أقطارها ، وفى كل

Marfat.com

أعصارها . وأن كثرة ضخمة من هذه البشرية اليوم ما تزال بدائية أو متدرجة من البداوة . وأنها فى حاجة إلى أحكام وإجراءات توا كب حاجاتها فى جميع أشكالها وأطوارها ، وأنها تجد فى هذا الدين ما يلبى هذه الحاجات فى كل حالة . وأنها حين ترتقى من طور إلى طور تجد فى هذا الدين كفايتها كذلك بنفس النسبة ؛ وتجد فى شريعته ما يلبى حاجاتها الحاضرة ، ثم يرتقى بها إلى تلبية حاجاتها المتطورة .. وأن هذه معجزة هذا الدين ومعجزة شريعته ؛ وآية أنه من عند الله ، وأنها من اختياره سبحانه .

على أننا نخدع كذلك مرة أخرى حين ننسى الضرورات التى يقع فيها الأفراد من البيئات التى تجاوزت هذه الأطوار ؛ والتى يسعفهم فيها يسر هذه الشريعة وشمولها ، ووسائل هذا الدين المعدة للعمل فى كل بيئة وفى كل حالة . فى البدو والحضر . فى الصحراء والغابة . لأنه دين البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها .. وتلك أيضا إحدى معجزاته الكبرى .

إننا نخدع حين نتصور أننا ــ نحن البشر ــ أبصر بالخلق من رب الخلق .. فتردنا الوقائع إلى التواضع ! وما أولانا أن نتذكر قبل أن تصدمنا الأحداث . وأن نعرف أدب البشر فى حق خالق البشر .. أدب العبيد فى حق رب العبيد .. لو كنا نتذكر ونعرف ، ونتوب ..

« يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ : مَاذَا أُجِبْتُمْ ؟ قَالُوا : لَا عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)

« إِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ

Marfat.com

كَفَرُوا مِنْهُمْ : إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قَالُوا : آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ، وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ : إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ؛ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ .

« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١٩)

Marfat.com

هذا الدرس بطوله بقية فى تصحيح العقيدة؛ وتقويم ما دخل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوى عند قاعدتها الأساسية . إذ أخرجتها من التوحيد المطلق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - كما جاء به كل رسول قبله ، إلى ألوان من الشرك ، لا علاقة لها أصلا بدين الله .

ومن ثم فإن هذا الدرس كذلك يستهدف تقرير حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية - كما هى فى التصور الإسلامى - تقرير هذه الحقيقة من خلال هذا المشهد العظيم الذى يعرضه ؛ والذى يقرر فيه عيسى - عليه السلام - على ملأ من الرسل ، ومن البشر جميعا ، أنه لم يقل لقومه شيئا مما زعموه من ألوهيته ومن تأليه أمه ؛ وأنه ما كان له أن يقول من هذا الشرك كله شيئا !

والسياق القرآنى يعرض هذه الحقيقة فى مشهد تصويرى من « مشاهد القيامة » التى يعرضها القرآن الكريم عرضا حيا ناطقا ، موحيا مؤثرا ، عميق التأثير ، يهتز له الكيان البشرى وهو يتلقاه كأنما يشهده اللحظة فى الواقع المنظور . الواقع الذى تراه العين، وتسمعه الأذن . وتتجلى فيه الانفعالات والسمات النابضة بالحياة (١)

فها نحن أولاء أمام المشهد العظيم :

« يوم يجمع الله الرسل ، فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » :

يوم يجمع الله الرسل الذين فرقهم فى الزمان فتتابعوا على مداره ؛ وفرقهم فى المكان فذهب كل إلى قريته ؛ وفرقهم فى الأجناس فمضى كل إلى قومه .. يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام ؛ حتى جاء خاتمهم - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان . .

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام ، فى شتى الأمكنة والأزمان .. هاهو ذا مرسلهم فرادى ، يجمعهم جميعا ؛ ويجمع فيهم شتى الاستجابات ، وشتى الاتجاهات . وها هم أولاء .. نقباء البشرية فى حياتها الدنيا ؛ ومعهم رسالات الله إلى البشرية فى شتى أرجائها ، ووراءهم استجابات البشرية فى شتى أعصارها . هؤلاء هم أمام الله .. رب البشرية - سبحانه - فى مشهد يوم عظيم .

وها هو ذا المشهد ينبض بالحياة :

---

(١) يراجع كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » .

Marfat.com

« يوم يجمع الله الرسل . فيقول : ماذا أجبتم ؟ »

« ماذا أجبتم ؟ » .. فاليوم تجمع الحصيلة ، ويضم الشتات ، ويقدم الرسل حساب الرسالات ، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد .

« ماذا أجبتم ؟ » .. والرسل بشر من البشر ؛ لهم علم ما حضر ، وليس لديهم علم ما استتر. لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى ؛ فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى .. وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى . فإنما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده . . وهم فى حضرة الله الذى يعرفونه خير من يعرف ؛ والذى يهابونه أشد من يهاب ؛ والذى يستحيون أن يدلوا بحضرته بشىء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير ..

إنه الاستجواب المرهوب فى يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملأ الأعلى ، وعلى مشهد من الناس أجمعين . الاستجواب الذى يراد به المواجهة . مواجهة البشرية برسلها ؛ ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم . ليعلن فى موقف الإعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله ؛ وهاهم أولاء مسؤولون بين يديه — سبحانه — عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون .

أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق لله وحده ؛ وأن مالديهم من علم لا ينبغى أن يدلوا به فى حضرة صاحب العلم ، تأدبا وحياء ، ومعرفة بقدرهم فى حضرة الله :

« قالوا : لا علم لنا . إنك أنت علام الغيوب » .

* * *

فأما سائر الرسل — غير عيسى عليه السلام — فقد صدق بهم من صدق ، وقد كفر بهم من كفر ؛ ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل ، الذى يدع العلم كله لله ، ويدع الأمر كله بين يديه . سبحانه . . فما يزيد السياق شيئا فى هذا المشهد عنهم . . إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى ابن مريم وحده ، لأن عيسى ابن مريم هو الذى فتن قومه فيه ، وهو الذى غام الجو حوله بالشبهات ، وهو الذى خاض ناس فى الأوهام والأساطير حول ذاته ، وحول صفاته ، وحول نشأته ومنتهاه .

يلتفت الخطاب إلى عيسى ابن مريم — على الملأ ممن ألهوه وعبدوه وصاغوا حوله وحول أمه —

Marfat.com

مريم ـ التهاويل .. يلتفت إليه يذكره نعمة الله عليه وعلى والدته؛ ويستعرض المعجزات التي آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذبه من كذبه منهم أشد التكذيب وأقبحه؛ وفتن به وبالآيات التي جاءت معه من فتن؛ وألهوه مع الله من أجل هذه الآيات، وهي كلها من صنع الله الذي خلقه وأرسله وأيده بالمعجزات:

« إذ قال الله: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك. إذ أيدتك بروح القدس، تكلم الناس في المهد وكهلا. وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني. وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني. وإذ تخرج الموتى بإذني. وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم: إن هذا إلا سحر مبين. وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا: آمنا واشهد بأننا مسلمون » ..

إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى ابن مريم وأمه .. من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام، يبرئ أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله .. وروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ يؤيده هنا وهناك. ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئا، فعلمه الكتابة وعلمه كيف يحسن تصريف الأمور، كما علمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل، والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقا لما بين يديه من التوراة. ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله. فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ـ لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء ـ وإذا هو يبرئ المولود أعمى ـ بإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذي يهب البصر أصلا قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويبرئ الأبرص بإذن الله، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة ـ وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء ـ ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ـ وقد

Marfat.com

شهدتها الألوف - ولم يريدوا التسليم بدلالتها عنادا وكبرا .. حمايته منهم فلم يقتلوه - كما أرادوا ولم يصلبوه. بل توفاه الله ورفعه إليه.. كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله ؛ فإذا هم ملبون مستسلمون ، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله :

« وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي . قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون »..

إنها النعم التي آتاها الله عيسى ابن مريم ، لتكون له شهادة وبينة . فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل - فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى ، ومن الناس جميعا ، ومنهم قومه الغالون فيه .. ها هو ذا يواجه بها ليسمع قومه ويروا ؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين !

* * *

ويستطرد السياق في معرض النعم على عيسى ابن مريم وأمه ، إلى شيء من نعمة الله على قومه ، ومن معجزاته التي أيده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون :

« إذ قال الحواريون : ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » ..

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى .. المستخلصين منهم وهم الحواريون .. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فرق بعيد ..

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى . فآمنوا . وأشهدوا عيسى على إسلامهم .. ومع هذا فهم بعد ما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة . تطمئن بها نفوسهم . ويعلمون منها أنه صدقهم . ويشهدون بها له لمن وراءهم .

فأما أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم .. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان . ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان . ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن ..

Marfat.com

هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام ـ وحواريي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك مستوى ، وهذا مستوى .. وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون .. وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون .. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله ..

وقصة المائدة ـ كما أوردها القرآن الكريم ـ لم ترد فى كتب النصارى . ولم تذكر فى هذه الأناجيل التى كتبت متأخرة بعد عيسى ـ عليه السلام ـ بفترة طويلة ، لا يؤمن معها على الحقيقة التى تنزلت من عند الله . وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى ـ عليه السلام ـ وليست هى ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذى آتاه ..

ولكن ورد فى هذه الأناجيل خبر عن المائدة فى صورة أخرى : فورد فى إنجيل متى فى نهاية الإصحاح الخامس عشر : « وأما يسوع فدعا تلاميذه ، وقال : إنى أشفق على الجمع ، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمكثون معى ، وليس لهم ما يأكلون . ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا فى الطريق . فقال له تلاميذه : من أين لنا فى البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعا هذا عدده ؟ فقال لهم يسوع : كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا : سبعة وقليل من صغار السمك . فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض ؛ وأخذ السبع خبزات والسمك ، وشكر وكسر ، وأعطى تلاميذه ، والتلاميذ أعطوا الجمع ، فأكل الجمع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة ، والآكلون كانوا أربعة آلاف ، ماعدا النساء والأولاد » ... وورد مثل هذه الرواية فى سائر الأناجيل..

وبعض التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ كمجاهد والحسن ـ يريان أن المائدة لم تنزل . لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه : « إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » .. خافوا وكفوا عن طلب نزولها :

قال ابن كثير فى التفسير : « روى الليث ابن أبى سليم عن مجاهد قال : « هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء » (رواه ابن أبى حاتم وابن جرير) . ثم قال ابن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا القاسم ـ هو ابن سلام ـ حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم .. وقال أيضا : حدثنا أبو المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ابن زاذان ، عن الحسن ، أنه قال فى المائدة : إنها لم تنزل . . وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : لما

Marfat.com

قيل لهم : « فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لاأعذبه أحدا من العالمين » قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل » .

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت . لأن الله تعالى قال : « إنى منزلها عليكم » . ووعد الله حق . وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذى نعتمده فى أمرها دون سواه ..

إن الله ـ سبحانه ـ يذكر عيسى ابن مريم ـ فى مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين ـ بفضله عليه :

« إذ قال الحواريون : ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟» ..

لقد كان الحواريون ـ وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به ـ يعرفون أنه بشر .. ابن مريم .. وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة . وكانوا يعرفون أنه ليس ربا وإنما هو عبد مربوب لله . وأنه ليس ابن الله ، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله ؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذى يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه ، وليس هو الذى يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة .. لذلك حين طلبوا إليه ، أن تنزل عليهم مائدة من السماء ، لم يطلبوها منه ، فهم يعرفون أنه بذاته لايقدر على هذه الخارقة . وإنما سألوه :

« ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ » ..

واختلفت التأويلات فى قولهم : « هل يستطيع ربك » .. كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى ـ عليه السلام ـ على إسلامهم له . وقيل : إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة ، وهو أن ينزلها عليهم . وقيل : إن معناها : هل يستجيب لك إذا طلبت . وقرئت : « هل تستطيع ربك » . بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء . .

وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى ـ عليه السلام ـ محذرا إياهم من طلب هذه الخارقة .. لأن المؤمنين لايطلبون الخوارق ؛ ولا يقترحون على الله .

« قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » ..

ولكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه :

« قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين »

Marfat.com

فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذى لا نظير له عند أهل الأرض . وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهى تتحقق أمام أعينهم ؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهودا لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة .

وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معينا دون مستوى أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز !

عندئذ اتجه عيسى - عليه السلام - إلى ربه يدعوه :

« قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين » ..

وفى دعاء عيسى - ابن مريم - كما يكرر السياق القرآنى هذه النسبة - أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه . فهو يناديه : يا الله . يا ربنا . إنى أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين .. فهو إذن يعرف أنه عبد ؛ وأن الله ربه . وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين ، فى مواجهة قومه ، يوم المشهد العظيم !

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم ؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه .. لقد طلبوا خارقة . واستجاب الله . على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابا شديدا بالغا فى شدته لا يعذبه أحدا من العالمين :

« قال الله : إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » ..

فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهوا . وحتى لا يمضى الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع !

وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة .. فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب فى الدنيا ، أو أن يكون فى الآخرة .

* * *

ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده . ليمضى إلى القضية الأساسية .. قضية الألوهية والربوبية ..

Marfat.com

وهى القضية الواضحة فى الدرس كله .. فلنعد إلى المشهد العظيم فهو ما يزال معروضا على أنظار العالمين . لنمد إليه فنسمع استجوابا مباشرا فى هذه المرة فى مسألة الألوهية المدعاة لعيسى ابن مريم وأمه . استجوابا يوجه إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فى مواجهة الذين عبدوه . ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه فى دهش وفزع من هذه الكبيرة التى افتروها عليه وهو منها برىء :

« وإذ قال الله : ياعيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ قال : سبحانك : مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ..

وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم ماذا قال عيسى للناس . ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب فى اليوم العظيم المرهوب . الاستجواب الذى يقصد به إلى غير المسؤول ؛ ولكن فى صورته هذه وفى الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهين لهذا العبد الصالح الكريم ..

إنها الكبيرة التى لايطيق بشر عادى أن يقذف بها .. أن يدعى الألوهية وهو يعلم أنه عبد .. فكيف برسول من أولى العزم ؟ كيف بعيسى ابن مريم ؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه ؟ كيف به يواجه استجوابا عن ادعاء الألوهية ، وهو العبد الصالح المستقيم ؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب .. يبدأ بالتسبيح والتنزيه :

« قال : سبحانك ! »

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلا :

« ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » ..

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته ؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه :

« إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك . إنك أنت علام الغيوب » ..

وعندئذ فقط ، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله ،

Marfat.com

فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته :

« ماقلت لهم إلا ما أمرتني به : أن اعبدوا الله ربي وربكم »

ثم يخلي يده منهم بعد وفاته .. وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله ـ سبحانه ـ قد توفى عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه . وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله . وليس هنالك ـ فيما أرى ـ أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض ، وأن يكون حياً عنده . فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله . أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا يقول لربه : إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي :

« وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد » ..

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم ؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده . وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم ؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب :

« إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ..

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب !

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة ؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف ، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب ؟

أين هم في هذا الموقف ، في هذا المشهد ؟ .. إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة . فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً . فلندعهم حيث تركهم السياق ! لنشهد ختام المشهد العجيب :

« قال الله : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم » ..

.. هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم .. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين ؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم . في أعظم القضايا كافة .. قضية الألوهية والعبودية ، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله ومافيه ومن فيه ..

.. هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم .. إنها كلمة رب العالمين ، في ختام الاستجواب الهائل على

Marfat.com

مشهد من العالمين .. وهي الكلمة الأخيرة في المشهد . وهي الكلمة الحاسمة في القضية . ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين :

« لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » ..

« خالدين فيها أبدا » ..

« رضي الله عنهم » ..

« ورضوا عنه » ..

درجات بعد درجات .. الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم:

« ذلك الفوز العظيم » ..

ولقد شهدنا المشهد – من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة – وسمعنا الكلمة الأخيرة .. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعدا يوعد ، ولا مستقبلا ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون . إنما حركت به المشاعر ، وجسمته واقعا اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون ..

على أنه إن كان بالقياس إلينا – نحن البشر المحجوبين – مستقبلا ننتظره يوم الدين ، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق ، واقع حاضر . فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين ..

* * *

وفي نهاية هذا الدرس ؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول؛ في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام – فرية ألوهيته ؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض ..

في مواجهة هذه الفرية ، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها ، في ذلك المشهد العظيم .. يجيء الإيقاع الأخير في السورة ؛ يعلن تفرد الله – سبحانه – بملك السماوات والأرض وما فيهن ؛ وقدرته – سبحانه – على كل شيء بلا حدود :

« لله ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير » ..

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة ، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم ، ويتفرد بالألوهية ، ويتفرد بالقدرة ، وينيب إليه الرسل؛

Marfat.com

ويفوضون إليه الأمر كله ؛ ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم . الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير ..

وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن « الدين » وتعرضه ممثلا في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده ، والحكم بما أنزله دون سواه ...إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، والمالك هو الذي يحكم : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ..

إنها قضية واحدة .. قضية الألوهية .. قضية التوحيد .. وقضية الحكم بما أنزل الله ..لتتوحد الألوهية ، ويتحقق التوحيد ..

Marfat.com

سورة الأنعام مكية وآياتها ١٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة مكية .. من القرآن المكي .. القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشر عاما كاملة ، يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة لا تتغير ، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر . ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة ، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى !

لقد كان يعالج القضية الأولى ، والقضية الكبرى ، والقضية الأساسية ، في هذا الدين الجديد ، « قضية العقيدة » ممثلة في قاعدتها الرئيسية .. الألوهية والعبودية ، وما بينهما من علاقة .

لقد كان يخاطب بهذه القضية « الإنسان » . الإنسان بما أنه إنسان .. وفي هذا المجال يستوي الإنسان العربي في ذلك الزمان والإنسان العربي في كل زمان . كما يستوي الإنسان العربي وكل إنسان . في ذلك الزمان وفي كل زمان !

إنها قضية « الإنسان » التي لا تتغير ، لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره . قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء ، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء .. وهي قضية لا تتغير ، لأنها قضية الوجود والإنسان !

لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله .. كان يقول له : من هو ؟ ومن أين جاء ؟ وكيف جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف ؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول ؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك ؟ .. وكان يقول له : ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه ، والذي يحس أن وراءه غيبا يستشرفه ولا يراه ؟ من

Marfat.com

أنشأ هذا الوجود للشيء بالأسرار ؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره ؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟ .. وكان يقول له كذلك : كيف يتعامل مع خالق هذا الكون ، ومع الكون أيضا ، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد .

وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود « الإنسان ». وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده ، على توالي الأزمان ..

وهكذا انقضت ثلاثة عشر عاما كاملة في تقرير هذه القضية الكبرى . القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات ..

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة ، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان ، وأنها استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان ، التي قدر الله لها أن يقوم هذا الدين عليها؛ وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين .

* * *

وأصحاب الدعوة إلى دين الله ، وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ؛ خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة .. ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما .. لتقرير هذه العقيدة ؛ ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها ..

لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى خطواته في الدعوة ، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ؛ وأن يمضي في دعوته يعرّف الناس بربهم الحق ، ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه ـ في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب ـ هي أيسر السبل إلى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى : « إله » ومعنى : « لا إله إلا الله » .. كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا .. وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله

Marfat.com

إلى الله .. السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة .. السلطان في المال، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الأرواح والأبدان .. كانوا يعلمون أن : « لا إله إلا الله » ثورة على السلطان الأرضي ، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ؛ وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله .. ولم يكن يغيب عن العرب ــ وهم يعرفون لغتهم جيدا ، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة : « لا إله إلا الله » ــ ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم .. ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة ــ أو هذه الثورة ــ ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام ..

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ؟ ولم اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟

لقد بعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب ؛ إنما هي في يد غيرهم من الأجناس !

بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم ، يحكمها أمراء من العرب من قبل الرومان . وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أمراء من العرب من قبل الفرس .. وليس في أيدي العرب إلا الحجاز ونجد وما إليهما من الصحارى القاحلة ، التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك !

وكان في استطاعة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو الصادق الأمين ؛ الذي حكمه أشراف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود ، وارتضوا حكمه ، منذ خمسة عشر عاما ؛ والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسبا .. كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب ، التي أكلتها الثارات ، ومزقتها النزاعات ، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة : الرومان في الشمال والفرس في الجنوب ؛ وإعلاء راية العربية والعروبة ؛ وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة ..

ولو دعا يومها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة ــ على الأرجح ــ بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة !

Marfat.com

وربما قيل : إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خليقا بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ؛ وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة ؛ وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه .. أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه !

ولكن الله ـ سبحانه ـ وهو العليم الحكيم، لم يوجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التوجيه ! إنما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله : وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ إن الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يعنت رسوله والمؤمنين معه .. إنما هو ـ سبحانه ـ يعلم أن ليس هذا هو الطريق .. ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت رومانى أو طاغوت فارسى .. إلى يد طاغوت عربى .. فالطاغوت كله طاغوت ! .. إن الأرض لله ، ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية : « لا إله إلا الله » .. وليس الطريق أن يتحرر الناس فى هذه الأرض من طاغوت رومانى أو طاغوت فارسى .. إلى طاغوت عربى .. فالطاغوت كله طاغوت ! إن الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية: « لا إله إلا الله ».. « لا إله إلا الله » كما كان يدركها العربى العارف بمدلولات لغته : لا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله .. ولأن الجنسية التى يريدها الإسلام للناس هى جنسية العقيدة ، التى يتساوى فيها العربى والرومانى والفارسى وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق ..

وبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الدين ، والمجتمع العربى كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة .. قلة قليلة تملك المال والتجارة ؛ وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها. وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع .. والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة؛ وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وكان فى استطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرفعها راية اجتماعية ؛ وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف ، . وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء!

Marfat.com

ولو دعا يومها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربى صفين: الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة ، فى وجه طغيان المال والشرف. بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا فى وجه : « لا إله إلا الله » التى لم يرتفع إلى أفقها فى ذلك الحين إلا الأفذاذ من الناس.

وربما قيل: إن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان خليقا بعد أن تستجيب له الكثرة ؛ وتوليه قيادها ؛ فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها .. أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه فى إقرار عقيدة التوحيد التى بعثه بها ربه ، وفى تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه !

ولكن الله ــ سبحانه ــ وهو العليم الحكيم ، لم يوجهه هذا التوجيه ..

لقد كان الله ــ سبحانه ــ يعلم أن هذا ليس هو الطريق.. كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق فى المجتمع من تصور اعتقادى شامل ؛ يرد الأمر كله لله ؛ ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضى به الله من عدالة فى التوزيع ، ومن تكافل بين الجميع ؛ ويستقر معه فى قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ؛ ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى فى الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلئ قلوب بالطمع ، ولا تمتلئ قلوب بالحقد ؛ ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ؛ وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح ؛ كما يقع فى الأوضاع التى نراها قد قامت على غير : « لا إله إلا الله » ..

وبعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمستوى الأخلاقى فى الجزيرة العربية فى الدرك الأسفل فى جوانب منه شتى ــ إلى جانب ما كان فى المجتمع من فضائل الخامة البدوية .

كان التظالم فاشيا فى المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر : زهير ابن أبى سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ، ومن لا يظلم الناس يُظلمِ

ويعبر عنه القول المتعارف : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخره كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلى بجملته.. كالذى يقوله طرفة ابن العبد :

فلولا ثلاث هن من زينة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عوّدى

فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كُمَيْتٍ متى ما تعل بالماء تزبد !

... الخ

Marfat.com

وكانت الدعارة ـ فى صور شتى ـ من معالم هذا المجتمع .. كالذى روته عائشة رضى الله عنها :

« إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها .. والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ إذا طهرت من طمثها ـ أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .. ونكاح آخر : يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها . فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال ، بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم :قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يافلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل . والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ـ وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن ـ فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك »... (أخرجه البخارى فى كتاب النكاح)

وكان فى استطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلنها دعوة إصلاحية ، تتناول تقويم الأخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتزكية النفوس ، وتعديل القيم والموازين ..

وكان واجدا وقتها ـ كما يجد كل مصلح أخلاق فى أية بيئة ـ نفوسا طيبة ، يؤذيها هذا الدنس ؛ وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير ..

وربما قال قائل : إنه لو صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك فاستجابت له ـ فى أول الأمر ـ جمهرة صالحة ؛ تتطهر أخلاقها ، وتزكو أرواحها ، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها .. بدلا من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق !

ولكن الله ـ سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ، لم يوجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مثل هذا الطريق ..

لقد كان الله ـ سبحانه ـ يعلم أن ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على

Marfat.com

أساس من عقيدة، تضع الموازين ، وتقرر القيم ؛ وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم ؛ كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة ؛ وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ؛ بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلما تقررت العقيدة ـ بعد الجهد الشاق ـ وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة.. لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده .. لما تحرر الناس من سلطان العبيد ، ومن سلطان الشهوات سواء .. لما تقررت في القلوب : « لا إله إلا الله » .. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون ..

تطهرت الأرض من الرومان والفرس .. لا ليتقرر فيها سلطان العرب .. ولكن ليتقرر فيها سلطان الله .. لقد تطهرت من الطاغوت كله : رومانيا وفارسيا وعربيا على السواء :

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته . وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله ، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ؛ ويسميها راية الإسلام ، لا يقرن إليها اسما آخر ؛ ويكتب عليها : « لا إله إلا الله » !

وتطهرت النفوس والأخلاق ، وزكت القلوب والأرواح ؛ دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله ـ إلا في الندرة النادرة ـ لأن الرقابة قامت هنالك في الضمائر ؛ ولأن الطمع في رضى الله وثوابه ، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات ..

وارتفعت البشرية في نظامها ، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها ، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط ؛ والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام ..

ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام ؛ كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. وكانوا قد وعدوا على إقامة هذا الدين وعدا واحدا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان .. ولا حتى لهذا الدين على أيديهم .. وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا .. وعدا واحدا هو الجنة .. هذا كل ما وعدوه على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ، ومواجهة الجاهلية بالأمر

Marfat.com

الذى يكرهه أصحاب السلطان ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وهو : « لا إله إلا الله » !

فلما أن ابتلاهم الله فصبروا ؛ ولما أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم ؛ ولما أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء فى هذه الأرض - كائنا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم ، وقيام هذا الدين فى الأرض بجهدهم - ولما لم يعد فى نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض ، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت ..

لما أن علم الله منهم ذلك كله ، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أمناء على هذه الأمانة الكبرى. أمناء على العقيدة التى يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية فى القلوب والضمائر وفى السلوك والشعائر ، وفى الأرواح والأموال ، وفى الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان الذى يوضع فى أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها ، وعلى عدل الله يقيمونه ، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شىء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم ؛ إنما يكون السلطان الذى فى أيديهم لله ولدينه وشريعته ، لأنهم يعلمون أنه من الله ، هو الذى آتاهم إياه .

ولم يكن شىء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء ، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها .. راية لا إله إلا الله .. ولا ترفع معها سواها.. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق فى ظاهره ؛ المبارك الميسر فى حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله ، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية ، أو دعوة اجتماعية ، أو دعوة أخلاقية . . أو رفعت أى شعار إلى جانب شعارها الواحد : « لا إله إلا الله » ..

* * *

ذلك شأن تصدى القرآن المكى كله لتقرير : « لا إله إلا الله » فى القلوب والعقول ، واختيار هذا الطريق - على مشقته فى الظاهر - وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى ؛ والإصرار على هذا الطريق ..

فأما شأن هذا القرآن فى تناول قضية الاعتقاد وحدها ، دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذى يقوم عليها ، والشرائع التى تنظم المعاملات فيها .. فذلك كذلك مما ينبغى أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية ..

Marfat.com

إن طبيعة هذا الدين هى التى قضت بهذا .. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير .. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة المديدة الظلال المتشابكة الأغصان ، الضاربة فى الهواء .. لابد لها أن تضرب بجذورها فى التربة على أعماق بعيدة ، وفى مساحات واسعة ؛ تناسب ضخامتها وامتدادها فى الهواء .. فكذلك هذا الدين .. إن نظامه يتناول الحياة كلها ؛ ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها ؛ وينظم حياة الإنسان لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن كذلك فى الدار الآخرة ؛ ولا فى عالم الشهادة وحده ولكن كذلك فى عالم الغيب المكنون عنها؛ ولا فى المعاملات الظاهرة المادية ، ولكن فى أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا .. فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية .. ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضا ..

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ؛ يحدد منهجه فى بناء نفسه وفى امتداده ؛ ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها .. ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة فى الهواء ، والضارب من جذورها فى الأعماق ..

ومتى استقرت عقيدة : « لا إله إلا الله » فى أعماقها الغائرة البعيدة ، استقر معها فى نفس الوقت النظام الذى تتمثل فيه : « لا إله إلا الله » ؛ وتعين أنه النظام الوحيد الذى ترتضيه النفوس التى استقرت فيها العقيدة .. واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته ، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته .. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان .. وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول ، لا تعترض على شىء منه فور صدوره إليها ؛ ولا تتلكأ فى تنفيذه بمجرد تلقيها له . وهكذا أبطلت الخمر ، وأبطل الربا ، وأبطل الميسر ، وأبطلت العادات الجاهلية كلها ، أبطلت بآيات من القرآن ، أو كلمات من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بينما الحكومات الأرضية تجهد فى شىء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها ونظمها وأوضاعها ، وجندها وسلطانها ، ودعايتها وإعلامها .. فلا تبلغ

Marfat.com

إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات ؛ بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات[1] !

وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى فى هذا المنهج القويم .. إن هذا الدين منهج عملى حركى جاد .. جاء ليحكم الحياة فى واقعها ؛ ويواجه هذا الواقع ليقضى فيه بأمره .. يقره أو يعدله أو يغيره من أساسه .. ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلا ، فى مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده .

إنه ليس نظرية تتعامل مع الفروض ! إنه منهج يتعامل مع الواقع ! فلابد أولا أن يقوم المجتمع المسلم الذى يقر عقيدة أن لا إله إلا الله ، وأن الحاكمية ليست إلا لله ؛ ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ؛ ويرفض شرعية أى وضع لايقوم على هذه القاعدة ..

وحين يقوم هذا المجتمع فعلا ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع .. وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين فى تقرير النظم وفى سن الشرائع .. لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع ، رافضين ابتداء لغيرها من النظم والشرائع ..

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من السلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع فى هذا المجتمع ؛ حتى تكون للنظام هيبته ويكون للشريعة جديتها .. فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من الواقعية ما يقتضى الأنظمة والشرائع من فورها ..

والمسلمون فى مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله .. ومن ثم لم ينزل الله فى هذه الفترة تنظيمات وشرائع ؛ وإنما نزل لهم عقيدة ، وخلقا منبثقا من العقيدة بعد استقرارها فى الأعماق البعيدة .. فلما صارت لهم دولة فى المدينة ذات سلطان تنزلت عليهم الشرائع ؛ وتقرر لهم النظام ؛ الذى يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ؛ والذى تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ ..

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع فى مكة ، ليختزنوها جاهزة ، حتى تطبق بمجرد قيام الدولة فى المدينة ! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين ! إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية ! إنه لايفترض المشكلات ليفترض لها حلولا .. إنما هو يواجه الواقع بحجمه وشكله وملابساته لصوغه فى قالبه الخاص ، وفق حجمه وشكله وملابساته . .

(١) يراجع كيف حرم الله الخمر فى الجزء الخامس من الطبعة المنقحة من هذه الظلال ص ٧٨-٨٥ وكيف عجزت أمريكا عن ذلك فى كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

Marfat.com

والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام ، وأن يصوغ تشريعات حياة .. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها، مع تملكه السلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين ، ولا كيف يعمل في الحياة ؟ كما يريد له الله ..

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية ، ومناهج بشرية . ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة .. إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض ، تواجه مستقبلا غير موجود .. والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده .. عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير . عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله ، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله . وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية ، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة ـ حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ـ يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة : لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله ، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم ..إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم ..

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة .. هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة ..

فإذا دخل في هذا الدين ـ بمفهومه هذا الأصيل ـ عصبة من الناس ، فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياتها الاجتماعية ؛ لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس ؛ وألا تحكم في حياتها كلها إلا الله .

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه ؛ كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية ، في إطار الأسس العامة للنظام

Marfat.com

الإسلامى .. فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامى الواقعى العملى الجاد ..

ولقد يخيل إلى بعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الربانى القويم ، المؤسس على حكمة العليم الحكيم ، وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة .. نقول لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامى - بل التشريعات الإسلامية كذلك - على الناس مما ييسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس فى هذا الدين !

وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذى كان يقترحه المقترحون : أن تقوم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى أولها تحت راية قومية ، أو اجتماعية ، أو أخلاقية ، تيسيرا للطريق !

إن النفوس يجب أن تخلص أولا لله ، وتعلن عبوديتها له ، بقبول شرعه وحده ورفض كل شرع غيره .. من ناحية المبدأ .. قبل أن تخاطب بأى تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

إن الرغبة يجب أن تنبثق من الرغبة فى إخلاص العبودية لله ، والتحرر من سلطان سواه .. لا من أن النظام المعروض عليها . . فى ذاته .. خير مما لديها فى كذا وكذا على وجه التفصيل .

إن نظام الله خير فى ذاته ، لأنه من شرع الله . ولن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله .. ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة .. إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده ورفض كل شرع غيره هو ذاته الإسلام . وليس للإسلام مدلول سواه . فمن رغب فى الإسلام فقد فصل فى هذه القضية ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته .. فهذه إحدى بديهيات الإيمان!

* * *

وبعد فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكى قضية العقيدة فى خلال الثلاثة عشر عاما .. إنه لم يعرضها فى صورة « نظرية » ! ولم يعرضها فى صورة « لاهوت » ولم يعرضها فى صورة جدل كلامى كالذى زاوله فيما بعد ما سمى بـ « علم التوحيد » أو « علم الكلام » !

كلا .. لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة « الإنسان » بما فى وجوده هو وبما فى الوجود من حوله من دلائل وإيحاءات . . كان يستنقذ فطرته من الركام ؛ ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ؛ ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها .. والسورة التى بين أيدينا نموذج كامل من هذا المنهج المتفرد وسنتحدث عن خصائصها بعد قليل ..

Marfat.com

هذا بصفة عامة . وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعيــة .. كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة .. في نفوس آدمية حاضرة واقعة .. ومن ثم لم يكن شكل « النظرية » هو الشكل الذى يناسب هذا الواقع الحاضر . إنما كان هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية فى النفوس الحاضرة الحية .. ولم يكن الجدل الذهنى الذى انتهجه - فى العصور المتأخرة - علم التوحيد ، هو الشكل المناسب كذلك .. فلقد كان القرآن يواجه واقعا بشريا كاملا بكل ملابساته الحية ؛ ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها فى خضم هذا الواقع .. وكذلك لم يكن « اللاهوت » هو الشكل المناسب . فإن العقيدة الإسلامية ولو أنها عقيدة ، إلا أنها عقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملى ؛ ولا تقبع فى الزاوية الضيقة التى تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن وهو يبنى العقيدة فى ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ؛ كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية فى ضميرها وأخلاقها وواقعها .. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة ، لا فى صورة نظرية ، ولا فى صورة لاهوت ولا فى صورة جدل كلامى .. ولكن فى صورة تكوين تنظيمى مباشر للحياة ، ممثل فى الجماعة المسلمة ذاتها . وكان نمو الجماعة المسلمة فى تصورها الاعتقادى ، وفى سلوكها الواقعى وفق هذا التصور ، وفى دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها .. كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقيدى ، وترجمة حية له .. وهذا هو منهج الإسلام الذى يمثل طبيعته كذلك ..

وإنه لمن الضرورى لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه فى الحركة على هذا النحو الذى بيناه . . ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التى طالت فى العهد المكى على هذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملى للحركة الإسلامية ، والبناء الواقعى للجماعة المسلمة .. لم تكن مرحلة تلقى « النظرية » ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدى للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلى معا .. وهكذا ينبغى أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى ..

Marfat.com

هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة ؛ وأن تتم خطواتها على مهل وفي عمق وتثبت .. وهكذا ينبغي ألا تكون مرحلة بناء العقيدة مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ؛ ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة في صورة حية ، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ؛ ومتمثلة في بناء جماعي يعبر نموه عن نمو العقيدة ذاتها ؛ ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ؛ لتتمثل العقيدة حية وتنمو نموا حيا في خضم المعركة .

وخطأ أي خطأ - بالقياس إلى الإسلام - أن تتبلور النظرية في صورة نظرية مجردة للدراسة النظرية .. المعرفية الثقافية .. بل خطر أي خطر كذلك ..

إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى .. كلا ! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ؛ ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا « النظرية الإسلامية » !

ولكن الله - سبحانه - كان يريد أمرا آخر . كان يريد منهجا معينا متفردا . كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد . كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة ، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة ! كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الفعلي ، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو صورة العقيدة .. وكان الله - سبحانه - يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة .. فلم يكن بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة .. حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج ..

هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ؛ ولا نحاول أن نغيرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة ، وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود ، كما أخرجها الله أول مرة ..

يجب أن ندرك خطأ المحاولة ، وخطرها معاً ، في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي يجب أن تتمثل في واقع تام حي متحرك ، إلى « نظرية » للدراسة والمعرفة الثقافية لمجرد أننا نريد أن نواجه « النظريات » البشرية الهزيلة بنظرية إسلامية !

Marfat.com

إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل فى نفوس حية ، وفى تنظيم واقعى ، وفى حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة فى نفوس أصحابها - بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم وتنتزعها من الوسط الجاهلى . وهى فى صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول ومن الحياة أيضا مساحة أضخم وأوسع وأعمق مما تشغله « النظرية » ؛ وتشمل - فيما تشمل - مساحة النظرية ومادتها . ولكنها لا تقتصر عليها .

إن التصور الإسلامى للألوهية وللوجود الكونى وللحياة وللإنسان ، تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعى إيجابى . وهو يكره - بطبيعته - أن يتمثل فى مجرد تصور ذهنى معرفى . لأن هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب أن يتمثل فى أناسى ، وفى تنظيم حى ، وفى حركة واقعية .. وطريقته فى التكون أن ينمو من خلال الأناسى والتنظيم الحى والحركة الواقعية ؛ حتى يكتمل نظريا فى نفس الوقت الذى يكتمل فيه واقعيا ؛ ولا ينفصل فى صورة نظرية ؛ بل يظل ممثلا فى الصورة الواقعية ..

وكل نمو نظرى يسبق النمو الحركى الواقعى ، ولا يتمثل من خلاله ، هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين ، وغايته ، وطريقة تركيبه الذاتى .

والله سبحانه يقول :

« وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا » ..

فالفرق مقصود . والمكث مقصود كذلك . . ليتم البناء التكوينى المؤلف من عقيدة فى صورة « منظمة حية » لا فى صورة « نظرية معرفية » !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيدا ، أنه كما أن هذا الدين دين ربانى ، فإن منهجه فى العمل منهج ربانى كذلك ، متواف مع طبيعته . وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه فى العمل .

ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادى - ومن ثم يغير الواقع الحيوى - فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الفكرى والحركى الذى يبنى به التصور الاعتقادى ويغير به الواقع الحيوى .. جاء ليبنى عقيدة وهو يبنى أمة .. ثم لينشئ منهج تفكير

Marfat.com

خاصا به بنفس الدرجة التي ينشئ بها تصورا اعتقاديا وواقعا حيويا . ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص وتصوره الاعتقادي وبنائه الحيوي ، فكلها حزمة واحدة .

فإذا عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه ، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ؛ وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى . إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين إلا به .

إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب . ولكن كانت وظيفته أن يغير طريقة تفكيرهم ، وتناولهم للتصور وللواقع . ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة .

ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني والحياة الربانية إلا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك . منهج أراد الله أن يقيم منهج الناس في التفكير على أساسه ليصح تصورهم وتكوينهم الحيوي .

ونحن حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه نظرية للدراسة نخرج عن طبيعة المنهج الرباني للتكوين ،وعن طبيعة المنهج الرباني للتفكير . ونخضع الإسلام لطرائق التفكير البشرية! كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لنرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد !

والأمر من هذه الناحية يكون خطيرا . والهزيمة تكون قاتلة !

إن وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا ـ نحن أصحاب الدعوة الإسلامية ـ منهجا خاصا للتفكير نبرأ به من رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الأرض ؛ والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا .. فإذا نحن أردنا أن نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته من مناهج التفكير الجاهلية الغالبة ، كنا قد أبطلنا وظيفته التي جاء ليؤديها للبشرية؛ وحرمنا أنفسنا فرصة الخلاص من ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا ،وفرصة الخلاص من رواسبه في عقولنا وتكويننا .

والأمر من هذه الناحية كذلك يكون خطيرا ، والخسارة تكون قاتلة . .

إن منهج التفكير والحركة ، في بناء الإسلام ، لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور

Marfat.com

الاعتقادى والنظام الحيوى ؛ ولا ينفصل عنه كذلك .. ومهما يخطر لنا أن نقدم ذلك التصور وهذا النظام فى صورة تعبيرية ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشئ « الإسلام » فى الأرض فى صورة حركة واقعية . بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الإسلام فى هذه الصورة إلا المشتغلون فعلا بحركة إسلامية واقعية . وأن قصارى ما يفيده هؤلاء من تقديم الإسلام لهم فى هذه الصورة هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذى وصلوا إليه هم فعلا فى أثناء الحركة !

ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادى يجب أن يتمثل من فوره فى تجمع حركى ؛ وأن يكون التجمع الحركى فى الوقت ذاته تمثيلا صحيحا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادى .

ومرة أخرى أكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعى للإسلام الربانى ، وأنه منهج أعلى وأقوم وأشد فاعلية وأكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها فى الصورة الذهنية الباردة للناس ، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين بالفعل بحركة واقعية ؛ وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظرى .

وإذا صح هذا فى أصل النظرية فهو أصح - بطبيعة الحال - فيما يختص بتقديم أسس النظام الذى يتمثل فيه التصور الإسلامى ، أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام .

إن الجاهلية التى حولنا كما أنها تضغط على أعصاب بعض المخلصين من أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يستعجلون خطوات المنهج الإسلامى ، كذلك هى تتعمد أحيانا أن تحرجهم فتسألهم : أين تفصيلات نظامكم الذى تدعون إليه ؟ وماذا أعددتم لتنفيذه من بحوث ومن تفصيلات ومن مشروعات ؟ وهى فى هذا تتعمد أن تعجلهم عن منهجهم ، وأن تجعلهم يتجاوزون مرحلة بناء العقيدة ؛ وأن يحولوا منهجهم الربانى عن طبيعته ، التى تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة ، ويتحدد فيها النظام من خلال الممارسة ، وتسن فيها التشريعات فى ثنايا مواجهة الحياة الواقعية بمشكلاتها الحقيقية ..

ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة ! من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم ألا يستخفهم من لا يوقنون !

Marfat.com

ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج وأن يستعلوا عليها ؛ وأن يتحركوا بدينهم وفق منهج هذا الدين في الحركة . فهذا من أسرار قوته ، وهذا هو مصدر قوتهم كذلك .

إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ؛ ولا انفصام بينهما .. وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية . والمناهج الغربية الغربية يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية ؛ ولكنها لا يمكن أن تحقق نظامنا الرباني .. فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية . لا في الحركة الإسلامية الأولى كما يظن بعض الناس !

هذه هي كلمتي الأخيرة .. وإنني لأرجو أن أكون بهذا البيان لطبيعة القرآن المكي ، ولطبيعة المنهج الرباني المتمثل فيه ، قد بلغت ؛ وأن يعرف أصحاب الدعوة الإسلامية طبيعة منهجهم ، ويثقوا به ، ويطمئنوا إليه ؛ ويعلموا أن ما عندهم خير ، وأنهم هم الأعلون .. « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .. صدق الله العظيم ..

ونمضي بعد ذلك لمواجهة السورة .

* * *

هذه السورة ـ وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال ـ نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة ؛ وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه ، في موضوعها الأساسي ، وفي منهج التناول ، وفي طريقة العرض سواء .. ذلك مع احتفاظها « بشخصيتها » الخاصة ؛ وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن ؛ والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة .. فلكل سورة شخصيتها ، وملامحها ، ومحورها ، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي ؛ والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض ؛ والصور والظلال والجو الذي يظللها ؛ والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها ؛ وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها ... حتى وهي تتناول موضوعا واحدا أو موضوعات متقاربة . فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة ؛ ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها !

وهذه السورة ـ مع ذلك ـ تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة .. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف ، وفي كل مشهد ، تمثل « الروعة الباهرة » .. الروعة التي تبده النفس ،

Marfat.com

وتشده الحس ، وتبهر النَّفَس أيضا ؛ وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورا !

ثم ! هذه حقيقة ! حقيقة أجدها في نفسي وحسي وأنا أتابع سياق السورة ومشاهدها وإيقاعاتها .. وما أظن بشرا ذا قلب لا يجد منها لونا من هذا الذي أجد .. إن الروعة فيها تبلغ فعلا حد البهر . حتى لا يملك القلب أن يتابعها إلا مبهورا مبدوها !

إنها – في جملتها – تعرض « حقيقة الألوهية » .. تعرضها في مجال الكون والحياة ، كما تعرضها في مجال النفس والضمير ، وتعرضها في مجاهيل هذا الكون المشهود ، كما تعرضها في مجاهيل ذلك الغيب المكنون .. وتعرضها في مشاهد النشأة الكونية والنشأة الحيوية والنشأة الإنسانية ، كما تعرضها في مصارع الغابرين واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها في مشاهد الفطرة وهي تواجه الكون ، وتواجه الأحداث ، وتواجه النعماء والضراء ، كما تعرضها في مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة في حياة البشر الظاهرة والمستكنة ، وفي أحوالهم الواقعة والمتوقعة .. وأخيرا تعرضها في مشاهد القيامة ، ومواقف الخلائق وهي موقوفة على ربها الخالق . .

إن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة ، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها . وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية ، وتطوف بها في الوجود كله ، وراء ينابيع العقيدة وموحياتها المستسرة والظاهرة في هذا الوجود الكبير .. إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السماوات والأرض ، تلحظ فيها الظلمات والنور ، وترقب الشمس والقمر والنجوم . وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات ، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها ؛ وتقف بها على مصارع الأمم الخالية ، وآثارها البائدة والباقية . ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر ، وأسرار الغيب والنفس ، والحي يخرج من الميت والميت يخرج من الحي ، والحبة المستكنة في ظلمات الأرض ، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم . ثم تموج بالجن والإنس ، والطير والوحش ، والأولين والآخرين ، والموتى والأحياء ، والحفظة على النفس بالليل والنهار ..

إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس ، وأقطار الحس .. ثم إنها اللمسات المبدعة الحية ، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال .. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر ، جديد نابض ، كأنما تتلقاه النفس أول مرة ؛ وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان !

Marfat.com

وهى تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تـكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، متشابكة معها ؛ فى المجرى المتصل المتدفق !

وهى فى كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة ، تبلغ حد « الروعة الباهرة » التى وصفنا ــ مع تناسق منهج العرض فى شتى المشاهد كما سنبين ــ وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة ، وبالحيوية الدافقة ، وبالإيقاع التصويرى والتعبيرى والموسيقى وبالتجمع والاحتشاد ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة !

ونحن ــ سلفا ــ على يقين أننا لسنا بالغين شيئا فى نقل إيقاعات هذه السورة إلى أى قلب إلا بأن ندع السورة ذاتها تنطلق بسياقها الذاتى ، وإيقاعها الذاتى ، إلى هذا القلب .. لسنا بالغين شيئا بالوصف البشرى والأسلوب البشرى .. ولـكنها مجرد المحاولة لإقامة القنطرة بين المعزولين عن هذا القرآن ــ بحكم بعدهم عن الحياة فى جو القرآن ــ وبين هذا القرآن !

والحياة فى جو القرآن لا تعنى مجرد مدارسة القرآن ؛ وقراءته والإطلاع على علومه .. إن هذا ليس « جو القرآن » الذى نعنيه .. إن الذى نعنيه بالحياة فى جو القرآن : هو أن يعيش الإنسان فى جو ، وفى ظروف ، وفى حركة ، وفى معاناة ، وفى صراع ، وفى اهتمامات .. كالتى كان يتنزل فيها هذا القرآن .. أن يعيش الإنسان فى مواجهة هذه الجاهلية التى تعم وجه الأرض اليوم ، وفى قلبه ، وفى همه ، وفى حركته ، أن « ينشئ » الإسلام فى نفسه وفى نفوس الناس ، وفى حياته وفى حياة الناس ، مرة أخرى فى مواجهة هذه الجاهلية . بكل تصوراتها ، وكل اهتماماتها وكل تقاليدها ، وكل واقعها العملى ؛ وكل ضغطها كذلك عليه ، وحربها له ، ومناهضتها لعقيدته الربانية ، ومنهجه الربانى ؛ وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة ؛ بعد الـكفاح والجهاد والإصرار ..

هذا هو الجو القرآنى الذى يمكن أن يعيش فيه الإنسان ؛ فيتذوق هذا القرآن .. فهو فى مثل هذا الجو نزل ، وفى مثل هذا الخضم عمل .. والذين لا يعيشون فى مثل هذا الجو معزولون عن القرآن مهما استغرقوا فى مدارسته وقراءته والاطلاع على علومه ..

Marfat.com

والمحاولة التي نبذلها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن ، ليست بالغة شيئاً ، إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة ؛ ويصلوا إلى المنطقة الأخرى ؛ ويحاولوا أن يعيشوا في « جو القرآن » حقاً بالعمل والحركة .. وعندئذ فقط سيتذوقون هذا القرآن ؛ ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء ..

* * *

هذه السورة تعالج قضية العقيدة الأساسية .. قضية الألوهية والعبودية .. تعالجها بتعريف العباد برب العباد .. من هو ؟ ما مصدر هذا الوجود ؟ ماذا وراءه من أسرار ؟ من هم العباد ؟ من ذا الذي جاء بهم إلى هذا الوجود ؟ من أنشأهم ؟ من يطعمهم ؟ من يكفلهم ؟ من يدبر أمرهم ؟ من يقلب أفئدتهم وأبصارهم ؟ من يقلب ليلهم ونهارهم ؟ من يبدؤهم ثم يعيدهم ؟ لأي شيء خلقهم ؟ ولأي أجل أجلهم ؟ ولأي مصير يسلمهم ؟ .. هذه الحياة المنبثقة هنا وهناك .. من بثها في هذا الموات ؟ .. هذا الماء الهاطل . هذا البرعم النابغ . هذا الحب المتراكب . هذا النجم الثاقب . هذا الصبح البازغ . هذا الليل السادل . هذا الفلك الدوار .. هذا كله من وراءه ؟ وماذا وراءه من أسرار ، ومن أخبار ؟ .. هذه الأمم ، وهذه القرون ، التي تذهب وتجيء ، وتهلك وتستخلف .. من ذا يستخلفها ؟ ومن ذا يهلكها ؟ لماذا تستخلف ؟ ولماذا يدركها البوار ؟ وماذا بعد الاستخلاف والابتلاء والوفاة من مصير وحساب وجزاء ؟؟؟

هكذا تطوف السورة بالقلب البشري في هذه الآماد والآفاق ، وفي هذه الأغوار والأعماق .. ولكنها تمضي في هذا كله على منهج القرآن المكي .. الذي أسلفنا الحديث عنه في الصفحات السابقة — وعلى منهج القرآن كله .. إنها لا تهدف إلى تصوير نظرية في العقيدة ولا إلى جدل لاهوتي يشغل الأذهان والأفكار .. إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ؛ لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق .. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم ، وتعبيد سعيهم وحركتهم ، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم ، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد .. سلطان الله الذي لا سلطان لغيره في الأرض ولا في السماء ..

ويكاد اتجاه السورة كله يمضي إلى هذا الهدف المحدد .. من أولها إلى آخرها .. فالله هو

Marfat.com

الخالق . والله هو الرازق . والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذى يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار .. وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم فى حياة العباد ؛ وألا يكون لغيره نهى ولا أمر ، ولا شرع ولا حكم ، ولا تحليل ولا تحريم . فهذا كله من خصائص الألوهية ، ولا يجوز أن يزاوله فى حياة الناس أحد من دون الله ، لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا يحي ولا يميت ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يمنح ولا يمنع ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته فى تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ؛ والتى تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية ، من كل درب ومن كل باب !

والقضية الكبيرة التى تعالجها السورة هى قضية الألوهية والعبودية فى السماوات والأرض . فى محيطها الواسع ، وفى مجالها الشامل .. ولكن المناسبة الحاضرة فى حياة الجماعة المسلمة حينذاك ، المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة ، هى ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم فى الذبائح وللطاعم ، ومن حق تقرير بعض الشعائر فى النذور من الذبائح والثمار والأولاد .. وهى المناسبة التى تتحدث عنها هذه الآيات فى أواخر السورة :

« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، إن كنتم بآياته مؤمنين . ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » .. (١١٨ - ١٢١)

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا

Marfat.com

عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرّمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ؛ وحرموا ما رزقهم الله ـ افتراء على الله ـ قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .. (١٣٦ ـ ١٤٠)

هذه هى المناسبة الحاضرة فى حياة الأمة المسلمة ـ والجاهلية حولها ـ التى تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة .. قضية التشريع .. ومن ورائها القضية الكبرى .. قضية الألوهية والعبودية التى تعالجها السورة كلها ، ويعالجها القرآن المكى كله ، كما يعالجها القرآن المدنى أيضا كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع .

والحشد الذى يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات ، وهو يواجه الجاهلية وأهلها فى أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور ـ وهى المناسبة التى تتمثل فيها قضية حق التشريع ـ وربطها بقضية العقيدة كلها ـ قضية الألوهية والعبودية ـ وجعلها مسألة إيمان أو كفر ، ومسألة إسلام أو جاهلية .. هذا الحشد ـ على النحو الذى سنحاول أن نستعرض نماذج منه فى هذا التعريف المختصر بالسورة ، والذى سيتجلى على حقيقته فى المواجهة التفصيلية للنصوص فى السياق بعد ذلك ـ يوقع فى النفس تلك الحقيقة الأصيلة فى طبيعة هذا الدين . وهى أن كل جزئية صغيرة فى الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعا مطلقا لحاكمية الله المباشرة ، الممثلة فى شريعته . وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة فى تلك الجزئية الصغيرة .

كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التى ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله من ظلال حاكمية البشر فى أى شأن من شؤون البشر ـ جل أم حقر ، كبر أم صغر ـ وربط أى شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذى يتمثل فيه هذا الدين .. وهو حاكمية الله المطلقة التى تتمثل فيها ألوهيته فى الأرض ، كما تتمثل ألوهيته فى الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك .

Marfat.com

إن سياق السورة يعقب على تلك الشعائر الجاهلية في شأن الأنعام والثمار والنذور منها ومن الأولاد تعقيبات منوعة . بعضها مباشر ، لتصوير مدى السخف والتناقض في هذه الشعائر ، وبعضها للربط بين مزاولة البشر لحق التحريم والتحليل وقضية العقيدة الكبرى ، ولبيان أن اتباع أمر الله فيها هو صراطه المستقيم ، الذي يخرج من لا يتبعه عن هذا الدين .. على النحو التالي بعد ذكر تلك الشعائر في الآيات السابقة :

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم مااشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين . قل : لا أجد فيما أوحي إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقا أهلّ لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين . سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون. قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون . قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن

Marfat.com

نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله ـ إلا بالحق ـ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم ـ إلا بالتى هى أحسن ـ حتى يبلغ أشده ،وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ـ لا نكلف نفسا إلا وسعها ـ وإذا قلتم فاعدلوا ـ ولو كان ذا قربى ـ وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .. (١٤١ ـ ١٥٣)

وكذلك نرى أن هذه المسألة الجزئية الخاصة بالتحريم والتحليل فى الأنعام والنذور فى الأنعام والثمار ، وفى الأولاد ـ على ما كان متبعا فى الجاهلية ـ يربطها السياق بتلك القضايا الكبيرة : بالهدى والضلال . واتباع منهج الله أو اتباع خطوات الشيطان ، وبرحمة الله أو بأسه وبالشهادة بوحدانية الله أو عدل غيرها به . وباتباع صراطه مستقيما أو التفرق عنه . ويستخدم نفس التعبيرات التى استخدمها وهو بصدد القضية الكبرى فى محيطها الشامل ..

كما نراه يحشد لها من المؤثرات والموحيات ـ فى هذا الموضع وحده ـ مشهد الخلق والإحياء فى الجنات المعروشات وغير المعروشات . ومشهد النخل والزرع مختلفا ألوانه والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . وموقف الإشهاد والمفاصلة . وموقف البأس والتدمير على المشركين ..

وهى ذات المشاهد التى حشدها السياق فى السورة كلها من قبل ، وهو يتناول قضية العقيدة بجملتها ، قبل أن يتعرض لهذه المناسبة الخاصة التى تتمثل فيها . ولكل هذا دلالته التى لا تخطىء على طبيعة هذا الدين ، ونظرته لقضية الحاكمية والتشريع فى الكثير والقليل ..

* * *

ولعلنا قد سبقنا سياق السورة ؛ ونحن نبين منهجها الموضوعى وهى تتناول قضية العقيدة بجملتها ، فى مواجهة مناسبة جزئية تتعلق بأمر التشريع والحاكمية . وهى المناسبة التى لا نقول : إنها اقتضت ذلك الحشد المتجمع المتدفق من التقريرات والتأثيرات فى سياق السورة كله ، وهذا البيان الرائع الباهر لحقيقة الألوهية فى مجالها الواسع الشامل . ولكننا نقول : إنها المناسبة التى ربطت فى سياق السورة بهذا كله ؛ فدل هذا الربط على طبيعة هذا الدين ، ونظرته لقضية

Marfat.com

التشريع والحاكمية فى الكبير والصغير ، وفى الجليل والحقير من شؤون هذه الحياة الدنيا .. كما أسلفنا ..

فالآن نمضى فى التعريف المجمل بالسورة وخصائصها وملامحها ، على النحو الذى ألفناه فى هذه الظلال ، قبل الدخول فى الاستعراض للفصل السياق :

* * *

فى روايات عن ابن عباس ، وعن أسماء بنت يزيد ، وعن جابر ، وعن أنس ابن مالك وعن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنهم جميعا — أن هذه السورة مكية ، وأنها نزلت كلها جملة واحدة .

وليس فى هذه الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة ؛ وليس فى موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكى .. وهى حسب الترتيب الراجح لسور القرآن يجىء ترتيبها بعد سورة الحجر ؛ وتكون هى السورة الخامسة والخمسين .. ولكننا — كما بينا من قبل فى التعريف بسورة البقرة — لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشىء عن تاريخ محدد لنزول السور . فالمعول عليه عندهم — فى الغالب — فى ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها — لا جملتها — وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة . إذ المعول فى الترتيب على أوائل السورة .. أما فى سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة . ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها . غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة .. ربما الخامسة أو السادسة .. ولا نعتمد فى هذا الترجيح على أكثر من رقم الترتيب ؛ ثم على سعة الموضوعات التى تناولتها ، والتوسع فى عرضها على هذا النحو ، الذى يشى بأن الدعوة والجدل مع المشركين ، وطول الإعراض منهم والتكذيب لرسول الله ، أصبح يقتضى التوسع فى عرض القضايا العقيدية على هذا النحو ؛ كما يقتضى تسلية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن طول الصد والإعراض والتكذيب ..

وفى رواية عن ابن عباس وقتادة : أن السورة مكية كلها إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة . قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء . قل : من أنزل

Marfat.com

الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل : الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .. وهى الآية : ٩١ . نزلت فى مالك ابن الصيف وكعب ابن الأشرف اليهوديين . وقوله تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .. وهى الآية ١٤١ ، نزلت فى ثابت ابن قيس شماس الأنصارى . . وقال ابن جريج والماوردى : نزلت فى معاذ ابن جبل .

والرواية عن الآية الأولى محتملة ؛ بسبب أن فيها ذكرا للكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ، ومواجهة اليهود فى قوله تعالى : « تجعلونه قراطيس تبدونها » .. وإن كان هناك روايات أخرى عن مجاهد ، وعن ابن عباس أن الذين قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء هم مشركو مكة وأن الآية مكية . وهناك قراءة : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا » ... فهى على هذه القراءة خبر عن اليهود وليست خطابا لهم . وسياق الآية كله عن المشركين . وقد رجح ابن جرير هذه الرواية واستحسن هذه القراءة .. وعلى هذا تكون الآية مكية .

وأما الآية الثانية فالسياق لا يحتمل أن تكون مدنية . لأن السياق بدونها ينقطع ما قبلها فيه عما بعدها فى المعنى وفى العبارة . والحديث متصل عن إنشاء الله للجنات المعروشات ، وعن جعله حمولة وفرشا من الأنعام فى الآية التى تليها : « ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .. ثم يمضى السياق فى تكملة الحديث عن الأنعام ، الذى كان قد بدأه قبل آية الثمار .. بجعلها كلها موضوع واحد، هو الذى تحدثنا عنه فى الفقرة السابقة الخاصة بقضية التحريم والتحليل والنذور .

وإنما الذى جعل بعضهم يعتبرها مدنية هو ما جاء فيها من قوله تعالى : « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » .. واعتبارهم هذا الأمر يعنى الزكاة . والزكاة لم تتقرر بأنصبتها المحددة فى الزروع والثمار إلا فى المدينة .. ولكن هذا المعنى ليس متعينا فى الآية . إذ أن هناك أقوالا مأثورة فى تفسيرها بأنها تعنى الصدقات ، أو بأنها تعنى الإطعام منها لمن يحضر ...

Marfat.com

يوم الحصاد أو جنى الثمار ؛ أو لقرابتهم .. وأن الزكاة حددت فيما بعد بالعشر ونصف العشر .. وعلى هذا تكون الآية مكية .

وقال الثعلبي: سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة : « وما قدروا الله حق قدره » .. إلى آخر ثلاث آيات . و « قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » ... إلى آخر ثلاث آيات ...

والآيات الأولى بينا مكيتها ، إذ ينطبق على الآيتين الثانية والثالثة من هذه المجموعة ما ينطبق على الآية الأولى منها ..

أما المجموعة الثانية فليس هناك ـ فيما وصل إليه اطلاعي ـ رواية عن صحابي ولا تابعي عن كونها مدنية ؛ وليس في موضوعها ما يدعو إلى اعتبارها مدنية . وهي تتحدث عن تصورات جاهلية ؛ وهي متصلة بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح والنذور الذي سبق الحديث عنه ، اتصالا وثيقا .. لذلك نميل إلى اعتبارها مكية كذلك ..

وفي المصحف الأميري أن الآيات (٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣) مدنية . وقد تحدثنا عن الآيات (٩١ ، ٩٢) و (١٤١) و (١٥١ ـ ١٥٣) وليس في الآيات (٢٠ ، ٢٣ ، ١١٤) ما يدعو إلى الظن بأنها مدنية إلا ذكر أهل الكتاب فيها . وهذا ليس دليلا فقد ورد مثل هذه في الآيات المكية ..

لهذا كله نحن نميل إلى اعتبار الروايات المطلقة ، التي تنص على أن السورة نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة . وقد وردت عن ابن عباس وعن أسماء بنت يزيد ، وفي الرواية عن أسماء تحديد للرواية بحادث مصاحب على النحو التالي :

« قال سفيان الثوري عن ليث عن شهر ابن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : « نزلت سورة الأنعام على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة » .

أما الرواية عن ابن عباس فقد رواها الطبراني قال :

حدثنا علي ابن عبد العزيز ، حدثنا حجاج ابن منهال ، حدثنا حماد ابن سلمة ، عن علي ابن زيد ، عن يوسف ابن مهران ، عن ابن عباس ، قال : « نزلت الأنعام بمكة ليلة ؛ جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح » ..

Marfat.com

وهاتان الروايتان أوثق من الأقوال التي جاء فيها أن بعض الآيات مدنية . وذلك بالإضافة إلى التحليل الموضوعي الذي أسلفنا .

والواقع أن سياق السورة في تماسكه وفي تدافعه وفي تدفقه يوقع في القلب أن هذه السورة نهر يتدفق ، أو سيل يتدفع ، بلا حواجز ولا فواصل ؛ وإن بناءها ذاته ليصدق تماما هذه الروايات ، أو على الأقل يرجحها ترجيحا قويا .

* * *

أما موضوع السورة الأساسي وشخصيتها العامة فقد أجملنا الإشارة إليهما في مطلع الحديث عنها . ولكن لا بد من شيء من التفصيل في هذا التعريف ..

روى أبو بكر ابن مردويه ـ بإسناده ـ عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين ، لهم زجل بالتسبيح ، والأرض بهم ترتج » . ورسول الله يقول : « سبحان الله العظيم . سبحان الله العظيم .. »

هذا الموكب ، وهذا الارتجاج ، واضح ظلهما في السورة ! .. إنها هي ذاتها موكب . موكب ترتج له النفس ، ويرتج له الكون ! .. إنها زحمة من المواقف والمشاهد والموحيات والإيقاعات ! .. وهي ـ كما قلنا من قبل ـ تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، ومتشابكة معها ، في المجرى المتصل المتدفق !

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه متصل ؛ فلا يمكن تجزئة السورة إلى مقاطع ، كل مقطع منها يعالج جانبا من الموضوع .. إنما هي موجات .. وكل موجة تتفق مع التي قبلها وتكملها .

ومن ثم فلن نحاول عرض الموضوعات التي تحتويها السورة في هذا التعريف ؛ وإنما سنحاول فقط عرض نماذج من هذه الموجات المتلاحقة فيها :

تبدأ السورة بمواجهة المشركين ، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ، بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم .. تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية

Marfat.com

متجلية فى لمسات عريضة تشمل الوجود كله ؛ وتشمل وجودهم كله .. تبدأ فى لمسات ثلاث ترسم مجالى الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع :

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السماوات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون » ..

ثلاث آيات تذرع الوجود الكونى كله فى الآية الأولى ، وتذرع الوجود الإنسانى كله فى الآية الثانية . . ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما فى الآية الثالثة !

أى إعجاز ! وأية روعة ! وأى شمول ! وأية إحاطة !

وأمام هذا الوجود الكونى الشاهد بوحدة الخالق . وأمام هذا الوجود الإنسانى الشاهد بتدبيره . وأمام هذه الألوهية الحاكمة فى السماوات وفى الأرض ؛ العالمة بالسر والجهر والكسب .. يبدو شرك المشركين ، وامتراء الممترين ، عجبا منكرا لا مكان له فى نظام الكون ، ولا مكان له فى فطرة النفس ، ولا سند له فى القلب والعقل !

وفى هذه اللحظة تبدأ الموجة التالية تعرض موقف المكذبين بآيات الله هذه المبثوثة فى الكون والحياة ؛ ومع عرض الموقف المنكر الغريب ، يجىء التهديد ، وتعرض مصارع الغابرين ، ويتجلى السلطان القاهر الذى تدل عليه هذه المصارع ، وهذه القوارع . فيبدو عجيبا منكرا تعنت المنكرين أمام هذا الحق المبين ؛ ويبدو أن المنكرين ليس الذى ينقصهم هو الدليل ولكنه صدق النية ، وتفتح القلب للدليل :

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين . وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون. ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم مايلبسون.

Marfat.com

ولقد استهزئ برسل من قبلك ؛ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . قل : سيروا في الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ..

ومن هنا تبدأ موجة ثالثة في التعريف بحقيقة الألوهية ، متجلية في ملكية الله سبحانه لما في السماوات وما في الأرض ، ولما سكن بالليل والنهار . ومتجلية في كونه الرازق الذي يطعم ولا يطعم . فهو من ثم الولي الذي لا ولي غيره . الذي يجب أن يسلم العبيد أنفسهم إليه وحده . وهو الذي يعذب العصاة في الآخرة . وهو الذي يملك الضر والخير . وهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير ..

وتبلغ الموجة قمتها بعد هذا التمهيد كله ، في الإشهاد والمفاصلة بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين القوم ، وإنذارهم والتبرؤ من شركهم ، وإعلان التوحيد في مواجهتهم ، في رنة عالية فاصلة جازمة :

« قل : لمن ما في السماوات والأرض ؟ قل : لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ، قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير . قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون » ..

ثم تبدأ موجة رابعة تتحدث عن معرفة أهل الكتاب لهذا الكتاب الجديد الذي يكذب به المشركون ؛ وتصف هذا الشرك بأنه أظلم الظلم ؛ وتقف المشركين أمام مشهدهم يوم الحشر وهم يسألون عن شركائهم فينكرون الشرك ويذهب عنهم الافتراء ؛ وتصور حالهم وأجهزة الاستقبال الفطرية فيهم معطلة ، لا تلتقط موحيات الإيمان ولا تستجيب ، وقلوبهم محجوبة

Marfat.com

لا تدرك دلائل الإيمان ، وهم يدعون أن هذا القرآن أساطير الأولين ؛ وتقول لهم : إنهم يهلكون أنفسهم وهم ينهون غيرهم عن الهدى ، وينأون عنه . ثم تصور حالهم وهم موقوفون على النار يقولون : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ! ثم تعود بهم إلى الدنيا وهم ينكرون البعث والمعاد . ثم تعقب على هذا بتصوير حالهم وهم موقوفون على ربهم ، وهم يسألون عن هذا الإنكار ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتنتهي الموجة بتقرير خسارة المكذبين بلقاء الله ، وتفاهة الحياة الدنيا إلى جانب الدار الآخرة المدخرة للذين يتقون :

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون. ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح الظالمون. ويوم نحشرهم جميعا . ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا ! قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون ! وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون » . .

ثم تبدأ موجة خامسة ، يلتفت فيها السياق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسليه ويسري عنه ما يحزنه من تكذيبهم له ولما جاءهم من عند الله به . ويجعل له أسوة في الرسل قبله ممن صبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصر الله . ويقرر أن سنة الله لا تتبدل ،

Marfat.com

ولكنها كذلك لا تستعجل ! فإن كان - صلى الله عليه وسلم - لا يصبر على إعراضهم ، فليبذل جهده البشرى فى إتيانهم بخارقة ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . إنما اقتضت مشيئته فى خلقه - وهو وحده صاحب الأمر المتصرف - أن يستجيب الذين لا تتعطل أجهزتهم الفطرية عن التلقى . والموتى لا حياة فيهم فهم لا يستقبلون موحيات الهدى ولا يستجيبون . والله يبعثهم ، وهم إليه يرجعون . .

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون » . .

وهكذا يمضى سياق السورة موجة فى إثر موجة على هذا النسق الذى عرضنا منه نماذج ، لعلها تصور طبيعة السورة ، كما تصور موضوعها . . وهى تبلغ فى بعض موجاتها ذروة أعلى من ذرى هذه الموجات التى استعرضناها ؛ كما أن تدفقها فى بعض المسالك أشد جيشانا وأعلى إيقاعا . . ولكننا لا نملك أن نستعرض السورة كلها فى هذا التعريف المجمل ، وسيأتى شىء من ذلك فى الفقرة التالية . .

* * *

ولقد سبق القول بأن هذه السورة تعالج موضوعها الأساسى بصورة فريدة ، إذ أنها فى كل لمحة منها وفى كل موقف وفى كل مشهد ، تبلغ حد « الروعة الباهرة » التى تبده النفس وتشده الحس ، وتبهر النفس وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعاتها وموحياتها . .

فالآن ندع نصوصا من السورة ذاتها تصور هذه الحقيقة بأسلوبها القرآنى . ذلك أن الوصف مهما بلغ ، لا يبلغ شيئا فى نقل هذه الحقيقة إلى القلب البشرى !

إن تقرير حقيقة الألوهية ، وتعريف الناس بربهم الحق ، وتعبيدهم له وحده ، هو الموضوع الأساسى للسورة . فلنسمع إذن تقرير السياق القرآنى لهذه الحقيقة فى مواقف منه شتى :

Marfat.com

◆ فى موقف الإشهاد والمفاصلة ، حيث تتجلى تلك الحقيقة فى القلب المؤمن بها ؛ وحيث يواجه بها المخالفين ، ويصدع بها فى قوة وفى يقين :

« قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ! قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . قل : أى شىء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون ..

◆ وفى موقف التهديد ، حيث يتجلى سلطان الله محيطا بالعباد ؛ وتتعرى أمامه الفطرة ويسقط عنها الركام ، وتتجه إلى ربها الحق وحده وتنسى الآلهة الزائفة ، أمام الهول ، وأمام مصارع المكذبين :

« قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه - إن شاء - وتنسون ما تشركون . ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون . قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ؟ هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ » ..

◆ وفى موقف التعريف بإحاطة الله بالغيوب والأسرار ، والأنفاس والأعمار ، مع القدرة والقهر والسيطرة فى البر والبحر ، والنهار والليل ، والدنيا والآخرة ، والحياة والممات :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم

Marfat.com

بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون. ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين» ..

◆ وفى موقف شهادة الفطرة ، واهتدائها الذاتى إلى ربها الحق ، بمجرد تفتحها لاستقبال دلائل الهدى وموحياته فى صفحات الكون ، التى تخاطب الفطرة بلسان مفهوم الإيقاع فى أعماقها المكنونة :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى ؟ فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين . وحاجه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به ـ إلا أن يشاء ربى شيئا ـ وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ..

◆ وفى مشهد الحياة النابضة فى الفصائل والأنواع ، ومشهد الإصباح والإمساء ، ومشهد النجوم والظلمات فى البر والبحر ، ومشهد الماء الهاطل ، والزرع النامى ، والثمر اليانع . . حيث تتجلى وحدانية الخالق بلا شريك ، المبدع بلا شبيه ، وحيث تبدو دعوى الشركاء والأبناء سخفا تنكره العقول والقلوب :

« إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا

Marfat.com

الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبا متراكبا ،ومن النخل من طلعها قنوان دانيةوجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبهاوغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون. وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل .لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » ..

◆ وأخيرا فى موقف الابتهال والإنابة إلى الله الواحد بلا شريك ؛ والتجرد له صلاة ونسكا، ومحيا ومماتا ، واستنكار ابتغاء غيره ربا وهو رب كل شىء ، ورد الأمر إليه كله فى الدنيا فى أمر الاستخلاف والابتلاء ، وفى الآخرة فى أمر الحساب والجزاء ، حيث تختم السورة بهذا الابتهال الخاشع المنيب :

« قل :إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم : ديناً قيماملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين. قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم »..

وليست هذه النماذج الستة التى اخترناها إلا نماذج تصور حد « الروعة الباهرة » الذى يبلغه سياق السورة ، فى كل موقف ، وفى كل مشهد ، وفى كل إيقاع ، وفى كل إيحاء ...

* * *

كذلك سبق القول : إن سياق السورة يبلغ حد الروعة الباهرة فى كل مشهد وفى كل موقف ؛ مع تناسق فى منهج العرض للمشاهد والمواقف ؛ ووعدنا أن نبين ما نعنيه بهذا التناسق .

وإن نعرض هنا إلا بعض النماذج فى انتظار العرض التفصيلى للنصوص بعد التعريف المجمل. ونكتفى من هذا التناسق بثلاثة ألوان منه بارزة فى سياق السورة :

Marfat.com

إن السياق يعرض للشاهد والمواقف منوعة ؛ ولـكنها تلتقى فى ظاهرة واحدة .. إنه فى كل مشهد أو موقف ، كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه ، وأمام الموقف يتدبره .. يقفه أمامه بحركة تـكاد الألفاظ تجسمها ! كما أن المشاهد والمواقف ذاتها فيها ناس موقوفون ، يراهم السامع فى وقفتهم ، والسياق يقفه هو الآخر ليشاهدهم ويتملاهم !

ففى مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات :

« ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نـكذب بآيات ربنا ونـكون من المؤمنين » ..

« ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا ! قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تـكفرون » ..

« ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائـكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيـكم شركاء . لقد تقطع بينـكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون » ..

« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تـكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضـل عنهم ما كانوا يفترون » ..

وفى مواقف التهديد ببطش الله وأخذ المـكذبين بسلطانه الذى لا يرد ، يقفهم أمام هذا البطش كأنهم يعاينونه :

« قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ؛ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه — إن شاء — وتنسون ما تشركون » ..

« قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ، ثم هم يصدفون .. قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ »

Marfat.com

وفى تمثيل حالة الضلال بعد الهدى ، والرجوع عن الحق بعد الاهتداء إليه ، يرسم مشهدا شاخصا يقف السامع أمامه يتملاه ، ولو لم يكن فى اللفظ أمر بالنظر أو إشارة إلى الوقوف :

« قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ؟ ائتنا .. » ..

كذلك يقف السياق السامع أمام مشهد الثمار اليانعة فى الجنات التى تتمثل فيها الحياة ، والتى تتجلى فيها يد الله المبدعة للألوان والثمار :

« ... وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه .. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ..

وهكذا كل مشاهد السورة ومواقفها يتجلى فيها هذا التناسق ويكون طابعها العام .

لون آخر من ألوان التناسق ، يمت إلى هذا اللون بصلة كذلك .. مواقف الإشهاد ..

إن مشاهد القيامة فى السورة تعرض كأنما هى مواقف إشهاد على ما كان من المشركين والمكذبين ؛ ومواقف تشهير بهم ؛ وتوجيه للأنظار إلى هذه المواقف .. وقد سبق عرض نماذج منها .. وفى كل منها : « ولو ترى ... »

وتلتقى بها مواقف الإشهاد على العقيدة ، ومواقف الإشهاد على الشريعة .. كلتاهما سواء .

فى أول السورة عند الحديث عن العقيدة فى محيطها الشامل يجىء هذا الموقف :

« قل : أى شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون » .

حتى إذا جاء السياق إلى المناسبة الخاصة فى السورة ، المتعلقة بالعقيدة فى قضية التحريم والتحليل أقام مشهدا آخر ، ودعا إلى إشهاد على هذه القضية الخاصة ، كالإشهاد على تلك القضية

Marfat.com

العامة ، للدلالة على أنها هي هي من ناحية الموضوع ؛ ولضمان التناسق الذى هو طابع التعبير القرآنى العام [1]:

« قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » ..

لون ثالث من ألوان التناسق ؛ هو التناسق التعبيرى الذى يقتضيه التقرير الموضوعى . والذى يتمثل فى تكرار عبارات بعينها للدلالة على أنها تعبير عن حقيقة واحدة فى صور متعددة .

وهذا كالتعبير فى أول السورة عن الذين كفروا حين يشركون بالله غيره بأنهم بربهم يعدلون. ثم التعبير كذلك فى أواخرها عن الذين يشرعون لأنفسهم بأنهم كذلك بربهم يعدلون . على النحو التالى :

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ..

« قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة . وهم بربهم يعدلون »

ففى الآية الأولى هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به .. وفى الثانية هم يعدلون بربهم لأنهم يشركون به كذلك . ممثلا هذا الشرك فى ادعاء حق الألوهية فى التشريع ...

ولهذا دلالته الموضوعية ، وجماله التعبيرى أيضا ..

كذلك يكرر كلمة الصراط ، وهو يعبر عن الإسلام جملة ؛ وهو يعبر عن قضية التشريع على هذا النحو :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما. قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » ..

وبعد أن يتحدث عن الأنعام والحرث ، والحلال والحرام فى نهاية السورة كما جاء فى مقدمة التعريف بالسورة يقول :

---

(١) يراجع كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » فصل : « التناسق »

Marfat.com

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ،ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله : ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ..

فيدل على أن هذه القضية هى قضية العقيدة . وأن الالتزام فيها هو المضى على صراط الله ، وأن الانحراف فيها هو الخروج عن هذا الصراط .. وأنها قضية إيمان أو كفر ، وجاهلية أو إسلام .. كما فصلنا ذلك فى مطلع الكلام !

وإلى هنا يحسن أن نكتفى فى التعريف المجمل ، لنواجه نصوص السورة فى سياقها القرآنى بعون الله .. ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة ـ لا درسا درسا كما تعودنا ذلك فى السور المدنية ـ فهذه الطريقة فى العرض أدنى إلى طبيعة السورة ؛ وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظلالها كذلك ..

وبالله التوفيق ..

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ، وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ، ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① »

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ، ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ، ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ② »

« وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ③ »

إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة ؛ والإيقاعات المديدة فى مطلع السورة . وهى ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة :

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ..

إنها اللمسات الأولى .. تبدأ بالحمد لله . ثناء عليه ، وتسبيحا له ، واعترافا بأحقيته للحمد والثناء ،على ألوهيته المتجلية فى الخلق والإنشاء .. بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى .. الخلق .. وتبدأ بالخلق فى أضخم مجالى الوجود .. السماوات والأرض .. ثم فى أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السماوات والأرض وفق تدبير مقصود .. الظلمات والنور .. فهى اللمسة العريضة التى تشمل الأجرام الضخمة فى الكون المنظور ، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها فى الأفلاك ... لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم ، وهم بعد ذلك كله لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون ؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه :

Marfat.com

« ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ..

فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة فى الكون ، وآثارها الضائعة فى النفس ! يا للمفارقة التى تعدل الأجرام الضخمة ، والمسافات الشاسعة ، والظواهر الشاملة .. بل تزيد ..

واللمسة الثانية :

« هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا ، وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون » :

إنها لمسة الوجود الإنسانى ، التالى فى وجوده للوجود الكونى ، ولظاهرتى الظلمات والنور . لمسة الحياة الإنسانية فى هذا الكون الجامد . لمسة النقلة العجيبة من عتمة الطين المظلم إلى نور الحياة البهيج ، تتناسق تناسقا فنيا جميلا مع « الظلمات والنور » .. وإلى جانبها لمسة أخرى متداخلة : لمسة الأجل الأول المقضى للموت ، والأجل الثانى المسمى للبعث .. لمستان متقابلتان فى الجمود والحركة كتقابل الطين الجامد والخلق الحى فى النشأة .. وبين كل متقابلين مسافة هائلة فى الكنه والزمن .. وكان من شأن هذا كله أن ينقل إلى القلب البشرى اليقين بتدبير الله ، واليقين بإنمائه . ولكن المخاطبين بالسورة يشكون فى هذا ولا يستيقنون :

« ثم أنتم تمترون » ..

واللمسة الثالثة تضم اللمستين الأولين فى إطار واحد ؛ وتقرر ألوهية الله فى الكون والحياة الإنسانية سواء :

« وهو الله فى السماوات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ، ويعلم ما تكسبون » ..

إن الذى خلق السماوات والأرض هو الله فى السماوات وفى الأرض . هو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء . وكل مقتضيات الألوهية متحققة عليهما ، من خضوع للناموس الذى سنه الله لهما ، وائتمار بأمره وحده . وكذلك ينبغى أن يكون الشأن فى حياة الإنسان . فلقد خلقه الله كما خلق السماوات والأرض ؛ وهو فى تكوينه الأول من طين هذه الأرض ؛ وما رزقه من خصائص جعلت منه إنسانا رزقه إياه الله ؛ وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمى للناموس الذى سنه الله له ـ رضى أم كره ـ يعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله ، لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه : فهما يلتقيان ولكن لا يملكان أن يعطيا جنينا وجوده ! وهو يولد وفق الناموس

Marfat.com

الذى وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة ! وهو يتنفس هذا الهواء الذى أوجده الله بمقاديره هذه ؛ ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التى أرادها الله له . وهو يحس ويتألم ، ويجوع ويعطش ، ويأكل ويشرب .. وبالجملة يعيش . . وفق ناموس الله ، على غير إرادة منه ولا اختيار .. شأنه فى هذا شأن السماوات والأرض سواء .

والله – سبحانه – يعلم سره وجهره . ويعلم ما يكسب فى حياته فى سره وجهره .

والأليق به أن يتبع – إذن – ناموس الله فى حياته الاختيارية – فيما يتخذه من تصورات اعتقادية ، وقيم اعتبارية ، وأوضاع حيوية – لتستقيم حياته الفطرية المحكومة بناموس الله ؛ مع حياته الكسبية حين تحكمها شريعة الله . ولكى لا يناقض بعضه بعضا ، ولا يصادم بعضه بعضا ؛ ولا يتمزق مزقا بين ناموسين وشرعين : أحدهما إلهى والآخر بشرى وما هما بسواء ..

* * *

إن هذه الموجة العريضة الشاملة فى مطلع السورة ، إنما تخاطب القلب البشرى والعقل البشرى بدليل « الخلق » ودليل « الحياة » ممثلين فى الآفاق وفى الأنفس .. ولكنها لا تخاطب بهما الإدراك البشرى خطابا جدليا ، لاهوتيا أو فلسفيا ! ولكن خطابا موحيا موقظا للفطرة ، حيث يواجهها بحركة الخلق والإحياء ؛ وحركة التدبير والهيمنة ؛ فى صورة التقرير لا فى صورة الجدل ؛ وبسلطان اليقين المستمد من تقرير الله ؛ ومن شهادة الفطرة الداخلية بصدق هذا التقرير فيما تراه .

ووجود السماوات والأرض ، وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح ؛ ونشأة الحياة – وحياة الإنسان فى قمتها – وسيرها فى هذا الخط الذى سارت فيه .. كلاهما يواجه الفطرة البشرية بالحق ، ويوقع فيها اليقين بوحدانية الله .. والوحدانية هى القضية التى تستهدف السورة كلها – بل القرآن كله – تقريرها . وليست هى قضية « وجود » الله . فلقد كانت المشكلة دائما فى تاريخ البشرية هى مشكلة عدم معرفة الإله الحق ، بصفاته الحقة ؛ ولم تكن هى مشكلة عدم الإيمان بوجود إله !

ومشركو العرب الذين كانت هذه السورة تواجههم ما كانوا يجحدون الله البتة ؛ بل كانوا

Marfat.com

يقرون بوجوده سبحانه ، وبأنه الخالق الرازق ، المالك ، المحيي المميت .. إلى كثير من الصفات ـ كما يقرر القرآن ذلك في مواجهتهم ، وفي حكاية أقوالهم ـ ولكن انحرافهم الذي وصمهم بالشرك هو أنهم ما كانوا يعترفون بمقتضى اعترافهم ذاك : من تحكيم الله ـ سبحانه ـ في أمرهم كله ؛ ونفي الشركاء له في تدبير شؤون حياتهم ؛ واتخاذ شريعته وحدها قانونا ، ورفض مبدأ تحكيم غير الله في أي شأن من شؤون الحياة .

هذا هو الذي وصمهم بالشرك وبالكفر ؛ مع إقرارهم بوجود الله سبحانه ، ووصفه بتلك الصفات ، التي من مقتضاها أن يتفرد سبحانه بالحكم في شأنهم كله ، بما أنه الخالق الرازق المالك ، كما كانوا يعترفون .. ومواجهتهم في مطلع هذه السورة بصفات الله هذه من الخلق للكون وللإنسان ، ومن تدبيره لأمر الكون وأمر الإنسان ؛ ومن علمه وإحاطته بسرهم وجهرهم وعملهم وكسبهم .. إنما هو المقدمة التي يرتب عليها ضرورة إفراده سبحانه بالحاكمية والتشريع ، كما أوضحنا في التعريف المجمل بخط السورة ومنهجها ..

ودليل الخلق ودليل الحياة كما أنهما صالحان لمواجهة المشركين لتقرير الوحدانية ، ولتقرير الحاكمية ، هما كذلك صالحان لمواجهة اللوثات الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله ..

والحقيقة أن هناك شكا كثيرا فيما إذا كان هؤلاء الملحدون يصدقون أنفسهم ! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة ؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية ، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم ـ كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون ـ ومن ثم تنهار البشرية وتقع تحت سيطرتهم ، بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة !

واليهود ـ مهما بلغ من كيدهم ومكرهم ـ لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية ، التي تجد في قرارتها الإيمان بوجود إله ـ وإن كانت تضل فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحقة ؛ كما أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها ، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس ـ ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها ، وتتعطل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله

Marfat.com

فيها . ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة فى مجموع البشر فى كل زمان .. والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض اليوم لا يتجاوزون بضعة ملايين فى روسيا والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم الملحدون بالحديد والنار ؛ على الرغم من الجهد الناصب خلال أربعين عاما فى نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام !

إنما يفلح اليهود فى حقل آخر . وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر . وطرده من واقع الحياة . وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله ؛ مع أن هناك أربابا أخرى هى التى تشرع لحياتهم من دون الله ! ويصلون بذلك إلى تدمير البشرية فعلا ، حتى مع وهمها أنها لا تزال تؤمن بالله

وهم يستهدفون الإسلام — قبل كل دين آخر — لأنهم يعرفون من تاريخهم كله ، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة . وأنهم غالبو أهله طالما أهله لا يحكمونه فى حياتهم ؛ مع توهمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله ! فهذا التخدير بوجود الدين — وهو غير موجود فى حياة الناس — ضرورى لتنجح المؤامرة .. أو يأذن الله فيصحو الناس !

وأحسب — والله أعلم — أن اليهود الصهيونيين ، والنصارى الصليبيين ، كليهما ، قد يئسوا من هذا الدين فى هذه المنطقة الإسلامية الواسعة فى إفريقية وآسيا وأوربا كذلك .. يئسوا من أن يحولوا الناس فيها إلى الإلحاد — عن طريق المذاهب المادية — كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار .. ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه حتى بين الوثنيين — فضلا على المسلمين — وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عرف الإسلام ، أو حتى ورث الإسلام !

وأحسب — والله أعلم — أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عدل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهة الإسلام جهرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير ؛ فعدلوا إلى طرائق أخبث ، وإلى حبائل أمكر .. لجأوا إلى إقامة أنظمة وأوضاع فى المنطقة كلها تتزيا بزى الإسلام ؛ وتتمسح فى العقيدة ؛ ولا تنكر الدين جملة .. ثم هى تحت هذا الستار

Marfat.com

الخادع ، تنفذ جميع المشروعات التى أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكولات صهيون ، ثم عجزت عن تنفيذها كلها فى المدى الطويل !

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام – أو على الأقل تعلن احترامها لدين – بينما هى تحكم بغير ما أنزل الله ؛ وتقصى شريعة الله عن الحياة ؛ وتحل ما حرم الله ؛ وتنشر تصورات وقيما مادية عن الحياة والأخلاق تدمر التصورات والقيم الإسلامية ؛ وتسلط جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية ، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية ؛ وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين ، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع ، وجعلها فتنة للمجتمع ، باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج ؛ بينما ملايين الأيدى العاملة فى هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف ! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعا بالعمل والتوجيه .. كل ذلك وهى تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة ! والناس يتوهمون أنهم يعيشون فى مجتمع مسلم ، وأنهم هم كذلك مسلمون ! أليس الطيبون منهم يصلون ويصومون ؟! أما أن تكون الحاكمية لله وحده أو تكون للأرباب المتفرقة ، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصليبية والصهيونية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة ؛ وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين . وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين ؛ وفى دين الله ؛ بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين !

وإمعانا فى الخداع والتضليل ؛ وإمعانا من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية فى التخفى ، فإنها تثير حروبا مصطنعة – باردة أو ساخنة – وعداوات مصطنعة فى شتى الصور ، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التى أقامتها والتى تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية ، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية ، وتجعل أقلام مخابراتها فى خدمتها وحراستها المباشرة !

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة ، لتزيد من عمق الخدعة ؛ ولتبعد الشبهة عن العملاء ، الذين يقومون لها بما عجزت هى عن إتمامه فى خلال ثلاثة قرون أو تزيد ؛ من تدمير القيم والأخلاق ؛ وسحق العقائد والتصورات ؛ وتجريد المسلمين فى هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول .. وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم .. وتنفيذ المخططات

Marfat.com

الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين ؛ في غفلة من الرقباء والعيون !

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة ؛ ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف؛ وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه ؛ ولوصف الكفر بأنه الإسلام؛ والفسق والفجور والانحلال ، بأنه تطور وتقدم وتجدد .. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة ؛وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقا ، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء !!!

ذلك بينما الطيبون السذج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية ، أو طائفية ، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين ؛ ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء ـ من تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق ـ بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة ، وإلى منكرات صغيرة ؛ ويحسبون أنهم أدوا واجبهم كاملا بهذه الصيحات الخافتة .. بينما الدين كله يسحق سحقا ، ويدمر من أساسه؛ وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون ، وبينما الطاغوت ـ الذي أمروا أن يكفروا به ـ هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلا !

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحا بنجاح الخطة وجواز الخدعة ؛ بعد ما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الإلحاد ، أو يحولوا الناس عنه باسم التبشير ، فترة طويلة من الزمان ..

إلا أن الأمل في الله أكبر ؛ والثقة في هذا الدين أعمق ، وهم يمكرون والله خير الماكرين . وهو الذي يقول : « وقد مكروا مكرهم ، وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام » . .

* * *

أما مواجهة دليل الخلق ودليل الحياة للوثنية الإلحاد ، فهي مواجهة قوية ، لا يجد الملحدون إزاءها إلا المماحلة والمغالطة والالتواء :

إن وجود هذا الكون ابتداء ، بهذا النظام الخاص ، يستلزم ـ بمنطق الفطرة البديهي

Marfat.com

وبمنطق العقل الواعي على السواء ـ أن يكون وراءه خالق مدبر ..

فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها ، إلا بتصور إله ينشىء ويخلق ويوجد هذا الوجود .

والذين يلحدون يعمدون إلى هذه الفجوة فيريدون ملئها بالمكابرة . ويقولون : إنه لا داعى لأن نفترض أنه كان هناك عدم قبل الوجود ! .. ومن هؤلاء فيلسوف عرف بأنه فيلسوف « الروحية » المدافع عنها فى وجه « المادية » . وعلى هذا الأساس ربما أشاد به بعض المخدوعين من « المسلمين » واستأنسوا بأقواله لدينهم كأنما ليؤازروا دين الله بقول عبد من العبيد .. هذا الفيلسوف هو « برجسون » .. اليهودى !!!

إنه يقول : إن هذا الوجود الكونى لم يسبقه عدم ! وإن فرض الوجود بعدم العدم ناشئ من طبيعة العقل البشرى الذى لا يستطيع أن يتصور إلا على هذا النحو ..

فإلى أى منطق يا ترى يستند برجسون إذن فى إثبات أن الوجود الكونى لم يسبقه عدم ؟ إلى العقل ؟ لا . فإن العقل ـ كما يقرر ـ لا يمكن أن يتصور إلا وجودا بعد عدم ! إلى وحى من الله ؟ إنه لا يدعى هذا . وإن كان يقول : إن حدس المتصوفة كان دائما يجد إلها ولا بد أن نصدق هذا الحدس المطرد (الإله الذى يتحدث عنه برجسون ليس هو الله إنما هو الحياة !) .. فأين المصدر الثالث الذى يعتمد عليه (برجسون) إذن فى إثبات أن الوجود الكونى غير مسبوق بعدم ؟ لا ندرى !

إنه لا بد من الالتجاء إلى تصور خالق خلق هذا الكون .. لا بد من الالتجاء إلى هذا التصور لتعليل مجرد وجود الكون .. فكيف إذا كان الحال أنه لم يوجد مجرد وجود . ولكنه وجد محكوما بنواميس لا تتخلف ، محسوبا فيها كل شئ بمقاييس ، قصارى العقول البشرية أن تدرك أطرافا منها ، بعد التدبر الطويل ؟! (١)

---

(١) الهاربون من الكنيسة التى كانت تستطيل على رقاب العباد باسم « الله » كان كل همهم فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر إنكار « الله » . ولكن « العقليين » منهم اختاروا « العقل » ليعطوه كل خصائص الله وصفاته ! و « الماديين » منهم اختاروا « الطبيعة » ليعطوها هذه الخصائص والصفات، لأنه لم يكن لهؤلاء ولا لهؤلاء مفر من افتراض شىء فوق الطاقة البشرية يكلون إليه تفسير هذا الوجود وما يجرى فيه .. وفقط كانوا يريدون انكار الله . ليخلصوا من قبضة الكنيسة !!!

Marfat.com

كذلك نشأة هذه الحياة . وللسافة بينها وبين المادة ـ أيا كان مدلول المادة ولو كان هو الإشعاع ـ لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر . يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه ؛ وتسمح بكفالة الحياة أيضا بعد وجودها . والحياة الإنسانية بخصائصها الباهرة درجة فوق مجرد الحياة .. وأصله من طين .. أى من مادة هذه الأرض وجنسها ؛ ولابد من إرادة مدبرة تمنحه الحياة ، وتمنحه خصائص الإنسان عن قصد واختيار ..

وكل المحاولات التى بذلها الملحدون لتعليل نشأة الحياة باءت بالفشل ـ عند العقل البشرى ذاته ـ وآخر ما قرأته فى هذا الباب محاولة (ديورانت) للتفلسف الأمريكى للتقريب بين نوع الحركة الذى فى الذرة ـ وهو يسميه درجة من الحياة ـ ونوع الحياة المعروف فى الأحياء . وذلك فى جهد مستميت لملء الفجوة بين المادة الهامدة والحياة النابضة . بقصد الاستغناء عن الإله الذى ينشىء الحياة فى الموات !

ولكن هذه المحاولة المستميتة لا تنفعه ولا تنفع الماديين فى شىء .. ذلك أنه إن كانت الحياة صفة كامنة فى المادة ، ولم يكن وراء هذه المادة قوة أخرى ذات إرادة ، فما الذى يجعل الحياة التى فى المادة الكونية تبدى فى درجات بعضها أرق وأعقد من بعض ؟ فتتبدى فى الذرة مجرد حركة آلية غير واعية . ثم تتبدى فى النبات فى صورة عضوية . ثم تتبدى فى الأحياء المعروفة فى صورة عضوية أكثر تركيبا وتعقيدا ..

ما الذى جعل المادة ـ المتضمنة للحياة كما يقال ـ يأخذ بعضها من عنصر الحياة أكثر مما يأخذ البعض الآخر ، بلا إرادة مدبرة ؟ ما الذى جعل الحياة الكامنة فى المادة ، تختلف فى مدارجها المترقية ؟!

إننا نفهم هذا التفاوت يوم نقدر أن هناك إرادة مدبرة هى التى تصنع ذلك مختارة مريدة . فأما حين تكون المادة (الحية ولنفرض ذلك !) هى وحدها ، فإنه يستحيل على العقل البشرى ذاته أن يفهم هذا التفاوت أو يعلله !

إن التعليل الإسلامى لانبثاق الحياة فى درجاتها المتفاوتة هو الحل الوحيد لهذه الظاهرة التى لا تعللها المحاولات المادية البائسة !

وإذ كنا ـ فى هذه الظلال ـ لا نخرج عن المنهج القرآنى ؛ فإننا لا نمضى أكثر من هذا

Marfat.com

فى مواجهة لوثة الإلحاد ببراهين الخلق والتدبير والحياة .. فالقرآن الكريم لم يجعل قضية وجود الله قضيته . لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة . إنما القضية هى قضية توحيد الله ؛ وتقرير سلطانه فى حياة العبد ؛ وهى القضية التى توخاها السورة فى هذه الموجة التى استعرضناها .

« وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ .

« وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

« وَقَالُوا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ! وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ، ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ، وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ .

« وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » ۝١١

هذه هى الموجة التالية فى افتتاح السورة ؛ بعد الموجة الأولى ذات اللمسات العريضة .. الموجة التى غمرت الكون كله بحقيقة الوجود الإلهى متجلية فى خلق السماوات والأرض ، منشئة للظلمات والنور ؛ ثم فى خلق الإنسان من مادة هذه الأرض ؛ وتقدير أجله الذى ينتهى بالموت ؛ والاحتفاظ بسر الأجل الآخر المضروب للبعث ؛ والإحاطة بسر الناس وجهرهم ، وما يكسبون فى السر والجهر ...

Marfat.com

هذا الوجود الإلهي الذي يتجلى في الآفاق والأنفس ، هو وجود متفرد متوحد ؛ ليس مثله وجود ؛ لأنه ما من خالق غير الله ؛ كما أنه وجود غامر باهر قاهر يبدو التكذيب في ظله والإعراض عن هذه الآيات الهائلة ، منكرا قبيحا ، لاسند له ، ولا عذر لصاحبه ..

ومن ثم يعرض السياق موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الإسلامية في ظل هذا الوجود الغامر الباهر القاهر ؛ فيبدو هذا الموقف منكرا قبيحا ، حتى في حس أصحابه الذين يواجههم هذا القرآن بهذه الحقيقة ! ويكسب القرآن المعركة في الجولة الأولى . يكسبها في أعماق فطرة الناس ، على الرغم من مكابرتهم ومن عنادهم الظاهرين !

وهو يعرض في هذه الموجة صورة العناد والمكابرة ؛ ويواجهها بالتهديد مرة ؛ وبتوجيه القلوب إلى مصارع المكذبين من قبل مرة ؛ ويحشد فيها عدة مؤثرات وموحيات . بعد الهزة الأولى التي مضت بها تلك الموجة العريضة :

* * *

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » ..

إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا وإصرارا . فليس الذي ينقصهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان ، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية ، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة ، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها .. ليس هذا هو الذي ينقصهم ، إنما تنقصهم الرغبة في الاستجابة ، ويمسك بهم العناد والإصرار ، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر :

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » ..

وحين يكون الأمر كذلك . حين يكون الإعراض متعمدا ومقصودا – مع توافر الأدلة ، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق – فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حاجز الكبر والعناد :

Marfat.com

« فقد كذبوا بالحق لما جاءهم . فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » ..

إنه الحق هذا الذى جاءهم من لدن خالق السماوات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وخالق الإنسان من طين ، والإله فى السماوات وفى الأرض الذى يعلم سرهم وجهرهم ويعلم مايكسبون .. إنه الحق وقد كذبوا به ، مصرين على التكذيب ، معرضين عن الآيات ، مستهزئين بالدعوة إلى الإيمان . . فليرتقبوا إذن أن يأتيهم الخبر اليقين عما كانوا به يستهزئون !

ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل ، الذى لا يعرفون نوعه ولا موعده .. يتركهم يتوقعون فى كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول !

وفى موقف التهديد يلفت أعناقهم وأنظارهم وقلوبهم وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم - وقد كانوا يعرفون بعضها فى دور عاد بالأحقاف وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب فى رحلة الشتاء للجنوب وفى رحلة الصيف للشمال ، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب . .

« ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم . فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » ..

ألم يروا إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكنهم الله فى الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوة والسلطان ما لم يعط مثله للمخاطبين من قريش فى الجزيرة ؟ وأرسل المطر عليهم متتابعا ينشىء فى حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق .. ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم جيلا آخر ، وورث الأرض من بعدهم ؟ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض ! فقد ورثها قوم آخرون ! فما أهون المكذبين المعرضين أصحاب القوة والتمكين من البشر ! ما أهونهم على الله ؟ وما أهونهم على هذه الأرض أيضا ! لقد أهلكوا

Marfat.com

وغبروا فما أحست هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمرها جيل آخر؛ ومضت الأرض فى دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة فى حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

وهى حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم فى الأرض. ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله، ليبلوهم فيه: أيقومون عليه بعهد الله وشرطه، من العبودية له وحده، والتلقى منه وحده – بما أنه هو صاحب الملك وهم مستخلفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم طواغيت، تدعى حقوق الألوهية وخصائصها؛ ويتصرفون فيما استخلفوا فيه تصرف المالك لا المستخلف..

إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف؛ ويمضون على غير سنة الله؛ ولا يتبين لهم فى أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويدا رويدا وهم ينزلقون ولا يشعرون.. حتى يستوفى الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله.. ثم تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذب بعضهم بعضا، ويدمر بعضهم بعضا، ويؤذى بعضهم بعضا، ولا يعود بعضهم يأمن بعضا؛ فتضعف شوكتهم فى النهاية؛ ويسلط الله عليهم عبادا له – طائعين أو عصاة – يخضدون شوكتهم، ويقتلعونهم مما مكنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.. وهكذا تمضى دورة السنة.. السعيد من وعى أنها السنة، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه. والشقى من غفل عن هذه الحقيقة، وظن أنه أوتيها بعلمه، أو أوتيها بحيلته، أو أوتيها جزافا بلا تدبير!

وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكنا له فى الأرض، غير مأخوذ من الله.. ولكن الناس إنما يستعجلون.. إنهم يرون أول الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق.. ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء! لا ترى إلا فى مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث.. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – فى حياتهم الفردية القصيرة – نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون فى حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق!

Marfat.com

إن هذا النص فى القرآن : « فأهلكناهم بذنوبهم » .. وما يماثله ، وهو يتكرر كثيرا فى القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة ، ويقرر سنة ، ويقرر طرفا من التفسير الإسلامى لأحداث التاريخ ..

إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم ؛ وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يرها فرد فى عمره القصير ، أو جيل فى أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب ؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب .. كذلك هى جانب من التفسير الإسلامى للتاريخ : فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال ؛ من عوامله ، فعل الذنوب فى جسم الأمم ؛ وتأثيرها فى إنشاء حالة تنتهى إلى الدمار ؛ إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث فى التاريخ القديم - وإما بالانحلال البطىء الفطرى الطبيعى ، الذى يسرى فى كيان الأمم - مع الزمن - وهى توغل فى متاهة الذنوب !

وأمامنا فى التاريخ القريب - نسبيا - الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاق ، والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهى بالنعيم . . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله فى انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفى الانهيار الذى تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته فى الأفق فى أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض[1] .

إن التفسير المادى للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفا باتا من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هى استبعاد العنصر الأخلاقى من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التى يقوم عليها .. ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة فى تفسير أحداث وأطوار فى حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية .

والتفسير الإسلامى - بشموله وجديته وصدقه وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر المادية - التى يجعلها التفسير المادى هى كل شىء - ولكنه يعطيها مكانها الذى تستحقه فى رقعة الحياة

---

(١) يراجع فصل : « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وفصل « شهادة التاريخ » وفصل « شهادة القرن العشرين » فى كتاب : « التطور والثبات فى حياة البشرية »

Marfat.com

المريضة ؛ ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود .. يبرز قدر الله من وراء كل شيء ؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ؛ ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي .. ولا يغفل عاملا واحدا من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة .. (١)

* * *

ثم يمضي السياق يصور طبيعة العناد ، التي ينبعث منها ذلك الإعراض ؛ فيرسم نموذجا عجيبا من النفوس البشرية . ولكنه نموذج مع ذلك مكرور ، يجده الإنسان في كل عصر وفي كل بيئة وفي كل جيل .. نموذج النفس المكابرة ، التي يخرق الحق عينها ولا تراه ! والتي تنكر ما لا يُنكر لأنه من الوضوح بحيث يخجل المخالف أن ينكره ! على الأقل من باب الحياء !.. والقرآن يرسم هذا النموذج شاخصا في كلمات قلائل ، على طريقة التعبير القرآني المبدعة المعجزة في التعبير والتصوير(٢) :

« ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » ..

إنه ليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات الله ، أن البرهان على صدقها ضعيف ، أو غامض ، أو تختلف فيه العقول . إنما الذي يجعلهم يقفون هـــذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق ! وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلا ! ولو أن الله ـ سبحانه ـ نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا القرآن ، لا عن طريق الوحي الذي لا يرونه ؛ ولكن في ورقة منظورة ملموسة محسوسة ؛ ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم ـ لا سماعا عن غيرهم ، ولا بمجرد رؤية بعيونهم ـ ما سلموا بهذا الذي يرونه ويلمسونه ، ولقالوا جازمين مؤكدين :

« إن هذا إلا سحر مبين »

---

(١) يراجع بتوسع كتاب خصائص التصور الإسلامي ومقوماته .

(٢) يراجع في « كتاب التصوير الفني في القرآن » فصل : « التصوير الفني » وفصل : « طريقة القرآن » وفصل : « نماذج بشرية » .

Marfat.com

وهى صورة صفيقة ، منكرة ، تثير الاشمئزاز ، وتستعدى من يراها عليها ! صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها ! حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل !

وتصويرها على هذا النحو - وهى صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة - يؤدى غرضين أو عدة أغراض :

إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض ؛ كالذى يرفع المرآة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة ، ليرى نفسه فى هذه المرآة ، ويخجل منها !

وهو فى الوقت ذاته يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ؛ ويثبت قلوبهم على الحق ، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء .

كذلك هو يوحى بحلم الله الذى لا يعجل على هؤلاء المعارضين المكذبين ، وهم فى مثل هذا العناد المنكر الصفيق .

وكلها أسلحة وحركة فى المعركة التى كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن فى مواجهة المشركين .

بعد ذلك يحكى نموذجا من اقتراحات المشركين ، التى يعليها التمحل والعناد ، كما يمليها الجهل وسوء التصور .. ذلك إذ يقترحون أن ينزل الله - سبحانه - على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ملكا يصاحبه فى تبليغ الدعوة ؛ ويصدقه فى أنه مرسل من عند الله .. ثم يبين لهم ما فى هذا الاقتراح من جهل بطبيعة الملائكة ، وبسنة الله فى إرسالهم ، كما يبين لهم رحمة الله بهم فى أن لا يستجيب لهم فيما يقترحون :

« وقالوا :لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » ..

وهذا الاقتراح الذى كان المشركون يقترحونه ؛ والذى اقترحه من قبلهم أقوام كثيرون على رسلهم - كما يحكى القرآن الكريم فى قصصهم - والرد القرآنى عليه فى هذا الموضع . . هذا وذاك يثيران جملة حقائق نلم بها هنا بقدر الإمكان :

الحقيقة الأولى : أن أولئك المشركين من العرب لم يكونوا يجحدون الله ؛ ولكنهم كانوا

Marfat.com

يريدون برهانا على أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرسل من عنده ؛ وأن هذا الكتاب الذى يتلوه عليهم منّزل من عند الله حقا . ويقترحون برهانا معينا : هو أن ينزل الله عليه ملكا يصاحبه فى الدعوة ويصدق دعواه .. ولم يكن هذا إلا اقتراحا من اقتراحات كثيرة من مثله ، ورد ذكرها فى القرآن فى مواضع منه شتى . وذلك كالذى ورد فى سورة الإسراء ، وهو يتضمن هذا الاقتراح ، واقتراحات من نوعه تدل كلها على التعنت الذى وصفته الآية السابقة ، كما تدل على الجهل بكثير من الحقائق الكونية وكثير من القيم الحقيقية : « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ... (الإسراء : ٨٩ – ٩٥)

ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة .. وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذى يعرفونه جيدا بالخبرة الطويلة ؛ مايدلهم على صدقه وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين ، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف ؛ وقد هاجر – صلى الله عليه وسلم – وترك ابن عمه عليا – رضى الله عنه – يرد إلى قريش ودائعهم التى كانت ما تزال عنده ؛ وهم معه على الخلاف الذى يدبرون معه قتله ! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقنا كأمانته ؛ فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا – حين أمره ربه بذلك – وسألهم : إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق .. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم فى ماضيه برهان ، ولقد كانوا يعلمون : إنه لصادق .. وسيأتى فى سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه : أنهم لا يكذبونه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون . فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ..

Marfat.com

فهي الرغبة في الإنكار والإعراض ؛ وهو العناد والاستكبار عن الحق . وليس أنهم يشكون في صدقه صلى الله عليه وسلم !

ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون . فإن هذا القرآن شاهد بذاته ، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير ، على أنه من عند الله .. وهم لم يكونوا يجحدون الله .. وهم - على وجه التأكيد - كانوا يحسون ذلك ويعرفونه .. كانوا يعرفون بحسهم اللغوي الأدبي الفني مدى الطاقة البشرية ؛ ويعرفون أن هذا القرآن فوق هذا المدى - وهذا الإحساس يعرفه من يمارس فن القول ويتذوقه أكثر مما يعرفه من ليست له هذه الممارسة . وكل من مارس فن القول يدرك إدراكا واضحا أن هذا القرآن فوق ما يملك البشر أن يبلغوا ؛ لا ينكر هذا إلا معاند يجد الحق في نفسه ثم يخفيه ! كما أن المحتوى القرآني من التصور الاعتقادي والمنهج الذي يتخذه لتقرير هذا الاعتقاد في الإدراك البشري ، ونوع المؤثرات واللمسات الموحية .. كلها غير معهود في طبيعة التصورات البشرية والمناهج البشرية ، والطرائق البشرية في الأداء النفسي والتعبيري أيضا .. والعرب لم يكن يخفى عليهم الشعور بهذا في قرارة نفوسهم . وأقوالهم ذاتها وأحوالهم تقرر أنهم ما كانوا يشكون في أن هذا القرآن من عند الله ..

وهكذا يبدو أن هذه الاقتراحات لم تكن طلبا للبرهان ؛ إنما كانت وسيلة من وسائل الإعنات ؛ وأسلوبا من أساليب التعنت ؛ وخطة للمماحكة والمعاندة ؛ وأنهم كانوا كما قال الله سبحانه عنهم في الآية السابقة : « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » !

والحقيقة الثانية : أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ؛ وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكا يدعو معه ويصدقه .. ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا يعلمها إلا الله ؛ وكانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق ؛ وفي نوع علاقته بربه ؛ ونوع علاقته بالأرض وأهلها .. وقد حكى القرآن الكريم كثيرا من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة ؛ وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم ؛ وتصح معرفتهم

Marfat.com

لهذا الكون وما يعمره من خلائق . وكان الإسلام ـ من هذا الجانب ـ منهجا لتقويم العقل والشعور ، كما كان منهجا لتقويم القلب والضمير ، ومنهجا لتقويم الأوضاع والأحوال سواء ..

وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالاتهم في جاهليتهم ، أنهم كانوا يظنون أن للملائكة بنات الله ! سبحانه وتعالى عما يصفون ! وأنهم ـ من ثم ـ لهم شفاعة عند الله لا ترد ! والراجح أن بعض كبار الأصنام كانت رموزا للملائكة ! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكا ليصدقه في دعواه ..

وقد صحح لهم القرآن ضلالتهم الأولى في مواضع منه شتى . كالذى جاء في سورة النجم :

« أفرأيتم اللات والعزى ؟ ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا » .

كما صحح لهم ضلالتهم الثانية في تصورهم لطبيعة الملائكة في هاتين الآيتين في هذه السورة وفي مواضع أخرى كثيرة :

« وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون » ..

وهذا جانب من التعريف بهذا الخلق من عباد الله .. إنهم يقترحون أن ينزل الله ملكا ولكن سنة الله أن ينزل الملائكة ـ حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم ـ أن ينزلوا التدمير عليهم ، وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار . ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكا ، لقضي الأمر ، وتم التدمير ، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل ! فهل هذا ما يريدون وما يقترحون ؟ وهلا يستشعرون رحمة الله في عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين ؟! .. هكذا يقفهم السياق وجها لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم ؛ وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم ، وجهلهم بسنة الله في تنزيل الملائكة .. وهم بهذا الجهل الذي يكاد يدمر عليهم حياتهم ، يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون في طلب الدليل !

Marfat.com

والجانب الثانى من التعريف بهذا الخلق من عباد الله تتضمنه الآية الثانية :

« ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » ..

إنهم يقترحون أن ينزل الله ــ سبحانه ــ ملكا على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصدقه فى دعواه .. ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنسانى . خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله . وهم ــ كما يقول الله عنهم ، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذى خلقهم ــ لا يستطيعون أن يعشوا فى الأرض بهيئتهم التى خلقهم الله عليها ؛ لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب ؛ ولكن لهم ــ مع ذلك ــ من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم فى حياة البشر ؛ كتبليغ الرسالة ؛ أو التدمير على من يريد الله أن يدمر عليهم من المكذبين ؛ أو تثبيت المؤمنين ، أو قتال أعدائهم وقتلهم ... إلى آخر الوظائف التى يقص القرآن الكريم أنهم يكلفون بها من ربهم ، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فلو شاء الله أن يرسل ملكا يصدق رسوله ، لتبدى للناس فى صورة رجل ــ لا فى صورته الملائكية ــ وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى ! وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول لهم : أنا محمد الذى تعرفونه أرسلنى الله إليكم لأنذركم وأبشركم .. فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك ــ فى صورة رجل لا يعرفونه ــ يقول لهم : أنا ملك أرسلنى الله لأصدق رسوله .. بينما هم يرونه رجلا كأى منهم ؟! إنهم يلبسون الحقيقة البسيطة . فلو أرسل الله ملكا لجعله رجلا وللبس عليهم الحقيقة التى يلبسونها ؛ ولما اهتدوا قط إلى يقين !

وهكذا يكشف الله ــ سبحانه ــ جهلهم بطبيعة خلائقه ، كما كشف لهم جهلهم فى معرفة سنته .. وذلك بالإضافة إلى كشف تعنتهم وعنادهم بلا مبرر ، وبلا معرفة ، وبلا دليل !

والحقيقة الثالثة التى يثيرها النص القرآنى فى الفكر : هى طبيعة التصور الإسلامى ومقومات هذا التصور ــ ومن بينها تلك العوالم الظاهرة والمغيبة التى علم الإسلامُ المسلمَ أن يدركها أولا، وأن يتعامل معها أخيرا ــ ومن بين تلك العوالم المغيبة عالم الملائكة .. وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقوما من مقومات الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا به .. الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ..

Marfat.com

وقد سبق أن ذكرنا فى هذه الظلال ونحن نتحدث عن مطلع سورة البقرة : ما ملخصه أن الإيمان بالغيب نقلة فى حياة الإنسان ضخمة ؛ لأن خروجه من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيبا مجهولا يمكن وجوده ويمكن تصوره ، هو ـ بلا شك ـ نقلة من دائرة الحس الحيوانى إلى مجال الإدراك الإنسانى . وأن إغلاق هذا المجال دون الإدراك الإنسانى نكسة به إلى الوراء ؛ وهو ما تحاوله المذاهب المادية الحسية ؛ وتدعوه « تقدمية » ! وسنتحدث ـ إن شاء الله ـ بشىء من التفصيل عن « الغيب » عندما نواجه فى هذه السورة قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » .. فنقصر الحديث هنا عن الملائكة ، من عالم الغيب .

لقد تضمن التصور الإسلامى عن عالم الغيب ، أن هناك خلقا من عباد الله اسمهم الملائكة . وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم ، يكفى لهذا التصور ، ويكفى للتعامل معهم فى حدوده .

فهم خلق من خلق الله ، يدين لله بالعبودية ، وبالطاعة المطلقة ؛ وهم قريبون من الله ـ لا ندرى كيف ولا ندرى نوع القرب على وجه التحديد ـ : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا . سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » .. « ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون » ..

وهم يحملون عرش الرحمن ، ويحفون به يوم القيامة كذلك ـ لا ندرى كيف فليس لنا من علم إلا بقدر ما كشف الله لنا من هذا الغيب ـ : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ... » .. « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق وقيل : الحمد لله رب العالمين » ..

وهم خزنة الجنة وخزنة النار ، يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء ، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟

Marfat.com

قال : بلى ! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طبتم فادخلوها خالدين » .. « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » ..

وهم يتعاملون مع أهل الأرض فى صور شتى :

فهم يقومون عليهم حفظة بأمر الله ؛ يتابعونهم ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم ؛ ويتوفونهم إذا جاء أجلهم : « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .. « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه .. من أمر الله ..» .. « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ..

وهم يبلغون الوحى إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .. وقد أعلمنا الله ـ سبحانه ـ أن جبريل عليه السلام هو الذى يقوم منهم بهذه الوظيفة : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » .. « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » .. ووصفه ـ سبحانه ـ بأنه ذو مرة (أى قوة) وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه على هيئته الملائكية مرتين اثنتين ، بينما جاءه فى صور شتى فى مرات الوحى التالية : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ...» ..

وهم يتنزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد فى معركتهم الكبرى مع الباطل والطاغوت : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » .. « إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر

Marfat.com

إلا من عند الله العزيز الحكيم .. » .. « إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »..

وهم مشغولون بأمر المؤمنين ، يسبحون ربهم ، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم . ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم » ..

وهم كذلك يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم ، ويستقبلونهم بالبشرى فى الآخرة ويسلمون عليهم فى الجنة : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون : سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .. « .. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار »..

وهم يستقبلون الكافرين فى جهنم بالتأنيب والوعيد – كما سبق – ويقاتلونهم فى معارك الحق كذلك . وكذلك هم يستلون أرواحهم فى تعذيب وتأنيب ومهانة : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » .. « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ! » ..

ولقد كان لهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم ، كما أن هذه الصلة امتدت فى طول الحياة وعرضها حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذى أشرنا إليه فى المقتطفات القرآنية السابقة . وشأن الملائكة مع النشأة الإنسانية يرد فى مواضع شتى ، كالذى جاء فى سورة البقرة : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم

Marfat.com

لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ..» ..

فهذا المجال الفسيح الذى تتصل فيه حياة البشر بهذا الملأ الأعلى ، هو فسحة فى التصور ، وفسحة فى إدراك حقائق هذا الوجود ، وفسحة فى الشعور ، وفسحة فى الحركة النفسية والفكرية ، يتيحها التصور الإسلامى للمسلم ؛ والقرآن يعرض عليه هذا المجال الفسيح ، وعالم الغيب المتصل بما هو فيه من عالم الشهود .

والذين يريدون أن يغلقوا على « الإنسان » هذا المجال .. ومجال عالم الغيب كله .. إنما يريدون به أقبح الشر .. يريدون أن يغلقوا عالمه على مدى الحس القريب المحدود ؛ ويريدون بذلك أن يزجوا به فى عالم البهائم : وقد كرمه الله بقوة التصور ؛ التى يملك بها أن يدرك مالا تدركه البهائم ؛ وأن يعيش فى بحبوحة من المعرفة ، وبحبوحة من الشعور ! وأن ينطلق بعقله وقلبه إلى مثل هذا العالم ؛ وأن يتطهر وهو يرف بكيانه كله فى مثل هذا النور !

والعرب فى جاهليتهم ــ على كل ما فى هذه الجاهلية من خطأ فى التصور ــ كانوا (من هذا الجانب) أرقى من أهل الجاهلية (العلمية !) الحديثة ؛ الذين يسخرون من الغيب كله ! ويعدون الإيمان بمثل هذه العوالم الغيبية سذاجة غير علمية ! ويضعون « الغيبية » فى كفة ، و « العلمية » فى الكفة الأخرى ! وسنناقش عند مواجهة قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » هذه الدعوى التى لا سند لها من العلم ، كما أنه لا سند لها من الدين . أما هنا فنكتفى بكلمة مختصرة عن شأن الملائكة .

ونسأل : ماذا عند أدعياء العقلية « العلمية » ، من علمهم ذاته ، يحتم عليهم نفى هذا الخلق المسمى بالملائكة ، وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق ؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك ؟

إن علمهم لا يملك أن ينفى وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة فى الأرض فى أجرام أخرى ، يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها .. فلماذا يجزمون بنفى هذه العوالم ، وهم لا يملكون دليلا واحدا على نفى وجودها ؟

Marfat.com

إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا، ولا إلى قول الله سبحانه! إنما نحاكمهم إلى «علمهم» الذى يتخذونه إلها .. فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها - من غير أى دليل من هذا العلم - هى التى تقودهم إلى هذا الإنكار «غير العلمى»! ألمجرد أن هذه العوالم غيب؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذى ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التى يجزم هذا «العلم» اليوم بوجودها؛ حتى فى عالم الشهادة الذى تلمسه الأيدى وتراه العيون.

* * *

وتنتهى هذه الموجة بعرض ما وقع للمستهزئين بالرسل. ودعوة المكذبين إلى تدبر مصارع أسلافهم، والسير فى الأرض لرؤية هذه المصارع؛ الناطقة بسنة الله فى المستهزئين المكذبين:

« ولقد استهزئ برسل من قبلك، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون. قل: سيروا فى الأرض، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ..

إن هذه اللفتة - بعد ذكر إعراضهم عنادا وتعنتا؛ وبعد بيان ما فى اقتراحاتهم من عنت وجهالة؛ وما فى عدم الاستجابة لهذه المقترحات من رحمة من الله وحلم - لترمى إلى غرضين ظاهرين:

الأول: تسلية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتسرية عنه، مما يلقاه من عناد المعرضين، وعنت المكذبين؛ وتطمين قلبه - صلى الله عليه وسلم - إلى سنة الله سبحانه فى أخذ المكذبين المستهزئين بالرسل؛ وتأسيته كذلك بأن هذا الإعراض والتكذيب ليس بدعا فى تاريخ الدعوة إلى الحق. فقد لقى مثله الرسل قبله؛ وقد لقى المستهزئون جزاءهم الحق وحاق بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب، ومن غلبة الحق على الباطل فى نهاية المطاف ..

والثانى: لمس قلوب المكذبين المستهزئين من العرب بمصارع أسلافهم من المكذبين المستهزئين: وتذكيرهم بهذه المصارع التى تنتظرهم إن هم لجوا فى الاستهزاء والسخرية والتكذيب. وقد أخذ الله - من قبلهم - قرونا كانت أشد منهم قوة وتمكينا فى الأرض؛ وأكثر منهم رواء ورخاء، كما قال لهم فى مطلع هذه الموجة؛ التى ترج القلوب رجا بهذه اللفتات الواقعية العنيفة.

Marfat.com

ومما يستدعى الانتباه ذلك التوجيه القرآنى :

« قل : سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ..

والسير فى الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار ؛ ولمعرفة سنن الله مرتسمة فى الأحداث ، والوقائع ؛ مسجلة فى الآثار الشاخصة ، وفى التاريخ المروى فى الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار فى أرضها وقومها .. السير على هذا النحو ، لمثل هذا الهدف ، وبمثل هذا الوعى .. أمور كلها كانت جديدة على العرب ؛ تصور مدى النقلة التى كان المنهج الإسلامى الربانى ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعى والفكر والنظر والمعرفة .

لقد كانوا يسيرون فى الأرض ، ويتنقلون فى أرجائها للتجارة والعيش ، وما يتعلق بالعيش من صيد ورعى .. أما أن يسيروا وفق منهج معرفى تربوى .. فهذا كان جديدا عليهم . وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به ؛ وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية ، فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة التى ابلغوا إليها فى النهاية

ولقد كان تفسير التاريخ الإنسانى وفق قواعد منهجية كهذه التى كان القرآن يوجه إليها العرب ؛ ووفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها ــ بإذن الله ــ ويستطيع الناس ملاحظتها ، وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها ، ومعرفة مراحلها وأطوارها .. كان هذا المنهج برمته فى تفسير التاريخ شيئا جديدا على العقل البشرى كله فى ذلك الزمان . إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدون من الأخبار ، مجرد مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس ؛ لا يربط بينها منهج تحليلى أو تكوينى يحدد الترابط بين الأحداث ، كما يحدد الترابط بين المقدمات والنتائج ، وبين المراحل والأطوار .. فجاء المنهج القرآنى ينقل البشرية إلى هذا الأفق ؛ ويشرع لهم منهج النظر فى أحداث التاريخ الإنسانى . وهذا المنهج ليس مرحلة فى طرائق الفكر والمعرفة . إنما هو « المنهج » .. هو الذى يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنسانى[1].

والذين يأخذهم الدهش والعجب للنقلة الهائلة التى انتقل إليها العرب فى خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية ، وهى فترة لاتكفى إطلاقا لحدوث تطور فجائى فى الأوضاع

(١) يراجع « التفسير الإسلامى للتاريخ » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الثانى

Marfat.com

الاقتصادية ، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب ، لو أنهم حولوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ؛ ليبحثوا عن السر في هذا المنهج الرباني الجديد ، الذي جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله العليم الخبير .. ففي هذا المنهج تكمن المعجزة ، وفي هذا المنهج يكمن السر الذي يبحثون عنه طويلا عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثا . . إله الاقتصاد ..

وإلا فأين هو التحول الاقتصادي المفاجئ في الجزيرة العربية؛ الذي ينشئ من التصورات الاعتقادية ونظام الحكم ، ومناهج الفكر ، وقيم الأخلاق ، وآماد المعرفة ، وأوضاع المجتمع ، كل هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان ؟!

إن هذه اللفتة :

« قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

إلى جانب اللفتة التي جاءت في صدر هذه الموجة من قوله تعالى : « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين » ..

إلى جانب أمثالها في هذه السورة وفي القرآن كله لتؤلف جانبا من منهج جديد جدة كاملة على الفكر البشري . وهو منهج باق . ومنهج كذلك فريد ..

« قُلْ : لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ؟ قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑫ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

« قُلْ : أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ؟ قُلْ : إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ : إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ، وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يَمْسَسْكَ

Marfat.com

بخير فهو على كل شيء قدير * وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير .

« قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله ، شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل: لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد، وإنني بريء مما تشركون » ١٩

هذه الموجة الجديدة ذات المد العالي والإيقاع الرهيب، تجيء في أعقاب الحديث عن التكذيب والإعراض والسخرية والاستهزاء ؛ وما ختم به هذا الحديث وما تخلله من التهديد المخيف ؛ مع توجيه الأنظار والقلوب إلى الاعتبار بمصارع المكذبين المستهزئين .. كما أنها تجيء بعد موجة الافتتاح السابقة للحديث عن المكذبين ؛ والتي عرضت حقيقة الألوهية في المجال الكوني العريض ؛ وفي المجال الإنساني العميق . وهي كذلك تعرض حقيقة الألوهية في مجالات أخرى ، بإيقاعات جديدة ؛ ومع مؤثرات كذلك جديدة .. فيقع الحديث عن التكذيب بين موجة الافتتاح وهذه الموجة ؛ ويبدو أمره في غاية النكارة وفي غاية البشاعة !

ولقد عرضت الموجة الأولى حقيقة الألوهية ممثلة في خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وخلق الإنسان من طين ، وقضاء الأجل الأول لعمره ، وتسمية الأجل الثاني لبعثه . مقررة شمول ألوهية الله للسماوات وللأرض ، وإحاطة علمه بسر الناس وجهرهم وما يكسبونه في السر والجهر .. كل أولئك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية . من إسلامها بجملتها لله وحده ، لا تعدل به أحدا ، ولا تمترى في هذه الوحدانية . ومن إقرارها بشمول الألوهية لشئون الكون ولشئون الحياة الإنسانية في السر والجهر . ومن ترتيب النتائج الطبيعية لهذه الحقائق في الاستسلام لحاكمية الله وحده في شؤون الحياة الأرضية كالاستسلام لهذه الحاكمية في الشؤون الكونية ..

فأما هذه الموجة الجديدة فتستهدف كذلك إبراز حقيقة الألوهية ، ممثلة في الملك والفاعلية ، وفي الرزق والكفالة ؛ وفي القدرة والقهر ؛ وفي النفع والضر .. كل ذلك لا لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي .. ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية

Marfat.com

والتوجه ؛ وتوحيد الاستسلام والعبودية .. واعتبار الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية . فإذا أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا ؛ بين أن هذا الاستنكار قائم أولا على أن الله يطعم ولا يطعم ؛ وقائم ثانيا على أن تولى غير الله نقض لما أمر به من الإسلام وعدم الشرك أيضا . .

ويصاحب عرض حقيقة الألوهية ، فى هذه الصورة ولهذا الغرض ، جملة مؤثرات قوية تخلخل القلوب . تبدأ بعرض حقيقة الملكية لكل شىء . وحقيقة أن الله هو الذى يطعم ولا يطعم . وعرض العذاب الرعيب الذى يعد مجرد صرفه رحمة من الله وفوزا عظيما . وعرض القدرة على الضر والخير . وعرض الاستعلاء والقهر . وعرض الحكمة والخبرة .. ثم الإيقاع الرهيب المزلزل ، المتمثل فى الأمر العلوى الهائل : قل . قل . قل :

فإذا تم هذا العرض بكل مؤثراته العميقة ، جاء الختام بالإيقاع العالى المجلجل .. إيقاع الإشهاد على التوحيد ، وإنكار الشرك ، والمفاصلة الحاسمة ؛ مصحوبا كذلك بالأمر العلوى فى كل فاصلة : « قل : أى شىء أكبر شهادة ؟ » .. « قل : الله » .. « قل : لا أشهد » .. « قل : إنما هو إله واحد » .. مما يضفى على الجو كله رهبة غامرة ؛ ويضفى على الأمر كله طابع جد مرهوب !

* * *

« قل : لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون . وله ما سكن فى الليل والنهار ، وهو السميع العليم » ..

إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير ، ثم المفاصلة .. ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهذه المواجهة . مواجهة المشركين - الذين يعرفون أن الله هو الخالق ثم يعدلون به من لا يخلق ؛ فيجعلون له شركاء مع الله فى تصريف حياتهم - مواجهتهم بالسؤال عن الملكية - بعد الخلق - لكل ما فى السماوات والأرض، مستقصيا بهذا السؤال حدود الملكية فى المكان :

Marfat.com

« ما فى السماوات والأرض » .. مع تقرير الحقيقة التى لم يكونوا هم يجادلون فيها ؛ والتى حكى القرآن فى مواضع أخرى إقرارهم الكامل بها :

« قل : لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل : لله » . .

ولقد كان العرب فى جاهليتهم - على كل ما فى هذه الجاهلية من ضلال فى التصور ينشأ عنه انحطاط فى الحياة - أرقى - فى هذا الجانب - من الجاهلية « العلمية » الحديثة ، التى لا تعرف هذه الحقيقة ، والتى تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية هذه الحقيقة ! كانوا يعرفون ويقررون أن لله ما فى السماوات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية ؛ بإفراد الله سبحانه بالحاكمية فيما يملك ، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه .. وبهذا اعتبروا مشركين ، وسميت حياتهم بالجاهلية ! فكيف بمن يخرجون الحاكمية فى أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه ؛ ويزاولونها هم بأنفسهم ؟! بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم ؟ لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك .. فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه .. أيا كانت دعواهم فى الإسلام وأيا كانت الصفة التى تعطيها لهم شهادات الميلاد !

ونعود إلى الآية . لنجد السياق يلحق بهذا التقرير لملكية الله - سبحانه - لما فى السماوات وما فى الأرض ، أنه - سبحانه :

« كتب على نفسه الرحمة » . .

فهو سبحانه المالك ، لا ينازعه منازع ، ولكنه - فضلا منه ومنة - كتب على نفسه الرحمة . كتبها بإرادته ومشيئته ؛ لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها عليه مقترح ؛ ولا يقتضيها منه مقتض - إلا إرادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة - وهى - الرحمة - قاعدة قضائه فى خلقه ، وقاعدة معاملته لهم فى الدنيا والآخرة .. والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل فى مقومات التصور الإسلامى ، فرحمة الله بعباده هى الأصل ، حتى فى ابتلائه لهم أحيانا بالضراء . فهو يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته ، بعد الخلوص والتجرد والمعرفة والوعى والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء ؛ وليميز الخبيث من الطيب فى الصف ، وليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ؛ وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .. والرحمة فى هذا كله ظاهرة ..

Marfat.com

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال . فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة .. إنما ذكرنا الرحمة في الابتلاء بالضراء ، لأن هذه هي التي قد تزيغ فيها القلوب والأبصار !

ولن نحاول نحن أن نتقصى مواضع الرحمة الإلهية أو مظاهرها — وإن كنا سنشير إشارة مجملة إلى شيء من ذلك فيما يلي — ولكننا سنحاول أن نقف قليلا أمام هذا النص القرآني العجيب :
« كتب على نفسه الرحمة » .

وقد تكرر وروده في السورة في موضع آخر سيأتي : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ..

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل الذي أشرنا من قبل إليه .. تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده .. تفضله — سبحانه — بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة .. مكتوبة عليه .. كتبها هو على نفسه ؛ وجعلها عهدا منه لعباده .. بمحض إرادته ومطلق مشيئته .. وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتملها وتأملها وتذوق وقعها ؛ حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة ..

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه — سبحانه — على نفسه من رحمته . فإن العناية بإبلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول ! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يبلغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى ؟ وأن يبلغوا بكلمات منه سبحانه يحملها إليهم رسوله ؟ من هم ؟ إلا أنه الفضل العميم ، الفائض من خلق الله الكريم ؟!

إن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ؛ كما يدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه !

ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاعر ؛ ليس موكولا إلى التعبير البشري ليبلغ شيئا في تصويره ؛ وإن كان القلب البشري مهيأ لتذوقه ، لا لتعريفه !

وتمثل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي يكون جانبا أساسيا من تصور حقيقة الألوهية ، وعلاقة العباد بها . . وهو تصور جميل مطمئن ودود لطيف . يعجب الإنسان معه لما كيد الخلق الذين يتقولون على التصور الإسلامي في هذا الجانب ، لأنه لا يقول ببنوة أحد من عباد

Marfat.com

الله لله ! - على نحو ما تقول التصورات الكنسية المحرفة - فالتصور الإسلامي إذ يرتفع على هذه التصورات الصبيانية الطفولية ، يبلغ في الوقت ذاته من تصوير العلاقة الرحيمة بين الله وعباده هذا المستوى الذي يعجز التعبير البشري عن وصفه . والذي يترع القلب بحلاوة مذاقه ، كما يروعه بجلال إيقاعه ..

ورحمة الله تفيض على عباده جميعا ؛ وتسعهم جميعا ؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ؛ ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة :

إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم ؛ بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الإنسان على كثير من العالمين .

وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للإنسان ، من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الإنسان في بحبوحة منه في كل لحظة من لحظات حياته .

وتتجلى في تعليم الله للإنسان ، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة ؛ وتقدير التوافق بين استعداداته هذه وإيحاءات الكون ومعطياته .. هذا العلم الذي يتطاول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذي علمهم إياه ! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك .

وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض ، بموالاة إرسال الرسل إليه بالهدى ، كلما نسي وضل ؛ وأخذه بالحلم كلما لج في الضلال ؛ ولم يسمع صوت النذير ، ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله ، وحلم الله وحده هو الذي يسعه .

وتتجلى في تجاوز الله - سبحانه - عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب ، وبكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب .

وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها ، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . وللمضاعفة بعد

Marfat.com

ذلك لمن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة .. وكله من فضل الله . فلا يبلغ أحـد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قال عن نفسه ، فى معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والإقصار منا عن متابعة رحمة الله فى مظاهرها ، وإعلان القصور والعىّ عنها ، هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئا ! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ؛ فيتصل به ؛ ويعرفه ؛ ويطمئن إليه ـ سبحانه ـ ويأمن فى كنفه ؛ ويستروح فى ظله .. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تملّيها واستجلائها ، فضلا على وصفها والتعبير عنها .

فلننظر كيف مثل رسول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ لهـذه الرحمة بما يقرّبها للقلوب شيئا ما :

أخرج الشيخان ـ بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ قال : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قضى الله الخلق ـ وعند مسلم : لما خلق الله الخلق ـ كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » . . وعند البخارى فى رواية أخرى : « إن رحمتى غلبت غضبى » ..

وأخرج الشيخان ـ بإسناده عنه رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ : « جعل الله الرحمة مئة جزء . فأمسـك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل فى الأرض جزءا واحـدا . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » ..

وأخرج مسلم ـ بإسناده عن سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لله مئة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة » ..

وله فى أخرى : « إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مئة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض . فجعل منها فى الأرض رحمة واحدة ، فبها تعطف الوالدة على

Marfat.com

ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة » ..

وهذا التمثيل النبوى للوحى ، يقرب للإدراك البشرى تصور رحمة الله تعالى .. ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها فى الخلائق الحية ويتملاها ويعجب لها ، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة، والضعف والمرض ؛ وبالأقرباء والأوداء والأصحاب ؛ وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض ـ ومنها ما يدعو إلى الدهش والعجب ـ ثم يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه .. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئا ما !

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينى يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى :

عن عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبى . فإذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها ، إذ وجدت صبيا فى السبى ، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » قلنا : لا والله وهى تقدر على ألا تطرحه . قال : « فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .. (أخرجه الشيخان)

وكيف لا . وهذه المرأة إنما ترحم ولدها ، من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة ؟

ومن تعليم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحى ، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ؛ ليتخلقوا بخلق الله هذا فى رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعا ؛ ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها ، كما تذوقتها فى معاملة الله لهم بها من قبل .

عن ابن عمرو ابن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الراحمون يرحمهم الله تعالى . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ... (أخرجه أبو داود والترمذى)

وعن جرير ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يرحم الله

Marfat.com

من لايرحم الناس » ... (أخرجه الشيخان والترمذى)

وفى رواية لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : قال صلى الله عليه وسلم: « لاتنزع الرحمة إلا من شقى » .

وعن أبى هريرة كذلك . قال : « قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحسن ابن على ـ رضى الله عنهما ـ وعنده الأقرع ابن حابس . فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ! فنظر إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : « من لا يرحم لا يُرحم » .. (أخرجه الشيخان)

ولم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف فى تعليمه لأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ عند حد الرحمة بالناس . وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شىء . وأن المؤمنين مأمورون أن يتخلقوا بأخلاق الله ؛ وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حى تخلقا بخلق الله سبحانه . وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التى عهدناها :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب . فشكر الله تعالى له فغفر له » . قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : « فى كل كبد رطبة أجر » ... (أخرجه مالك والشيخان) .

وفى أخرى: أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر ، قد أدلع (أى أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقها (أى خفها) فغفر لها به :

وعن عبدالرحمن ابن عبد الله عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر . فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما . فجاءت الحمرة تعرش (أو تفرش) ـ (أى ترخى جناحيها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال:

Marfat.com

من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن . قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » ... (أخرجه أبو داود) .

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «قرصت نملة نبيا من الأنبياء . فأمر بقرية النمل فحرقت . فأوحى الله تعالى إليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ؟ » ... (أخرجه الشيخان) .

وهكذا علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه هدى القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة .. أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة ؟!

وبعد فإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشئ في حسه وفي حياته وفي خلقه آثاراً عميقة ؛ يصعب كذلك تقصيها ؛ ولابد من الاكتفاء بالإشارة السريعة إليها ، كي لا نخرج من نطاق الظلال القرآنية ، إلى قضية مستقلة !

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه ـ حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار ـ فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ؛ وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلى عنه ، أو طرده من رحمته . فإن الله لا يطرد من رحمته أحدا يرجوها . إنما يطرد الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها !

وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر ، وبالرجاء والأمل ، وبالهدوء والراحة .. فهو في كنف ودود ، يستروح ظلاله ، مادام لا يبعد عنه في الشرود !

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرئ على المعصية ـ كما يتوهم البعض ـ إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم . والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان الحقيقية ! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم ، أو المغفرة ، أو الرحمة .. إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية !

Marfat.com

كذلك فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيرا قويا فى خلق المؤمن ، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بأخلاق الله ـ سبحانه ـ وهو يرى نفسه مغمورا برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه ـ فيعلمه ذلك كله كيف يرحم ، وكيف يعفو ، وكيف يغفر .. كما رأينا فى تعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه ؛ مستمدا تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة ..

ومن مواضع رحمة الله التى تقررها الآية الكريمة : أن الله كتب ليجمعنهم إلى يوم القيامة :

« قل : لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل : لله . كتب على نفسه الرحمة . ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه .. » ..

فمن هذه الرحمة المكتوبة ، ذلك الجمع الذى لا ريب فيه .. ذلك الجمع الذى يشى بما وراءه من عناية الله ـ سبحانه ـ بعباده من الناس ؛ فقد خلقهم لأمر ؛ واستخلفهم فى هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثا ، ولم يتركهم سدى . ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة ـ فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذى يفيئون إليه كما يفىء الراحل إلى وجهته ـ فيعطيهم جزاء كدحهم إليه ، ويتقدم أجر عملهم فى دار الدنيا . فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ؛ إنما يوفون أجورهم يوم القيامة .. وفى هذه العناية تتجلى الرحمة فى مظهر من مظاهرها .. كما أن ما يتجلى من فضل الله فى جزاء السيئة بمثلها ، والحسنة بعشرة أمثالها ، والإضعاف لمن يشاء ، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء .. كل أولئك من مظاهر الرحمة التى تتجلى فى هذا الجمع أيضا .

ولقد كان العرب فى جاهليتهم ـ قبل أن يمن الله عليهم بهذا الدين ويرفعهم إلى مستواه الكريم ـ يكذبون بيوم القيامة ـ شأنهم فى هذا شأن أهل الجاهلية « العلمية » الحديثة !!! لذلك جاء التعبير فى هذه الصيغة المؤكدة بشتى التوكيدات ، لمواجهة ذلك التكذيب :

« ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » ..

ولن يخسر فى هذا اليوم إلا الذين لم يؤمنوا فى الدنيا .. وهؤلاء لن يخسروا شيئا ويكسبوا شيئا .. هؤلاء خسروا كل شىء .. فقد خسروا أنفسهم كلها ، فلم يعودوا يملكون أن يكسبوا شيئا . أليس أن الإنسان إنما يكسب لنفسه ؟ فإذا خسر نفسه ذاتها فماذا يكسب ؟ ولمن يكسب ؟!

Marfat.com

« الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » ..

لقد خسروا أنفسهم وفقدوها ؛ فلم تعد لهم نفس تؤمن ! .. وهو تعبير دقيق عن حالة واقعة .. إن الذين لا يؤمنون بهذا الدين - مع عمق ندائه وإيحائه للفطرة بموحيات الإيمان ودلائله - هؤلاء لا بد أن يكونوا قد فقدوا قبل ذلك فطرتهم ! لا بد أن تكون أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فى كيانهم معطلة مخربة ؛ أو محجوبة مغلقة . فهم فى هذه الحالة قد خسروا أنفسهم ذاتها ، بفقدانهم أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية الحية فى كيانها ، ومن ثم فهم لا يؤمنون . . إذ أنهم لم يعودوا يملكون أنفسهم التى بها يؤمنون .. وهذا هو التفسير العميق لعدم إيمانهم مع توافر دلائل الإيمان وموحياته من حولهم .. وهذا هو الذى يحدد مصيرهم فى ذلك اليوم . وهو الخسارة الكبرى المترتبة على خسارتهم من قبل لنفوسهم !

بعد ذلك يمضى السياق يستقصى الخلائق فى الزمان - كما استقصاها فى الآية السابقة فى المكان - ليقرر تفرد الله - سبحانه - بملكيتها ؛ وعلمه - سبحانه - وسمعه المحيطين بها :

« وله ما سكن فى الليل والنهار ، وهو السميع العليم » ..

وأقرب تأويل لقوله : « ما سكن » أنه من السكنى - كما ذكر الزمخشرى فى الكشاف - وهو بهذا يعنى كل ما اتخذ الليل والنهار سكنا ؛ فهو يعنى جميع الخلائق ؛ ويقرر ملكيتها لله وحده . كما قرر من قبل ملكية الخلائق كلها له سبحانه . غير أنه فى الآية الأولى : « قل : لمن ما فى السماوات والأرض ؟ قل : لله » قد استقصى الخلائق من ناحية المكان . وفى هذه الآية الثانية : « وله ما سكن فى الليل والنهار » .. قد استقصى الخلائق من ناحية الزمان .. ومثله معروف فى التعبير القرآنى حين يتجه إلى الاستقصاء .. وهذا هو التأويل الذى نطمئن إليه فى الآيتين من بين شتى التأويلات .

والتعقيب بصفتى السمع والعلم يفيد الإحاطة بهذه الخلائق ، وبكل ما يقال عنها كذلك من مقولات المشركين الذين يواجههم هذا النص . . ولقد كانوا مع إقرارهم بوحدانية الخالق المالك ، يجعلون لأربابهم المزعومة جزءا من الثمار ومن الأنعام ومن الأولاد - كما سيجىء فى نهاية السورة - فهو يأخذ عليهم الإقرار هنا بملكية كل شىء ؛ ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء

Marfat.com

بغير إذن من الله . كما أنه يمهد بتقرير هذه الملكية الخالصة لما سيلى فى هذه الفقرة من ولاية لله وحده ، عما أنه هو المالك المتفرد بملكية كل شىء . فى كل مكان وفى كل زمان ، الذى يحيط سمعه وعلمه بكل شىء ، وبكل ما يقال عن كل شىء كذلك !

* * *

والآن ، وقد تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك .. يجىء الاستنكار العنيف للاستنصار بغير الله ، والعبودية لغير الله ، والولاء لغير الله . ويتقرر أن هذا مناقض لحقيقة الإسلام لله ، وأنه هو الشرك الذى لا يجتمع مع الإسلام . وتذكر من صفات الله سبحانه : أنه فاطر السماوات والأرض ، وأنه الرازق للطعم ، وأنه الضار النافع ، وأنه القادر القاهر . كما يذكر العذاب المخوف المرهوب .. فتجلل الموقف كله ظلال الجلال والرهبة ، فى إيقاع مدوٍّ عميق :

« قل : أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ..

إن هذه القضية .. قضية اتخاذ الله وحده وليا . بكل معانى كلمة (الولى) . أى اتخاذه وحده ربا ومولى معبودا يدين له العبد بالعبودية ممثلة فى الخضوع لحاكميته وحده ؛ ويدين له بالعبادة فيقدم له شعائرها وحده . واتخاذه وحده ناصرا يستنصر به ويعتمد عليه ، ويتوجه إليه فى الملمات ... إن هذه القضية هى قضية العقيدة فى صميمها . فإما إخلاص الولاء لله — بهذه المعانى كلها — فهو الإسلام . وإما إشراك غيره معه فى أى منها ، فهو الشرك الذى لا يجتمع فى قلب واحد هو والإسلام !

وفى هذه الآيات تقرر هذه الحقيقة بأقوى عبارة وأعمق إيقاع :

« قل : أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين » ..

Marfat.com

إنه منطق الفطرة القوى العميق .. لمن يكون الولاء ولمن يتمحض ؟ لمن إن لم يكن لفاطر السماوات والأرض الذى خلقهما وأنشأهما ؟ لمن إن لم يكن لرازق من فى السماوات والأرض الذى يطعم ولا يطلب طعاما ؟

« قل : أغير الله أتخذ وليا » .. وهذه صفاته سبحانه .. أى منطق يسمح بأن يتخذ غير الله وليا ؟ إن كان يتولاه لينصره ويعينه ، فالله هو فاطر السماوات والأرض ، فله السلطان فى السماوات والأرض . وإن كان يتولاه ليرزقه ويطعمه ، فالله هو الرازق المطعم لمن فى السماوات ومن فى الأرض . ففيم الولاء لغير صاحب السلطان الرزاق ؟

ثم .. « قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ».. والإسلام وعدم الشرك معناها المتعين ألا أتخذ غير الله وليا . فاتخاذ غير الله وليا ـ بأى معنى ـ هو الشرك . ولن يكون الشرك إسلاما ..

قضية واضحة محددة ، لا تقبل لينا ولا تميعا .. إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلق والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة ؛ والإقرار له وحده بالحاكمية فى كل أمر من هذه الأمور ورفض إشراك غيره معه فيها ؛ وولاء القلب والعمل ، فى الشعيرة والشريعة له وحده بلا شريك .. إما هذا كله فهو الإسلام .. وإما إشراك أحد من عباده معه فى شىء من هذا كله فهو الشرك . الذى لا يجتمع فى قلب واحد مع الإسلام .

لقد أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلن هذا الاستنكار فى وجه المشركين الذين كانوا يدعونه إلى الملاينة والمداهنة ؛ ليجعل لآلهتهم مكانا فى دينه ، مقابل أن يدخلوا معه فى هذا الدين . وليترك لهم بعض خصائص الألوهية يزاولونها إبقاء على مكانتهم وكبريائهم ومصالحهم ، .. وأولها تقاليد التحريم والتحليل .. فى مقابل أن يكفوا عن معارضته ، وأن يجعلوه رئيسا فيهم ، ويجمعوا له من مالهم ، ويزوجوه أجمل بناتهم !

لقد كانوا يرفعون يدا للإيذاء والحرب والتنكيل ، ويمدون يدا بالإغراء والمصالحة واللين.. وفى وجه هذه المحاولة المزدوجة أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقذف بهذا الاستنكار العنيف ، وبهذا الحسم الصريح ، وبهذا التقرير الذى لا يدع مجالا للتميع .

Marfat.com

وأمر كذلك أن يقذف فى قلوبهم بالرعب والترويع ؛ فى الوقت الذى يعلن فيه تصوره لجدية الأمر والتكليف ، ولخوفه هو من عذاب ربه ، إن عصاه فيما أمر به من الإسلام والتوحيد :

« قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين » ..

إنه تصوير لحقيقة مشاعر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجاه أمر ربه له ؛ وتجسيم لخوفه من عذابه . العذاب الذى يعتبر مجرد صرفه عن العبد رحمة من الله وفوزا مبينا . ولكنه فى الوقت ذاته حملة مزلزلة على قلوب المشركين فى ذلك الزمان ، وقلوب المشركين بالله فى كل زمان . حملة مزلزلة تصور العذاب فى ذلك اليوم العظيم ؛ يطلب الفريسة ، ويحلق عليها ، ويهجم ليأخذها . فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التى تأخذ بخطامه فتلويه عنها ! وإن أنفاس القارئ لهذا التصوير لتحتبس ـ وهو يتمثل المشهد ـ فى انتظار هذه اللقطة الأخيرة (١) !

ثم إنه لماذا يتخذ غير الله وليا ، ويعرض نفسه للشرك الذى نهى عنه وللمخالفة عن الإسلام الذى أمر به ، ولما يعقب المعصية من هذا العذاب الهائل الرعيب ؟ .. ألعل ذلك رجاء جلب نفع أو دفع ضر فى هذه الحياة الدنيا ؟ رجاء نصرة الناس له فى الضراء ؛ ورجاء نفع الناس له بالسراء ؟ .. إن هذا كله بيد الله ؛ وله القدرة المطلقة فى عالم الأسباب ؛ وله القهر كذلك على العباد ؛ وعنده الحكمة والخبرة فى المنع والعطاء :

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ..

إنه تتبع هواجس النفس ووساوس الصدر ؛ وتتبع مكامن الرغائب والمخافات ، ومطارح الظنون والشبهات ، وتجلية هذا كله بنور العقيدة ، وفرقان الإيمان ، ووضوح التصور ، وصدق المعرفة بحقيقة الألوهية . ذلك لخطورة القضية التى يعالجها السياق القرآنى فى هذا الموضع ، وفى جملة هذا القرآن .

* * *

(١) يراجع فصل : طريقة القرآن . فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وأخيرا تجيء قمة المد في هذه الوجة ؛ ويجيء الإيقاع المدوى العميق ؛ في موقف الإشهاد والإنذار والمفاصلة والتبرؤ من المشاركة في الشرك .. كل ذلك في رنة عالية ، وفي حسم رهيب :

« قل :أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بيني وبينكم ،وأوحى إلىهذا القرآنلأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد، وإنني برىء مما تشركون » ..

إن تتابع المقاطع والإيقاعات في الآية الواحدة عجيب ؛ وإن هذا التتابع ليرسم الموقف لحظة لحظة ، ومشهدا مشهدا ، ويكاد ينطق بملامح الوجوه فيه وخلجات الصدور ..

فها هو ذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤمر من ربه هذا الأمر .. ثم هاهو ذايواجه المشركين الذين يتخذون من دون الله أولياء ؛ يجعلون لهم بعض خصائص الألوهية مع الله ؛ ويدعون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـأن يقرهم على هذا الذى هم فيه ليدخلواهم فيهاجاهم به !كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأنه يمكن أن يجتمع الإسلام والشرك في قلب واحد على هذا النحو الذى كانوا يتصورونه ؛ والذى لا يزال يتصوره ناس في هذا الزمان ، من أنه يمكن أن يكون الإنسان مسلما لله ؛ بينما هو يتلقى من غير الله في شؤون الحياة ؛ وبينما هو يخضع لغير الله ويستنصر بغير الله ، ويتولى غير الله !

هاهو ذا رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ يواجه هؤلاءالمشركين، ليبين لهم مفرقالطريق بين دينه ودينهم ، وبين توحيده وشركهم ، وبين إسلامه وجاهليتهم . وليقرر لهم : أنهلاموضع للقاء بينه وبينهم، إلا أن يتخلصوا هم من دينهم ويدخلوا في دينه .وأنه لا وجه للمصالحة في هذا الأمر ؛ لأنه يفترق معهم في أول الطريق !

وهاهو ذا يبدأ معهم مشهد الإشهاد العلنى المفتوح المكشوف :

« قل : أى شيء أكبر شهادة ؟ » ..

أىّ شاهد في هذا الوجود كله هو أكبر شهادة ؟ أى شاهد تعلو شهادته كل شهادة ؟ أى شاهد تحسم شهادته في القضية فلا يبقى بعد شهادته شهادة ؟

Marfat.com

والتعميم المطلق ، حتى لا يبقى في الوجود كله « شيء » لا يستقصى وزنه في مقام الشهادة: يكون السؤال : « أي شيء أكبر شهادة ؟ »

وكما يؤمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالسؤال ، فهو يؤمر كذلك بالجواب . ذلك أنه لاجواب غيره باعتراف المخاطبين أنفسهم . ولا جواب غيره في حقيقة الأمر والواقع :

« قل : الله » ..

نعم ! فالله - سبحانه وتعالى - هو أكبر شهادة ..هوالذي يقص الحق وهو خير الفاصلين.. هو الذي لاشهادة بعد شهادته ، ولا قول بعدقوله . فإذا قال فقدانتهى القول ، وقد قضي الأمر .

فإذا أعلن هذه الحقيقة : حقيقة أن الله سبحانه هو أكبر شهادة ، أعلن لهم أنه - سبحانه - هو الشهيد بينه وبينهم في القضية :

« شهيد بيني وبينكم » ..

على تقدير : هو شهيد بيني وبينكم، فهذا التقطيع في العبارة هو الأنسب في جو المشهد : وهو أولى من الوصل على تقدير : « قل الله شهيد بيني وبينكم »

فإذا تقرر المبدأ : مبدأ تحكيم الله سبحانه في القضية ، أعلن إليهم أن شهادة الله سبحانه ، تضمنها هذا القرآن ، الذي أوحاه إليه لينذرهم به ؛ وينذر به كل من يبلغه في حياته صلى الله عليه وسلم - أو من بعد . فهوحجة عليهم وعلى من يبلغه غيرهم ؛ لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية ؛ التي تقوم عليها الدنيا والآخرة ، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنا :

« وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » ..

فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغة يفهمها ، ويحصل منها محتواه ، فقد قامت عليه الحجة به ، وبلغه الإنذار ، وحق عليه العذاب ، إن كذب بعد البلاغ .. (فأما من يحول عدم فهمه للغة القرآن دون فهمه لفحواه ، فلا تقوم عليه الحجة به ؛ ويبقى إثمه على أهل هذا الدين الذين لم يبلغوه بلغته التي يفهم بها مضمون هذه الشهادة .. هذا إذا كان مضمون القرآن لم يترجم إلى لغته) ..

فإذا أعلن إليهم أن شهادة الله - سبحانه - متضمنة في هذا القرآن ؛ أعلن إليهم مضمون هذه الشهادة في صورة التحدي والاستنكار لشهادتهم هم، المختلفة في أساسها عن شهادة الله سبحانه .

Marfat.com

وعالمهم بأنه ينكر شهادتهم هذه ويرفضها ؛ وأنه يعلن غيرها ويقرر عكسها ويشهد لربه بالوحدانية المطلقة والألوهية المتفردة ؛ وأنه يفاصلهم على هذا عند مفرق الطريق ؛ وأنه يتبرأ من شركهم في صيغة التشديد والتوكيد :

« أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون » ..

والنصوص القرآنية بمقاطعها هذه ، وبإيقاعاتها هذه ، تهز القلوب بما لا يملك البيان البشرى أن يفعل . فلا أريد أن أوقف تدفقها وانسكابها في القلب بأي تعليق .

* * *

ولكني أريد أن أتحدث عن القضية التي تضمنها هذا المقطع ، وجرت بها هذه الموجة .. إن هذه القضية التي عرضها السياق القرآني في هذه الآيات .. قضية الولاء والتوحيد والمفاصلة .. هي قضية هذه العقيدة ؛ وهي الحقيقة الكبرى فيها . وإن العصبة المؤمنة اليوم لخليقة بأن تقف أمام هذا الدرس الرباني فيها وقفة طويلة ..

إن هذه العصبة تواجه اليوم من الجاهلية الشاملة في الأرض ، نفس ما كانت تواجهه العصبة التي تنزلت عليها هذه الآيات ، لتحدد على ضوئها موقفها ، ولتسير على هذا الضوء في طريقها ؛ وتحتاج – من ثم – أن تقف وقفة طويلة أمام هذه الآيات ، لترسم طريقها على هداها .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية ؛ وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويوم جاءها الإسلام مبنيا على قاعدته الكبرى : « شهادة أن لا إله إلا الله » .. شهادة أن لا إله إلا الله بمعناها الذي عبر عنه ربعي ابن عامر رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله : « ما الذي جاء بكم » ؟ فيقول : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ،ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .. وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلها خالقا للكون ؛ ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة ؛ ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع ، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام

Marfat.com

وينفيه ؟ فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التى يعبد العباد فيها العباد، ويقرون لهم بخصائص الألوهية ـ وهى الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع ـ (وهى الأديان) .. إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام .

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله . فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد ، وإلى جور الأديان ؛ ونكصت عن لا إله إلا الله ، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن : « لا إله إلا الله » ؛ دون أن يدرك مدلولها ، ودون أن يعنى هذا المدلول وهو يرددها ، ودون أن يرفض شرعية « الحاكمية » التى يدعيها العباد لأنفسهم ـ وهى مرادف الألوهية ـ سواء ادعوها كأفراد ، أو كتشكيلات تشريعية ، أو كشعوب . فالأفراد ، كالتشكيلات ، كالشعوب ، ليست آلهة ، فليس لها إذن حق الحاكمية .. إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية ، وارتدت عن لا إله إلا الله . فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية . ولم تعد توحد الله ، وتخلص له الولاء ..

البشرية بجملتها ، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن فى مشارق الأرض ومغاربها كلمات : « لا إله إلا الله » بلا مدلول ولا واقع . . وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة ، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد ـ من بعدما تبين لهم الهدى ـ ومن بعد أن كانوا فى دين الله !

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات !

ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء :

« قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين » . .

ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله وليا ـ بكل معانى « الولى » .. وهى الخضوع والطاعة ، والاستنصار والاستعانة .. يتعارض مع الإسلام ، لأنه هو الشرك الذى جاء الإسلام ليخرج منه الناس .. ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله فى الضمير أو فى الحياة .. الأمر الذى تزاوله البشرية كلها بدون استثناء . ولتعلم أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؛ وأنها تواجه جاهلية كالتى واجهها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجماعة المسلمة حين تلقى هذه الآيات ..

Marfat.com

وما أحوجها أن تستصحب فى مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التى تسكبها فى القلب المؤمن الآيات التالية :

« قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ..

فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها ، وبإعراضها وعنادها ، وبالتوائها وكيدها ، وبفسادها وانحلالها .. ما أحوج من يواجه هذا الشر كله ، أن يستصحب فى قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر .. مخافة المعصية والولاء لغير الله . ومخافة العذاب الرعيب الذى يترقب العصاة .. واليقين بأن الضار والنافع هو الله . وأن الله هو القاهر فوق عباده فلا معقب على حكمه ولاراد لما قضاه .. إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف « إنشاء » الإسلام من جديد فى وجه الجاهلية الطاغية . وهى تكاليف هائلة تنوء بها الجبال !

ثم ما أحوج العصبة المؤمنة ـ بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها فى الأرض اليوم ؛ وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التى تدعو إليها ومقتضياتها من إفراد الله سبحانه بالولاء بكل مدلولاته ؛ وبعد أن تستصحب معها فى مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر .. ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذى تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى . وأن تقول ما أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوله؛ وأن تقذف فى وجه الجاهلية ، بما قذف به فى وجهها الرسول الكريم ، تنفيذا لأمر ربه العظيم :

« قل : أى شىء أكبر شهادة ؟ قل : الله ، شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ قل : لا أشهد . قل: إنما هو إله واحد، وإننى برىء مما تشركون » ..

إنه لابد أن تقف العصبة المسلمة فى الأرض ، من الجاهلية التى تغمر الأرض ، هذا الموقف. لابد أن تقذف فى وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية ، قاطعة فاصلة ، مزلزلة رهيبة .. ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شىء قدير ، وأنه هو القاهر فوق عباده . وأن هؤلاء العباد ـ بما فيهم

Marfat.com

الطواغيت المتجبرون - أضعف من الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله ؛ وليسوا بنافعين أحدا إلا بإذن الله ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولابد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض ، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق . وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت ، وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد ، وتنذرها هذه النذارة ، وتعلنها هذا الإعلان ، وتفاصلها هذه المفاصلة ، وتتبرأ منها هذه البراءة ..

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة «موقف تاريخي» ؛ إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان . منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن . وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماما ؛ وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشئ الإسلام في الأرض إنشاء .. فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين . والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره . والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله .. لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة ..والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين ..

« ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ؟ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا : وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ

Marfat.com

كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ، وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ، وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

« وَقَالُوا : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ : أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ وَرَبِّنَا ! قَالَ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا : يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ! * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » (٣٢)

هذه الجولة ـ أو هذه الموجة ـ عودة إلى مواجهة المشركين المكذبين بالقرآن الكريم، المكذبين بالبعث والآخرة .. ولكنها لا تواجههم بتصوير تعنتهم وعنادهم ؛ ولا تواجههم بمصارع الغابرين من المكذبين من أسلافهم ـ كما سبق فى سياق السورة ـ إنما تواجههم بمصيرهم فى يوم البعث الذى يكذبون به ؛ وبجزائهم فى الآخرة التى ينكرونها .. تواجههم بهذا الجزاء وبذلك المصير فى مشاهد حية شاخصة .. تواجههم به وهم محشورون جميعا ، مسؤولون سؤال التبكيت والتأنيب، وسؤال التشهير والتعجيب : « أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ » وهم فى رعب وفزع ، وفى تضعضع وذهول يقسمون بالله ويعترفون له وحده بالربوبية : « والله ربنا ما كنا مشركين »!.. وتواجههم به وهم موقوفون على النار ، محبوسون عليها ، وهم فى رعب وفزع ، وفى ندم وحسرة يقولون : « ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » ! .. وتواجههم به وهم

Marfat.com

موقوفون على ربهم ، وهم يتذاوبون من الخجل والندم، ومن الروع والهول ؛ وهو ـ جل جلاله ـ يسألهم سبحانه : « أليس هذا بالحق ؟ » فيجيبون في استخذاء وتذاوب : « بلى وربنا » . فلا يجديهم هذا الاعتراف شيئا : « قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .. ويواجهون به وهم قد خسروا أنفسهم وخسروا كل شيء إذن ؛ وجاءوا يحملون أوزارهم على ظهورهم ؛ وهم يجأرون بالحسرة على تفريطهم في الآخرة ، وأخذهم للصفقة الخاسرة !

مشهد وراء مشهد وكل مشهد يزلزل القلوب ، ويخلخل المفاصل ، ويهز الكيان ، ويفتح العين والقلب ـ عند من يشاء الله أن يفتح عينه وقلبه ـ على الحق الذي يواجههم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ والكتاب الذي يكذبون به ؛ بينما الذين أوتوا الكتاب من قبلهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم !

* * *

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » ..

لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لهذا القرآن ؛ أو لصحة رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله .. تكرر ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم ، عندما كانوا يقفون من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب والعداء (وكان هذا غالبا في المدينة) أو في مواجهة المشركين من العرب ؛ لتعريفهم أن أهل الكتاب ، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية ، يعرفون هذا القرآن ، ويعرفون صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أنه وحي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله .

وهذه الآية ـ كما رجحنا ـ مكية . وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو ـ إذن ـ يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي ينكرونه ، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم ؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون . شأنهم في هذا شأن المشركين ، الذين خسروا أنفسهم ،فلم يدخلوا في هذا الدين ! والسياق قبل هذه الآية وبعدها كله عن المشركين . مما يرجح مكيتها كما قلنا من قبل في التعريف بالسورة ..

Marfat.com

وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » .. على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقا ؛ أو على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رسول من عند الله حقا ، يوحى إليه بهذا القرآن ..

وهذا جانب من مدلول النص فعلا ، ولكنا نلمح - باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه - أن هنالك جانبا آخر من مدلول النص ؛ لعل الله - سبحانه - أراد أن يعلمه للجماعة المسلمة ، ليستقر في وعيها على مدار التاريخ ، وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين ..

إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله ؛ ويعرفون - من ثم - ما فيه من سلطان وقوة ؛ ومن خير وصلاح ؛ ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها؛ وبالأخلاق التي تنبثق منها ؛ وبالنظام الذي يقوم عليها . ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله ؛ ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين ! .. إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل .. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها ، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم ، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين ، أو يبقى عليها .. وأنها - من ثم - معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين ، ويكون الدين كله لله .. أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله ؛ وأن يطارد المعتدون على سلطان الله في الأرض كلها. وبذلك وحده يكون الدين كله لله ..

إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة في هذا الدين .. ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم .. وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة ؛ وينقبون عن أسرار قوته ؛ وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها ؛ ويبحثون بجد : كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين ؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله ؟ كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه ؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيق به ؟ كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله .. إلى حركة ثقافية باردة ، وإلى بحوث نظرية ميتة ، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ ؟ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه

Marfat.com

مدمرة له ، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة !؟ كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى ، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة !؟

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة ؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة - كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين ! - ولا لينصفوا هذا الدين وأهله - كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين ! - كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة ، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يعموها ! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها ! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ النفوس بها !

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم !

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك .. وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا !

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة .. هي هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » .. ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة .. إن البحوث التي تكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع ؛ بلغة من اللغات الأجنبية .. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه ، ومصادر قوته ، ووسائل مقاومته ، وطرق إفساد توجيهه ! ومعظمهم - بطبيعة الحال - لا يفصح عن نيته هذه ؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة ؛ وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين - الممثل في الاستعمار - إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية ؛ وأن استمرار الهجوم على الإسلام - ولو في الصورة الفكرية - سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة ! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث .. يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين ، حتى ينوم المشاعر المتوفزة ، ويخدر الحماسة المتحفزة،

Marfat.com

وينال ثقة القارىء واطمئنانه .. ثم يضع السم فى الكأس ويقدمها مترعة .. هذا الدين نعم عظيم.. ولكنه ينبغى أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجارى الحضارة « الإنسانية » الحديثة ! وينبغى ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التى وقعت فى أوضاع المجتمع ، وفى أشكال الحكم ، وفى قيم الأخلاق ! وينبغى - فى النهاية - أن يتمثل فى صورة عقيدة فى القلوب ، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة « الإنسانية » الحديثة ! ويقف فقط ليبارك ماتقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب .. وبذلك يظل دينا عظيما ..!!!

وفى أثناء عرض مواضع القوة والعمق فى هذا الدين - وهى ظاهريا تبدو فى صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر - يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب ، لينبههم إلى خطورة هذا الدين ، وإلى أسرار قوته ؛ ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف ، ليسددوا ضرباتهم على الهدف . وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم !

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه ؛ جديدة دائما ؛ كلما عاشوا فى ظلاله ؛ وهم يخوضون معركة العقيدة؛ ويتدبرون بوعى أحداث التاريخ ؛ ويطالعون بوعى أحداث الحاضر. ويرون بنور الله . الذى يكشف الحق ، وينير الطريق ..

* * *

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

هذا استطراد فى مواجهة المشركين بحقيقة ما يزاولونه ، ووصف موقفهم وعملهم فى تقدير الله سبحانه .. مواجهة تبدأ باستفهام تقريرى لظلمهم بافتراء الكذب على الله ؛ وذلك فيما كانوا يدعونه من أنهم على دينه الذى جاء به إبراهيم عليه السلام ؛ ومن زعمهم أن ما يحلونه وما يحرمونه من الأنعام والمطاعم والشعائر - كالذى سيجىء فى آخر السورة مشفوعا بقوله تعالى : « بزعمهم » - هو من أمر الله .. وليس من أمره وذلك كالذى يزعمه بعض من يدعون اليوم أنهم على دين الله الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقولون عن أنفسهم إنهم « مسلمون » ! وهو من

Marfat.com

الكذب المفترى على الله . ذلك أنهم يصدرون أحكاما وينشئون أوضاعا ، ويبتدعون قيما من عند أنفسهم يغتصبون فيها سلطان الله ويدعونه لأنفسهم ، ويزعمون أنها هي دين الله ! ويزعم لهم بعض من باعوا دينهم ليشتروا به مثوى في دركات الجحيم ، أنه هو دين الله ! .. وباستنكار تكذيبهم كذلك بآيات الله ، التي جاءهم بها النبي - صلى الله عليه وسلم - فردوها وعارضوها وجحدوها .

وقالوا : إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن مايزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله ! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم .. حذوك النعل بالنعل ..

يواجههم باستنكار هذا كله ؛ ووصفه بأنه أظلم الظلم :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ! » ..

والظلم هنا كناية عن الشرك . في صورة التفظيع له والتقبيح . وهو التعبير الغالب في السياق القرآني عن الشرك . وذلك حين يريد أن يبشع الشرك وينفر منه . ذلك أن الشرك ظلم للحق ، وظلم للنفس ، وظلم للناس . هو اعتداء على حق الله - سبحانه - في أن يوحد ويعبد بلا شريك . واعتداء على النفس بإيرادها موارد الخسارة والبوار . واعتداء على الناس بتعبيدهم لغير ربهم الحق ، وإفساد حياتهم بالأحكام والأوضاع التي تقوم على أساس هذا الاعتداء . . ومن ثم فالشرك ظلم عظيم ، كما يقول عنه رب العالمين . ولن يفلح الشرك ولا المشركون :

« إنه لايفلح الظالمون » ..

والله - سبحانه - يقرر الحقيقة الكلية ؛ ويصف الحصيلة النهائية للشرك والمشركين - أو الظلم والظالمين - فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، في الأمد القريب ، فلاحا ونجاحا .. فهذا هو الاستدراج المؤدي إلى الخسار والبوار .. ومن أصدق من الله حديثا ؟ ..

وهنا يصور من عدم فلاحهم موقفهم يوم الحشر والحساب ، في هذا المشهد الحي الشاخص الموحي :

« ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

إن الشرك ألوان ، والشركاء ألوان ، والمشركين ألوان .. وليست الصورة الساذجة التي

Marfat.com

تتراءى للناس اليوم حين يسمعون كلمة الشرك وكلمة الشركاء وكلمة المشركين : من أن هناك ناسا كانوا يعبدون أصناما أوأحجارا ، أو أشجارا ، أونجوما ، أو نارا .. الخ .. هى الصورة الوحيدة للشرك !

إن الشرك فى صميمه هو الاعتراف لغير الله ـ سبحانه ـ بإحدى خصائص الألوهية .. سواء كانت هى الاعتقاد بتسيير إرادته للأحداث ومقادير الكائنات . أو كانت هى التقدم لغير الله بالشعائر التعبدية والنذور وما إليها . أو كانت هى تلقى الشرائع من غير الله لتنظيم أوضاع الحياة.. كلها ألوان من الشرك ، يزاولها ألوان من المشركين ، يتخذون ألوانا من الشركاء !

والقرآن الكريم يعبر عن هذا كله بالشرك ؛ ويعرض مشاهد يوم القيامة تمثل هذه الألوان من الشرك والمشركين والشركاء ؛ ولا يقتصر على لون منها ، ولا يقصر وصف الشرك على واحد منها ؛ ولا يفرق فى المصير والجزاء بين ألوان المشركين فى الدنيا وفى الآخرة سواء ..

ولقد كان العرب يزاولون هذه الألوان من الشرك جميعا :

كانوا يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله ، لها مشاركة ـ عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله ـ فى تسيير الأحداث والأقدار . كالملائكة . أو عن طريق قدرتها على الأذى ـ كالجن بذواتهم أو باستخدام الكهان والسحرة لهم ـ أوعن طريق هذه وتلك ـ كأرواح الآباء والأجداد ـ وكل أولئك كانوا يرمزون له بالأصنام التى تعمرها أرواح هذه الكائنات ؛ ويستنطقها الكهان ؛ فتحل لهم ما تحل ، وتحرم عليهم ما تحرم .. وإنما هم الكهان فى الحقيقة .. هم الشركاء !

وكانوا يزاولون الشرك فى تقديم الشعائر لهذه الأصنام ؛ وتقديم القربان لها والنذور ـ وفى الحقيقة للكهان ـ كما أن بعضهم ـ نقلا عن الفرس ـ كانوا يعتقدون فى الكواكب ومشاركتها فى تسيير الأحداث ـ عن طريق المشاركة لله ـ ويتقدمون لها كذلك بالشعائر (ومن هنا علاقة الحلقة المذكورة فى هذه السورة من قصة إبراهيم عليه السلام بموضوع السورة كما سيأتى) ..

وكذلك كانوا يزاولون اللون الثالث من الشرك بإقامتهم لأنفسهم ـ عن طريق الكهان والشيوخ ـ شرائع وقيما وتقاليد ، لم يأذن بها الله .. وكانوا يدعون ما يدعيه بعض الناس اليوم من أن هذا هو شريعة الله !

Marfat.com

وفى هذا المشهد ـ مشهد الحشر والمواجهة ـ يواجه المشركين ـ كل أنواع المشركين بكل ألوان الشرك ـ بسؤالهم عن الشركاء ـ كل أصناف الشركاء ـ أين هم ؟ فإنه لايبدو لهم أثر ؛ ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب :

« ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟» ..

والمشهد شاخص ، والحشر واقع ، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال المظيم .. الأليم :

« أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ » .

وهنا يفعل الهول فعله .. هنا تتعرى الفطرة من الركام الذى ران عليها فى الدنيا .. هنا ينعدم من الفطرة ومن الذاكرة ـ كما هو منعدم فى الواقع والحقيقة ـ وجود الشركاء ؛ فيشعرون أنه لم يكن شرك ،ولم يكن شركاء .. لم يكن لهذا كله من وجود لافى حقيقة ولا واقع .. هنا « يفتنون » فيذهب الخبث ، ويسقط الركام ـ من فتنة الذهب بالنار ليخلص من الخبث والزبد ـ :

« ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين » ..

إن الحقيقة التى تجلت عنها الفتنة ، أو التى تبلورت فيها الفتنة ، هى تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده ؛ وتعريهم من الشرك الذى زاولوه فى حياتهم الدنيا .. ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعرى من الباطل .. فهو إذن بلاء هذا الذى تمثله قولتهم وليس بالنجاة .. لقد فات الأوان .. فاليوم للجزاء لا للعمل .. واليوم لتقرير ما كان لا لاسترجاع ما كان ..

لذلك يقرر الله سبحانه ، معجبا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أمر القوم ، أنهم كذبوا على أنفسهم يوم اتخذوا هؤلاء الشركاء شركاء ، حيث لا وجود لشركتهم مع الله فى الحقيقة . وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه ، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء :

« انظر كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

فالكذب منهم كان على أنفسهم ؛ فهم كذبوها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكا ، وافتروا على الله هذا الافتراء . وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون وغاب ، فى يوم الحشر والحساب !

هذا هو التأويل الذى أستريح إليه فى حلفهم بالله يوم القيامة وهم فى حضرته : أنهم ما كانوا

Marfat.com

مشركين. وفى تأويل كذبهم على أنفسهم كذلك. فهم لا يجرؤون يوم القيامة أن يكذبوا على الله، وأن يحلفوا أنهم ما كانوا مشركين عامدين بالكذب على الله ـ كما تقول بعض التفاسير ـ فهم يوم القيامة لا يكتمون الله حديثا . . إنما هو تعرى الفطرة عن الشرك أمام الهول الرعيب؛ وامحاء هذا الباطل الكاذب حتى لا أثر له فى حسهم يومذاك . ثم تعجيب الله ـ سبحانه ـ من كذبهم الذى كذبوه على أنفسهم فى الدنيا؛ والذى لا ظل له فى حسهم ولا فى الواقع يوم القيامة!

. . والله أعلم بمراده على كل حال . . إنما هو احتمال . .

* * *

ويمضى السياق يصور حال فريق من المشركين؛ ويقرر مصيرهم فى مشهد من مشاهد القيامة . .

يصور حالهم وهم يستمعون القرآن، معطلى الإدراك، مطموسى الفطرة، معاندين مكابرين، يجادلون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم على هذا النحو من الاستغلاق والعناد، ويدعون على هذا القرآن الكريم أنه أساطير الأولين؛ وينأون عن سماعه وينهون غيرهم عنه أيضا . . يصور حالهم هكذا فى الدنيا فى صفحة، وفى الصفحة الأخرى يرسم لهم مشهدا كئيبا مكروبا؛ وهم موقوفون على النار محبوسون عليها، وهى تواجههم بهول المصير الرعيب؛ وهم يتهافتون متخاذلين؛ ويتهاوون متحسرين؛ يتمنون لو يردون إلى الدنيا فيكون لهم موقف غير ذلك الموقف، الذى انتهى بهم إلى هذا المصير . فيردون عن هذا التمنى بالتصغير والتحقير :

« ومنهم من يستمع إليك، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاءوك يجادلونك، يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون . ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين! بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون » . .

إنهما صفحتان متقابلتان : صفحة فى الدنيا يرتسم فيها العناد والإعراض؛ وصفحة فى الآخرة يرتسم فيها الندم والحسرة . . يرسمهما السياق القرآنى، ويعرضهما هذا العرض المؤثر الوحى؛ ويخاطب بهما الفطر الجاسية؛ ويهز بها هذه الفطر هزا، لعل الركام الذى ران عليها يتساقط، ولعل مغاليقها الصلدة تتفتح، ولعلها تفىء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان .

Marfat.com

« ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » ..

والأكنة : الأغلفة التى تحول دون أن تتفتح هذه القلوب فتفقه ؛ والوقر : الصمم الذى يحول دون هذه الآذان أن تؤدى وظيفتها فتسمع ..

وهذه النماذج البشرية التى تستمع ؛ ولكنها لا تفقه . كأن ليس لها قلوب تدرك ؛ وكأن ليس لها آذان تسمع .. نماذج مكرورة فى البشرية فى كل جيل وفى كل قبيل ، فى كل زمان وفى كل مكان .. إنهم أناسى من بنى آدم.. ولكنهم يسمعون القول وكأنهم لا يسمعونه . كأن آذانهم صماء لا تؤدى وظيفتها . وكأن إدراكهم فى غلاف لا تنفذ إليه مدلولات ماسمعته الآذان !

« وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . حتى إذا جاءوك يجادلونك . يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين » ..

فأعينهم ترى كذلك . ولكن كأنها لا تبصر . أو كأن ما تبصره لا يصل إلى قلوبهم وعقولهم !

فما الذى أصاب القوم ياترى ؟ ما الذى يحول بينهم وبين التلقى والاستجابة . بينما لهم آذان ولهم عيون ولهم عقول ؟ يقول الله ــ سبحانه ــ :

« وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » ..

وهذا يعبر عن قضاء الله فيهم بألا يتلقى إدراكهم هذا الحق ولا يفقهه ؛ وبألا تؤدى أسماعهم وظيفتها فتنقل إلى إدراكهم ما تسمع من هذا الحق فتستجيب له ، مهما يروا من دلائل الهدى وموحيات الإيمان .

غير أنه يبقى أن نلتمس سنة الله فى هذا القضاء .. إنه سبحانه يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. ويقول : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .. فشأن الله ــ سبحانه ــ أن يهدى من يجاهد ليبلغ الهدى ؛ وأن يفلح من يزكى نفسه ويطهرها .. فأما هؤلاء فلم يتجهوا إلى الهدى ليهديهم الله ؛ ولم يحاولوا أن يستخدموا أجهزة الاستقبال الفطرية فى كيانهم ، فييسر الله لهم الاستجابة .. هؤلاء عطلوا أجهزتهم الفطرية ابتداء ؛ فجعل الله بينهم وبين الهدى حجابا ؛ وجرى قضاؤه فيهم بهذا الذى جرى

Marfat.com

جزاء على فعلهم الأول ونيتهم الأولى . . وكل شيء إنما يكون بأمر الله . ومن أمر الله أن يهدى من يجاهد ، وأن يفلح من يتزكى . ومن أمر الله أن يجعل على قلوب المرضين أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . . والذين يحيلون ضلالهم وشركهم وخطاياهم على إرادة الله بهم ، وعلى قضائه فيهم ، إنما يغالطون في هذه الإحالة . والله سبحانه يجبههم بالحق . وهو يحكى أقوالهم في هذا الشأن ويسفهها : « وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ؟ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . . فدل هذا على إنكار الله عليهم قولهم ؛ وعلى أن الضلالة إنما حقت عليهم – بعد النذارة – بفعلهم . .

والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، وإرادة العبد وكسبه . . ليجعلوا منها مباحث لاهوتية ، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة ؛ التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ؛ وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها ، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ؛ وأن اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في الدنيا والآخرة يجرى بها قدر الله أيضا ، فتكون . . وبهذا يكون مرجع الأمر كله إلى قدر الله . . ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به . . وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء !

والمشركون كانت معروضة عليهم أمارات الهدى ودلائل الحق وموحيات الإيمان ، في هذا القرآن ، الذي يلفتهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ؛ وهي وحدها كانت كفيلة – لو اتجهت إليها قلوبهم – أن توقع على أوتار هذه القلوب ، وأن تهز فيها المدارك الغافية فتوقظها وتحييها ، لتتلقى وتستجيب . إلا أنهم هم لم يجاهدوا ليهتدوا ؛ بل عطلوا فطرتهم وحوافزها ؛ فجعل الله بينهم وبين موحيات الهدى حجابا ؛ وصاروا حين يجيئون إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يجيئون

Marfat.com

مفتوحى الأعين والآذان والقلوب ؛ ليتدبروا ما يقوله لهم تدبر الباحث عن الحق ؛ ولكن ليجادلوا ويتلمسوا أسباب الرد والتكذيب :

« حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين » ..

والأساطير جمع أسطورة . وكانوا يطلقونها على الحكايات التى تتضمن الخوارق المتعلقة بالآلهة والأبطال فى قصص الوثنيات . وأقربها إليهم كانت الوثنية الفارسية وأساطيرها .

وهم كانوا يعلمون جيدا أن هذا القرآن ليس بأساطير الأولين . ولكنهم إنما كانوا يجادلون ؛ ويبحثون عن أسباب الرد والتكذيب ؛ ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة .. وكانوا يجدون فيما يتلى عليهم من القرآن قصصا عن الرسل وأقوامهم ؛ وعن مصارع الغابرين من المكذبين . فمن باب التمحل والتماس أوهى الأسباب ، قالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله : « إن هذا إلا أساطير الأولين » !

وإمعانا فى صرف الناس عن الاستماع لهذا القرآن ، وتثبيت هذه الفرية . فرية أن هذا القرآن إنما هو إلا أساطير الأولين .. كان مالك ابن النضر ، وهو يحفظ أساطير فارسية عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس الأسطوريين ، يجلس مجلسا قريبا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يتلو القرآن . فيقول للناس : إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين ، فعندى أحسن منها ! ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير ، ليصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم !

ولقد كانوا كذلك ينهون الناس عن الاستماع إليه - وهم كبراؤهم - وينأون هم عن الاستماع خشية التأثر والاستجابة :

« وهم ينهون عنه ، وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ..

لقد كانوا على يقين من أنه ليس أساطير الأولين . وأن مواجهته بأساطير الأولين لا تجدى لو ترك الناس يسمعون ! وكان كبراء قريش يخافون على أنفسهم من تأثير هذا القرآن فيها كما يخافون على أتباعهم . فلم يكن يكفى إذن فى المعركة بين الحق النفاذ بسلطانه القوى ، والباطل الواهن المتداعى ، أن يجلس النضر ابن الحارث يروى للناس أساطير الأولين ! ومن ثم كانوا ينهون أتباعهم أن يستمعوا لهذا القرآن ؛ كما كانوا هم أنفسهم ينأون بأنفسهم - خوفا عليها أن تتأثر وتستجيب - وحكاية الأخنس ابن شريق ، وأبى سفيان ابن حرب ، وعمرو ابن هشام

Marfat.com

وهم يقاومون جاذبية القرآن التي تشدهم شدا إلى التسمع في خفية لهذا القرآن حكاية مشهورة في السيرة (١)

وهذا الجهد كله الذي كانوا يبذلونه ليمنعوا أنفسهم ويمنعوا غيرهم من الاستماع لهذا القرآن؛ ومن التأثر به والاستجابة له .. هذا الجهد كله إنما كانوا يبذلونه في الحقيقة لإهلاك أنفسهم - كما يقرر الله - سبحانه - :

« وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » !

وهل يهلك إلا نفسه من يجاهد نفسه ويجاهد غيره دون الهدى والصلاح والنجاة ، في الدنيا والآخرة ؟

إنهم مساكين أولئك الذين يجعلون همهم كله في الحيلولة بين أنفسهم والناس معهم وبين هدى الله ! مساكين ! ولو تبدوا في ثياب الجبابرة وزى الطواغيت ! مساكين فهم لا يهلكون إلا أنفسهم في الدنيا والآخرة . وإن بدا لهم حيناً من الدهر وبدا للمخدوعين بالزبد أنهم رابحون مفلحون .

ومن شاء أن يرى فلينظر في الصفحة الأخرى المواجهة لهذه الصفحة الأولى :

« ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين » !

إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا .. مشهد الاستخذاء والندامة والخزى والحسرة . في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهى والنأى والادعاء العريض !

« ولو ترى إذ وقفوا على النار » ..

لو ترى ذلك المشهد ! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولى ! ولا يملكون الجدل والمغالطة !

لو ترى لرأيت ما يهول ! ولرأيتهم يقولون :

« ياليتنا نرد ، ولا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين » ..

فهم يعلمون الآن أنها كانت « آيات ربنا » ! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا . وعندئذ

(١) الجزء الأول من السيرة لابن هشام .. ومذكورة في الجزء السادس من الظلال ص ٥٠ - ١٠٥ من الطبعة الجديدة .

Marfat.com

فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات ، وعندئذ سيكونون من المؤمنين !

ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون !

على أنهم إنما يجهلون جبلتهم . فهي جبلة لاتؤمن . وقولهم هذا عن أنفسهم : إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين ، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لوكان لإجابتهم من سبيل ! وإنهم مايقولون قولتهم هذه ، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون ، وأنهم ناجون ، وأنهم مفلحون .

« بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه . وإنهم لكاذبون » ..

إن الله يعلم طبيعتهم ؛ ويعلم إصرارهم على باطلهم ؛ ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود .. « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » ..

ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس ، وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب !

* * *

يدعهم ليفتح صفحتين جديدتين متقابلتين كذلك ؛ ويرسم لهما مشهدين متقابلين : أحدهما في الدنيا وهم يجزمون بأن لابعث ولانشور ، ولا حساب ولا جزاء . وثانيهما في الآخرة وهم موقوفون على ربهم يسألهم عما هم فيه : « أليس هذا بالحق ؟ » .. السؤال الذي يزلزل ويذيب . فيجيبون إجابة المهين الذليل : « بلى ! وربنا » .. فيجبهون عندئذ بالجزاء الأليم بما كانوا يكفرون .. ثم يمضي السياق يرسم مشهدهم والساعة تأخذهم بغتة ، بعد ما كذبوا بلقاء الله ، فتنتابهم الحسرة ؛ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ! وفي النهاية يقرر حقيقة وزن الدنيا والآخرة في ميزان الله الصحيح :

«وقالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون .. قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون . وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ »

Marfat.com

وقضية البعث والحساب والجزاء فى الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية ، التى جاء بها الإسلام ؛ والتى يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية . والتى لا يقوم هذا الدين — عقيدة وتصورا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما — إلا عليها .. وبها ..

إن هذا الدين الذى أكمله الله ، وأتم به نعمته على المؤمنين به ، ورضيه لهم دينا — كما قال لهم فى كتابه الكريم — هو منهج للحياة كامل فى حقيقته ، متكامل متناسق فى تكوينه .. « يتكامل » ويتناسق فيه تصوره الاعتقادى مع قيمه الخلقية ، مع شرائعه التنظيمية .. وتقوم كلها على قاعدة واحدة من حقيقة الألوهية فيه وحقيقة الحياة الآخرة .

والحياة — فى التصور الإسلامى — ليست هى هذه الفترة القصيرة التى تمثل عمر الفرد ؛ وليست هى هذه الفترة المحدودة التى تمثل عمر الأمة من الناس ؛ كما أنها ليست هى هذه الفترة المشهودة التى تمثل عمر البشرية فى هذه الحياة الدنيا .

إن الحياة — فى التصور الإسلامى — تمتد طولا فى الزمان ، وتمتد عرضا فى الآفاق ، وتمتد عمقا فى العوالم ، وتمتد تنوعا فى الحقيقة .. عن تلك الفترة التى يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها .

إن الحياة — فى التصور الإسلامى — تمتد فى الزمان ، فتشمل هذه الفترة المشهودة — فترة الحياة الدنيا — وفترة الحياة الأخرى التى لا يعلم مداها إلا الله ؛ والتى تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار !

وتمتد فى المكان ، فتضيف إلى هذه الأرض التى يعيش عليها البشر ؛ دارا أخرى : جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ؛ ونارا تسع الكثرة من جميع الأجيال التى عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين !

وتمتد فى العوالم ، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله ؛ ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله . وجود يبدأ من لحظة الموت ، وينتهى فى الدار الآخرة . وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله . وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنسانى فى صور لا يعلمها إلا الله .

وتمتد الحياة فى حقيقتها ؛ فتشمل هذا المستوى المعهود فى الحياة الدنيا ، إلى تلك المستويات

Marfat.com

الجديدة فى الحياة الأخرى .. فى الجنة وفى النار سواء . وهى ألوان من الحياة ذات مذاقات ليست من مذاقات هذه الحياة الدنيا .. ولا تساوى الدنيا - بالقياس إليها - جناح بعوضة !

والشخصية الإنسانية - فى التصور الإسلامى - يمتد وجودها فى هذه الأبعاد من الزمان، وفى هذه الآفاق من المكان، وفى هذه الأعماق والمستويات من العوالم والحيوات .. ويتسع تصورها للوجود كله؛ وتصورها للوجود الإنسانى؛ ويتعمق تذوقها للحياة؛ وتكبر اهتماماتها وتعلقاتها وقيمها، بقدر ذلك الامتداد فى الأبعاد والآفاق والأعماق والمستويات .. بينما أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، يتضاءل تصورهم للوجود الكونى، وتصورهم للوجود الإنسانى؛ وهم يحشرون أنفسهم وتصوراتهم وقيمهم وصراعهم فى ذلك الجحر الضيق الصغير الضئيل من هذه الحياة الدنيا !

ومن هذا الاختلاف فى التصور يبدأ الاختلاف فى القيم، ويبدأ الاختلاف فى النظم .. ويتجلى كيف أن هذا الدين منهج حياة متكامل متناسق؛ وتتبين قيمة الحياة الآخرة فى بنائه: تصورا واعتقادا، وخلقا وسلوكا، وشريعة ونظاما ..

إن إنسانا يعيش فى هذا المدى المتطاول من الزمان والمكان والعوالم والمذاقات، غير إنسان يعيش فى ذلك الجحر الضيق، ويصارع الآخرين عليه، بلا انتظار لعوض عما يفوته، ولا لجزاء عما يفعله وما يفعل به .. إلا فى هذه الأرض ومن هؤلاء الناس !

إن اتساع التصور وعمقه وتنوعه ينشئ سعة فى النفس وكبرا فى الاهتمامات ورفعة فى المشاعر؛ ينشأ عنها هى بذاتها خلق وسلوك، غير خلق الذين يعيشون فى الجحور وسلوكهم ! فإذا أضيف إلى سعة التصور وعمقه وتنوعه، طبيعة هذا التصور، والاعتقاد فى عدل الجزاء فى الدار الآخرة، وفى ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته؛ استعدت النفس للبذل فى سبيل الحق والخير والصلاح الذى تعلم أنه من أمر الله، وأنه مناط العوض والجزاء؛ وصلح خلق الفرد واستقام سلوكه - متى استيقن من الآخرة كما هى فى التصور الإسلامى - وصلحت الأوضاع والأنظمة، التى لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض فى الآخرة، فيخسرون الدنيا والآخرة !

والذين يفترون على عقيدة الحياة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية فى الحياة الدنيا؛

Marfat.com

وإلى إهمال هذه الحياة ؛ وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها ؛ وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعا إلى نعيم الآخرة .. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة ! فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة – كما هي فى التصورات الكنسية المنحرفة – وعقيدة الآخرة كما هى فى دين الله القويم .. فالدنيا – فى التصور الإسلامى – هى مزرعة الآخرة . والجهاد فى الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة ، ورفع الشر والفساد عنها ، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها ، ودفع الطواغيت وتحقيق العدل والخير للناس جميعا .. كل أولئك هو زاد الآخرة ؛ وهو الذى يفتح للمجاهدين أبواب الجنة ، ويعوضهم عما فقدوا فى صراع الباطل ، وما أصابهم من الأذى ..

فكيف يتفق لعقيدة هذه تصوراتها أن يدع أهلها الحياة الدنيا تركد وتأسن ، أو تفسد وتختل ، أو يشيع فيها الظلم والطغيان ، أو تتخلف فى الصلاح والعمران.. وهم يرجون الآخرة ، وينتظرون فيها الجزاء من الله ؟

إن الناس إذا كانوا فى فترات من الزمان يعيشون سلبيين ؛ ويدعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا – مع ادعائهم الإسلام – فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف ؛ ولأن يقينهم فى الآخرة قد تزعزع وضعف ! لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين ؛ ويستيقنون من لقاء الله فى الآخرة . فما يستيقن أحد من لقاء الله فى الآخرة ، وهو يعى حقيقة هذا الدين ، ثم يعيش فى هذه الحياة سلبيا ، أو متخلفا ، أو راضيا بالشر والفساد والطغيان .

إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا ، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى . ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال فى الدنيا خالصة له يوم القيامة . ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها . ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه فى الآخرة .. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة ؛ وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا ؛ وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التى يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى ..

وكل جزئية فى النظام الإسلامى منظور فيها إلى حقيقة الحياة الآخرة ؛ وما تنشئه فى التصور

Marfat.com

من سعة وجمال وارتفاع ؛ وما تنشئه فى الخلق من رفعة وتطهر وسماحة ومن تشدد فى الحق وتحرج وتقوى ؛ وما تنشئه فى النشاط الإنسانى من تسديد وثقة وتصميم .

من أجل ذلك كله لا تستقيم الحياة الإسلامية بدون يقين فى الآخرة . ومن أجل ذلك كله كان هذا التوكيد فى القرآن الكريم على حقيقة الآخرة ..

وكان العرب فى جاهليتهم ـ وبسبب من هذه الجاهلية ـ لا تتسع آفاقهم التصورية والشعورية والفكرية للاعتقاد فى حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ؛ ولا فى عالم آخر غير هذا العالم الحاضر: ولا فى امتداد الذات الإنسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة .. مشاعر وتصورات أشبه شىء بمشاعر الحيوان وتصوراته .. شأنهم فى هذا شأن الجاهلية الحاضرة .. « العلمية » كما يصر أهلها على تسميتها !

« وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » ..

وكان الله ـ سبحانه ـ يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ فى ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة .. هذه الآفاق الضيقة فى الشعور والتصور ، التى تلصق الإنسان بالأرض ،وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة .. وهذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ، التى تطلق السعار فى النفس ، والتكالب على المتاع المحدود ، والعبودية لهذا المتاع الصغير ، كما تطلق الشهوات من عقالها تعربد وحدها بلا كابح ، ولا هدنة ، ولا أمل فى عوض ، إن لم تقض هذه الشهوات الهابطة الصغيرة ، التى لا تكاد تبلغ نزوات البهيمة ! .. وهذه الأنظمة والأوضاع ، التى تنشأ فى الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان ؛ بلا عدل ولا رحمة ، ولا قسط ولا ميزان . . إلا أن يصارع الأفراد بعضهم بعضا ، وتصارع الطبقات بعضها بعضا ، وتصارع الأجناس بعضها بعضا .. وينطلق الكل فى الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان ! كما نشهد اليوم فى عالم « الحضارة » . . فى كل مكان . .

كان الله ـ سبحانه ـ يعلم هذا كله ؛ ويعلم أن الأمة التى قدر أن يعطيها مهمة الإشراف على الحياة البشرية ، وقيادتها إلى القمة السامقة التى يريد أن تتجلى فيها كرامة الإنسانية فى صورة واقعية .. أن هذه الأمة لا يمكن أن تؤدى واجبها هذا إلا بأن تخرج بتصوراتها وقيمها من ذلك الجحر الضيق إلى تلك الآفاق والآماد الواسعة . . من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ..

Marfat.com

ولهذا كان ذلك التوكيد على حقيقة الآخرة .. أولا لأنها حقيقة . والله يقص الحق . وثانيا لأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان : تصورا واعتقادا ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة ونظاما .

ومن ثم كانت هذه الإيقاعات العنيفة العميقة التي نراها في هذه الموجة من نهر السورة المتدفق .. الإيقاعات التي يعلم الله أن فطرة الإنسان تهتز لها وترجف ؛ فتتفتح نوافذها ، وتستيقظ أجهزة الاستقبال فيها ، وتتحرك وتحيا ، وتتأهب للتلقي والاستجابة .. ذلك كله فضلا على أنها تمثل الحقيقة :

« ولو ترى إذ وقفوا على ربهم . قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

هذا مصير الذين قالوا : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .. وهذا هو مشهدهم البائس المخزي المهين ؛ وهم موقوفون في حضرة ربهم الذي كذبوا بلقائه ، لا يبرحون الموقف . وكأنما أخذ بأعناقهم حتى وقفوا في هذا المشهد الجليل الرهيب :

« قال : أليس هذا بالحق ؟ » ..

وهو سؤال يخزي ويذيب !

« قالوا : بلى وربنا » ..

الآن . وهم موقوفون على ربهم . في الموقف الذي نفوا على سبيل التوكيد أن يكون !

وفي اختصار يناسب جلال الموقف ، ورهبة المشهد ، وهول المصير ، يجيء الأمر العلوي بالقضاء الأخير :

« قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

وهو مصير يتفق مع الخلائق التي أبت على نفسها سمة التصور الإنساني وآثرت عليه جحر التصور الحسي ! والتي أبت أن ترتفع إلى الأفق الإنساني الكريم ، وأخلدت إلى الأرض ، وأقامت حياتها وعاشت على أساس ذلك التصور الهابط المزيل ! لقد ارتكست هذه الخلائق حتى أهلت نفسها لهذا العذاب ؛ الذي يناسب طبائع الكافرين بالآخرة ؛ الذين عاشوا ذلك المستوى الهابط من الحياة ! بذلك التصور الهابط المزيل !

Marfat.com

ويستكمل السياق المشهد الذى ختمه هناك بهذا القضاء العلوى تنسيقا له مع الجلال والروعة والهول .. يستكمله بتقرير حقيقته :

« قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ! » ..فهى الخسارة المحققة المطلقة .. خسارة الدنيا بقضاء الحياة فيها فى ذلك المستوى الأدنى .. وخسارة الآخرة على النحو الذى رأينا .. والمفاجأة التى لم يحسب لها أولئك الغافلون الجاهلون حسابا :

« حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : ياحسرتنا على ما فرطنا فيها ! » ..

ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال :

« وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » . .

بل الدواب أحسن حالا. فهى تحمل أوزارا من الأثقال .ولكن هؤلاء يحملون أوزارا من الآثام! والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح . وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم. مشيعين بالتأثيم :

« ألا ساء ما يزرون ! » ..

وفى ظلال هذا المشهد الناطق بالخسارة والضياع ، بعد ذلك المشهد الناطق بالهول والرهبة.. يجىء الإيقاع الأخير فى هذا المقطع ؛ بحقيقة وزن الدنيا ووزن الآخرة فى ميزان الله ؛ وقيمة هذه الدنيا وقيمة الآخرة فى هذا الميزان الصحيح :

« وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ » ..

هذه هى القيمة المطلقة الأخيرة فى ميزان الله للحياة الدنيا وللدار الآخرة .. وما يمكن أن يكون وزن ساعة من نهار ، على هذا الكوكب الصغير، إلا على هذا النحو ، حين توازن بذلك الأبد الأبيد فى ذلك الملك العريض. وما يمكن أن تكون قيمة نشاط ساعة فى هذه المبادة إلا لعبا ولهوا حين تقاس إلى الجد الرزين فى ذلك العالم الآخر العظيم ..

هذا تقييم مطلق .. ولكنه فى التصور الإسلامى لا يعنى — كما قلنا — إهمالا للحياة الدنيا ولا سلبية فيها ولا انعزالا عنها .. وليس ما وقع من هذا الإهمال والسلبية والانعزال وبخاصة فى بعض حركات « التصوف » « والزهد » بنابع من التصور الإسلامى أصلا . إنما هو عدوى من التصورات

Marfat.com

الكنسية الرهبانية ؛ ومن التصورات الفارسية ، ومن بعض التصورات الإشراقية الإغريقية المعروفة بعد انتقالها للمجتمع الإسلامي !

والنماذج الكبيرة التي تمثل التصور الإسلامي في أكمل صورة ، لم تكن سلبية ولا انعزالية.. فهذا جيل الصحابة كله؛ الذين قهروا الشيطان في نفوسهم ، كما قهروه في الأنظمة الجاهلية السائدة من حولهم في الأرض ؛ حيث كانت الحاكمية للعباد في الإمبراطوريات .. هذا الجيل الذي كان يدرك قيمة الحياة الدنيا كما هي في ميزان الله ، هو الذي عمل للآخرة بتلك الآثار الإيجابية الضخمة في واقع الحياة ، وهو الذي زاول الحياة بحيوية ضخمة ، وطاقة فائضة ، في كل جانب من جوانبها الحية الكثيرة .

إنما أفادهم هذا التقييم الرباني للحياة الدنيا وللدار الآخرة ، أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا .لقد ركبوها ولم تركبهم ! وعبدوها فذللوها لله ولسلطانه ولم تستعبدهم ! ولقد قاموا بالخلافة عن الله فيها بكل ما تقتضيه الخلافة عن الله من تعمير وإصلاح ، ولكنهم كانوا يبتغون في هذه الخلافة وجه الله ، ويرجون الدار الآخرة . فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا ، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة !

والآخرة غيب . فالإيمان بها سعة في التصور . وارتقاء في العقل . والعمل لها خير للمتقين يعرفه الذين يعقلون :

« وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون »..

والذين ينكرون الآخرة اليوم لأنها « غيب » إنما هم الجهال الذين يدعون العلم .. فالعلم علم الناس ـ (كما سنذكر فيما بعد) لم يعد لديه اليوم حقيقة واحدة مستيقنة له إلا حقيقة الغيب وحقيقة المجهول !!!

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ⊛ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ

Marfat.com

نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ! وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

« وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ! قُلْ : إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ، مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ، وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (٣٩)

فى هذه للوجة من موجات السياق المتدفق فى السورة ، يتجه الحديث إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يطيب الله ــ سبحانه ــ خاطره فى أوله ، مما يلاقيه من تكذيب قومه له ، وهو الصادق الأمين ، فإنهم لا يظنون به الكذب ، إنما هم مصرون على الجحود بآيات الله وعدم الاعتراف بها وعدم الإيمان ، لأمر آخر غير ظنهم به الكذب ! كما يواسيه بما وقع لإخوانه الرسل قبله من التكذيب والأذى ، وما وقع منهم من الصبر والاحتمال ، ثم ما انتهى إليه أمرهم من نصر الله لهم . وفق سنته التى لاتتبدل .. حتى إذا انتهى من المواساة والتسرية والتطمين ، التفت إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرر له الحقيقة الكبرى فى شأن هذه الدعوة .. إنها تجرى بقدر الله وفق سنته ، وليس للداعية فيها إلا التبليغ والبيان .. إن الله هو الذى يتصرف فى الأمر كله ، فليس على الداعية إلا أن يمضى وفق هذا الأمر ، لا يستعجل خطوة ولا يقترح على الله شيئا . حتى ولو كان هو النبى الرسول ! ولا يستمع إلى مقترحات المكذبين ــ ولا الناس عامة ــ فى منهج الدعوة ، ولا فى اقتراح براهين وآيات معينة عليه .. والأحياء الذين يسمعون

Marfat.com

سيستجيبون ، أما موتى القلوب فهم موتى لا يستجيبون ، والأمر إلى الله إن شاء أحياهم وإن شاء أبقاهم موتى حتى يرجعوا إليه يوم القيامة .

وهم يطلبون آية خارقة على نحو ما كان يقع للأقوام من قبلهم ، والله قادر على أن ينزل آية . ولكنه سبحانه لا يريد ـ لحكمة يراها ـ فإذا كبر على الرسول إعراضهم فليحاول هو إذن بجهده البشرى أن يأتيهم بآية ! .. إن الله ـ سبحانه ـ هو خالق الخلائق جميعا ، وعنده أسرار خلقهم ، وحكمة اختلاف خصائصهم وطباعهم . وهو يترك المكذبين من البشر صما وبكما فى الظلمات ، ويضل من يشاء ويهدى من يشاء وفق مايعلمه من حكمة الخلق والتنويع ..

* * *

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون . فإنهم لا يكذبونك . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ..

إن مشركى العرب فى جاهليتهم ـ وخاصة تلك الطبقة التى كانت تتصدى للدعوة من قريش ـ لم يكونوا يشكون فى صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقد عرفوه صادقا أمينا ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة فى حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة ، كذلك لم تكن تلك الطبقة التى تتزعم المعارضة لدعوته تشك فى صدق رسالته ، وفى أن هـذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله ..

ولكنهم ـ على الرغم من ذلك ـ كانوا يرفضون إظهار التصديق ، ويرفضون الدخول فى الدين الجديد ! إنهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن لأن فى دعوته خطرا على نفوذهم ومكانتهم .. وهذا هو السبب الذى من أجله قرروا الجحود بآيات الله ، والبقاء على الشرك الذى كانوا فيه ..

والأخبار التى تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هـذا وحقيقة ظنهم بهذا القرآن كثيرة :

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهرى : أنه حُدِّث ، أن أبا سفيان ابن حرب ، وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفى ، حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل

Marfat.com

فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه . وكل لا يعلم بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الصبح تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائهم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له . حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك .. ثم تفرقوا .. فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان ابن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه فى بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف .. أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال: فقام عنه الأخنس وتركه ..

وروى ابن جرير ــ من طريق أسباط عن السدى ــ فى قوله : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .. لما كان يوم بدر ، قال الأخنس ابن شريق لبنى زهرة : يا بنى زهرة : إن محمدا ابن أختكم ، فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته ، فإن كان نبيا لم تقاتلوه اليوم ، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته. قفوا حتى ألقى أبا الحكم ، فإن غلب محمد رجعتم سالمين ، وإن غُلب محمد فإن قومكم لن يصنعوا بكم شيئاً ــ فيومئذ سمى الأخنس وكان اسمه أبى ــ فالتقى الأخنس بأبى جهل ، فخلا به ، فقال : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيرى وغيرك يستمع كلامنا ! فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك

Marfat.com

قوله : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ..

ونلاحظ : أن السورة مكية ، وهذه الآية مكية لاشك فى ذلك ؛ بينما الحادثة المذكورة كانت فى المدينة يوم بدر .. ولكن إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون أحيانا عن آية ما : « فذلك قوله : كذا .. » ويقرنون إليها حادثا ما لاالنص على أنها نزلت بسبب الحادث الذى يذكرونه ؛ ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث ، بغض النظر عما إذا كان سابقا أو لاحقا .. فإننا لا نستغرب هذه الرواية ..

وقال ابن إسحاق : حدثنى يزيد ابن زياد ، عن محمد ابن كعب القرظى ، قال : حُدثت أن عتبة ابن ربيعة ــ وكان سيدا ــ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ ــ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يزيدون ويكثرون ــ فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ياابن أخى . إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة، والمكان فى النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قل : يا أبا الوليد أسمع » قال : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .. أو كما قال .. حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستمع منه ــ قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع منى » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم : حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ... » ثم مضى رسول الله ــ صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم ـ فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » . . فقام عتبة إلى أصحابه . فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ... خلوا بين الرجل وما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم !

وقد روى البغوى فى تفسيره حديثاً ـ بإسناده(١) ـ عن جابر ابن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ أن رسول ـ الله صلى الله عليه وسلم ـ مضى فى قراءته إلى قوله : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . فأمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم . . . إلى آخره . . . ثم لما حدثوه فى هذا قال : فأمسكت بفيه ، وناشدته الرحم أن يكف . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب . فخشيت أن ينزل بكم العذاب . .

وقال ابن إسحاق : إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ـ وكان ذا سن فيهم ـ وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقول به . قال : بل أنتم فقولوا : أسمع . قالوا : نقول : كاهن ! قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ! قالوا : فنقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ! قالوا : فنقول : شاعر ! قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه

(١) فى إسناده عبد الله الكندى الكوفى قال عنه ابن كثير (وقد ضعف بعض الشىء) .

Marfat.com

وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ! قالوا : فنقول : ساحر ! قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ! قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ! وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . . فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا للموسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره !

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد ابن ثورة ، عن معمر ، عن عبادة ابن منصور ، عن عكرمة : أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل ابن هشام . فأتاه فقال له : أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ! قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله ! (يريد الخبيث أن يثير كبرياءه من الناحية التي يعرف أنه أشد بها اعتزازاً !) قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا ! قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له ! قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . . قال : فدعني حتى أفكر فيه . . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر . يؤثره عن غيره . فنزلت : « ذرني ومن خلقت وحيدا .. حتى بلغ عليها تسعة عشر » .

وفي رواية أخرى أن قريشاً قالت : لئن صبأ الوليد لتصبون قريش كلها ! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه . . وأنه قال - بعد التفكير الطويل - إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه .

فهذه الروايات كلها تبين أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول الله - صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم - يكذبهم فيما يبلغه لهم . وإنما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الأسباب التي وردت بها الروايات ، وما وراءها من السبب الرئيسي ، وهو ما يتوقعونه من وراء هذه الدعوة من سلب السلطان المغتصب ، الذي يزاولونه ، وهو سلطان الله وحده . كما هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله التي يقوم عليها الإسلام . وهم كانوا يعرفون جيداً مدلولات لغتهم ؛ وكانوا لا يريدون أن يسلموا بمدلول هذه الشهادة . وهو إنما يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان الله في حياة العباد . . وصدق الله العظيم :

« قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون . فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . .

والظالمون في هذا الموضع هم المشركون . كما يغلب في التعبير القرآني الكريم .

ويستطرد من تطييب خاطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبيان الأسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته ، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به . . يستطرد من هذا إلى تذكيره بما وقع لإخوانه الرسل قبله - وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن - ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق ، حتى جاءهم نصر الله . ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل ، ولا يغير منها اقتراحات المقترحين ، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . .

إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب . . مستقيم الخطى ، ثابت الأقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء . . والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد . . والعاقبة هي العاقبة ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق . . إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق :

Marfat.com

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . .

كلمات يقولها الله - سبحانه - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - . كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، والتأسية . . وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقهم واضحا ، ودورهم محددا ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق . . .

إنها تعلمهم أن سنة الله في الدعوات واحدة . كما أنها كذلك وحدة . وحدة لا تتجزأ . . دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى أصحابها بالأذى . . وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الأذى . . وسنة تجري بالنصر في النهاية . . ولكنها تجيء في موعدها . لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الأبرياء الطيبين المخلصين يتلقون الأذى والتكذيب ، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الأبرياء الطيبين ! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته إنما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم ، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة ، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة . . لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله . فإن الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه . ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم ، أم تعلقت بالأجل المرسوم .

إنه الجد الصارم ، والحسم الجازم ، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية . .

ثم يبلغ الجد الصارم مداه ، في مواجهة ما عساه يتمثل في نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الرغبة البشرية ، المشتاقة إلى هداية قومه ، المتطلعة إلى الاستجابة لما يطلبونه من آية لعلهم يهتدون . وهي الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعض المسلمين في ذلك الحين ، والتي تشير إليها آيات أخرى في السورة آتية في السياق . وهي رغبة بشرية طبيعية . ولكن في صدد الحسم في طبيعة هذه الدعوة ومنهجها ودور الرسل فيها ، ودور الناس أجمعين ، تجيء تلك المواجهة الشديدة في القرآن الكريم :

Marfat.com

« وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض ، أو سلما فى السماء ، فتأتيهم بآية ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون » . .

وإنه للهول الهائل ينسكب من خلال الكلمات الجليلة . . وما يملك الإنسان أن يدرك حقيقة هذا الأمر ، إلا حين يستحضر فى كيانه كله : أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم .. النبى الصابر من أولى العزم من الرسل .. الذى لقى ما لقى من قومه صابرا محتسبا ، لم يدع عليهم دعوة نوح ـ عليه السلام ـ وقد لقى منهم سنوات طويلة ، مايذهب بحلم الحليم !

. . . تلك سنتنا ـ يا محمد ـ فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم ، وكنت ترغب فى إتيانهم بآية . . إذن . . فإن استطعت فابتغ لك نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء ، فأتهم بآية !

.... إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية . فليس الذى ينقص هو الآية التى تدلهم على الحق فيما تقول . . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى : إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى ـ كالملائكة ـ وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه . وإما بإظهار خارقة تلوى أعناقهم جميعا . وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها .

ولكنه سبحانه ـ لحكمته العليا الشاملة فى الوجود كله ـ خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان ، لوظيفة معينة ، تقتضى ـ فى تدبيره العلوى الشامل ـ أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة . من بينها التنوع فى الاستعدادات ، والتنوع فى استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، والتنوع فى الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات . فى حدود من القدرة على الاتجاه ، بالقدر الذى يكون عدلا معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال ..

لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكوينى من عنده ، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقى الجزاء العادل فى نهاية المطاف . . فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلونه .

Marfat.com

« ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكونن من الجاهلين » .

بالهول الكلمة ! وبالحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذى يقتضى هول الكلمة وحسم التوجيه . .

وبعد ذلك بيان للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولمواقفهم المختلفة فى مواجهة الهدى ، الذى لا تنقصه البينة ولا ينقصه الدليل :

« إنما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون » . .

إن الناس يواجهون هذا الحق الذى جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان :

فريق حى ، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية ، عاملة ، مفتوحة . . وهؤلاء يستجيبون للهدى . فهو من القوة والوضوح والاصطلاح مع الفطرة والتلاقى معها إلى الحد الذى يكفى أن تسمعه ، فتستجيب له :

« إنما يستجيب الذين يسمعون » . .

وفريق ميت ، معطل الفطرة ، لا يسمع ولا يستقبل ، ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب . . ليس الذى ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله - فدليله كامن فيه ، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه ، فاستجابت إليه حتما - إنما الذى ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة ، وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقى ! وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ، ولا مجال معهم للبرهان . إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله . إن شاء بعثهم إن علم منهم مايستحق أن يحييهم ، وإن شاء لم يبعثهم فى هذه الحياة الدنيا ، وبقوا أمواتا بالحياة حتى يرجعوا إليه فى الآخرة .

« والموتى يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون » . .

هذه هى قصة الاستجابة وعدم الاستجابة ! تكشف حقيقة الموقف كله ، وتحدد واجب الرسول وعمله ، وتترك الأمر كله لصاحب الأمر يقضى فيه بما يريد .

***

Marfat.com

ومن خطاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه الحقيقة ، ينتقل السياق إلى حكاية مايطلبه المشركون من إنزال خارقة ، وإلى بيان ما فى هـذا الطلب من الجهالة بسنة الله ، ومن سوء إدراك لرحمته بهم ألا يستجيب لهذا الاقتراح الذى فى أعقابه التدمير لهم لو أجيبوا إليه ! ويعرض جانبا من دقة التدبير الإلهى وإحاطته بالأحياء جميعا ، يوحى بحكمة السنة الشاملة للأحياء جميعا . وينتهى بتقرير ماوراء الهدى والضلال من أسرار وسنن تجرى بها مشيئة الله طليقة .

« وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولـكن أكثرهم لا يعلمون . وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالـكم مافرطنا فى الـكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون . والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ..

لقد كانوا يطلبون آية خارقة كالخوارق المادية التى صاحبت الرسالات السابقة ، ولا يقنعون بآية القرآن الباقية ، التى تخاطب الإدراك البشرى الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنسانى ، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقى ؛ والتى لا تنتهى بانتهاء الجيل الذى يرى الخارقة المادية ؛ بل تظل باقية تواجه الإدراك البشرى بإعجازها إلى يوم القيامة ..

وكانوا يطلبون خارقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله فى أخذ المـكذبين بالدعوة بعد مجىء الخارقة ، وإهلاكهم فى الدنيا . ولا يدركون حكمة الله فى عدم مجيئهم بهذه الخارقة ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها - كما وقع من الأقوام قبلهم - فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن . فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة . ولا يشـكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وذلك بعـدم الاستجابة لاقتراحهم ، الذى لا يعلمون جرائره !

والقرآن يذكر اقتراحهم هذا ، ويعقب عليه بأن أكثرهم لا يعلمون ما وراءه ولا يعلمون حكمة الله فى عدم الاستجابة ، ويقرر قدرة الله على تنزيل الآية ، ولـكن حكمته هى التى تقتضى ، ورحمته التى كتبها على نفسه هى التى تمنع البلاء :

Marfat.com

« وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

ويأخذ السياق القرآنى طريقه إلى قلوبهم من مدخل آخر لطيف . ويوقظ فيها قوى الملاحظة والتدبر لما فى الوجود حولهم من دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، لو تدبروه وتملوه :

« وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، مافرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون » ..

إن الناس ليسوا وحدهم فى هذا الكون ، حتى يكون وجودهم مصادفة ، وحتى تكون حياتهم سدى ! إن حولهم أحياء أخرى ، كلها ذات أمر منتظم ، يوحى بالقصد والتدبير والحكمة ، ويوحى كذلك بوحدة الخالق ، ووحدة التدبير الذى يأخذ به خلقه كله . .

إنه مامن دابة تدب على الأرض ـ وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريات ـ ومامن طائر يطير بجناحيه فى الهواء ـ وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنات الطائرة .. مامن خلق حى فى هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم فى أمة ، ذات خصائص واحدة ، وذات طريقة فى الحياة واحدة كذلك .. شأنها فى هذا شأن أمة الناس .. ماترك الله شيئا من خلقه بدون تدبير يشمله ، وعلم يحصيه .. وفى النهاية تحشر الخلائق إلى ربها .. فيقضى فى أمرها بما يشاء ..

إن هذه الآية القصيرة ـ فوق تقريرها الحاسم فى حقيقة الحياة والأحياء ـ لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل ، والتدبير الواسع ، والعلم المحيط ، والقدرة القادرة ، لله ذى الجلال .. وكل جانب من هذه الجوانب لاتملك التوسع فى الحديث عنه حتى لا نخرج عن منهج الظلال[1]، فنجاوزه إذن لنتمشى مع السياق .. إذ المقصود الأول هنا هو توجيه القلوب والعقول ، إلى أن وجود هذه الخلائق بهذا النظام ، وشمولها بهذا التدبير ، وإحصاءها فى علم الله ، ثم حشرها إلى ربها

(١) يراجع بتوسع فصول : « حقيقة الألوهية » و «حقيقة الحياة» و « حقيقة الإنسان » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » : القسم الثانى من الكتاب .

Marfat.com

فى نهاية المطاف .. توجيه القلوب والعقول إلى مافى هـذه الحقيقة الهائلة الدائمة من دلائل وأمارات ، أكبر من الآيات والخوارق التى يراها جيل واحد من الناس !

وتختم هذه الجولة ـ أو هذه الموجة ـ بتقرير ماوراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسننه، وما يدلان عليه من فطرة الناس فى حالات الهدى وحالات الضلال :

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ..

وهو إعادة لتقرير الحقيقة التى مضت فى هذه الجولة عن استجابة الذين يسمعون ، وموت الذين لا يستجيبون . ولكن فى صورة أخرى ومشهد آخر .. إن الذين كذبوا بآيات الله هذه المبثوثة فى صفحات الوجود ، وآياته الأخرى المسجلة فى صفحات هذا القرآن ، إنما كذبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة .. إنهم صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، غارقون فى الظلمات لا يبصرون ! إنهم كذلك لامن ناحية التكوين الجثمانى المادى . فإن لهم عيونا وآذانا وأفواها .. ولكن إدراكهم معطل ، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل ! .. وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل فى ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها،لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك ! ومايعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته ، فلم يعد صالحا لحياة الهدى ، ولم يعد أهلا لذلك المستوى الراقى من الحياة .

ووراء ذلك كله مشيئة الله .. المشيئة المطلقة التى قضت أن يكون هـذا الخلق المسمى بالإنسان على هـذا الاستعداد المزدوج للهدى والضلال ، عن اختيار وحكمة ، لا عن اقتضاء أو إلزام .. وكذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم . بمشيئته تلك ، التى تعين من يجاهد ، وتضل من يعاند . ولا تظلم أحدا من العباد .

إن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى ، أو اتجاهه إلى الضلال ، كلاهما ينشأ من خلقته التى فطره الله عليها بمشيئته . فهذا الاتجاه وذاك مخلوق ابتداء بمشيئة الله . والنتائج التى تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما ينشئها الله بمشيئته كذلك . فالمشيئة فاعلة ومطلقة.

Marfat.com

والحساب والجزاء إنما يقومان على اتجاه الإنسان . الذى يملكه ، وإن كان الاستعداد للاتجاه المزدوج هو فى الأصل من مشيئة الله [1] ..

* * *

والآن بعد الانتهاء من استعراض هذه الموجة من السياق ، نقف وقفة قصيرة لاستخلاص عبرة التوجيه فيها لكافة أصحاب الدعوة إلى هذا الدين فى كل جيل ، فإن مدى التوجيه فيها يتجاوز المناسبة التاريخية الخاصة ، وينسحب على جميع الأجيال ، وجميع الدعاة ، ويرسم منهجا للدعوة إلى هذا الدين ، لا يتقيد بالزمان والمكان . ونحن لا نملك هنا أن نفصل كل جوانب هذا المنهج ، فنقف منه إذن عند معالم الطريق :

إن طريق الدعوة إلى الله شاق ، محفوف بالمكاره ، ومع أن نصر الله للحق آت لاريب فيه ، إلا أن هذا النصر إنما يأتى فى موعده الذى يقدره الله ، وفق علمه وحكمته ، وهو غيب لا يعلم موعده أحد ـ حتى ولا الرسول ـ والمشقة فى هذا الطريق تنشأ من عاملين أساسيين : من التكذيب والإعراض اللذين تقابل بهما الدعوة فى أول الأمر ، والحرب والأذى اللذين يعلنان على الدعاة . . ثم من الرغبة البشرية فى نفس الداعية فى هداية الناس إلى الحق الذى تذوقه ، وعرف طعمه ، والحماسة للحق والرغبة فى استعلانه ! وهذه الرغبة لا تقل مشقة عن التكذيب والإعراض والحرب والأذى . فكلها من دواعى مشقة الطريق !

والتوجيه القرآنى فى هذه الموجة من السياق يعالج هذه المشقة من جانبيها . . ذلك حين يقرر أن الذين يكذبون بهذا الدين أو يحاربون دعوته ، يعلمون علم اليقين أن ما يُدعون إليه هو الحق ، وأن الرسول الذى جاء به من عند الله صادق . ولكنهم مع هذا العلم لايستجيبون، ويستمرون فى جحودهم عنادا وإصرارا ، لأن لهم هوى فى الإعراض والتكذيب ! وأن هذا الحق يحمل معه دليل صدقه ، وهو يخاطب الفطرة فتستجيب له ، متى كانت هذه الفطرة حية ، وأجهزة الاستقبال فيها صالحة : « إنما يستجيب الذين يسمعون » . . فأما الذين يجحدون فإن قلوبهم ميتة وهم موتى وهم صم وبكم فى الظلمات . والرسول لا يسمع الموتى ولا يسمع الصم

---

(١) راجع فصل « التوازن » فى القسم الأول من « الخصائص » .

Marfat.com

الدعاء . والداعية ليس عليه أن يبعث الموتى . فذلك من شأن الله . . هذا كله من جانب ، ومن الجانب الآخر ، فإن نصر الله آت لا ريب فيه . . كل ما هنالك أنه يجرى وفق سنة الله وبقدر الله ، وكما أن سنة الله لا تستعجل ، وكلماته لا تتبدل ، من ناحية مجىء النصر فى النهاية ، فكذلك هى لا تتبدل ولا تستعجل من ناحية الموعد المرسوم .. والله لا يعجل لأن الأذى والتكذيب يلحق بالدعاة - ولو كانوا هم الرسل - فإن استسلام صاحب الدعوة نفسه لقدر الله بلا عجلة ، وصبره على الأذى بلا تململ ، ويقينه فى العاقبة بلا شك . . كلها مطلوبة من وراء تأجيل النصر إلى موعده المرسوم .

ويحدد هذا التوجيه القرآنى دور الرسول فى هذا الدين - ودور الدعاة بعده فى كل جيل - إنه التبليغ ، والمضى فى الطريق ، والصبر على مشاق الطريق .. أما هدى الناس أو ضلالهم فهو خارج عن حدود واجبه وطاقته .. والهدى والضلال إنما يتبعان سنة إلهية لا تتبدل ، ولا يغير منها رغبة الرسول فى هداية من يحب ، كما لا يغير منها ضيقه ببعض من يعاند ويحارب .. إن شخصه لا اعتبار له فى هذه القضية ، وحسابه ليس على عدد المهتدين ، إنما حسابه على ما أدى وما صبر وما التزم ، وما استقام كما أمر .. وأمر الناس بعد ذلك إلى رب الناس .. « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » .. « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » .. « إنما يستجيب الذين يسمعون » وقد بينا من قبل علاقة مشيئة الله الطليقة فى الهدى والضلال باتجاه الناس وجهادهم . بما فيه الكفاية .

من هنا لا ينبغى لصاحب الدعوة إلى هذا الدين ، أن يستجيب لاقتراحات المقترحين ممن يوجه إليهم الدعوة ، فى تحوير منهج دعوته عن طبيعته الربانية ؛ ولا أن يحاول تزيين هذا الدين لهم وفق رغباتهم وأهوائهم وشهواتهم .. ولقد كان المشركون يطلبون الخوارق - وفق مألوف زمانهم ومستوى مداركهم كما حكى عنهم القرآن فى مواضع منه شتى، منها فى هذه السورة « وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! » .. « وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه » .. « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها » .. وفى السور الأخرى ما هو أشد إثارة للعجب من هذه الاقتراحات . ذلك كالذى حكاه عنهم فى سورة الإسراء : « وقالوا : لن نؤمن

Marfat.com

لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ! » .. وكالذى حكاه عنهم فى سورة الفرقان : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك ، فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ! » ..

والتوجيه القرآنى المباشر فى هذه الموجة من السورة نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين أن يرغبوا فى إتيانهم بآية - أية آية - مما يطلبون . وقيل للرسول - صلى الله عليه وسلم - : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون » . . وقيل للمؤمنين الذين رغبت نفوسهم فى الاستجابة للمشركين فى طلبهم آية عندما أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ! قيل لهم : « قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » . . ليعلموا أولا أن الذى ينقص المكذبين ليس هو الآية والدليل على الحق ، ولكن الذى ينقصهم أنهم لا يسمعون ، وأنهم موتى ، وأن الله لم يقسم لهم الهدى - وفق سنة الله فى الهدى والضلال كما أسلفنا - ثم ليعلموا كذلك أن هذا الدين يجرى وفق سنة لا تتبدل ، وأنه عزمن أن يصبح تحت رغبات المقترحين وأهوائهم !

وهذا يقودنا إلى المجال الأشمل لهذا التوجيه القرآنى .. إنه ليس خاصا بزمن ، ولا محصورا فى حادث ، ولا مقيدا باقتراح معين . فالزمن يتغير ، وأهواء الناس تتمثل فى اقتراحات أخرى . وأصحاب الدعوة إلى دين الله ينبغى ألا تستخفهم أهواء البشر . . إن الرغبة فى الاستجابة لمقترحات المقترحين هى التى تقود بعض أصحاب الدعوة الإسلامية اليوم إلى محاولة بلورة العقيدة الإسلامية فى صورة « نظرية مذهبية » على الورق كالذى يجدونه فى النظريات المذهبية الأرضية

Marfat.com

الصغيرة ، التي يصوغها البشر لفترة من الفترات ؛ ثم يمضي الزمن فإذا كلها عورات وشطحات ومتناقضات ! . . وهي التي تقود بعض أصحاب هذه الدعوة إلى محاولة بلورة النظام الإسلامي في صورة مشروع نظام — على الورق — أو صورة تشريعات مفصلة — على الورق أيضا — تواجه ماعليه أهل الجاهلية الحاضرة من أوضاع لا علاقة لها بالإسلام (لأن أهل هذه الجاهلية يقولون : إن الإسلام عقيدة ولا علاقة له بالنظام العام الواقعي للحياة !) وتنظم لهم هذه الأوضاع ؛ بينما هم باقون على جاهليتهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ولا يحكمون أو يتحاكمون إلى شريعة الله . . وكلها محاولات ذليلة ، لا يجوز للمسلم أن يحاولها استجابة لأزياء التفكير البشري المتقلبة ، التي لا تثبت على حال . باسم تطور وسائل الدعوة إلى الله ! (١)

وأذل من هذه المحاولة محاولة من يضعون على الإسلام أقنعة أخرى ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات .. كالاشتراكية .. والديمقراطية .. وما إليها .. ظانين أنهم إنما يخدمون الإسلام بهذه التقدمة الذليلة ! .. إن « الاشتراكية » مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر ؛ قابل للصواب والخطأ . وإن « الديمقراطية » نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك ، يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ أيضا . . والإسلام منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي ، والنظام الاجتماعي الاقتصادي ، والنظام التنفيذي والتشكيلي .. وهو من صنع الله المبرأ من النقص والعيب.. فأين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لمنهج الله — سبحانه — عند البشر بوصفه بصفه من أعمال البشر ؟ بل أين يقف من الإسلام من يريد أن يستشفع لله — سبحانه — عند العبيد بقول من أقوال هؤلاء العبيد ؟ ! ..

لقد كان كل شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه .. يتخذونهم أولياء :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... » فهذا هو الشرك ! فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من

---

(١) تراجع مقدمة السورة . كما يراجع فصل « طريق الخلاص » في كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

Marfat.com

عبيده ، ولكنهم - ويا للنكر والبشاعة ! - يستشفعون لله - سبحانه - عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم ؟ !

إن الإسلام هو الإسلام . والاشتراكية هى الاشتراكية . والديمقراطية هى الديمقراطية.. ذلك منهج الله ولا عنوان له ولا صفة إلا العنوان الذى جعله الله له ، والصفة التى وصفه بها . . وهذه وتلك من مناهج البشر . ومن تجارب البشر .. وإذا اختاروها فليختاروها على هذا الأساس . . ولا ينبغى لصاحب الدعوة إلى دين الله ، أن يستجيب لإغراء الزى الرائج من أزياء الهوى البشرى المتقلب . وهو يحسب أنه يحسن إلى دين الله !

على أننا نسأل هؤلاء الذين هان عليهم دينهم ، ولم يقدروا الله حق قدره . . إذا كنتم تقدمون الإسلام اليوم للناس باسم الاشتراكية ، وباسم الديمقراطية ، لأن هذين زيان من أزياء الاتجاهات المعاصرة . . فلقد كانت الرأسمالية فى فترة من الفترات هى الزى المحبوب عند الناس وهم يخرجون بها من النظام الإقطاعى ! كما كان الحكم المطلق فى فترة من الفترات هو الزى المطلوب فى فترة التجميع القومى للولايات المتناثرة كما فى ألمانيا وإيطاليا أيام بسمرك وما تزينى مثلا ! وغدا من يدرى ماذا يكون الزى الشائع من الأنظمة الاجتماعية الأرضية وأنظمة الحكم التى يضعها العبيد للعبيد ، فكيف يا ترى ستقولون غدا عن الإسلام ؟ لتقدموه للناس فى الثوب الذى يحبه الناس ؟ !

إن التوجيه القرآنى فى هذه الموجة التى نحن بصددها - وفى غيرها كذلك - يشمل هذا كله .. إنه يريد أن يستعلى صاحب الدعوة بدينه ؛ فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين ؛ ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ؛ ولا مخاطبة الناس به بغير منهجه ووسيلته .. إن الله غنى عن العالمين . ومن لم يستجب لدينه عبودية له ، وانسلاخا من العبودية لسواه ، فلا حاجة لهذا الدين به ، كما أنه لا حاجة لله - سبحانه - بأحد من الطائعين أو العصاة .

ثم إنه إذا كان لهذا الدين أصالته من ناحية مقوماته وخصائصه ، التى يريد الله أن تسود البشرية . فإن له كذلك أصالته فى منهجه فى العمل ، وفى أسلوبه فى خطاب الفطرة البشرية ... إن الذى نزل هذا الدين بمقوماته وخصائصه ، وبمنهجه الحركى وأسلوبه ، هو - سبحانه - الذى خلق الإنسان ، ويعلم ماتوسوس به نفسه ..

Marfat.com

وفى هذه الموجة من السورة نموذج من مخاطبته للفطرة الإنسانية .. نموذج من نماذج متنوعة شتى .. فهو يربط الفطرة البشرية بالوجود الكونى ، ويدع الإيقاعات الكونية تواجه الفطرة البشرية ، ويثير انتباه الكينونة البشرية لتلقى هذه الإيقاعات .. وهو يعلم أنها تستجيب لها متى بلغتها بعمقها وقوتها : « إنما يستجيب الذين يسمعون » ..

والنموذج الذى يواجهنا فى هذه الموجة هو :

« وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله قادر على أن ينزل آية . ولكن أكثرهم لايعلمون » ..

وفى هذه الآية يحكى قول الذين يكذبون ويعارضون ويطلبون خارقة يراها جيلهم وتنتهى .. ثم يلمس قلوبهم بما يكمن وراء هذا الاقتراح لو أجيب ! إنه الأخذ والتدمير ! والله قادر على أن ينزل الآية .. ولكن رحمته هى التى اقتضت ألا ينزلها ، وحكمته هى التى اقتضت ألا يستجيب لهم فيها ..

وفجأة ينقلهم من هذا الركن الضيق فى التصور والتفكير ، إلى الكون الواسع . إلى الآيات الكبرى من حولهم . الآيات التى تتضاءل دونها تلك الآية التى يطلبونها . الآيات الباقية فى صلب الكون للأجيال كلها من قبلهم ومن بعدهم تراها :

« وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . ما فرطنا فى الكتاب من شىء . ثم إلى ربهم يحشرون » ..

وهى حقيقة هائلة .. هى حقيقة تستطيع ملاحظتهم وحدها حينذاك – حيث لم يكن لهم علم منظم – أن تشهد بها .. حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم فى أمم .. لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك .. وهى الحقيقة التى تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر ، ولكن علمهم لا يزيد شيئا على أصلها ! وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة بها ، وهى إحاطة علم الله اللدنى بكل شىء ، وتدبير الله لكل شىء .. وهى الحقيقة التى تشهد بها تلك الحقيقة المشهودة..

فأين تذهب الخارقة المادية التى كانوا يطلبون ، أمام الخارقة الكبرى التى يرونها حيثما امتدت أبصارهم وملاحظتهم وقلوبهم فيما كان وفيما سيكون ؟

إن المنهج القرآنى – فى هذا النموذج – لايزيد على أن يربط الفطرة بالوجود ، وأن يفتح

Marfat.com

النوافذ بين الوجود والفطرة ، وأن يدع هذا الوجود الهائل العجيب يوقع إيقاعاته الهائلة العميقة فى الكيان الإنسانى ..

إنه لايقدم للفطرة جدلا لاهوتيا ذهنيا نظريا . ولا يقدم لها جدلا كلاميا (كعلم التوحيد) الغريب على المنهج الإسلامى . ولا يقدم لها فلسفة عقلية أو حسية ، إنما يقدم لها هذا الوجود الواقعى – بعالميه عالم الغيب وعالم الشهادة – ويدعها تتفاعل معه وتتجاوب ، وتتلقى عنه وتستجيب ، ولكن فى ظل منهج ضابط لا يدعها – وهى تتلقى من الوجود – تضل فى المتاهات والدروب ،

ثم يختم الفقرة بالتعقيب على موقف المكذبين بهذه الآيات الكبرى :

« والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ..

فيقرر حقيقة حالة المكذبين وطبيعتهم .. إنهم صم وبكم فى الظلمات .. ويقرر سنة الله فى الهدى والضلال .. إنها تعلق مشيئة الله بهذا أو ذاك ، وفق الفطرة التى فطر الله عليها العباد .

بذلك تلتئم جوانب التصور الإسلامى للأمر كله . إلى جانب وضوح المنهج فى الدعوة ، وتقرير موقف صاحب الدعوة ، وهو يتحرك بهذه العقيدة ، ويواجه النفوس البشرية فى كل حال وفى كل جيل ..

ولعل هذه اللمسات – إلى جانب ماتقدم فى مقدمة السورة – عن المنهج يكون فيها ما ينير الطريق . وبالله التوفيق ..

« قُلْ : أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ، إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ؟ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ، فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ – إِنْ شَاءَ – وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ .

Marfat.com

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ، فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ! وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ، فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ؟ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ !

« قُلْ : أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ؛ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ؟

« وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (٤٩)

هنا – فى هذه الموجة – يواجه السياق القرآنى فطرة المشركين ببأس الله . بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله .. حين تتعرى من الركام فى مواجهة الهول ، وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك الركام ! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة ؛ وتتجه من فورها إلى ربها الذى تعرفه فى قرارتها تسأله وحده الخلاص والنجاة !

ثم يأخذ بأيديهم ليوقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم ، وفى الطريق يريهم كيف تجرى سنة الله ، وكيف يعمل قدر الله . ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم ، بعد تكذيبهم برسل الله ، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء – الابتلاء بالبأساء والضراء ، ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء – وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة ، لينتبهوا من الغفلة ، حتى إذا

Marfat.com

استنفدوا الفرص كلها ، وغرتهم النعمة بعد أن لم توقظهم الشدة ، جرى قدر الله ، وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغتة : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » . .

وما يكاد هذا المشهد الذى يهز القلوب هزاً يتوازى ، حتى يجىء فى أعقابه مشهد آخر وهم يتعرضون لبأس الله أيضا ، فيأخذ سمعهم وأبصارهم ، ويختم على قلوبهم ، ثم لا يجدون إلها غير الله يرد عليهم سمعهم وأبصارهم وإدراكهم .

وفى مواجهة هذين المشهدين الرائعين الهائلين يتحدث إليهم عن وظيفة الرسل . . إنها البشارة والنذارة .. ليس وراء ذلك شيء .. ليس لهم أن يأتوا بالخوارق ، ولا أن يستجيبوا لاقتراحات المقترحين ! إنما هم يبلغون . يبشرون وينذرون . ثم يؤمن فريق من الناس ويعمل صالحا فيأمن الخوف وينجو من الحزن . ويكذب فريق ويعرض فيمسه العذاب بهذا الإعراض والتكذيب . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .. فهذا هو المصير ..

* * *

« قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون ـ إن كنتم صادقين ـ بل إياه تدعون ، فيكشف ماتدعون إليه ـ إن شاء ـ وتنسون ماتشركون » ..

هـذا طرف من وسائل المنهج الربانى فى خطاب الفطرة الإنسانية بهذه العقيدة يضم إلى ذلك الطرف الذى سبق بيانه فى الفقرة السابقة وفيما قبلها وما بعدها كذلك فى سياق السورة .

لقد خاطبها هناك بما فى عوالم الأحياء من آثار التدبير الإلهى والتنظيم ؛ وبما فى علم الله من إحاطة وشمول . وهو هنا يخاطبها ببأس الله ؛ وبموقف الفطرة إزاءه حين يواجهها فى صورة من صوره الهائلة ، التى تهز القلوب ، فيتساقط عنها ركام الشرك ؛ وتتعرى فطرتها من هـذا الركام الذى يحجب عنها ماهو مستقر فى أعماقها من معرفتها بربها ، ومن توحيدها له أيضـا :

« قل : أرأيتكم إن أتاكم عـذاب الله أو أتتكم الساعة . . أغـير الله تدعون . . إن كنتم صادقين » . .

Marfat.com

إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول . . عذاب الله فى الدنيا عذابَ الهلاك والدمار ؛ أو مجىء الساعة على غير انتظار . . والفطرة حين تلمس هـذه اللمسة ؛ وتتصور هذا الهول ؛ تدرك - ويعلم الله سبحانه أنها تدرك - حقيقة هذا التصور ، وتهتزّ له ؛ لأنه يمثل حقيقة كامنة فيها ، يعلم بارئها سبحانه أنها كامنة فيها ويخاطبها بها على سبيل التصور ؛ فتهتز لها وترتجف وتتعرى !

وهو يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ؛ ليكون تعبيرا عن الصدق فى فطرتهم .

« أغير الله تدعون . . إن كنتم صادقين » .

ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق ، المطابق لما فى فطرتهم بالفعل ، ولو لم تنطق به ألسنتهم :

« بل إياه تدعون . . فيكشف ماتدعون إليه إن شاء . . وتنسون ماتشركون » .

بل تدعونه وحده ؛ وتنسون شرككم كله ! . . إن الهول يعرّى فطرتكم - حينئذ - فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده . وتنسى أنها أشركت به أحدا . بل تنسى هذا الشرك ذاته . . إن معرفتها بربها هى الحقيقة المستقرة فيها ؛ فأما هـذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها ، بفعل عوامل أخرى . قشرة سطحية فى الركام الذى ران عليها . فإذا هزها الهول تساقط هذا الركام ، وتطايرت هذه القشرة ، وتكشفت الحقيقة الأصيلة ، وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها ، ترجوه أن يكشف عنها الهول الذى لا يد لها به ، ولا حيلة لها فيه . .

هذا شأن الفطرة فى مواجهة الهول ؛ يواجه السياق القرآنى به المشركين . . فأما شأن الله - سبحانه - فيقرره فى ثنايا المواجهة . فهو يكشف ما يدعونه إليه - إن شاء - فمشيئته طليقة ، لا يرد عليها قيد . فإذا شاء استجاب لهم فكشف عنهم مايدعون كله أو بعضه ؛ وإن شاء لم يستجب ، وفق تقديره وحكمته وعلمه .

هـذا هو موقف الفطرة من الشرك الذى تزاوله أحيانا ، بسبب ما يطرأ عليها من الانحراف ، نتيجة عوامل شتى ، تغطى على نصاعة الحقيقة الكامنة فيها . . حقيقة اتجاهها إلى

Marfat.com

ربها ومعرفتها بوحدانيته . . فما هو موقفها من الإلحاد وإنكار وجود الله أصلا ؟

نحن نشك شكا عميقا ــ كما قلنا من قبل ــ فى أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد فى صورته هـذه صادقون فيما يزعمون أنهم يعتقدونه . نحن نشك فى أن هناك خلقا أنشأته يد الله ، ثم يبلغ به الأمر حقيقة أن ينطمس فيـه تماما طابع اليد التى أنشأته ؛ وفى صميم كينونته هـذا الطابع ، مختلطا بتكوينه متمثلا فى كل خلية وفى كل ذرة !

إنما هو التاريخ الطويل من العذاب البشع ، ومن الصراع الوحشى مع الـكنيسة ، ومن الـكبت والقمع ، ومن إنـكار الـكنيسة للدوافع الفطرية للناس مع استغراقها هى فى اللذائذ المنحرفة . . إلى آخر هـذا التاريخ النـكد الذى عاشته أوربا قرونا طويلة . . هو الذى دفـع الأوربيين فى هذه الموجة من الإلحاد فى النهاية . . فرارا فى التيه ، من الغول الـكريه (١) .

ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخى ؛ ودفع النصارى بعيدا عن دينهم ؛ ليسلس لهم قيادهم ، ويسهل عليهم إشاعة الانحلال والشقاء فيهم ، وليتيسر لهم استخدامهم ــ كالحمير ــ على حد تعبير « التلمود » و « بروتوكولات حـكماء صهيون » . . وما كان اليهود ليبلغوا من هـذا كله شيئا إلا باستغلال ذلك التاريخ الأوربى النـكد ، لدفع الناس إلى الإلحاد هربا من الـكنيسة .

ومع كل هذا الجهد الناصب ، المتمثل فى محاولة « الشيوعية » ــ وهى إحدى المنظمات اليهودية ــ لنشر الإلحاد ، خلال أكثر من نصف قرن ، بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة ، فإن الشعب الروسى نفسه لم يزل فى أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة فى الله . . ولقد اضطر « ستالين » الوحشى ــ كما يصوره خلفه خروشوف ! ــ أن يهادن الـكنيسة ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأن يفرج عن كبير الأساقفة ، لأن ضغط الحرب كان يلوى عنقه للاعتراف للعقيدة فى الله بأصالتها فى فطرة الناس .. مهما يكن رأيه ورأى القليلين من الملحدين من ذوى السلطان حوله .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « الفصام النـكد » فى كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

Marfat.com

ولقد حاول اليهود ـ بمساعدة « الحمير » الذين يستخدمونهم من الصليبيين ـ أن ينشروا موجة من الإلحاد فى نفوس الأمم التى تعلن الإسلام عقيدة لها ودينا . ومع أن الإسلام كان قد بهت وذبل فى هذه النفوس . . فإن الموجة التى أطلقوها عن طريق « البطل » أتاتورك فى تركيا . . انحسرت على الرغم من كل ما بذلوه لها ـ وللبطل ـ من التمجيد والمساعدة . وعلى كل ما ألفوه من الكتب عن البطل والتجربة الرائدة التى قام بها . . ومن ثم استداروا فى التجارب الجديدة يستفيدون من تجربة أتاتورك ، ألا يرفعوا على التجارب الرائدة راية الإلحاد . إنما يرفعون عليها راية الإسلام . كى لا تصدم الفطرة ، كما صدمتها تجربة أتاتورك . ثم يحملون تحت هذه الراية ما يريدون من المستنقعات والقاذورات والانحلال الخلقى ، ومن أجهزة التدمير للخامة البشرية بجملتها فى الرقعة الإسلامية .

غير أن العبرة التى تبقى من وراء ذلك كله ، هى أن الفطرة تعرف ربها جيدا ، وتدين له بالوحدانية ، فإذا غشى عليها الركام فترة ، فإنها إذا هزها الهول تساقط عنها ذلك الركام كله وتعرت منه جملة ، وعادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة . . مؤمنة طائعة خاشعة . . أما ذلك الكيد كله فحسبه صيحة حق تزلزل قوائمه ، وترد الفطرة إلى بارئها سبحانه . ولن يذهب الباطل ناجيا ، وفى الأرض من يطلق هذه الصيحة . ولن يخلو وجه الأرض مهما جهدوا ممن يطلق هذه الصيحة .

***

« ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

إنها للواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخى . نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله

Marfat.com

الفرصة بعد الفرصة ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه ، فإذا نسوا ما ذكروا به ، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له ، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة ، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا يرجى معه صلاح ، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء . فحقت عليهم كلمة الله . ونزل بساحتهم الدمار الذي لا ينجو منه ديار ..

« ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » ..

ولقد عرف الواقع البشري كثيرا من هذه الأمم ، التي قص القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها ، قبل أن يولد « التاريخ » الذي صنعه الإنسان ! فالتاريخ الذي سجله بنو الإنسان حديث المولد ، صغير السن ، لا يكاد يعي إلا القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض ! وهذا التاريخ الذي صنعه البشر حافل - على قصره - بالأكاذيب والأغاليط ؛ وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتاريخ البشري ؛ والتي يكمن بعضها في أغوار النفس ، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب ، ولا يبدو منها إلا بعضها . وهذا البعض يخطئ البشر في جمعه ، ويخطئون في تفسيره ، ويخطئون أيضا في تمييز صحيحه من زائفه - إلا قليلا - ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتاريخ البشري علما ، وأنه يملك تفسيره تفسيرا «علميا» ، وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضا .. هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر ! ومن عجب أن بعضهم يدعيها ! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها ! ولو قال ذلك المدعي : إنه يتحدث عن (توقعات) لا عن (حتميات) لكان ذلك مستساغا .. ولكن إذا وجد المفتري من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفتري ؟ !

والله يقول الحق ؛ ويعلم ماذا كان ، ولماذا كان . ويقص على عبيده - رحمة منه وفضلا - جانبا من أسرار سنته وقدره ؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا ؛ وليدركوا كذلك ماوراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة ؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيرا كاملا صحيحا . ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ماسيكون ، استنادا إلى سنة الله التي لا تتبدل .. هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها ..

Marfat.com

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى .. أمم جاءتهم رسلهم ، فكذبوا . فأخذهم الله بالبأساء والضراء . في أموالهم وفي أنفسهم . في أحوالهم وأوضاعهم .. البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون « عذاب الله » الذي تحدثت عنه الآية السابقة ، وهو عذاب التدمير والاستئصال ..

وقد ذكر القرآن نموذجا محددا من هذه الأمم ، ومن البأساء والضراء التي أخذها بها .. في قصة فرعون وملئه : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » ..

وهو نموذج من نماذج كثيرة تشير إليها الآية ..

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم ، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة ، فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبواب الرحمة .. ولكنهم لم يفعلوا ما كان حريا أن يفعلوا . لم يلجأوا إلى الله،ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم . وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ماهم فيه من الضلال والعناد :

« ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » ..

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة ، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة . والشدة ابتلاء من الله للعبد ؛ فمن كان حيا أيقظته ، وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه ؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي

Marfat.com

كتبها الله على نفسه .. ومن كان ميتا حسبت عليه ، ولم تفده شيئاً ، وإنما أسقطت عذره وحجته ، وكانت عليه شقوة ، وكانت موطئة للعذاب !

وهذه الأمم التي يقص الله ـ سبحانه ـ من أنبائها على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وراءه من أمته .. لم تفد من الشدة شيئا . لم تتضرع إلى الله ، ولم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد .. وهنا يملي لها الله ـ سبحانه ـ ويستدرجها بالرخاء :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » ..

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة . وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة ! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة . يبتلي الطائعين والعصاة سواء . بهذه وبذاك سواء .. والمؤمن يبتلي بالشدة فيصبر،ويبتلي بالرخاء فيشكر . ويكون أمره كله خير .. وفي الحديث : « عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (رواه مسلم) .

فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسل ، والتي يقص الله من أنبائها هنا . فإنهم لما نسوا ماذكروا به ، وعلم الله ـ سبحانه ـ أنهم مهلكون ، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا .. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء ..

والتعبير القرآني : « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » .. يصور الأرزاق والخيرات ، والمتاع ، والسلطان ... متدفقة كالسيول ؛ بلا حواجز ولا قيود ! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة !

إنه مشهد عجيب ؛ يرسم حالة في حركة ، على طريقة التصوير القرآني العجيب [1] .

« حتى إذا فرحوا بما أوتوا » ..

وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

Marfat.com

فى لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هى عادة المستغرقين فى اللهو والمتاع . وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها . . عندئذ جاء موعد السنة التى لا تتبدل :

« أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون » . .

فكان أخذهم على غرة ؛ وهم فى سهوة وسكرة . فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء فى النجاة عاجزون عن التفكير فى أى اتجاه . وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم .

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا » . .

ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أى يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى !.. و « الذين ظلموا » تعنى هنا الذين أشركوا . . كما هو التعبير القرآنى فى أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين . .

« والحمد لله رب العالمين » . .

تعقيب على استئصال الظالمين (المشركين) بعد هذا الاستدراج الإلهى والكيد المتين . . وهل يحمد الله على نعمة ، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين ، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير ؟

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة ؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها ، ذلك السر المغيب من قدَر الله ؛ وهذا القدَر الظاهر من سنته ؛ وهذا التفسير الربانى لهذا الواقع التاريخى المعروف .

ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة ؛ وكان لها من التمكين فى الأرض ؛ وكان لها من الرخاء والمتاع ؛ مالا يقل - إن لم يزد فى بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم ؛ مستغرقة فى السلطان والرخاء والمتاع ؛ مخدوعة بما هى فيه ؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله فى الشدة والرخاء . .

Marfat.com

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة ، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة . والذين يدورون فى فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف ، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان ، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم ، وهى لا تعبد الله أو لا تعرفه ، وهى تتمرد على سلطانه ، وهى تدعى لأنفسها خصائص ألوهيته ، وهى تعيث فى الأرض فسادا ، وهى تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله ..

ولقد كنت - فى أثناء وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية - أرى رأى العين مصداق قول الله سبحانه : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء » .. فإن المشهد الذى ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفق كل شىء من الخيرات والأرزاق بلا حساب !.. لايكاد يتمثل فى الأرض كلها كما يتمثل هناك !

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذى هم فيه ، وشعورهم بأنه وقف على « الرجل الأبيض » وطريقة تعاملهم مع الملونين فى عجرفة مرذولة ، وفى وحشية كذلك بشعة ! وفى صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذى شهر به اليهود فى الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصرى . بينما الأمريكى الأبيض يزاوله تجاه الملونين فى صورة أشد وأقسى ! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين ..

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية ، وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهى تدب إلى الغافلين :

« حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » ..

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهناك ألوان من العذاب باقية . والبشرية - وبخاصة الأمم التى فتحت عليها أبواب كل شىء - تذوق منها الكثير . على الرغم من هذا النتاج الوفير ، ومن هذا الرزق الغزير !

إن العذاب النفسى ، والشقاء الروحى ، والشذوذ الجنسى ، والانحلال الخلقى . . الذى تقاسى منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطى على الإنتاج والرخاء والمتاع ؛ وليكاد يصبغ الحياة

Marfat.com

كلها بالنكد والقلق والشقاء (١) ! ذلك إلى جانب الطلائع التى تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية ، التى تباع فيها أسرار الدولة ، وتقع فيها الخيانة للأمة ، فى مقابل شهوة أو شذوذ .. وهى طلائع لا تخطىء على نهاية المطاف !

وليس هذا كله إلا بداية الطريق . . وصدق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا — على معاصيه — ما يحب . فإنما هو استدراج » . . ثم تلا : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » . . . (رواه ابن جرير وابن أبى حاتم)

غير أنه ينبغى ، مع ذلك ، التنبيه إلى أن سنة الله فى تدمير (الباطل) أن يقوم فى الأرض (حق) يتمثل فى (أمة) . . ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجرى سنة الله بلا عمل منهم ولا كد . فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله . . وهم كسالى قاعدون . . والحق لا يتمثل إلا فى أمة تقوم لتقر حاكمية الله فى الأرض ، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية . . هذا هو الحق الأول ، والحق الأصيل . . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . .

* * *

بعد ذلك يقف السياق القرآنى المشركين بالله ، أمام بأس الله ، فى ذوات أنفسهم ، فى أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلها غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم :

« قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ! » . .

وهو مشهد تصويرى يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور لهم حقيقة ما يشركون به من دون الله فى موقف الجد من جانب . . ولكن هذا المشهد يهزهم من

(١) يراجع بتوسع فصل : « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

Marfat.com

الأعماق . . إن خالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك ما فى هـذا المشهد التصويرى من جد ، وما وراءه من حق . . أنهـا تدرك أن الله قادر على أن يفعل بها هـذا . قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار ، وأن يختم على القلوب ، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدى وظائفها . وأنه ـ إن فعل ذلك ـ فليس هناك من إله غيره يرد بأسه . .

وفى ظلال هذا المشهد ، الذى يبعث بالرجفة فى القلوب والأوصال ، ويقرر فى الوقت ذاته تفاهة عقيدة الشرك ، وضلال اتخاذ الأولياء من دون الله . . فى ظلال هذا المشهد يعجب من أمر هؤلاء الذين يصرف لهم الآيات ، وينوعها ، ثم هم يميلون عنها كالبعير الذى يصدف أى يميل بخفه إلى الجانب الوحشى الخارجى من مرض يصيبه !

« انظر كيف نصرّف الآيات ، ثم هم يصدفون ! » . .

وهو تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف ! المعروف عند العرب ، والذى يذكرهم بمشهد البعير المؤوف[1] ! فيثير فى النفس السخرية والاستخفاف والعزوف !

* * *

وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد ، ليس على الله ببعيد ، يريهم فيه مصارعهم ـ وهم الظالمون : أى المشركون ـ وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون :

« قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟» . .

إن عذاب الله يأتى فى أية صورة وفى أية حالة . وسواء جاءهم العذاب بغتة وهم غارون لا يتوقعونه ، أو جاءهم جهرة وهم صاحون متأهبون . فإن الهلاك سيحل بالقوم الظالمين ـ أى المشركين كغالبية التعبير فى القرآن الكريم ـ وسينالهم هم دون سواهم . ولن يدفعوه عن أنفسهم سواء جاءهم بغتة أو جهرة . فهم أضعف من أن يدفعوه ولو واجهوه ! ولن يدفعه عنهم أحد ممن يتولونهم من الشركاء . فكلهم من عبيد الله الضعفاء !

وهو توقع يعرضه السياق عليهم ليتقوه ، ويتقوا أسبابه قبل أن يجيء . والله ـ سبحانه ـ

---

(١) يراجع بتوسع : فصل : « التخييل الحسى والتجسيم » وفصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

يعلم أن عرض هذا التوقع فى هذا المشهد يخاطب الكينونة البشرية خطابا تعرفه فى قرارتها ، وتعرف ماوراءه من حقيقة ترجف لها القلوب !

* * *

وحين تبلغ الموجة أقصى مدها ، بعرض هذه المشاهد المتوالية ، والتعقيبات الموحية ، والإيقاعات التى تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر . . تختم ببيان وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، مبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس مايكون ، وفق مايتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير :

« وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون » . .

لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلى ، ويؤهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التى وهبها الله للإنسان ، استخداما كاملا فى إدراك الحق الذى تنبث آياته فى صفحات الوجود ، وفى أطوار الحياة ، وفى أسرار الخلق ؛ والذى جاء هذا القرآن لكشفه وتجليته وتوجيه الإدراك البشرى إليه . .

وكان هذا كله يقتضى الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية ؛ التى تلوى الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان ، أمام القهر بالخارقة المادية البادية للعيان ! إلى توجيه الإدراك البشرى لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية فى الوجود كله . وهى فى ذاتها خوارق معجزة . ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ، ويتألف منها قوامه . وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر ، معجز فى تعبيره ومعجز فى منهجه ، ومعجز فى الكيان الاجتماعى العضوى الحركى الذى يرمى إلى إنشائه على غير مثال . والذى لم يلحق به من بعده أى مثال !

وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة ، وتوجيها طويلا ، حتى يألف الإدراك البشرى هذا اللون من النقلة ، وهذا المدى من الرقى ؛ وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشرى ، فى ظل التوجيه الربانى ، والضبط القرآنى ، والتربية النبوية .. قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية فى آن واحد ، بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية

Marfat.com

التى كانت سائدة فى قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحى ؛ وعن منهج التصورات الحسية المادية التى كانت سائدة فى قسم من تلك الفلسفة وفى بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية كذلك، مع الخروج من الحسية الساذجة التى كانت سائدة فى العقائد الجاهلية العربية !

وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل فى بيان وظيفة الرسول ، وحقيقة دوره فى الرسالة على النحو الذى تعرضه هاتان الآيتان - كما ستعرضه الموجة التالية فى سياق السورة - فالرسول بشر ، يرسله الله ليبشر وينذر ، وهنا تنتهى وظيفته ، وتبدأ استجابة البشر ، ويمضى قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة ، وينتهى الأمر بالجزاء الإلهى وفق هذه الاستجابة . . فمن آمن وعمل صالحا يتمثل فيه الإيمان . فلا خوف عليه مما سيأتى ولا هو يحزن على ما أسلف . فهناك المغفرة على ما أسلف ، والثواب على ما أصلح . . ومن كذب بآيات الله التى جاءه بها الرسول ، والتى لفته إليها فى صفحات هذا الوجود . يمسهم العذاب بسبب كفرهم ، الذى يعبر عنه هنا بقوله : « بما كانوا يفسقون » حيث يعبر القرآن غالبا عن الشرك والكفر بالظلم والفسق فى معظم المواضع . .

تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض . وبيان محكم عن الرسول ووظيفته ، وحدود عمله فى هذا الدين . . تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ؛ ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله ، ويجعل للإنسان - من خلال ذلك - حرية اتجاهه وتبعة هذا الاتجاه ، ويبين مصائر الطائعين لله والعصاة بيانا حاسما ؛ وينفى كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله ، مما كان سائدا فى الجاهليات . . وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلى ؛ دون أن يضرب بها فى تيه الفلسفات الذهنية ، والجدل اللاهوتى ، الذى استنفد طاقة الإدراك البشرى أجيالا بعد أجيال !!!

Marfat.com

« قُل : لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّى مَلَكٌ . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ . قُلْ : هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ ⑤⓪

« وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا : أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ؟ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ، وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ » ⑤⑤

هذه الوجة بقية فى مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة ، وطبيعة الرسول ؛ بمناسبة طلبهم للخوارق ـ التى ذكرنا نماذج منها فى الفقرة السابقة فى هذا السياق ـ وبقية فى تصحيح التصورات الجاهلية ـ والبشرية بصفة عامة ـ عن الرسالات والرسل ؛ بعدما عبثت بهذه التصورات جاهليات العرب وغيرهم من الأمم حولهم ؛ فابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة ، وحقيقة الوحى ، وحقيقة الرسول ؛ ودخلت بهـا فى خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل ؛ حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة ، واختلط الوحى بالجن والجنون أيضا ! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب ؛ وأن يأتى بالخوارق ؛ وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر ! .. ثم جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ، ولترد إلى التصور الإيمانى وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته ، ولتخلص صورة

Marfat.com

النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل ، التي شاعت في الجاهليات كلها . وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم ، وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه !

وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ، وتقديمها للناس مبرأة من كل ما علق بصورة النبوة وصورة النبي من أوهام وأضاليل . يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها ، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها .. فالرسول الذي يقدمها للناس بشر ، لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يقول لهم : إني ملك .. وهو لا يتلقى إلا من ربه ، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه . والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله ، وعليه أن يلازمهم ، وأن يهش لهم ، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة . كما أن عليه إنذار الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة ، ليصلوا إلى مرتبة التقوى ، وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته ، كما أنه في « البشرية » وفي « تلقي الوحي » تنحصر حقيقته . فتصح في التصورات حقيقته ووظيفته جميعا .. ثم إنه بهذا التصحيح ،وبهذا الإنذار ، تستبين سبيل المجرمين ، عند مفرق الطريق ، ويتضح الحق والباطل ، وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة ، كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال ، وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين .

وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية ، وعلاقة الرسول بها ، وعلاقة الناس جميعا ـ الطائعين منهم والعصاة ـ ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة . فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى . والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تابوا منها وأصلحوا بعدها . وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين ، فيؤمن من يؤمن عن بينة ، ويضل من يضل عن بينة ، ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون ..

* * *

Marfat.com

« قل : لا أقول لكم : عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إنى ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إلى . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ » ..

لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بآية من الخوارق يصدقونه بها - وهم كانوا كما أسلفنا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه - وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهبا ! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح مكانهما خصبا مخضرا بالزروع والثمار ! وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة ! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه ! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب فى قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء ... إلى آخر هذه المطالب التى يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم !

ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التى أحاطت بصورة النبوة وصورة النبى فى الجاهليات من حولهم ، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة ، بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسلهم من الحق الواضح فى هذه الأمور ..

ولقد شاعت فى الجاهليات المتنوعة صور من « النبوءات » الزائفة ، يدعيها « متنبئون » ويصدقها مخدوعون .. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون ! حيث يدعى المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب ، والاتصال بالجن والأرواح ، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ ، أو بالدعوات والصلوات ، أو بغيرها من الوسائل والأساليب . وتتفق كلها فى الوهم والضلالة ، وتختلف بعد ذلك فى النوع والشكل والمراسم والأساليب .

« فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء . ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة « بالأرباب ! » لا تطيع الكاهن ، ولكنها تلبى دعواته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول فى يقظته أو منامه ، وترشده بالعلامات والأحلام ، ولا تلبى سائر الدعوات والصلوات ! ولكنهما - نبوءة السحر ونبوءة الكهانة - تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس . لأن الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ، ويريدان قصدا مايطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره ، ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها ، ولعله لا يعيها . ويكثر

Marfat.com

بين الأمم التى تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه، ولحن رموزه وإشاراته . وقد كانوا فى اليونان يسمون المجذوب « مانق » « Manti » ويسمون المفسر : « بروفيت » « Prophet » أى المتكلم بالنيابة عن غيره . ومن هذه الكلمة نقل الأوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها . وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون ، إلا أن يكون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ، ومضامين رموزه وإشاراته . ويحدث فى أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة. فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث فى أكثر الأحيان من آبائه وأجداده . وتتوقف الكهانة على البيئة التى تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة فى الأرجاء القريبة والبعيدة ؛ ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة ، لأنه قد يعترى صاحبه فى البرية ، كما يعتريه فى الحاضر المقصود من أطراف البلاد » (١)

« وقد كثر عدد الأنبياء فى قبائل بنى إسرائيل كثرة يفهم منها أنهم كانوا فى أزمنتهم المتعاقبة يشبهون فى العصور الحديثة أصحاب الأذكار ، ودراويش الطرق الصوفية ، لأنهم جاوزوا المئات فى بعض العهود ، واصطنعوا من الرياضة فى جماعاتهم مايصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل إلى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد ، وتارة بالاستماع إلى آلات الطرب .

« جاء فى كتاب صموئيل الأول :

أن شاول أرسل لأخذ داود رسلا . . « فرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون ، وشاول

---

(١) عن كتاب : « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » للأستاذ العقاد ص ٦٠ . . ونحن ننقل عن الكتاب ما نستشهد به فى هذا الموضع دون إقرار لمنهج المؤلف فى تقريره لتطور صورة الألوهية وصورة النبوة فى الأديان ـ بما فيها الأديان السماوية ـ حتى بلغت كمالها فى الإسلام . فهذه الصورة واحدة فى جميع الأديان السماوية الصحيحة . ولا عبرة بما دخل عليها من التحريف بعد ارتداد أهلها إلى الجاهلية ، وتحريفهم لما جاءهم به الرسل ، وإخضاعه لتصوراتهم الجاهلية . . والقرآن الكريم ، وهو أصدق سجل، يقرر هذا الذى نقول . ولا عبرة بما يقوله علماء الأديان الغربيون فى هذا من الفروض والظنون !

Marfat.com

واقف بينهم رئيسا عليهم . فهبط روح الله على رسل شاول ، فتنبأوا هم أيضا . وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء ... فخلع هو أيضا ثيابه ، وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل ، وانتزع عارياً ذلك النهار كله وكل الليل » . .

« وجاء فى كتاب صموئيل كذلك :

« ... أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة ، وأمامهم رباب ودف وناى وعود ، وهم يتنبأون ، فيحل عليهم روح الرب ، فتتنبأ معهم ، وتتحول إلى رجل آخر .

« وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى :

« إذ قال بنو الأنبياء يا ليشع : هوذا للوضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا ، فلنذهب إلى الأردن » .

« وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش فى بعض المواضع ، كما جاء فى سفر الأيام الأول . حيث قيل : إن داود ورؤساء الجيش أفرزوا للخدمة بنى أساف وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج »[1] ..

وهكذا حفلت الجاهليات ـ ومنها الجاهليات التى انحرفت عن التصور الصحيح الذى جاءت به الرسالات السماوية ـ بمثل هذه التصورات الباطلة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي . وكان الناس ينتظرون ممن يدعى النبوة مثل هذه الأمور ؛ ويطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة ؛ وبالتأثير فى النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة . . ومن هذا المعين كانت اقتراحات المشركين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولتصحيح هذه الأوهام كلها جاءت التقريرات المكررة فى القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول . . ومنها هذا التقرير :

« قل : لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إنى ملك . إن أتبع إلا مايوحى إلى . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ » . .

---

(١) المصدر السابق ٦٦

Marfat.com

إنه – صلى الله عليه وسلم – يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشرا مجردا من كل الأوهام التى سادت الجاهليات عن طبيعة النبى والنبوة . وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء . . لا ثراء . ولا ادعاء .. إنهـا عقيدة يحملها رسول ، لا يملك إلا هداية الله ، تنير له الطريق !

ولا يتبع إلا وحى الله يعلمه مالم يكن يعلم .. إنه لا يقعد على خزائن الله ، ليغدق منها على من يتبعه ، ولا يملك مفاتح الغيب ليدل أتباعه على ماهو كائن ؛ ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملـكا . . إنمـا هو بشر رسول ؛ وإنما هى هـذه العقيدة وحدها ، فى صورتها الناصعة الواضحة البسيطة . .

إنها العقيدة هتاف هذه الفطرة ، وقوام هذه الحياة ودليل الطريق إلى الآخرة ، وإلى الله . فهى مستغنية بذاتها عن كل زخرف .. من أرادها لذاتها فهو بها حقيق ، وهى عنده قيمة أكبر من كل قيمة . ومن أرادها سلعة فى سوق النافع ، فهو لا يدرك طبيعتها ، ولا يعرف قيمتها ، وهى لا تمنحه زادا ، ولا غناء ..

لذلك كله يؤمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقدمها للنـاس هكذا ، عاطلة من كل زخرف ، لأنها غنية عن كل زخرف ؛ وليعرف من يفيئون إلى ظلها أنهم لا يفيئون إلى خزائن مال ، ولا إلى وجاهة دنيا ، ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى . إنما يفيئون إلى هداية الله وهى أكرم وأغنى .

« قل : لا أقول لـكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لـكم : إنى ملك إن أتبع إلا مايوحى إلىّ » ..

ثم ليعلموا أنهم حينئذ إنما يفيئون إلى النور والبصيرة ، ويخرجون من الظلام والعماء :

« قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفـكرون ؟ » ..

ثم . . إن اتباع الوحى وحده هداية وبصر ، والمتروك بغير هذا الهادى متروك أعمى .. هذا ماتقرره هذه الآية فى وضوح وصرامة . . فما شأن العقل البشرى فى هذا المجال ؟ سؤال جوابه فى التصور الإسـلامى واضح بسيط . . إن هذا العقل الذى وهبـه الله

Marfat.com

للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي ، وإدراك مدلولاته .. وهذه وظيفته .. ثم هذه هي فرصته في النور والهداية ؛ وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيدا عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف ، وسوء الرؤية ، ونقص الرؤية ، وسوء التقدير ، وسوء التدبير .

يتعرض لهذا كله بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلا واحدا . تجربة بعد تجربة ، وحادثة بعد حادثة ، وصورة بعد صورة .. حيث يتعذر عليه أن يرى الوجود جملة، ليقيم على أساس هذه الرؤية الكاملة أحكاما ، ويضع على أساسها نظاما ، ملحوظا فيه الشمول والتوازن .. ومن ثم يظل — حين ينعزل عن منهج الله وهداه — يرتاد التجارب ، ويغير الأحكام ، ويبدل النظام ، ويضطرب بين الفعل وردود الفعل ، ويتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . . وهو في ذلك كله يحطم كائنات بشرية عزيزة ، وأجهزة إنسانية كريمة .. ولو اتبع الوحي لكفى البشر هذا الشر كله ؛ وجعل التجارب والتقلبات في « الأشياء » وفي « المادة » وفي « الأجهزة » وفي « الآلات » .. وهي مجاله الطبيعي الذي يمكن أن يستقل فيه. والخسارة في النهاية مواد وأشياء . لا أنفس وأرواح !

ويتعرض لهذا كله — بعد طبيعة تركيبه — بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات ، لابد لها من ضابط ، يضمن أن تؤدي وظائفها في استمرار حياة البشرية وارتقائها ، ولا تتعدى هذا الحد المأمون فتؤدي إلى تدمير الحياة أو انتكاسها ! وهذا الضابط لا يمكن أن يكون هو العقل البشري وحده ؛ فلابد لهذا العقل الذي يضطرب تحت ضغط الأهواء والشهوات والنزعات — وهي شتى — من ضابط آخر يضبطه هو ذاته ؛ ويحرسه بعد أن يضبطه من الخلل أيضا ، ويرجع إليه هذا العقل بكل تجربة ، وكل حكم — في مجال الحياة البشرية — ليقوّم به تجربته وحكمه ، وليضبط به اتجاهه وحركته !

والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي ، باعتبار أن كليهما — العقل والوحي — من صنع الله فلا بد أن يتطابقا .. هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر ، ولم يقل بها الله سبحانه !

Marfat.com

والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي ـ حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر ـ إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله .. فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري ، ولا حتى فطرتهم التي فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة ، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي ، وهو النور والبصيرة[1] .

والذين يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين ؛ أو أن العلم ـ وهو من منتجات العقل ـ يغني البشرية عن هدى الله ؛ إنما يقولون قولا لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك . . فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم ، هي أبأس حياة يشقى فيها « الإنسان » مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ؛ ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق[2] . . وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية ! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون ! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي ، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات . ثم يقيم له الأسس ، ويضع له القواعد ، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة ؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها ـ وفق شريعة الله ـ فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك !

والعقل بصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبترك وحي الله وهداه أعمى ، واقتران الحديث عن تلقي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي وحده ، بالإشارة إلى العمى والبصر ، بالسؤال التحضيضي على التفكير :

« إن أتبع إلا ما يوحى إلي . قل : هل يستوي الأعمى والبصير : أفلا تتفكرون ؟ » ..

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » في الجزء السادس من هذه الطبعة من الظلال : ص ٢٥ ــ ٣٠

(٢) يراجع فصل : « تخبط واضطراب » في كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

Marfat.com

اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو فى السياق ، أمر ذو دلالة فى التعبير القرآنى . . فالتفكر مطلوب ، والحض عليه منهج قرآنى ؛ ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحى ، الذى يمضى معه مبصرا فى النور ؛ لا مطلق التفكر الذى يخبط فى الظلام أعمى ، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير . .

والعقل البشرى حين يتحرك فى إطار الوحى لا يتحرك فى مجال ضيق ، إنما يتحرك فى مجال واسع جدا . . يتحرك فى مجال هو هذا الوجود كله ، الذى يحتوى عالم الشهادة وعالم الغيب أيضا ؛ كما يحتوى أغوار النفس ومجالى الأحداث ، ومجالات الحياة جميعا . . فالوحى لا يكف العقل عن شىء إلا عن انحراف المنهج ، وسوء الرؤية ، والتواء الأهواء والشهوات ! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعا . فهذه الأداة العظيمة التى وهبها الله للإنسان . . العقل . . إنما وهبها له لتعمل وتنشط فى حراسة الوحى والهدى الربانى . . فلا تضل إذن ولا تطغى . .

* * *

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء . فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم » . .

إنها عزة هذه العقيدة ، واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة ، وتخلصها من الاعتبارات البشرية الصغيرة . .

لقد أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء ؛ ودن إطماع فى شىء من قيم الأرض ولا إغراء . . كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة ، وأن يؤوى إليه الذين يتلقونها مخلصين ؛ ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده

Marfat.com

يريدون وجهه ؛ وألا يقيم وزنا بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلى الزائفة ؛ ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة :

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ، لعلهم يتقون » . .

أنذر به هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، حالة أن ليس من دونه ولى ينصرهم ولا شفيع يخلصهم . ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه ، وهو لا يشفع يومئذ - بعد الإذن - إلا لمن ارتضى الله أن يتشفع عند الله فيهم . . فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذى ليس فيه - من دون الله - ولى ولا شفيع ، أحق بالإنذار ، وأسمع له ، وأكثر انتفاعا به . . لعلهم أن يتوقوا فى حياتهم الدنيا ما يعرضهم لعذاب الله فى الآخرة . فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موحٍ . بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه ، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقى والحذر ؛ فلا يقعون فيما نهوا عنه بعد ما تبين لهم .

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » . .

لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله ؛ فاتجهوا لعبادته ودعائه فى الصباح والمساء ؛ يريدون وجهه سبحانه ! ولايبتغون إلا وجهه ورضاه . . وهى صورة للتجرد ، والحب ، والأدب .. فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء . وهو لا يبغى وجه الله ، إلا إذا تجرد . وهو لا يبغى وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب . وهو لا يفرد الله - سبحانه - بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب ، وصار ربانيا يعيش لله وبالله . .

ولقد كان أصل القصة أن جماعة من « أشراف » العرب ، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام ؛ لأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يؤوى إليه الفقراء الضعاف ، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود ... ومن إليهم ... وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم ؛ ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش فى مجلس واحد ! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يطردهم عنه . . فأبى . .

Marfat.com

فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسا ويخصص للأشراف مجلسا آخر ، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف ، كي يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي ! فهمّ - صلى الله عليه وسلم - رغبة في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه . فجاءه أمر ربه :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » . .

روى مسلم عن سعد ابن أبي وقاص ، قال : كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ستة نفر . فقال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان لست أسميهما .. فوقع في نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماشاء الله أن يقع . فحدث نفسه . فأنزل الله عز وجل :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » . .

ولقد تقوّل أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف ، الذين يخصهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجلسه وبعنايته ؛ وطعنوا فيهم وعابوا ماهم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام.. فقضى الله سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل ؛ ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضا :

« ماعليك من حسابهم من شيء ، ومامن حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين » . .

فإن حسابهم على أنفسهم ، وحسابك على نفسك . وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله ، لا شأن لك به . كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به . ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه . فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله ، ولا تقوّم بقيمه .. فكنت من الظالمين .. وحاشا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون من الظالمين !

وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه . واستقرت موازين الإسلام وقيمه على النهج الذي قرره الله ..

Marfat.com

عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون : كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ماجاء به محمد خيرا ماسبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه !

وكانت هـذه هى الفتنة التى قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التى يطلع بها على البشرية ، مشرقة الآفاق ، مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة ؛ التى كانت يومذاك غريبة على العرب وعلى الدنيا كلها ؛ وما تزال غريبة فى مايسمونه الديمقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها !

« وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ » ..

ويرد السياق القرآنى على هذا الاستفهام الاستنكارى الذى يطلقه الكبراء :

« أليس الله بأعلم بالشاكرين » ؟

هذا الرد الحافل بالإيحاءات والإيماءات :

إذ يقرر ابتداء أن الهـدى جزاء يجزى به الله من يعلم من أمرهم أنهم إذا هـدوا سيشكرون هـذه النعمة ، التى لا كفاء لها من شكر العبد ، ولكن الله يقبل منه جهده ويجزيه عليه هذا الجزاء الهائل الذى لا يعدله جزاء .

وإذ يقرر أن نعمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التى تسود فى الجاهليات البشرية . إنما يختص الله بهـا من يعلم أنهم شاكرون عليها . لا يهم أن يكونوا من الموالى والضعاف والفقراء . فميزان الله لا مكان فيـه لقيم الأرض الصغيرة التى تتعاظم النـاس فى الجاهليـات !

وإذ يقرر أن اعتراض المعترضين على فضل الله إنما ينشأ من الجهالة بحقائق الأشياء . وأن توزيع هـذا الفضـل على العباد قائم على علم الله الكامل بمن يستحقه من هؤلاء العباد . وما اعتراض المعترضين إلا جهل وسوء أدب فى حق الله ..

ويمضى السياق يأمر رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وهو رسول الله أن يبدأ أولئك

Marfat.com

الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! . . أن يدأهم بالسلام . . وأن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلا فى مغفرته لمن عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم » ..

وهو التكريم ـ بعد نعمة الإيمان ـ واليسر فى الحساب ، والرحمة فى الجزاء ، حتى ليجعل الله ـ سبحانه ـ الرحمة كتابا على نفسه للذين آمنوا بآياته ؛ ويأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه . وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعده وأصلحوا ـ إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملا لكل سوء يعمله صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح . ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التى تجعل التوبة من الذنب ـ أيا كان ـ والإصلاح بعده ، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة ..

ونعود ـ قبل الانتهاء من استعراض هذه الفقرة من السورة ـ إلى بعض الآثار التى وردت عن ملابسات نزول هذه الآيات ؛ وعن دلالة هذه الآثار مع النصوص القرآنية على حقيقة النقلة الهائلة التى كان هذا الدين ينقل إليها البشرية يومذاك ؛ والتى ماتزال البشرية حتى اليوم دون القمة التى بلغتها يومها ثم تراجعت عنها جدا ..

قال أبو جعفر الطبرى : حدثنا هناد ابن السرى ، حدثنا أبو زبيد ، عن أشعث ، عن كردوس الثعلبى ، عن ابن مسعود ، قال : مر الملأ من قريش بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ، ونحوهم من ضعفاء المسلمين . فقالوا : يامحمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ! فنزلت هذه الآية : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » .. « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » إلى آخر الآية .

وقال : حدثنى الحسين ابن عمرو ابن محمد العنقزى ، قال : حدثنا أبى ، حدثنا أسباط ،

Marfat.com

عن السدي ، عن أبي سعيد الأزدي ـ وكان قارئ الأزد ـ عن أبي الكنود ، عن خباب في قول الله تعالى ذكره : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .. إلى قوله : « فتكون من الظالمين » .. قال : جاء الأقرع ابن حابس التميمي ، وعيينة ابن حصن الفزاري ، فوجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب ، في أناس من الضعفاء من المؤمنين . فلما رأوهم حقروهم . فأتوه فقالوا : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد ؛ فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ؛ فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ! قال : نعم ! قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتابا . قال : فدعا بالصحيفة ، ودعا عليا ليكتب . قال : ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه الآية : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء ، ومامن حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم ، فتكون من الظالمين » .. ثم قال : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ » . . ثم قال : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة » . . . فألقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصحيفة من يده ؛ ثم دعانا فأتيناه وهو يقول : « سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة » . . فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا . فأنزل الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » .. (سورة الكهف : ٢٨) قال : فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقعد معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم (١) !

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدها إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أبدأهم بالسلام » .

---

(١) عقب ابن كثير في تفسيره على هذا الحديث قال : « وهذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية ، والأقرع ابن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر » .. ولم أجد لهذا التعقيب وجهاً . فإن قولهما هنا إنما كان قبل إسلامهما قطعاً . فهما لا يقولان ما قالا وهما مسلمان ! ومن ثم فلا تعارض بين هذه الرواية وبين أن إسلامهما كان بعد الهجرة بدهر . فهما أعرضا عن الإسلام يومها حيث لم يستجب لقولهما ..

Marfat.com

وفى صحيح مسلم : عن عائذ ابن عمرو ، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ، ونفر . فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ! قال : فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ فأتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فأخبره . فقال : « ياأبا بكر ، لعلك أغضبتهم . لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » . فأتاهم أبو بكر فقال : ياإخوتاه ، أغضبتكم ؟ قالوا : لا . يغفر الله لك ياأخى . .

* * *

نحن فى حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص . . والبشرية بجملتها فى حاجة إلى هذه الوقفة كذلك . . إن هذه النصوص لا تمثل مجرد مبادىء وقيم ونظريات فى « حقوق الإنسان » ! . . إنها أكبر من ذلك بكثير . . إنها تمثل شيئا هائلا تحقق فى حياة البشرية فعلا . . تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها . . تمثل خطا وضيئا على الأفق بلغته هذه البشرية ذات يوم فى حياتها الحقيقية . . ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضىء الذى صعدت إليه فى خطو ثابت على حداء هذا الدين ، فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة ؛ ومن ضخامة هذا الشىء الذى تحقق يوما ؛ ومن أهمية هذا الخط الذى ارتسم بالفعل فى حياة البشر الواقعية . . إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم ، أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاع إليه ؛ مادام أنها قد بلغته ؛ فهو فى طوقها إذن وفى وسعها . . والخط هناك على الأفق ، والبشرية هى البشرية ؛ وهذا الدين هو هذا الدين . . فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين . .

وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله . . من سفح الجاهلية الذى التقط الإسلام منه العرب ، إلى القمة السامقة التى بلغ بهم إليها ، وأطلقهم فى الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التى بلغوها !

فأما ذلك السفح الهابط الذى كان فيه العرب فى جاهليتهم — وكانت فيه البشرية كلها — فهو يتمثل واضحا فى قولة : « الملأ » من قريش : « يامحمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن

Marfat.com

طردتهم أن نتبعك ! » .. أو فى احتقار الأقرع ابن حابس التميمى ، وعيينة ابن حصن الفزارى ، للسابقين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب ، وأمثالهم من الضعفاء ؛ وقولهما للنبى - صلى الله عليه وسلم - : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا ؛ فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد ! » . .

.. هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح ، وقيمها المزيلة ، واعتباراتها الصغيرة . . عصبية النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة ... وما إلى ذلك من اعتبارات . هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب ! وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف ! وبعضهم ليسوا من ذوى الثراء ! . . ذات القيم التى تروج فى كل جاهلية ؛ والتى لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم فى نعراتها القومية والجنسية والطبقية !

هذا هو سفح الجاهلية .. وعلى القمة السامقة الإسلام ! الذى لا يقيم وزنا لهذه القيم المزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة ، ولهذه النعرات السخيفة ! .. الإسلام الذى نزل من السماء ولم ينبت من الأرض . فالأرض كانت هى هذا السفح . . هذا السفح الذى لا يمكن أن ينبت هذه النبتة الغريبة الجديدة الكريمة .. الإسلام الذى يأتمر به - أول من يأتمر - محمد - صلى الله عليه وسلم - محمد رسول الله الذى يأتيه الوحى من السماء ؛ والذى هو من قبل فى الذؤابة من بنى هاشم فى الذروة من قريش . . والذى يأتمر به أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فى شأن « هؤلاء الأعبد » . . نعم هؤلاء الأعبد الذين خلعوا عبودية كل أحد ؛ وصاروا أعبداً لله وحده ؛ فكان من أمرهم ما كان !

وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم فى كلمات الملأ من قريش ، وفى مشاعر الأقرع وعيينة . . فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم فى أمر الله العلى الكبير ، لرسوله - صلى الله عليه وسلم - :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ماعليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ وإذا جاءك الذين

Marfat.com

يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم » ..

ويتمثل فى سلوك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع « هؤلاء الأعبد » . . الذين أمره ربهم أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا وهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ابن هاشم – وهو بعد ذلك – رسول الله وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت بهم الحياة !

ثم يتمثل فى نظرة « هؤلاء الأعبد » لمكانهم عند الله ؛ ونظرتهم لسيوفهم واعتبارها « سيوف الله » ونظرتهم لأبى سفيان « شيخ قريش وسيدهم » بعد أن أخره فى الصف المسلم كونه من الطلقاء الذين أسلموا عام الفتح وذهبوا طلقاء عفو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقدّمهم هم فى الصف كونهم من السابقين إلى الإسلام ، وهو فى شدة الابتلاء . . فلما أن عاتبهم أبو بكر – رضى الله عنه – فى أمر أبى سفيان ، حذره صاحبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يكون قد أغضب « هؤلاء الأعبد » ! فيكون قد أغضب الله – يالله ! فما علاه أى تعليق أن يبلغ هذا المدى وما علاه اليوم إلاأن تملاه ! – ويذهب أبو بكر – رضى الله عنه – يترضى « الأعبد » ليرضى الله : « ياإخوتاه . أغضبتكم » ؟ فيقولون : « لا ياأخى . يغفر الله لك » !

أى شيء هائل هذا الذى تحقق فى حياة البشرية ؟ أية نقلة واسعة هذه التى قد تمت فى واقع الناس ؟ أى تبدل فى القيم والأوضاع ، وفى المشاعر والتصورات ، فى آن ؟ والأرض هى الأرض والبيئة هى البيئة ، والناس هم الناس ، والاقتصاد هو الاقتصاد . . . وكل شيء على ماكان ، إلا أن وحياً نزل من السماء ، على رجل من البشر ، فيه من الله سلطان . . يخاطب فطرة البشر من وراء الركام ، ويحدو للهابطين هنالك عند السفح ، فيستجيشهم الحداء – على طول الطريق – إلى القمة السامقة . . فوق . . فوق . . هنالك عند الإسلام !

ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة ؛ وتنحدر مرة أخرى إلى السفح . وتقوم – مرة أخرى – فى نيويورك ، وواشنطن ، وشيكاغو . . وفى جوهانسبرج . . وفى غيرها من أرض « الحضارة ! » تلك العصبيات النتنة . عصبيات الجنس واللون ، وتقوم هنا وهناك عصبيات « وطنية » و « قومية » و « طبقية » لا تقل نتنا عن تلك العصبيات . .

Marfat.com

ويبقى الإسـلام هناك على القمة .. حيث ارتسم الخط الوضيء الذى بلغته البشرية . . يبقى الإسلام هناك ـ رحمة من الله بالبشرية ـ لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل ، وترفع عينيها عن الحمأة .. وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء ؛ وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين ؛ وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام . .

ونحن لا نملك ـ فى حدود منهجنا فى هذه الظلال ـ أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة .. لا نملك أن نقف هنا تلك « الوقفة الطويلة » التى تدعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالتها . لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذى يرتسم من خلالها فى تاريخ البشرية ؛ وهى تصعد على حداء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط ، إلى تلك القمة السامقة البعيدة .. ثم تهبط مرة أخرى على عواء « الحضارة المادية » الخاوية من الروح والعقيدة ! . . ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى ؛ بعد أن فشلت جميع التجارب ، وجميع المذاهب ، وجميع الأوضاع ، وجميع الأنظمة ، وجميع الأفكار ، وجميع التصورات ، التى ابتدعها البشر لأنفسهم بعيدا عن منهج الله وهداه.. فشلت فى أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة ؛ وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة فى هذه الصورة الوضيئة ؛ وأن تفيض على القلوب الطمأنينة ـ مع هذه النقلة الهائلة ـ وهى تنقل البشرية إليها بلا مذابح ؛ وبلا اضطهادات ؛ وبلا إجراءات استثنائية تقضى على الحريات الأساسية ؛ وبلا رعب ، وبلا فزع ، وبلا تعذيب ، وبلا جوع ، وبلا فقر ، وبلا عرض واحد من أعراض النقلات التى يحاولها البشر فى ظل الأنظمة البائسة التى يصنعها البشر ؛ ويتعبد فيها بعضهم بعضا من دون الله . .

فحسبنا هذا القدر هنا .. وحسبنا الإيحاءات القوية العميقة التى تفيض بها النصوص ذاتها، وتسكبها فى القلوب المستنيرة(١) .

* * *

« وكذلك نفصل الآيات ، ولتستبين سبيل المجرمين » ..

(١) لاستكمال بعض جوانب الرؤية لهذه الحقيقة الكبيرة ، يراجع تفسير قوله تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ... » فى الجزء الثلاثين من هذه الظلال : ص ٣٩ ـ ٥١

Marfat.com

ختام هذه الفقرة التي قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول في هذه النصاعة الواضحة . كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف ؛ وفصلت الاعتبارات والقيم التي جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية ؛ والاعتبارات والقيم التي جاءت لتقررها ..

« وكذلك نفصل الآيات » ..

بمثل هذا المنهج ، وبمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا البيان والتفصيل .. نفصل الآيات ، التي لا تدع في هذا الحق ريبة؛ ولا تدع في هذا الأمر غموضا؛ ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق؛ فالحق واضح ، والأمر بين ؛ بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج ..

على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ؛ ومن بيان الحقائق وتقرير للوقائع ، يعتبر داخلا في مدلول قوله تعالى :

« وكذلك نفصل الآيات » ..

أما ختام هذه الآية القصيرة .

« ولتستبين سبيلُ المجرمين » ..

فهو شأن عجيب ! .. إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إن هذا المنهج لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق !

إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله ــ سبحانه ــ ليتعامل مع النفوس البشرية . . ذلك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ؛ والتأكد من أن هذا باطل محض وشر خالص ؛ وأن ذلك حق محض وخير خالص . . كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ؛ ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل . . وأنه يسلك سبيل المجرمين ؛ الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدوا منهم « وكذلك جعلنا لكل

Marfat.com

نبي عدوا من المجرمين » . . ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين ، أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون ؛ عن ثقة ، وفي وضوح ، وعن يقين .

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح . واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات . ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم . فهما صفحتان متقابلتان ، وطريقان مفترقتان . . ولابد من وضوح الألوان والخطوط . .

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين . والعنوان المميز للمجرمين ، في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون . بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم ، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم . بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان ، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين . .

وهذا التحديد كان قائما ، وهذا الوضوح كان كاملا ، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية . فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن معه . وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين . . ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان الله — سبحانه — يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة — ومنها ذلك النموذج الأخير — لتستبين سبيل المجرمين !

وحينما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدلتها وأفسدتها التحريفات البشرية . . حينما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة ، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك . . لا يجدي معها التلبيس !

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . .

Marfat.com

إنهـا تتمثل فى وجود أقوام من النـاس من سلالات المسلمين ، فى أوطان كانت فى يوم من الأيام دارا للإسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتحكم بشريعته .. ثم إذا هذه الأرض ، وإذا هـذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة ، وتعلنه اسما . وإذا هى تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا . وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا ! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله .. وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل فى الاعتقاد بأن الله ــ وحده ــ هو خالق هذا الكون المتصرف فيه . وأن الله ــ وحده ــ هو الذى يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله . وأن الله ــ وحده ــ هو الذى يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه فى شأن حياتهم كله .. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله ــ بهذا المدلول ــ فإنه لم يشهد ولم يدخل فى الإسلام بعد . كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه . وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله ــ بهذا المدلول ــ فهى أرض لم تدن بدين الله ، ولم تدخل فى الإسلام بعد ..

وفى الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين ؛ وهم من سلالات المسلمين . وفيها أوطان كانت فى يوم من الأيام دارا للإسلام .. ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله ــ بذلك المدلول ــ ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول ..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية فى هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام !

أشق ما تعانيه هـذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذى أحاط بمدلول لا إله إلا الله ، ومدلول الإسلام فى جانب ؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية فى الجانب الآخر ..

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق المشركين المجرمين ؛ واختلاط الشارات والعناوين ؛ والتباس الأسماء والصفات ؛ والتيه الذى لا تتحدد فيه مفارق الطريق !

ويعرف أعـداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة . فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعا وتلبيسا وتخليطا . حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصى والأقدام ! . . تهمة تكفير « المسلمين » !!! ويصبح الحكم فى أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله !

Marfat.com

هذه هي الشقة الكبرى . . وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل !

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين .. ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة . وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف ؛ وألا تقعدهم عنها لومة لائم ، ولا صيحة صائح : انظروا ! إنهم يكفرون المسلمين !

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون ! إن الإسلام بين والكفر بين . . الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ـ بذلك المدلول ـ فمن لم يشهدها على هذا النحو ؛ ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو ، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين .. المجرمين ..

« وكذلك نفصل الآيات ، ولتستبين سبيل المجرمين » . .

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة ؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة ؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة ، ولا يعوقها غبش ، ولا يميعها لبس . فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم « المسلمون » وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم « المجرمون » . . كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان . وأنهم وقومهم على مفرق الطريق ، وأنهم على ملة وقومهم على ملة . وأنهم في دين وقومهم في دين :

« وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين » ..

. . وصدق الله العظيم ..

« قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . قُلْ : لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ : إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ، مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ، إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل : لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ،

Marfat.com

وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ .

« قُلْ : مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً : لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ؟ * قُلِ : اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ .

« قُلْ : هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ . انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ » (٦٥)

هذه الموجة عودة إلى « حقيقة الألوهية » بعد بيان « حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول » في الموجة السابقة لها في السياق المتلاحم ؛ وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين ــ كما ذكرنا ذلك في نهاية الفقرة السابقة .

وحقيقة الألوهية في هذه الموجة تتجلى في مجالات شتى ؛ نجملها هنا ــ قبل تفصيلها في استعراض النصوص القرآنية :

تتجلى في قلب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يجد في نفسه بينة من ربه ، هو منها على يقين ، لا يزعزعه تكذيب المكذبين . ومن ثم يخلص نفسه لربه ، ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه « قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل:

Marfat.com

لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . قل : إنى على بينة من ربى وكذبتم به . ما عندى ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين » ..

وتتجلى فى حلم الله على المكذبين ، وعدم استجابته لاقتراحاتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها - كما جرت سنته تعالى - وهو قادر عليه . ولو كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يملك هذا الذى يستعجلون به ، ما أمسكه عنهم ، ولضاقت بشريته بهم وبتكذيبهم . فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته ، كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته : «قل : لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين » ..

وتتجلى فى علم الله بالغيب ؛ وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع فى هذا الوجود ؛ فى صورة لا تكون إلا لله ؛ ولا يصورها هكذا إلا الله : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ..

وتتجلى فى هيمنة الله على الناس وقهره للعباد فى كل حالة من حالاتهم ، فى النوم والصحو ، فى الموت والحياة ، فى الدنيا والآخرة : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين »

وتتجلى فى فطرة المكذبين أنفسهم ، حين يواجهون الهول ؛ فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم . ثم هم مع ذلك يشركون ، وينسون أن الله ، الذى يدعونه لكشف الضر ، قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد : « قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون . قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

* * *

Marfat.com

« قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين .. قل إنى على بينة من ربى ــ وكذبتم به ــ ما عندى ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله يقص الحق ، وهو خير الفاصلين . قل : لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين » ..

تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية ،التى تتمثل فى شتى الإيقاعات التى تواجه القلب البشرى بحقيقة الألوهية فى شتى مجاليها .. ومن بين هذه المؤثرات العميقة ، ذلك الإيقاع المتكرر : « قل .. قل .. قل .. » خطابا لرسول الله ــ صلى الله وسلم ــ ليبلغ عن ربه ، ما يوحيه إليه ؛ وما لا يملك غيره ؛ ولا يتبع غيره ؛ ولا يستوحى غيره :

« قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل : لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً، وما أنا من المهتدين » ..

يأمر الله ــ سبحانه ــ رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يواجه المشركين بأنه منهى من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أندادا لله .. ذلك أنه منهى عن اتباع أهوائهم ــ وهم إنما يدعون الذين يدعون من دون الله عن هوى لا عن علم ، ولا عن حق ــ وأنه إن يتبع أهواءهم هذه يضل ولا يهتدى . فما تقوده أهواؤهم وما تقودهم إلا إلى الضلال.

يأمر الله ــ سبحانه ــ نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يواجه المشركين هذه المواجهة ،وأن يفاصلهم هذه المفاصلة ؛ كما أمره من قبل فى السورة بمثل هذا وهو يقول : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون » . .

ولقد كان المشركون يدعون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يوافقهم على دينهم ، فيوافقوه على دينه ! وأن يسجد لآلهتهم فيسجدوا لإلهه ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأن الشرك والإسلام يجتمعان فى قلب ! وكأن العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه ! وهو أمر لا يكون أبدا . فالله أغنى الشركاء عن الشرك . وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية؛ ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشىء من العبودية لغيره .. فى قليل أو كثير ..

ومع أن المقصود فى الآية أن يواجههم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنه منهى عن عبادة أى مما يدعون ويسمون من دون الله ، فإن التعبير بـ « الذين » فى قوله تعالى :

Marfat.com

« قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » ..

يستوقف النظر . فكلمة الذين تطلق على العقلاء . ولو كان المقصود هى الأوثان ، والأصنام ، وما إليها لعبر بـ « ما » بدل « الذين » . . فلابد أن يكون المقصود بالذين نوعا آخر ـ مع الأصنام والأوثان وما إليها ـ نوعا من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول : « الذين » فغلب العقلاء ، ووصف الجميع بوصف العقلاء ..

وهـذا الفهم يتفق مع الواقع من جهة ؛ ومع المصطلحات الإسلامية فى هـذا المقام من جهة :

فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها . ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس .. وهم ما كانوا يشركون الناس إلا فى أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد. حيث يسنون لهم السنن ، ويضعون لهم التقاليد ؛ ويحكمون بينهم فى منازعاتهم وفق العرف والرأى ..

وهنـا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية . . فالإسلام يعتبر هـذا شركا ؛ ويعتبر أن تحكيم الناس فى أمور الناس تأليه لهم ؛ وجعلهم أندادا من دون الله . . ونهى الله عنه نهيه عن السجود للأصنام والأوثان ؛ فكلاهما فى عرف الإسلام سواء . . شرك بالله ، ودعوة أنداد من دون الله !

ثم يجىء الإيقاع الثانى موصولا بالإيقاع الأول ومتمما له :

« قل : إنى على بينة من ربى ؛ وكذبتم به ، ماعندى ماتستعجلون به . إن الحكم إلا لله ، يقص الحق ، وهو خير الفاصلين » ..

وهو أمر من الله ـ سبحانه ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجهر فى مواجهة المشركين المكذبين بربهم ـ بما يجده فى نفسه من اليقين الواضح الراسخ ، والدليل الداخلى البين ، والإحساس الوجدانى العميق ، بربه .. وجوده ، ووحدانيته ، ووحيه إليه . وهو الشعور الذى وجده الرسل من ربهم ، وعبروا عنه مثل هذا التعبير أو قريبا منه :

قالهـا نوح ـ عليـه السلام ـ : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ،

Marfat.com

وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ؟ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » . .

وقالها صالح ـ عليه السلام ـ : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير » ..

وقالها إبراهيم ـ عليه السلام ـ : « وحاجه قومه . قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ » ..

وقالها يعقوب ـ عليه السلام ـ لبنيه : « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال ألم أقل لكم : إنى أعلم من الله مالا تعلمون ؟ » ..

فهى حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب أوليائه ؛ ممن يتجلى الله لهم فى قلوبهم ؛ فيجدونه ـ سبحانه ـ حاضرا فيها ؛ ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك فى أعماقهم تسكب فى قلوبهم اليقين بها . وهى الحقيقة التى يأمر الله نبيه أن يجهر بها فى مواجهة المشركين المكذبين ؛ الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ماجاءهم به من حقيقة ربه ، الحقيقة التى يجدها هو كاملة واضحة عميقة فى قلبه :

« قل إنى على بينة من ربى ، وكذبتم به » ..

كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب ، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله . . وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وأن يفرق فرقانا كاملا بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذى يستعجلونه ؛ فالذى يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إلها ، إنما هو رسول :

« وما عندى ماتستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين » ..

إن إيقاع العذاب بهم بعد مجىء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء ؛ ولله وحده الحكم والقضاء . فهو وحده الذى يقص الحق ويخبر به ؛ وهو وحده الذى يفصل فى الأمر بين الداعى إلى الحق والمكذبين به . وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه .

وبذلك يجرد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل فى شأن القضاء الذى ينزله الله بعباده . فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها ، وهو بشر

Marfat.com

يوحى إليه ، ليبلغ وينذر ؛ لا ليزل قضاء ويفصل . وكما أن الله سبحانه هو الذى يقص الحق ويخبر به ؛ فهو كذلك الذى يقضى فى الأمر ويفصل فيه .. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله ـ سبحانه ـ وخصائصه ، عن ذوات العبيد ..

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله ، ومتروك لمشيئة الله . فلو أن أمر الخوارق ـ بما فيها إنزال العذاب ـ فى مقدوره ـ وهو بشر ـ ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم ، وهم يلحفون هذا الإلحاف . ولكن لأن الأمر بيد الله وحده ، فهو يحلم عليهم ؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر ، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم :

« قل : لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم ، والله أعلم بالظالمين » . .

إن للطاقة البشرية حدودا فى الصبر والحلم والإمهال . وما يحلم على البشر وعمائهم ـ على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم ـ إلا الله الحليم القوى العظيم ..

وصدق الله العظيم .. فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق مايضيق به الصدر ، وتبلغ منه الروح الحلقوم . . ثم ينظر فيجد الله ـ سبحانه ـ يسعهم فى ملكه ، ويطعمهم ، ويسقيهم ، ويغدق أحيانا عليهم ، ويفتح عليهم أبواب كل شىء . . وما يجد الإنسان إلا أن يقول قولة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ ، حتى مايعرف له أنف من عين : « رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! » .. فإنما هو حلم الله وحده .. وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون !

« والله أعلم بالظالمين » ..

فهو يمهلهم عن علم ، ويملى لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى مايقترحون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم ..

* * *

وبمناسبة علم الله ـ سبحانه ـ بالظالمين ؛ واستطراداً فى بيان حقيقة الألوهية ؛ يجلى هذه الحقيقة فى مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة .. مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط

Marfat.com

بهذا الغيب إحاطته بكل شيء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ؛ ويرسل سهاما بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد :

« وعنـده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا فى كتاب مبين » ..

إنها صورة لعـلم الله الشامل المحيط ؛ الذى لا يند عنه شيء فى الزمان ولا فى المـكان ، فى الأرض ولا فى السماء ، فى البر ولا فى البحر ، فى جوف الأرض ولا فى طباق الجو ، من حى وميت ويابس ورطب ...

ولـكن أين هذا الذى نقوله نحن ـ بأسلوبنا البشرى المعهود ـ من ذلك النسق القرآنى العجيب ؟ وأين هذا التعبير الإحصائى المجرد ، من ذلك التصوير العميق الموحى ؟

إن الخيال البشرى لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم الشهود ، وهو يتتبع ظلال علم الله فى أرجاء الـكون الفسيح ، ووراء حدود هذا الـكون المشهود . . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهـد من كل فج وواد . وهو يرتاد ـ أو يحاول أن يرتاد ـ أستار الغيوب المختومة فى الماضى والحاضر والمستقبل ؛ البعيدة الآماد والآفاق والأغوار . . مفاتحها كلها عند الله ؛ لا يعلمها إلا هو . . ويجول فى مجـاهل البر وفى غيابات البحر ، المـكشوفة كلها لعلم الله . ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض ، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط ، هنا وهنا وهناك . ويلحظ كل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله . ويرقب كل رطب وكل يابس فى هذا الـكون العريض ، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط . .

إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول . جولة فى آماد من الزمان ، وآفاق من المـكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول .. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آمادها الخيال . . وهى ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة فى بضع كلمات . .

ألا إنه الإعجاز !

وننظر إلى هـذه الآية القصيرة من أى جانب فنرى هذا الإعجاز ، الناطق بمصـدر هـذا القرآن .

Marfat.com

تنظر إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر ؟ فليس عليه طابع البشر . . إن الفكر البشرى ـ حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع : موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتاد هذه الآفاق . . إن مطارح الفكر البشرى وانطلاقاته فى هـذا المجال لها طابع آخر ولها حدود . إنه ينتزع تصوراته التى يعبر عنها من اهتماماته .. فما اهتمام الفكر البشرى بتقصى وإحصاء الورق الساقط من الشجر ، فى كل أنحاء الأرض ؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشرى ابتداء . لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصى ذلك الورق الساقط فى أنحاء الأرض . ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ؟ ويعبر عنه الخالق !

وما اهتمام الفكر البشرى بكل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض ؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذى يخبأونه هم فى جوف الأرض ويرتقبون إنباته .. فأما تتبع كل حبة مخبوءة فى ظلمات الأرض ، فما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به ، ولا أن يلحظوا وجوده ، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل ! إنما الحب المخبوء فى ظلمات الأرض شان يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق !

وما اهتمام الفكر البشرى بهذا الإطلاق : «ولا رطب ولا يابس» .. إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم . . فأما التحدث عنه كدليل العلم الشامل . فهذا ليس من المعهود فى اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك ! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق !

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة ، وكل حبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يابس فى كتاب مبين ، وفى سجل محفوظ . . فما شأنهم بهذا ، وما فائدته لهم ؟ وما احتفالهم بتسجيله ؟ إنمـا الذى يحصيه ويسجله هو صاحب الملك ، الذى لا يند عنه شىء فى ملكه . . الصغير كالكبير ؟ والحقير كالجليل ؟ والمخبوء كالظاهر ؟ والمجهول كالمعلوم ؟ والبعيد كالقريب . .

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع . . مشهد الورق الساقط من شجر الأرض

Marfat.com

جميعا ، والحب المخبوء فى أطواء الأرض جميعا ، والرطب واليابس فى أرجاء الأرض جميعا . .

إن هذا المشهد كما أننا لا يتجه إليه الفكر البشرى والاهتمام البشرى ؛ وكذلك لا تلحظه العين البشرية ؛ ولا تلم به النظرة البشرية . . إنه المشهد الذى يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده ؛ المشرف على كل شىء ، المحيط بكل شىء . . الحافظ لكل شىء ، الذى تتعلق مشيئته وقدره بكل شىء . . الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . .

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بنى البشر يدركون جيدا حدود التصور البشرى ، وحدود التعبير البشرى أيضا . ويعلمون — من تجربتهم البشرية — أن مثل هذا المشهد ، لا يخطر على القلب البشرى ؛ كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضا . . والذين يمارون فى هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله ، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلا !

وهذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم تكفى وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم . .

كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفنى فى التعبير ذاته ، فنرى آفاقا من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على هذا المستوى السامق :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » . . آماد وآفاق وأغوار فى « المجهول » المطلق . فى الزمان والمكان ، وفى الماضى والحاضر والمستقبل ، وفى أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

« ويعلم ما فى البر والبحر » . . آماد وآفاق وأغوار فى « المنظور » ، على استواء وسعة وشمول . . تناسب فى عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار فى عالم الغيب المحجوب .

« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » . . حركة الموت والفناء ؛ وحركة السقوط والانحدار ، من علو إلى سفل ، ومن حياة إلى اندثار .

Marfat.com

« ولا حبة فى ظلمات الأرض » . . حركة البزوغ والنماء ، المنبثقة من الغور إلى السطح ، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

« ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . . التعميم الشامل ، الذى يشمل الحياة والموت ، والازدهار والذبول ؛ فى كل حى على الإطلاق . .

فمن ذا الذى يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ ومن ذا الذى يبدع هذا التناسق والجمال ؟ . . من ذا الذى يبدع هذا كله وذلك كله ، فى مثل هذا النص القصير . . من ؟ إلا الله !

* * *

ثم نقف أمام قوله تعالى :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » . .

نقف لنقول كلمة عن « الغيب » و « مفاتحه » واختصاص الله - سبحانه - « بالعلم » بها . . ذلك أن حقيقة الغيب من « مقومات التصور الإسلامى » الأساسية ؛ لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية ؛ ومن قواعد « الإيمان » الرئيسية . . وذلك أن كلمات « الغيب » و « الغيبية » تلاك فى هذه الأيام كثيرا - بعد ظهور المذهب المادى - وتوضع فى مقابل « العلم » و « العلمية » . . والقرآن الكريم يقرر أن هناك « غيبا » لا يعلم « مفاتحه » إلا الله . ويقرر أن ما أوتيه الإنسان من العلم قليل . . وهذا القليل إنما آتاه الله له بقدر ما يعلم هو - سبحانه - من طاقته ومن حاجته . وأن الناس لا يعلمون - فيما وراء العلم الذى أعطاهم الله إياه - إلا ظنا ، وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا . . كما يقرر - سبحانه - أن الله قد خلق هذا الكون ، وجعل له سننا لا تتبدل ؛ وأنه علم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ، ويتعامل معها - فى حدود طاقته وحاجته - وأنه سيكشف له من هذه السنن فى الأنفس والآفاق ما يزيده يقينا وتأكدا أن الذى جاءه من عند ربه هو الحق . . دون أن يخل هذا الكشف عن سنن الله التى لا تبديل لها ، بحقيقة « الغيب » المجهول للإنسان ، والذى سيظل كذلك مجهولا ، ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله وحدوث كل شىء بقدر غيبى خاص

Marfat.com

من الله ، ينشئ هذا الحدث ويبرزه للوجود . . فى تناسق تام فى العقيدة الإسلامية ، وفى تصور المسلم الناشيء من حقائق العقيدة . .

فهذه الحقائق بجملتها - على هذا النحو المتعدد الجوانب المتناسق المتكامل - تحتاج منا هنا - فى الظلال - إلى كلة نحاول بقدر الإمكان أن تكون مجملة ، وألا تخرج عن حدود المنهج الذى اتبعناه فى الظلال أيضا (١) .

إن الله سبحانه يصف المؤمنين فى مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ؛ فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية :

« الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين : الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » . . (البقرة : ١ - ٥)

والإيمان بالله - سبحانه - هو إيمان بالغيب . فذات الله - سبحانه - غيب بالقياس إلى البشر ؛ فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب ، يجدون آثار فعله ، ولا يدركون ذاته ، ولا كيفيات أفعاله .

والإيمان بالآخرة كذلك ، هو إيمان بالغيب . فالساعة بالقياس إلى البشر غيب ، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن ، تصديقا لخبر الله سبحانه .

والغيب الذى يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم فى وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا ، وإليك المصير » . . (البقرة : ٢٨٥)

فنجد فى هذا النص أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين كذلك ، كلٌّ آمن

(١) يراجع بتوسع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » بقسميه .

Marfat.com

بالله ـ وهو غيب ـ وآمن بما أنزل الله على رسوله ـ وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من إطلاعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جانب من الغيب بالقدر الذى قدره الله ـ سبحانه ـ كما قال فى الآية الأخرى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول » . . (الجن : ٢٦ - ٢٧)

وآمن بالملائكة ـ وهى غيب ـ لا يعرف عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله ، على قدر طاقتهم وحاجتهم[١] .

ويبقى من الغيب الذى لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به : قدر الله ـ وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع ـ كما جاء فى حديث الإيمان : « . . . والقدر خيره وشره » . . . (أخرجه الشيخان) . .

على أن الغيب فى هذا الوجود محيط بالإنسان من كل جانب . . غيب فى الماضى وغيب فى الحاضر ، وغيب فى المستقبل . . غيب فى نفسه وفى كيانه ، وغيب فى الكون كله من حوله . . غيب فى نشأة هذا الكون وخط سيره ، وغيب فى طبيعته وحركته . . غيب فى نشأة الحياة وخط سيرها ، وغيب فى طبيعتها وحركتها . . غيب فيما يجهله الإنسان ، وغيب فيما يعرفه كذلك !

ويسبح الإنسان فى بحر من المجهول . . حتى ليجهل اللحظة مايجرى فى كيانه هو ذاته فضلا على ما يجرى حوله فى كيان الكون كله ؛ وفضلا عما يجرى بعد اللحظة الحاضرة له وللكون كله من حوله : ولكل ذرة ، وكل كهرب من ذرة ؛ وكل خلية وكل جزئ من خلية !

إنه الغيب . . إنه المجهول . . والعقل البشرى ـ تلك الذبالة القريبة المدى ـ إنما يسبح فى بحر المجهول . فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهنالك يتخذ منها معالم فى الخضم . ولولا عون الله له ، وتسخير هذا الكون ، وتعليمه هو بعض نواميسه ، ما استطاع شيئا . . ولكنه لا يشكر . . « وقليل من عبادى الشكور » . . بل إنه فى هذه الأيام ليتبجح بما

(١) يراجع ما جاء عن الملائكة فى هذا الجزء ص ١٣٢ ـ ١٣٦

Marfat.com

كشف الله له من السنن ، وبما آتاه من العلم القليل .. يتبجح فيزعم أحيانا أن « الإنسان يقوم وحده »[1] ولم يعد في حاجة إلى إله يعينه ! ويتبجح أحيانا فيزعم أن « العلم » يقابل «الغيب» وأن « العلمية » في التفكير والتنظيم تقابل « الغيبية » وأنه لا لقاء بين العلم والغيب ؛ كما أنه لا لقاء بين العقلية العلمية والعقلية الغيبية !

فلنلق نظرة على وقفة « العلم » أمام « الغيب » .. في بحوث وأقوال « العلماء » من بني البشر أنفسهم ـ بعد أن نقف أمام كلمة الفصل التي قالها العليم الخبير عن علم الإنسان القليل ـ « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ... (الإسراء : ٨٥) « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .. (النجم : ٢٩) وأن الغيب كله لله : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ... (الأنعام : ٥٩) وأن الذي يعلم الغيب هو الذي يرى : « أم عنده علم الغيب فهو يرى ؟ » ... (النجم : ٣٥) ... وهي ناطقة بذاتها عن مدلولاتها . .

فلنلق نظرة على وقفة « العلم » أمام « الغيب » في بحوث وأقوال العلماء من بني الإنسان لا لنصدق بها كلمة الفصل من الله سبحانه ـ فحاشا للمؤمن أن يصدق قول الله بقول البشر ـ ولكننا نقف هذه الوقفة لنحاكم الذين يلوكون كلمات العلم والغيب ، والعلمية والغيبية ، إلى مايؤمنون هم به من قول البشر ! ليعلموا أن عليهم هم أن يحاولوا «الثقافة» و «المعرفة» ليعيشوا في زمانهم ؛ ولا يكونوا متخلفين عن عقليته ومقررات تجاربه ! وليستيقنوا أن « الغيب » هو الحقيقة « العلمية » الوحيدة المستيقنة من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته ! وأن « العلمية » في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماما « للغيبية » .. أما الذي يقابل الغيبية حقا فهو « الجهلية » !!! الجهلية التي تعيش في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ـ ربما ـ ولكنها لا تعيش في القرن العشرين !!!

عالم معاصر ـ من أمريكا ـ يقول عن « الحقائق » التي يصل إليها « العلم » بجملتها :

« إن العلوم حقائق مختبرة ؛ ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته . ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود . فهي

---

(١) عنوان كتاب للملحد جوليان هاكسلي : Man Stands Alone

Marfat.com

بذلك مقصورة على الميادين الكمية فى الوصف والتنبؤ . وهى تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهى بالاحتمالات كذلك . . وليس باليقين . . ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، وعرضة للأخطاء المحتملة فى القياس والمقارنات ؛ ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف ، وليست نهائية . وإننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول : إن هذا هو ماوصلنا إليه حتى الآن ، ويترك الباب مفتوحا لما قد يستجد من التعديلات»(١) .

وهذه الكلمة تلخص حقيقة جميع النتائج التى وصل إليها العلم ، والتى يمكن أن يصل إليها كذلك . فطالما أن « الإنسان » بوسائله المحدودة ، بل بوجوده المحدود بالقياس إلى الأزل والأبد هو الذى يحاول الوصول إلىهذه النتائج ؛ فإنه من الحتم أن تكون مطبوعة بطابع هذا الإنسان ، ولها مثل خصائصه من كونها محدودة المدى ؛ وقابلة للخطأ والصواب ، والتعديل والتبديل ..

على أن الوسيلة التى يصل بها الإنسان إلى أية نتيجة هى التجربة والقياس . فهو يجرب ، ثم يعمم النتيجة التى يصل إليها عن طريق القياس ؛ والقياس ـ باعتراف العلم وأهله ـ وسيلة تؤدى إلى نتيجة ظنية ؛ ولا يمكن أبدا أن تكون قطعية ولا نهائية . والوسيلة الأخرى ـ وهى التجربة والاستقصاء بمعنى تعميم التجربة على كل ماهو من جنس ماوقعت عليه التجارب فى جميع الأزمنة وفى جميع الظروف ـ وسيلة غير مهيأة للإنسان . وهى إحدى الوسائل الموصلة إلى نتائج قطعية . ولا سبيل إلى نتيجة قطعية وحقيقة يقينية إلا عن طريق هدى الله الذى يبينه للناس . ومن ثم يبقى علم الإنسان فيما وراء ماقرره الله له ، علما ظنيا لا يصل إلى مرتبة اليقين بحال !

على أن « الغيب » ضارب حول الإنسان فيما وراء مايصل إليه علمه الظنى ذاك . . .

هذا الكون من حوله . . إنه مايزال يضرب فى الفروض والنظريات حول مصدره ونشأته وطبيعته وحول حركته ، وحول « الزمان » ماهو وحول « المكان » وارتباطه بالزمان وارتباط مايجرى فى الكون بالزمان والمكان .

(١) من مقال : « درس من شجيرة الورد » لماريت ستانلى كونجدن ، العالم الطبيعى الفيلسوف .. عن كتاب : « الله يتجلى فى عصر العلم » ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان .

Marfat.com

والحياة . ومصدرها . ونشأتها . وطبيعتها . وخط سيرها . والمؤثرات فيها . وارتباطها بهذا الوجود « المادى » ! إن كان هناك فى الكون مادة على الإطلاق ذات طبيعة غير طبيعة « الفكر » وغير طبيعة الطاقة على العموم !

« والإنسان » ماهو ؟ ما الذى يميزه من المادة ؟ وما الذى يميزه عن بقية الأحياء ؟ وكيف جاء إلى هذه الأرض وكيف يتصرف ؟ وما « العقل » الذى يتميز به ويتصرف ؟ وما مصيره بعد الموت والانحلال ؟ ..

بل هذا الكيان الإنسانى ذاته ، ماالذى يجرى فى داخله من تحليل وتركيب فى كل لحظة ؟ وكيف يجرى ؟ [(١)] ...

إنها كلها ميادين للغيب ، يقف العلم على حافاتها ، ولا يكاد يقتحمها ، حتى على سبيل الظن والترجيح . وإن هى إلا فروض واحتمالات !

ولندع مالا يشغل العلم به نفسه ــ إلا قليلا فى هذا القرن ــ من حقيقة الألوهية ، وحقيقة العوالم الأخرى من ملائكة وجن وخلق لايعلمه إلا الله . ومن حقيقة الموت . وحقيقة الآخرة . وحقيقة الحساب والجزاء .. لندع هذا كله لحظة فى « الغيب » القريب ، الكفاية ، ومن هذا الغيب يقف العلم وقفة التسليم ، الذى لا يخرج عنه إلا من يؤثرون المراء على « العلم » والتبجح على الإخلاص !

ونضرب بعض الأمثال ..

١ ــ فى قاعدة بناء الكون وسلوكه :

الذرة ــ فيما يقول العلم الحديث ــ قاعدة بناء الكون . وليست هى أصغر وحدة فى بناء هذا العالم . فهى مؤلفة من بروتونات (طاقة كهربية موجبة) والكترونات (طاقة كهربية سالبة) ونيوترونات (طاقة محايدة مكونة من طاقة كهربائية موجبة وطاقة كهربائية سالبة متعادلتين ساكنتين) وحين تحطم الذرة تتحرر الكهارب (الإلكترونات) ولكنها لا تسلك فى المعمل سلوكا حتميا موحدا . فهى تسلك مرة كأنها أمواج ضوئية ومرة كأنها قذائف . ولا يمكن تحديد سلوكها المقبل مقدما . وإنما هى تخضع لقانون آخر ــ غير الحتمية ــ هو قانون الاحتمالات .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول لأليكسيس كاريل .

Marfat.com

وكذلك تسلك الذرة نفسها ، والمجموعة المحدودة من الذرات (فى صورة جزيئات) هذا السلوك :

يقول سير جيمس جينز ـ الإنجليزى ـ الأستاذ فى الطبيعيات والرياضيات :

« لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق ، أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقا واحدا : وهو الطريق الذى رسم من قبل ، لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفى تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، ولامناص من أن الحالة (ا) تتبعها الحالة (ب) أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن : هو أن الحالة (ا) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التى يخطئها الحصر . نعم إن فى استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالا من حدوث الحالة (ج) وإن الحالة (ج) أكثر احتمالا من الحالة (د) .. وهكذا . بل إن فى مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و (ج) و (د) بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين: أى الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائما عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث فأمر موكول إلى الأقدار ـ مهما تكن حقيقة هذه الأقدار ! » .

فماذا يكون « الغيب » وماذا يكون قدر الله المغيب عن علم الإنسان ، إن لم يكن هو هذا الذى تنتهى إليه تجارب العلم الإنسانى ، وتقف على عتباته فى صلب الكون وذراته ؟

ويضرب مثلا لذلك إشعاع ذرات الراديوم ، وتحولها إلى رصاص وهليوم . . وهى خاضعة تماما لقدر مجهول ، وغيب مستور ، يقف دونه علم الإنسان :

« ولنضرب لذلك مثلا ماديا يزيده وضوحا : من المعروف أن ذرات الراديوم وغيره من المواد ذات النشاط الإشعاعى ، تتفكك بمجرد مرور الزمن عليها ، وتخلف وراءها ذرات من الرصاص والهليوم . ولهذا فإن كتلة من الراديوم ينقص حجمها باستمرار ، ويحل مكانها رصاص وهليوم . والقانون العام الذى يتحكم فى معدل التناقص غريب غاية الغرابة . ذلك أن كية من الراديوم تنقص بنفس الطريقة التى ينقص بها عدد من السكان ، إذا لم تجد عليهم مواليد ، وكانت نسبة تعرض كل منهم للوفاة واحدة بغض النظر عن السن ؛ أو أنها تنقص كما

Marfat.com

ينقص عدد أفراد كتيبة من الجند معرضين لنيران ترسل عليهم احتباطا ، ومن غير أن يكون أحدهم مقصودا لذاته . ومجمل القول أنه ليس لكبر السن أثر مافى ذرة الراديوم الواحدة . فإنها لا تموت لأنها قد استوفت حظها من الحياة ، بل لأن المنية قد أصابتها خبط عشواء (١) .

« ولنوضح هـذه الحقيقة بمثل مادى فنقول : إذا فرض أن بحجرتنا ألفين من ذرات الراديوم . فإن العلم لا يستطيع أن يقول : كم منها يبقى حيا بعد عام . بل كل مايستطيعه هو أن يذكر فقط الاحتمالات التى ترجح بقاء ٢٠٠٠ أو ١٩٩٩ أو ١٩٩٨ ، وهكذا . وأكثر الأمور احتمالا فى الواقع هو أن يكون العدد ١٩٩٩ ، أى أن أرجح الاحتمالات هو أن ذرة واحدة لا أكثر من الألفى ذرة ، هى التى تتحلل فى العام التالى .

« ولسنا ندرى بأية طريقة تختار تلك الذرة للمنية من بين هذه الألفى ذرة . وقد نشعر فى بادئ الأمر بميل إلى افتراض أن هـذه الذرة ستكون هى التى تتعرض للاصطدام أكثر من غيرها، أو التى تقع فى أشد الأمكنة حرارة ، أو التى يصادفها غير هذا أو ذاك من الأسباب فى العام التالى . ولكن هـذا كله غير صحيح ، لأنه إذا كان فى استطاعة الصدمات أو الحرارة أن تفكك ذرة واحدة ، فإن فى استطاعتها أيضا أن تفكك الـ ١٩٩٩ ذرة الباقية ، ويكون فى استطاعتنا أن نعجل بتفكيك الراديوم بمجرد ضغطه أو تسخينه ؛ ولكن كل عالم من علماء الطبيعة يقرر أن ذلك مستحيل ؛ بل هو يعتقد على الأرجح أن الموت يصيب فى كل عام ذرة واحدة من كل ٢٠٠٠ من ذرات الراديوم ، ويضطرها إلى أن تتفكك . وهـذه هى نظرية « التفكك التلقائى » التى وضعها « رذرفورد » و « سدى » فى عام ١٩٠٣ .

فكيف إذن يكون القدر الغيبي إن لم يكن هو هذا الذى تتشعع به الذرات على غير اختيار منها ولا من أحد . وعلى غير علم منها ولا من أحد ؟ !

إن الرجل الذى يقول هذا الكلام ، لا يريد أن يثبت به القدر الإلهى المغيب عن الناس.

---

(١) هكذا يقول الرجل .. ونحن نأخذ من قوله النتيجة العلمية التى وصلت إليها التجربة ووصف الظاهرة الطبيعية . أما تعبيره بأنها خبط عشواء فلا يهمنا ! فنحن نعلم أنها قد استوفت حظها ، وأن المنية أصابتها بقدر من الله يعلم هو حكمته . وأنه « لكل أجل كتاب » لا فرق بين ذرة الراديوم وأى شىء وأى حى من الأحياء . والناس هكذا يموتون عند استيفاء الأجل المغيب عن العيون !

Marfat.com

بل إنه ليحاول جاهدا أن يهرب من ضغط النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري ذاته . ولكن حقيقة الغيب تفرض نفسها عليه فرضا على النحو الذي نراه !

٢ ـ وكما تفرض حقيقة « الغيب » نفسها على قاعدة بناء الكون وحركته ، فهي كذلك تفرض نفسها على قاعدة انبثاق الحياة وحركتها بنفس القوة في النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري .

يقول عالم الأحياء والنبات « رسل تشارلز إرنست » الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا :

« لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها .

« إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيمانا راسخا » (١) .

والذي يهمنا هنا من هذه الشهادة هو أن سر الحياة ونشأتها غيب من غيب الله ، كنشأة

---

(١) من مقال : « الخلايا الحية تؤدي رسالتها » في كتاب : « الله يتجلى في عصر العلم » .. ونحب أن ننبه أننا إذ نقتطف ما نقتطف إنما نخاطب الماديين « العلميين » بلغتهم .. وليس هذا إقراراً منا بصحة كل ما نستشهد به وسلامة منهجه التفكيري والتعبيري في القضية التي نعرضها ..

Marfat.com

الكون وحركته ؛ وأن ليس لدى البشر عن ذلك إلا الاحتمالات . وصدق الله العظيم : « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم » ...

٣ - ونخطو خطوة واسعة لنصل إلى الإنسان .. إن الدفقة الواحدة من ماء الرجل تحتوى على نحو ستين مليونا من الحيوانات المنوية . . كلها تدخل فى سباق لتلحق بالبويضة فى رحم المرأة .. ولا يعلم أحد من الذى يسبق ! فهو غيب ، أو هو قدر غيبي لا علم للبشر به - بما فيهم الرجل والمرأة صاحبا الدور فى هذا الأمر ! - ثم يصل السابق من بين ستين مليونا ! ويلتحم مع البويضة ليكونا معاً خلية واحدة ملقحة هى التى ينتج منها الجنين . ولما كانت كل كروموسومات البويضة مؤنثة ، بينما كروموسومات الحيوان المنوى بعضها مذكر وبعضها مؤنث ؛ فإن غلبة عدد كروموسومات التذكير أو كروموسومات التأنيث فى الحيوان المنوى الذى يلتحم بالبويضة ، هو الذى يقرر مصير الجنين - ذكرا أو أنثى - وهذا خاضع لقدر الله الغيبي لا علم به ولا دخل للبشر - بما فيهم أبوا الجنين أنفسهما : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » . . . (الرعد : ٨-٩) « لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ، إنه عليم قدير » . . . (الشورى : ٤٩-٥٠) « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟ » . . . (الزمر : ٦)

هذا هو « الغيب » الذى يقف أمامه « العلم » البشرى ؛ ويواجهه فى القرن العشرين .. بينما الذين يعيشون على فتات القرون الماضية يزعمون أن « الغيبية » تنافى « العلمية » . وأن المجتمع الذى يريد أن يعيش بعقلية علمية ينبغى له أن يتخلص من العقلية الغيبية ! ذلك بينما العلم البشرى ذاته . . علم القرن العشرين . . يقول : إن كل ما يصل إليه من النتائج هو « الاحتمالات » ! وإن الحقيقة المستيقنة الوحيدة هى أن هنالك « غيبا » لا شك فيه !

على أننا قبل أن نغادر هذه الوقفة المجملة أمام حقيقة الغيب ، ينبغى أن نقول كلمة عن طبيعة « الغيب » فى العقيدة الإسلامية ، وفى التصور الإسلامى ، وفى العقلية الإسلامية .

Marfat.com

إن القرآن الكريم - وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشئ التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية - يقرر أن هناك عالما للغيب وعالما للشهادة. فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولا ..

إن هنالك سننا ثابتة لهذا الكون ؛ يملك « الإنسان » أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة فى هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية ؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها ..

وإلى جانب هذه السنن الثابتة - فى عمومها - مشيئة الله الطليقة ؛ لا تقيدها هذه السنن وإن كانت من عملها. وهناك قدر الله الذى يُنفذ هذه السنن فى كل مرة تنفذ فيها. فهى ليست آلية بحتة، فالقدر هو المسيطر على كل حركة فيها ؛ وإن جرت وفق السنة التى أودعها الله إياها. وهذا القدَر الذى يُنفذ هذه السنن فى كل مرة تنفذ فيها « غيب » لا يعلمه أحد علم يقين ؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و « الاحتمالات » .. وهذا ما يعترف به العلم البشرى أيضا ..

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم فى كيان الإنسان فى اللحظة الواحدة ؛ وكلها « غيب » بالقياس إليه، وهى تجرى فى كيانه ! ومثلها ملايين ملايين العمليات التى تتم فى الكون من حوله ؛ وهو لا يعلمها !

وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضى الكون. وحاضره وحاضر الكون. ومستقبله ومستقبل الكون. وذلك مع وجود السنن الثابتة، التى يعرف بعضها، وينتفع بها انتفاعا علميا منظما فى النهوض بعبء الخلافة.

وإن « الإنسان » ليجىء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه ! وإنه ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله ! . وكذلك كل شىء حى .. ومهما تعلم ومهما عرف، فإن هذا لن يغير من هذا الواقع شيئا !

إن العقلية الإسلامية عقلية « غيبية علمية » لأن « الغيبية » هى « العلمية » بشهادة

Marfat.com

« العلم » والواقع . . أما التنكر للغيب فهو « الجهلية » التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة !

وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله ؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل ، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض ، والتعامل معها على قواعد ثابتة . . فلا يفوت المسلم « العلم » البشرى فى مجاله ، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة ؛ وهى أن هنالك غيبا لا يُطلع الله عليه أحدا ، إلا من شاء ، بالقدر الذي يشاء . .

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها « الفرد » فيتجاوز مرتبة « الحيوان » الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة « الإنسان » الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس — أو الأجهزة التي هى امتداد للحواس — وهى نقلة بعيدة الأثر فى تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة وجوده الذاتى ، ولحقيقة القوى المنطلقة فى كيان هذا الوجود ؛ وفى إحساسه بالكون ، وما وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنها بعيدة الأثر فى حياته على الأرض . فليس من يعيش فى الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش فى الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته فى أطوائه وأعماقه ؛ ويشعر أن مداه أوسع فى الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه فى عمره القصير المحدود ؛ وأن وراء الكون . . ظاهره وخافيه . . حقيقة أكبر من الكون ، هى التي صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده . . حقيقة الذات الالهية التي لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بها العقول .

. . . « لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق فى ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة . ولكن جماعة الماديين فى هذا الزمان — كجماعة الماديين فى كل زمان — يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى . . إلى عالم البهيمة ، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ! ويسمون هذا « تقدمية » ! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها . فجعل صفتهم المميزة هى صفة : « الذين يؤمنون بالغيب » . . والحمد لله على نعمائه ؛ والنكسة للمنتكسين والمرتكسين »(١)

(١) عن الجزء الأول من ظلال القرآن ص ٤٠ — ٤١

Marfat.com

والذين يتحدثون عن « الغيبية » و « العلمية » يتحدثون كذلك عن « الحتمية التاريخية » كأن كل المستقبل مستيقن ! و « العلم » فى هذا الزمان يقول : إن هناك « احتمالات » وليست هنالك « حتميات » !

ولقد كان ماركس من المتنبئين « بالحتميات » ! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم ؟

لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية فى انجلترا ، نتيجة بلوغها قمة الرقى الصناعى ومن ثم قمة الرأسمالية فى جانب والفقر العالى فى جانب آخر . . فإذا الشيوعية تقوم فى أكثر الشعوب تخلفا صناعيا . . فى روسيا والصين وما إليها . . ولا تقوم قط فى البلاد الصناعية الراقية !

ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالى والعالم الشيوعى . وها هو ذا خليفتهما « خروشوف » يحمل راية « التعايش السلمى » !

ولا نمضى طويلا مع هذه « الحتميات » التنبؤية ! فهى لا تستحق جدية المناقشة !

إن هنالك حقيقة واحدة مستيقنة هى حقيقة الغيب ، وكل ما عداها احتمالات . وإن هنالك حتمية واحدة هى وقوع ما يقضى به الله ويجرى به قدره . وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو . وإن هنالك — مع هذا وذلك — سننا للكون ثابتة ، يملك الإنسان أن يتعرف إليها ، ويستعين بها فى خلافة الأرض ، مع ترك الباب مفتوحا لقدر الله النافذ ؛ وغيب الله المجهول . . وهذا قوام الأمر كله . . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

* * *

ومن علم الله الشامل بمفاتح الغيب ، وبما يجرى فى جنبات الكون ، ينتقل السياق إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل ، فى ذوات البشر ؛ ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية ، بعد العلم المحيط :

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » . .

بضع كلمات أخرى ، كالتى رسمت آفاق الغيب وآماده وأغواره ، وأشارت إلى مدى العلم الإلهى وشموله فى الآية السابقة . . بضع كلمات أخرى تضم حياة البشرية كلها فى قبضة الله —

Marfat.com

سبحانه – وفى علمه وقدره وتدبيره . . صحوهم ومنامهم . موتهم وبعثهم . حشرهم وحسابهم . .

ولكن على « طريقة القرآن »[1] المعجزة فى الإحياء والتشخيص ، وفى لمس المشاعر واستجاشتها ، مع كل صورة وكل مشهد وكل حركة يرسمها تعبيره العجيب .

« وهو الذى يتوفاكم بالليل » . .

فهى الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس ؟ هى الوفاة فى صورة من صورها بما يعترى الحواس من غفلة ، وما يعترى الحس من سهوة ، وما يعترى العقل من سكون ، وما يعترى الوعى من سبات – أى انقطاع – وهو السر الذى لا يعلم البشر كيف يحدث ؟ وإن عرفوا ظواهره وآثاره ؟ وهو « الغيب » فى صورة من صوره الكثيرة المحيطة بالإنسان . . وهؤلاء هم البشر مجردين من كل حول وطول – حتى من الوعى – هاهم أولاء فى سبات وانقطاع عن الحياة . هاهم أولاء فى قبضة الله – كما هم دائما فى الحقيقة – لا يردهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا إرادة الله . . فما أضعف البشر فى قبضة الله !

« ويعلم ماجرحتم بالنهار » . .

فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك ، إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر . . وهؤلاء هم البشر مراقبين فى الحركات والسكنات ؟ لا يند عن علم الله منهم شىء ، مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار !

« ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى » . .

أى يوقظكم فى النهار من سباتكم وانقطاعكم ؟ لتتم آجالكم التى قضاها الله . . وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذى قدره الله . لا مهرب لهم منه ، ولا منتهى لهم سواه !

« ثم إليه مرجعكم » . .

فهى الأوبة إلى الراعى بعد انقضاء المراح !

« ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » . .

فهو عرض السجل الذى وعى ما كان ، وهو العدل الدقيق الذى لا يظلم فى الجزاء .

---

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وهكذا تشمل الآية الواحدة ، ذات الكلمات المعدودة ، ذلك الشريط الحافل بالمشاهد ، والمقررات والحقائق ، والإيحاءات والظلال .. فمن ذا الذى يملك أن يصنع ذلك ؟ وكيف تكون الآيات الخوارق ، إن لم تكن هى هذه ؟ التى يغفل عنها المكذبون ، ويطلبون الخوارق المادية وما يتبعها من العذاب الأليم !

* * *

ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية .. لمسة القوة القاهرة فوق العباد . والرقابة الدائمة التى لا تغفل . والقدر الجارى الذى لا يتقدم ولا يتأخر ، والمصير المحتوم الذى لا مفر منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذى لا ينى ولا يمهل . . وكله من الغيب الذى يلف البشر ويحيط بالناس :

« وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » ..

« وهو القاهر فوق عباده » ..

فهو صاحب السلطان القاهر ؛ وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان؛ لا قوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون ..

وهذه هى العبودية المطلقة للألوهية القاهرة .. وهذه هى الحقيقة التى ينطق بها واقع الناس ـ مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة ـ إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ؛ وكل حركة فى كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه فى كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا الناموس يجرى فى كل مرة بقدر خاص حتى فى النفس والحركة !

« ويرسل عليكم حفظة » ..

لا يذكر النص هنا ما نوعهم .. وفى مواضع أخرى أنهم ملائكة يحصون على كل إنسان كل مايصدر عنه .. أما هنا فالمقصود الظاهر هو إلقاء ظل الرقابة المباشرة على كل نفس ـ ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصى كل حركة وكل نأمة ؛ ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه

Marfat.com

شيء . . . وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري ؛ وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة . .

« حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » . .

الظل نفسه ، في صورة أخرى .. فكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه – فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه – بينما هو مرسوم محدد في علم الله ، لا يتقدم ولا يتأخر . وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل – فهو حفيظ من الحفظة – وهو رسول من الملائكة – فإذا جاءت اللحظة المرسومة للوعودة – والنفس غافلة مشغولة – أدى الحفيظ مهمته ، وقام الرسول برسالته .. وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري ؛ وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ؛ ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض ، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » ..

مولاهم الحق من دون الآلهة المدعاة . . مولاهم الذي أنشأهم ، والذي أطلقهم للحياة ماشاء . . في رقابته التي لا تغفل ولا تفرط . . ثم ردهم إليه عندما شاء ؛ ليقضي فيهم بحكمه بلا معقب :

« ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين » ..

فهو وحده يحكم ، وهو وحده يحاسب . وهو لا يبطىء في الحكم ، ولا يمهل في الجزاء .. ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري . فهو ليس متروكا ولو إلى مهلة في الحساب !

وتصور المسلم للأمر على هذا النحو الذي توحي به أصول عقيدته في الحياة والموت والبعث والحساب ، كفيل بأن ينزع كل تردد في إفراد الله سبحانه بالحكم – في هذه الأرض – في أمر العباد . .

إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ؛ ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم مايحل وما يحرم ، مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه ؛ وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس ..

Marfat.com

وأما حين يحكم الناس فى الأرض بشريعة غير شريعة الله ؛ فعلام يحاسبون فى الآخرة ؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التى كانوا يحكمون بها ؛ ويتحاكمون إليها ؟ أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التى لم يكونوا يحكمون بها ؛ ولا يتحاكمون إليها ؟

إنه لابد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد . وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم – كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم – وفق شريعة الله فى الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدى الله . وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله – سبحانه – إلها فى الأرض ؛ ولكنهم اتخذوا من دونه أربابا متفرقة . وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله – أو الشرك به باتباعهم شريعته فى جانب العبادات والشعائر ، واتباعهم شريعة غيره فى النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، وفى المعاملات والارتباطات – والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ..

* * *

ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التى تعرف حقيقة الألوهية ؛ وتلتجىء إلى إلهها الحق فى ساعة الشدة ؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها فى اليسر والرخاء .. فى مشهد قصير سريع ، ولكنه واضح حاسم ، وموح مؤثر ..

إن الهول والكرب الذى ترتعد له الفرائص ليس مؤجلا دائما إلى يوم الحشر والحساب . فهم يصادفون الهول فى ظلمات البر والبحر . فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله .. ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء :

« قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون » ..

إن تصور الخطر ، وتذكر الهول ، قد يردان النفوس الجامحة ، ويرققان القلوب الغليظة، ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة ؛ كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة :

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » ..

Marfat.com

إنها تجربة يعرفها كل من وقع فى ضيقة ، أو رأى المكروبين فى لحظة الضيق .. وظلمات البر والبحر كثيرة . وليس من الضرورى أن يكون الليل لتتحقق الظلمات . فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذى ينتظر الخلق فى البر والبحر حجاب .. وحينما وقع الناس فى ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا فى أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين .. إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام ؛ فتواجه الحقيقة الكامنة فى أعماقها . . حقيقة الألوهية الواحدة .. وتتجه إلى الله الحق بلا شريك ؛ لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك ، وتدرك انعدام الشريك ! ويبذل المكروبون الوعود :

« لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » ..

والله ــ سبحانه ــ يقول لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليذكرهم بحقيقة الأمر :

« قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب » . فليس هنالك غيره يستجيب ، ويقدر على دفع الكروب . .

ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب :

« ثم أنتم تشركون » ..

***

وهنا يواجههم بأس الله الذى قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هى مرة وتنتهى ، ثم يفلتون من القبضة كما يتصورون :

« قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » ..

وتصور العذاب الغامر من فوق ، أو النابع من تحت ، أشد وقعا فى النفس من تصوره آتيا عن يمين أو شمال . فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال! أما العذاب الذى يصب عليه من فوق ، أو يأخذه من تحت ، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل ، لا مقاومة له ولا ثبات معه ! والتعبير الموحى يتضمن هذا المؤثر القوى فى حس الإنسان ووهمه ، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء .

Marfat.com

ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة فى قدرة الله ؛ والتى قد يأخذ العباد بها متى شاء ؛ لونا آخر بطيئا طويلا ؛ لا ينهى أمرهم كله فى لحظة ؛ ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار :

« أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض » ..

وهى صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذى يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم! إذ يجعلهم شيعا وأحزابا ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفاصل بعضها بعضا ، فهى أبدا فى جدال وصراع ، وفى خصومة ونزاع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك ..

ولقد عرفت البشرية فى فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب ، كلما انحرفت عن منهج الله ؛ وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم ... تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور . وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعا وشرائع وقوانين وقيما وموازين من عند أنفسهم ؛ يتعبد بها الناس بعضهم بعضا ؛ ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر ، والبعض الآخر يأبى ويعارض ، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض . وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم . فيذوق بعضهم بأس بعض ، ويحقد بعضهم على بعض ، وينكر بعضهم بعضا ، لأنهم لا يفيئون جميعا إلى ميزان واحد ؛ يضعه لهم المعبود الذى يعنو له كل العبيد ، حيث لا يجد أحدهم فى نفسه استكبارا عن الخضوع له ، ولا يحس فى نفسه صغارا حين يخضع له .

إن الفتنة الكبرى فى الأرض هى أن يقوم من بين العباد من يدعى حق الألوهية عليهم ، ثم يزاول هذا الحق فعلا ! إنها الفتنة التى تجعل الناس شيعا ملتبسة ؛ لأنهم من ناحية الظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا ، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض ؛ ويكون بعضهم فى يده السلطة التى يبطش بها — لأنها غير مقيدة بشريعة من الله — ويكون بعضهم فى نفسه الحقد والتربص .. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض ! وهم شيع ؛ ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة !

والأرض كلها تعيش اليوم فى هذا العذاب البطىء المديد !

Marfat.com

وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة فى الأرض . وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها ـ والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها ، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية ـ وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها ؛ باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء فى الجاهلية ، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها .

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة فى كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب : « أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » .. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديا وشعوريا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها ـ حتى يأذن الله لها بقيام « دار إسلام » تعتصم بها ـ وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هى « الأمة المسلمة » وأن ماحولها ومن حولها ، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه ، جاهلية وأهل جاهلية . وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج ؛ وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين .

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة ، ولم تتميز هذا التميز ، حق عليها وعيد الله هذا . وهو أن تظل شيعة من الشيع فى المجتمع ، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع ، ولا تتبين نفسها ، ولا يتبينها الناس مما حولها . وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد ؛ دون أن يدركها فتح الله الموعود !

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات .. غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذى يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه ، ونتيجة اندغامها وتميعها فى قومها والمجتمع الجاهلى من حولها ..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدى جميع رسل الله ، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره ، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم .. لم يقع فى مرة واحدة ، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة ـ أى الدين ـ وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها ـ أى نظام حياتها ـ وأن هذه كانت هى نقطة الفصل ومفرق الطريق فى الدعوات جميعا .

Marfat.com

وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون فى شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله جميعا ، صلوات الله عليهم وسلامه :

« انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » ..

والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون ..

* * *

« وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ـ وَهُوَ الْحَقُّ ـ قُلْ : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

« وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

« وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا . أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » ﴿٧٠﴾

إنها جولة لتقرير المفاصلة التى انتهت بها الموجة السابقة ؛ فقوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم الذين كذبوا بما جاءهم به ـ وهو الحق ـ ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبتّ ؛ وأمر أن يفاصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ، وأنه يتركهم لمصيرهم الذى لا بد آتٍ ، وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون فى الدين ، ويتخذونه لعبا ولهوا ، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين ، وأمر ـ مع ذلك ـ أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم ، ولكن على أنه وإياهم ـ وهم قومه ـ فريقان مختلفان ، وأمتان متميزان .. فلا قوم ولا جنس ولا

Marfat.com

عشيرة ولا أهل فى الإسلام .. إنما هو الدين الذى يربط ما بين الناس أو يفصم .. وإنما هى العقيدة التى تجمع بين الناس أو تفرق . وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى . وحين تنفصم هذه العروة تفصم الروابط والصلات .

وهذه هى الخلاصة المجملة لهذه الموجة من السياق .

* * *

« وكذب به قومك – وهو الحق – قل : لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » . .

والخطاب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعطيه ، ويعطى المؤمنين من ورائه ، الثقة التى تملأ القلب بالطمأنينة . الثقة بالحق – ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب – فما هم بالحكم فى هذا الأمر ، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لاقيمة ولا وزن لتكذيب القوم !

ثم يأمر الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يبرأ من قومه ، وينفض منهم يده ، وأن يعلنهم بهذه المفاصلة ؛ ويعلمهم أنه لا يملك لهم شيئا ؛ وأنه ليس حارسا عليهم ولا موكلا بهم بعد البلاغ ، ولا مكلفا أن يهدى قلوبهم – فليس هذا من شأن الرسول – ومتى أبلغهم ما معه من الحق ، فقد انتهى بينه وبينهم الأمر ؛ وأنه يخلى بينهم وبين المصير الذى لا بد أن ينتهى إليه أمرهم . فإن لكل نبأ مستقرا ينتهى إليه ويستقر عنده . وعندئذ يعلمون ما سيكون !

« لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » . .

وفى هذا الإجمال من التهديد ما يزلزل القلوب . .

إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ، الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين فى الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير .

وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله – فى مواجهة التكذيب من قومهم ، والجفوة من عشيرتهم ، والغربة فى أهلهم ، والأذى والشدة والتعب واللأواء . . ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التى يسكبها القرآن الكريم فى القلوب !

* * *

Marfat.com

فإذا أنهى إليهم هذا البلاغ ، وإذا واجه تكذيبهم بهذه المفاصلة . . فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم ـ حتى للبلاغ والتذكير ـ إذا رآهم يخوضون فى آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغى للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الدين موضعا للهزء والسخرية ، بالقول أو بالفعل ؛ حتى لا تكون مجالسته لهم ـ وهم على مثل هذه الحال ـ موافقة ضمنية على ما هم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذى لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه . فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من فوره وفارق مجلسهم

« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » . .

ولقد كان هذا الأمر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمكن فى حدود النص أن يكون أمرا لمن وراءه من المسلمين . . كان هذا الأمر فى مكة . حيث كان عمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف عند حدود الدعوة . وحيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التى أرادها الله فى هذه الفترة . وحيث كان الاتجاه واضحا لعدم الاصطدام بالمشركين ما أمكن . . فكان هذا الأمر بألا يجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مجالس المشركين ؛ متى رآهم يخوضون فى آيات الله ويذكرون دينه بغير توقير . والمسارعة إلى ترك هذه المجالس ـ لو أنساه الشيطان ـ بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه . وكان المسلمون كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . . والقوم الظالمون ، المقصود بهم هنا القوم المشركون . كما هو التعبير الغالب فى القرآن الكريم . .

فأما بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ، فكان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شأن آخر مع المشركين . وكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . حيث لا يجترىء أحد على الخوض فى آيات الله !

ثم يكرر السياق المفاصلة بين المؤمنين والمشركين ، كما قررها من قبل بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين . ويقرر اختلاف التبعة واختلاف المصير :

« وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون » . .

Marfat.com

فليست هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين . فهما أمتان مختلفتان ـ وإن اتحدتا فى الجنس والقوم فهذه لاوزن لها فى ميزان الله ، ولا فى اعتبار الإسلام .. إنما المتقون أمة ، والظالمون (أى المشركون) أمة ، وليس على المتقين شيء من تبعة الظالمين وحسابهم . ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم . . وإلا فلا مشاركة فى شيء ، إذا لم تكن مشاركة فى عقيدة !

هذا دين الله وقوله .. ولمن شاء أن يقول غيره . ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول !

ويستمر السياق فى تقرير هذه المفاصلة ؛ وفى بيان الحدود التى تكون فيها المعاملة :

« وذر الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولاشفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها . أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » ..

ونقف من الآية أمام عدة أمور :

أولها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وينسحب الأمر على كل مسلم ـ مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم هزوا ولعبا .. وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل .. فالذى لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقادا وعبادة ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة وقانونا ، إنما يتخذ دينه هزوا ولعبا .. والذى يتحدث عن مبادىء هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافا تدعو إلى الهزء والسخرية . كالذين يتحدثون عن « الغيب » ـ وهو أصل من أصول العقيدة ـ حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن « الزكاة » وهى ركن من أركان الدين حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة ـ وهى من مبادىء هذا الدين ـ بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية ، أو الإقطاعية ، أو « البرجوازية » الزائلة ! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة فى الإسلام حديث إنكار أو استنكار . والذين يصفون الضمانات التى جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها « أغلال ! » .. وقبل كل شيء وبعد كل شيء . . الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة فى حياة الناس الواقعية : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية ... ويقولون: إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله ... أولئك جميعا من المعنيين

Marfat.com

فى هذه الآيات بأنهم يتخذون دينهم هزوا ولعبا . وبأن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وبأنهم الظالمون - أى المشركون - والكافرون الذين أبسلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ..

وثانيها : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا - أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا ، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولى ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

وللتعبير القرآنى جماله وعمقه وهو يقول :

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها » . .

فكل نفس على حدة تبسل (أى ترتهن وتؤخذ) بما كسبت ، حالة أن ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، ولا يقبل منها عدل تفتدى به وتفك الربقة !

فأما أولئك الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فهؤلاء قد ارتهنوا بما كسبوا ؛ وحق عليهم ما سبق فى الآية ؛ وكتب عليهم هذا المصير :

« أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » . .

لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم : شراب ساخن يشوى الحلوق والبطون ؛ وعذاب أليم بسبب كفرهم ، الذى دل عليه استهزاؤهم بدينهم . .

وثالثها : قول الله تعالى فى المشركين : « الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا » . .

فهل هو دينهم ؟ . .

إن النص ينطبق على من دخل فى الإسلام ، ثم اتخذ دينه هذا هزوا ولعبا . . وقد وجد هذا الصنف من الناس وعرف باسم المنافقين . . ولكن هذا كان فى المدينة . .

فهل هو ينطبق على المشركين الذين لم يدخلوا فى الإسلام ؟ إنه الإسلام هو الدين . .

Marfat.com

هو دين البشرية جميعا . : سواء من آمن به ومن لم يؤمن .. فالذى رفضه إنما رفض دينه . . باعتبار أنه الدين الوحيد الذى يعده الله دينا ويقبله من الناس بعد بعثة خاتم النبيين .

ولهذه الإضافة دلالتها فى قوله :

« وذر الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا » . .

فهى – والله أعلم – إشارة إلى هذا المعنى الذى أسلفناه ، من اعتبار الإسلام دينا للبشرية كافة . فمن اتخذه هزوا ولعبا ، فإنما يتخذ دينه كذلك . . ولو كان من المشركين . .

ولا نزال نجدنا فى حاجة إلى تقرير من هم المشركون ؟ إنهم الذين يشركون بالله أحدا فى خصائص الألوهية . سواء فى الاعتقاد بألوهية أحد مع الله . أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله . أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله . ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه ، مهما تسموا بأسماء المسلمين ! فلنكن من أمر ديننا على يقين !

ورابعها : حدود مجالسة الظالمين – أى المشركين – والذين يتخذون دينهم هزوا ولعبا . . وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير . فليست لشىء وراء ذلك – متى سمع الخوض فى آيات الله ؛ أو ظهر اتخاذها هزوا ولعبا بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أو مثلها . .

وقد جاء فى قول القرطبى فى كتابه : الجامع لأحكام القرآن بصدد هذه الآية :

« فى هذه الآية ردٌّ من كتاب الله عزّ وجل ، على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم ، لهم أن يخالطوا الفاسقين ، ويصوّبوا آراءهم تقيةً .. »

ونحن نقول : إن المخالطة بقصد الوعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية فى الحدود التى بينتها . أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور . لأنه – فى ظاهره – إقرار للباطل ، وشهادة ضد الحق . وفيه تلبيس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفى هذه الحالة يكون النهى والمفارقة .

كذلك روى القرطبى فى كتابه هذه الأقوال :

« قال ابن خويز منداد : من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجر – مؤمنا كان أو كافرا –

Marfat.com

قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ، ودخول كنائسهم والبيع (١) ، ومجالسة الكفار وأهل البدع ؛ وألا تعتقد مودتهم ، ولايسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة . فأعرض عنه ، وقال :ولانصف كلمة (٢)!. ومثله عن أيوب السختياني . وقال الفضيل ابن عياض : من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج الإسلام من قلبه ، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها ؛ ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة ، وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له . وروى أبو عبدالله الحاكم عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام » ..

فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله .. وكله لايبلغ مدى من يدعى خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ؛ ومن يقره على هذا الادعاء .. فليس هذا بدعة مبتدع ؛ ولكنه كفر كافر ، أو شرك مشرك . مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم . فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعى هذه الدعوى ، وهو يزعم الإسلام . ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام ــ إلا من عصم الله ــ وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه عثل هذه الأحكام ..

« قُلْ : أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ، وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ، كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ ، حَيْرَانَ ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى : ائْتِنَا . قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ : كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » ﴿٧٣﴾

(١) صلى عمر رضى الله عنه في كنيسة بيت المقدس . ولكنه لم يكن في دار عدو . إنما كان في دار عهد وذمة . لأن النصارى يومئذ في هذه البقعة كانوا معاهدين ذميين .

(٢) في القرآن : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا » ..

Marfat.com

هذا الإيقاع القوى بحقيقة الألوهية وخصائصها ؛ وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ؛ وبمشهد الذى يرجع القهقرى مرتدا عن دين الله ؛ وحيرته فى التيه بلا اتجاه ؛ وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى .. هذا الإيقاع يختم برنة عالية عميقة مدوية . عن سلطان الله المطلق ، فى الأمر والخلق ؛ وعن انكشاف هذا السلطان وتفرده بالظهور – حتى للمنكرين الملموسين – « يوم ينفخ فى الصور » ويبعث من فى القبور ؛ ويستيقن من لم يكن يستيقن أن الملك لله وحده ، وأن إليه المصير :

* * *

« قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض ، حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا . قل : إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه » ..

« قل » .. الإيقاع القوى المتكرر فى السورة ؛ الذى يوحى بأن هذا الأمر لله وحده ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إنما هو منذر ومبلغ ؛ والذى يوحى بجلال هذا الأمر وعلويته ورهبته ؛ وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إنما هو مأمور به من ربه .

« قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ؟ » ..

قل لهم يا محمد مستنكرا ماهم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا . سواء كان مايدعونه وثنا أو صنما ، حجرا أو شجرا ، روحا أم ملكا ، شيطانا أم إنسانا . . . فكلهم سواء فى أنهم لا ينفعون شيئا ولا يضرون . فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجرى بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور ..

قل لهم مستنكرا دعوة غير الله ، وعبادة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله . وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه .. وسواء كان ذلك ردا على ما كان يقترحه المشركون على النبي – صلى الله عليه وسلم – من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكارا مبتدأ لما عليه المشركون ، وإعلانا للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبي صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم والمؤمنين .. فإن المؤدى فى النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذى يرفضه العقل البشرى ذاته متى عرض له فى النور ؛ بعيدا عن الموروثات الراسبة ، وبعيدا كذلك عن العرف السائد فى البيئة !

ولتجسيم السخف وتضخيم الاستنكار يعرض هذه المعتقدات فى ضوء ماهدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذه وحده إلها ، والدينونة له وحده بلا شريك :

« قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ؟ » ..

فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراء ؛ بعد التقدم والارتقاء..

ثم هذا المشهد الشاخص المتحرك الموحى المثير :

« كالذى استهوته الشياطين فى الأرض . . حيران . . له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا » ..

إنه مشهد حى شاخص متحرك للضلالة والحيرة التى تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب فى التيه .. إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس : « الذى استهوته الشياطين فى الأرض » ـ ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله ـ وياليته يتبع هذا الاستهوا فى اتجاهه ، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد ـ ولو فى طريق الضلال ! ـ ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه « ائتنا » ـ وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء « حيران » لا يدرى أين يتجه ، ولا أى الفريقين يجيب !

إنه العذاب النفسى يرتسم ويتحرك ، حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير !

ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هذا النص . . ولكن مجرد تصور .. حتى رأيت حالات حقيقية ، يتمثل فيها هذا الموقف ، ويفيض منها هذا العذاب .. حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه ـ أيا كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق ـ ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة ، تحت قهر الخوف والطمع .. ثم إذا هم فى مثل هذا البؤس المرير .. وعندئذ عرفت ماذا تعنى هذه الحالة ، وماذا يعنى هذا التعبير !

Marfat.com

وبينما ظل المشهد الحي الشاخص المتحرك الموحي ، يغمر النفس بالوجل من هـذا المصير التعيس .. يأتي التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم :

« قل : إن هدى الله هو الهدى، وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه» .

إنه التقرير الحاسم في الظرف النفسي المناسب ، فالنفس التي ترتسم لهـا صورة الحـيرة الطاغية ، والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار ، تـكون أقرب ماتـكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم ..

ثم إنه الحق في ذلك التقرير الحاسم :

« قل : إن هدى الله هو الهدى » ..

هو وحده الهدى ـ كما يفيد التركيب البياني للجملة ـ وإنه لـكذلك عن يقين . .

وإن البشرية لتخبط في التيه ، كلما تركت هذا الهدى ، أو انحرفت عن شيء منه واستبدلت به شيئا من تصوراتها هي ومقولاتها ، وأنظمتها وأوضاعها ، وشرائعهـا وقوانينها ، وقيمهـا وموازينها ، بغير « علم » ولا « هدى » ولا « كتاب منير » . .

إن « الإنسان » موهوب من الله القدرة على تعرف بعض نواميس الـكون وبعض طاقاته وقواه ، للانتفاع بها في الخلافة في الأرض ، وترقية هذه الحياة . . ولـكن هذا الإنسان ذاته غير موهوب من الله القدرة على استـكناه الحقائق المطلقة في هذا الـكون ، ولا على الإحاطة بأسرار الغيوب التي تلفه من كل جانب ، ومنهـا غيب عقله هو وروحه ، بل غيب وظائف جسمه والأسباب الـكامنة وراء هذه الوظائف ، والتي تدفعها للعمل هكذا ، وبهذا الانتظام ، وفي هذا الاتجاه .

ومن ثم يحتاج هذا « الإنسان » إلى هدى الله في كل مايختص بكينونته وحياته من عقيدة وخلق ، وموازين وقيم ، وأنظمة وأوضاع ، وشرائع وقوانين تحـكم هـذه الـكينونة وتنظم لها واقع الحياة . .

وكلما فاء هـذا « الإنسان » إلى هدى الله اهتدى . لأن هـدى الله هو الهدى . وكلما بعد كلية عنه ، أو انحرف بعض الانحراف واستبدل به شيئا من عنده ضل . لأن ماليس من

Marfat.com

هدى الله فهو ضلال . . إذ ليس هنالك نوع ثالث « فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ » .

ولقد ذاقت البشرية من ويلات هذا الضلال ـ وما تزال كلها تذوق ـ ماهو « حتمي » في تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى الله . . فهذه هي « الحتمية التاريخية » الوحيدة المستيقنة لأنها من أمر الله ، ومن خبر الله ، لا تلك الحتميات المدعاة ! والذي يريد أن يتملى شقاء البشرية في انحرافها عن هدى الله ، لا يحتاج أن ينقب ، فهو حوله في كل أرض تراه الأعين وتلمسه الأيدي ، ويصرخ منه العقلاء في كل مكان(١) .

ومن ثم يستطرد السياق في الآية ليقرر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه :

« وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه » ..

قل يا محمد وأعلن أن هدى الله هو الهدى ؛ وأننا ـ من ثم ـ أمرنا أن نسلم لرب العالمين. فهو وحده الذي يستسلم له العالمون . فالعوالم كلها مستسلمة له ، فماذا الذي يجعل الإنسان وحده ـ من بين العالمين ـ يشذ عن الاستسلام لهذه الربوبية الشاملة التي تستسلم لها العوالم في السماوات والأرضين ؟

إن ذكر الربوبية للعالمين هنا له موضعه .. إنه يقرر الحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها وهي استسلام الوجود كله ، ومافيه من عوالم مشهودة ومغيبة ، للنواميس التي وضعها الله لها ؛ وهي لا تملك الخروج عليها ، والإنسان ـ من ناحية تركيبه العضوي ـ يستسلم كذلك لهذه النواميس كرها ، ولا يملك الخروج عليها . . فلا يبقى إلا أن يستسلم في الجانب الذي ترك له الخيار فيه ليبتلي فيه ، وهو جانب الاختيار .. اختيار الهدى أو الضلال .. ولو استسلم فيه استسلام كيانه العضوي ، لاستقام أمره ، وتناسق تكوينه وسلوكه ، وجسمه وروحه ، ودنياه وآخرته(٢) ..

---

(١) يراجع فصل : « تخبط واضطراب » في كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » وفصل « شهادة القرن العشرين » في كتاب « التطور والثبات في حياة البشرية » .

(٢) يراجع بتوسع فصل « الإسلام » في كتاب « مبادئ الإسلام » للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

وفى إعلان الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه ، أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا ، إيحاء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقى والاستجابة على مدى الزمان .

وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجىء التكاليف التعبدية والشعورية :

« وأن أقيموا الصلاة واتقوه » .

فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين ، وسلطانه وتربيته وتقويمه . ثم تجىء العبادات الشعائرية ؛ وتجىء الرياضات النفسية . . لتقوم على قاعدة الاستسلام . . فإنها لاتقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء .

وفى الإيقاع الأخير فى الفقرة يحشد السياق المؤثرات من الحقائق الأساسية فى العقيدة : حقيقة الحشر . وحقيقة الخلق . وحقيقة السلطان . وحقيقة العلم بالغيب والشهادة . وحقيقة الحكمة والخبرة .. من خصائص الألوهية ، التى هى الموضوع الرئيسى فى هذه السورة :

« وهو الذى إليه تحشرون . وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق . ويوم يقول : كن فيكون . قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير » ..

« وهو الذى إليه تحشرون » ..

إن الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب .. فهو الذى إليه تحشر الخلائق .. فأولى لهم أن يقدموا بين يدى الحشر - الحتمى - ما ينجيهم ؛ وأولى لهم أن يستسلموا اليوم له استسلام العالمين ؛ قبل أن يقفوا أمامه مسؤولين .. وكذلك يصبح تصور هذه الحقيقة - حقيقة الحشر - موحيا بالاستسلام فى المبدأ ، مادام أنه لامفر من الاستسلام فى المصير !

« وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق » ..

وهذه حقيقة أخرى تحشد كمؤثر آخر .. فالله الذى يؤمرون بالاستسلام له هو الذى خلق السماوات والأرض - والذى يخلق يملك ويحكم ويقضى ويتصرف - ولقد خلق السماوات والأرض « بالحق » . فالحق قوام هذا الخلق .. وفضلا عما يقرره هذا النص من نفى الأوهام التى عرفتها الفلسفة عن هذا الكون - وبخاصة الأفلاطونية والمثالية - من أن هذا العالم المحسوس وهم لا وجود له على الحقيقة ! - فضلا على تصحيح مثل هذه التصورات ، فإن النص يوحى بأن

Marfat.com

الحق أصيل فى بنية هذا الكون ، وفى مآلاته كذلك . فالحق الذى يلوذ به الناس يستند إلى الحق الكامن فى فطرة الوجود وطبيعته ، فيؤلف قوة هائلة ، لا يقف لها الباطل ، الذى لاجذور له فى بنية الكون ، وإنما هو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. وكالزبد يذهب جفاء ، إذ لا أصالة له فى بناء الكون .. كالحق ... وهذه حقيقة ضخمة ، ومؤثر كذلك عميق ..

إن المؤمن الذى يشعر أن الحق الذى معه – هو شخصيا وفى حدود ذاته – إنما يتصل بالحق الكبير فى كيان هذا الوجود . (وفى الآية الأخرى : « ذلك بأن الله هو الحق ») فيتصل الحق الكبير الذى فى الوجود بالحق المطلق فى الله سبحانه .. إن المؤمن الذى يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل ، لايرى فى الباطل – مهما تضخم وانتفخ وطغى وتجبر وقدر على الأذى المقدر – إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود ؛ لاجذور لها ولامدد ؛ تنفقئ من قريب ، وتذهب كأن لم تكن فى هذا الوجود .

كما أن غير المؤمن يرتجف حسه أمام تصور هذه الحقيقة . وقد يستسلم ويثوب !

« ويوم يقول : كن فيكون » ..

فهو السلطان القادر ، وهى المشيئة الطليقة ، فى الخلق والإبداع والتغيير والتبديل .. وعرض هذه الحقيقة – فضلا على أنه من عمليات البناء العقيدة فى قلوب المؤمنين – هو كذلك مؤثر موح فى نفوس الذين يُدعون إلى الاستسلام لله رب العالمين الخالق بالحق .. الذى يقول : كن فيكون .

« قوله الحق » ..

سواء فى القول الذى يكون به الخلق : « كن فيكون » . أو فى القول الذى يأمر به بالاستسلام له وحده . أو فى القول الذى يشرع به للناس حين يستسلمون . أو فى القول الذى يخبر به عن الماضى والحاضر والمستقبل . وعن الخلق والنشأة والحشر والجزاء .

قوله الحق فى هذا كله .. فأولى أن يستسلم له وحده من يشركون به ما لاينفع ولايضر من خلقه . ومن يتبعون قول غيره كذلك وتفسيره للوجود وتشريعه للحياة . فى أى اتجاه .

« وله الملك يوم ينفخ فى الصور » ..

Marfat.com

فى هذا اليوم يوم الحشر .. يوم ينفخ فى الصور (هو القرن المجوف كالبوق) وهو اليوم الذى يكون فيه البعث والنشر ؛ بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهى من غيب الله الذى احتفظ به. والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له ، والروايات المأثورة تقول: هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من فى القبور ، حيث يهبون للنشور - وهذه هى النفخة الثانية - أما الأولى فيصعق لها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله كما جاء فى آية الزمر : «ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض - إلا من شاء الله - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون» . . وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا - عن يقين - أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه فى هذه الأرض أو تصوروه .. وهو من ثم غيب من غيب الله . نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذى لا أمان فى تجاوزه ، ولا يقين . إنما هى الظنون !

فى هذا اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور يبرز - حتى للمنكرين - ويظهر - حتى للمطموسين - أن الملك لله وحده ، وأنه لا سلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته .. فأولى لمن يأبون الاستسلام له فى الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ فى الصور .

« عالم الغيب والشهادة » . .

الذى يعلم ذلك الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود . والذى لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، ولا يند عنه شأن من شؤونهم . . فأولى لهم أن يسلموا له ويعبدوه ويتقوه . وهكذا تذكر هذه الحقيقة لذاتها ، وتتخذ مؤثرا موحيا فى مواجهة المكذبين والمعارضين .

« وهو الحكيم الخبير » ..

يصرف أمور الكون الذى خلقه ، وأمور العباد الذين يحكمهم فى الدنيا والآخرة بالحكمة والخبرة .. فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه ، ويسعدوا بآثار حكمته وخبرته . ويفيئوا إلى هداه وحده . ويخرجوا من التيه ، ومن الحيرة ، إلى ظلال الحكمة والخبرة ، وإلى كنف الهدى والبصيرة ..

وهكذا تتخذ هذه الحقيقة مؤثرا موحيا للعقول والقلوب ..

Marfat.com

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ : أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ؟ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ : هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ : هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَٰذَا رَبِّي ، هَٰذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ : يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

« وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَالَ : أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ؟ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ * الَّذِينَ آمَنُوا ، وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

« وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ؛ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ

Marfat.com

أَلَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُل : لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ .

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا : مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ . قُلْ : مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ؟ أَوْ قَالَ : أُوحِيَ إِلَيَّ ، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ؟ - وَمَن قَالَ : سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ : أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ! لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ! » ﴿٩٤﴾

هـذا الدرس بطوله لحمة واحدة ؛ يتناول موضوعا متصل الفقرات . . إنه يعالج الموضوع الأساسى فى السورة ـ وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وما بينهما من ارتباطات ـ ولكنه يعالجه فى أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة .. يعالجه فى أسلوب القصص والتعقيب عليه .. مع استصحاب المؤثرات الموحية

Marfat.com

التي تزخر بها السورة ؛ ومنها مشهد الاحتضار الكامل السمات ؛ وذلك كله في نفس طويل رتيب يتوسط الموجات المتلاحقة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة ..

والدرس ـ في جملته ـ يعرض موكب الإيمان الموصول منذ نوح ـ عليه السلام ، إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي مطلع هذا الموكب يستعرض حقيقة الألوهية ـ كما تتجلى في فطرة عبد من عباد الله الصالحين ـ إبراهيم عليه السلام ـ ويرسم مشهدا رائعا حقا للفطرة السليمة ، وهي تبحث عن إلهها الحق ، الذي تجده في أعماقها ، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها . إلى أن يخلص لها تصور حق ، يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ماتجده في أطوائها من برهان داخلي هو أقوى وأثبت من الشهود المحسوس! ذلك حين يحكي السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق ، واطمئنانه إلى ماوجده في قلبه منه : « وحاجه قومه . قال : أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ماتشركون به ، إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

ثم يمضي السياق مع موكب الإيمان الموصول ؛ يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور ؛ حيث يبدو شرك المشركين وتكذيب المكذبين لغوا لا وزن له ، يتناثر على جانبي الموكب الجليل ، الماضي في طريقه الموصول . وحيث يلتحم آخره مع أوله ؛ فيؤلف الأمة الواحدة ، يقتدي آخرها بالهدى الذي اهتدى به أولها ، دون اعتبار لزمان أو مكان ؛ ودون اعتبار لجنس أو قوم ، ودون اعتبار لنسب أو لون . . فالحبل الموصول بين الجميع هو هذا الدين الواحد الذي يحمله ذلك الرهط الكريم .

إنه مشهد رائع كذلك ؛ يبدو من خلال قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد استعراض للموكب المظيم : « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده . قل : لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذكرى للعالمين » . .

Marfat.com

وبعد استعراض هـذا الموكب الجليل يجيء التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلا ، ولم ينزل على بشر كتابا .. إنهم لم يقدروا الله حق قدره . فما قدر الله حق قدره من يقول : إنه - سبحانه - تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور . فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته .. إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلا ، وأن ينزل على بعض الرسل كتبا ، ليحاولوا جميعا هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها من الركام الذى يرين عليها ، ويغلق منافذها ، ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها .. ويضرب مثلا الكتاب الذى أنزل على موسى . وهذا الكتاب الذى يصدق ما بين يديه من الكتب جميعا ..

وينتهى الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفترى على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله .. وهى الدعاوى التى كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحى وفيهم من ادعى النبوة .

وفى الختام يجىء مشهد الاحتضار المكروب للمشركين

« ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون ! » ..

وهو مشهد كئيب مكروب رعيب ؛ يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب . جزاء الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب ..

***

« وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين .. وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين .. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا

Marfat.com

قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين » ..

إنه مشهد رائع باهر هذا الذى يرسمه السياق القرآنى فى هذه الآيات . . مشهد الفطرة وهى - للوهلة الأولى - تنكر تصورات الجاهلية فى الأصنام وتستنكرها . وهى تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة فى شوق عميق دافق تبحث عن إلهها الحق ، الذى تجده فى ضميرها ، ولكنها لا تتبينه فى وعيها وإدراكها . وهى تتعلق فى لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله ! حتى إذا اختبرته وجدته زائفا ؛ ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته . . ثم وهى تجد الحقيقة تشرق فيها وتتجلى لها . وهى تنطلق بالفرحة الكبرى ، والامتلاء الجياش ، بهذه الحقيقة ، وهى تعلن فى جيشان اللقيا عن يقينها الذى وجدته من مطابقة الحقيقة التى انتهت إليها بوعيها للحقيقة التى كانت كامنة من قبل فيها ! . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذى يتجلى فى قلب إبراهيم - عليه السلام - والسياق يعرض التجربة الكبرى التى اجتازها فى هذه الآيات القصار . . إنها قصة الفطرة مع الحق والباطل . وقصة العقيدة كذلك يصدع بها المؤمن ولا يخشى فيها لومة لائم ؛ ولا يجامل على حسابها أبا ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوماً . . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الحاسمة الصريحة :

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين» ..

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم . إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه - إلى إلهه - ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التى يعبدها قومه آلهة - وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم - فالإله الذى يعبد ، والذى يتوجه إليه العباد فى السراء والضراء ، والذى خلق الناس والأحياء . . هذا الإله فى فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنما من حجر ، أو وثنا من خشب .. وإذا لم تكن هذه الأصنام هى التى تخلق وترزق وتسمع وتستجيب - وهذا ظاهر من حالها للعيان - فما هى بالتى تستحق أن تعبد ؛ وما هى بالتى تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد !

Marfat.com

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم – عليه السلام – للوهلة الأولى . وهى النموذج الكامل للفطرة التى فطر الله الناس عليها .. ثم هى النموذج الكامل للفطرة وهى تواجه الضلال البين ، فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع ، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة .

« أتتخذ أصناما آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » ..

كلمة يقولها إبراهيم – عليه السلام – لأبيه . وهو الأواه الحليم الرضى الخلق السمح اللين ، كما ترد أوصافه فى القرآن الكريم . ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التى أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالا ..

وكذلك استحق إبراهيم – عليه السلام – بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة فى الكون ، والدلائل الموحية بالهدى فى الوجود :

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين » ..

بمثل هذه الفطرة السليمة ، وهذه البصيرة المفتوحة ؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق ، ومن إنكار الباطل فى قوة .. نرى إبراهيم حقيقة هذا الملك .. ملك السماوات والأرض .. ونطلعه على الأسرار المكنونة فى صميم الكون ، ونكشف له عن الآيات المبثوثة فى صحائف الوجود ، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى فى هذا الكون العجيب . لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة ، إلى درجة اليقين الواعى بالإله الحق ..

وهذا هو طريق الفطرة البديهى العميق .. وعى لا يطمسه الركام . وبصر يلحظ ما فى الكون من عجائب صنع الله . وتدبر يتبع الشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون .. وهداية من الله جزاء على الجهاد فيه ..

وكذلك سار إبراهيم – عليه السلام – وفى هذا الطريق وجد الله .. وجده فى إدراكه ووعيه ، بعد أن كان يجده حسب فى فطرته وضميره .. ووجد حقيقة الألوهية فى الوعى والإدراك مطابقة لما استكن منها فى الفطرة والضمير :

فلنتابع الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم الصادقة .. إنها رحلة هائلة وإن كانت تبدو هينة ميسرة ! رحلة من نقطة الإيمان الفطرى إلى نقطة الإيمان الوعى ! الإيمان الذى يقوم

Marfat.com

عليه التكليف بالفرائض والشرائع ؛ والذى لا يكل الله ـ سبحانه ـ جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها ، فيبينه لهم فى رسالات الرسل ، ويجعل الرسالة ـ لا الفطرة ولا العقل البشرى ـ هى حجته عليهم ، وهى مناط الحساب والجزاء ، عدلا منه ورحمة ، وخبرة بحقيقة الإنسان وعلما . .

فأما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهو إبراهيم ! خليل الرحمن وأبو المسلمين ..

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين » ..

إنها صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك ـ بل الإنكار الجازم ـ لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام . وقد باتت قضية العقيدة هى التى تشغل باله ، وتزحم عالمه . . صورة يزيدها التعبير شخوصا بقوله : « فلما جن عليه الليل » . . كأنما الليل يحتويه وحده ، وكأنما يعزله عن الناس حوله ، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته ، ومع همه الجديد الذى يشغل باله ويزحم خاطره :!

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى » ..

وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم ـ كما أسلفنا ـ فلما أن يئس من أن يكون إلهه الحق ـ الذى يجده فى فطرته فى صورة غير مدركة ولا واعية ـ صنما من تلك الأصنام ، فلعله رجا أن يجده فى شىء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة !

وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم . وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكبا . . ولكن الكوكب ـ الليلة ـ ينطق له بما لم ينطق من قبل ، ويوحى إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذى يشغل باله ، ويزحم عليه عالمه :

« قال : هذا ربى » . .

فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب ـ من الأصنام ـ إلى أن يكون ربآ ! . . ولكن لا ! إنه يكذب ظنه :

« فلما أفل قال : لا أحب الآفلين » ..

إنه يغيب . . يغيب عن هذه الخلائق . فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها .. إذا كان الرب يغيب ؟! لا ، إنه ليس ربا ، فالرب لا يغيب !

Marfat.com

إنه منطق الفطرة البديهي القريب .. لا يستشير القضايا المنطقية والفروض الجدلية ، إنما ينطلق مباشرة في يسر وجزم . لأن الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق ..

« لا أحب الآفلين » ..

فالصلة بين الفطرة وإلهها هي صلة الحب ؛ والآصرة هي آصرة القلب . . وفطرة إبراهيم « لا تحب » الآفلين ، ولا تتخذ منهم إلها . إن الإله الذي تحبه الفطرة .. لا يغيب .. !

« فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي . فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين » ..

إن التجربة تتكرر . وكأن إبراهيم لم ير القمر قط ؛ ولم يعرف أن أهله وقومه يعبدونه ! فهو الليلة في نظره جديد :

« قال : هذا ربي » ..

بنوره الذي ينسكب في الوجود ؛ وتفرده في السماء بنوره الحبيب .. ولكنه يغيب !.. والرب - كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه - لا يغيب !

هنا يحس إبراهيم أنه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته . ربه الذي يحبه ، ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه . . ويحس أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته . إن لم يمد إليه يده ، ويكشف له عن طريقه :

« قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين » ..

« فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي . هذا أكبر . فلما أفلت قال : ياقوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين ».

إنها التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءا وحرارة .. الشمس .. والشمس تطلع كل يوم وتغيب . ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنها خلق جديد . إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به ويطمئن إليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل :

« قال : هذا ربي . هذا أكبر » .

ولكنها كذلك تغيب ..

Marfat.com

هنا يقع التماس ، وتنطلق الشرارة ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعى .. هنا يجد إبراهيم إلهه .. يجده فى وعيه وإدراكه كما هو فى فطرته وضميره ..هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطرى المكنون والتصور العقلى الواضح ..

وهنا يجد إبراهيم إلهه . ولكنه لايجده فى كوكب يلمع ، ولا فى قمر يطلع ، ولا فى شمس تسطع .. ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس .. إنه يجده فى قلبه وفطرته ، وفى عقله ووعيه ، وفى الوجود كله من حوله ..إنه يجده خالقا لكل ماتراه العين ، ويحسه الحس ، وتدركه العقول

وعندئذ يجد فى نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه فى كل مايعبدون من آلهة زائفة ؛ ويبرأ فى حسم لامواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك ـ وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة ـ وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك :

« قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » ..

فهو الاتجاه إلى فاطر السماوات والأرض . الاتجاه الحنيف الذى لا ينحرف إلى الشرك . وهى الكلمة الفاصلة ، واليقين الجازم ، والاتجاه الأخير .. فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التى فى الضمير ..

* * *

ومرة أخرى نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر . . مشهد العقيدة وقد استعلنت فى النفس ، واستولت على القلب ، بعد ماوضحت وضوحها الكامل وانجلى عنها الغبش .. نشهدها وقدملأت الكيان الإنسانى ، فلم يعد وراءها شىء . وقد سكبت فيه الطمأنينة الواثقة بربه الذى وجده فى قلبه وعقله وفى الوجود من حوله .. وهو مشهد يتجلى بكل روعته وبهائه فى الفقرة التالية فى السياق .

لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله ـ سبحانه ـ فى ضميره وعقله وفى الوجود من حوله . وقد

Marfat.com

اطمأن قلبه واستراح باله . وقد أحس يد الله تأخذ بيده وتقود خطاه فى الطريق . . والآن يجىء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد ؛ وليخوفوه آلهتهم التى تنكر لها أن تنزل به سوءا .. وهو يواجههم فى يقينه الجازم ؛ وفى إيمانه الراسخ ؛ وفى رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذى هداه :

« وحاجه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما . أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » ..

إن الفطرة حين تنحرف تضل ؛ ثم تتمادى فى ضلالها ، وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء ، حتى ليصعب عليها أن تثوب .. وهؤلاء قوم إبراهيم - عليه السلام - يعبدون أصناما وكواكب ونجوما . فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التى تمت فى نفس إبراهيم . ولم يكن هذا داعيا لهم لمجرد التفكر والتدبر . بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه . وهم على هذا الوهن الظاهر فى تصوراتهم وفى ضلال مبين .

ولكن إبراهيم المؤمن الذى وجد الله فى قلبه وعقله وفى الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكرا فى طمأنينة ويقين :

« قال : أتحاجونى فى الله وقد هدانِ ؟ » ..

أتجادلوننى فى الله وقد وجدته يأخذ بيدى ، ويفتح بصيرتى ، ويهدينى إليه ، ويعرفنى به .. لقد أخذ بيدى وقادنى فهو موجود - وهذا هو فى نفسى دليل الوجود - لقد رأيته فى ضميرى وفى وعيى ، كما رأيته فى الكون من حولى . فما جدالكم فى أمر أنا أجده فى نفسى ولا أطلب عليه الدليل . فهدايته لى إليه هى الدليل ؟!

« ولا أخاف ماتشركون به » ..

وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة - غير قوة الله - هزيلة وكل سلطان - غير سلطان الله - لا يُخاف ؟!

ولكن إبراهيم فى عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لايريد أن يجزم بشىء إلا مرتكنا إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل :

Marfat.com

« إلا أن يشاء ربى شيئا . وسع ربى كل شىء علما » .

فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته ؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئا ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا يصيبه إلا ماشاءه الله ، ووسعه علمه الذى يسع كل شىء ..

« وكيف أخاف ماأشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ » .

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم ـ وليس هو المؤمن الذى يضع يده فى يد الله ويمضى فى الطريق ـ وكيف يخاف آلهة عاجزة ـ كائنة ماكانت هذه الآلهة ، والتى تتبدى أحيانا فى صورة جبارين فى الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون ! ـ كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله مالم يجعل له سلطانا ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأى الفريقين أحق بالأمن ؟ الذى يؤمن به ويكفر بالشركاء ؟ أم الذى يشرك بالله مالا سلطان له ولا قوة ؟ أى الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شىء من العلم والفهم ؟ !

هنا يتنزل الجواب من الملأ الأعلى ؛ ويقضى الله بحكمه فى هذه القضية :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ..

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركا فى عبادة ولا طاعة ولا اتجاه . هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون ..

ولقد كانت هذه هى الحجة التى ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التى جاءوا بها يجادلونه . ولقد كشف لهم عن وهن ماهم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسىء إليه . . وواضح أنهم ماكانوا يجحدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان فى الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لايخاف من دونه ، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة . . لما واجههم بهذه الحجة التى آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجتهم ، وعلت حجته ، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة .. وهكذا يرفع الله من يشاء درجات . متصرفا فى هذا بحكمته وعلمه :

Marfat.com

« إن ربك حكيم عليم » ..

وقبل أن نغادر هذه الفقرة نحب أن نستمتع بنفحة من نفحات الحياة فى عصر صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا القرآن يتنزل عليهم غضا ؛ وتشربه نفوسهم ؛ وتعيش به وله ؛ وتتعامل به وتتعايش بمدلولاته وإيحاءاته ومقتضياته ، فى جد وفى وعي وفى التزام عجيب، تأخذنا روعته وتبهرنا جديته ؛ وندرك منه كيف كان هذا الرهط الفريد من الناس ، وكيف صنع الله بهذا الرهط ماصنع من الخوارق ، فى ربع قرن من الزمان :

روى ابن جرير - بإسناده - عن عبد الله ابن إدريس ، قال : « لما نزلت هذه الآية : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» ، شق ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ليس كما تظنون . وإنما هو ماقال لقمان لابنه : « لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » ..

وروى كذلك - بإسناده - عن ابن المسيب ، أن عمر ابن الخطاب قرأ : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » فلما قرأها فزع . فأتى أبيّ ابن كعب . فقال : ياأبا المنذر ، قرأت آية من كتاب الله . من يَسلم ؟ فقال : ماهى ؟ .. فقرأها عليه .. فأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال : غفر الله لك ! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول : « إن الشرك لظلم عظيم » ؟ إنما هو : ولم يلبسوا إيمانهم بشرك .

وروى - بإسناده - عن أبى الأشعر العبدى عن أبيه ، أن زيد ابن صوحان سأل سلمان ، فقال : ياأبا عبد الله ، آية من كتاب الله قد بلغت منى كل مبلغ : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » ! فقال سلمان : هو الشرك بالله تعالى ذكره . فقال زيد : مايسرنى بها أنى لم أسمعها منك ، وأن لى مثل كل شىء أمسيت أملكه .

فهذه الآثار الثلاثة تصور لنا كيف كان حس هذا الرهط الكريم بهذا القرآن الكريم . كيف كانت جدية وقعه فى نفوسهم . كيف كانوا يتلقونه وهم يشعرون أنه أوامر مباشرة للتنفيذ وتقريرات حاسمة للطاعة ، وأحكام نهائية للنفاذ . وكيف كانوا يفزعون حين يظنون أن هناك مفارقة بين طاقتهم المحدودة ومستوى التكليف المطلوب . وكيف كانوا يجزعون أن يؤاخذوا بأى درجة من درجات التقصير ، والتفاوت بين عملهم وبين مستوى التكليف . حتى يأتيهم من الله ورسوله التيسير .

Marfat.com

إنه مشهد كذلك رائع باهر .. مشهد هذه النفوس التي حملت هذا الدين .. وكانت ستارا لقدر الله ؛ ومنفذا لمشيئته في واقع الحياة ..

* * *

بعد ذلك يعرض السياق موكب الإيمان الجليل ، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل : من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يعرض السياق هذا الموكب ممتدا موصولا - وبخاصة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين - ولا يراعى التسلسل التاريخي في هذا العرض - كما يلاحظ في مواضع أخرى - لأن المقصود هنا هو للموكب بجملته ، لا تسلسله التاريخي :

« ووهبنا له إسحاق ويعقوب - كلا هدينا - ونوحا هدينا من قبل - ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون .. وكذلك نجزي المحسنين .. وزكريا ويحيي وعيسى وإلياس .. كل من الصالحين .. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا .. وكلا فضلنا على العالمين .. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم .. واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم .. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ، قل : لا أسألكم عليه أجرا . إن هو إلا ذكرى للعالمين » ..

وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبيا رسولا - غير نوح وإبراهيم - وإشارة إلى آخرين « من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم » .. والتعقيبات على هذا الموكب : « وكذلك نجزي المحسنين » .. « وكلا فضلنا على العالمين » .. « واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » .. وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهدايته إلى الطريق المستقيم .

وذكر هذا الرهط على هذا النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة ، كله تمهيد للتقريرات التي تليه :

« ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » ...

Marfat.com

وهـذا تقرير لينابيع الهدى فى هـذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر للمستيقن منه ، والذى يجب اتباعه ، فى هـذا المصدر الواحد ، الذى يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذى يهدى إليه من يختار من عباده .. ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ، وتوحيد المصدر الذى يستمدون منه هداه ، وأشركوا بالله فى الاعتقاد أو العبادة أو التلقى ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم : أى أن يذهب ضياعا ، ويهلك كما تهلك الدابة التى ترعى نبتا مسموما فتنتفخ ثم تموت . . وهذا هو الأصل اللغوى للحبوط !

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » ..

وهذا هو التقرير الثانى .. فقرر فى الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذى جاءت به الرسل . وقرر فى الثانى أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة ـ « والحكم » يجىء بمعنى الحكمة كما يجىء بمعنى السلطان كذلك ـ وكلا المعنيين محتمل فى الآية . فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى ، والزبور مع داود ، والإنجيل مع عيسى . وبعضهم آتاه الله الحكم كداود وسليمان ـ وكلهم أوتى السلطان على معنى أن مامعه من الدين هو حكم الله ، وأن الدين الذى جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور . فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط ، كما جاء فى الآيات الأخرى . وكلهم أوتى الحكمة وأوتى النبوة .. وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ، ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه .. فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب : « هؤلاء » فإن دين الله غنى عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين ! .. إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ؛ ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول ؛ وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية ؛ بما يعلمه من استحقاقه للهداية ! .. وهو تقرير يسكب الطمأنينة فى قلب المؤمن ، وفى قلوب العصبة المسلمة ـ أيا كان عددها ـ إن هذه العصبة ليست وحدها . ليست مقطوعة من شجرة ! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها فى

Marfat.com

السماء ، وحلقة في موكب جليل موصول ، موصولة أسبابه بالله وهداه .. إن المؤمن الفرد ، في أي أرض وفي أي جيل ، قوي قوي ، وكبير كبير ، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الإنساني ، وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور .

« أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل : لا أسألكم عليه أجرا . إن هو إلا ذكرى للعالمين » ..

وهو التقرير الثالث .. فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله . وهداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن آمن به . فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه . وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به .. قائلا لمن يدعوهم :

« لا أسألكم عليه أجرا » .. « إن هو إلا ذكرى للعالمين » .. للعالمين .. لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد .. إنه هدى الله لتذكير البشر كافة . ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله !

ثم يمضي السياق يندد بمنكري النبوات والرسالات ، ويصمهم بأنهم لا يقدرون الله قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله . ويقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجري على سنة الرسالات قبلها ؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب .. مما يتفق مع ظل الموكب الذي سبق عرضه ويتناسق :

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء . قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس – تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا – وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل : الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون » ..

لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولا من البشر ؛ ولم ينزل كتابا يوحى به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ؛

Marfat.com

ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج، ليكذبوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: ما أنزل الله على بشر من شيء؛ كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل:

«وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء» ..

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم .. لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديما وحديثا، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله. وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى؛ جاء بها كل رسول؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول.

وهذا القول يقوله ـ قديما أو حديثا ـ من لا يقدر الله حق قدره؛ ومن لا يعرف كرم الله وفضله، ورحمته وعدله .. إنهم يقولون: إن الله لا يرسل من البشر رسولا ولو شاء لأنزل ملائكة! كما كان العرب يقولون. أو يقولون: إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعنى بالإنسان «الضئيل» في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض! بحيث يرسل له الرسل؛ وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث! أو يقولون: إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل .. إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين! كما يقول الماديون الملحدون!!!

وكله جهل بقدر الله ـ سبحانه ـ فالله الكريم العظيم العادل الرحيم، العليم الحكيم ... لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده، وهو خالقه، وهو يعلم سره وجهره، وطاقاته وقواه، ونقصه وضعفه، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره، وأقواله وأعماله، وأوضاعه ونظامه، ليرى إن كانت صوابا وصلاحا، أو كانت خطأ وفسادا .. ويعلم ـ سبحانه ـ أن العقل الذي أعطاه له، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ومطامعه

Marfat.com

ورغباته ، فضلا على أنه موكل بطاقات الأرض التى له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلا بتصور الوجود تصورا مطلقا ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة . فهذا مجال العقيدة التى تأبى له من الله ؛ فتنشئ له تصورا سليما للوجود والحياة . . ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده ، ولا يكله كذلك إلى ماأودع فطرته من معرفة لدنية بربها الحق ،وشوق إليه ، ولياذ به فى الشدائد .. فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب مايقع عليها من ضغوطداخلية وخارجية ، وبسبب الإغواء والاستهواء الذى يقوم به شياطين الجن والإنس ، بكل مايملكون من أجهزة التوجيه والتأثير .. إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها . . وهذا هو الذى يليق بكرم الله وفضله ، ورحمته وعدله ، وحكمته وعلمه .. فما كان ليخلق البشر ، ثم يتركهم سدى .. ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »[1] .. فتقدير الله حق قدره يقتضى الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام ، ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط ، والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله ، وأنزل على بعضهم كتبا تبقى بعدهم فى قومهم إلى حين – ككتب موسى وداود وعيسى – أو تبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب فى الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحى ؛ بتلك الحقيقة :

«قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس – تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا – وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » . .

وقد عرضنا فى تقديم السورة للقول بأن هذه الآية مدنية ، وأن المخاطبين بها هم اليهود . ثم ذكرنا هناك ماختاره ابن جرير الطبرى من القراءة الأخرى «يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون

---

(١) يراجع : وسع تفسير قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .. فى سورة النساء . الجزء السادس من الظلال ص ٢٥ – ٣٥ وفصل « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » .

Marfat.com

كثيرا».. وأن المخاطبين بها هم المشركون، وهذا خبر عن اليهود بما كان واقعا منهم من جعل التوراة في صحائف يتلاعبون بها ، فيبدون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع ، والتلاعب بالأحكام والفرائض ؛ ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة ! مما كان العرب يعلمون بعضه وما أخبرهم الله به في هذا القرآن من فعل اليهود . . فهذا خبر عن اليهود معترض في سياق الآية لا خطابا لهم .. والآية على هذا مكية لا مدنية .. ونحن نختار ما اختاره ابن جرير.

فقل لهم يا محمد : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للبانتهم من وراء هذا التلاعب الكريه ! كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون ؛ فكان حقا عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه .

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحسم القول معهم في هذا الشأن ؛ وألا يجعله مجالا لجدل لا يثيره إلا اللجاج :

« قل : الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » . .

قل : الله أنزله .. ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم ، ودعهم يخوضون لاهين لاعبين.. وفي هذا من التهديد ، قدر ما فيه من الاستهانة ، قدر ما فيه من الحق والجد ؛ فحين يبلغ العبث أن يقول الناس مثل ذلك الكلام ، يحسن احترام القول وحسم الجدل وتوفير الكلام !

ويمضي السياق يحكي شيئا عن الكتاب الجديد ، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله . فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعا من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام :

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون » ..

إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الله عليهم الكتب . وهذا الكتاب الجديد ، الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك .. وصدق الله .. فإنه والله لمبارك ..

مبارك بكل معاني البركة .. إنه مبارك في أصله . باركه الله وهو ينزله من عنده . ومبارك

Marfat.com

فى محله الذى علم الله أنه له أهـل .. قلب محمد الطاهر الكريم الكبير .. ومبارك فى حجمه ومحتواه . فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة اضخام الكتب التى يكتبها البشر ؛ ولكنه يحوى من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات فى كل فقرة منه مالا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ، فى أضعاف أضعاف حيزه وحجمه ! وإن الذى مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بنى البشر ؛ وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات ، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير ، أن هذا النسق القرآنى مبارك من هذه الناحية . وأن هنالك استحالة فى أن يعبر البشر فى مثل هذا الحيز ـ ولا فى أضعاف أضعافه ـ عن كل مايحمله التعبير القرآنى من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات ! وأن الآية الواحدة تؤدى من المعانى وتقرر من الحقائق مايجعل الاستشهاد بها على فنون شق من أوجه التقرير والتوجيه شيئا متفردا لا نظير له فى كلام البشر .. وإنه لمبارك فى أثره . وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطابا مباشرا عجيبا لطيف المدخل ؛ ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ؛ فيفعل فيها مالا يفعله قول قائل . ذلك أن به من الله سلطانا. وليس فى قول القائلين من سلطان !

ولا نملك أن نمضى أكثر من هذا فى تصوير بركة هذا الكتاب .. وما نحن ببالغين لو مضينا شيئا أكثر من شهادة الله له بأنه « مبارك » ففيها فصل الخطاب !

« مصدق الذى بين يديه » ..

فهو يصدق مابين يديه من الكتب التى نزلت من عند الله ـ فى صورتها التى لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت : إنه من عند الله ـ هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذى جاء به فى أصول العقيدة . أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجا ، فى حدود العقيدة الكبرى فى الله.

والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون : إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة فى توحيد الله ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة فى حقيقة الرسالة والرسول ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة فى الآخرة والحساب والجزاء .. وهم يقصدون الثناء على الإسلام ! .. هؤلاء لا يقرأون القرآن ! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يقرر أن جميع رسله ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذى لاظل فيه للشرك فى صورة من صوره .. وأنهم جميعا أخبروا الناس بحقيقة

Marfat.com

الرسول ، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا يعلم غيبا ، ولا يبسط أو يقبض رزقا . . وأنهم جميعا أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء . . وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول .. وصدق الكتاب الأخير ماجاءت به الكتب قبله . . إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوربية ، التي تزعم أن أصول العقيدة ـ بما فيها العقائد السماوية ـ قد تطورت وترقت ، بتطور الأقوام وترقيها ! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن ! فليحذر الكتاب والقارئون هذا المزلق الخطير ! ! !

فأما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكي ينذر به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل مكة ـ أم القرى ـ وما حولها :

« ولتنذر أم القرى ومن حولها » ..

وسميت مكة أم القرى ، لأنها تضم بيت الله الذى هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك ؛ وجعله مثابة أمن للناس وللأحياء جميعا ؛ ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض ، ولم تكن دعوة عامة من قبل ؛ وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة ، ليعودوا إلى البيت الذى خرجت منه الدعوة !

وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها . فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماكان يقصد فى أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها . وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذى ماكان خياله يطمح فى أول الأمر إلى أ[وس]ع منه ؛ فتوسع فى الجزيرة كلها ، ثم هم أن يتخطاها . . لمصادفات لم يكن فى أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة ، وقيام دولته بها ! .. وكذبوا .. ففى القرآن المكى ، وفى أوائل الدعوة ، قال الله سبحانه لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . . . (الأنبياء : ١٠٧) .. « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ... (سبأ : ٢٨) ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة فى شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء !

« والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون » ..

Marfat.com

فالذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحسابا وجزاء ، يؤمنون بأن الله لابد مرسل للناس رسولا يوحى إليه ؛ ولا يجدون فى نفوسهم مشقة فى التصديق به ؛ بل إنهم ليجدون داعيا يدعوهم إلى هذا التصديق . كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلاتهم ، ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله ؛ وليقوموا بطاعته ممثلة فى الصلاة .. فهى طبيعة نفس .. متى صدقت بالآخرة واستيقنتها ، صدقت بهذا الكتاب وتنزيله ، وحرصت على الصلة بالله وطاعته .. وملاحظة نماذج النفوس البشرية تصدق فى الواقع هذا الكلام الصادق بذاته .

* * *

ويختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد حى شاخص متحرك مكروب رعيب .. مشهد الظالمين .. (أى المشركين) الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحى إليهم ادعاء لا حقيقة له ، أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن .. مشهد هؤلاء الظالمين - الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا ظلم - وهم فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم . والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شىء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال : أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ، ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ؟ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون » . .

وقد ورد عن قتادة وابن عباس - رضى الله عنهم - أن الآية نزلت فى مسيلمة الكذاب وسجاح بنت الحارث زوجته والأسود العنسى ؛ وهم الذين تنبأوا فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وادعوا أن الله أوحى إليهم . أما الذى قال سأنزل مثلما أنزل الله - أو قال أوحى إلى كذلك - ففى رواية عن ابن عباس أنه عبد الله ابن سعد ابن أبى سرح ، وكان أسلم وكتب الوحى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه لما نزلت الآية التى فى « المؤمنون » : « ولقد

Marfat.com

خلقنا الإنسان من سلالة من طين » دعاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأملاها عليه . فلما انتهى إلى قوله : « ثم أنشأناه خلقا آخر » عجب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان فقال : « تبارك الله أحسن الخالقين » . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هكذا أنزلت علىّ » .. فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلى كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال ! فارتد عن الإسلام ، ولحق بالمشركين . فذلك قوله : « ومن قال : سأنزل مثلما أنزل الله » .. (رواه الكلبي عن ابن عباس) ..

والمشهد الذى يرسمه السياق فى جزاء هؤلاء الظالمين (أى المشركين) مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون فى غمرات الموت وسكراته ـ ولفظ غمرات يلقى ظله للمكروب ـ والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب :

« ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون » . .

وجزاء الاستكبار العذاب المهين ، وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح .. وكله مما يضفى على المشهد ظلالا مكروبة ، تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق !

ثم فى النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذى كذبوا عليه ، وها هم أولاء بين يديه ، يواجههم فى موقف الكربة والضيق :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » !

فما معكم إلا ذواتكم مجردة ؛ ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفرادا لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفرادا ، ينزل أحدكم من بطن أمه فردا عريان أجرد علبان !

ولقد ند عنكم كل شيء ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه :

« وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » ..

تركتم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ، ولا تقدرون منه على قليل أو كثير !

Marfat.com

« وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » ..

هؤلاء الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم في الشدائد ، وكنتم تشركونهم في حياتكم وأموالكم ، وتقولون : إنهم سيكونون عند الله شفعاءكم (كالذى كانوا يقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ! ») سواء كانوا ناسا من البشر كهانا أو ذوى سلطان ؛ أو كانوا تماثيل من الحجر ، أو أوثانا ، أو جناً أو ملائكة ، أو كواكب أو غيرها مما يرمزون به إلى الآلهة الزائفة ، ويجعلون له شركا في حياتهم وأموالهم وأولادهم كما سيجيء في السورة .

فأين ؟ أين ذهب الشركاء والشفعاء ؟

« لقد تقطع بينكم » ..

تقطع كل شيء . كل ما كان موصولا . كل سبب وكل حبل !

« وضل عنكم ما كنتم تزعمون » . .

وغاب عنكم كل ما كنتم تدعونه من شتى الدعاوى . ومنها أولئك الشركاء ، ومالهم من شفاعة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب !

إنه المشهد الذى يهز القلب البشرى هزا عنيفا . وهو يشخص ويتحرك ؛ ويلقى ظلاله على النفس ، ويسكب إيحاءاته في القلب ، ظلاله الرعيبة المكروبة ، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة . .

إنه القرآن . . إنه القرآن . .

« إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا . ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ

Marfat.com

منهُ حبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ـ وَخَلَقَهُمْ !ـ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

« قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ .

« وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ، وَلِيَقُولُوا : دَرَسْتَ ، وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

« اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ * وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ . كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ، فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا . قُلْ : إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ . وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ نهاية الجزء السابع] .

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

Marfat.com

نحن فى حاجة إلى أن نستحضر هنا كل ما قلناه من وصف هـذه الـورة عند التعريف بها . . فى حاجة لأن نستحضر ما قلناه عن تدافع الموجات المتلاحقة فى المجرى المتدفق ؛ وعن الروعة الباهرة ، التى يصل إليها التعبير والتصو ر والإيقاع من سياقها :

« وهذه السورة تعالج موضوعها الأساسى بصورة فريدة . . إنها فى كل لمحة منها ، وفى كل موقف ، وفى كل مشهد ، تمثل « الروعة الباهرة » .. الروعة التى تبده النفس ، وتشده الحس ، وتبهر النفس أيضا ، وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهورا !

... « وهى أشبه فى سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال ، بمجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . لا تـكاد الموجة تصل إلى قرارها ، حتى تجد الموجة التالية ملاحقة لها ، متشابكة معها ، فى المجرى المتصل المتدفق .

« وهى فى كل موجة من هـذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابـكة ، تبلغ حد الروعة الباهرة التى وصفنا . . مع تناسق منهج العرض فى شتى المشاهد . . وتأخذ على النفس أقطارها الروعة الباهرة ، وبالحيوية الدافقة ، وبالإيقاع التصويرى والتعبيرى والموسيقى ، وبالتجمع والاحتشاد ، ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة » .

. . . الخ . . . الخ . . (1)

إن هذه السمات كلها تتجلى فى هذا الدرس ، على أتمها وأوفاها . . إن القارىء يحس كأنما المشاهد تنبثق انبثاقا هى ومدلولاتها فى التماع ولألاء . وهى تتدافع فى انبثاقها أمام الحس ، كما تتدافع إيقاعات التعبير اللفظى عنها لتتناسق معها . والمشاهد والتعبير يتوافيان كذلك مع المدلولات التى يعبران عنها ، ويهدفان إليها !

إن كل مشهد من هذه المشاهد كأنما هو انبثاقة لامعة رائعة تجىء من المجهول ! وتتجلى للحواس والقلب والعقل فى بهاء أخاذ ..

والعبارة ذاتها كأنمـا هى انبثاقة كذلك ! وإيقاع العبارة يتناسق فى بهاء مع المشهد ومع المدلول . يتناسق معه فى قوة الانبثاق ، وفى شدة اللألاء .

وتتدفق المدلولات والمشاهد والعبارات فى موجات متلاحقة ، يتابعها الحس فى بهر ا

---

(1) ص ٩٤ ، ٩٦ فى هذا الجزء .

Marfat.com

وما يكاد يصل مع الموجة إلى قرارها حتى يجد نفسه مندفعا مرة أخرى مع موجة جديدة .. كالذى حاولنا أن نصف به السورة فى مطالعها من قبل !

وصفحة الوجود بجملها مفتوحة . والمشاهد تتوالى — وكدت أقول : تتواثب — من هنا ومن هناك فى الصفحة الفسيحة الأرجاء ..

والجمال هو السمة البارزة هنا .. الجمال الذى يبلغ حد الروعة الباهرة .. المشاهد منتقاة وملتقطة من الزاوية الجمالية . والعبارات كذلك فى بنائها اللفظى الإيقاعى ، وفى دلالتها . والمدلولات أيضا — على كل ما تزخر به الحقيقة الأصيلة فى هذه العقيدة — تتناول هذه الحقيقة من الزاوية الجمالية .. فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنما تتلألأ فى بهاء !

ومما يوحى بالسمت الجمالى السابغ ذلك التوجيه الربانى إلى تملى الجمال فى ازدهار الحياة وازدهائها : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » .. فهو التوجيه المباشر إلى الجمال الباهر .. للنظر والتملى والاستمتاع الواعى (١) .

ثم ينتهى هذا الجمال إلى ذروته التى تروع وتبهر فى ختام الاستعراض الكونى الحى ، حين يصل إلى ماوراء هذا الكون الجميل البهيج الرائع .. إلى بديع السماوات والأرض الذى أودع الوجود كل هذه البدائع .. فيتحدث عنه — سبحانه — حديثا لا تنقل روعته إلا العبارة القرآنية بذاتها : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » ..

وبعد ، فنحن — فى هذا الدرس — أمام كتاب الكون المفتوح ، الذى يمر به الغافلون فى كل لحظة . فلا يقفون أمام خوارقه وآياته ، ويمر به المطموسون فلا تتفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه .. وها هو ذا النسق القرآنى العجيب يرتاد بنا هذا الوجود ، كأنما نهبط إليه اللحظة ؛ فيقفنا أمام معالمه العجيبة ، ويفتح أعيننا على مشاهده الباهرة ، ويثير تطلعنا إلى بدائعه التى يمر عليها الغافلون غافلين !

هاهو ذا يقفنا أمام الخارقة المعجزة التى تقع فى كل لحظة من الليل والنهار .. خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذا الموات الهامد .. لا ندرى كيف انبثقت ، ولا ندرى من أين

---

(١) يراجع بتوسع فصل « الجمال فى التصور الإسلامى » وفصل : « مشاهد الطبيعة فى القرآن » فى كتاب : « منهج الفن الإسلامى لمحمد قطب » .

Marfat.com

جاءت - إلا أنهما جاءت من عند الله وانبثقت بقدر من الله . لا يقدر بشر على إدراك كنهها بله ابتداعها !

وهاهو ذا يقف بنا أمام دورة الفلك العجيبة . . الدورة الهائلة الدائبة الدقيقة . . وهي خارقة لا يعدلها شيء مما يطلبه الناس من الخوارق .. وهي تتم في كل يوم وليلة . بل تتم في كل ثانية ولحظة ..

وهاهو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة البشرية .. من نفس واحدة .. وأمام تكاثرها بتلك الطريقة .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة في النبات .. وأمام مشاهد الأمطار الهاطلة ، والزروع النامية ، والثمار اليانعة . وهي حشد من الحيوات والمشاهد ، ومجال للتأمل والريادة . لو نشاهدها بالحس المتوفز والقلب المتفتح .

وهاهو ذا الوجود كله ، جديدا كأنما نراه أول مرة . حيا يعاطفنا ونعاطفه ، متحركا تدب الحركة في أوصاله ، عجيبا يشده الحواس والمشاعر . ناطقا بذاته عن خالقه . دالا بآياته على تفرده وقدرته ..

وعندئذ يبدو الشرك بالله - والسياق يواجه الشرك والمشركين بهذا الاستعراض - غريبا غريبا على فطرة هذا الوجود وطبيعته . وشأنها شأنها في ضمير من يشاهد هذا الوجود الحافل بدلائل الهدى ويتأمله . وتسقط حجة الشرك والمشركين ، في مواجهة هذا الإيمان الغامر في مجالى الوجود العجيب . .

والمنهج القرآني - في خطاب الكينونة البشرية بحقيقة الألوهية ؛ وفي بيانه لموقف العبودية منها ؛ يجعل حقيقة الخلق والإنشاء للكون ، وحقيقة الخلق والإنشاء للحياة ، وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذي ييسره لها الله في ملكه ، وحقيقة السلطان الذي يخلق ويرزق ويتصرف في عالم الأسباب بلا شريك .. يجعل من هذه الحقائق مؤثرا موحيا . وبرهانا قويا على ضرورة مايدعو إليه البشر : من العبودية لله وحده ، وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحده .. وكذلك يجيء في السياق - بعد استعراض صفحة الوجود ؛ وانكشاف حقيقة الخلق والإنشاء والرزق والكفالة والسلطان - الدعوة إلى عبادة الله وحده ، أي إلى إفراده

Marfat.com

سبحانه بالألوهية وخصائصها ، فى حياة العباد كلها ؛ وجعل الحاكمية والتحاكم إليه وحده فى شؤون الحياة كافة ، واستنكار ادعاء الألوهية أو إحدى خصائصها .

وكذلك نجد فى هذا الدرس قوله تعالى : « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل » .. نموذجا للمنهج القرآنى فى ربط العبادة الخالصة ، بإفراد الألوهية لله وحده ، مع تقرير أنه ـ سبحانه ـ « خالق كل شيء » .. « وهو على كل شيء وكيل » ..

وفى نهاية الدرس ـ وبعد عرض هذه الآيات فى صفحة الوجود كله ـ يكشف عن تفاهة طلب الخوارق ، كما يكشف عن طبيعة المكذبين المعاندة ، التى لا تتخلف عن الإيمان لنقص فى الآيات والدلائل ؛ ولكن لطبع فيها مطموس ! وإلا فهذه الآيات تزحم الوجود .

* * *

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ » ..

إنها المعجزة التى لا يدرى سرها أحد ؛ فضلا على أن يملك صنعها أحد ! (١) معجزة الحياة نشأة وحركة .. وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية ، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة فى الحبة والنواة ، النامية فى النبتة والشجرة ، سر مكنون ، لا يعلم حقيقته إلا الله ؛ ولا يعلم مصدره إلا الله .. وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها .. تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية فى طريقها . والمعجزة تقع فى كل لحظة !!!

ومنذ البدء أخرج الله الحى من الميت . فقد كان هذا الكون ـ أو على الأقل كانت هذه الأرض ـ ولم يكن هناك حياة .. ثم كانت الحياة .. أخرجها الله من الموات .. كيف ؟ لا ندرى ! وهى منذ ذلك الحين تخرج من الميت؛ فتتحول الذرات الميتة فى كل لحظة ـ عن طريق الأحياء ـ

(١) يطنطن الماديون بأنه أمكن تحضير بعض المواد التى لم يكن يمكن تحضيرها إلا فى تفاعلات كائن حى .. والفرق بين المادة العضوية والمادة الحية كبير .. كما أن هذه المادة المحضرة إنما صنعت من مواد مخلوقة ولم يخلقها البشر ، ولا يستطيعون !

Marfat.com

إلى مواد عضوية حية تدخل فى كيان الأجسام الحية ؛ وتتحول ـ وأصلها ذرات ميتة ـ إلى خلايا حية .. والعكس كذلك .. ففى كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة ؛ إلى أن يتحول الكائن الحى كله ذات يوم إلى ذرات ميتة !

« يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى » ..

ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك .. لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموات . ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحى بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة .. فى دورة لم يعلم أحد يقينا بمدمق بدأت ، ولا كيف تتم .. وإن هى إلا فروض ونظريات واحتمالات !!!

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة ، على غير أساس أنها من خلق الله .. ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة فى أوربا .. « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ! » .. وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة ، بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله .. ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا .. ولم تبق منها فى القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد ، ولا تدل على الإخلاص !

وأقوال بعض « علمائهم » الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله ، تصور حقيقة موقف « علمهم » نفسه من هذه القضية . ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يتتابون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين ، عازفين عن هذا الدين ، لأنه يثبت « الغيب » وهم « علميون ! » لا « غيبيون » !..

ونختار لهم هؤلاء العلماء من « أمريكا » !!!

يقول « فرانك ألان » . (ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا) فى مقال: نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ؟ من كتاب : « الله يتجلى فى عصر العلم » .. ترجمة الدكتور : الدمرداش عبد المجيد سرحان .

.. « فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق ، فلابد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة . فما هى تلك المصادفة إذن ؟ حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟

Marfat.com

« إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حينما انعدم الحكم الصحيح المطلق . وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب ـ مع تقدير احتمال الخطأ فى هذا الحكم ـ ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا ، حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر ، التى نقول : إنها تحدث بالمصادفة ، والتى لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر فى لعبة النرد) . وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة (١) ، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى مدى معين من الزمان . . وانتظر الآن إلى الدور الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة :

« إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية . وهى تتكون من خمسة عناصر ؛ هى : الكربون ، والأدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت . . ويبلغ عدد الذرات فى الجزىء الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيموية فى الطبيعة ٩٢ عنصرا ، موزعة كلها توزيعا عشوائيا (٢) ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة ، لكى تكون جزيئا من جزيئات البروتين ، يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطا مستمرا لكى تؤلف هذا الجزىء ؛ ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد .

« وقد قام العالم الرياضى السويسرى تشارلز يوجين جاى بحساب هذه العوامل جميعا ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزىء بروتينى واحد ، إلا بنسبة ١ إلى ١٠ ^١٦٠ ،

(١) نحن بتصورنا الإسلامى لا نعرف أن هناك « مصادفة » واحدة فى هذا الوجود . وإنما هو قدر الله يخلق به كل شىء : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وهناك سنن مطردة للوجود هى النواميس . وفى كل مرة تنفذ فيها السنة فإنها تنفذ بقدر ـ بدون جبرية آلية ، وكذلك يقع أن يجرى قدر الله بالخارقة لتلك النواميس ـ فى ظروف معينة لحكمة خاصة ـ فالقانون العام والخارقة كلاهما يمر بقدر خاص فى كل مرة يجرى فيها . . ونحن حين نقتطف من حديث « العلماء » فإن هذا لا يعنى الموافقة على كل ما يقولونه .

(٢) وهذه ـ كذلك ـ واحدة من خبط « العلماء » فليس هنالك توزيع عشوائى . . إنما هنالك توزيع مرسوم بقدر معلوم !

Marfat.com

أى بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبا فى نفسه ١٦٠ مرة . وهو رقم لايمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات.. وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزىء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .. ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها - عن طريق المصادفة - بلايين لاتحصى من السنوات ، قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين (١٠ ^٢٤٣^ سنة) .

« إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية . فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى ، غير التى تتآلف بها ، تصير غير صالحة للحياة. بل تصير فى بعض الأحيان سموما . وقد حسب العالم الانجليزى : ج . ب . ليثز J, B. Seather الطرق التى يمكن أن تتآلف بها الذرات فى أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين (١٠ ^٤٨^) . وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكى تبنى جزيئا بروتينيا واحدا .

« ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولاتدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب ، الذى لا ندرى من كنهه شيئا ، إنه العقل اللانهائى[1] . وهو الله وحده ، الذى استطاع أن يدرك[2] بالغ حكمته ، أن مثل هذا الجزىء البروتينى يصلح لأن يكون مستقرا للحياة ، فبناه وصوره ، وأغدق عليه سر الحياة » . .

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة إيوى وأخصائى فى وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) فى مقال : « المادية وحدها لاتكفى » من الكتاب نفسه :

« إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية فى صغرها والتى لا يحصيها عد ، وهى التى تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا - بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكوّن الحياة . ولاشك أن النظرية التى تدعى أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقى بسبب

---

(١) هذا التعبير « العقل اللانهائى » راسب من رواسب الفلسفة . يستخدمه الرجل لأنه من رواسب ثقافته ! والمسلم لا يعبر عن الله - سبحانه - إلا بما سمى به نفسه من أسمائه الحسنى .

(٢) وهذه كذلك !!!

Marfat.com

حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والعجائب .. تقول : إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم . فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع !(١) »

ويقول : « ألبرت ما كومب ونشستر » (متخصص فى علم الأحياء دكتوراه من جامعة تكساس . أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور ...) فى مقال : « العلوم تدعم إيمانى بالله » من الكتاب نفسه :

« ... وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء . وهو من الميادين العلمية الفسيحة التى تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التى تسكن هذا الكون .

« انظر إلى نبات برسيم ضئيل . وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظيرا فى روعته بين جميع ماصنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آلة حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار ، بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ؛ ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم ــ وهو المادة التى تدخل فى تركيب جميع الكائنات الحية .

« فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها ، ولكنه خلق الحياة ، وجعلها قادرة على صيانة نفسها ، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل ، مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التى تعيننا على التمييز بين نبات وآخر .. إن دراسة التكاثر فى الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء ، وأكثرها إظهارا لقدرة الله .. إن الخلية التناسلية التى ينتج عنها النبات الجديد ، تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر . ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات : كل عرق ، وكل شعيرة ، وكل فرع على ساق ، وكل جذر أو ورقة ، يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا ، فاستطاعوا العيش داخل الخلية التى ينشأ منها النبات .. تلك الفئة من المهندسين هى فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة (٢)) .

وفى هذا القدر كفاية لنعود إلى الجمال للشرق فى سياق القرآن :

---

(١) وقد أشار فى مقال من قبل إلى قول برتراند رسل بنشأة الحياة مصادفة وزوالها كذلك بجبرية آلية !
(٢) بإذن الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وبقدر الله الذى تتم به كل حركة فى الوجود كله ..

Marfat.com

« ذلكم الله ربكم » ..

مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر .. هو الله .. وهو ربكم الذى يستحق أن تدينوا له وحده .. بالعبودية والخضوع والاتباع (١) .

« فأنى تؤفكون ؟ » ..

فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون !

إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيرا فى القرآن الكريم - كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء - فى معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية ، وآثارها الدالة على وحدة الخالق ، لينتهى منها إلى ضرورة وحدة المعبود ، الذى يدين له العباد ؛ بالاعتقاد فى ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده ، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والتلقى منه وحده فى منهج الحياة كله ، والدينونة لشريعته كذلك وحدها ..

وهذه الدلائل لا تذكر فى القرآن الكريم فى صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية ! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر فى قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية . إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر - بإعطائهم العقيدة الصحيحة - لينتهى إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة .

وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة العباد . وإلا أن تكون الدينونة فى الحياة الدنيا ، وفى شئون الحياة اليومية لله وحده ، وإلا أن يخرج الناس من سلطان المتسلطين ، الذين يدعون حق الألوهية ، فيزاولون الحاكمية فى حياة البشر ، ويصبحون آلهة زائفة وأربابا كثيرة ؛ فتفسد الحياة ، حين يستعبد الناس فيها لغير الله !

ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة :

« ذلكم الله ربكم فأنى تؤفكون » ..

ذلكم الله الذى يستحق الربوبية فيكم . . والرب هو المربى والموجه والسيد والحاكم . . ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله . .

---

(١) يراجع كلمة « الرب » فى كتاب : « المصطلحات الأربعة فى القرآن » للسيد أبى الأعلى المودودى، أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

« فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا . ذلك تقدير العزيز العليم » . .

إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضا ، وهو الذى جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركتها مقدرة دوراتهما .. مقدرا ذلك كله بقدرته التى تهيمن على كل شىء ، وبعلمه الذى يحيط بكل شىء .

وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه فى شكلها انفلاق الحبة والنواة .. وانبثاق النور فى تلك الحركة ، كانبثاق البرعم فى هذه الحركة . . وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة ، ملحوظة فى التعبير عن الحقائق المشتركة فى طبيعتهما وحقيقتها كذلك ..

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى . . إن الإصباح والإمساء ، والحركة والسكون ، فى هذا الكون ــ أو فى هذه الأرض ــ ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة .

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ؛ وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض ؛ وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة ... هى تقديرات من «العزيز» ذى السلطان القادر « العليم » ذى العلم الشامل . . ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة فى الأرض على هذا النحو ، ولما انبثق النبت والشجر ، من الحب والنوى ..

إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة ، ودرجة هذه الحياة ، ونوع هذه الحياة . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه ــ وحتى مايسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب ..

والذين يقولون : إن هذه الحياة فلتة عابرة فى الكون . وأن الكون لا يحفلها . بل يبدو أنه يعاديها . وأن ضآلة الكوكب الذى قام عليه هذا النوع من الحياة توحى بهذا كله . بل يقول بعضهم : إن هذه الضآلة توحى بأنه لو كان للكون إله ماعنى نفسه بهذه الحياة ! ... إلى آخر ذلك اللغو ، الذى يسمونه أحيانا « علما » ! ويسمونه أحيانا « فلسفة » ! وهو لا يستأهل حتى مناقشته !

Marfat.com

إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة فى نفوسهم ؛ ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التى تفرض نفسها عليهم ! ويقرأ لهم الإنسان فيجد كأنما هم هاربون من مواجهة حقيقة قرروا سلفا ألا يواجهوها ! . . إنهم هاربون من الله الذى تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة فى كل اتجاه ! وكلما سلكوا طريقا يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله فى نهايتها ، فعادوا فى ذعر إلى سكة أخرى . ليواجهوا الله – سبحانه – فى نهايتها كذلك !

إنهم مساكين ! بائسون ! لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذى تستذل به الرقاب . . فروا « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » . . ثم مازالوا فى فرارهم التقليدى حتى أوائل هذا القرن . . دون أن يتلفتوا وراءهم ليروا إن كانت الكنيسة مازال تتابعهم . أم انقطعت منها[1] – كما انقطعت منهم – الأنفاس .

إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضا . . فإلى أين الفرار ؟ . .

يقول « فرانك ألن » العالم الطبيعى الذى اقتطفنا فقرات من مقاله فى الفقرة السابقة عن نشأة الحياة :

« إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صورا عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية . فالأرض كرة معلقة فى الفضاء تدور حول نفسها ، فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار ، وهى تسبح حول الشمس مرة فى كل عام ، فيكون فى ذلك تتابع الفصول ، الذى يؤدى بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة . ويحيط بالأرض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ، ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل) .

« ويبلغ هذا الغلاف الغازى من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا ، منقضة بسرعة ثلاثين ميلا فى الثانية . والغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها فى الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطرا يحيي الأرض بعد موتها . والمطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة . ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن فى الطبيعة » . .

(١) يراجع فصل : « الفصام النكد » فى كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

Marfat.com

إن الأدلة « العلمية » تتكاثر فى وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزا كاملا عن تعليل نشأة الحياة ، بما يلزم لهذه النشأة ـ وللنمو والبقاء والتنوع بعدها ـ من موافقات لا تحصى فى تصميم الكون . . منها هذه الموافقات التى ذكرها العالم الطبيعى السابق ، ووراءها من نوعها كثير . فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم . الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . والذى خلق كل شىء فقدره تقديرا . .

* * *

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . .

تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه . تتمة لعرض المشهد الكونى الهائل الرائع مرتبطا بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم :

« لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » . .

وما أكثر ظلمات البر والبحر التى يهتدى فيها البشر بالنجوم . . كانوا كذلك ومازالون . . تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة .. وتبقى القاعدة ثابتة : قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام فى ظلمات البر والبحر . . سواء فى ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر . . ويبقى النص القرآنى الجامع يخاطب البشرية فى مدارجها الأولى بهذه الحقيقة ، فتجد مصداقها فى واقع حياتها الذى تزاوله . ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار فى الأنفس والآفاق . فتجدها كذلك مصداق قوله فى واقع حياتها الذى تزاوله . .

وتبقى مزية للمنهج القرآنى فى مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية ، لا فى صورة « نظرية » ولكن فى صورة « واقعية » .. صورة تتجلى من ورائها يد المبدع ، وتقديره ، ورحمته ، وتدبيره . صورة مؤثرة فى العقل والقلب ، موحية للبصيرة والوعى ، دافعة إلى التدبر والتذكر ، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة .. لذلك يعقب على آية النجوم التى جعلها الله للناس ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر هذا التعقيب الموحى :

« قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . .

Marfat.com

فالاهتـداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعهـا ومداراتها ... كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم .. فالاهتداء ـ كما قلنا ـ هو الاهتداء فى الظلمات الحسية الواقعية ، وفى ظلمات العقل والضمير .. والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسى ، ثم لا يصلون مابين دلالتها ومبدعها ، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى ؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه ، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم ..

* * *

« وهو الذى أنشأكم من نفس واحـدة ، فمستقر ومستودع . قد فصلنـا الآيات لقوم يفقهون » ..

إنهـا اللمسة المباشرة فى هـذه المرة . . اللمسة فى ذات النفس البشرية . النفس البشرية الواحدة الوحدة الكنه والحقيقة فى الذكر والأنثى (١) . تبدأ الحياة فيهـا خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفس هى مستودع لهذه الخلية فى صلب الرجل ، ونفس هى مستقر لها فى رحم الأنثى .. ثم تأخذ الحياة فى النمو والانتشار . فإذا أجناس وألوان ؛ وإذا شيات ولغات ؛ وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التى لا تحصى ، والأنماط التى ماتزال تتنوع مادامت الحياة .

« قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » ..

فالفقه هنا ضرورى لإدراك صنع الله فى هـذه النفس الواحـدة ، التى تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث ـ فى عالم الإنسان ـ لتتم عملية التزاوج التى قدر الله أن تكون هى وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفـال فى ظروف تحفظ « إنسانيتهم » وتجعلهم أكفاء للحياة « الإنسانية » !

ولا نملك هنا فى الظلال أن نبعد فى عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها لجلاء هذه الموافقات ـ فهى فى حاجة إلى بحث متخصص (٢) ـ ولكننا نذكر فقط كيفية نشأة النطفة ذكرا أو أنثى

---

(١) لم أجد ـ فيما قرأت ـ أثراً إسلامياً معتمداً لقصة خلق حواء من آدم . وهو الذى يفسر به أحياناً قوله تعالى « من نفس واحدة » .. والظاهر لى أنها نفس واحدة لاتحاد الذكر والأنثى فى الكنه والحقيقة.

(٢) يراجع فصل : « حقيقة الحياة » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

Marfat.com

وكيف يتم عن طريق التوزيع الغيبي الرباني إنتاج القدر الكافي من الذكور ومن الإناث دائما لكي تتوافر الأعداد المناسبة لبقاء الحياة وامتدادها ..

ولقد ذكرنا من قبل عند تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » .. أن الذي يقرر صيرورة البويضة الملقحة ذكرا أو أنثى ، هو أن يجري قدر الله بأن يكون عدد كروموسومات الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة يرجح كروموسومات التذكير على كروموسومات التأنيث أو العكس ، وأن جريان القدر بهذا أو ذاك غيب من غيب الله . لا سلطان لأحد عليه إلا الله ..

هذا القدَر الذي يجريه الله في كل مرة ، فيهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، يحافظ على توازن دائم في الأرض كلها بين عدد من يجري بهم ليكونوا إناثا ، وعدد من يجري بهم ليكونوا ذكورا . فلا يقع اختلال - على مستوى البشرية كلها - في هذا التوازن . الذي عن طريقه يتم الإخصاب والإكثار ؛ وتتم به حياة زوجية مستقرة في الوقت ذاته . . ذلك أن الإخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور . . ولكن الله قدر في الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأنثى ؛ إنما الغاية - التي تميز الإنسان من الحيوان - هي استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأنثى . . لما وراء هذا الاستقرار من أهداف لا تتم إلا به . وأهمها استقرار الذرية في كنف أبوين في محيط أسرة ، ليتم إعداد هذه الذرية لدورها « الإنساني » الخاص - فوق إعدادها لتحصيل القوت وحماية النفس كالحيوان - والدور « الإنساني » الخاص يحتاج إلى الاستقرار بين أبوين في أسرة فترة أطول جدا مما تحتاج إليه طفولة الحيوان (١) !

وهذه الموازنة الدائمة تكفي وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره .. ولكن لقوم يفقهون :

« قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » ..

أما المطموسون المحجوبون .. وفي أولهم أصحاب « العلمية » الذين يسخرون من « الغيبية » .

---

(١) يراجع بتوسع كتاب « الحجاب » للأستاذ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان . كما تراجع الظلال : الجزء الخامس : ص ١١ - ١٤

Marfat.com

فإنهم يمرون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين : « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها »

* * *

ثم يمضى السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض . تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب . وترى فيها بدائع صنع الله . . والسياق يعرضها - كما هى فى صفحة الكون - ويلفت إليها النظر فى شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ، وشتى أنواعها ؛ ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية ، ودلالة على القدرة التى تبدع الحياة ؛ كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال :

« وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء . فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . .

والماء كثيرا ما يذكر فى القرآن فى صدد ذكر الحياة والإنبات .

« هو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء » . .

ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم . . ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يخاطب به القرآن الناس عامة . فقد شارك الماء ابتداء - بتقدير الله - فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات (إذا صحت النظريات التى تفترض أن سطح الأرض كان فى فترة ملتهبا ، ثم صلبا لا توجد فيه التربة التى تنبت الزرع . ثم تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة) ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة ، وذلك بإسقاط (النتروجين - الأزوت) من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية ، التى تقع فى الجو ، النتروجين الصالح للذوبان فى الماء ويسقط مع المطر ، ليعيد الخصوبة إلى الأرض .. وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه ، فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التى تخلو وجه الأرض من النبات لو نفدت من التربة !

« فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب . والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » . .

وكل نبت يبدأ أخضر . واللفظ «خضر» أرق ظلا ، وأعمق ألفة من لفظ «أخضر» . .

Marfat.com

هذا النبت الخضر « يخرج منه حبا متراكبا » . . كالسنابل وأمثالها . « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » . . وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير . وفى النخلة هو العذق الذى يحمل الثمر . ولفظة « قنوان » ووصفها « دانية » يشتركان فى إلقاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . « وجنات من أعناب » . . « والزيتون والرمان » . . هذا النبات كله بفصائله وسلالاته ـ « مشتبها وغير متشابه » ـ « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » . . انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ . . انظروا إليه فى ازدهاره ، وازدهائه ، عند كمال نضجه . انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . لا يقول هنا ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، ولكن يقول : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ، لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر فى آيات الله ، وبدائع صنعته فى مجالى الحياة (١) .

« إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » . .

فالإيمان هو الذى يفتح القلب ، وينير البصيرة ، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة فى الفطرة ، ويصل الكائن الإنسانى بالوجود ، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع . . وإلا فإن هناك قلوبا مغلقة ، وبصائر مطموسة ، وفطرا منتكسة ، تمر بهذا الإبداع كله ، وبهذه الآيات كلها ، فلا تحس بها ولا تستجيب . . « إنما يستجيب الذين يسمعون » ، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون !

* * *

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشرى صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته ، وتدبيره . وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية . وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض فى كل حى ، الناطق ببديع صنع الخلاق . . عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب غريب فى هذا الجو المؤمن الموصول بمبدع الوجود . ويعرض أوهام المشركين فإذا هى سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعان ما يعقب عليها بالاستنكار . والجو كله مهيأ للاستنكار :

« وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » . .

(١) يراجع فصل « الطبيعة فى القرآن » فى كتاب : « منهج الفن الإسلامى » لمحمد قطب .

Marfat.com

وقد كان بعض مشركي العرب يعبدون الجن .. وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انساقت فى انحرافها إلى أى مدى ؛ وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل . . دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة . . ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد . . ولا بد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرا .. ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع .. الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله .. وهم من خلقه سبحانه :

« وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ » !

ولقد عرفت الوثنيات المتعددة فى الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة ـ تشبه فكرة الشياطين ـ وخافوا هذه الكائنات ـ سواء كانت أرواحا شريرة أو ذوات شريرة ـ وقدموا لها القرابين اتقاء لشرها ؛ ثم عبدوها !

والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التى وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، فى صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله [1] .. سبحانه ..

والسياق القرآنى يواجههم بسخف هذا الاعتقاد .. يواجههم بكلمة واحدة :

« وخلقهم » ..

وهى لفظة واحدة ، ولكنها تكفى للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذى « خلقهم » فكيف يكونون شركاء له فى الألوهية والربوبية ؟ !

ولم تكن تلك وحدها دعواهم . فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف . بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات :

« وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » ..

و « خرقوا » أى : اختلقوا .. وفى لفظها جرس خاص وظل خاص ؛ يرسم مشهد الطلوع بالفرية التى تخرق وتشق !

خرقوا له بنين : عند اليهود : عزير . وعند النصارى : المسيح : وخرقوا له بنات . عند المشركين : الملائكة . وقد زعموا أنهم إناث .. ولا يدرى أحد طبعا لماذا هم إناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم . . فكلها « بغير علم » ..

---

(١) قال الكلبى فى كتاب الأصنام : « كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن » .

Marfat.com

« سبحانه وتعالى عما يصفون ! » ..

ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة :

« بديع السماوات والأرض . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة . وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم » ..

إن الذى يبدع هذا الوجود إبداعا من العدم ما تكون حاجته إلى الخلف ؟! والخلف إنما هو امتداد الفانين ، وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون !

ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر . . أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه .. فكيف يكون لله ولد ـ وليست له صاحبة ـ وهو ـ سبحانه ـ مفرد أحد ، ليس كمثله شيء . فأنى يكون النسل بلا تزاوج ؟!

وهى حقيقة ، ولكنها تواجه مستواهم التصورى ؛ وتخاطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم !

ويتكىء السياق ـ فى مواجهتهم ـ على حقيقة « الخلق » لنفى كل ظل للشرك . فالمخلوق لا يكون أبدا شريكا للخالق . وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق : كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون :

« وخلق كل شيء » ..

« وهو بكل شيء عليم » ..

* * *

وكما واجههم السياق القرآنى بحقيقة أن الله « خلق كل شيء » ، ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن لله ـ سبحانه ـ بنين وبنات ، أو أن له شركاء الجن ـ وهو خلقهم ـ فإنه يتكىء على هذه الحقيقة مرة أخرى . لتقرير أن الذى يعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء ، فلا إله إذن غيره ، ولارب إذن سواه :

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ؛ فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل » ..

إن تفرد الله سبحانه بالخلق ، يفرده سبحانه بالملك . والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق . فهو خالق خلقه ومالكهم ، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذى ليس لأحد شرك فيه . فكل مايقتاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله .. فإذا تقررت هذه الحقائق .. الخلق والملك والرزق .. تقرر معها ـ ضرورةً وحتما ـ أن تكون الربوبية له

Marfat.com

سبحانه . فتكون له وحده خصائص الربوبية ــ وهى القوامة والتوجيه والسلطان الذى يُخضع له ويطاع ، والنظام الذى يتجمع عليه العباد [1]ــ وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها . ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام .

ولم يكن العرب ــ فى جاهليتهم ــ ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون ، وخالق الناس ، ورازقهم كذلك من ملكه ، الذى ليس وراءه ملك تفتات منه العباد !.. وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق ــ على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق ! ــ ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التى تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الإغريق . . لذلك لم يكن الإسلام يواجه فى الجاهلية العربية إلا الانحراف فى التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة ــ مع الله ــ على سبيل الزلفى والقربى من الله ! ــ وإلا الانحراف فى تلقى الشرائع والتقاليد التى تحكم حياة الناس .. أى أنه لم يكن يواجه الإلحاد فى وجود الله ــ سبحانه ــ كما يقول اليوم « ناس»! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير !

والحق أن هؤلاء الذين يجادلون فى وجود الله اليوم قلة . وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسى هو ذاته الذى كان فى الجاهلية . وهو تلقى الشرائع فى شؤون الحياة من غير الله . . وهذا هو الشرك التقليدى الأساسى الذى قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضا !

والقلة الشاذة التى تجادل فى وجود الله اليوم لا تعتمد على «العلم» وإن كانت هذه دعواها . فالعلم البشرى ذاته لا يملك أن يقرر هذا الإلحاد ولا يجد عليه دليلا لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون . . إنما هى لوثة سببها الأول الشرود من الكنيسة وإلهها الذى كانت تستذل به الرقاب من غير أصل من الدين .. ثم نقص فى التكوين الفطرى لهؤلاء المجادلين ، ينشأ عنه تعطل فى الوظائف الأساسية للكينونة البشرية . . كما يقع للأمساخ من المخلوقات [2] ..!

ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه ــ كحقيقة انبثاق الحياة أيضا ــ لم تكن تساق فى القرآن لإثبات وجود الله ــ إذ كان الجدال فى وجوده تعالى سخفا لا يستحق من جدية القرآن العناية به ــ إنما كانت تساق لرد الناس إلى الرشاد ، كى ينفذوا فى حياتهم ماتقتضيه تلك

---

(1) يراجع كتاب : « المصطلحات الأربعة فى القرآن » للأستاذ أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان : فصول : الألوهية والربوبية والعبادة .

(2) يراجع بتوسع فصل : « ألوهية وعبودية » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الثانى .

Marfat.com

الحقيقة من ضرورة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية في حياتهم كلها ؛ وعبادته وحده بلا شريك ..

مع هذا فإن حقيقة الخلق والتقدير فيه ـ كحقيقة انبثاق الحياة أيضا ـ تقذف في وجوه الذين يجادلون في الله ـ سبحانه ـ بالحجة الدامغة التي لا يملكون بإزائها إلا المراء . وإلا التبجح الذي يصل إلى حد الاستهتار في كثير من الأحيان !

« جوليان هاكسلي » مؤلف كتاب : « الإنسان يقوم وحده » وكتاب « الإنسان في العالم الحديث » [(١)] من هؤلاء المتبجحين المستهترين ؛ وهو يقذف بالمقررات التي لا سند لها إلا هواه وهو يقول في كتاب « الإنسان في العالم الحديث » ؛ في فصل : « الدين كمسألة موضوعية » ذلك الكلام !

« ولقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضا عديم الفائدة ، وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا ، حتى اختفى كحاكم مدبر للكون ، وأصبح مجرد « أول سبب » أو أساسا عاما غامضا » .

و« ول ديورانت » مؤلف كتاب « مباهج الفلسفة » [(٢)] يقول : إن الفلسفة تبحث عن الله ، ولكنه ليس « إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة . بل إله الفلاسفة ؛ وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته » .. وهو كلام لا تستطيع إمساكه ! ولكنه كلام يقال !

ونحن لا نحاكم هؤلاء الخابطين في الظلام إلى قرآننا ، ولا نحاكمهم كذلك إلى عقولنا المنضبطة بهدى هذا القرآن . إنما نحكمهم إلى أندادهم من « العلماء » وإلى العلم البشرى الذى يواجه هذه القضية بشيء من الجد والتعقل ..

يقول جون كليفلاند كوثران : (من علماء الكيمياء والرياضة . دكتوراه من جامعة كورنيل . رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث) . من مقال : « النتيجة الحتمية » من كتاب : « الله يتجلى في عصر العلم » :

« فهل يتصور عاقل ، أو يفكر ، أو يعتقد ، أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ، ثم فرضته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا . بل إن المادة عندما تتحول إلى

(١) عالم أحياء انجليزى معاصر من المشتغلين بالداروينية الحديثة . (٢) متفلسف أمريكى معاصر .

Marfat.com

طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فمن كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة . وللمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة التي وجدت قبلها .

« وتدلنا الكيميا على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ؛ ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية . ومعنى ذلك أيضا أنها ليست أزلية . إذ أن لها بداية . وتدل الشواهد من الكيميا وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد . وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لابد أن يكون مخلوقا . وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان [1] .

« فإذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي – كما في ممارسة الطب والعلاج السيكولوجي – دون أن يكون هنالك إرادة . ولابد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا . . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ؛ ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود، تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله ، خالق هذا الكون وموجهه – كما أشرنا إلى ذلك في بداية المقال . »

« إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ، ماقاله من قبل ، من أننا إذا فكرنا تفكيرا عميقا ، فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله » . .

ويقول فرانك ألين عالم الطبيعة البيولوجية في مقال « نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد » من الكتاب نفسه :

« كثيرا مايقال : إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق . ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ؟ . . هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا

(١) سبق أن قررنا أن نتائج العلوم كلها ظنية . ونحن لا نتخذ من هذا القول حجة على صدق الإسلام، إنما نحن نواجه به من يركنون للعلم ويحتجون به !

Marfat.com

السؤال: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ـ وهو مايتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده ـ وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم . وإما أن يكون أزليا ليس لنشأته بداية . وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس ، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لايعدو أن يكون وهما من الأوهام ، ليس له ظل من الحقيقة . ولقد عاد إلى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيرا سير جيمس جينز[1] ، الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي ، وأنه مجرد صورة في أذهاننا . وتبعا لهذا الرأي نستطيع أن نقول : إننا نعيش في عالم من الأوهام ! فمثلا هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلا خيالات ؛ وبها ركاب وهميون ، وتعبر أنهارا لا وجود لها ، وتسير فوق جسور غير مادية ... الخ . وهو رأي وهمي لايحتاج إلى مناقشة أو جدال !

« أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم ، بما فيه من مادة وطاقة ، قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لايقل عن سابقه سخفا وحماقة ؛ ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة .

« والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية[2] ، إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون ـ وذلك في عنصر واحد هو الأزلية ـ وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت ، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق ، وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر . ولكن قوانين « الديناميكا الحرارية » تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة حتما[3] إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض ، هي الصفر المطلق ؛ ويومئذ تنعدم الطاقة ، وتستحيل الحياة . ولامناص من حدوث هذه الحالة[3] من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق ، بمضي الوقت . أما الشمس

---

(١) عالم طبيعي رياضي انجليزي معاصر ، وهو مؤلف كتاب : « الكون الغامض » المترجم إلى اللغة العربية .. ورأيه هذا ليس هو أول من قال به . فقد سبق في فلسفة أفلاطون ؛ ثم استغرق حوالي ١٥٠ سنة من الجدل بين المدارس الفلسفية ! وخاصة بين « المثالية » و « الوضعية » .. وما يزالون مختلفين !

(٢) وهو رأي الوضعيين والمذاهب المادية جملة من قديم . وكذلك الهندوكية والبوذية !

(٣) هذه التوكيدات الحتمية لم يعد منطق العلم البشري ذاته يحتملها . وقوانين الديناميكا الحرارية ليست يقيناً . إنما هي نظرية في تفسير الكون . وقد تدخل عليها تعديلات غداً . وقد يظهر بطلانها من أساسها . ونحن كما قلنا لا نتخذ من العلم برهاناً على صحة الإسلام ، ولا مصدقاً لمقرراته . إنما نحن نواجه بهذه النتائج « العلمية » من يحسبون العلم إلهاً .. فهذا قول الهم الذي يثقون به تفق جوليان ها كسلي !

Marfat.com

المستعرة ، والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث .. ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلى ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه » .

* * *

الله - سبحانه - خالق كل شيء . لا إله إلا هو . .

هذه هي القاعدة التي يقيم عليها السياق القرآني هنا وجوب عبادة الله وحده . ووجوب ربوبيته وحده - بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة :

« ذلكم الله ربكم . لا إله إلا هو : خالق كل شيء . فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل » ..

فهي القوامة لا على البشر وحدهم ، ولكن على كل شيء كذلك . بما أنه هو خالق كل شيء . . . وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التي لم يكن المشركون - في جاهليتهم - يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها . وهو : الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك ..

* * *

ثم تعبير عن صفة الله سبحانه ، يغشى الجوانح والحنايا بظلال ما أحسب أن لغة البشر تملك لها وصفا ، فلندعها تلقى ظلالها في شفافية وإين ؛ وترسم المشهد الذي يغلف فيه ما يهول ويروع من صفة الله ، بما يطمئن ويروح ، ويشف شفافية النور :

« لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » ..

إن الذين كانوا يطلبون في سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون في سماجة دليلا ماديا على الله ! هؤلاء وهؤلاء لايدركون ماذا يقولون !

إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك .. كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون ، والقيام بالخلافة في الأرض .. وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق .. فأما ذات الله - سبحانه - فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها . لأنه لا طاقة للحادث الفاني أن يرى الأزلى الأبدى . فضلا على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض . وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها..

Marfat.com

وقد يفهم الإنسان سذاجة الأولين . ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين ! إن هؤلاء يتحدثون عن «الذرة» وعن «الكهرب» وعن «البروتون» وعن «النيوترون» . . وواحد منهم لم ير ذرة ولا كهربا ولا بروتونا ولا نيوترونا في حياته قط . فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذي يضبط هذه الكائنات . . ولكنها مسلمة من هؤلاء ، كفرض ، ومصداق هذا الفرض أن يقدروا آثارا معينة تقع لوجود هذه الكائنات . فإذا وقعت هذه الآثار (جزموا) بوجود الكائنات التي أحدثتها ! بينما قصارى ماتصل إليه هذه التجربة هو « احتمال » وجود هذه الكائنات على الصفة التي افترضوها ! . . ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله — سبحانه — عن طريق آثار هذا الوجود التي تفرض نفسها فرضا على العقول ! يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويطلبون دليلا ماديا تراه الأعين . . كأن هذا الوجود بجملته ، وكأن هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفي لتكون هذا الدليل !

* * *

وكذلك يعقب السياق القرآني على ماعرضه من آيات في صفحة الوجود وفي مكنونات النفوس . وعلى تقريره عن ذات الله سبحانه بأنه :

« لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

يعقب السياق على هذا الوصف الذي لا تملك لغة البشر أن تشرحه أو تصفه .. بقوله :

«قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ» . .

فهذا الذي جاء من عند الله . . بصائر . . والبصائر تهدي وتهدي . . وهذا بذاته . . بصائر . . تهدي . فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور . وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . معطل الحواس . مغلق المشاعر . مطموس الضمير . .

ويوجه النبي — صلى الله عليه وسلم — أن يعلن براءته من أمرهم ومغبته :

« وما أنا عليكم بحفيظ » . .

ولا يفوتنا أن نلمح التناسق في الجو والظلال والعبارة بين قوله في الآية السابقة : في صفة الله سبحانه : «لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .. وبين قوله

Marfat.com

فى الآية اللاحقة : « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » .. واستخدام الأبصار والبصائر ، والبصر والعمى ، فى السياق المتناسق المتناغم ..

***

بعد ذلك يلتفت السياق إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيتحدث عن تصريف الآيات على هذا المستوى ، الذى لا يتناسب مع أمية النبى - صلى الله عليه وسلم - وبيئته ؛ والذى يدل بذاته على مصدره الربانى - لمن تتفتح بصيرته - ولكن المشركين ما كانوا يريدون الاقتناع بالآيات . ومن ثم كانوا يقولون : إن محمدا درس هذه القضايا العقيدية والكونية مع أحد أهل الكتاب ! ومادروا أن أهل الكتاب ما كانوا يعلمون شيئاً على هذا المستوى الذى يحدثهم محمد فيه ؛ وما كان أهل الأرض جميعا - وما يزالون - يبلغون شيئاً من هذا المستوى السامق على كل ماعرف البشر وما يعرفون . ومن ثم يوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى اتباع ما أوحى إليه والإعراض عن المشركين :

« وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا : درست ، ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذى لا عهد للعرب به ؛ لأنه ليس نابعا من بيئتهم - كما أنه ليس نابعا من البيئة البشرية على العموم - فينتهى هذا التصريف إلى نتيجتين متقابلتين فى البيئة :

فأما الذين لا يريدون الهدى ، ولا يرغبون فى العلم ، ولا يجاهدون ليبلغوا الحقيقة .. فهؤلاء سيحاولون أن يجدوا تعليلا لهذا المستوى الذى يخاطبهم به محمد - وهو منهم - وسيختلقون مايعلمون أنه لم يقع . فما كان شيء من حياة محمد خافيا عليهم قبل الرسالة ولا بعدها .. ولكنهم يقولون : درست هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلمته منهم ! وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شيئا على هذا المستوى .. وهذه كتب أهل الكتاب التى كانت بين أيديهم يومذاك ماتزال بين أيدينا . والمسافة شاسعة شاسعة بين هذا الذى فى أيديهم وهذا القرآن الكريم .. إن ما بين أيديهم إن هو إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك مشوبة بأساطير وخرافات

Marfat.com

من صنع أشخاص مجهولين ـ هذا فيما يختص بالعهد القديم ـ فأما العهد الجديد ـ وهو الأناجيل ـ فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ للمسيح ـ عليه السلام ـ بعد عشرات السنين ؛ وتداولتها الجامع بالتحريف والتبديل والتعديل على ممر السنين . وحتى المواعظ الخلقية والتوجيهات الروحية لم تسلم من التحريف والإضافة والنسيان . وهذا هو الذى كان بين أيدى أهل الكتاب حينذاك ، ومايزال .. فأين هذا كله من القرآن الكريم ؟! ولكن المشركين ـ فى جاهليتهم ـ كانوا يقولون هذا ؛ وأعجب العجب أن جاهلين فى هذا العصر من « المستشرقين » و « المتمسلمين » ! يقولون هذا القول فيسمى الآن « علماً » و « بحثا » و « تحقيقا » لا يبلغه إلا المستشرقون !

فأما الذين « يعلمون » حقا ، فإن تصريف الآيات على هذا النحو يؤدى إلى بيان الحق لهم فيعرفونه :

« ولنبينه لقوم يعلمون » ..

ثم تقع المفاصلة بين قوم مبصرين يعلمون ، وقوم عمى لا يعلمون !

ويصدر الأمر العلوى للنبى الكريم ، وقد صرف الله الآيات ، فافترق الناس فى مواجهتها فريقين .. يصدر الأمر العلوى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتبع ماأوحى إليه ، وأن يعرض عن المشركين ، فلا يحفلهم ولا يحفل مايقولون من قول متهافت ، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم . فإنما سبيله أن يتبع ماأوحى إليه من ربه ؛ فيصوغ حياته كلها على أساسه ؛ ويصوغ نفوس أتباعه كذلك . ولا عليه من المشركين ؛ فإنما هو يتبع وحى الله ، الذى لا إله إلا هو ، فماذا عليه من العبيد ؟!

« اتبع ماأوحى إليك من ربك لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين » ..

ولو شاء الله أن يلزمهم الهدى لألزمهم ، ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لايعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم . ولكنه سبحانه خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى والضلال ، وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار ـ فى حدود المشيئة المطلقة التى لا يقع فى الكون إلا ماتجرى به ، ولكنها لا ترغم إنسانا على الهدى أو الضلال ـ وخلقه على هذا النحو لحكمة يعلمها ؛ وليؤدى دوره فى هذا الوجود كما قدره الله له . باستعداداته هذه وتصرفاته :

Marfat.com

« ولو شاء الله ما أشركوا » ..

وليس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسؤولا عن عملهم ، وهو لم يوكل بقلوبهم فالوكيل عليها هو الله :

« وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

وهذا التوجيه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدد المجال الذى يتناوله اهتمام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعمله . كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه فى كل أرض وفى كل جيل ..

إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة ، المعاندين ، الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان .. إنما يجب أن يفرغ قلبه ، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا . فهؤلاء فى حاجة إلى بناء كيانهم كله على القاعدة التى دخلوا الدين عليها .. قاعدة العقيدة .. وفى حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفى حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ؛ وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه .. وهذا كله يحتاج إلى الجهد ويستحق الجهد . فأما الواقفون على الشق الآخر ، فجزاؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ .. وحين ينمو الحق فى ذاته فإن الله يجرى سنته ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. إن على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق فى صورته الصادقة الكاملة ، فإن شأن الباطل هين ، وعمره كذلك قريب !

***

ومع أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإعراض عن المشركين ، فقد وجه المؤمنين إلى أن يكون هذا الإعراض فى أدب ، وفى وقار ، وفى ترفع ، يليق بالمؤمنين .. لقد أمروا ألا يسبوا آلهة المشركين مخافة أن يحمل هذا أولئك المشركين على سب الله سبحانه ـ وهم لا يعلمون جلال قدره وعظيم مقامه ـ فيكون سب المؤمنين لآلهتهم المهينة الحقيرة ذريعة لسب الله الجليل العظيم :

« ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون » .

Marfat.com

إن الطبيعة التي خلق الله الناس بها ، أن كل من عمل عملا ، فإنه يستحسنه ، ويدافع عنه ! فإن كان يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسنا ، وإن كان على الضلال رآه حسنا كذلك ! فهذه طبيعة فى الإنسان . . وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء . . مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق . . ولكن إذا سب المسلمون آلهتهم هؤلاء اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهية الله ، دفاعا عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ! . . فليدعهم المؤمنون لما هم فيه :

« ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » . .

وهو أدب يليق بالمؤمن ، المطمئن لدينه ، الواثق من الحق الذى هو عليه . الهادئ القلب ، الذى لايدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور . فإن سب آلهتهم لا يؤدى بهم إلى الهدى ولا يزيدهم إلا عنادا . فما للمؤمنين وهذا الذى لا جدوى وراءه . وإنما قد يجرهم إلى سماع ما يكرهونه . من سب المشركين لربهم الجليل العظيم ؟ !

* * *

وأخيرا يختم هذا الدرس ، الذى استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق ، فى كل لحظة من ليل أو نهار . . يختمه بأن هؤلاء المشركين يقسمون بالله جهد أيمانهم أن لوجاءتهم آية — أى خارقة مادية كخوارق الرسل السابقة — ليؤمنن بها ! الأمر الذى جعل بعض المسلمين حين سمعوا أيمانهم يقترحون على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يسأل ربه هذه الآية التى يطلبون ! .. ويجىء الرد الحاسم على المؤمنين ، ببيان طبيعة التكذيب فى هؤلاء المكذبين :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل : إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ؟ . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ماكانوا ليؤمنوا — إلا أن يشاء الله — ولكن أكثرهم يجهلون » . .

Marfat.com

إن القلب الذى لايؤمن بآيات الله المبثوثة فى هذا الوجود - بعد توجيهه إليها على هذاالنحو العجيب الذى تكفل به هذا الكتاب العجيب - ولا توحى آيات الله المبثوثة فى الأنفس والآفاق إليه أن يبادر إلى ربه ، ويثوب إلى كنفه .. إن هذاالقلب هوقلب مقلوب .. والذى عاق هؤلاء عن الإيمان فى أول الأمر ، ما الذى يُدرى المسلمين الذين يقترحون إجابة طلبهم ، أن يعوقهم عن الإيمان بعد ظهور الخارقة ؟ إن الله هو الذى يعلم حقيقة هذه القلوب . وهو يذر المكذبين فى طغيانهم يعمهون ، لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ؛ كما يعلم عنهم أنهم لايستجيبون .. لايستجيبون ولو نزل إليهم الملائكة كما يقترحون ! ولو بعث لهم الموتى يكلمونهم - كما اقترحوا كذلك ! - ولو حشر الله عليهم كل شىء فى هذا الوجود يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان ! .. إنهم لا يؤمنون - إلا أن يشاء الله - والله سبحانه لايشاء ، لأنهم هم لايجاهدون فى الله ليهديهم الله إليه . . وهذه هى الحقيقة التى يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب ..

إنه ليس الذى ينقص الذين يلجون فى الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين .. إنما الذى ينقصهم آفة فى القلب ، وعطل فى الفطرة ، وانطماس فى الضمير ..

وإن الهدى جزاء لايستحقه إلا الذين يتجهون إليه ، والذين يجاهدون فيه ..

انتهى الجزء السابع
ويليه الجزء الثامن مبدوءا بقوله تعالى :
« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة »

Marfat.com

فی ظلال القرآن

بقلم

سید قطب

الجزء الثامن

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية سورة الأنعام وأول سورة الأعراف

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء الثامن مؤلف من شطرين : الشطر الأول هو بقية سورة الأنعام ـ التى سبق شطرها الأول فى الجزء السابع ـ والشطر الثانى هو من سورة الأعراف ..

ولقد سبق التعريف بسورة الأنعام فى الجزء السابع ؛ وسنحاول هنا أن نصل قارىء هذا الجزء بالتعريف الذى تضمنه ذلك الجزء . أما الكلام عن سورة الأعراف فسيجىء فى موضعه ـ إن شاء الله ـ عندما نواجه السورة .

* * *

تمضى بقية سورة الأنعام على منهج السورة الذى أوضحناه فى التعريف بها فى الجزء السابع. والذى يحسن أن نشير إليه ملخصا فى فقرات مجملة :

جاء فى التعريف بالسورة هذه الفقرات :

« إنها ـ فى جملتها ـ تعرض « حقيقة الألوهية » . تعرضها فى مجالى الكون والحياة . كما تعرضها فى مجالى النفس والضمير .. وتعرضها فى مجاهيل هذا الكون المشهود ، كما تعرضها فى مجاهيل ذلك الغيب المكنون . . وتعرضها فى النشأة الكونية ، والنشأة الحيوية ، والنشأة الإنسانية ؛ كما تعرضها فى مصارع الغابرين ، واستخلاف المستخلفين . . وتعرضها فى مشاهد الفطرة وهى تواجه الكون، وتواجه الأحداث ، وتواجه النعماء والضراء ؛ كما تعرضها فى مظاهر القدرة الإلهية والهيمنة فى حياة البشر الظاهرة والمستكنة ، وفى أحوالهم الواقعة والمتوقعة .. وأخيرا تعرضها فى مشاهد القيامة ، ومواقف الخلائق ، وهى موقوفة على ربها الخالق ...

« هكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى هذه الآماد والآفاق ، وفى هذه الأغوار والأعماق .. ولكنها تمضى فى هذا كله على منهج القرآن المكى ـ الذى أسلفنا الحديث عنه فى

Marfat.com

الصفحات السابقة (١) ـ وعلى منهج القرآن كله .. إنها لاتهدف إلى تصوير « نظرية » فى العقيدة ، ولا إلى جدل لاهوتى يشغل الأذهان والأفكار . . إنما تهدف إلى تعريف الناس بربهم الحق ، لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق.. تعبيد ضمائرهم وأرواحهم، وتعبيد سعيهم وحركتهم ، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم، وتعبيد واقعهم كله لهذا السلطان المتفرد.. سلطان الله الذى لا سلطان غيره فى الأرض ولا فى السماء .

« ويكاد اتجاه السورة كله يمضى إلى هذا الهدف المحدد .. من أولها إلى آخرها .. فالله هو الخالق . والله هو الرازق ، والله هو المالك . والله هو صاحب القدرة والقهر والسلطان . والله هو العليم بالغيوب والأسرار . والله هو الذى يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار .. وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم فى حياة العباد ؛ وألا يكون لغيره أمر ولا نهى ، ولا شرع ولا حكم ، ولا تحليل ولا تحريم .. فهذا كله من خصائص الألوهية ، ولا يجوز أن يزاوله فى حياة الناس أحد من دون الله ، لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يمنح ولا يمنع ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. وسياق السورة يسوق على هذه القضية أدلته فى تلك المشاهد والمواقف والإيقاعات البالغة حد الروعة الباهرة ، والتى تواجه القلب بالحشود الحاشدة من المؤثرات الموحية ، من كل درب ومن كل باب !

« والقضية الكبرى التى تعالجها السورة هى قضية « الألوهية والعبودية » فى السماوات والأرض فى محيطها الواسع ، وفى مجالها الشامل .. ولكن المناسبة الحاضرة فى حياة الجماعة المسلمة حينذاك .. المناسبة التطبيقية لهذه القاعدة الكبيرة الشاملة .. هى ما تزاوله الجاهلية من حق التحريم والتحليل فى الذبائح والطاعم ؛ ومن حق تقرير الشعائر فى النذور من الذبائح والثمار .. والأولاد .. وهى المناسبة التى تتحدث عنها هذه الآيات فى أواخر السورة :

« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم ـ إلا ما اضطررتم إليه ـ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن

(١) إشارة إلى ما سبق فى التعريف بالقرآن المكى جملة فى الجزء السابع : ص ٧٧ ـ ٩٠ .

Marfat.com

الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لشركون ... (١١٨ - ١٢١)

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم . إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ... (١٣٦ - ١٤٠) .

« هذه هى المناسبة الحاضرة فى حياة الأمة المسلمة - والجاهلية من حولها - التى تتمثل فيها تلك القضية الكبيرة .. قضية التشريع والحاكمية .. ومن ورائها القضية الكبرى .. قضية الألوهية والعبودية التى تواجهها السورة كلها ، ويعالجها القرآن المكى كله ، كما يعالجها القرآن المدنى أيضا ، كلما جاء ذكر النظام فيه وذكر التشريع .

« والحشد الذى يتدفق به سياق السورة من التقريرات والمؤثرات ، وهو يواجه الجاهلية وأهلها فى أمر هذه الأنعام والذبائح والنذور - وهى المناسبة التى تتمثل فيها قضية حق الحاكمية والتشريع - وربطها بقضية العقيدة كلها .. قضية الألوهية والعبودية .. وجعلها مسألة إيمان أو كفر ، ومسألة إسلام أو جاهلية . . هذا الحشد - على هذا النحو الذى سنحاول أن نستعرض نماذج منه فى هذا التعريف المختصر بالسورة ، والذى سيتجلى على حقيقته فى المواجهة التفصيلية للنصوص فى السياق بعد ذلك - يوقع فى النفس تلك الحقيقة الأصيلة فى طبيعة هذا الدين . وهى أن كل جزئية صغيرة فى الحياة الإنسانية يجب أن تخضع خضوعا مطلقا لحاكمية الله المباشرة الممثلة فى شريعته . وإلا فهو الخروج من هذا الدين جملة ، من أجل الخروج على حاكمية الله المطلقة فى تلك الجزئية الصغيرة .

« كذلك يدل ذلك الحشد على مدى الأهمية التى ينوطها هذا الدين بتخليص مظهر الحياة كله

Marfat.com

من ظلال حاكمية البشر في أي شأن من شؤون البشر - جل أم حقر ، كبر أم صغر - وربط أي شأن من هذه الشؤون بالأصل الكبير الذي يتمثل فيه هذا الدين .. وهو حاكمية الله المطلقة التي تتمثل فيها ألوهيته في الأرض ، كما تتمثل ألوهيته في الكون كله بتصريف أمر هذا الكون كله بلا شريك [1] ..

* * *

هذه الناحية التي كانت حاضرة في حياة الأمة المسلمة - والجاهلية من حولها - والتي عالجها سياق السورة على هذا النحو الذي سبقت الإشارة إليه في هذه المقتطفات .. هي هي موضوع بقية السورة التي سنعالجها في هذا الجزء . بعدما مضى الشطر الأول من السورة في عرض قضية الألوهية والعبودية في محيطها الشامل ؛ وانتهى السياق إلى مواجهة هذه الناحية الواقعية ، فربط بينها وبين القضية الكبرى ، ذلك الربط القوي المباشر .

إن السياق القرآني يحشد - لمواجهة تلك التقاليد الجاهلية في تحريم بعض المطاعم وتحليل بعضها ؛ وفي النذور من الثمار والأنعام والأولاد - حشدا ضخما من المؤثرات والتقريرات ؛ ويربطها بجملة من الحقائق والقواعد ، هي حقائق هذا الدين وقواعده الأساسية ؛ ويقدم لها ويعقب عليها تقدمات ضخمة وتعقيبات هائلة ؛ مما يدل على الأهمية البالغة التي ينوطها هذا الدين، بتخليص الحياة كلها من قبضة الجاهلية ؛ وردها بجملتها إلى الإسلام . . أي إلى سلطان الله وحده . .

وهكذا يبدأ السياق بتقدمة لهذه القضية عن إحاطة مشيئة الله بالعباد جميعا : جنهم وإنسهم . وجريان الأحداث في هذه العوالم بمشيئته وقدره ؛ واستدراجه لأعداء الرسل من شياطين الإنس والجن ؛ وإمهاله لهم ، ليقترفوا ما هم مقترفون ؛ ولو شاء الله لقهرهم على الهدى ولكفهم عن الضلال قهرا أو لهداهم إلى الحق وشرح صدورهم له . أو لكفهم عن أذى الرسل والمؤمنين فلم يصلوا إليهم . فهم لايعادون الرسل ، ولا يقترفون ما يقترفون ، خروجا على سلطان الله ومشيئته؛ فهم أعجز من أن يخرجوا على سلطان الله ومشيئته . إنما هي مشيئة الله اقتضت أن يترك لهم الخيار والقدرة على الهدى وعلى الضلال ؛ وهم في قبضته على كل حال : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا

(١) ص ٩٨ - ٩٩ من الجزء السابع .

Marfat.com

شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون » ..

فإذا تقرر أن عداء شياطين الإنس والجن للرسل سنة يجرى بها قدر الله . وأن هؤلاء الشياطين، على كل ما يرتكبونه ، هم فى قبضة الله . استنكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبتغى « حكما » غير الله .. هكذا على الإطلاق ، فى أى شأن وفى أى أمر .. ذلك أن تحكيم غير الله فى شأن هذه المطاعم هو كالتحكيم لغير الله فى كل شأن . وهو إقامة ربوبية غير ربوبية الله ينكرها رسول الله .. وأعقب ذلك تقرير أن كلمة ربه قد تمت بهذا الكتاب وبهذه الشريعة فلم يعد هناك قول لقائل ، ولا حكم لبشر . وحذر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يطيع البشر فى دين الله ؛ فإن أكثرهم لا يتبعون إلا الظن ؛ ولا علم عندهم يستيقن ؛ ومن يطعهم يضلوه . والله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده .. وكان ذلك كله تمهيداً للأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه إن كان المسلمون مؤمنين ، والنهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه . وتحذيرهم أن يطيعوا أولياء الشياطين فى شىء من التحليل والتحريم . وإلا فهم مثلهم مشركون : وأنهيت الفقرة ببيان عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، والدوافع التى تدفع بالكافرين إلى هذا الذى يقترفون :

« أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .. فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه - وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون .. ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه - وإنه لفسق - وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون .. أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا

Marfat.com

يعملون . وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ..

ثم يعود السياق فيقرر أن هدى للمهتدين وضلال الضالين .. كلاهما إنما يتم بقدر من الله. وأن هؤلاء كهؤلاء فى قبضة الله وسلطانه ، وفى إطار مشيئته وقدره : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

وينهى هذه الفقرة بتقرير أن مامر من الأمر والنهى ، ومن الاعتقاد والتصور، هو صراط الله المستقيم . فيربط بين ذلك الأمر والنهى وبين أصول الاعتقاد فى مشيئة الله وقدره ، ويجعلها حزمة واحدة . كما يجعلها صراط الله المستقيم الذى يأمر الله العباد أن يسلكوه إليه ، لينتهوا إلى دار السلام والأمن عند ربهم وهو وليهم وناصرهم : « وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم ، وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

ولا تنتهى التعقيبات على مسألة الأمر والنهى فى تناول الذبائح ، حتى يعرض السياق مصير شياطين الإنس والجن الذين يجادلون المؤمنين فى هذه القضية ؛ وهم فى قبضة الله ــ صاحب السلطان وصاحب الحكم فى المصائر ــ وحتى يعرض سلطان الله كذلك فى استخلاف من يستخلف فى هذه الأرض ، والذهاب بمن يريد له أن يذهب . وتهديد من يركب رأسه منهم فى الدنيا ــ بسبب مامنحه الله من حرية فى اختيار طريقه ، ابتلاء من الله واختبارا ــ بانتهاء المهلة ؛ والأخذ بما كسب فى فترة الابتلاء والاختيار : « ويوم يحشرهم جميعا : يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها ــ إلا ما شاء الله ــ إن ربك حكيم عليم . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . يامعشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة ، إن يشأ يذهبكم

Marfat.com

ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين. قل : ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون » ..

بهذا الحشد العجيب من حقائق العقيدة الأساسية ، ومن المشاهد والمواقف والمؤثرات الموحية ؛ ومن تسليط الأضواء على حقائق المشيئة وحقائق الوجود الكونى وحقائق النفس البشرية ؛ والدوافع الظاهرة والخفية فى حياة البشر . ومن التقريرات الشاملة عن سلطان الله فى السماوات والأرض ؛ وفى الدنيا والآخرة ؛ وفى حياة البشر المستترة والظاهرة ... بهذا الحشد كله يواجه المنهج القرآنى ظاهرة واحدة من ظواهر الجاهلية فى الأكل أو عدم الأكل من ذبيحة .. فماذا ؟ .. إنها القضية الأساسية فى هذا الدين .. قضية الحاكمية ولمن تكون .... وبالتعبير المرادف .. قضية الألوهية والربوبية ولمن تكون .. ومن ثم تنال هذه الملابسة الجزئية كل هذا الاحتشاد والتجمع والاحتفال ..

ويمثل هذا الاحتشاد وهذا الاحتفال وهذا التجمع يواجه كذلك مسألة النذور فى الجاهلية من الثمار والأنعام .. والأولاد ..

إن جاهلية العرب لم تكن تجحد الله البتة . ولم تكن تجعل معه إلها آخر يساويه ! ولكنها إنما كانت تجعل معه آلهة ـ من دونه ـ أقل منه منزلة ورتبة ! وكانوا يقولون : إنهم إنما يتخذون من هذه الآلهة شفعاء يقربونهم إلى الله .. وفى هذا كان شركهم . وبهذا كانوا مشركين !

وكان من شركهم كذلك أن يبتدعوا هم من عند أنفسهم ـ يقوم بذلك كهانهم ومشايخهم ـ شرائع وتقاليد فى حياتهم ؛ ثم يزعمون أن الله شرعها لهم ، وأمرهم بها ! .. إنهم لم يكونوا من التبجح فى الشرك بحيث ينسبون هذه الشرائع إلى أنفسهم ؛ ويدعون أن لهم هم سلطة الحاكمية العليا التى يصدرون بها الشرائع مستقلين عن سلطان الله ! لم يكونوا قد عرفوا بعد هذا التبجح الذى عرفه مشركو هذا الزمان ؛ ممن يدعون ـ من دون الله ـ السلطان .. وفى هذا كذلك كان شركهم ؛ وبهذا كانوا مشركين !

من هذه الشرائع والتقاليد التى ابتدعوها وزعموا أنها شريعة الله ما كانوا ينذرونه من الثمار

Marfat.com

والأنعام لله سبحانه ولآلهتهم المدعاة ! ثم يتصرفون بعد ذلك على أهواهم أو على هوى السدنة والكهنة « فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » !

ومنها ما كانوا ينذرونه من أولادهم للآلهة المزعومة ؛ وما كانوا يقتلونه من البنات اتباعا لعرف القبيلة !

ومنها ما كانوا يحجرونه من الأنعام ومن الزروع ؛ لايطعمه إلا من شاء الله ـ وهم الذى يزعمون تحريمها ، وهم كذلك الذين يعينون من هم الذين شاء الله أن يطعموها !

ومنها ما كانوا يحرمون ركوبه من الأنعام . كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى[1] !

ومنها ما كانوا يمنعون أن يذكر اسم الله عليه من الذبائح . زاعمين أن هذا من أمر الله !

ومنها ما كانوا يخصصونه ـ من الحمل الذى فى بطون الأنعام ـ للذكور منهم دون الإناث . إلا إذا نزل ميتاً فيشارك فيه الإناث . . وكانوا يجعلون هذا حراماً وذلك حلالا !

ومنه الميتة التى كانوا يحلونها ويقولون : ذبحها الله . فهى حلال بذبح الله !

والقرآن يواجه هذا كله بحملة كاشفة ؛ يحشد فيها من المقررات الأساسية فى العقيدة ؛ والمشاهد والحقائق المؤثرة ؛ ما يحشده فى مواجهة قضية الشرك والإيمان فى سياق السورة كله . . لأنها هى هى بعينها قضية الشرك والإيمان ، فى صورة تطبيقية واقعة . .

ومن خلال هذه الحملة يتبين أن القضية هى قضية هذا الدين كما هى قضية هذه العقيدة . فهذه التشريعات والتقاليد ، إنما زينها للمشركين شركاؤهم الذين يشرعونها لهم ليدمروا حياتهم ويلبسوا عليهم دينهم . وتلبيس الدين وتدمير الحياة كلاهما مرتبطان . فإما شرع الله فهو الدين الواضح والحياة السليمة ؛ وإما شرع غير الله فهو الدين الغامض والحياة المهددة بالردى :

« وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم » . .

ويتبين أن الشياطين وراء هذا العدول عن شرع الله ودينه ، إلى شرع الشركاء ودينهم . وأن الشيطان وهو العدو المبين يقود خطى المشركين إلى الخسران والتدمير : « كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . .

---

(١) يراجع تعريفها فى سورة المائدة فى الجزء السابع : ص ٥٥ ـ ٥٦ .

Marfat.com

ويتبين أن التحريم والتحليل ـ بغير شرع الله ـ هو والشرك سواء . فهو شرك مثله ، وأن إحالة شيء من هذا كله إلى مشيئة الله القاهرة هو دعوى يدعيها المشركون فى جميع العصور . فقد شاءت إرادة الله أن تعطى الناس قدراً من الاختيار تبتليهم به ؛ ومن ثم فلا قهر على الشرك فى كل صوره ؛ إنما هو الابتلاء ؛ وهم غير مفلتين من قبضة الله على كل حال . « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » .

ثم نجد موقفاً للإشهاد على أن الله حرم هذا الذى يحرمونه ؛ يذكرنا بموقف الإشهاد على قضية الألوهية فى أول السورة . . ذلك أنها قضية واحدة فى الحقيقة . فمزاولة التشريع مزاولة لخصائص الألوهية . . وهى هى بذاتها القضية : « قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » . . ويذكرنا التعبير « يعدلون » هنا بأنه هو بذاته اللفظ الذى استخدم فى قضية الألوهية فى أول السورة . كما ذكرنا فى التعريف بالسورة[1] .

ثم تختم هذه الحملة ببيان أن هذا الذى قرره الله فى قضية التشريع والتقاليد فى الثمار والأنعام والأولاد هو صراط الله المستقيم . . ذات التعبير الذى استخدم من قبل فى قضية تحريم الذبائح وتحليلها . . كما استخدم بذاته فى قضية الألوهية فى أول السورة كما ذكرنا فى التعريف بالسورة : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ولا ينتهى السياق بهذا الحشد الذى اقتطفنا منه هذه الإشارات . . بل يمضى فى طريقه يتحدث عن كتاب موسى الذى جاء لقوم موسى : « تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » وعن هذا الكتاب المبارك الذى نزله الله ليتبعه المسلمون ويتقوا لعلهم يرحمون . ولتنقطع حجتهم بأن الكتاب قد نزل على اليهود والنصارى من قبل . وأنهم هم لم يجئهم

---

(١) الجزء السابع : ص ٧٧ ـ ٩٤ :

Marfat.com

كتاب يفصل لهم كل شيء . فيعرفوا ما شرعه الله حقاً ؛ وما يقال لهم إنه من شرع الله افتراء !

يتبع هذا تهديد الذين لا يتبعون ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويبقون على ما هم عليه من شرائع جاهلية ينسبونها إلى الله افتراء عليه ، ويتعللون بطلب الخوارق التي تحملهم على التصديق والاتباع . . تهديدهم بأن هذه الخوارق التي يطلبونها ستكون يوم تجيء هي فصل الخطاب ؛ حيث يتبعها الدمار والهلاك : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ؟ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا . قل : انتظروا إنا منتظرون » . .

ثم مفاصلة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والدين الذي جاء به والأمة المسلمة ؛ وبين أولئك الذين يحلون ويحرمون بغير شرع الله ؛ ويشترعون لأنفسهم ثم يزعمون أنها شريعة الله: « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء . إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » . . هكذا واضحة صريحة : « لست منهم في شيء » . .

وفي ختام السياق كله - السياق الذي واجه قضية الشرع والحكم هذه المواجهة بمناسبة تبدو في ظاهرها جزئية - يجيء الإيقاع الشامل لقضية العقيدة بجملتها ؛ ولقضية الدين برمتها . . العقيدة المستكنة في القلب والضمير . والدين الذي يترجم هذه العقيدة إلى نظام ومنهج للحياة: « قل : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين - لا شريك له - وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ؟ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم »

إنها جملة قضايا العقيدة والدين : في الدنيا والآخرة . في المحيا والممات . في العمل والجزاء . في العبادة والسلوك . . كلها يجمعها المنهج الرباني ليعقب بها في ذلك الإيقاع الجليل الرهيب الحبيب ، على قضية الحاكمية والتشريع ، ممثلة في أبسط مظاهرها في الحياة اليومية

Marfat.com

ومطاعمها ومشاربها ! ذلك أنها هى قضية الألوهيــة والربوبية فى أضخم مجالاتها وأخطر مواقفها ..

.. وهذا هو الإسلام . كما يعرضه مصدره الربانى الـكريم ..

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

«وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)

الآية الأولى تـكملة لفقرة سابقة فى السياق ـ فى نهاية الجزء السابع ـ ومتعلقة بما كان يقترحه مشركو العرب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخوارق التى يريدون أن يأتى لهم بها فيصدقوه وما كان من حلفهم بالله حلفا مكررا مؤكدا أن لو جاءتهم هذه الآيات التى يطلبون إنهم ليؤمنون ! مما جعل بعض المسلمين أنفسهم يشتهون أن لو يجيبهم الله إلى ما يطلبون ! ويقترحون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل ربه هذه الآيات التى يقترحها المقترحون !

والفقرة كلها جاءت هكذا :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل : إنما الآيات عند الله . ومايشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ـ كما لم يؤمنوا به أول مرة ـ ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا ـ إلا أن يشاء الله ـ ولـكن أكثرهم يجهلون » ..

Marfat.com

ولقد سبق الحديث عن هـذه الآيات فى نهاية الجزء السابع [1] . فالآن نتحدث عن الحقائق العامة التى تتناولها هذه النصوص ؛ والتى لم تتعرض لها هناك فى تفسيرها :

والحقيقة الأولى : هى أن الإيمان أو الكفر . والهدى أو الضلال ... لا تتعلق بالبراهين والأدلة على الحق . فالحق هو برهان ذاته . وله من السلطان على القلب البشرى مايجعله يقبله ويطمئن إليه ويرضخ له .. ولـكنها المعوقات الأخرى هى التى تحول بين القلب والحق ، وهذه المعوقات يقول الله ـ سبحانه ـ للمؤمنين بشأنها :

« وما يشعركم أنها إذا جاءت (أى الآيات والخوارق) لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ..

فما وقع لهم فى أول مرة ومنعهم من الهدى ، يمكن أن يتـكرر وقوعه كذلك ـ بعد نزول الآية ـ فيمنعهم من الهدى كرة أخرى ..

إن موحيات الإيمان كامنة فى القلب ذاته ؛ وفى الحق كذلك بذاته ؛ وليست متعلقة بعوامل خارجيـة . . فيجب أن تتجـه المحاولة إذن إلى ذلك القلب لعلاجه من آفاته ومن معوقاته ..

والحقيقة الثانية : هى أن مشيئة الله هى المرجع الأخير فى أمر الهدى والضلال . فقد اقتضت هذه المشيئة أن تبتلى البشر بقدر من حرية الاختيار والتوجه فى الابتداء ؛ وجعل هذا القدر موضع ابتلاء للبشر وامتحان . فمن استخدمه فى الاتجاه القلبى إلى الهدى والتطلع إليه والرغبة فيه ـ وإن كان لا يعلم حينئذ أين هو ـ فقد اقتضت مشيئة الله أن يأخذ بيده ويعينه ويهديه إلى سبيله . ومن استخدمه فى الرغبة عن الهـدى والصـدود عن دلائله وموحياته ، فقـد اقتضت مشيئة الله أن يضله وأن يبعده عن الطريق وأن يدعه يتخبط فى الظلمات . . وإرادة الله وقدره محيطان بالبشر فى كل حالة ، ومرد الأمر كله إليـه فى النهاية .

وهذه الحقيقة يشير إليها السياق فى قوله تعالى :

---

(١) ص ٣٣٥-٣٣٦ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

« وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ـ كما لم يؤمنوا به أول مرة ـ ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ».

وفى قوله :

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا ـ إلا أن يشاء الله ـ ولكن أكثرهم يجهلون » ..

كما يشير إليها فى آية سابقة على هذه الفقرة فى سياق السورة فى قوله تعالى :

« اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ماأشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

كما تتكرر الإشارة إليها فى الآية التالية لهذه الفقرة .

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ـ ولو شاء ربك مافعلوه ـ فذرهم وما يفترون ... » ..

فالأمر كله مرهون بمشيئة الله ، هو الذى شاء ألا يهديهم لأنهم لم يأخذوا بأسباب الهدى ؛ وهو الذى شاء أن يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء ؛ وهو الذى يهديهم إذا جاهدوا للهدى ؛ وهو الذى يضلهم إذا اختاروا الضلال .. بلا تعارض ـ فى التصور الإسلامى ـ بين طلاقة المشيئة الإلهية وهذا المجال الذى ترك للبشر لابتلائهم فيه بهذا القدر من الاختيار (1).

والحقيقة الثالثة : هى أن الطائعين والعصاة فى قبضة الله سواء ، وتحت قهره وسلطانه سواء . فهم لا يملكون جميعا أن يحدثوا شيئا إلا بقدر الله وفق مشيئته التى جرت بتلك السنن فى تصريف أمر العباد .. ولكن المؤمنين يطابقون ـ فى القدر المتروك لهم للاختيار ـ بين الخضوع القهرى المفروض عليهم لسلطان الله فى ذوات أنفسهم وفى حركة خلاياهم وفى طبائع تكوينهم العضوى النفسى ؛ وبين الخضوع الاختيارى الذى يلتزمونه بأنفسهم بناء على المعرفة والهدى والاختيار . وبذلك يعيشون فى سلام مع أنفسهم ذاتها ، لأن الجانب القهرى فيها والجانب الاختيارى يتبعان ناموسا واحدا وسلطانا واحدا وحكومة واحدة ! فأما الآخرون فهم مقهورون على اتباع ناموس الله الفطرى الذى يقهرهم ولا يملكون أن يخرجوا منه فى تكوينهم الجسمى وحاجاتهم الفطرية ، بينما فى الجانب الذى ترك لهم الاختيار فيه هم ناشزون على سلطان

(1) يراجع فصل : « التوازن » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الأول .

Marfat.com

الله الممثل فى منهجه وشرعه . أشقياء بهذا الفصام فى شخصيتهم ! وهم بعد هذا كله فى قبضة الله لا يعجزونه فى شىء ، ولا يحدثون شيئا إلا بقدره !

وهذه الحقيقة الثالثة ذات أهمية خاصة فى القضايا التى يعرضها الشطر الباقى من السورة . فهى تتكرر فى مواضع متعددة فى صور متنوعة، ذلك أن هذا الشطر كله - كما بينا من قبل - يواجه قضية الألوهية وسلطانها فى حياة البشر وشريعتهم التى يعيشون بها . . ومن ثم يتكئ السياق على تقرير أن السلطان كله لله . حتى فى كيان العصاة الناشزين عن منهج الله وشرعه ، وأنهم لا يؤذون أولياء الله إلا بما شاء الله. فهم أعجز من أن يكون لهم فى ذواتهم سلطان ، فكيف يكون لهم على المؤمنين سلطان ! إنما هى مشيئة الله يكون بها مايشاء فى الطائعين والعصاة سواء .

قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى فى تفسير قوله تعالى :

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا - إلا أن يشاء الله - ولكن أكثرهم يجهلون » . .

(يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - يا محمد آيس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام ، القائلين لك : « لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك » فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك ، ودلالة على نبوتك ، وأخبروهم أنك محق فيما تقول ، وأن ما جئتهم به حق من عند الله ؛ وحشرنا عليهم كل شىء فجعلناهم لك قبلا[1] . ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك - إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم - « ولكن أكثرهم يجهلون » . . يقول : ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك . يحسبون أن الإيمان إليهم ، والكفر بأيديهم ، متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا . وليس ذلك كذلك ، ذلك بيدى . لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضللته) .

وهذا الأصل الذى يقرره ابن جرير هنا هو الصحيح . ولكنه يحتاج إلى زيادة الإيضاح - التى أسلفناها - باستلهام مجموعة النصوص القرآنية عن الهدى والضلالة ومشيئة الله وجهد الإنسان . . إن الإيمان حدث ، والضلال حدث . وما يقع فى هذا الوجود حدث إلا بقدر من الله ينشئه :

(١) يعنى مواجهة .

Marfat.com

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » . فأما السنة التي يجري على أساسها ذلك القدر بوقوع إيمان فلان وضلال فلان ، فهي التي تبينها مجموعة النصوص . وهي أن الإنسان مبتلى بقدر من الاختيار في الاتجاه . فإذا اتجه إلى الهدى وجاهد فيه هداه الله ووقع هداه وتحقق بقدر من الله . وإذا اتجه إلى الضلال وكره الهدى أضله الله . ووقع ضلاله وتحقق بقدر من الله . . وهو على الحالين في قبضة الله وسلطانه . وحياته تجري بقدر الله وفق مشيئته الطليقة ، وسنته التي وضعتها مشيئته الطليقة .

* * *

بعد ذلك تجيء آيتان في سياق السورة ؛ هما من ناحيـة تكملة للمعاني والحقائق التي تستهدفها الفقرة السابقة التي انتهينا من الحديث عنها . ومن ناحية هما تمهيد للقضايا العقيدية المتعلقة بالسلطان والشريعة والحاكمية . وهي القضايا التي تستغرق ما تبقى من السورة . .

الآيتان :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ـ ولو شاء ربك ما فعلوه ـ فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون » .

.. كذلك .. كالذي قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يعلقون إيمانهم بمجيء الخوارق ، ويعرضون عن دلائل الهدى وموحياته في الكون والنفس ، لا يقع منهم الإيمـان ولو جاءتهم كل آية . .

كذلك الذي قدرناه في شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبي عدو هم شياطين الإنس والجن . وقدرنا أن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويرضوه، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل والحق ؛ ومن الضلال والفساد في الأرض . .

كل ذلك إنما جرى بقدر الله ؛ وفق مشيئته . ولو شاء ربك ما فعلوه . ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجرى قدره بغير هذا الذي كان . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة . وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

Marfat.com

فإذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض من المعركة الناشبة التى لاتهدأ بين الرسل والحق الذى معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم .. إذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض إنما يجرى بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغى أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجرى فى الأرض ؟ بعد أن يدرك طبيعة هذا الذى يجرى والقدرة التى وراءه ..

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » ..

بإرادتنا وتقديرنا ، جعلنا لكل نبي عدوا .. هذا العدو هو شياطين الإنس والجن .. والشيطنة وهى التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن . وكما أن الذى يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطانا ؛ فكذلك الذى يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية .. وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضا إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه ! وقد ورد : « الكلب الأسود شيطان » .

هؤلاء الشياطين — من الإنس والجن — الذين قدر الله أن يكونوا عدوا لكل نبي ، يخدع بعضهم بعضا بالقول المزخرف ، الذى يوحيه بعضهم إلى بعض — ومن معانى الوحى التأثير الداخلى الذى ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر — ويغر بعضهم بعضا ، ويحرض بعضهم بعضا على التمرد والغواية والشر والمعصية ..

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا فى هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبي ، وللحق الذى معه ، وللمؤمنين به ، معروفة يملك أن يراها الناس فى كل زمان .

فأما شياطين الجن — والجن كله — فهم غيب من غيب الله ، لانعرف عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .. ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى فى هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة فى الأرض من الأحياء .. نقول من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره فى الحدود التى قررها . فأما أولئك الذين يتترسون « بالعلم » لينكروا مايقرره الله فى هذا الشأن ، فلا ندرى علام يرتكنون؟ إن علمهم البشرى

Marfat.com

لايزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، فى هذا الكوكب الأرضى ! كما أن علمهم هذا لا « يعلم » ماذا فى الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن « يفترضه » أن نوع الحياة الموجود فى الأرض يمكن أو لا يمكن أن يوجد فى بعض الكواكب والنجوم . . وهذا لا يمكن أن ينفى - حتى لو تأكدت الفروض - أن أنواعاً أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى فى الكون لا يعلم هذا « العلم » عنها شيئاً ! فمن التحكم والتبجح أن ينفى أحد باسم « العلم » وجود هذه العوالم الحية الأخرى .

وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ؛ والذى يتشيطن بعضه ويتمحض للشر والغواية - كإبليس وذريته - كما يتشيطن بعض الإنس . . من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم عنه إلا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله - سبحانه - وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار . وأنه مزود بالقدرة على الحياة فى الأرض وفى باطن الأرض وفى خارج الأرض أيضاً . وأنه يملك الحركة فى هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر . وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين . وأنه يرى بنى آدم وبنو آدم لا يرونه - فى هيئته الأصلية - وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بنى الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها . وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى ، وإذا غفل برز فوسوس له ! وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف . وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ؛ ويحاسب ؛ ويجازى بالجنة وبالنار كالجنس الإنسانى . وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبدون خلقاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة !

وفى هذه الآية نعرف أن الله سبحانه قد جعل لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن . .

ولقد كان الله - سبحانه - قادرا - لو شاء - ألا يفعلوا شيئا من هذا . . ألا يتمردوا ؛ وألا يتمحضوا للشر ؛ وألا يعادوا الأنبياء ؛ وألا يؤذوا المؤمنين ؛ وألا يضلوا الناس عن سبيل الله . . كان الله سبحانه قادرا أن يقهرهم قهرا على الهدى ؛ أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ؛ أو أن

Marfat.com

يعجزهم عن التصدى للأنبياء والحق والمؤمنين به . . ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار . وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله ـ بالقدر الذى تقضى به مشيئته ويجرى به قدره ـ وقدر أن يبتلى أولياءه بأذى أعدائه ؛ كما يبتلى أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذى أعطاهم إياه . فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدره الله :

« ولو شاء الله ما فعلوه » . .

فما الذى يخلص لنا من هذه التقريرات ؟

◆ يخلص لنا ابتداء : أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء . . هم « شياطين » ! . . شياطين من الإنس ومن الجن . . وأنهم يؤدون جميعاً ـ شياطين الإنس والجن ـ وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله ، ذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله . .

◆ ويخلص لنا ثانيا : أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم . إنما هم فى قبضة الله . وهو يبتلى بهم أولياءه لأمر يريده . من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذى هم عليه أمناء . فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء . وكف عنهم هؤلاء الأعداء . وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله . وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ؛ وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم :

« ولو شاء الله ما فعلوه » . .

◆ ويخلص لنا ثالثا : أن حكمة الله الخالصة هي التى اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا ـ فهو إنما يبتليهم فى القدر الذى تركه لهم من الاختيار والقدرة ـ وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان ـ فهو إنما يبتلى أولياءه كذلك لينظروا : أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أيخلصون من حظ أنفسهم فى أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء . وفى المنشط والمكره

Marfat.com

سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شىء من هذا الذى كان !

◆ ويخلص لنا رابعا : هوان الشياطين من الإنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم . فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم ؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . . والمؤمن الذى يعلم أن ربه هو الذى يقدر ، وهو الذى يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدّعى . ومن هنا هذا التوجيه العلوى لرسول الله الكريم: « فذرهم وما يفترون » ..

دعهم وافتراءهم . فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم ..

◆ وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين ، وابتلاء المؤمنين . . لقد قدر الله أن يكون هذا العداء ، وأن يكون هذا الإيحاء ، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع . . لحكمة أخرى :

« ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة . وليرضوه ، وليقترفوا ماهم مقترفون »

أى لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة .. فهؤلاء يحصرون همهم كله فى الدنيا . وهم يرون الشياطين فى هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبى ، وينالون بالأذى أتباع كل نبى ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل . فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد . فى ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء ..

وهذا أمر أراده الله كذلك وجرى به قدره . لما وراءه من التمحيص والتجربة . ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ؛ ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس .

ثم لتصلح الحياة بالدفع ؛ ويتميز الحق بالمفاصلة ؛ ويتمحض الخير بالصبر ؛ ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة . . وليجرى الأمر كله وفق مشيئة الله . . أمر أعدائه وأمر أوليائه على السواء .. إنها مشيئة الله ، والله يفعل مايشاء ..

والمشهد الذى يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية ، وكل نبى وأتباعه من ناحية أخرى ؛ ومشيئة الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة . . هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة :

Marfat.com

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر فى هذا الكون .. شياطين الإنس والجن .. تتجمع فى تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة .. هى عداء الحق الممثل فى رسالات الأنبياء وحربه .. خطة مقررة فيها وسائلها .. « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » .. يعد بعضهم بعضا بوسائل الخداع والغواية ؛ وفى الوقت ذاته يغوى بعضهم بعضا ! وهى ظاهرة ملحوظة فى كل تجمع للشر فى حرب الحق وأهله .. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ؛ ويعين بعضهم بعضا على الضلال أيضا ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبدا . ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضى فى المعركة معه طويلا !

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقا .. إنه محاط به بمشيئة الله وقدره .. لا يقدر الشياطين على شىء منه إلا بالقدر الذى يشاؤه الله وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد ـ على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه ـ مقيدا مغلولا ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط . ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع ـ كما يحب الطغاة أن يلقوا فى روع من يعبدونهم من البشر ، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم .. كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله . وقدرتهم محدودة بقدر الله . وما يضرون أولياء الله بشىء إلا بما أراده الله ـ فى حدود الابتلاء ـ ومرد الأمر كله إلى الله .

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعى وعى أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها .. ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين ، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ ، وبالسلطان الحق الأصيل فى هذا الوجود ، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أو لا يريده الشياطين ! وأن يمضوا فى طريقهم يبنون الحق فى واقع الخلق ، بعد بنائه فى قلوبهم هم وفى حياتهم . أما عداوة الشياطين ، وكيد الشياطين ، فليدعوها للمشيئة المحيطة والقدر النافذ .

« ولو شاء ربك مافعلوه . فذرهم وما يفترون » ..

Marfat.com

« أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ، وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَٱلَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ؟ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١١٤
وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ، إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ؟ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

« أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ؟ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ! ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ * فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ . كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

Marfat.com

« وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ١٢٧

الآن نجيء إلى القضية التي تعالجها بقية السورة ؛ والتي كان التمهيد لها مطردا في سياق السورة كله ؛ وآخر هذا التمهيد ماساقه من قضايا العقيدة الكبيرة ؛ ومن واقع للمركة العقيدية الطويلة في الآيتين السابقتين . ومن تقرير سلطان الله المطلق فيا يقع من المعركة بين شياطين الإنس والجن وكل نبي . ومن قواعد الهدى والضلال وسنة الله التي يجري وفقها الضلاله والهدى . . إلى آخر ما استعرضناه في الصفحات السابقة .

الآن نجيء إلى القضية التي جعلت هذه المقدمات كلها قاعدة لها . . قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه ومالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح . . وهي تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامي الأول : مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده ؛ وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور .. وحين تكون القضية هي قضية هذا المبدأ فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدإ أو نقضه .. ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أو لا يؤكل ؛ أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع . فهذه كتلك من ناحية المبدإ . وهذه كتلك تعني الاعتراف بألوهية الله وحده ؛ أو تعني رفض هذه الألوهية .

والمنهج القرآني يتكىء كثيرا جدا على هذا المبدإ لتقريره في كل مناسبة . ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسبته أمام كل تشريع للصغير والكبير من الأمور . . ذلك أن هذا المبدأ هو العقيدة ، وهو الدين ، وهو الإسلام ؛ وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات .

وسنجد في هذا المقطع من السورة ـ كما سنجد في بقيتها إلى ختامها ـ أن تقرير هذا المبدإ يتكرر في صور شتى ؛ بمناسبة عرض شرائع الجاهلية وتقاليدها ؛ ويتضح ارتباط هذه

Marfat.com

الشرائع والتقاليد بالشرك والاستكبار عن الإسلام ؛ وانبثاقها من نقطة إقامة ألوهية أخرى غير ألوهية الله ، ومن ثم يسلط عليها القرآن هذه الحملات العنيفة ، المنوعة الأساليب ، ويربطها هذا الربط بأصل الاعتقاد وأصل الإيمان والإسلام .

* * *

إن السياق يبدأ بتقرير جهة الحاكمية فى أمر العباد كله ـ تمهيدا لتقرير جهة الحاكمية فى التحليل والتحريم فى الذبائح ، الأمر الذى يزاول فيه المشركون حق الحاكمية افتراء على الله واعتداء على سلطانه ـ ويمهد لهذا الأمر تمهيدا طويلا كما نلحظ من سياق الآيات فى هذا الموضع :

« أفغير الله أبتغى حكما ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

هذا التمهيد كله يجىء قبل أن يدخل فى الموضوع الواقع الحاضر الذى يمهد له هذا التمهيد ، ثم يربطه ربطا مباشرا بقضية الإيمان أو الكفر :

« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم ـ إلا ما اضطررتم إليه » .

وقبل أن ينتهى من عرض قضية التحليل والتحريم ـ بعد ذلك التمهيد كله ـ يفصل بين فقرتين بتوجيهات وتعقيبات أخرى ، تحوى مؤثرات قوية من الأمر والنهى والبيان والوعيد :

« وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون » . .

ثم يستأنف الحديث فى قضية التحليل والتحريم ؛ فيربطها مباشرة بقضية الإسلام والشرك:

Marfat.com

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ـ وإنه لفسق ـ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم .. وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » ..

ثم يمضى بعد ذلك شوطا آخر فى الحديث عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان .. شوطا كأنه تعقيب على أمر التحليل والتحريم .

ومن هذا التتابع ، وهذا الربط ، وهذا التوكيد ، تتمثل طبيعة نظرة الإسلام لقضية التشريع والحاكمية ، فى شؤون الحياة اليومية ..

* * *

« أفغير الله أبتغى حكما ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين » ..

إنه سؤال على لسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للاستنكار . استنكار أن يبتغى حكما غير الله فى شأن من الشؤون على الإطلاق. وتقرير لجهة الحاكمية فى الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذى لا جدال فيه . ونفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالبا حكمه فى أمر الحياة كله :

« أفغير الله أبتغى حكما ؟ » ..

ثم .. تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التى تجعل تحكيم غير الله شيئا مستنكرا غريبا .. إن الله لم يترك شيئا غامضا ؟ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه فى مايعرض لهم من مشكلات الحياة :

« وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » ..

لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته. ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلا ، محتويا على المبادئ الأساسية التى يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاما تفصيلية فى المسائل التى يريد الله تثبيتها فى المجتمع الإنسانى مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة .. وبهذا وذلك كان فى هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله فى شأن من شؤون الحياة . . هذا مايقرره الله ـ سبحانه ـ عن كتابه .

Marfat.com

فمن شاء أن يقول : إن البشرية فى طور من أطوارها لا تجد فى هذا الكتاب حاجتها فليقل. ولكن ليقل معه .. إنه ـ والعياذ بالله ـ كافر بهذا الدين ، مكذب بقول رب العالمين !

ثم إن هناك من حولهم ملابسة أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكما فى شأن من الشؤون أمر مستنكرا غريبا . . إن الذين أوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله ، وهم أعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب :

« والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » ..

ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة فى مكة وفى الجزيرة ، يخاطب الله بها المشركين . . سواء أقر أهل الكتاب بها وجهروا ـ كما وقع من بعضهم ممن شرح الله صدره للإسلام ـ أو كتموها وجحدوها ـ كما وقع من بعضهم ـ فالأمر فى الحالين واحد ؛ وهو إخبار الله سبحانه ـ وخبره هو الصدق ـ أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق . . فالحق محتواه ؛ كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله ..

وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذى يتلبس به ، ومن هذا الحق الذى يحتويه . وما يزالون ـ من أجل علمهم بهذا كله ـ يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حربا لا تهدأ .. وأشد هذه الحرب وأنكاها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ؛ إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكما ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة ألوهيات أخرى فى البلاد التى كانت الألوهية فيها لله وحده ؛ يوم كانت تحكمها شريعة الله التى فى كتابه ؛ ولا تشاركها شريعة أخرى ، ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى ، تستمد منها أوضاع المجتمع ، وأصول التشريعات ، ويرجع إليها ويستشهد بفقراتها كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته ! وأهل الكتاب ـ من صليبيين وصهيونيين ـ من وراء هذا كله ؛ ومن وراء كل وضع وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة !

وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلا؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل

Marfat.com

من الله بالحق ، يلتفت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وراءه من المؤمنين به ؛ يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذى يجدونه من المشركين ؛ وشأن الكتمان والجحود الذى يجدونه من بعض أهل الكتاب :

« فلا تكونن من الممترين » ..

وماشك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا امترى . ولقد ورد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما نزل الله عليه : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين » . . قال : « لا أشك ، ولا أسأل » .

ولكن هذا التوجيه وأمثاله ؛ وهذا التثبيت على الحق ونظائره ؛ تدل على ضخامة ما كان يلقاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجماعة المسلمة معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود ؛ ورحمة الله ـ سبحانه ـ به وبهم بهذا التوجيه والتثبيت . .

ويمضى السياق فى هذا الاتجاه ؛ يقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لامبدل لها بفعل الخلق ، بالغاً ما بلغ كيدهم :

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » ..

لقد تمت كلمة الله ـ سبحانه ـ صدقا ـ فيما قال وقرر ـ وعدلا ـ فيما شرع وحكم ـ فلم يبق بعد ذلك قول لقائل فى عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان . ولم يبق بعد ذلك قول لقائل فى شريعة أو حكم ، أو عادة أو تقليد .. ولا معقب لحكمه ولا مجير عليه ..

« وهو السميع العليم » ..

الذى يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم .

وإلى جانب تقرير أن « الحق » هو ما تضمنه الكتاب الذى أنزله الله ، يقرر أن مايقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذى لا يقين فيه ؛ واتباعه لا ينتهى إلا إلى الضلال . وأن البشر لايقولون الحق ولا يشيرون به إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ؛ ويحذر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطيع الناس فى شىء يشيرون به عليه من عند أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هى الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون :

Marfat.com

« وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » . .

ولقد كان أكثر من فى الأرض - كما هو الحال اليوم بالضبط - من أهل الجاهلية . . لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم فى أمرهم كله ، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التى فى كتابه هى قانونهم كله . ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم ، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه . . ومن ثم كانوا - كما هو الحال اليوم - فى ضلالة الجاهلية ؛ لا يملكون أن يشيروا برأى ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه ؛ ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال . . كانوا - كما هم اليوم - يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس . . والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال . . وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كى لا يضلوا عن سبيل الله . . هكذا على وجه الإجمال . وإن كانت للمناسبة الحاضرة حينذاك كانت هى مناسبة تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجىء فى السياق . .

ثم قرر أن الذى يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده . لأن الله وحده هو الذى يعلم حقيقة العباد ، وهو الذى يقرر ماهو الهدى وما هو الضلال :

« إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . .

فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم . لا بد من قاعدة لتقرير ماهو الحق وما هو الباطل فى هذا كله - كى لا يكون الأمر فى هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذى لا يقوم على علم مستيقن . . ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات ، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء .

والله - سبحانه - يقرر هنا أنه هو - وحده - صاحب الحق فى وضع هذا الميزان . وصاحب الحق فى وزن الناس به ، وتقرير من هو المهتدى ، ومن هو الضال .

إنه ليس « المجتمع » هو الذى يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة . . ليس المجتمع

Marfat.com

الذى تتغير أشكاله ومقوماته المادية ، فتتغير قيمه وأحكامه .. حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعى ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعى . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالى البرجوازى ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكى أو الشيوعى . . ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات !

الإسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره .. الإسلام يعين قيما ذاتية له يقررها الله ـ سبحانه ـ وهذه القيم تثبت مع تغير « أشكال » المجتمعات .. والمجتمع الذى يخرج عليها له اسمه فى الاصطلاح الإسلامى .. إنه مجتمع غير إسلامى .. مجتمع جاهلى .. مجتمع مشرك بالله ، لأنه يدع لغير الله ـ من البشر ـ أن يصطلح على غير ماقرره الله من القيم والموازين والتصورات والأخلاق ، والأنظمة والأوضاع . . وهذا هو التقسيم الوحيد الذى يعرفه الإسلام للمجتمعات وللقيم وللأخلاق . . إسلامى وغير إسلامى . . إسلامى وجاهلى .. بغض النظر عن الصور والأشكال !!

* * *

بعد هذا التمهيد التقريرى الطويل تجىء قضية الذبائح ، مبنية على القاعدة الأساسية التى أقامها ذلك التمهيد التقريرى الطويل :

« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه .. إن كنتم بآياته مؤمنين .. وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ماحرم عليكم ـ إلا ما اضطررتم إليه ـ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ـ وإنه لفسق ـ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » ..

وقبل أن ندخل فى تفصيل هذه الأحكام من الناحية الفقهية ، يهمنا أن نبرز المبادىء الأساسية الاعتقادية التى تقررها .

إنه يأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . والذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه . ويعلق إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله :

Marfat.com

« فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين » . .

ثم يسألهم: وما لهم فى الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وقد جعله الله لهم حلالا ؟ وقد بين لهم الحرام الذى لا يأكلونه إلا اضطرارا ؟ فانتهى بهذا البيان كل قول فى حله وحرمته ؛ وفى الأكل منه أو تركه ؟

« ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ؟ » . .

ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك فى البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله ؛ ويحلون ذبائح حرمها الله ـ ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! ـ فإن السياق يفصل فى أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع ، ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم ، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد :

« وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . . إن ربك هو أعلم بالمعتدين » . .

ويأمرهم بأن يتركوا الإثم كله ـ ظاهره وخافيه ـ ومنه هذا الذى يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم ؛ وحملهم على شرائع ليست من عند الله ، وافتراء أنها شريعة الله ! ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذى يقترفونه :

« وذروا ظاهر الإثم وباطنه . . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون » . .

ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التى كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو من الميتة التى كانوا يجادلون المسلمين فى تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح الله ؟! وهو تصور من تصورات الجاهلية التى لا حد لسخفها وتهافتها فى جميع الجاهليات ! وهذا ما كانت الشياطين ـ من الإنس والجن ـ توسوس به لأوليائها ليجادلوا المسلمين فيه من أمر هذه الذبائح مما تشير إليه الآيات :

« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ـ وإنه لفسق ـ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . . » . .

Marfat.com

وأمام هـذا التقرير الأخير نقف ، لنتدبر هذا الحسم وهـذه الصراحة فى شأن الحاكمية والطاعة والاتباع فى هذا الدين . .

إن النص القرآنى لقاطع فى أن طاعة المسلم لأحد من البشر فى جزئية من جزئيات التشريع التى لا تستمد من شريعة الله ، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية . . أن طاعة المسلم فى هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله ، إلى الشرك بالله .

وفى هذا يقول ابن كثير :

« وقوله تعالى : (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) . . أى حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه ، إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره . . فهذا هو الشرك . . كقوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ... الآية . وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى ابن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم . فقال : « بلى ! إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » .

كذلك روى ابن كثير عن السدى فى قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . . » الآية قوله : (استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا » أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ) ..

فهذا قول السدى وذاك قول ابن كثير . . وكلاهما يقرر فى حسم وصرامة ووضوح ـ مستمدة من حسم النص القرآنى وصرامته ووضوحه ، ومن حسم التفسير النبوى للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك ـ أن من أطاع بشرا فى شريعة من عند نفسه ، ولو فى جزئية صغيرة ، فإنما هو مشرك . وإن كان فى الأصل مسلما ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضا . . مهما بقى بعد ذلك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه . بينما هو يتلقى من غير الله ، ويطيع غير الله .

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم ـ فى ضوء هذه التقريرات الحاسمة ـ فإننا نرى الجاهلية والشرك ـ ولا شىء غير الجاهلية والشرك ـ إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب

Marfat.com

الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهيـة ؛ ولم يقبل منها شرعا ولا حـكما . . . إلا فى حدود الإكراه ..

فأما الحـكم الفقهى المستفاد من قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم عليه وإنه لفسق . . » فيما يتعلق بحل الذبائح وحرمتها عند التسمية وعدم التسمية فقد لخصها ابن كثير فى التفسير فى هذه الفقرات قال :

« استدل بهـذه الآية الـكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلما » . .

« وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

« فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة . وسواءمتروك التسمية عمدا أو سهوا . وهو مروى عن ابن عمر ، ونافع مولاه ، وعامر الشعبى ، ومحمد ابن سيرين . وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد ابن حنبل ، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين . وهو اختيار أبى ثور ، وداود الظاهرى . واختار ذلك أبو الفتوح محمد ابن محمد ابن على الطائى من متأخرى الشافعية فى كتابه الأربعين ، واحتجوا لمذهبهم بهذه الآية ، وبقوله فى آية الصيد: « فـكلوا مما أمسكن عليـكم واذكروا اسم الله عليه » .. ثم قد أكد ذلك بقوله : « وإنه لفسق » والضميرقيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغيرالله . وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ، كحديثى عدى ابن حاتم وأبى ثعلبة : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فـكل ما أمسك عليك » . وهما فى الصحيحين . وحديث رافع ابن خديج : « ماأنهر الدم وذكر اسم الله عليه فـكلوه » . وهو فى الصحيحين أيضا ...

« والمذهب الثانى فى المسألة : أنه لا يشترط التسمية ، بل هى مستحبة ، فإن تركها عمداأو نسيانا لا يضر . وهذا مذهب الإمام الشافعى ، رحمه الله ، وجميع أصحابه . ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنـه حنبل . وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب ابن عبـد العزيز من أصحابه . وحكى عن ابن عباس ، وأبى هريرة ، وعطاء ابن أبى رباح . والله أعلم . وحمل الشافعى الآية الـكريمة : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى : « أو فسقا أهل لغيرالله به » . وقال ابن جريج عن عطاء : « ولا

Marfat.com

تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » .. قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس .. وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى ...

« وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ، حدثنا يحي ابن المنيرة ، أنبأنا جرير ، عن عطاء ، عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فى الآية : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال : هى الميتة . وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود فى المراسيل من حديث ثور ابن يزيد عن الصلت السدوسى مولى سويد ابن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم ابن حبان فى كتاب الثقات . قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر . إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » . . وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : « إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل . فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » .

« المذهب الثالث : إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر ، وإن تركها عمدا لم تحل .. هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد ابن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه . وإسحاق ابن راهويه . وهو محكى عن على ، وابن عباس ، وسعيد ابن المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، والحسن البصرى ، وأبى مالك ، وعبد الرحمن ابن أبى ليلى ، وجعفر ابن محمد ، وربيعة ابن أبى عبد الرحمن ... »

« قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية : هل نسخ من حكمها شىء أم لا؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شىء ، وهى محكمة فيما عنيت به . وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم. وروى عن الحسن البصرى وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد حدثنا يحي ابن واضح ، عن الحسين ابن واقد ، عن عكرمة والحسن البصرى ، قالا : قال الله : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » وقال : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » وقال ابن أبى حاتم : قرأ على العباس ابن الوليد ابن يزيد ، حدثنا محمد ابن شعيب ، أخبرنى النعمان — يعنى ابن المنذر — عن مكحول قال : أنزل الله فى القرآن : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » . ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب

Marfat.com

حل لكم » فنسخها بذلك ، وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير : والصواب : أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم مالم يذكر اسم الله عليه .. وهذا الذي قاله صحيح . ومن أطلق من السلف النسخ هنا ، فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم » . . . انتهى .

* * *

بعد ذلك يجيء شوط كامل عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . وعن قدر الله في أن يجعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . وعن الكبر الذي يحيك في نفوس هؤلاء المجرمين الأكابر . ويمنعهم من الإسلام . ويختم الشوط بالتصوير الرائع الصادق لحالة الإيمان التي يشرح الله لها الصدر ، وحالة الكفر التي يجعل الصدر فيها ضيقا حرجا مكروب الأنفاس ! .. فيتصل هذا الشوط كله بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح اتصال الأصل القاعدي بالفرع التطبيقي ؛ ويدل على عمق هذا الفرع وشدة علاقته بالأصل الكبير :

« أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

إن هذه الآيات في تصوير طبيعة الهدى وطبيعة الإيمان إنما تعبر تعبيرا حقيقيا واقعيا عن حقيقة واقعية كذلك . إن ما يبدو فيها من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة في الصورة الموحية المؤثرة ؛ ولكن العبارة في ذاتها حقيقية .

إن نوع الحقيقة التي تعبر هذه الآيات عنها هو الذي يقتضي هذه الإيقاعات التصويرية . فهي حقيقة ، نعم . ولكنها حقيقة روحية وفكرية . حقيقة تذاق بالتجربة . ولا تملك العبارة إلا أن تستحضر مذاق التجربة ولكن لمن ذاقها فعلا !

Marfat.com

إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت ؛ وتطلق فيه نورا بعد الظلمات حياة يعيد بها تذوق كل شيء ، وتصور كل شيء ، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة . ونورا يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديدا كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوّره الإيمان .

هذه التجربة لاتنقلها الألفاظ . يعرفها فقط من ذاقها . . والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها .

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية ، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت .. وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله .. فهو موت .. وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية .. فهو موت ..

والإيمان اتصال . واستمداد ، واستجابة .. فهو حياة ..

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع .. فهو ظلمة .. وختم على الجوارح والمشاعر .. فهو ظلمة .. وتيه في التيه وضلال .. فهو ظلمة ..

وإن الإيمان تفتح ورؤية ، وإدراك واستقامة .. فهو نور بكل مقومات النور ..

إن الكفر انكماش وتحجر .. فهو ضيق .. وشرود عن الطريق الفطري الميسر .. فهو عسر .. وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن .. فهو قلق . .

وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود ..

وما الكافر ؟ إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور .. إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود ، فهو منقطع الصلة بالوجود . لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود . في أضيق الحدود . في الحدود التي تعيش فيها البهيمة . حدود الحس وما يدركه الحس من ظاهر هذا الوجود !

إن الصلة بالله ، والصلة في الله ، لتصل الفرد الفاني بالأزل القديم والأبد الخالد . ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة .. ثم تصله بموكب الإيمان والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان . الموصولة على مدار الزمان .. فهو في ثراء من الوشائج ، وفي ثراء من الروابط . وفي ثراء من « الوجود » الزاخر الممتد اللاحب ، الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود .

Marfat.com

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور ، فتتكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه فى العمل والحركة ، تكشفا عجيبا .. إنه مشهد رائع باهر هذا الذى يجده الإنسان فى قلبه حين يجد هذا النور .. مشهد التناسق الشامل العجيب فى طبيعة هذا الدين وحقائقه . ومشهد التكامل الجليل الدقيق فى منهجه للعمل وطريقته . إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات . . إنما يبدو « تصميما » واحدا متداخلا متراكبا متناسقا .. متعاشقا يبدو حيا يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه فى ألفة عميقة وفى صداقة وثيقة ، وفى حب ودود !

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور ؛ فتتكشف له حقائق الوجود ، وحقائق الحياة ، وحقائق الناس ، وحقائق الأحداث التى تجرى فى هذا الكون وتجرى فى عالم الناس . . تتكشف له فى مشهد كذلك رائع باهر . . مشهد السُّنَّة الدقيقة التى تتوالى مقدماتها ونتائجها فى نظام محكم ولكنه فطرى ميسر .. ومشهد المشيئة القادرة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهى من ورائها محيطة طليقة . . ومشهد الناس والأحداث وهم فى نطاق النواميس وهى فى هذا النطاق أيضاً .

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور فيجد الوضوح فى كل شأن وفى كل أمر وفى كل حدث .. يجد الوضوح فى نفسه وفى نواياه وخواطره وخطته وحركته . ويجد الوضوح فيما يجرى حوله سواء من سنة الله النافذة ، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة ! ويجد تفسير الأحداث والتاريخ فى نفسه وعقله وفى الواقع من حوله ، كأنه يقرأ من كتاب !

ويجد الإنسان فى قلبه هذا النور ، فيجد الوضاءة فى خواطره ومشاعره وملامحه ! ويجد الراحة فى باله وحاله ومآله ! ويجد الرفق واليسر فى إيراد الأمور وإصدارها ، وفى استقبال الأحداث واستدبارها ! ويجد الطمأنينة والثقة واليقين فى كل حالة وفى كل حين !

وهكذا يصور التعبير القرآنى الفريد تلك الحقيقة بإيقاعاته الموحية :

«أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » .

Marfat.com

كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين . قبل أن ينفخ الإيمان فى أرواحهم فيحيها ، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف . كانت قلوبهم مواتا . وكانت أرواحهم ظلاما .. ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء ، ويفيض منها النور فتمشى به فى الناس تهدى الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد ، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن فى الأرض ميلاد الإنسان الجديد . الإنسان المتحررُ المستنير ؛ الذى خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد !

أفمن نفخ الله فى روحه الحياة ، وأفاض على قلبه النور . كمن حاله أنه فى الظلمات ، لا مخرج له منها ؟

إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! فما الذى يمسك بمن فى الظلمات والنور حوله يفيض ؟

« كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » . .

هذا هو السر . . إن هناك تزيينا للكفر والظلمة والموت ! والذى ينشىء هذا التزيين ابتداء هو مشيئة الله التى أودعت فطرة هذا الكائن الإنسانى الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة ، تبتليه بالاختيار للظلمة أو النور . فإذا اختار الظلمة زينت له ؛ ولج فى الضلال حتى لا يخرج من الظلمة ولا يعود . ثم إن هناك شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ويزينون للكافرين مايعملون . . والقلب الذى ينقطع عن الحياة والإيمان والنور ، يسمع فى الظلمة للوسوسة ؛ ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال فى ذلك الظلام العميق !.. وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون..

وبنفس الطريقة ، ولنفس الأسباب ، وعلى هذه القاعدة جعل الله فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها .. ليتم الابتلاء ؛ وينفذ القدر ؛ وتتحقق الحكمة ؛ ويمضى كل فيما هو ميسر له ؛ وينال كل جزاءه فى نهاية المطاف :

« وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » ..

Marfat.com

إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية ـ وهي المدينة الكبيرة والعاصمة ـ نفر من أكابر المجرمين فيها ، يقفون موقف العداء من دين الله . ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس ، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب ، ويرد هـذا كله إلى الله وحده .. رب الناس .. ملك الناس .. إله الناس ..

إنها سنة من أصل الفطرة . . أن يرسل الله رسله بالحق . . بهذا الحق الذي يجرد مدعى الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية . فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ورسل الله . ثم يمكرون مكرهم في القرى ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى ، وفي نشر الباطل والضلال ، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي ..

إنها سنة جارية . ومعركة محتومة . لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله ـ وهي رد الحاكمية كلها لله ـ وبين أطماع المجرمين في القرى . بل بين وجودهم أصلا ..

معركة لا مفر للنبي أن يخوضها ، فهو لا يملك أن يتقيها ، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها وأن يمضوا إلى النهاية فيها .. والله سبحانه يطمئن أولياءه .. إن كيد أكابر المجرمين ـ مهما ضخم واستطـال ـ لا يحيق إلا بهم في نهاية المطـاف . إن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحـدهم فالله وليهم فيـها ، وهو حسبهم ، وهو يرد على الـكائدين كيـدهم :
« وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .
فليطمئن المؤمنون !

ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه .. الكبر الذي يمنعهم من الإسلام ؛ خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتيا يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع . ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له ، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع ، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمروهم فيجدوا

Marfat.com

منهم الطاعة والخضوع .. من أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغبية كذلك : لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله :

« وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتى رسل الله » .

وقد قال الوليد ابن المغيرة : لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سنا ، وأكثر منك مالا ! وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه !

وواضح أن الكبر النفسى ، وما اعتاده الأكابر من الخصوصية بين الأتباع ، ومظهر هذه الخصوصية الأول هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع ! .. واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر فى نفوسهم ، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء .

ويرد الله على قولتهم المنكرة الغبية .. أولا بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكونى الخطير .. ويرد عليهم ثانيا بالتهديد والتحقير وسوء المصير :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ..

إن الرسالة أمر هائل خطير . أمر كونى تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد . ويتصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان المحدود . وتتصل فيه السماء بالأرض ، والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلى ، فى قلب بشر ، وفى واقع ناس ، وفى حركة تاريخ . وتتجرد فيها كينونة بشرية من حظ ذاتها فى ذاتها لتخلص لله كاملة ، لا خلوص النية والعمل وحده ، ولكن كذلك خلوص المحل الذى يملؤه هذا الأمر الخطير . فذات الرسول — صلى الله عليه وسلم — تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة . وهى لا تتصل هذه الصلة إلا أن تكون من ناحية عنصرها الذاتى صالحة للتلقى المباشر الكامل بلا عوائق ولا سدود ..

والله وحده — سبحانه — هو الذى يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التى

Marfat.com

تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهـذا الأمر الهائل الخطير .
والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ؛ أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتى الرسول . . هم أولا من طبيعة لا تصلح أساسا لهـذا الأمر . فهم يتخذون من ذواتهم محورا للوجود الكونى ! والرسل من طبيعة أخرى ، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلما ، ويهب لها نفسه ، وينسى فيها ذاته ، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب، إلا رحمة من ربك » .. ثم هم بعد ذلك جهال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل ، ولا يعلمون أن الله وحده هو الذى يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح ..

لذلك يجبههم الرد الحاسم :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..

وقد جعلها سبحانه حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم ، حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين .

ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين :

« سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ..

والصغار عنـد الله يقابل الاستعلاء عنـد الأتباع ، والاستكبار عن الحق ، والتطاول إلى مقـام رسل الله ! . . والعذاب الشـديد يقابل المكر الشديد ، والعـداء للرسل ، والأذى للمؤمنين .

ثم تختم الجولة بتصوير حالة الهدى وحالة الإيمان فى داخل القلوب والنفوس :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء .. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » ..

من يقدر الله له الهداية ــ وفق سنته الجارية من هداية من يرغب فى الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء ــ « يشرح صدره للإسلام » ؛ فيتسع له ؛ ويستقبله فى يسر ورغبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ؛ ويستروح به ويستريح له .

ومن يقدر له الضلال ــ وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته

Marfat.com

عنه ـ « يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » .. فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة فى قبوله ، «كأنما يصعد فى السماء » .. وهى حالة نفسية تجسم فى حالة حسية ، من ضيق النفس ، وكربة الصدر ، والرهق المضى فى التصعد إلى السماء ! وبناء اللفظ ذاته « يصعد » ـ كما هو فى قراءة حفص ـ فيه هذا العسر والقبض والجهد . وجرسه يخيل هذا كله ، فيتناسق المشهد الشاخص ، مع الحالة الواقعة ، مع التعبير اللفظى فى إيقاع واحد [1] .

وينتهى المشهد بهذا التعقيب المناسب :

« كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون » ..

.. كذلك .. بمثل هذا الذى يجرى به قدر الله من شرح صدر الذى يريد الله به الهدى ، ومن العسر والجهد والمشقة لمن يريد به الضلال .. كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون .

ومن معانى الرجس : العذاب . ومن معانيه كذلك : الارتكاس ـ وكلاهما يلون هذا العذاب بمشهد الذى يرتكس فى العذاب ويعود إليه ولا يفارقه ! وهو الظل المقصود !

* * *

على أنه تبقى فى النفس بقية من الحديث عن قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » . .

إن تصور الحقيقة التى يقررها هـذا النص وأمثاله فى القرآن الكريم من النصوص ، تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله ـ سبحانه ـ واتجاهات البشر ؛ وما يصيبهم من الهدى والضلال ، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب . . إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشرى وراء منطقة المنطق الذهنى ! وكل ما ثار من الجدل بشأن هـذه القضية سواء فى تاريخ الفكر الإسلامى ، وبخاصة بين المعتزلة وأهـل السنة والمرجئة ـ أو فى تاريخ اللاهوت والفلسفة ـ وكل القضايا والتعبيرات عنها ، موسومة بطابع المنطق الذهنى .

إن تصور هـذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشرى

(١) يراجع فصل « التخييل الحسى والتجسيم » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وراء منطقة المنطق الذهنى . وكذلك يقتضى التعامل مع « الواقع الفعلى » لا مع « القضايا الذهنية » . فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية فى الكينونة البشرية وفى الوجود الواقع ؛ وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله . فى محيط لا يدركه المنطق الذهنى كله .

فإذا قيل : إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضلال . . لم تكن هذه هى الحقيقة الفعلية . وإذا قيل : إن إرادة الإنسان هى التى تقرر مصيره كله . . لم تكن هذه هى الحقيقة الفعلية كذلك ! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة ـ وغيبية كذلك ـ بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل ، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادى . بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم ..

ولكن تصور الحقيقة « الفعلية » كما هى فى واقعها هذا لا يمكن أن يتم فى حدود المنطق الذهنى . وفى شكل القضايا الذهنية والعبارة البشرية عنها . . إن نوع الحقيقة هو الذى يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها . . وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق الذهنى ولا القضايا الجدلية .

كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هى فى واقعها الفعلى إلى تذوق كامل فى تجربة روحية وعقلية . . إن الذى تتجه فطرته إلى الإسلام يجد فى صدره انشراحا له . . هو من صنع الله قطعا . . فالانشراح حدثٌ لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه . والذى تتجه فطرته إلى الضلال يجد فى صدره ضيقا وقبضا وعسرا . . هو من صنع الله قطعا . . لأنه حدث لا يتم وقوعه الفعلى إلا بقدر من الله يخلقه ويجرى به كذلك . . وكلاهما من إرادة الله بالعبد . . ولكنها ليست إرادة القهر . إنما هى الإرادة التى أنشأت السنة الجارية النافذة من أن يبتلى هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة . وأن يجرى قدر الله بإنشاء ما يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة فى الاتجاه للهدى أو الضلال .

وحين توضع قضية ذهنية فى مواجهة قضية ذهنية . وحين يتم التعامل مع هذه القضايا ، بدون استصحاب للملابسة الباطنية الحقيقة ، والتجربة الواقعية فى التعامل معها ، فإنه لا يمكن

Marfat.com

أبدا أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة . . وهذا ما وقع فى الجدل الإسلامى . . وفى غيره كذلك !

إنه لا بد من منهج آخر ومن تذوق مباشر للتعامل مع هذه الحقيقة الكبيرة . .

* * *

ثم نعود إلى السياق القرآنى :

إن هذه الموجة بجملتها تجىء كالتعقيب على قضية الذبائح التى سبق بيانها ؛ فترتبط هذه بتلك ، حزمة واحدة فى السياق ، وحزمة واحدة فى الشعور ، وحزمة واحدة فى بناء هذا الدين . فقضية الذبائح هى قضية التشريع . وقضية التشريع هى قضية الحاكمية . وقضية الحاكمية هى قضية الإيمان . . ومن هنا يكون الحديث عن الإيمان على هذا النحو فى موضعه المطلوب .

ثم يجىء التعقيب الأخير فى هذا المقطع يربط هذه وتلك الرباط الأخير . . فهذه وتلك صراط الله المستقيم . والخروج فى واحدة منهما هو الخروج عن هذا الصراط المستقيم . والاستقامة عليهما معاً . . العقيدة والشريعة . . هى الاستقامة على الصراط المؤدى إلى دار السلام ، وولاية الله لعباده الذاكرين :

« وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » . .

هذا هو الصراط . . صراط ربك . . بهذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة ؛ المبشرة بالنهاية . . هذه هى سنته فى الهدى والضلال ؛ وتلك هى شريعته فى الحل والحرمة كلاهما سواء فى ميزان الله ، وكلاهما لحمة فى سياق قرآنه .

وقد فصل الله آياته وبينها . ولكن الذين يتذكرون ولا ينسون ولا يغفلون هم الذين ينتفعون بهذا البيان وهذا التفصيل . فالقلب المؤمن قلب ذاكر لا يغفل . وقلب منشرح مبسوط مفتوح . وقلب حى يستقبل ويستجيب .

والذين يتذكرون ، لهم دار السلام عند ربهم . . دار الطمأنينة والأمان . . مضمونة

Marfat.com

عندربهم لا تضيع . . وهو وليهم وناصرهم وراعيهم وكافلهم .. ذلك بما كانوا يعملون .. فهو الجزاء على النجاح فى الابتلاء .

ومرة أخرى نجدنا أمام حقيقة ضخمة من حقائق هذه العقيدة . حيث يتمثل صراط الله المستقيم فى الحاكمية والشريعة . ومن ورائهما يتمثل الإيمان والعقيدة .. إنها طبيعة هذا الدين كما يقررها رب العالمين ..

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً : يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ : وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا ! قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا - إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ - إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى ، وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا : شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا ! وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا : وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

« وَرَبُّكَ الْغَنِىُّ ذُو الرَّحْمَةِ ، إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ . كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ، وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

« قُلْ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » ﴿١٣٥﴾

هذا المقطع بجملته ليس منفصلا عن الدرس السابق . إنما هو امتداد له . من جنس الموجات المتعاقبة التى يتضمنها . . فهو من ناحية استطراد فى بيان مصائر شياطين الإنس والجن - بعد ما بين مصير الذين يستقيمون على صراط الله - وهو من ناحية استطراد فى قضية الإيمان

Marfat.com

والكفر التي تذكر في هذا الموضع من السورة بمناسبة قضية الحاكمية والتشريع . وربط لهذه القضية الأخيرة بالحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية؛ ومنها حقيقة الجزاء في الآخرة على الكسب في الدنيا - بعد النذارة والبشارة - وحقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم وبالناس جميعا واستبدال غيرهم بهم ، وحقيقة ضعف البشر جملة أمام بأس الله . وكلها حقائق عقيدية تذكر في معرض الحديث عن التحليل والتحريم في الذبائح - قبلها - ثم يجيء بعدها الحديث في الحلقة التالية عن النذور من الثمار والأنعام والأولاد؛ وعن تقاليد الجاهلية وتصوراتها في هذه الشؤون؛ فيلتحم الحديث عن هذه القضايا جميعا؛ وتبدو في وضعها الطبيعي الذي يضعها فيه هذا الدين . وهي أنها كلها مسائل اعتقادية على السواء . لا فرق بينها في ميزان الله ، كما يقيمه في كتابه الكريم .

* * *

لقد مضى في الحلقة السابقة حديث عن الذين يشرح الله صدورهم للإسلام؛ فتبقى قلوبهم ذاكرة لا تغفل؛ وأنهم ماضون إلى دار السلام ، منتهون إلى ولاية ربهم وكفالته . . فالآن يعرض الصفحة المقابلة في المشهد - على طريقة القرآن الغالبة في عرض « مشاهد القيامة »(1) - يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وخداعا وإضلالا؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبي؛ ويوحي بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين في ما شرعه الله لهم من الحلال والحرام . . يعرضهم في مشهد شاخص حي ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب ، فائض بالحياة التي تزخر بها مشاهد القيامة في القرآن .

« ويوم يحشرهم جميعا : يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ! قل : النار مثواكم خالدين فيها - إلا ماشاء الله - إن ربك حكيم عليم . . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . . يامعشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم

---

(1) يراجع كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » .

Marfat.com

لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ! وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » ..

إن المشهد يبدأ معروضا في المستقبل ، يوم يحشرهم جميعا .. ولكنه يستحيل واقعا للسامع يتراءى له مواجهة . وذلك بحذف لفظة واحدة في العبارة . فتقدير الكلام ، « ويوم يحشرهم جميعا » ـ فيقول ـ « يامعشر الجن والإنس . . . » ولكن حذف كلمة ـ يقول ـ ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ؛ ويحيل السياق من مستقبل ينتظر ، إلى واقع ينظر ! وذلك من خصائص التصوير القرآني العجيب[1] ...

فلنتابع المشهد الشاخص المعروض :

«يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس !» ..

استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحائكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم .. وهو إخبار لا يقصد به الإخبار . فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة ـ جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذي نكاد نلمحه في المشهد المعروض ! ـ ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التي تتجمع قرائنها الحية في هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء . . ولكن الأغرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون :

« وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ! » ..

وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة في هؤلاء الأتباع ؛ كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم في دار الخداع .. لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار ، ومن المكابرة والاستهتار ، ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال .. كانت تستهويهم وتعبث بهم ؛ وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس في عالم الإنس ! وهؤلاء الأغرار

(١) يراجع كتاب : « التصوير الفني في القرآن » فصل : « التصوير الفني » وفصل : « طريقة القرآن » .

Marfat.com

المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعا متبادلا ، وأنهم كانوا يمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون :

« ربنا استمتع بعضنا ببعض ! » .

ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة ، حتى حان الأجل ، الذى يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذى أمهلهم إليه ؛ وأنهم كانوا فى قبضته فى أثناء ذلك المتاع :

« وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا » !

عند ذلك يجىء الحكم الفاصل ، بالجزاء العادل :

« قال : النار مثواكم خالدين فيها ـ إلا ما شاء الله ـ »

فالنار مثابة ومأوى . والمثوى للإقامة . وهى إقامة الدوام .. « إلا ما شاء الله » لتبقى صورة المشيئة الطليقة هى المسيطرة على التصور الاعتقادى . فطلاقة للمشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور . والمشيئة لا تتحبس ولا تتقيد . ولا فى مقرراتها هى .

« إن ربك حكيم عليم »

يمضى قدره بالناس عن حكمة وعن علم ؛ يتفرد بهما الحكيم العليم ..

وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد ، يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهى :

« وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » ..

بمثل هذا الذى قام بين الجن والإنس من ولاء ؛ وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير .. بمثل ذلك ، وعلى قاعدته ، نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . نجعل بعضهم أولياء بعض ؛ بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة ؛ وبحكم ما بينهم من اتفاق فى الوجهة والهدف ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير ..

وهو تقرير عام أبعد مدى من حدود المناسبة التى كانت حاضرة ، إنه يتناول طبيعة الولاء بين الشياطين من الإنس والجن عامة . فإن الظالمين ـ وهم الذين يشركون بالله فى صورة من الصور ـ يتجمع بعضهم إلى بعض فى مواجهة الحق والهدى ؛ ويعين بعضهم بعضا فى عداء كل نبى وللمؤمنين به . إنهم فضلا على أنهم من طينة واحدة ـ مهما اختلفت الأشكال ـ هم كذلك أصحاب مصلحة واحدة ، تقوم على اغتصاب حق الربوبية على الناس ، كما تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله ..

Marfat.com

ونحن نراهم فى كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضا ـ على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح ـ إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله .. فبحكم ما بينهم من اتفاق فى الطينة ، واتفاق فى الهدف يقوم ذلك الولاء . . وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم فى الآخرة على نحو ما رأينا فى المشهد المعروض !

وإننا لنشهد فى هذه الفترة ـ ومنذ قرون كثيرة ـ تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين ـ على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها ـ ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامى فى الأرض كلها .

وهو تجمع رهيب فعلا ، تجتمع له خبرة عشرات القرون فى حرب الإسلام ، مع القوى المادية والثقافية ، مع الأجهزة المسخرة فى المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة .. وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه : « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » . . كما ينطبق عليه تطمين الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم : « ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .. ولكن هذا التطمين يقتضى أن تكون هناك العصبة المؤمنة التى تسير على قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعلم أنها تقوم مقامه فى هذه المعركة المشبوبة على هذا الدين ، وعلى المؤمنين ..

ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير :

« يامعشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » . .

وهو سؤال للتقرير والتسجيل . فالله ـ سبحانه ـ يعلم ما كان من أمرهم فى الحياة الدنيا . والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء فى الآخرة ..

والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس .. فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر . ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به . كالذى

Marfat.com

رواه القرآن الكريم من أمر الجن فى سورة الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك فى ضلال مبين » .. فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة .. والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه ؛ والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه !

وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه . إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ؛ كما أنه للتأنيب والتوبيخ ؛ فأخذوا فى الاعتراف الكامل ؛ وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه :

« قالوا : شهدنا على أنفسنا » :

وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول :

« وغرتهم الحياة الدنيا ؛ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » !

وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم فى الدنيا . فقد غرتهم هذه الحياة ؛ وقادهم الغرور إلى الكفر . ثم هاهم أولاء يشهدون على أنفسهم به ؛ حيث لاتجدى المكابرة والإنكار .. فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه فى هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآنى العجيب فى رسم المشاهد حاضرة ؛ ورد المستقبل المنظور واقعا مشهودا ؛ وجعل الحاضر القائم ماضيا بعيدا !

إن هذا القرآن يتلى على الناس فى هذه الدنيا الحاضرة ؛ وفى هذه الأرض المعهودة . ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر قريب ؛ ومشهد الدنيا كأنها ماض بعيد ! فننسى أن ذلك مشهد سيكون يوم القيامة ؛ ونستشعر أنه أمامنا اللحظة ماثل ! وأنه يتحدث عن الدنيا التى كانت كما يتحدث عن التاريخ البعيد !

« وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم — كانوا — كافرين » .

Marfat.com

وذلك من عجائب التخيل !

* * *

وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار ؛ وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا .. ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لاينال أحداً إلا بعد الإنذار ؛ وأن الله لايأخذ العباد بظلمهم (أى بشركهم) إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم ؛ وتقص عليهم الآيات ، وينذرهم المنذرون :

« ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى ـ بظلم ـ وأهلها غافلون » ..

لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل ، على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها ـ فقد تضل هذه الفطر ـ وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك ـ فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات ـ وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات ـ فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشرى

لقد ناط بالرسل والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام ، واستنقاذ العقل من الانحراف، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس . وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار .

وهذه الحقيقة كما أنها تصور رحمة الله بهذا الإنسان وفضله ، كذلك تصور قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل ؛ وتقرر أنها ـ وحدها ـ لاتعصم من الضلال ، ولاتهدى إلى يقين ، ولا تصبر على ضغط الشهوات .. ما لم تساندها العقيدة ومالم يضبطها الدين[1]..

ثم يقرر السياق حقيقة أخرى في شأن الجزاء .. للمؤمنين والشياطين سواء :

« ولكل درجات مما عملوا . وما ربك بغافل عما يعملون » . .

فللمؤمنين درجات: درجة فوق درجة . وللشياطين درجات : درجة تحت درجة ! وفق

---

(١) يراجع بتوسع تفسير قوله تعالى: «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» في الجزء السادس من الظلال : ص ٢٥ ـ ٣٥

Marfat.com

الأعمال . والأعمال مرصودة لا يغيب منها شيء :

« وما ربك بغافل عما يعملون » .

* * *

على أن الله ــ سبحانه ــ إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ؛ فهو غنى عنهم ، وعن إيمانهم به وعبادتهم له . وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم فى الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى رحمته فى الإبقاء على الجيل العاصى الظالم المشرك ، وهو القادر على أن يهلكه ، وينشئ جيلا آخر يستخلفه :

« وربك الغنى ذو الرحمة . إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء . كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » .

فلا ينس الناس أنهم باقون برحمة الله ؛ وأن بقاءهم معلق بمشيئة الله ؛ وأن ما فى أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه . فليس هو سلطانا أصيلا ؛ ولا وجودا مختارا . فما لأحد فى نشأته ووجوده من يد ؛ وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدرة . وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله . كما أنه أنشأهم من ذرية جيل غبر . واستخلفوا هم من بعده بقدر من الله .

إنها طرقات قوية وإيقاعات عنيفة على قلوب الظالمين من شياطين الإنس والجن الذين يمكرون ويتطاولون ، ويحرمون ويحللون ، ويجادلون فى شرع الله بما يشرعون .. وهم هكذا فى قبضة الله يبقيهم كيف شاء ، ويذهب بهم أنى شاء ، ويستخلف من بعدهم ما يشاء .. كما أنها إيقاعات من التثبيت والطمأنينة والثقة فى قلوب العصبة المسلمة ، التى تلقى العنت من كيد الشياطين ومكرهم ؛ ومن أذى المجرمين وعدائهم .. فهؤلاء هم فى قبضة الله ضعافا حتى وهم يتجبرون فى الأرض ويمكرون !

ثم إيقاع تهديدى آخر :

« إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين »

إنكم فى يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين .. ويوم الحشر الذى شاهدتهم منه مشهدا منذ لحظة ينتظركم ؛ وإنه لآت لاريب فيه ، ولن تفلتوا يومها ، ولن تعجزوا الله القوى المتين .

Marfat.com

وتنتهى التعقيبات بتهديد آخر ملفوف ، عميق الإيحاء والتأثير فى القلوب :

« قل : ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لايفلح الظالمون » .

إنه تهديد الواثق من الحق الذى معه ، والحق الذى وراءه ؛ ومن القوة التى فى الحق ، والقوة التى وراء الحق .. التهديد من الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه نافض يديه من أمرهم ، واثق مما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، وواثق من مصيرهم الذى هم إليه منتهون :

« إنه لا يفلح الظالمون » ..

فهذه هى القاعدة التى لا تتخلف .. إنه لا يفلح المشركون ، الذين يتخذون من دون الله أولياء . وليس من دون الله ولى ولا نصير . والذين لا يتبعون هدى الله . وليس وراءه إلا الضلال البعيد وإلا الخسران المبين ..

* * *

وقبل أن نمضى مع سياق السورة حلقة جديدة ، نقف وقفة سريعة مع هذه الحلقة الوسيطة بين حديث عن تشريع الذبائح - ما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه - وحديث عن النذور من الثمار والأنعام والأولاد .. هذه الحلقة التى تضمنت تلك الحقائق الأساسية من حقائق العقيدة البحتة ؛ كما تضمنت مشاهد وصورا وتقريرات عن طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر؛ وعن المعركة بين الشياطين من الإنس والجن وبين أنبياء الله والمؤمنين بهم ؛ كما تضمنت ذلك الحشد من المؤثرات الموحية التى سبقت نظائرها فى سياق السورة وهو يواجه ويعرض حقائق العقيدة الكبرى فى محيطها الشامل ..

نقف هذه الوقفة السريعة مع هذه الحلقة الوسيطة ؛ لنرى كم يحفل المنهج القرآنى بهذه الواقعيات العملية ، وهذه الجزئيات التطبيقية فى الحياة البشرية ؛ وكم يحفل بانطباقها على شريعة الله ؛ وعلى تقرير الأصل الذى يجب أن تستند إليه ؛ وهو حاكمية الله .. أو بتعبير آخر ربوبية الله ..

فلماذا يحفل المنهج القرآنى هكذا بهذه القضية ؟

Marfat.com

يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية « العقيدة » فى الإسلام ؛ كما تلخص قضية «الدين» . فالعقيدة فى الإسلام تقوم على أساس شهادة : أن لا إله إلا الله . وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله . ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله .. والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة. فهو من ثم مزاولة لحق الألوهية ، يأباه المسلم إلا لله .. والدين فى الإسلام هو دينونة العباد فى واقعهم العملى - كما هو الأمر فى العقيدة القلبية - لألوهية واحدة هى ألوهية الله ، ونفض كل دينونة فى هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين ! والتشريع هو مزاولة للألوهية ، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية .. ومن ثم يجعل المسلم دينونته فى هذا لله وحده ؛ ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين !

من هنا ذلك الاحتفال كله فى القرآن كله بتقرير هذه الأصول الاعتقادية ، والاتكاء عليها على هذا النحو الذى نرى صورة منه فى سياق هذه السورة المكية .. والقرآن المكى - كما أسلفنا فى التقديم لهذه السورة فى الجزء السابع [1]- لم يكن يواجه قضية النظام والشرائع فى حياة الجماعة المسلمة ؛ ولكنه كان يواجه قضية العقيدة والتصور . ومع هذا فإن السورة تحفل هذا الاحتفال بتقرير هذا الأصل الاعتقادى فى موضوع الحاكمية .. ولهذا دلالته العميقة الكبيرة[2] ..

« وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ، فَقَالُوا : هَٰذَا لِلَّهِ - بِزَعْمِهِمْ - وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا : فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ . سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ - وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ - فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ

(١) ص ٧٧ - ٩٤ (٢) يراجع فصل : « ألوهية وعبودية » فى القسم الثانى من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته »

Marfat.com

- بِزَعْمِهِمْ - وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا - افْتِرَاءً عَلَيْهِ - سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا : مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ، وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ . سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ - افْتِرَاءً عَلَى اللهِ - قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

« وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ : مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ . قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ . قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ؟ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا ؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

« قُل : لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ، أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ، أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ - فَإِنَّهُ رِجْسٌ - أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . فَمَنِ اضْطُرَّ - غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ - فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا - إِلَّا مَا حَمَلَتْ

Marfat.com

ظُهُورُهُمَا ، أَوِ الْحَوَايَا ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ـ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

« سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ! كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا . قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ : هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

« قُلْ : تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ ـ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ـ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ـ إِلَّا بِالْحَقِّ ـ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ـ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ـ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ـ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ـ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ـ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ـ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا . . ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . . ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١٥٣)

Marfat.com

هذا الشوط الطويل كله - بالإضافة إلى الشوط الذى سبقه والتعقيبات عليه - فى سياق سورة مكية، من القرآن المكى الذى كان موضوعه هو العقيدة؛ والذى لم يتعرض لشىء من الشريعة - إلا ما يختص بتأصيل أصلها الاعتقادى - حيث لم تكن للإسلام دولة تنفذ شريعته فصان الله هذه الشريعة أن تصبح حديث ألسن، وموضوعات دراسة؛ قبل أن يهيء لها المجتمع الذى يدخل فى السلم كافة، ويسلم نفسه لله جملة، ويعبد الله بالطاعة لشريعته؛ وقبل أن يهيء لها الدولة ذات السلطان، التى تحكم بهذه الشريعة بين الناس فعلا؛ وتجعل معرفة الحكم مقرونة بتنفيذه، كما هى طبيعة هذا الدين، وكما هو منهجه، الذى يكفل له الجدية والحرارة والوقار ..

نقول: هذا الشوط الطويل كله فى سورة مكية؛ يتناول قضية التشريع والحاكمية. فيدل على طبيعة هذه القضية - إنها قضية عقيدية .. ويدل على جدية هذه القضية فى هذا الدين .. إنها قضيته الرئيسية (١) ..

وقبل أن نمضى فى مواجهة النصوص تفصيلا، نحب أن نعيش فى ظلال السياق القرآنى بجملته .. لنرى محتوياته على وجه الإجمال. ولنرى دلالته وإيحاءاته كذلك ..

إنه يبدأ بعرض مجموعة التصورات والمزاعم الجاهلية حول ما كانوا يزاولونه فى شأن الثمار والأنعام والأولاد - أى فى شأن المال والاجتماع - فى جاهليتهم. فنجد هذه التصورات والمزاعم تتمثل فى:

١ - تقسيمهم ما رزقهم الله من رزق، وأنشأ لهم من زروع وأنعام، إلى قسمين: قسم يجعلونه لله - زاعمين أن هذا مما شرعه الله - وقسم يجعلونه لشركائهم - وهى الآلهة المدعاة التى يشركونها فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم من دون الله: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا. فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا» !

٢ - أنهم بعد ذلك، يجورون على النصيب الذى قسموه لله. فيأخذون جانبا منه ويضمونه

---

(١) يراجع بتوسع فصل: «عبودية وألوهية» فى القسم الثانى من كتاب: «خصائص التصور الإسلامى ومقوماته».

Marfat.com

إلى ماقسموه لشركائهم ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما قسموه للشركاء ! : « فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » !

٣ ـ أنهم يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء ـ وهم فى هذه الحالة إنما هم الكهان والمشترعون فيهم ـ ممن يصنعون التقاليد التى يخضع لها الأفراد فى المجتمع ، بحكم الضغط الاجتماعى من ناحية ، وحكم التأثر بالأساطير الدينية من ناحية ـ وكان هذا القتل يتناول البنات مخافة الفقر والعار . كما قد يتناول الذكور فى النذور ، كالذى نذره عبد المطلب أن لو رزقه الله عشرة أبناء يحمونه ليذبحن أحدهم للآلهة ! « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم » !

٤ ـ أنهم كانوا يحجرون بعض الأنعام وبعض الزروع ؛ فيزعمون أنها لا تطعم إلا بإذن خاص من الله ـ هكذا يزعمون ! ـ كما كانوا يمنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب . ويمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو الركوب أولا يركبونها فى الحج لأن فيه ذكر الله . مع الزعم بأن هذا كله قد أمر الله به : « وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ ! » .

٥ ـ وأنهم كانوا يسمون ما فى بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم ، ويجعلونه محرما على إناثهم . إلا أن ينزل الحمل ميتا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث ! مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله : « وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » ..

هذه هى مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التى كانت تصبغ وجه المجتمع العربى فى الجاهلية ، والتى يتصدى هذا السياق القرآنى الطويل ـ فى سورة مكية ـ للقضاء عليها ، وتطهير النفوس والقلوب منها ، وإبطالها كذلك فى الواقع الاجتماعى .

ولقد سلك السياق القرآنى هذا المنهج فى خطواته البطيئة الطويلة الدقيقة :

● لقد قرر ابتداء خسران الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ـ

Marfat.com

افتراء على الله ـ وأعلن ضلالهم المطلق فى هـذه التصورات والمزاعم التى ينسبونها إلى الله بغير علم .

◆ ثم لفت أنظارهم إلى أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الأموال التى يتصرفون فيها هذه التصرفات .. هو الذى أنشأ لهم جنات معروشات وغير معروشات . وهو الذى خلق لهم هـذه الأنعام .. والذى يرزق هو وحده الذى يملك ، وهو وحده الذى يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال .. وفى هذه اللفتة استخدم حشدا من المؤثرات الموحية من مشاهد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات ، ومن نعمة الله عليهم فى الأنعام التى جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرشا ، يؤكل لحمه ويفرش جلده وصوفه وشعره . . كما استخدم ذكرى العداء المتأصل بين بنى آدم والشيطان . فكيف يتبعون خطوات الشيطان ، وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين !؟

◆ بعد ذلك استعرض فى تفصيل شديد سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام ، وخلوها من كل منطق ، وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى لتبدو تافهة مهلهلة متهافتة . . وفى نهاية هـذا الاستعراض يسأل : علام ترتكنون فى هـذه التشريعات الخالية من كل حجة ومنطق : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ » فكان ذلك سرا تعلمونه أنتم ووصية خاصة بكم ! ويشنع بجريمة الافتراء على الله ، وإضلال الناس بغير علم . ويجعل هذا التشنيع احد المؤثرات المتنوعة التى يستخدمها ..

◆ وهنا يقرر السلطة صاحبة الحق فى التشريع . ويبين ماحرمته هذه السلطة فعلا من المطاعم . سواء ماحرم على المسلمين وما حرم على اليهود خاصة وأحله الله للمسلمين .

◆ ثم يناقش إحالتهم هذه الجاهلية ـ الممثلة فى الشرك بالله وتحريم ما أحل الله وكلاهما فى مستوى الآخر من ناحية دلالته ووصفه الشرعى عند الله ـ على إرادة الله وقولهم : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » .. فيقرر أن هذه المقالة هى مقالة كل كافر مكذب من قبل ، وقد قالها المكذبون حتى جاءهم بأس الله : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » فالشرك كالتحريم بدون شرع الله ، كلاهما سمة المكذبين بآيات الله . ويسألهم

Marfat.com

فى استنكار علام تحلون هذه القررات التى تقررونها : « قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون » !

◆ ثم ينهى مناقشتهم فى هـذا الشأن بدعوتهم إلى موقف الإشهاد والفاصلة ـ تماماً كما دعاهم إلى هذا الموقف فى أول السورة فى شأن أصل الاعتقاد ـ مع استخدام نفس العبارات والأوصاف ، بل نفس الألفاظ ، للدلالة على أن القضية واحدة : قضية الشرك بالله ، وقضية التشريع بغير إذن من الله : « قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » . . ونرى من الآية إلى جانب وحدة المشهد والعبارة واللفظ ، أن الذين يزاولون هذه التشريعات هم الذين يتبعون أهواءهم وهم الذين كذبوا بآيات الله . وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة . فلو أنهم صدقوا بآيات الله وآمنوا بالآخرة واتبعوا هـدى الله ما شرعوا لأنفسهم وللناس من دون الله . وما حرموا وحللوا بغير إذن من الله .

◆ وفى نهاية الشوط يدعوهم ليبين لهم ما حرمه الله حقاً . . وهنا نرى جملة من المبادىء الأساسية للحياة الاجتماعية ، فى مقدمتها توحيدالله . وبعضها أوامر وتكاليف ولكن التحريمات أغلب ، فجعلها عنواناً للكل :

لقد نهى الله عن الشرك . وأمر بالإحسان للوالدين . ونهى عن قتـل الأولاد من الفقر مع طمأنتهم على الرزق . ونهى عن القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ونهى عن قتـل النفس التى حرم الله إلا بالحق . ونهى عن مس مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . وأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط . وأمر بالعدل فى القول ـ فى الشهادة والحكم ـ ولو كان ذا قربى . وأمر بالوفاء بعهد الله كله . وجعل هذا جميعه وصية من الله كررها عقب كل جملة من الأوامر والنواهى .

هذا الحشد كله الذى يتضمن قاعدة العقيدة ومبادىء الشريعة ؛ اللتين تجمعان هـذا التجمع فى السياق ، وتمتزجان هذا الامتزاج ؛ وتعرضان جملة واحدة ، وكتلة واحدة ، بصورة لا تخفى دلالتها على من يطالع هذا القرآن على النهج الذى بيناه . . هذا الحشد كله يقال عنه فى نهاية الشوط الطويل :

Marfat.com

«وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . .

وذلك لإبراز تلك الدلالة المستفادة من السياق كله ؛ وصوغها فى تقرير واحد واضح حاسم :

إن هذا الدين شريعته كعقيدته فى تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام . بل إن شريعته من عقيدته فى هذه الدلالة .. بل إن شريعته هى عقيدته . . إذ هى الترجمة الواقعية لها . . كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية ، وعرضها فى المنهج القرآنى . .

وهذه هى الحقيقة التى زُحزح مفهوم « الدين » فى نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة ، بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة . . حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين ـ ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه ـ أن تصبح قضية الحاكمية فى نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة ! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة ! ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين ، كالذى يمرق من عقيدة أو عبادة ! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة . إنما هى الزحزحة التى زاولتها أجهزة مدربة، قروناً طويلة ، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة ؛ حتى فى حس أشد المتحمسين لهذا الدين ! وهى هى القضية التى تحتشد لها سورة مكية ـ موضوعها ليس هو النظام وليس هو الشريعة ، إنما موضوعها هو العقيدة ـ وتحشد لها كل هذه المؤثرات ، وكل هذه التقريرات ؛ بينما هى تتصدى لجزئية تطبيقية من تقاليد الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تتعلق بالأصل الكبير . . أصل الحاكمية . . وذلك أن هذا الأصل الكبير يتعلق بقاعدة هذا الدين وبوجوده الحقيق . . .

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك ، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك . ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك . . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن . ولا يعرفون طبيعة هذا الدين . . فليقرأوا القرآن كما أنزله الله ؛ وليأخذوا قول الله بجد : « وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » . .

Marfat.com

وإن بعض هؤلاء المتحمسين لهذا الدين ليشغلون بالهم وبال الناس ببيان إن كان هذا القانون ، أو هذا الإجراء ، أو هذا القول ، منطبقا على شريعة الله أم غير منطبق .. وتأخذهم الغيرة على بعض المخالفات هنا وهناك .. كأن الإسلام كله قائم ، فلا ينقص وجوده وقيامه وكماله إلا أن تمتنع هذه المخالفات !

هؤلاء المتحمسون الغيورون على هذا الدين ، يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون . بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة .. إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية فى نفوس الناس فى هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة .. إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهلية . شهادة بأن هذا الدين قائم فيها ، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات . بينما الدين كله متوقف عن « الوجود » أصلا ، مادام لا يتمثل فى نظام وأوضاع الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله . فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين .. وإن مشكلة هذا الدين فى الأرض اليوم ، لهى قيام الطواغيت التى تعتدى على ألوهية الله ، وتغتصب سلطانه ، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع فى الأنفس والأموال والأولاد .. وهى هى المشكلة التى كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات ، ويربطها بقضية الألوهية والعبودية ، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر ، وميزان الجاهلية أو الإسلام .

إن المعركة الحقيقية التى خاضها الإسلام ليقرر « وجوده » لم تكن هى المعركة مع الإلحاد ، حتى يكون مجرد « التدين » هو ما يدعى إليه المتحمسون لهذا الدين ! ولم تكن هى المعركة مع الفساد الاجتماعى أو الفساد الأخلاقى — فهذه معارك تالية لمعركة « وجود » هذا الدين ! . لقد كانت المعركة الأولى التى خاضها الإسلام ليقرر « وجوده » هى معركة « الحاكمية » وتقرير لمن تكون . لذلك خاضها وهو فى مكة . خاضها وهو ينشئ العقيدة ، ولا يتعرض للنظام والشريعة . خاضها ليثبت فى الضمير أن الحاكمية لله وحده ؛ لا يدعيها لنفسه مسلم ؛ ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم . . فلما أن رسخت هذه العقيدة فى نفوس العصبة المسلمة فى مكة ،

Marfat.com

يسر الله لهم مزاولتها الواقعية فى المدينة . . فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون . بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقى لهذا الدين !

وحسبنا هذا القدر لنواجه النصوص بالتفصيل .

* * *

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! » ..

يقرر السياق ـ وهو يصف تصورات الجاهلية وتقاليدها فى الحرث والأنعام ـ أن الله هو الذى أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء .. ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذ يجعلون له منه سبحانه جزءا ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءا (وطبيعى أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهى إليهم هذا الجزء الأخير!). ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذى جعلوه لله . على النحو الذى تقرره الآية !

عن ابن عباس قال : كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزما ، جعلوا منه لله سهما وسهما لآلهتهم . وكانت إذا هبت الريح من نحو الذى جعلوه لآلهتهم إلى الذى جعلوه لله ، ردوه إلى الذى جعلوه لآلهتهم . وإذا هبت الريح من نحو الذى جعلوه لله إلى الذى جعلوه لآلهتهم ، أقروه ولم يردوه . فذلك قوله : « ساء ما يحكمون » .

وعن مجاهد قال : يسمون لله جزءا من الحرث ، ولشركائهم وأوثانهم جزءا . فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه . وما ذهب من جزء أوثانهم إلى جزء الله ردوه . وقالوا : « الله عن هذا غنى » ! والأنعام : السائبة والبحيرة التى سموا .

وعن قتادة قال : عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءا لله وجزءا لشركائهم وكانوا إذا خالط شىء مما جزأوا لله فيما جزأوا لشركائهم خلوه . فإذا خالط شىء مما جزأوا لشركائهم فيما جزأوا لله ردوه على شركائهم . وكانوا إذا أصابتهم السنة (يعنى الجدب) استعانوا بما جزأوا لله ، وأقروا ما جزأوا لشركائهم . قال الله : « ساء ما يحكمون » .

وعن السدى قال : كانوا يقسمون من أموالهم قسما فيجعلونه لله ، ويزرعون زرعا فيجعلونه

Marfat.com

لله . ويجعلون لآلهتهم مثل ذلك .. فما خرج للآلهة أنفقوه عليها ، وما خرج لله تصدقوا به . فإذا هلك الذي يصنعون لشركائهم ، وكثر الذى لله ، قالوا : « ليس بد لآلهتنا من نفقة » ! وأخذوا الذى لله فأنفقوه على آلهتهم . وإذا أجدب الذى لله ، وكثر الذى لآلهتهم ، قالوا : « لو شاء أزكى الذى له » ! فلا يردون عليه شيئا مما للآلهة . قال الله .. لو كانوا صادقين فيما قسموا لبئس إذن ما حكموا : أن يأخذوا منى ولا يعطونى ! فذلك حين يقول : « ساء ما يحكمون » .

وعن ابن جرير : وأما قوله : « ساء ما يحكمون » فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم . يقول جل ثناؤه : وقد أساءوا فى حكمهم ، إذ أخذوا من نصيبى لشركائهم ، ولم يعطونى من نصيب شركائهم . وإنما عنى بذلك ـ تعالى ذكره ـ الخبر عن جهلهم وضلالتهم ، وذهابهم عن سبيل الحق ، بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم ، وأنعم عليهم بالنعم التى لا تحصى ، مالا يضرهم ولا ينفعهم ، حتى فضلوه فى أقسامهم عن أنفسهم بالقسم عليه !

هذا هو ماكان شياطين الإنس والجن يوحون به إلى أوليائهم ليجادلوا به المؤمنين فى الأنعام والزروع . وظاهر فى هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين فى هذا الذى يزينونه لأوليائهم . فأما مصلحة شياطين الإنس ـ من الكهنة والسدنة والرؤساء ـ فهى متمثلة أولا فى الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء ، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة ! ومتمثلة ثانيا فى المصالح المادية التى تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ؛ وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة ! .. وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل فى نجاح الإغواء والوسوسة لبنى آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم ، ويفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم ذللا إلى الدمار فى الدنيا والنار فى الآخرة !

وهذه الصورة التى كانت تقع فى جاهلية العرب ، وكانت تقع نظائرها فى الجاهليات الأخرى : للإغريق والفرس والرومان ، والتى ماتزال تقع فى الهند وإفريقية وآسيا ... هذه الصور كلها ليست إلا صورا من التصرف فى المال لاتقتصر عليها الجاهلية ! فالجاهلية الحاضرة

Marfat.com

تتصرف كذلك في الأموال بما لم يأذن به الله . وعندئذ تلتقي في الشرك مع تلك الجاهليات القديمة . تلتقي في الأصل والقاعدة . فالجاهلية هي كل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله . ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف . . فإن هي إلا أشكال .. « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون » .

يقول : وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم . . وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق — أو خشية السبي والعار — ومن قتل بعض الأبناء في النذر للآلهة كالذي روى عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه !

وظاهر أن هذا وذاك كان يوحى به عرف الجاهلية . العرف الذي وضعه الناس للناس . والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن .. من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس ، ومن القرناء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والموالاة فيما بينهم !

والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين :

« ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم » .

ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح .. فأما الهلاك فيتمثل ابتداء في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيرا في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها ، وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم ! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرا من الخضوع . لأن التصورات الملتبسة بالدين والعقيدة — وما هي منها — بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس . مالم تعتصم منه بدين واضح ؛ ومالم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة ؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق .. لاينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة .. هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس

Marfat.com

العنت الشديد فى حياتهم ، ثم لايجدون لأنفسهم منها مفرا .. هذه الأزياء والمراسم التى تفرض نفسها على الناس فرضا ، وتكلفهم أحيانا مالا يطيقون من النفقة ، وتأ كل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم . ومع ذلك لايملكون إلا الخضوع لها .. أزياء الصباح ، وأزياء بعد الظهر ، وأزياء المساء .. الأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف ... إلى آخر هذا الاسترقاق الذل .. من الذى يصنعه ومن الذى يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء . وتقف وراءه شركات الإنتاج ! ويقف وراءه المرابون فى بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! .. ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التى ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات (١) ؛ ويطلقونها تضغط على الناس فى صورة (عرف اجتماعى) . فهم يعلمون أن النظريات وحدها لاتكفى مالم تتمثل فى أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفى عرف اجتماعى غامض لا يناقشه الناس ، لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه !

إنه فعل الشياطين .. شياطين الإنس والجن .. وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها . .

وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شق الجاهليات فى كل أعصار الحياة . ومواجهة للواقع المنحرف دائما ورده إلى صراط الله المستقيم ..

ومع ضخامة الكيد ، وثقل الواقع ، فإن السياق القرآنى يهوّن أمر الجاهلية ، ويكشف عن الحقيقة الكبرى التى قد يخدع عنها هذا الجانب الظاهر .. إن هؤلاء الشياطين وأولياءهم لفى قبضة الله وسلطانه . وهم لايفعلون ما يفعلونه بقدرة ذاتية فيهم . ولكن بترك الحبل ممدودا لهم قليلا ؛ بمشيئة الله وقدره ، تحقيقا لحكمة الله فى ابتلاء عباده . ولو شاء الايفعلوه مافعلوه . ولكنه شاء للابتلاء . فلا على النبى — صلى الله عليه وسلم — ولا على المؤمنين . فليمضوا فى طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيدون :

---

(١) يراجع فصل : « اليهود الثلاثة » فى كتاب : « التطور والثبات فى حياةالبشرية ». لمحمد قطب —

Marfat.com

« ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون » ..

ولابد أن نذكر أنهم ما كانوا يجرأون على أن يقولوا: إن هذه التصورات والتصرفات،من عند أنفسهم . إنما يفترون على الله ، فيزعمون أنه هو شرعها لهم .. ينسبونها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل ـ بزعمهم !

كذلك يفعل الشياطين اليوم في الجاهليات الحديثة .. إن معظمهم لا يستطيع أن يتبجح تبجح الشيوعيين الملحدين ؛ فينفي وجود الله جملة ويتنكر للدين علانية . إنما يلجأ إلى نفس الأسلوب الذي كان يلجأ إليه الشياطين في جاهلية العرب ! يقولون : إنهم يحترمون الدين ! يزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين ! .. إنه أسلوب ألأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين ! إنه يخدر العاطفة الدينية الغامضة التي لاتزال تعيش في قرارات النفوس ـ وإن لم تكن هي الإسلام ، فالإسلام منهج واضح عملي واقع وليس هذه العاطفة المبهمة الغامضة ـ ويفرغ الطاقة الفطرية الدينية في قوالب جاهلية لاإسلامية . وهذا أخبث الكيد وألأم الأساليب !

ثم يجيء « المتحمسون » لهذا الدين ؛ فيفرغون جهدهم في استنكار جزئيات هزيلة على هامش الحقيقة الإسلامية ، لاتروق لهم في هذه الأوضاع الجاهلية للشرك، المغتصبة لألوهية الله وسلطانه بالجملة . وبهذه الغيرة الغبية يسبغون على هذه الأوضاع الجاهلية للشرك طابع الإسلام . ويشهدون لها شهادة ضمنية خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين حقا ، ولكنها تخالف عنه في هذه الجزئيات الهزيلة !

ويؤدي هؤلاء المتحمسون دورهم لتثبيت هذه الأوضاع وتطهيرها . وهو نفس الدور الذي تؤديه الأجهزة الدينية المحترفة ، التي تلبس مسوح الدين او إن كان الإسلام بالذات لا يعرف المسوح ولا ينطق باسمه كاهن ولا سادن !

« وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ، لايطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ـ افتراء عليه ـ سيجزيهم بما كانوا يفترون » ..

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري : « وهذا خبر من الله ـ تعالى ذكره ـ عن هؤلاء الجهلة

Marfat.com

من المشركين . إنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم ، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك » .

والحجر : الحرام .. فهؤلاء المعتدون على سلطان الله ، الذين يدعون ـ مع ذلك ـ أن ما يشرعونه هو شريعة الله ، قد عمدوا إلى بعض الزروع وبعض الأنعام ، فعزلوها لآلهتهم ـ كما تقدم ـ وقالوا : هذه الأنعام وهذه الثمار محرمة عليهم لا يطعمونها . لا يطعمها إلا من شاء الله ! ـ بزعمهم ! ـ والذى يقرر ما يقرر فى هذا الشأن هم بطبيعة الحال الكهنة والسدنة والرؤساء ! وعمدوا إلى أنعام قيل : إنها هى الأنواع المسماة فى آية المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام[1] » فجعلوا ظهورها حراما على الركوب . كما عمدوا إلى أنعام فقالوا : هذه لا يذكر اسم الله عليها عند ركوبها ولا عند حلبها ، ولا عند ذبحها .. إنما تذكر أسماء الآلهة وتخلص لها ! كل ذلك « افتراء على الله » !

قال أبو جعفر ابن جرير : « وأما قوله « افتراء على الله[2] » فإنه يقول : فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرموا ، وقالوا ما قالوا من ذلك ، كذبا على الله ، وتخرصا بالباطل عليه ، لأنهم أضافوا ما كانوا يحرمون من ذلك ، على ما وصفه عنهم جل ثناؤه فى كتابه ، إلى أن الله هو الذى حرمه . فنفى الله ذلك عن نفسه ، وأكذبهم . وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدعون » .

وهنا كذلك تبدو لنا أساليب الجاهلية ، التى تتكرر فى معظم الجاهليات ، وذلك قبل أن يبلغ التبجح بناس من البشر أن يقولوا بمادية الوجود ! وقبل أن يبلغ التبجح ببعض من لا ينكرون الله البتة ، أن يجهروا بأن « الدين » مجرد « عقيدة » وليس نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا ، يهيمن على الحياة !

وإن كان ينبغى أن ندرك دائما أن أسلوب الجاهلية التى تقيم نظاما أرضيا ، الحاكمية فيه للبشر لا لله ، ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية .. أن ندرك أن هذا الأسلوب هو أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق ! ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية

---

(١) سبق بيان أوصافها فى الجزء السابع ص ٥٥ ـ ٥٦

(٢) « افتراء على الله » وردت فى آية سابقة . فأما فى هذه الآية فالذى ورد (افتراء عليه) .

Marfat.com

العالمية إلى هذا الأسلوب فى المنطقة التى كانت يوما دار إسلام تحكم بشريعة الله . بعدما تبين لها فشل التجربة التركية التى قام بها البطل الذى صنعوه هناك ! .. لقد أدت لهم هذه التجربة دورا هاما فى تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامى فى الأرض ، ولكنها بعلمانيتها السافرة قد عجزت عن أن تكون نموذجا يؤثر فى بقية المنطقة . لقد انخلعت من الدين ، فأصبحت أجنبية عن الجميع ، الذين ما يزال الدين عاطفة غامضة فى قرارات نفوسهم .. ومن ثم عمدت الصليبية العالمية والصهيونية فى التجارب التالية ، التى تستهدف نفس الهدف ، أن تتدارك غلطة التجربة الكمالية التركية . فتضع على هذه التجارب ستارا من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضفى عليه هذه الصفة ، سواء بالدعاية المباشرة ؛ أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ماعداها سليم ! وكان هذا من أخبث الكيد الذى تكيده شياطين الإنس والجن لهذا الدين ..

على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التى تعمل بكل ثقلها فى هذه الفترة ، وبكل تضامنها وتجمعها ، وبكل تجاربها وخبرتها ، تحاول أن تسترد الغلطة فى التجربة التركية ذاتها ، بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت حركة من حركات البعث الإسلامى ! وأننا يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها (علمانية) تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلا !

ويجهد المستشرقون (وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبى الصهيونى) فى تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهدا كبيرا .. ذلك أن انكشاف إلحادها جعلها تؤدى دورا محدودا .. وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامى فى الأرض .. ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدى الدور الآخر - الذى تحاول أن تؤديه التجارب التالية فى المنطقة - من تفريغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية فى أوضاع وأشكال جاهلية ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصيلة باسم الدين أيضا . ومن إلباس الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدى به دورها فى كل البقاع التى ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ؛ وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية .. الأمر الذى عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مئة عام ، من الكيد للإسلام !

.. « سيجزيهم بما كانوا يفترون » ..

Marfat.com

« وقالوا : مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم . إنه حكيم عليم » ..

لقد استطردوا فى أوهام التصورات والتصرفات ، النابعة من انحرافات الشرك والوثنية ، ومن ترك أمر التحليل والتحريم للرجال ؛ مع الادعاء بأن مايشرعه الرجال هو الذى شرعه الله . استطردوا فى هذه الأوهام فقالوا عن الأجنة التى فى بطون بعض الأنعام - ولعلها تلك المسماة البحيرة والسائبة والوصيلة - إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج ، محرمة على الإناث ، إلا أن تكون ميتة فيشارك فيها الإناث الذكور .. هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل ، إلا أهواء الرجال التى يصوغون منها دينا غامضا ملتبسا فى الأفهام .

ويعقب السياق القرآنى تعقيب التهديد ؛ لمن صاغوا هذه الشرائع وكذبوا على الله فوصفوها بأنها من شرع الله :

« سيجزيهم وصفهم » ..

« إنه حكيم عليم » ..

يعلم حقائق الأحوال ، ويتصرف فيها بحكمة ، لا كما يتصرف هؤلاء المشركون الجهال .

وإن الإنسان ليعجب ، وهو يستعرض مع السياق القرآنى هذه الضلالات ، وما تحمله أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات . . يعجب لتكاليف الانحراف عن شرع الله ونهجه ، تلك التى يتحملها المنحرفون عن صراط الله المستقيم . ولأثقال الخرافة والغموض والوهم التى يتبعها الضالون . ولأغلال العقيدة الفاسدة فى المجتمع والضمير . . نعم يعجب للعقيدة المنحرفة تكلف الناس حتى فلذات أكبادهم ، فوق ماتكلفهم من تعقيد الحياة واضطرابها ، والسير فيها بلا ضابط ، سوى الوهم والهوى والتقليد . وأمامهم التوحيد البسيط الواضح ؛ يطلق الضمير البشرى من أوهام الوهم والخرافة ؛ ويطلق العقل البشرى من عقال التقليد الأعمى ؛ ويطلق المجتمع البشرى من الجاهلية وتكاليفها ؛ ويطلق « الإنسان » من العبودية للعبيد - سواء فيما يشترعونه من قوانين ، وما يصنعونه من قيم وموازين - ويحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة ، وتصورا واضحا ميسرا مريحا ، ورؤية لحقائق الوجود والحياة

Marfat.com

كاملة عميقة ، وانطلاقا من العبودية للعبيد ، وارتفاعا إلى مقام العبودية لله وحده .. المقام الذى لا يرتقى إلى أعلى درجاته إلا الأنبياء !

ألا إنها الخسارة الفادحة - هنا فى الدنيا قبل الآخرة - حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم ؛ وتتردى فى حمأة الجاهلية ؛ وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم - سفها بغير علم - وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ..

خسروا الخسارة المطلقة . خسروا فى الدنيا والآخرة . خسروا أنفسهم وخسروا أولادهم . خسروا عقولهم وخسروا أرواحهم . خسروا الكرامة التى جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذى لا هداية فيه :

« قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

* * *

بعد ذلك يردهم السياق إلى الحقيقة الأولية التى ضلوا عنها ، والتى أشار إليها إشارة فى أول هذا الحديث بقوله : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا » .. يردهم إلى مصدر الحرث والأنعام التى يتصرفون فى شأنها هذه التصرفات ؛ ويتلقون فى شأنها من شياطين الإنس والجن الذين لم يخلقوها لهم ولم ينشئوها .. إن الله هو الذى ذرأ الحرث والأنعام ، متاعا للناس ونعمة ؛ ذرأها لهم ليشكروا له ؛ ويعبدوه - وما به سبحانه من حاجة إلى شكرهم وعبادتهم ، فهو الغنى ذو الرحمة ؛ إنما هو صلاح حالهم فى دينهم ودنياهم - فما بالهم يحكمون من لم يخلق شيئاً ، فيما ذرأ الله من الحرث والأنعام ؟ وما بالهم يجعلون لله نصيبا ، ولأولئك نصيبا ، ثم لا يقفون عند هذا الحد فيتلاعبون - تحت استهواء أصحاب المصلحة من الشياطين - فى النصيب الذى جعلوه لله ؟ !

إن الخالق الرازق هو الرب المالك . الذى لا يجوز أن يُتصرف فى هذا المال إلا بإذنه

Marfat.com

ممثلا فى شرعه . وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعى الأرباب المتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله !

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان ، متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده . ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » .

إن الله ـ سبحانه ـ هو الذى خلق هذه الجنات ابتداء ـ فهو الذى أخرج الحياة من الموات ـ وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدها الإنسان بالعرائش والحوائط ؛ ومنها البريات التى تنبت بذاتها ـ بقدر الله ـ وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم . وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، منوع الصنوف متشابها وغير متشابه ، وإنه ـ سبحانه ـ هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها « حمولة » عالية القوائم بعيدة عن الأرض حمالة للأثقال . وجعل منها « فرشا » صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش ..

إنه هو ـ سبحانه ـ الذى بث الحياة فى هذه الأرض ؛ ونوعها هذا التنويع ؛ وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس فى الأرض .. فكيف يذهب الناس ـ فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق ـ إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال ؟

إن المنهج القرآنى يكثر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس ، ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمية فى حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده ؛ هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمية والسلطان وحده .. بلا جدال :

وهنا يحشد السياق مشاهد الزرع والإثمار ، ومشاهد الأنعام وما فيها من نعم الله .. يحشد هذه المؤثرات فى صدد قضية الحاكمية ، كما حشدها من قبل فى صدد قضية الألوهية .. فيدل على أن هذه وتلك قضية واحدة فى العقيدة الإسلامية .

وعندما يذكر الزروع والثمار يقول :

Marfat.com

« كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » . .

والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذى جعل بعض الروايات تقول عن هذه الآية إنها مدنية . وقد قلنا فى التقديم للسورة : إن الآية مكية ، لأن السياق فى الجزء المكى من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية . فإن مابعدها ينقطع عما قبلها لو كانت قد تأخرت حتى نزلت فى المدينة . وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات فى الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة . . أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السنة بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة . .

وقوله تعالى :

« ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . .

ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روى أنهم تباروا فى العطاء حتى أسرفوا ، فقال الله سبحانه : « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . .

وعندما يذكر الأنعام يقول :

« كلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » . .

ذلك ليذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشيطان لم يخلق شيئا . فما بالهم يتبعونه فى رزق الله ؟ ثم ليذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين . فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟!

* * *

ثم يأخذ السياق فى مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية ، ليلقى عليها الضوء ، ويستعرضها واحدا واحدا ، وجزئية جزئية ؛ فيكشف فيها عن السخف الذى لا يمكن تمليله ولا الدفاع عنه ؛ والذى قد يخجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له فى النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير :

« ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أمما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ! ومن الإبل اثنين ومن البقر

Marfat.com

اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

فهذه الأنعام التي يدور حولها الجدل ؛ والتي ذكر في الآية السابقة أن الله خلقها لهم ، هي ثمانية أزواج - وكل من الذكر والأنثى يطلق عليه لفظ زوج عند ما يكون مع رفيقه - زوج من الضأن وزوج من المعز . فأي منها حرمه الله على أي من الناس ؟ أم إنه حرم أجنتها في البطون ؟

« نبئوني بعلم إن كنتم صادقين » . .

فهذه الشئون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم .

وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى من البقر . فأيها كذلك حرم ؟ أم أجنتها هي التي حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم :

« أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ » . .

فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم . فما ينبغي أن يكون هناك تحريم بغير أمر من الله مستيقن ، لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون .

وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد .. وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذي شرع هذا الذي يشرعونه . لذلك يعاجلهم بالتحذير والتهديد .

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم . إن الله لا يهدى القوم الظالمين » . .

إنه لا أحد أظلم ممن يفترى على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول : شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن . . أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى . وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . . والله لا يهدى القوم الظالمين .

***

Marfat.com

والآن وقد كشف لهم عما فى معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التى يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحى شياطينهم وشركائهم ، بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم ، إنما الذى خلقها لهم هو الله ، الذى يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد . .

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقا عن بينة ووحى ، لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذى إذا حرم الشىء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ؛ بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب فى سلطان الحاكمية والتشريع . . وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله !

« قل : لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير — فإنه رجس — أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر — غير باغ ولا عاد — فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما — إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم — ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » . .

قال أبو جعفر ابن جرير الطبرى :

« يقول — جل ثناؤه — لنبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — قل ، يا محمد ، لهؤلاء الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله . والقائلين : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء — بزعمهم — والمحرمين من أنعام أخرَ ظهورها ، والتاركين ذكر اسم الله على أخر منها : والمحرمين بعض ما فى بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم ، ومحليه لذكورهم . المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله ؛ وإضافة ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذى حرمه عليهم : أجاءكم من الله رسول بتحريمه ذلك

Marfat.com

عليكم ، فأنبئونا به ، أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له ، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه ؟ فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك ، ولا يمكنكم دعواه ، لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم . فإنى لا أجد فيما أوحى إلى من كتابه وآى تنزيله شيئاً محرما على آكل يأكله ، مما تذكرون أنه حرمه من هذه الانعام التى تصفون تحريم ما حرم عليكم منها - بزعمكم - إلا أن يكون « ميتة » ، قد ماتت بغير تذكية ، أو « دما مسفوحا » ، وهو المنصب ، أو إلا أن يكون لحم خنزير « فإنه رجس » .. « أو فسقا » يقول : أو إلا أن يكون فسقا ، يعنى بذلك : أو إلا أن يكون مذبوحا ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته فذكر اسم وثنه . فإن ذلك الذبح فسق ، نهى الله عنه وحرمه ، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك لأنه ميتة .

« وهذا إعلام من الله - جل ثناؤه - للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه فى تحريم الميتة بما جادلوهم به ، أن الذى جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذى حرمه الله ، وأن الذى زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة فى إضافتهم تحريمه إلى الله » ..

وقال فى تأويل قوله تعالى : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » :

... « أن معناه : فمن اضطر إلى أكل ماحرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ فى أكله إياه تلذذاً ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عاد فى أكله بتجاوزه ماحده الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه مايدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك .. لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه .. فلا حرج عليه فى أكله ما أكل من ذلك . « فإن الله غفور » فيما فعل من ذلك ، فساتر عليه ، بتركه عقوبته عليه . ولو شاء عاقبه عليه . « رحيم » بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه . ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه » .

أما حد الاضطرار الذى يباح فيه الأكل من هذه المحرمات ؛ وللقدار المباح منها فحولهما خلافات فقهية .. فرأى أنه يباح مايحفظ الحياة فقط عند خوف الهلاك لو امتنع .. ورأى أنه

Marfat.com

يباح مايحقق الكفاية والشبع .. ورأى أنه يباح فوق ذلك مايدخر لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام .. ولا ندخل فى تفصيلات الفروع .. فهذا القدر منها يكفى فى هذا الموضع .

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذى ظفر من الحيوان - أى كل حيوان قدمه غير مشقوقة ؛ وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط . وحرم كذلك شحم البقر والغنم - إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأمعاء ، أو ما اختلط منه بالعظم .. وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه :

« وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلا ماحملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون » .

والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهوسبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق، لا مايقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذى حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه .. لقد كان هذا مباحا حلالا ليعقوب . ولكنه حرم عليهم بعد مابغوا ، فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات .

« فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » ..

فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمنا من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته - سبحانه - تسع المحسن والمسىء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلما منه ورحمة . فإن بعضهم قد يثوب إلى الله .. ولكن بأسه شديد لا يرده عن المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم .

وهذا القول فيه من الإطماع فى الرحمة بقدر مافيه من الإرهاب بالبأس . والله الذى خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذاك ؛ لعلها تهتز وتتلق وتستجيب .

* * *

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضييق الخناق عليهم ، وسد الذرائع فى وجوههم ، يواجه مهربهم الأخير الذى يحيلون عليه شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم .. إنهم يقولون:

Marfat.com

إنهم مجبرون لامخيرون فيا اعتسفوا من شرك وضلال . فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء :

« سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولاحرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » :

وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة . . . وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هـذا الجدل ، فتعقد تعقيدا لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية . . ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد ، ما اشتـد هـذا الجدل ، وماسار في ذلك الطريق الذي سار فيه .

ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه ، فنجد قضية واضحة بسيطة محددة :

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » . .

فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم ، وتحريمهم ماحرموه مما لم يحرمه الله ، وادعاءهم أن هـذا من شرع الله بغير علم ولا دليل . . يحيلون هـذا كله على مشيئة الله بهم . فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا . .

فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة ؟

لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد :

« كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » . .

وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر ، وتوقظ من الغفلة ، وتوجه إلى العبرة . .

واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر . . إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات . . وهذا مايملكون أن يعلموه علما مستيقنا . . فأما مشيئة الله فهي غيب لاوسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقينا فكيف يحيلون عليه :

Marfat.com

« قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون »..
إن لله أوامر ونواهى معلومة علما قطعيا ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ، ليمضوا وراء الحدس والخرص فى واد لا يعلمونه ؟

هذا هو فصل القول فى هذه القضية .. إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ، ليكيفوا أنفسهم على حسبها .. وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . وهذا حسبهم فى القضية التى تبدو عندئذ – فى واقعها العملى – يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته !

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بنى آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى . أو يقذف بالهدى فى قلوبهم فيهتدوا بلا قهر . . . ولكنه – سبحانه – شاء غير هذا ! شاء أن يبتلى بنى آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال فى غيه وفى عمايته .. وجرت سنته بما شاء ..

« قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين » .

قضية واضحة ، مصوغة فى أيسر صورة يدركها الإدراك البشرى . فأما المماظلة فيها والمجادلة فهى غريبة على الحس الإسلامى وعلى المنهج الإسلامى .. ولم ينته الجدل فيها فى أية فلسفة أو أى لاهوت إلى نتيجة مريحة . لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لايناسب طبيعتها ..

إن طبيعة أى حقيقة هى التى تحدد منهج تناولها ، وأسلوب التعبير عنها كذلك . الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعمل . والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن . والحقيقة التى وراء هذا المدى ، لابد أن تتناول بمنهج آخر .. هو كما قلنا من قبل : منهج التذوق الفعلى لهذه الحقيقة فى مجالها الفعلى . ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التى عولجت بها فى كل ماجرى حولها من الجدل قديما وحديثا

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعا عمليا ؛ تحدده أوامر ونواه واضحة . فالإحالة على

Marfat.com

للشيئة الغيبية دخول فى متاهة ، يرتادها العقل بغير دليل ، ومضيعة للجهد الذى ينبغى أن ينفق فى العمل الإيجابى الواقعى المشهود .

* * *

وأخيرا يوجه الله ـ سبحانه ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مواجهة المشركين فى موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل فى موقف الإشهاد على قضية الألوهية فى أوائل السورة :

فى أوائل السورة قال له :

« قل : أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هـذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنى برىء مما تشركون » ..

وهنا قال له :

« قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » ..

إنها مواجهة هائلة ، ومواجهة كذلك فاصلة . ودلالتها على طبيعة هذا الدين غير خافية .. إن هذا الدين يسوى بين الشرك العلى الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله ؛ وبين الشرك الآخر الذى يتمثل فى مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس بما لم يأذن به الله ـ دون اعتبار لما يدعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة الله ! ـ كما أنه يصم الذين يرتكبون هذه الفعلة بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون .. أى يجعلون له أندادا تعدله ..

وهو ذات التعبير الذى جاء فى أول آية فى السورة وصفا للذين كفروا :

« الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ..

هذا حكم الله على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس ـ دون اعتبار لدعواهم أن ما يشرعونه هو من شريعة الله ! ـ وليس بعد حكم الله رأى لأحد فى هذه القضية الخطيرة .

Marfat.com

فإذا أردنا أن نفهم لماذا يقضى الله ـ سبحانه ـ بهذا الحكم ؟ ولماذا يعدهم مكذبين بآياته ؛ غير مؤمنين بالآخرة ، مشركين يعدلون بربهم غيره .. فإن لنا أن نحاول الفهم . فتدبر حكمة الله فى شرعه وحكمه أمر مطلوب من المسلم ..

إن الله قد حكم على المشرعين للناس من عند أنفسهم ـ مهما قالوا إنه من شرع الله ـ بأنهم يكذبون بآياته . لأن آياته ـ إن كان المراد بها آياته الكونية ـ كلها تشهد بأنه الخالق الرازق الواحد .. والخالق الرازق هو المالك. فيجب أن يكون وحده المتصرف الحاكم .. فمن لم يفرده ـ سبحانه ـ بالحاكمية فقد كذب بآياته هذه .. وإن كان المقصود آياته القرآنية ، فالنصوص فيها حاسمة وصريحة وواضحة فى وجوب إفراده ـ سبحانه ـ بالحاكمية فى حياة البشر الواقعية ، واتخاذ شريعته وحدها قانونا ، وتعبيد الناس له وحده بالشرع النافذ والحكم القاهر ..

كذلك حكم عليهم ـ سبحانه ـ بأنهم لايؤمنون بالآخرة .. فالذى يؤمن بالآخرة ، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة ، لا يمكن أن يعتدى على ألوهية الله ، ويدعى لنفسه حقه الذى يتفرد به . وهو حق الحاكمية المطلقة فى حياة البشر . ممثلة هذه الحاكمية فى قضائه وقدره ، وفى شريعته وحكمه . .

ثم حكم عليهم فى النهاية بأنهم بربهم يعدلون . . أى أنه حكم عليهم بالشرك الذى وصف به الكافرين . . ذلك أنهم لو كانوا موحدين ما شاركوا الله ـ سبحانه ـ فى حق الحاكمية الذى تفرد به . أو ماقبلوا من عبد أن يدعيه ويزاوله وهم راضون !

هذه ـ فيما يبدو لنا ـ هى علة حكم الله على من يزاولون حق الحاكمية ويشرعون الناس مالم يأذن به ، بالتكذيب بآياته ، وعدم الإيمان بالآخرة والشرك الذى يتحقق به الكفر .. أما الحكم ذاته فلا يملك « مسلم » أن يجادل فيه . فقد صدرت فيه كلمة الفصل التى لا معقب عليها . فلينظر كل « مسلم » كيف يتأدب أمام كلمة العزيز الحكيم ..

* * *

وبعد موقف الإشهاد ورفض ما يقررونه من المحرمات ، يلقى إليهم بالمقررات الإلهية التى تتضمن ما حرمه الله حقا .. وسنجد إلى جانب ما حرمه بعض التكاليف الإيجابية التى لماقابل محرم . وهذه المحرمات تبدأ بالمحرم الأول .. وهو الشرك بالله .. لأن هذه هى القاعدة

Marfat.com

الأولى التي يجب أن تتقرر ، لتقوم عليها المحرمات والنواهي ، لمن استسلم لها وأسلم :

« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئا . وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ومابطن. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق .. ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها - وإذا قلتم فاعدلوا - ولو كان ذاقربى - وبعهد الله أوفوا .. ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .. » .

وننظر في هذه الوصايا - التي ترد في السياق بمناسبة الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار وأوهام الجاهلية وتصوراتها وتصرفاتها - فإذا هي قوام هذا الدين كله.. إنها قوام حياةالضمير بالتوحيد ، وقوام حياة الأسرة بأجيالها المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجري فيه من معاملات ، وقوام حياة الإنسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيدالله ..

وننظر في ختام هذه الوصايا ، فإذا الله - سبحانه وتعالى - يقرر أن هذا صراطه المستقيم؛ وكل ما عداه سبل تتفرق بالناس عن سبيله الواصل .. الوحيد ..

إنه أمر هائل هذا الذي تتضمنه الآيات الثلاثة .. أمر هائل يجيء في أعقاب قضية تبدو كأنها لمحة جانبية من الجاهلية ؛ ولكنها في الحقيقة هي قضية هذا الدين الأساسية ؛ بدلالةربطها بهذه الوصايا الهائلة الكلية ..

« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » ..

قل : تعالوا أقص عليكم ما حرمه عليكم ربكم - لاما تدعون أنتم أنه حرمه بزعمكم - ! لقد حرمه عليكم « ربكم » الذي له وحده حق الربوبية - وهي القوامة والتربية والتوجيه والحاكمية - وإذن فهو اختصاصه ، وموضع سلطانه . فالذي يحرم هو « الرب » والله هووحده الذي يجب أن يكون ربا ..

« ألا تشركوا به شيئا » ..

Marfat.com

القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة ؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض ، وتستمد منها الحقوق والواجبات .. القاعدة التي يجب أن تقوم أولا قبل الدخول في الأوامر والنواهي ؛ وقبل الدخول في التكاليف والفرائض ، وقبل الدخول في النظام والأوضاع ، وقبل الدخول في الشرائع والأحكام .. يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم ؛ لا يشركون معه أحدا في ألوهيته ، ولا يشركون معه أحدا في ربوبيته كذلك. يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار ؛ ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ؛ ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء ..

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك ، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة ، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد ..

إن الشرك - في كل صوره - هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم . وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كله له ؛ حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله ، ولا رب لهم إلا الله ، ولا حاكم لهم إلا الله ، ولا مشرع لهم إلا الله . كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله . .

وإن التوحيد - على إطلاقه - لهو القاعدة الأولى التي لا يغني غناءها شيء آخر ، من عبادة أو خلق أو عمل ..

من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة :

« ألا تشركوا به شيئا » ..

وينبغي أن نلتفت إلى ما قبل هذه الوصايا ، لنعلم ماذا يراد بالشرك الذي ينهى عنه في مقدمة الوصايا - لقد كان السياق كله بصدد قضية معينة - قضية التشريع ومزاولة حق الحاكمية في إصداره - وقبل آية واحدة كان موقف الإشهاد الذي يحسن أن نعيد نصه :

« قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون » ..

يجب أن نذكر هذه الآية ، وما قلناه عنها في الصفحات السابقة لندرك ماذا يعني السياق القرآني هنا بالشرك الذي ينهى عنه ابتداء .. إنه الشرك في الاعتقاد ، كما أنه الشرك في الحاكمية في السياق الحاضر ، والملابسة فيه حاضرة ..

Marfat.com

ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر ، لأن جهود الشياطين فى زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية ، قد آتت ثمارها - مع الأسف - فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة ، وتنفصل فى الحس عن أصلها الاعتقادى ! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام ، يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية ؛ أو لاستنكار انحلال أخلاقى ؛ أو لمخالفة من المخالفات القانونية . ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية ، وموقعها من العقيدة الإسلامية ! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية ، ولا يستنكرون المنكر الأكبر ؛ وهو قيام الحياة فى غير التوحيد؛ أى على غير إفراد الله - سبحانه - بالحاكمية ..

إن الله قبل أن يوصى الناس أية وصية، أوصاهم ألا يشركوا به شيئا . فى موضع من السياق القرآنى يحدد المعنى بالشرك الذى تبدأ بالنهى عنه جميع الوصايا !

إنها القاعدة التى يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة ، وترتبط بها الجماعة بالميزان الثابت الذى ترجع إليه فى كافة الروابط ؛ وبالقيم الأساسية التى تحكم الحياة البشرية .. فلا تظل نهبا لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التى تتراوح مع الشهوات والنزوات ..

« وبالوالدين إحسانا . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » ..

إنها رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة - تقوم بعد الرابطة فى الله ووحدة الاتجاه - ولقد علم الله - سبحانه - أنه أرحم بالناس من الآباء والأبناء . فأوصى الأبناء بالآباء ، وأوصى الآباء بالأبناء ؛ وربط الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، والارتباط بربوبيته المتفردة . وقال لهم : إنه هو الذى يكفل لهم الرزق ، فلا يضيقوا بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرتهما ؛ ولا تجاه الأولاد فى ضعفهم ، ولا يخافوا الفقر والحاجة فالله يرزقهم جميعا ..

« ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن » ..

ولما وصاهم الله بالأسرة ، وصاهم بالقاعدة التى تقوم عليها - كما يقوم عليها المجتمع كله - وهى قاعدة النظافة والطهارة والعفة . فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها .. فهو نهى مرتبط تماما بالوصية السابقة عليها .. وبالوصية الأولى التى تقوم عليها كافة الوصايا .

إنه لا يمكن قيام أسرة ، ولا استقامة مجتمع ، فى وحل الفواحش ماظهر منها وما بطن .

Marfat.com

إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع . والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع .

والفواحش : كل ما أفحش - أي تجاوز الحد - وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا . ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضع . لأن للمجال مجال تعديد محرمات بذاتها ، فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة ، وأكل مال اليتيم فاحشة ، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص « الفواحش » هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع ، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج ، والتهتك ، والاختلاط المثير ، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة ، والإغراء والتزيين والاستثارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستسر في الضمير ومنها البادي في الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف ! وكلها مما يحطم قوام الأسرة ، وينخر في جسم الجماعة ، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد ، ويحقر من اهتماماتهم، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد .

ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية ، كان التعبير : « ولا تقربوا » .. للنهي عن مجرد الاقتراب ، سدا للذرائع ، واتقاء للجاذبية التي تضعف معها الإرادة . . لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمدة - ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة . ولذلك كان التبرج - حتى بالتعطر في الطريق - حراما ، وكانت الحركات المثيرة ، والضحكات المثيرة ، والإشارات المثيرة، ممنوعة في الحياة الإسلامية النظيفة .. فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابهم عنتا في المقاومة ! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود ، ويوقع العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح . وربك أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير ..

وكذلك نعلم ما الذي يريده بهذا الدين ، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة ، من يزينون للناس الشهوات ، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام !

Marfat.com

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » . .

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة : الشرك ، والزنا، وقتل النفس .. ذلك أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة ! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة ؛ والثانية جريمة قتل للجماعة ، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة .. إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة [1] . والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة ، منتهية حتما إلى الدمار . والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية . شواهد من التاريخ . ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد [2] . والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات ، مجتمع مهدد بالدمار .. ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات ، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار .

ولقد سبق النهي عن قتل الأولاد من إملاق . فالآن ينهى عن قتل « النفس » عامة فيوحي بأن كل قتل فردي إنما يقع على جنس « النفس » في عمومه . تؤيد هذا الفهم آية : « . . . أنه من قتل نفسا ، بغير نفس أو فساد في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .. فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها ، وعلى النفس البشرية في عمومها . وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء . وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإسلام وأمنها ، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمنا على حياته ، لا يؤذى فيها إلا بالحق . والحق الذي تؤخذ به النفس بينه الله في شريعته ، ولم يتركه للتقدير والتأويل . ولكنه لم يبينه ليصبح شريعة إلا بعد أن قامت الدولة المسلمة ، وأصبح لها من السلطان مايكفل لها تنفيذ الشريعة !

وهذه اللفتة لها قيمتها في تعريفنا بطبيعة منهج هذا الدين في النشأة والحركة . فحتى هذه القواعد الأساسية في حياة المجتمع ، لم يفصلها القرآن إلا في مناسبتها العملية .

---

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » .. ص٣٥ ــ ٣٨ في هذا الجزء .
(٢) راجع كتاب « التطور والثبات » لمحمد قطب .

Marfat.com

وقبل أن يمضى السياق فى بيان المحرمات والتكاليف ، يفصل بين هذا القسم والذى يليه بإبراز وصية الله وأمره وتوجيهه :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » .

وهذا التعقيب يجىء وفق للنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله . تقريرا لوحدة السلطة التى تأمر وتنهى فى الناس ، وربطا للأوامر والنواهى بهذه السلطة التى تجعل للأمر والنهى وزنه فى ضمائر الناس !

كذلك تجىء فيه الإشارة إلى التعقل . فالعقل يقتضى أن تكون هذه السلطة وحدها هى التى تعبد الناس لشرعها . وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف فى حياة الناس !

وهذا وذلك فوق مافى الطائفة الأولى من التجانس . ومابين الطائفة الثانية كذلك من التجانس . جعل هذه فى آية ، وتلك فى آية ، وبينهما هذا الإيقاع .

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » ..

واليتيم ضعيف فى الجماعة ، بفقده الوالد الحامى والمربى . ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة — على أساس التكافل الاجتماعى الذى يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعى[1] — وكان اليتيم ضائعا فى المجتمع العربى فى الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة فى القرآن وتنوعها وعنفها أحيانا تشى بما كان فاشيا فى ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه ؛ حتى انتدب الله يتيما كريما فيه ؛ فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود .. حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة ، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذى نرى منه هذا التوجيه :

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم . فيصونه وينميه ، حتى يسلمه له كاملا ناميا عند بلوغه أشده . أى اشتداد قوته الجسمية والعقلية . ليحمى ماله ، ويحسن القيام عليه . وبذلك تكون الجماعة قد أضافت إليها عضوا نافعا ؛ وسلمته حقه كاملا .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « مجتمع متكافل » فى كتاب : « نحو مجتمع إسلامى » .

Marfat.com

وهناك خلاف فقهي حول سن الرشد أو بلوغ الأشد .. عند عبد الرحمن ابن زيد وعند مالك ، بلوغ الحلم . وعند أبي حنيفة خمس وعشرون عاما . وعند السدى ثلاثون وعند أهل المدينة بلوغ الحلم وظهور الرشد معا بدون تحديد .

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - لا نكلف نفسا إلا وسعها - » .

وهذه في المبادلات التجارية بين الناس في حدود طاقة التحرى والإنصاف . والسياق يربطها بالعقيدة ؛ لأن المعاملات في هذا الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة . والذى يوصى بها ويأمر هو الله . ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية ، وتذكر في هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة ، وعلاقتها بكل جوانب الحياة ..

ولقد كانت الجاهليات - كما هي اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات ، وبين الشرائع والمعاملات .. من ذلك ماحكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب : « قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء »؟!

ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء ، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة ، للدلالة على طبيعة هذا الدين ، وتسويته بين العقيدة والشريعة ، وبين العبادة والمعاملة ، في أنها كلها من مقومات هذا الدين ، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل .

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ..

وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة في الله ومراقبته .. فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى . الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد ؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل ؛ وفي قوة القرابة سند لضعفه ؛ وفي سعة رقعتها كمال لوجوده ، وفي امتدادها جيلا بعد جيل ضمان لامتداده ! ومن ثم يجعله ضعيفا تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم ، أو القضاء بينهم وبين الناس .. وهنا في هذه المزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل ، على هدى من الاعتصام بالله وحده ، ومراقبة الله وحده ، اكتفاء به

Marfat.com

من مناصرة ذوى القربى ، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه ؛ وهو ـ سبحانه ـ أقرب إلى المرء من حبل الوريد ..

لذلك يعقب على هذا الأمر ـ وعلى الوصايا التى قبله ـ مذكرا بعهد الله :

« وبعهد الله أوفوا » ..

ومن عهد الله قولة الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط . ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن . ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق .. وقبل ذلك كله .. من عهد الله ألا يشركوا به شيئا . فهذا هو العهد الأكبر ، المأخوذ على فطرة البشر ، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها ، شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها .

ثم يجىء التعقيب القرآنى فى موضعه بعد التكاليف :

« ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » ..

والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل ، وهو يذكر عهد الله كله ، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها .

. . . هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله ، وماسبقها من حديث الحاكمية والتشريع ... هذه هى صراط الله المستقيم .. صراطه الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السبيل :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ..

وهكذا يختم القطاع الطويل من السورة الذى بدأ بقوله تعالى :

« أفغير الله أبتغى حكما ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » ..

وانتهى هذه النهاية ، بهذا الإيقاع العريض العميق ..

وضم بين المطلع والختام قضية الحاكمية والتشريع ، كما تبدو فى مسألة الزروع والأنعام ، والذبائح والنذور ، إلى كل القضايا العقيدية الأساسية ، ليدل على أنها من هذه القضايا . الخ .

Marfat.com

أفرد لها السياق القرآني كل هذه المساحة ؛ وربطها بكل محتويات السورة السابقة التي تتحدث عن العقيدة في محيطها الشامل ؛ وتتناول قضية الألوهية والعبودية ذلك التناول الفريد .

إنه صراط واحد ـ صراط الله ـ وسبيل واحدة تؤدي إلى الله . . أن يفرد الناس الله ـ سبحانه ـ بالربوبية ، ويدينوا له وحده بالعبودية ؛ وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده ؛ وأن يدينوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية .

هـذا هو صراط الله ؛ وهـذا هو سبيله . . وليس وراءه إلا السبل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . .

فالتقوى هي مناط الاعتقاد والعمل . والتقوى هي التي تفيء بالقلوب إلى السبيل . .

« ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ، فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا : إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ؟ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ؟ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . قُلِ : انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ،

Marfat.com

ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

« قُلْ : إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ : دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ : إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ، فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١٦٥)

لم ينقطع تدفق السياق فى الموضوع الأساسى الذى يعالجه شطر السورة الأخير ـ وهو موضوع الحاكمية والتشريع وعلاقتهما بالدين والعقيدة ـ وهذا الشوط الجديد هو امتداد فى العرض ، وامتداد فى الحشد ، لتقرير هذه الحقيقة .

وهو يتحدث عن المبادئ الأساسية فى العقيدة ـ بصدد التشريع والحاكمية ـ كما كان الشطر الأول من السورة يتحدث عن هذه المبادئ فى صدد قضية الدين والعقيدة . ذلك ليقرر أن قضية التشريع والحاكمية هى كذلك قضية الدين والعقيدة . وعلى ذات المستوى الذى يعرض به المنهج القرآنى هذه الحقيقة . ومما يلاحظ أن السياق يستخدم فى شطر السورة الثانى ذات المؤثرات والموحيات والمشاهد والتعبيرات التى حشدها فى الشطر الأول منها :

- يتحدث عن الكتب والرسل والوحى والآيات التى يطلبونها .
- ويتحدث عن الدمار والهلاك الذى يعقب وقوع الآيات والتكذيب بها .
- ويتحدث عن الآخرة وقواعد الدينونة والجزاء فيها .

Marfat.com

◆ ويتحدث عن المفاصلة بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقومه الذين يعدلون بربهم ويتخذون من دونه أربابا يشرعون لهم . ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إعلان حقيقة دينه جلية واضحة حاسمة .

◆ ويتحدث عن الربوبية الواحدة للعالمين جميعا ، والتي لا يجوز أن يتخذ المؤمن من دونها ربوبية أخرى .

◆ ويتحدث عن ملكية رب العالمين لكل شيء ، وتصريفها لكل شيء ، وعن استخلاف الله للناس كيف شاء ، وقدرته على الذهاب بمن يشاء منهم عندما يشاء .

وهذه هي ذاتها القضايا والحقائق ، والمؤثرات والموحيات التي حشدها في أول السورة عند عرض حقيقة العقيدة في محيطها الشامل . محيط الألوهية والعبودية ومابينهما من علائق.. ولا ريب أن لهذا دلالته التي لا تخفى على من يتعامل مع القرآن الكريم ومع المنهج القرآني .

* * *

يبدأ هذا المقطع الأخير في هذا الشطر من السورة بالحديث عن كتاب موسى .. وذلك تكملة للحديث السابق عن صراط الله المستقيم : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » للإيحاء بأن هذا الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وشرائعهم . وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام ؛ وقد أعطاه الله كتابا فصل فيه كل شيء ، وجعله هدى ورحمة لعل قومه يؤمنون بلقاء الله في الآخرة : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ، وتفصيلا لكل شيء ، وهدى ورحمة ، لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » .

ويستمر فيذكر الكتاب الجديد المبارك ، الملتحم بالكتاب الذي أنزل على موسى ، المتضمن للعقيدة وللشريعة المطلوب اتباعها والتقوى فيها ، رجاء أن ينال الناس - حين يتبعونها - رحمة الله في الدنيا والآخرة : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » ..

Marfat.com

ولقد نزل هذا الكتاب قطعا لحجة العرب ، كي لا يقولوا : إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذى تنزل على اليهود والنصارى ؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم ، فهاهو ذا كتاب يتنزل عليهم ، ويقطع هذه الحجة عليهم ، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم : « أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . . فقد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » . .

لقد انقطعت الحجة بنزول هذا الكتاب ؛ ولكنهم ما يزالون يشركون بالله ؛ ويشرعون من عند أنفسهم ويزعمونه شريعة الله ، بينما كتاب الله قائم وليس فيه هذا الذى يفترونه . وما يزالون يطلبون الآيات والخوارق ليصدقوا بهذا الكتاب ويتبعوه . ولو جاءتهم الآيات التى يطلبون أو بعضها لكان فيها القضاء الأخير : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ،أو كسبت فى إيمانها خيرا . قل : انتظروا إنا منتظرون » .

وعند هذا الحد يفصل الله ـ سبحانه ـ بين نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسائر الملل المتفرقة التى لا تقوم على توحيد الله عقيدة وشريعة . ويقرر أن أمرهم إليه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه هو محاسبهم ومجازيهم وفق عدله ورحمته : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون . من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون » .

وهنا يجىء الإيقاع الأخير فى هذا القطاع ـ وهو الإيقاع الأخير فى السورة ـ فى تسبيحة ندية رخية ، حازمة كذلك حاسمة ، تلخص أعمق أعماق الحقائق العقيدية فى هذا الدين : التوحيد المطلق ، والعبودية الخالصة ، وجدية الآخرة ، وفردية التبعة والابتلاء فى دار الدنيا . وسلطان الله المتمثل فى ربوبيته لكل شىء ؛ وفى استخلافه للعباد فى ملكه كيف شاء بلا شريك ولا معقب . . كما ترسم تلك التسبيحة الندية صورة باهرة لحقيقة الألوهية ، وهى تتجلى فى أخلص

Marfat.com

قلب ، وأصفى قلب ، وأطهر قلب . . قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . وذلك فى مستوى من التجلى لا يصوره إلا التعبير القرآنى ذاته : « قل : إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » . .

ونكتفى هنا بهذا القدر من الحديث المجمل ، لنأخذ فى مواجهة النصوص بالتفصيل :

* * *

« ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن ، وتفصيلا لكل شىء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » . .

هذا الكلام معطوف بثم على ما قبله . . وتأويله : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا . . » . . « وأن هذا صراطى مستقيما » . . معطوفة على جملة : ألا تشركوا . . « ثم آتينا موسى الكتاب . . » معطوف عليها كذلك باعتباره من القول الذى دعاهم ليقوله لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالسياق مطرد كما أسلفنا .

وقوله « تماما على الذى أحسن » . . تأويله ـ كما اختار ابن جرير ـ : « ثم آتينا موسى التوراة تماما لنعمنا عنده ، وأيادينا قبله ، تتم به كرامتنا عليه ، على إحسانه وطاعته ربه ، وقيامه بما كلفه من شرائع دينه ، وتبيينا لكل ما بقومه وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم » . .

وقوله : وتفصيلا لكل شىء . كما قال قتادة : فيه حلاله وحرامه .

وهدى ورحمة لعل قومه يهتدون ويؤمنون بلقاء ربهم فيرحمهم من عذابه . .

Marfat.com

. . هذا الغرض الذي من أجله آتينا موسى الكتاب ، جاء من أجله كتابكم ، لعلكم تنالون به الهدى والرحمة :

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، ، فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . .

وإنه لكتاب مبارك حقا — كما فسرنا ذلك من قبل عند ورود هذا النص في السورة أول مرة : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون [1] » . . (الآية : ٩٢) . . وكان ذكر هذا الكتاب هناك بمناسبة الحديث عن العقيدة في مجالها الشامل ؛ وهو هنا يذكر بمناسبة الحديث عن الشريعة بنص مقارب ! ويؤمرون باتباعه ؛ وتناط رحمتهم من الله بهذا الاتباع . والكلام هنا بجملته في معرض الشريعة ، بعد ما تناولته أوائل السورة في معرض العقيدة .

وقد بطلت حجتكم ، وسقطت معذرتكم ، بتنزيل هذا الكتاب المبارك إليكم ، تفصيلا لكل شيء . بحيث لا تحتاجون إلى مرجع آخر وراءه ؛ وبحيث لا يبقى جانب من جوانب الحياة لم يتناوله فتحتاجون أن تشرعوا له من عند أنفسكم :

« أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ؟ سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » . .

لقد شاء الله سبحانه أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم . . حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة أرسل الله محمدا خاتم النبيين للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولا إليهم أجمعين .

والله — سبحانه — يقطع الحجة على العرب أن يقولوا : إن كلا من موسى وعيسى إنما أرسلا إلى قومهما . ونحن كنا غافلين عن دراستهم لكتابهم ، لا علم لنا به ولا اهتمام . ولو جاء إلينا

(١) الجزء السابع ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

Marfat.com

كتاب بلغتنا ، يخاطبنا وينذرنا لكنا أهدى من أهل الكتاب . . فقد جاءهم هذا الكتاب وجاءهم رسول منهم - وإن كان رسولا للناس أجمعين - وجاءهم بكتاب هو بينة في ذاته على صدقه . وهو يحمل إليهم حقائق بينة كذلك لا لبس فيها ولا غموض . وهو هدى لما هم فيه من ضلالة ، ورحمة لهم في الدنيا والآخرة . .

فإذا كان ذلك كذلك ، فمن أشد ظلما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها وهي تدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح ؟ من أشد ظلما لنفسه وللناس بصده لنفسه وللناس عن هذا الخير العظيم ، وبإفساده في الأرض بتصورات الجاهلية وتشريعاتها . . إن الذين يعرضون عن هذا الحق في طبعهم آفة تميلهم عنه ؛ كالآفة التي تكون في خف البعير فتجعله يصدف - أي يميل - بجسمه ولا يستقيم ! إنهم « يصدفون » عن الحق والاستقامة ، كما يصدف البعير المريض عن الاعتدال والاستقامة ! وهم مستحقون سوء العذاب بصدوفهم هذا وميلهم :

« سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون » ..

إن التعبير القرآني يستخدم مثل هذا اللفظ ، المنقول في اللغة من حالة حسية إلى حالة معنوية ليستصحب في الحس أصل المعنى . . فيستخدم هنا لفظ « يصدف » وقد عرفنا أنه من صدف البعير إذا مال بخفه ولم يعتدل لمرض فيه ! كذلك يستخدم لفظ « يصعر خده » وهو مأخوذ من داء الصعر الذي يصيب الإبل - كما يصيب الناس - فتمرض صفحة خدها ، اضطرارا ، ولا تملك أن تحرك عنقها بيسر ، ومثله استخدام لفظ « حبطت أعمالهم » .. من حبطت الناقة إذا رعت نباتا مسموما فانتفخ بطنها ثم ماتت ! ومثلها كثير . .

ويمضي في هذا التهديد خطوة أخرى ، للرد على ما كانوا يطلبونه من الآيات والخوارق حتى يصدقوا بهذا الكتاب . . وقد مضى مثل ذلك التهديد في أوائل السورة عند ما كانت المناسبة هناك مناسبة التكذيب بحقيقة الاعتقاد . وهو يتكرر هنا ، والمناسبة الحاضرة هي مناسبة الإعراض عن الاتباع والتقيد بشريعة الله : فقد جاء في أول السورة : « وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون » .. وجاء هنا في آخرها :

Marfat.com

« هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا: قل : انتظروا إنا منتظرون » . .

إنه التهديد الواضح الحاسم . فقد مضت سنة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتما إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون .. والله سبحانه يقول لهم : إن ماطلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضى عليهم بعده . . وإنه يوم تأتى بعض آيات الله تكون الخاتمة التى لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل .. لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملا صالحا فى إيمانها . فالعمل الصالح هو دائما قرين الإيمان وترجمته فى ميزان الإسلام .

ولقد ورد فى روايات متعددة أن المقصود بقوله تعالى : « يوم يأتى بعض آيات ربك » هو أشراط الساعة وعلاماتها ، التى لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل . وعدوا من ذلك أشراطا بعينها .. ولكن تأويل الآية على وفق السنة الجارية فى هذه الحياة أولى . فقد سبق مثله فى أول السورة ، وهو قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » .. والملاحظ أن السياق يكرر وهو بصدد الكلام عن الشريعة والحاكمية ، ماجاء مثله من قبل وهو بصدد الكلام عن الإيمان والعقيدة ، وأن هذا ملحوظ ومقصود ، لتقرير حقيقة بعينها . فأولى أن نحمل هذا الذى فى آخر السورة على ماجاء من مثله فى أولها من تقرير سنة الله الجارية . وهو كاف فى التأويل ، بدون الالتجاء إلى الإحالة على ذلك الغيب المجهول ..

* * *

بعد ذلك يلتفت السياق إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليفرده وحده بدينه وشريعته ومنهجه وطريقه عن كل الملل والنحل والشيع القائمة فى الأرض — بما فيها ملة المشركين العرب — :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء . إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » ..

إنه مفرق الطريق بين الرسول — صلى الله عليه وسلم — ودينه وشريعته ومنهجه كله وبين

Marfat.com

سائر الملل والنحل .. سواء من المشركين الذين كانت تمزقهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها ، شيعا وفرقا وقبائل وعشائر وبطونا . أو من اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللا ونحلا ومعسكرات ودولا . أو من غيرهم مما كان وما سيكون من مذاهب ونظريات وتصورات ومعتقدات وأوضاع وأنظمة إلى يوم الدين .

إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليس من هؤلاء كلهم في شيء .. إن دينه هو الإسلام وشريعته هي التي في كتاب الله ؛ ومنهجه هو منهجه المستقل للتفرد المتميز .. وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ؛ ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات . . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأي شريعة أو أي وضع أو أي نظام .. إسلامي .. وشيء آخر .. !!! إن الإسلام إسلام فحسب . والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب . والنظام الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي الإسلامي إسلامي فحسب .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم ليس في شيء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان !

إن الوقفة الأولى للمسلم أمام أية عقيدة ليست هي الإسلام هي وقفة المفارقة والرفض منذ اللحظة الأولى . وكذلك وقفته أمام أي شرع أو نظام أو وضع ليست الحاكمية فيه لله وحده — وبالتعبير الآخر : ليست الألوهية والربوبية فيه لله وحده — إنها وقفة الرفض والتبرؤ منذ اللحظة الأولى .. قبل الدخول في أية محاولة للبحث عن مشابهات أو مخالفات بين شيء من هذا كله وبين ما في الإسلام !

إن الدين عند الله الإسلام .. ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليس في شيء ممن فرقوا الدين فلم يلتقوا فيه على الإسلام .

وإن الدين عند الله هو المنهج والشرع .. ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليس في شيء ممن يتخذون غير منهج الله منهجا ، وغير شريعة الله شرعا ..

الأمر هكذا جملة . والنظرة الأولى . بدون دخول في التفصيلات !

وأمر هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعا ، وبريء منهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

Marfat.com

بحكم من الله تعالى .. أمرهم بعد ذلك إلى الله ؛ وهو محاسبهم على ما كانوا يفعلون :

« إنما أمرهم إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » ..

وبمناسبة الحساب والجزاء قرر الله سبحانه ما كتبه على نفسه من الرحمة فى حساب عباده . فجعل لمن جاء بالحسنة وهو مؤمن – فليس مع الكفر من حسنة ! – فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ؛ لا يظلم ربك أحدا ولا يبخسه حقه :

« من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها . وهم لا يظلمون » ..

* * *

وفى ختام السورة – وختام الحديث الطويل عن قضية التشريع والحاكمية – تجىء التسبيحة الندية الرخية ، فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب ؛ وفى تقرير كذلك حاسم فاصل .. ويتكرر الإيقاع للوحى فى كل آية : « قل » .. « قل » .. « قل » .. « قل » .. ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد .. توحيد الصراط والملة . توحيد المتجه والحركة . توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة .. مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسننه ومقوماته .

« قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين . قل : أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » ..

هذا التعقيب كله ، الذى يؤلف مع مطلع السورة لحنا رائعاً باهرا متناسقا ، هو تعقيب ينتهى به الحديث عن قضية الذبائح والنذور والثمار ، وما تزعمه الجاهلية بشأنها من شرائع ، تزعم أنها من شرع الله افتراء على الله .. فأية دلالة يعطيها هذا التعقيب ؟ إنها دلالة لا تحتاج بعد ماسبق من البيان إلى مزيد ..

Marfat.com

« قل : إننى هداني ربي إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ..

إنه الإعلان الذى يوحي بالشكر ، ويشي بالثقة ، ويفيض باليقين .. اليقين فى بناء العبادة اللفظى ودلالتها المعنوية ، والثقة بالصلة الهادية . . صلة الربوبية الموجهة المهيمنة الراعية . . والشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى لا التواء فيه ولا عوج : « دينا قيما » .. وهو دين الله القديم منذ إبراهيم . أبي هذه الأمة المسلمة المبارك المخلص المنيب : « ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

« قل : إن صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » ..

إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة فى القلب وبكل حركة فى الحياة . بالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه .

إنها تسبيحة « التوحيد » المطلق ، والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده . لله « رب العالمين » .. القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين .. فى « إسلام » كامل لايستبقى فى النفس ولا فى الحياة بقية لا يعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئا فى الضمير ولا فى الواقع .. « وبذلك أمرت » .. فسمعت وأطعت : « وأنا أول المسلمين » ..

« قل : أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ؟ » ..

كلمة تتقصى السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن ؛ وتشتمل كل مخلوق مما يعلم الإنسان ومما يجهل ؛ وتجمع كل حادث وكل كائن فى السر والعلانية .. ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن فى هذا الكون الهائل ؛ وتعبدها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة .

ثم تعجب فى استنكار :

« أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء » ؟

Marfat.com

أغير الله أبغى ربا يحكمني ويصرف أمرى ويهيمن على ويقومنى ويوجهنى ؟ وأنا مأخوذ بذنبى وعملى ، محاسب على ما أكسبه من طاعة ومعصية ؟

أغير الله أبغى ربا . وهذا الكون كله فى قبضته ؟ وأنا وأنتم فى ربوبيته ؟

أغير الله أبغى ربا وكل فرد مجزى بذنبه لايحمله عنه غيره ؟ « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ؟ » ..

أغير الله أبغى ربا وإليه مرجعكم جميعا فيحاسبكم على ما كنتم تختلفون فيه ؟

أغير الله أبغى ربا ، وهو الذى استخلف الناس فى الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى العقل والجسم والرزق ؛ ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ؟

أغير الله أبغى ربا ، وهو سريع العقاب ، غفور رحيم لمن تاب ؟

أغير الله أبغى ربا ، فأجعل شرعه شرعا ، وأمره أمرا ، وحكمه حكما . وهذه الدلائل والموحيات كلها حاضرة ؛ وكلها شاهدة ؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد ؟؟؟

إنها تسبيحة التوحيد الرخية الندية ؛ يتجلى من خلالها ذلك المشهد الباهر الرائع . مشهد الحقيقة الإيمانية ، كما هى فى قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو مشهد لايعبر عن روعته وبهائه إلا التعبير القرآنى الفريد ..

إنه الإيقاع الأخير فى السياق الذى استهدف قضية الحاكمية والشريعة ؛ يجىء متناسقا مع الإيقاعات الأولى فى السورة ، تلك التى استهدفت قضية العقيدة والإيمان ؛ من ذلك قوله تعالى : « قل : أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات ، وهو يطعم ولا يطعم ؟ قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين » .. وغيرها فى السورة كثير ..

* * *

ولا نحتاج أن نكرر ماقلناه مرارا من دلالة هذه المثانى التى تردد فى المطالع والختام . فهى صور متنوعة للحقيقة الواحدة .. الحقيقة التى تبدو مرة فى صورة عقيدة فى الضمير .. وتبدو مرة فى صورة منهج للحياة .. وكلتا الصورتين تعنيان حقيقة واحدة فى مفهوم هذا الدين ..

Marfat.com

ولكننا نلتفت الآن ــ وقد انتهى سياق السورة ــ على المدى المتطاول ، والمساحة الشاسعة ، والأغوار البعيدة . . تلك التي تتراءى فيها أبعاد السورة ــ ما سبق منها في الجزء السابع وما نواجهه منها في هذا الجزء ــ فإذا هو شيء هائل هائل .. وننظر إلى حجم السورة ، فإذا هي كذا صفحة ، وكذا آية ، وكذا عبارة .. ولو كان هذا في كلام البشر ما اتسعت هذه الرقعة لعشر معشار هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والمؤثرات والموحيات ؛ في مثل هذه المساحة المحدودة !.. وذلك فضلا على المستوى المعجز الذي تبلغه هذه الحقائق بذاتها ، والذي يبلغه التعبير عنها كذلك ..

ألا إنها رحلة شاسعة الآماد ، عميقة الأغوار ، هائلة الأبعاد هذه التي قطعناها مع السورة . . رحلة مع حقائق الوجود الكبيرة . . رحلة تكفي وحدها لتحصيل « مقومات التصور الإسلامي » !

حقيقة الألوهية بروعتها وبهائها وجلالها وجمالها . .

وحقيقة الكون والحياة وما وراء الكون والحياة من غيب مكنون ، ومن قدر مجهول ، ومن مشيئة تمحو وتثبت ، وتنشئ وتهدم ، وتحيي وتميت ، وتحرك الكون والأحياء والناس كما تشاء .

وحقيقة النفس الإنسانية ، بأغوارها وأعماقها ، ودروبها ومنحنياتها ، وظاهرها وخافيها، وأهوائها وشهواتها ، وهداها وضلالها ، ومايوسوس لها من شياطين الإنس والجن . وما يقود خطواتها من هدى أو ضلال . .

ومشاهد قيامة ، ومواقف حشر ، ولحظات كربة وضيق ، ولحظات أمل واستبشار . ولقطات من تاريخ الإنسان في الأرض ؛ ولقطات من تاريخ الكون والحياة .

وحشود وحشود من هذه المجالي التي لا نملك تلخيصها في هذه العجالة . والتي لا تعبر عنها إلا السورة نفسها ، في سياقها الفريد ، وفي أدائها العجيب .

إنه الكتاب « المبارك » . . وهذه ــ بلا شك ــ واحدة من بركاته الكثيرة . . والحمد لله رب العالمين . .

Marfat.com

سورة الأعراف مكية
وآياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه سورة مكية ـ كسورة الأنعام ـ موضوعها الأساسى هو موضوع القرآن المكى . . العقيدة . . ولكن ما أشد اختلاف المجالين اللذين تتحرك فيهما السورتان فى معالجة هذا الموضوع الواحد ، وهذه القضية الكبيرة !

إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة ، وذات ملامح متميزة ، وذات منهج خاص ، وذات أسلوب معين ، وذات مجال متخصص فى علاج هذا الموضوع الواحد ، وهذه القضية الكبيرة .

إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية ، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة ، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص فى علاج هذا الموضوع ، وتحقيق هذه الغاية .

إن الشأن فى سور القرآن ـ من هذه الوجهة ـ كالشأن فى نماذج البشر التى جعلها الله متميزة . . كلهم إنسان ، وكلهم له خصائص الإنسانية ، وكلهم له التكوين العضوى والوظيفى الإنسانى . . ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع . نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح ، وفيها الأغيار التى لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة !

هكذا عدت أتصور سور القرآن . وهكذا عدت أحسها ، وهكذا عدت أتعامل معها . بعد طول الصحبة ، وطول الألفة ، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته ، وملامحه وسماته !

وأنا أجد فى سور القرآن ـ تبعا لهذا ـ وفرة بسبب تنوع النماذج ، وأنسا بسبب

Marfat.com

التعامل الشخصي الوثيق ؛ ومتاعا بسبب اختلاف الملامح والطباع ، والاتجاهات والمطالع !

إنها أصدقاء . . كلها صديق . . وكلها أليف . . وكلها حبيب . . وكلها ممتع . . وكلها يجد القلب عنده ألوانا من الاهتمامات طريفة ، وألوانا من المتاع جديدة ، وألوانا من الإيقاعات ، وألوانا من المؤثرات ، تجعل لها مذاقا خاصا ، وجوا متفردا .

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة .. رحلة في عوالم ومشاهد ، ورؤى وحقائق ، وتقريرات وموحيات ، وغوص في أعماق النفوس ، واستجلاء لمشاهد الوجود . . ولكنها كذلك رحلة متميزة المعالم في كل سورة ومع كل سورة .

* * *

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة . وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة . . ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ؛ وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ؛ وتواجه الجاهلية العربية في حينها — وكل جاهلية أخرى كذلك — مواجهة صاحب الحق الذي يصدع بالحق ؛ وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة التي تحدثنا عنها إجمالا وتفصيلا ونحن نقدم السورة ونستعرضها — في الجزء السابع وفي هذا الجزء أيضا — ووقفنا أمامها ما شاء الله أن نقف . . بينما سورة الأنعام تتخذ هذا المنهج ، وتسلك ذلك الطريق . . نجد سورة الأعراف — وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك — تأخذ طريقا آخر ، وتعرض موضوعها في مجال آخر . . إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري . . في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى ، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها . . وفي هذا المدى المتطاول تعرض « موكب الإيمان » من لدن آدم — عليه السلام — إلى محمد — عليه الصلاة والسلام — تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ . يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل ، وقبيلا بعد قبيل . . ويرسم سياق السورة في تتابعه : كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصاده ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة . .

Marfat.com

إنها رحلة طويلة طويلة . . ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة ، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة ، في الطريق المرسوم . ملامحه واضحة ، ومعالمه قائمة ، ومبدؤه معلوم ، ونهايته مرسومة . . والبشرية تخطو فيه بمجموعها الحاشدة . ثم تقطعه راجعة . . إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى . .

لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء ، ممثلة في شخصين اثنين . . آدم وزوجه . . أبوي البشر . . وانطلق معهما الشيطان . مأذونا من الله في غوايتهما وغواية ذراريهما ومأخوذا عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك . ومبتلى كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ؛ ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة ؛ وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ ، أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورجله ، ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم !

انطلقت البشرية من هناك .. من عند ربها سبحانه . . انطلقت إلى الأرض . تعمل وتسعى ، وتكد وتشقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد .. ثم هاهي ذي تؤوب ! هاهي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال .. هاهي ذي تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة .. من ورد وشوك . ومن غال ورخيص ، ومن ثمين وزهيد ، ومن خير وشر ، ومن حسنات وسيئات . هاهي ذي تعود في أصيل اليوم .. فقد انطلقت في مطلعه ! . . وهانحن أولاء نلمحها من خلال السياق في السورة موقورة الظهور بالأحمال ــ أياً كانت هذه الأحمال ــ هاهي ذي عائدة إلى ربها بما معها . تتطلع في الطريق ، وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير . حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب في خشية ووجل .. إن كل فرد قد عاد بحصيلته فردا .. وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! وكل فرد على حدة يلاقي حسابه ، ويلقى جزاءه .. ويظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية ، فوجا فوجا . إلى جنة أو إلى نار . حتى تغلق الأبواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين . فقد كانوا

Marfat.com

هنالك فى هذه الأرض مفترين : « كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » ..

وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل . معارك الهدى والضلال . معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين ، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين . ويعرض الصراع المتكرر ؛ والمصائر المتشابهة . وتتجلى محائف الإيمان فى إشراقها ووضاءتها ؛ وصحائف الضلال فى انطماسها وقتامتها . وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين . حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير .. وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ فى سياق السورة . فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة ! كلمة تعقيب . للإنذار والتذكير .. ثم يمضى .

إنها قصة البشرية بجملتها فى رحلتها ذهابا وإيابا . تتمثل فيها حركة هذه العقيدة فى تاريخ البشرية ، ونتائج هذه الحركة فى مداها المتطاول .. حتى تنتهى إلى غايتها الأخيرة فى نقطة المنطلق الأولى .. وهى وجهة أخرى فى عرض موضوع العقيدة غير وجهة سورة الأنعام — وإن تلاقت السورتين أحيانا فى عرض مشاهد المكذبين وعرض مشاهد القيامة ومشاهد الوجود — وهو مجال آخر للعرض غير مجال الأنعام ، واضح التميز ، مختلف الحدود .

ذلك إلى طبيعة التعبير فى السورتين . فالتعبير فى كل سورة يناسب منهجها فى عرض الموضوع . وبينما يمضى السياق فى الأنعام فى موجات متدافعة ؛ وبينما تبلغ المشاهد دائما درجة اللألاء والتوهج والالتماع ، وتبلغ الإيقاعات درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع .. إذا السياق فى الأعراف يمضى هادئ الخطو ، سهل الإيقاع ، تقريرى الأسلوب . وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة فى سيرها المديد ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، حتى تؤوب ! وقد يشتد الإيقاع أحيانا فى مواقف التعقيب ؛ ولكنه سرعان مايعود إلى الخطو الوئيد الرتيب !

.. وهما — بعد — سورتان مكيتان من القرآن .. !!!

* * *

ولعله يحسن هنا أن نستعرض منهج السورة فى معالجة موضوع العقيدة فى صورة حركة لهذه العقيدة فى تيار التاريخ البشرى ..

Marfat.com

إن السورة لا تعرض قصة هـذه العقيدة فى التاريخ البشرى ، ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الأولى إلى عودتها الأخيرة .. مجرد عرض فى أسلوب قصصى .. إنما هى تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلية .. ومن ثم فإنها تعرضها فى مشاهد ومواقف ؛ وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناسا أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن ؛ فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة ؛ ويخاطبهم بما فيها من عبر ؛ مذكرا ومنذرا ؛ ويخوض معهم معركة حقيقية حية .. ومن ثم تجيء التعقيبات فى السياق عقب كل مرحلة أساسية ؛ موجهة لأولئك الأحياء الذين كان القرآن يخوض معهم المعركة ؛ وموجهة كذلك إلى أمثالهم ممن يتخذون موقفهم على مدار التاريخ .

إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة . ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلا .. إنه يتحرك حركة واقعية حية فى وسط واقعى حى . إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد ، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفنى !

* * *

ويركز السياق على التذكير والإنذار فى وقفاته للتعقيب . كما يركز على نقطة الانطلاق ، وعلى نقطة المآب . وبينهما يمر بقصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب . ثم يركز تركيزا شديدا على قصة قوم موسى .

وفى هذه التقدمة للسورة لا نملك إلا أن نعرض نماذج مجملة لمواضع التركيز فى السورة :

تبدأ السورة على هذا النحو :

« آلمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ماتذكرون » ..

فهى منذ اللحظة الأولى خطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن .. وكل مايجيء فى السورة بعد ذلك من قصص ، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة ، وعودتها من الرحلة المرسومة ، وكل مايعرض من مشاهد فى صفحة الكون وفى يوم القيامة .. إنما هو خطاب غير مباشر ، ـ وأحيانا مباشر ـ للنبى صلى الله عليه وسلم وقومه للإنذار والتذكير ، كما يشير هذا المطلع القصير .

Marfat.com

وقول الله ـ سبحانه ـ لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه » ..

يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذى يعيش فى جاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ؛ ويعلم أنه إنما يستهدف أمرا هائلا ثقيلا ، دونه صعاب جسام .. يستهدف إنشاء عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، وأوضاع وأحوال مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن فى دنيا الناس . ويجد من رواسب الجاهلية فى النفوس ، ومن تصورات الجاهلية فى العقول ، ومن قيم الجاهلية فى الحياة ، ومن ضغوطها فى الأوضاع والأعصاب ، مايحس معه أن كلمة الحقيقة التى يحملها ، غريبة على البيئة ، ثقيلة على النفوس ؛ مستنكرة فى القلوب . كلمة ذات تكاليف بقدر ماتعنيه من الانقلاب الكامل لكل مايعهده الناس فى جاهليتهم من التصورات والأفكار ، والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد ، والأوضاع والارتباطات . . ومن ثم يجد فى صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل ، الحرج الذى يدعو الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يكون فى صدره من هذا الكتاب شئ منه ؛ وأن يمضى به ينذر ويذكر ؛ ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار ، ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء ..

ولأن الامر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذى تستهدفه هذه العقيدة فى حياة الناس وتصوراتهم ، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم ، ويذكرهم بمصائر المكذبين ، ويعرض عليهم مصارع الغابرين . . جملة قبل أن يأخذ فى القصص المفصل عنهم فى مواضعه من السياق :

« وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » . .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة .. تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشرى فى الأرض..

Marfat.com

وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه فى الأرض . وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ؛ ومن قدرة على التعرف إلى نواميسه واستخدامها ؛ والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته :

« ولقد مكنا كم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش . قليلا ما تشكرون » ..

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى ، وتصوير نقطة الانطلاق التى بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة . والسياق يركز فى هذه السورة على هذه النقطة ؛ ويعرض قصة النشأة ، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب الإنذار والتذكير ، المستمدين مما فى مشاهدها وأحداثها من عظات موحية ، ومؤثرات عميقة :

« ولقد خلقنا كم ثم صورنا كم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين . قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال : اخرج منها مذؤوما مدحورا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .. ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .. فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووورى عنهما من سوآتهما ، وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ؛ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » ..

وبهذا المشهد فى نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها ، ومصائر المرتحلين جميعا . .

Marfat.com

وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة ، بين هذا العدو المجاهر بالعداوة ، وبني آدم جميعا . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة ، ومنافذ الشيطان إليه منها .

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل ، بالإنذار والتحذير .. تحذير بني آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد .. وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجها لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر . وفي ظل النتيجة التي انتهى إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه السياق بالخطاب إلى بني آدم ، يذكرهم وينذرهم ، ويحذرهم مصيرا كهذا المصير :

« يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .. « يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

ولا بد أن نلاحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور ، والخصف من ورق الجنة ؛ ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به ، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم .. لا بد أن نلاحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك . حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا ، ويحرمون أنواعا من الثياب ، وأنواعا من الطعام في فترة الحج . ويزعمون أن هذا من شرع الله ، وأن الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم . . ومن ثم يجيء في استعراض قصة البشرية ، وفي التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية . . وفي كل جاهلية في الحقيقة . . أليست سمة كل جاهلية هي التعري والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى ؟

Marfat.com

وهذا يدلنا على سمة من سمات المنهج القرآني جديرة بالتأمل .. إنه حتى القصص في القرآن لا يسرد إلا لمواجهة حالة واقعة بالفعل . ولأنه يواجه - في كل مرة - حالة معينة ، فإن الحقيقة التي تذكر منه والحلقة التي تعرض في موضع من المواضع ، تعرض بقدر الحالة الواقعة التي يواجهها النص حينذاك وفي جوها ..

وهذا بالإضافة إلى ما قلناه عن المنهج القرآني في التعريف بسورة الأنعام - في الجزء السابع[1] - يكون قاعدة هامة .. هي أن المنهج القرآني لا يعرض شيئاً لا تستدعيه حالة واقعة .. إنه لا يعرف اختزان المعلومات والأحكام - ولا حتى القصص - إلى أن يجيء وقت الحاجة الواقعة إليها ..

والآن - وقبل أن تنطلق القافلة في طريقها ، وقبل أن يواجهها الرسل بالهدى ، وقبل أن يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشري بعد آدم وزوجه وتجربتهما الأولى.. الآن يبادر بتصوير مشهد النهاية ، نهاية الرحلة الكبرى ، وذلك على طريقة القرآن الغالبة في عرض الرحلة بشطريها في دار الابتلاء وفي دار الجزاء ، كأنما هي رحلة متصلة ممدودة .

وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة ، وأكثرها تفصيلا ، وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع .. وموقعه في السورة تعقيبا على قصة آدم وخروجه من الجنة بإغواء إبليس له ولزوجه ؛ وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ؛ وإخبارهم بأنه سيرسل إليهم رسلا يقصون عليهم آياته .. موقعه كذلك يجعله مصداقا لما ينبئ به أولئك الرسل. فإذا الذين أطاعوا الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ؛ وإذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الله قد ردوا إلى الجنة ، ونودوا : « أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .. فعاد المغتربون إلى دار النعيم !!!

وللمشهد طويل لا نملك إثباته هنا في هذا التعريف المجمل وسنواجهه فيما بعد بالتفصيل .

والسياق يتخذ من هذا المشهد مناسبة للتعقيب بالإنذار والتذكير ، وتحذير الذين يواجهون القرآن بالتكذيب ، ويطلبون الخوارق لتصديقه ، من سوء المصير :

---

(١) ص ٧٧ - ١١٦

Marfat.com

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق . فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ؟ قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » . .

* * *

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد ، من المنشأ إلى المعاد ، يقف السياق ليعقب عليها ، مقررا « حقيقة الألوهية » و « حقيقة الربوبية » فى مشاهد كونية ؛ تشهد بهذه الحقيقة ؛ على طريقة القرآن فى جعل هذا الكون كله مجالا تتجلى فيه هذه الحقيقة بآثارها المبدعة ، العميقة الإيحاء للقلب البشرى حين يستقبلها بالحس المفتوح والبصيرة المستنيرة . وهدف هذه الرحلة الأساسى فى مشاهد الكون وأسراره هو تجلية الحقيقة الاعتقادية الأساسية : وهى أن هذا الكون بجملته يدين بالعبودية لله وحده ، فالله هو ربه وحاكمه . فأولى بالإنسان أن لا يكون نشازا فى لحن الوجود المؤمن ؛ وألا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذى له الخلق والأمر . . وهو رب العالمين . .

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين . ادعوا ربكم تضرعا وخفية . إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين . وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ؛ فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » .

* * *

والآن تمضى الرحلة ، وتجرى القصة ، ويبرز الموكب الإيمانى الجليل ، يهتف بالبشرية

Marfat.com

الضالة ، يذكرها وينذرها ، ويحذرها سوء المصير . والبشرية الضالة تلوى وتعاند ، وتواجه الدعوة الخيرة بالعناد والتمرد ؛ ثم بالطغيان والبطش .. ويتولى الله سبحانه المعركة بعد أن يؤدى الرسل واجبهم من التذكير والإنذار ، فيقابلوا من قومهم بالتكذيب والإعراض ، ثم بالبطش والإيذاء . وبعد أن يفاصلوا قومهم على العقيدة ، ويختاروا الله وحده ويدعوا له الأمر كله .

ويعرض السياق قصة نوح ، وقصة هود ، وقصة صالح ، وقصة لوط ، وقصة شعيب .. مع أقوامهم ، وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لاتتبدل : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. ويجادلهم قومهم فى إفراد الله سبحانه بالألوهية ، ويستنكرون أن تكون لله وحده الربوبية . كما يجادلونهم فى إرسال الله بشرا من الناس بالرسالة ! ويجادل بعضهم فى أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا ، ويتحكم فى التعاملات المالية والتجارية ! ـ وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة فى هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون ، ويسمون هذا الجدل الجاهلى القديم تحررا « وتقدمية » ! ـ ويعرض السياق مصارع المكذبين فى نهاية كل قصة .

ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله فى السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. ويتقدم لهم بالحقيقة التى استحفظه عليها ربه تقدم الناصح المخلص ، المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التى تتربص بهم وهم عنها غافلون . ولكنهم لا يقدرون نصح رسولهم لهم ؛ ولا يتدبرون عاقبة أمرهم ، ولا يستشعرون عمق الإخلاص الذى يحمله قلب الرسول ، وعمق التجرد من كل مصلحة ، وعمق الإحساس بضخامة التبعة ..

ويكفى أن نثبت هنا ماورد عن قصة نوح ـ أول القصص ـ وماورد عن قصة شعيب ، آخر هذه الجملة من القصص ، التى يقف السياق بعدها للتعقيب :

• « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين . قال : ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله

Marfat.com

مالا تعلمون . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين » ...

• « وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ـ إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ـ على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذن لخاسرون . فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » ..

ويمثل هذان النموذجان بقية القصص بينها . سواء فى تصوير حقيقة العقيدة الواحدة التى أرسل الله بها رسله جميعا لأبناء آدم ـ كل فى قومه ـ أو فى تلقى الملأ للمستكبرين والأتباع المستضعفين لهذه الحقيقة . أو فى وضوح هذه العقيدة وحسمها فى نفوس الرسل وأتباعهم . أو فى روح النصح والرغبة فى هداية قومهم . . ثم فى مفاصلتهم لأقوامهم عندما يتبين لهم عنادهم وإصرارهم الأخير ثم فى إدارة الله ـ سبحانه ـ للمعركة ، وأخذ المكذبين بعد مفاصلة رسلهم لهم ، والانتهاء من إنذارهم وتذكيرهم . وعتو المكذبين وإصرارهم على ما هم فيه .

Marfat.com

وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب . يبين فيها سنة الله في تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون إذ يأخذهم أولا بالضراء والبأساء ، لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب . فإذا لم تهزهم يد البأس وكلهم إلى الرخاء — وهو أشد فتنة من البأس — حتى تلتبس عليهم سنة الله ، ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون ! ..

وبعد بيان هذه السنة يهز قلوبهم بالخطر الذي يتهددهم في غفلاتهم . فمن يدريهم أن قدر الله يتربص بهم ، ليجري فيهم سنته تلك ؟ أفلا تهديهم مصارع الغابرين ، وهم في ديارهم يسكنون ؟

« وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون .. تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين. وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ..

* * *

بعد ذلك يعرض السياق قصة موسى مع فرعون وملئه ، ومع قومه بني إسرائيل. وتستغرق القصة أكبر مساحة استغرقتها في سورة قرآنية ؛ وتعرض منها حلقات شتى ؛ ويقف السياق عند بعض الحلقات للتعقيب ؛ كما يقف في نهايتها لتعقيب طويل حتى نهاية السورة .

ولقد وردت حلقات من قصة موسى — عليه السلام — قبل ذلك — حسب ترتيب النزول — في سور : المزمل ، والفجر ، وق ، والقمر .. وكلها إشارات قصيرة . وهذه أول سورة بعد تلك السور تجيء فيها هذه الحلقات الطويلة ، في هذه المساحة العريضة ..

وقد شملت حلقة مواجهة فرعون بحقيقة العقيدة . وحلقة التحدي، والسحرة — وهما كثيرتا

Marfat.com

الورود فى السور الأخرى ـ وحلقة أخذ آل فرعون بالسنين والآفات وإرسال الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ـ التى لم تفصل إلا فى هذه السورة ـ وحلقة إغراق فرعون وللأمن قومه .. ثم استمر السياق مع بنى إسرائيل . وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلها ـ صنما ـ كالقوم الذين مروا عليهم بعد نجاتهم من فرعون وتجاوزهم للبحر ! وحلقة ميقاته مع ربه وطلبه رؤيته ودك الجبل وصعقه وتنزيل الألواح عليه . وحلقة اتخاذ قومه للعجل فى غيبته . وحلقة الميقات الثانى مع السبعين من قوم موسى وأخذ الصاعقة لهم حين قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . وحلقة عصيانهم فى دخول القرية وفى صيد السمك يوم السبت ! وحلقة نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة .. وكلها معروضة بتفصيل واسع ، مما جعل القصة تستغرق حزبا كاملا من السورة .

* * *

وفى موقف من مواقف القصة يُدخل السياق الرسالة النبوية الأخيرة ويصف طبيعتها وحقيقتها . وذلك عندما دعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه فى شأن من صعقوا من قومه ؛ واستنزل رحمته ـ سبحانه ـ على هذا النحو الذى يتداخل فيه القصص لتأدية غرض المعركة التى يخوضها القرآن فعلا :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة ، قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك . قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة . والذين هم بآياتنا يؤمنون : الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون »

وفى ظل هذا النبأ الصادق من الله ، والوعد السابق برسالة النبى الأمى ، يأمر الله النبى

Marfat.com

أن يعلن طبيعة رسالته ، وحقيقة دعوته ، وحقيقة ربه الذى أرسله ، والأصل الاعتقادى الواحد الذى جاء به الرسل جميعا من قبله :

« قل : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » ..

* * *

ثم تواصل القصة سيرها بعد هذه الوقفة ، إلى موقف العهد ونتق الجبل وأخذ الميثاق . وفى ظل مشهد الميثاق والعهد على بنى إسرائيل يذكر العهد المأخوذ على فطرة البشر أجمعين :

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » ..

ويمضى السياق بعد ذلك فى تعقيبات منوعة ، يعرض فى أحدها بعد مشهد العهد الفطرى مباشرة ، مشهد الذى آتاه الله آياته ثم انسلخ منها - كبنى إسرائيل وكل من يؤتيه الله آياته ثم ينسلخ منها ! - وهو مشهد يذكرنا بصوره وحركته وإيقاعه والتعقيب عليه بمشاهد سورة الأنعام وجوها كذلك :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ! ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ؛ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ..

* * *

Marfat.com

ثم يمضى السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثا مباشرا . ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس الله وأخذه ؛ ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا فى شأن الرسول ورسالته . . .

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم ، إن كيدى متين . أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » . .

ثم يأمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها . وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التى يخوفهم بها !

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟! قل : إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها ! قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . قل : لاأملك لنفسى نفعا ولا ضرا ـ إلا ما شاء الله ـ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » . .

* * *

ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس ـ التى أخذ الله عليها العهد الذى أسلفنا ـ عن التوحيد الذى أقرت به فطرتها ؛ ويستنكر تصورات الشرك ومعبوداته ؛ ويوجه رسوله صلى الله عليه وسلم فى نهاية هذه الفقرة إلى تحديهم وتحدى آلهتهم العاجزة :

« قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون » . .

ومن هنا إلى ختام السورة يتجه السياق إلى خطاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما

Marfat.com

كان افتتاحها خطابا له ـ كيف يعامل الناس ؟ كيف يمضى بهذه الدعوة ؟ كيف يستعين على متاعب الطريق ؟ كيف يكظم غضبه وهو يعانى من نفوس الناس وكيدهم ؟ كيف يستمع هو والمؤمنون معه لهذا القرآن ؟ كيف يذكر ربه ويبقى موصولا به ؟ كما يذكره من عنده فى الملأ الأعلى ـ سبحانه ـ :

« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قل : إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى . هذا بصائر من ربكم ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين .. إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه ، وله يسجدون » ..

* * *

ولعل هذا التلخيص ، وهذه المقتطفات الكثيرة من السورة ، أن تصور ملامحها الخاصة ؛ وتميزها عن أختها سورة الأنعام فى هذه الملامح . وفى منهج العرض ، مع معالجة موضوع واحد .. موضوع العقيدة ..

وقد أرجأنا كل تفسير للنصوص ، وكل تفصيل للموضوع الذى تحمله ، إلى المواجهة التفصيلية .

.. فعلى بركة الله نمضى ..

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

« الٓمٓصٓ ① كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ، فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ، لِتُنذِرَ بِهِ ،
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ
قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا : إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *
فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ، وَمَا كُنَّا
غَائِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ » ⑨

« الٓمٓصٓ » .. ألف . لام . ميم . صاد ..

هذا المطلع من الحروف المقطعة سبق الكلام عن نظائره فى أول سورة البقرة[1] وفى أول سورة آل عمران[2] . وقد اخترنا فى تفسيرها الرأى القائل ، بأنها حروف مقطعة يشير بها إلى أن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التى يستخدمها البشر ، ثم يعجزهم أن يؤلفوا منها كلاما كهذا القرآن. وأن هذا بذاته برهان أن هذا القرآن ليس من صنع البشر ، فقد كانت أمامهم الأحرف والكلمات التى صيغ منها ، فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآنا مثله . فلا بد من سر آخر وراء الأحرف والكلمات .. وهو رأى نختاره على وجه الترجيح لا الجزم . والله أعلم بمراده .

(١) ص ٣٨ من الجزء الأول : الطبعة الثانية المنقحة

(٢) ص ١٣٩ من الجزء الثالث من الطبعة نفسها .

Marfat.com

وعلى ذلك يصح القول بأن « المص » مبتدأ خبره : « كتاب أنزل إليك » . . بمعنى أن هذه الأحرف وما تألف منها هي الكتاب .. كما يصح القول بأن « المص » مجرد إشارة للتنبيه على ذلك المعنى الذي رجحناه . و « كتاب » خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو كتاب : أو هذا كتاب ..

« كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين » ..

كتاب أنزل إليك للإنذار به والتذكير .. كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون ؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ؛ ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات . فالحرج في طريقه كثير ، والمشقة في الإنذار به قائمة .. لا يدرك ذلك – كما قلنا في التعريف بالسورة – إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف ؛ وإلا من يعاني من الصدع به هذه المعاناة ؛ وإلا من يستهدف من التغيير الكامل الشامل في قواعد الحياة البشرية وجذورها ، وفي مظاهرها وفروعها ، ما كان يستهدفه حامل هذا الكتاب أول مرة – صلى الله عليه وسلم – ليواجه به الجاهلية الطاغية في الجزيرة العربية وفي الأرض كلها ..

وهذا الموقف ليس مقصورا على ما كان في الجزيرة العربية يومذاك ، وما كان في الأرض من حولها .. إن الإسلام ليس حادثا تاريخيا ، وقع مرة ، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه ! .. إن الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة .. وهو يواجهها كما واجهها أول مرة ، كلما انحرفت هي وارتدت إلى مثل ما كانت فيه أول مرة ! .. إن البشرية تنتكس بين فترة وأخرى وترجع إلى جاهليتها – وهذه هي « الرجعية » البائسة المرذولة – وعندئذ يتقدم الإسلام مرة أخرى ليؤدي دوره في انتشالها من هذه « الرجعية » مرة أخرى كذلك ؛ والأخذ بيدها في طريق التقدم والحضارة ؛ ويتعرض حامل دعوته والمنذر بكتابه للحرج الذي تعرض له الداعية الأول – صلى الله عليه وسلم – وهو يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس في وحل الجاهلية ؛ والغيبوبة في ظلامها الطاغي ! ظلام التصورات . وظلام الشهوات . وظلام الطغيان والذل . وظلام العبودية للهوى الذاتي ولأهواء العبيد أيضا ! ويتذوق من يتعرض لمثل هذا الحرج ، وهو يتحرك لاستنقاذ البشرية من مستنقع الجاهلية ، طعم هذا التوجيه الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم :

Marfat.com

« كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ..

ويعلم – من طبيعة الواقع – من هم المؤمنون الذين لهم الذكرى ، ومن هم غير المؤمنين الذين لهم الإنذار . ويعود هذا القرآن عنده كتابا حيا يتنزل اللحظة ، فى مواجهة واقع يجاهده هو بهذا القرآن جهادا كبيرا ..

والبشرية اليوم فى موقف كهذا الذى كانت فيه يوم جاءها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب ، مأمورا من ربه أن ينذر به ويذكر ؛ وألا يكون فى صدره حرج منه ، وهو يواجه الجاهلية ، ويستهدف تغييرها من الجذور والأعماق ..

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاءها هذا الدين ، وانتكست البشرية إلى جاهلية كاملة شاملة للأصول والفروع والبواطن والظواهر ، والسطوح والأعماق !

انتكست البشرية فى تصوراتها الاعتقادية ابتداء – حتى الذين كان آباؤهم وأجدادهم من المؤمنين بهذا الدين ، المسلمين لله المخلصين له الدين – فإن صورة العقيدة قد مسخت فى تصورهم ومفهومهم لها فى الأعماق ..

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم ، وليقيم عالما آخر ، يقر فيه سلطان الله وحده ، ويبطل سلطان الطواغيت . عالما يعبد فيه الله وحده – بمعنى « العبادة » الشامل[1] – ولا يعبد معه أحد من العبيد . عالما يخرج الله فيه – من شاء – من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . عالما يولد فيه « الإنسان » الحر الكريم النظيف .. المتحرر من شهوته وهواه ، تحرره من العبودية لغير الله .

جاء هذا الدين ليقيم قاعدة : « أشهد أن لا إله إلا الله » التى جاء بها كل نبى إلى قومه على مدار التاريخ البشرى – كما تقرر هذه السورة وغيرها من سور القرآن الكريم – وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله فى حياة البشر ، كما أن له الحاكمية العليا فى نظام الكون سواء . فهو المتحكم فى الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو

---

(١) يراجع فصل « العبادة » فى كتاب : « المصطلحات الأربعة فى القرآن » للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

التحكم فى حياة العباد بمنهجه وشريعته . . وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً فى خلق الكون وتدبيره وتصريفه ؛ ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلا لله وحده . ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين ، والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعى حق الحاكمية فى شىء من هذا كله مع الله .

هذه هى قاعدة هذا الدين من ناحية الاعتقاد . فأين منها البشرية كلها اليوم ؟

إن البشرية تنقسم شيعا كلها جاهلية .

شيعة ملحدة تنكر وجود الله أصلا وهم الملحدون .. وأمرهم ظاهر لا يحتاج إلى بيان !

وشيعة وثنية تعترف بوجود إله ، ولكنها تشرك من دونه آلهة أخرى وأربابا كثيرة . كما فى الهند ، وفى أواسط إفريقية ، وفى أجزاء متفرقة من العالم .

وشيعة « أهل كتاب » من اليهود والنصارى . وهؤلاء أشركوا قديما بنسبة الولد إلى الله . كما أشركوا باتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ لأنهم قبلوا منهم ادعاء حق الحاكمية وقبلوا منهم الشرائع . وإن كانوا لم يصلوا لهم ولم يسجدوا ولم يركعوا أصلا ! . . ثم هم اليوم يقصون حاكمية الله بجملتها من حياتهم ويقيمون لأنفسهم أنظمة يسمونها « الرأسمالية » و « الاشتراكية » . . وما إليها ويقيمون لأنفسهم أوضاعا للحكم يسمونها « الديمقراطية » و « الديكتاتورية » . . . وما إليها . ويخرجون بذلك عن قاعدة دين الله كله ، إلى مثل جاهلية الإغريق والرومان وغيرهم ، فى اصطناع أنظمة وأوضاع للحياة من عند أنفسهم .

وشيعة تسمى نفسها « مسلمة » ! وهى تتبع مناهج أهل الكتاب هذه ـ حذوك النعل بالنعل ! ـ خارجة من دين الله إلى دين العباد . فدين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذى يضعه للحياة وقانونه . ودين العباد هو منهجهم للحياة وشرعهم ونظامهم الذى يضعونه للحياة وقوانينهم !

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين للبشرية ؛ وانتكست البشرية بجملتها إلى الجاهلية .. شيعا جميعا لا تتبع دين الله أصلا . . وعاد هذا القرآن يواجه البشرية كما واجهها

Marfat.com

أول مرة ، يستهدف منها نفس ما استهدفه فى المرة الأولى من إدخالها فى الإسلام ابتداء من ناحية العقيدة والتصور . ثم إدخالها فى دين الله بعد ذلك من ناحية النظام والواقع .. وعاد حامل هذا الكتاب يواجه الحرج الذى كان يواجهه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يواجه البشرية الغارقة فى مستنقع الجاهلية ، المستريحة للمستنقع الآسن ، الضالة فى تيه الجاهلية ، المستسلمة لاستهواء الشيطان فى التيه ! . . وهو يستهدف ابتداء إنشاء عقيدة وتصور فى قلوب الناس وعقولهم تقوم على قاعدة : أشهد أن لا إله إلا الله . وإنشاء واقع فى الأرض آخر يعبد فيه الله وحده ، ولا يعبد معه سواه . وتحقيق ميلاد للإنسان جديد ، يتحرر فيه الإنسان من عبادة العبيد ، ومن عبادة هواه !

إن الإسلام ليس حادثا تاريخيا ، وقع مرة ، ثم مضى التاريخ وخلفه وراءه .. إنه اليوم مدعو لأداء دوره الذى أداه مرة ؛ فى مثل الظروف والملابسات والأوضاع والأنظمة والتصورات والعقائد والقيم والموازين والتقاليد . . . التى واجهها أول مرة .

إن الجاهلية حالة ووضع ؛ وليست فترة تاريخية زمنية .. والجاهلية اليوم ضاربة أطنابها فى كل أرجاء الأرض ، وفى كل شيع المعتقدات والمذاهب والأنظمة والأوضاع .. إنها تقوم ابتداء على قاعدة : « حاكمية العباد للعباد » ، ورفض حاكمية الله المطلقة للعباد . . تقوم على أساس أن يكون « هوى الإنسان » فى أية صورة من صوره هو الإله المتحكم ، ورفض أن تكون « شريعة الله » هى القانون المحكم . . ثم تختلف أشكالها ومظاهرها ، وراياتها وشاراتها ، وأسماؤها وأوصافها ، وشيعها ومذاهبها . . غير أنها كلها تعود إلى هذه القاعدة المميزة المحددة لطبيعتها وحقيقتها . .

وبهذا المقياس الأساسى يتضح أن وجه الأرض اليوم تغمره الجاهلية . وأن حياة البشرية اليوم تحكمها الجاهلية . وأن الإسلام اليوم متوقف عن « الوجود » مجرد الوجود ! وأن الدعاة إليه اليوم يستهدفون ما كان يستهدفه محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تماما ؛ ويواجهون ما كان يواجهه — صلى الله عليه وسلم — تماما ، وأنهم مدعوون إلى التأسى به فى قول الله — سبحانه — له :

Marfat.com

« كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ..

ولتوكيد هذه الحقيقة وجلائها نستطرد إلى شيء قليل من التفصيل :

إن المجتمعات البشرية اليوم ـ بجملتها ـ مجتمعات جاهلية . وهى من ثم مجتمعات « متخلفة » أو « رجعية » ! بمعنى أنها « رجعت » إلى الجاهلية ، بعد أن أخذ الإسلام بيدها فاستنقذها منها . والإسلام اليوم مدعو لاستنقاذها من التخلف والرجعية الجاهلية ، وقيادتها فى طريق التقدم و « الحضارة » بقيمها وموازينها الربانية .

إنه حين تكون الحاكمية العليا لله وحده فى مجتمع ـ متمثلة فى سيادة شريعته الربانية ـ تكون هذه هى الصورة الوحيدة التى يتحرر فيها البشر تحررا حقيقيا كاملا من العبودية للهوى البشرى ومن العبودية للعبيد . وتكون هذه هى الصورة الوحيدة للإسلام أو للحضارة ـ كما هى فى ميزان الله ـ لأن الحضارة التى يريدها الله للناس تقوم على قاعدة أساسية من الكرامة والتحرر لكل فرد . ولا كرامة ولا تحرر مع العبودية لعبد .. لا كرامة ولا تحرر فى مجتمع بعضه أرباب يشرعون ويزاولون حق الحاكمية العليا ؛ وبعضهم عبيد يخضعون ويتبعون هؤلاء الأرباب ! والتشريع لا ينحصر فى الأحكام القانونية . فالقيم والموازين والأخلاق والتقاليد .. كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه شاعرين أو غير شاعرين ! .. ومجتمع هذه صفته هو مجتمع رجعى متخلف .. أو بالاصطلاح الإسلامى : « مجتمع جاهلى مشرك » !

وحين تكون آصرة التجمع فى مجتمع هى العقيدة والتصور والفكر ومنهج الحياة . ويكون هذا كله صادرا من الله ، لا من هوى فرد ، ولا من إرادة عبد . فإن هـذا المجتمع يكون مجتمعا متحضرا متقدما . أو بالاصطلاح الإسلامى : مجتمعا ربانيا مسلما .. لأن التجمع حينئذ يكون ممثلا لأعلى ما فى « الإنسان » من خصائص ـ خصائص الروح والفكر ـ فأما حين تكون آصرة التجمع هى الجنس واللون والقوم والأرض . . . وما إلى ذلك من الروابط .. فإنه يكون مجتمعا رجعيا متخلفا .. أو بالاصطلاح الإسلامى : مجتمعا جاهليا مشركا .. ذلك أن الجنس واللون والقوم والأرض . . . وما إلى ذلك من الروابط لا تمثل الحقيقة العليا فى « الإنسان » . فالإنسان يبقى إنسانا بعد الجنس واللون والقوم والأرض . ولكنه لا يبقى إنسانا بعد الروح والفكر !

Marfat.com

ثم هو يملك بإرادته الإنسانية الحرة - وهى أسمى ما أكرمه الله به - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته من ضلال إلى هدى عن طريق الإدراك والفهم والاقتناع والاتجاه . ولكنه لا يملك أبدا أن يغير جنسه ، ولا لونه ، ولا قومه . لا يملك أن يحدد سلفا مولده فى جنس ولا لون ؛ كما لا يمكنه أن يحدد سلفا مولده فى قوم أو أرض .. فالمجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة هو بدون شك أرقى وأمثل وأقوم من المجتمع الذى يتجمع فيه الناس على أمور خارجة عن إرادتهم ولا يد لهم فيها !

وحين تكون « إنسانية الإنسان » هى القيمة العليا فى مجتمع ؛ وتكون « الخصائص الإنسانية » فيه موضع التكريم والرعاية ، يكون هذا المجتمع متحضرا متقدما .. أو بالاصطلاح الإسلامى : ربانيا مسلما .. فأما حين تكون «المادة» - فى أية صورة من صورها - هى القيمة العليا .. سواء فى صورة « النظرية » كما فى الماركسية ، أو فى صورة « الإنتاج المادى » كما فى أمريكا وأوربا وسائر المجتمعات التى تعتبر الإنتاج المادى هو القيمة العليا ، التى تهدر فى سبيلها كل القيم والخصائص الإنسانية - وفى أولها القيم الأخلاقية - فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا رجعيا متخلفا .. أو بالاصطلاح الإسلامى : مجتمعا جاهليا مشركا ..

.. إن المجتمع الربانى المسلم لا يحتقر المادة ؛ لا فى صورة « النظرية » باعتبار المادة هى التى تؤلف كيان هذا الكون الذى نعيش فيه ؛ ولا فى صورة « الإنتاج المادى » والاستمتاع به . فالإنتاج المادى من مقومات خلافة الإنسان فى الأرض بعهد الله وشرطه ؛ والاستمتاع بالطيبات منها حلال يدعو الإسلام إليه - كما سنرى فى سياق هذه السورة - ولكنه لا يعتبرها هى القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص « الإنسان » ومقوماته ! كما تعتبرها المجتمعات الجاهلية .. الملحدة أو المشركة .

وحين تكون القيم « الإنسانية » والأخلاق « الإنسانية » - كما هى فى ميزان الله - هى السائدة فى مجتمع ، فإن هذا المجتمع يكون متحضرا متقدما . . أو بالاصطلاح الإسلامى . . ربانيا مسلما .. والقيم « الإنسانية » والأخلاق « الإنسانية » ليست مسألة غامضة ولا مائعة ؛ وليست كذلك قيما وأخلاقا متغيرة لا تستقر على حال - كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا

Marfat.com

الفوضى فى الموازين ، فلا يبقى هنالك أصل ثابت يرجع إليه فى وزن ولا تقييم . . إنها القيم والأخلاق التى تنمى فى الإنسان « خصائص الإنسان » التى ينفرد بها دون الحيوان . وتُغلب فيه هذا الجانب الذى يميزه ويجعل منه إنسانا . وليست هى القيم والأخلاق التى تنمى فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان . . وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت ، لا يقبل عملية التمييع المستمرة التى يحاولها « التطوريون » ! عندئذ لا تكون هناك أخلاق زراعية وأخرى صناعية . ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية . ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية ! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة ، على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة فى صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها ، وحتمية فى نشأتها وتقريرها . . إنما تكون هناك فقط « قيم وأخلاق إنسانية » يصطلح عليها المسلمون فى المجتمع المتحضر . « وقيم وأخلاق حيوانية » - إذا صح هذا التعبير - يصطلح عليها الناس فى المجتمع المتخلف . . أو بالاصطلاح الإسلامى تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية ؛ وقيم وأخلاق رجعية جاهلية !

إن المجتمعات التى تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية ، لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة ، مهما تبلغ من التقدم الصناعى والاقتصادى والعلمى ! إن هذا المقياس لا يخطىء فى قياس مدى التقدم فى الإنسان ذاته .

وفى المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم الأخلاق بحيث يتخلى عن كل ماله علاقة بالتميز الإنسانى عن الحيوان . ففى هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة - رذيلة أخلاقية ! إن المفهوم « الأخلاق » ينحصر فى المعاملات الشخصية والاقتصادية والسياسية - أحيانا فى حدود مصلحة الدولة ! - والكتاب والصحفيون والروائيون وكل أجهزة التوجيه والإعلام فى هذه المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والزوجات والفتيان والشبان : إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية !

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة - من وجهة النظر « الإنسانية »،

Marfat.com

وبمقياس خط التقدم الإنسانى .. وهى كذلك غير إسلامية .. لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته ، وتنمية خصائصه الإنسانية ، وتغليبها على نزعاته الحيوانية ..

ولا نملك أن نمضى أكثر من هذا فى وصف المجتمعات البشرية الحاضرة ، وإغراقها فى الجاهلية . . من العقيدة إلى الخلق . ومن التصور إلى أوضاع الحياة . . ونحسب أن هذه الإشارات المجملة تكفى لتقرير ملامح الجاهلية فى المجتمعات البشرية الحاضرة . ولتقرير حقيقة ما تستهدفه الدعوة الإسلامية اليوم وما يستهدفه الدعاة إلى دين الله . . إنها دعوة البشرية من جديد إلى الدخول فى الإسلام : عقيدة وخلقا ونظاما . . إنها ذات المحاولة التى كان يتصدى لها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنها ذات النقطة التى بدأ منها دعوته أول مرة . وإنه ذات الموقف الذى وقفه بهذا الكتاب الذى أنزل إليه ؛ وربه – سبحانه – يخاطبه :

« كتاب أنزل إليك ، فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ..

* * *

وفى الوقت الذى وجه الله – سبحانه – هذا التكليف إلى رسوله ، وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة – وإلى كل قوم يواجههم الإسلام ليخرجهم من الجاهلية – الأمر باتباع ما أنزل فى هذا الكتاب ، والنهى عن اتباع الأولياء من دون الله . ذلك أن القضية فى صميمها هى قضية « الاتباع » . . من يتبع البشر فى حياتهم ؟ يتبعون أمر الله فهم مسلمون . أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون ؟ إنهما موقفان مختلفان لا يجتمعان :

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ما تذكرون » .

هذه هى قضية هذا الدين الأساسية .. إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله ، والاعتراف له بالربوبية ، وإفراده بالحاكمية التى تأمر فتطاع ، ويتبع أمرها ونهيها دون سواه .. وإما اتباع الأولياء من دونه فهو الشرك ، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة .. وكيف والحاكمية ليست خالصة له سبحانه ؟ !

وفى الخطاب للرسول – صلى الله عليه وسلم – كان الكتاب منزلا إليه بشخصه : « كتاب

Marfat.com

أنزل إليك » . . وفى الخطاب للبشر كان الكتاب كذلك منزلا إليهم من ربهم : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » .. فأما الرسول – صلى الله عليه وسلم – فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر . وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه ، ولا يتبعوا أمر أحد غيره .. والإسناد فى كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتحضيض والاستجاشة . فالذى ينزل له ربه كتابا ، ويختاره لهذا الأمر ، ويتفضل عليه بهذا الخير ، جدير بأن يتذكر وأن يشكر ؛ وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر ..

* * *

ولأن المحاولة ضخمة .. وهى تعنى التغيير الأساسى الكامل الشامل للجاهلية : تصوراتها وأفكارها ، وقيمها وأخلاقها ، وعاداتها وتقاليدها ، ونظمها ،وأوضاعها ، واجتماعها واقتصادها. وروابطها بالله ، وبالكون ، وبالناس ..

لأن المحاولة ضخمة على هذا النحو ؛ يمضى السياق فيهز الضمائر هزا عنيفا ؛ ويوقظ الأعصاب إيقاظا شديدا ؛ ويرج الجبلات السادرة فى الجاهلية ، المستغرقة فى تصوراتها وأوضاعها رجاً ويدفعها دفعا .. وذلك بأن يعرض عليها مصارع الغابرين من المكذبين فى الدنيا ، ومصائرهم كذلك فى الآخرة :

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين .. فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » ..

إن مصارع الغابرين خير مذكر ، وخير منذر .. والقرآن يستصحب هذه الحقائق ، فيجعلها مؤثرات موحية ، ومطارق موقظة ، للقلوب البشرية الغافلة .

إنها كثيرة تلك القرى التى أهلكت بسبب تكذيبها . أهلكت وهى غارة غافلة . فى الليل وفى ساعة القيلولة ، حيث يسترخى الناس للنوم ، ويستسلمون للأمن :

« وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

Marfat.com

وكلتاهما .. البيات والقيلولة .. ساعة غِرّة واسترخاء وأمان ! والأخذ فيهما أشد ترويعا وأعنف وقعا . وأدعى كذلك إلى التذكر والحذر والتوقى والاحتياط !

ثم ما الذى حدث ؟ إنه لم يكن لهؤلاء المأخوذين فى غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم دعوى يدعونها إلا الإقرار !

« فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين » ..

والإنسان يدعى كل شىء إلا الاعتراف والإقرار ! ولكنهم فى موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوى ! « إنا كنا ظالمين » .. فياله من موقف مذهل رعيب مخيف ، ذلك الذى يكون أقصى المحاولة فيه هو الاعتراف بالذنب والإقرار بالشرك !

إن الظلم الذى يعنونه هنــا هو الشرك . فهــذا هو المدلول الغالب على هــذا التعبير فى القرآن .. فالشرك هو الظلم . والظلم هو الشرك . وهل أظلم ممن يشرك بربه وهو خلقه ؟!

وبينما المشهد معروض فى الدنيا ، وقد أخذ الله المكذبين ببأسه، فاعترفوا وهم يعاينون بأس الله أنهم كانوا ظالمين ؛ وتكشف لهم الحق فعرفوه ، ولكن حيث لا تجدى معرفة ولا اعتراف، ولا يكف بأس الله عنهم ندم ولا توبة . فإن الندم قد فات موعده ، والتوبة قد انقطعت طريقها بحلول العذاب ..

بينما المشهد هكذا معروضا فى الدنيا إذا السياق ينتقل ، وينقل معه السامعين من فوره إلى ساحة الآخرة . بلا توقف ولا فاصل . فالشريط المعروض موصول المشاهد ، والنقلة تتخطى الزمان والمكان ، وتصل الدنيا بالآخرة ، وتلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة؛ وإذا الموقف هناك فى لمحة خاطفة :

« فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم ، وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » ..

إن التعبير على هــذا النحو المصور للوحى ، خاصية من خواص القرآن . . إن الرحلة فى

Marfat.com

الأرض كلها تطوى فى لمحة . وفى سطر من كتاب . لتلتحم الدنيا بالآخرة ؛ ويتصل البدء بالختام !

فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله فى هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء ، فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذى أخذهم وهم غارون : « إنا كنا ظالمين » ..

ولكنه السؤال الجديد ، والتشهير بهم على الملأ الحاشد فى ذلك اليوم المشهود :

« فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم — وما كنا غائبين » .

فهو السؤال الدقيق الوافى ، يشمل المرسل إليهم ويشمل المرسلين .. وتعرض فيه القصة كلها على الملأ الحاشد ؛ وتفصل فيه الخفايا والدقائق ! .. يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون . ويسأل الرسل فيجيبون . ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شىء أحصاه الله ونسوه! يقصه عليهم — سبحانه — بعلم فقد كان حاضرا كل شىء . وما كان — سبحانه — غائبا عن شىء .. وهى لمسة عميقة التأثير والتذكير والتحذير !

« والوزن يومئذ الحق » ..

إنه لا مجال هنا للمغالطة فى الوزن ؛ ولا التلبيس فى الحكم ؛ ولا الجدل الذى يذهب بصحة الأحكام والموازين ..

« فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون » ..

فقد ثقلت فى ميزان الله الذى يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح .. وأى فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة ، فى نهاية الرحلة المديدة ، وفى ختام المطاف الطويل ؟

« ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » ..

فقد خفت فى ميزان الله الذى لا يظلم ولا يخطىء . وقد خسروا أنفسهم . فماذا يكسبون بعد ؟ إن المرء ليحاول أن يجمع لنفسه . فإذا خسر ذات نفسه فما الذى يبقى له ؟

Marfat.com

لقد خسروا أنفسهم بكفرهم بآيات الله : « بما كانوا بآياتنا يظلمون » والظلم - كما أسلفنا - يطلق فى التعبير القرآنى ويراد به الشرك أو الكفر : « إن الشرك لظلم عظيم » .

ولا ندخل هنا فى طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية فى تاريخ الفكر « الإسلامى » ! . . فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل . مذ كان الله سبحانه ليس كمثله شىء . . وحسبنا تقرير الحقيقة التى يقصد إليها السياق : من أن الحساب يومئذ بالحق ، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وأن عملا لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع . .

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ⑩
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ : مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟
قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ : فَاهْبِطْ مِنْهَا ، فَمَا
يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ : أَنْظِرْنِي إِلَى
يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ : فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ
الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ : اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ
تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ،
فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ، وَقَالَ : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا
عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا :
إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ،

Marfat.com

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُل لَّكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ، وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ : فِيهَا تَحْيَوْنَ ، وَفِيهَا تَمُوتُونَ ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » ﴿٢٥﴾

من هنا تبدأ الرحلة الكبرى .. تبدأ بتمهيد عن تمكين الله للجنس البشرى فى الأرض ، كحقيقةمطلقة ؛ وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلا .

« ولقد مكنا كم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلا ماتشكرون » :

إن خالق الأرض وخالق الناس ، هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى فى الأرض . هو الذى أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة هذا الجنس وتقوته وتموله ، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش ..

هو الذى جعلها مقرا صالحا لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر ، ودورتها حول الشمس ، وميلها على محورها ، وسرعة دورتها . . . إلى آخر هذه الموافقات التى تسمح بحياة هذا الجنس عليها . وهوالذى أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات مايسمح بنشأة هذا الجنس وحياته ، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً . . وهو الذى جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض ، قادرا على تطويعها واستخدامها ؛ بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها فى حاجته ..

ولولا تمكين الله للإنسان فى الأرض بهذا وذلك ، ما استطاع هذا المخلوق الضعيف القوة أن « يقهر الطبيعة » كما يعبر أهل الجاهلية قديما وحديثا ! ولا كان بقوته الذاتية قادرا على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة !

Marfat.com

إن التصورات الجاهلية الإغريقية و الرومانية هي التي تطبع تصورات الجاهلية الحديثة .. هي التي تصور الكون عدوا للإنسان ؛ وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته ؛ وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى - بجهده وحده - وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية ، وكل تسخير لها « قهرا للطبيعة » في المعركة بينها و بين الجنس الإنساني !

إنها تصورات سخيفة ، فوق أنها تصورات خبيثة !

لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان ، عدوة له ، تتربص به ، وتعاكس اتجاهه ، وليس وراءها إرادة مدبرة - كما يزعمون - مانشأ هذا الإنسان أصلا ! وإلا فكيف كان ينشأ ؟ كيف ينشأ في كون معاد بلا إرادة وراءه ؟ ولما استطاع المضي في الحياة على فرض أنه وجد ! وإلا فكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ؟ وهي - بزعمهم - التي تصرف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها ؟

إن التصور الإسلامي وحده هو الذي يمضي وراء هذه الجزئيات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق .. إن الله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي خلق الإنسان . وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان ، وأودع الإنسان من الاستعدادات مايسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته .. وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه . ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة !

وفي ظل هذا التصور يعيش « الإنسان » في كون مأنوس صديق ؛ وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة .. يعيش مطمئن القلب ، مستروح النفس ، ثابت الخطو ، ينهض بالخلافة عن الله في الأرض في اطمئنان الواثق بأنه معان على الخلافة ؛ ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ؛ ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود ؛ وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته ، وتيسر له قدرا جديدا من الرقي والراحة والمتاع .

إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه .. على العكس ، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة .. إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل

Marfat.com

عليه بأسراره ، ولا يمنع عنه مدده وعونه .. وليس فى مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله !

إن مأساة « الوجودية » الكبرى هى هذا التصور النكد الخبيث . . تصور الوجود الكونى - بل الوجود الجماعى البشرية ذاتها - معاكسا فى طبيعته للوجود الفردى الإنسانى ، متجها بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنسانى ! إنه تصور بائس لا بد أن ينشئ حالة من الانزواء والانكماش والعدمية ! أو ينشئ حالة من الاستهتار والتمرد والفردية ! وفى كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضنى ؛ والبؤس النفسى والعقلى ، والشرود فى التيه : تيه التمرد ، أو تيه العدم .. وهما سواء ..

وهى ليست مأساة « الوجودية » وحدها من مذاهب الفكر الأوربى . إنها مأساة الفكر الأوربى كله - بكل مذاهبه واتجاهاته - بل مأساة الجاهلية كلها فى جميع أزمانها وبيئاتها . المأساة التى يضع الإسلام حداً لها بعقيدته الشاملة ، التى تنشئ فى الإدراك البشرى تصورا صحيحا لهذا الوجود ، وما وراءه من قوة مدبرة .

إن « الإنسان » هو ابن هذه الأرض ؛ وهو ابن هذا الكون . لقد أنشأه الله من هذه الأرض ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقا ومعايش ، ويسر له المعرفة التى تسلمه مفاتيحها ؛ وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان ، تساعده - حين يتعرف إليها على بصيرة - وتيسر حياته ..

ولكن الناس قليلا ما يشكرون . . ذلك أنهم فى جاهليتهم لا يعلمون . . وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر ، وأنى لهم الوفاء ؛ لولا أن الله يقبل منهم ما يطيقون : وهؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى : « قليلا ما تشكرون » .

* * *

بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة . . تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان فى احتفال مهيب ، فى رحاب الملأ الأعلى .. يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم ؛ زيادة فى الحفاوة والتكريم .

Marfat.com

وتحتشد له الملائكة – وفى زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس – وتشهده السماوات والأرض؟ وما خلق الله من شيء.. إنه أمر هائل وحدث عظيم فى تاريخ هذا الوجود:

« ولقد خلقناكم، ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟ قال: أنا خير منه، خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين. قال: أنظرنى إلى يوم يبعثون. قال: إنك من المنظرين. قال: فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مذؤوما مدحورا، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » ..

هذا هو المشهد الأول.. وهو مشهد مثير.. ومشهد خطير.. ونحن نؤثر استعراض مشاهد هذه القصة ابتداء؛ ونرجىء التعليق عليها، واستلهام إيحاءاتها إلى أن نفرغ من استعراضها..

« ولقد خلقناكم، ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » ..

إن الخلق قد يكون معناه: الإنشاء. والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص.. وهما مرتبتان فى النشأة لا مرحلتان.. فإن « ثم » قد لا تكون للترتيب الزمنى، ولكن للترقى المعنوى. والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود. فالوجود يكون للمادة الخامة؛ ولكن التصوير – بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص – أرقى من درجات الوجود. فكأنه قال: إننا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجودا ذا خصائص راقية. وذلك كقوله تعالى: « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فإن كل شىء أعطى خصائصه ووظائفه وهُدى إلى أدائها عند خلقه. ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها. والمعنى لا يختلف إذا كان معنى « هدى »: هداه إلى ربه. فإنه هُدى إلى ربه عند خلقه وكذلك آدم صور

Marfat.com

وأعطى خصائصه الإنسانية عند خلقه . . « وثم » . . للترقى فى الرتبة ، لا للتراخي فى الزمن . كما نرجح .

وعلى أية حال فإن مجموع النصوص القرآنية فى خلق آدم عليه السلام ، وفى نشأة الجنس البشرى ، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحبا لخلقه . وأن الترقى فى تاريخ الإنسان كان ترقيا فى بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترقيا فى «وجود» الإنسان . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان . كما تقول الداروينية .

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيبا زمنيا ـ بدلالة الحفريات التى تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء ـ هو مجرد نظرية « ظنية » وليست « يقينية » لأن تقدير أعمار الصخور ذاته فى طبقات الأرض ليس إلا ظنا ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها !

على أنه ـ على فرض العلم اليقينى بأعمار الصخور ـ ليس هناك ما يمنع من وجود « أنواع » من الحيوان فى أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض ؛ بفعل الظروف السائدة فى الأرض ، ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حيانها ، ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة . ولكن هذا لا « يحتم » أن يكون بعضها « متطورا » من بعض . . وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا . . لا تستطيع أن تثبت ـ فى يقين مقطوع به ـ أن هذا النوع تطور تطورا عضويا من النوع الذى قبله من الناحية الزمنية ـ وفق شهادة الطبقة الصخرية التى يوجد فيها ـ ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعا أرقى من النوع الذى قبله زمنيا .. وهذا يمكن تعليله كما قلنا . . أن الظروف السائدة فى الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع . فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ . ومساعدة على انقراض النوع الذى كان عائشا من قبل فى الظروف الأخرى فانقرض .

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنسانى نشأة مستقلة ، فى الزمن الذى علم الله أن ظروف

Marfat.com

الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع وهـذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية

وتفرد « الإنسان » من الناحية البيولوجيـة والفسيولوجيـة والعقلية والروحية . هـذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون – وفيهم الملحدون بالله كليـة – للاعتراف به ، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانيـة ، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي[1] !

على أية حال لقد أعلن الله بذاته العلية الجليـلة العظيمة ميلاد هذا الكائن الإنساني ؛ في حفل حافل من الملأ الأعلى :

« ثم قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم . فسجدوا . إلا إبليس لم يكن من الساجدين » ..

والملائـكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم ؛ لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم – وقد أجملنا ماعلمنا الله من أمرهم في موضع سابق من هذه الظلال[2] – وكذلك إبليس فهو خلق غير الملائـكة . لقوله تعالى : « إن إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .. والجن خلق غير الملائـكة ، لا نعلم عنه كذلك إلا ماأنبأنا الله من أمره – وقد أجملنا ما أنبأنا الله به من أمرهم في موضع من هذا الجزء أيضا[3] – وسيأتي في هـذه السورة أن إبليس خلق من نار . فهو من غير الملائـكة قطعا . وإن كان قد أمر بالسجود لآدم في زمرة الملائـكة . في ذلك الحفل المعظم الذي أعلن فيه الملك الجليل ، ميلاد هذا الكائن الفريد ..

فأما الملائـكة – وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون – فقد سجدوا مطيعين منفذين لأمر الله ، لا يترددون ولا يستكبرون ولا يفكرون في معصية لأي سبب ولأي تصور ولأي تفكر .. هذه طبيعتهم ، وهذه خصائصهم ، وهـذه وظيفتهم .. وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنساني على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة في ذلك الخلق المسمى بالملائـكة من عباد الله .

---

(١) يراجع بتوسع فصل : « حقيقة الحياة » وفصل « حقيقة الإنسان » في القسم الثاني من : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » .

(٢) ص ١٣٢ – ١٤٠ : الجزء السابع (٣) ص ٤٩ – ٥٠ : الجزء الثامن.

Marfat.com

وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله ـ سبحانه ـ وعصاه وسنعلم : ما الذى حاك فى صدره . وما التصور الذى سيطر عليه فمنعه من طاعة ربه . وهو يعرف أنه ربه وخالقه ، ومالك أمره وأمر الوجود كله ؛ لا يشك فى شىء من هذا كله !

وكذلك نجد فى المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق . ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت . . وطبيعة ثالثة هى الطبيعة البشرية . وسنعلم خصائصها وصفاتها المزدوجة فيما سيجىء .. فأما الطبيعة الأولى فهى خالصة لله ، وقد انتهى دورها فى هذا الموقف بهذا التسليم المطلق . وأما الطبيعتان الأخريان ، فسنعرف كيف تتجهان .

« قال : مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين » .

لقد جعل إبليس له رأيا مع النص . وجعل لنفسه حقا فى أن يحكم نفسه وفق مايرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر .. وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر ؛ وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ .. وهذا إبليس ـ لعنه الله ـ لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذى لا يقع فى هذا الوجود شىء إلا بإذنه وقدره .. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه .. بمنطق من عند نفسه :

« قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ..

فكان الجزاء العاجل الذى تلقاه لتوه :

« قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين » ..

إن علمه بالله لم ينفعه ، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه .. وكذلك كل من يتلقى أمر الله؛ ثم يجعل لنفسه نظرا فى هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه ؛ وحاكمية فى قضية قضى الله فيها من قبل ، يرد بها قضاء الله فى هذه القضية .. إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد . فإبليس لم يكن ينقصه العلم ، ولم يكن ينقصه الاعتقاد !

لقد طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وحقت عليه اللعنة ، وكتب عليه الصغار .

Marfat.com

ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم .. ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمحضت فيه :

« قال : أنظرني إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » ..

فهو الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المطلق على الغواية .. وبذلك تتكشف هذه الطبيعة عن خصائصها الأولى .. شر ليس عارضا ولا وقتيا . إنما هو الشر الأصيل العامد القاصد العنيد ..

ثم هو التصوير المشخص للمعاني العقلية والحركات النفسية ، في مشاهد شاخصة حية :

لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث . وهو يعلم أن هذا الذي يطلبه لا يقع إلا بإرادة الله وقدره . ولقد أجابه لله إلى طلبه في الإنظار ، ولكن إلى «يوم الوقت المعلوم» كما جاء في السورة الأخرى . وقد وردت الروايات : أنه يوم النفخة الأولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض – إلا من شاء الله – لا يوم يبعثون ..

وهنا يعلن إبليس في تبجح خبيث – وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل – أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبجحه ؛ بأن يغوى ذلك المخلوق الذي كرمه الله ، والذي بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده ! ويجسم هذا الإغواء بقوله الذي حكاه القرآن عنه :

« ... لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم » ..

إنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه – والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسيا ، فالله سبحانه جل عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضى الله – وإنه سيأتي البشر من كل جهة : « من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » .. للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة .. وهو مشهد

Marfat.com

حي شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه ، اللهم إلا القليل الذى يفلت ويستجيب :

« ولا تجد أكثرهم شاكرين » ..

ويجيء ذكر الشكر ، تنسيقا مع ماسبق فى مطلع السورة : « قليلا ماتشكرون » .. لبيان السبب فى قلة الشكر ؛ وكشف الدافع الحقيق الخفى ، من حيلولة إبليس دونه ، وقعوده على الطريق إليه ! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذى يدفعهم عن الهدى ؛ وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التى لا تجعل أكثرهم شاكرين !

لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه . لأن مشيئة الله ــ سبحانه ــ اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ؛ بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ؛ وبما وهبه من عقل مرجح ، وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدى الرسل ؛ ومن الضبط والتقويم بهذا الدين. كما اقتضت أن يتلق الهداية والغواية ؛ وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلا ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئة الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

ولكن السياق هنا لا يصرح بترخيص الله ــ سبحانه ــ لإبليس ــ عليه اللعنة ــ فى إمهاله هذا الأخير ، كما صرح بإجابته فى إنظاره . إنما يسكت عنه ، ويعلن طرد إبليس طردا لامعقب عليه . طرده مذموما مقهورا ، وإبعاده بملء جهنم منه وممن يتبعه من البشر ويضل معه :

« قال : اخرج منها مذؤوما مدحورا . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » ..

ومن يتبعه من البشر قد يتبعه فى معرفته بالله واعتقاده بألوهيته ، ثم فى رفض حاكمية الله وقضائه ، وادعاء أن له الحق فى إعادة النظر و امر ، وفى تحكيم منطقه هو فى تنفيذها أو عدم تنفيذها .. كما أنه قد يتبعه ليضله عن الاهتداء إلى الله أصلا .. وهذا وذلك كلاهما اتباع الشيطان ؛ جزاؤه جهنم مع الشيطان !

لقد جعل الله ــ سبحانه ــ لإبليس وقبيله فرصة الإغواء . وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار تحقيقا للابتلاء ، الذى قضت مشيئته أن تأخذ به هذا الكائن ؛ وتجعله به خلقا متفردا

Marfat.com

فى خصائصه ، لا هو ملك ولا هو شيطان . لأن له دورا آخر فى هذا الكون ، ليس هو دور الملك ولا هو دور الشيطان .

* * *

وينتهى هذا المشهد ، ليتلوه مشهد آخر فى السياق :

ينظر الله – سبحانه – بعد طرد إبليس من الجنة هذه الطرد – إلى آدم وزوجه .. وهنا فقط نعرف أن له زوجا من جنسه ، لا ندرى كيف جاءت . فالنص الذى معنا وأمثاله فى القرآن الكريم لا تتحدث عن هذا الغيب بشىء . وكل الروايات التى جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات لا نملك أن نعتمد عليها ، والذى يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجا من جنسه ، فصارا زوجين اثنين ؛ والسنة التى نعلمها عن كل خلق الله هى الزوجية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .. فهى سنة جارية وهى قاعدة فى كل خلق الله أصيلة وإذا سرنا مع هذه السنة فإن لنا أن نرجح أن خلق حواء لم يمكث طويلا بعد خلق آدم ، وأنه تم على نفس الطريقة التى تم بها خلق آدم ..

على أية حال يتجه الخطاب إلى آدم وزوجه ، ليعهد إليهما ربهما بأمره فى حياتهما ؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى ، الذى خلق الله له هذا الكائن . وهو دور الخلافة فى الأرض – كما صرح بذلك فى آية البقرة : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » ..

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » ..

ويسكت القرآن عن تحديد « هذه الشجرة » . لأن تحديد جنسها لا يزيد شيئا فى حكمة حظرها . مما يرجح أن الحظر فى ذاته هو المقصود . لقد أذن الله لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد ؛ وأن يدرب المركوز فى طبعه من الإرادة التى يضبط بها رغباته وشهواته ؛ ويستعلى بها على هذه الرغبات والشهوات ، فيظل حاكما لها لا محكوما بها كالحيوان ، فهذه هى خاصية « الإنسان » التى يفترق بها عن الحيوان ، ويتحقق بها فيه معنى « الإنسان » .

Marfat.com

والآن يبدأ إبليس يؤدي دوره الذي تمحض له ..

إن هذا الكائن المتفرد ؛ الذي كرمه الله كل هذا التكريم ؛ والذي أعلن ميلاده في الملأ الأعلى في ذلك الحفل المهيب ؛ والذي أسجد له الملائكة فسجدوا ؛ والذي أخرج بسببه إبليس من الجنة وطرده من الملأ الأعلى .. إن هذا الكائن مزدوج الطبيعة ؛ مستعد للاتجاهين على السواء . وفيه نقط ضعف معينة يقاد منها - ما لم يلتزم بأمر الله فيها - ومن هذه النقط تمكن إصابته ، ويمكن الدخول إليه . . إن له شهوات معينة .. ومن شهواته يمكن أن يقاد(١) !

وراح إبليس يداعب هذه الشهوات :

« فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ؛ وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين » ..

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم ؛ لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله ، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه . ولكننا نعلم - بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أن إغواء على الشر يقع في صورة من الصور ؛ وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات . وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان ، وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر ؛ حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر ؛ وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير ..

وهكذا وسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما .. فهذا كان هدفه .. لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها - ونعلم من السياق أنها سوآت حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية ، فكأنها عوراتهما - ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال ! إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة :

« وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » . .

---

(١) راجع « قصة آدم » في كتاب : « منهج الفن الإسلامي » تأليف محمد قطب .

Marfat.com

بذلك داعب رغائب « الإنسان » الكامنة . . إنه يحب أن يكون خالدا لا يموت أو معمرا أجلا طويلا كالخلود ! ويحب أن يكون له ملك غير محدد بالعمر القصير المحدد . .

وفى قراءة : « ملكين » بكسر اللام . وهذه القراءة يعضدها النص الآخر فى سورة طه : « هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى » . . وعلى هذه القراءة يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين فى الإنسان بحيث يمكن أن يقال : إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هى إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد فى النسل جيلا بعد جيل - وعلى قراءة « ملكين » بفتح اللام يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود . . ولكن القراءة الأولى - وإن لم تكن هى المشهورة - أكثر اتفاقا مع النص القرآنى الآخر ، ومع اتجاه الكيد الشيطانى وفق شهوات الإنسان الأصيلة .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ؛ وأن هذا النهى له ثقله فى نفوسهما وقوته ؛ فقد استعان على زعزعته - إلى جانب مداعبة شهواتهما - بتأمينهما من هذه الناحية ؛ خلف لهما بالله إنه لهما ناصح ، وفى نصحه صادق :

« وقاسمهما : إنى لكما لمن الناصحين » !

ونسى آدم وزوجه - تحت تأثير الشهوة الدافعة والقسم المخدر - أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير ! وأن الله أمرهما أمرا عليهما طاعته سواء عرفا علته أم يعرفاها ! وأنه لا يكون شىء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه !

نسيا هذا كله ، واندفعا يستجيبان للإغراء :

« فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ » .

لقد تمت الخدعة وآتت ثمرتها المرة . لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته ، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا :

Marfat.com

« فدلاهما بغرور » !

ولقد شعرا الآن أن لهما سوآت ، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما . فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه فى بعض « يخصفان » ويضعان هذا الورق المشبك على سوآتهما ـ مما يوحى بأنها العورات الجسدية التى يخجل الإنسان فطرة من تعريها ، ولا يتعرى ويتكشف إلا بفساد فى هذه الفطرة من صنع الجاهلية !

« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ » ..

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وعلى إغفال النصيحة .. أما كيف كان النداء وكيف سمعاه ، فهو كما خاطبهما أول مرة . وكما خاطب الملائكة . وكما خاطب إبليس . كلها غيب لا ندرى عنه إلا أنه وقع . وأن الله يفعل ما يشاء .

وأمام النداء العلوى يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن المتفرد .. إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفا يدخل منه الشيطان. إنه لا يلتزم دائما ولا يستقيم دائما .. ولكنه يدرك خطأه ؛ ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة .. إنه يثوب ويتوب ؛ ولا يلج كالشيطان فى المعصية ، ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية !

« قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ..

إنها خصيصة « الإنسان » التى تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه .. الاعتراف ، والندم والاستغفار ، والشعور بالضعف ، والاستعانة به ، وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته .. وإلا كان من الخاسرين ..

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت . وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى . وعرفها هو وذاقها . واستعد ـ بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة ـ لمزاولة اختصاصه فى الخلافة ؛ وللدخول فى المعركة التى لا تهدأ أبدا مع عدوه ..

« قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » ..

وهبطوا جميعا .. هبطوا إلى هذه الأرض .. ولكن أين كانوا ؟ أين هى الجنة ؟ .. هذا

Marfat.com

من الغيب الذى ليس عندنا من نبأ عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتح الغيب وحده .. وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحى هى محاولة فاشلة . وكل تكذيب كذلك يعتمد على مألوفات البشر اليوم و « علمهم » الظنى هو تبجح . فهذا « العلم » يتجاوز مجاله حين يحاول الخوض فى هذا الغيب بغير أداة عنده ولا وسيلة . ويتبجح حين ينفى الغيب كله ، والغيب محيط به فى كل جانب ، والمجهول فى « المادة » التى هى مجاله أكثر كثيرا من المعلومات [1] !

لقد هبطوا جميعا إلى الأرض .. آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضا ، وليعادى بعضهم بعضا ؛ ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين : إحداها محضة للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ؛ وليتم الابتلاء ، ويجرى قدر الله بما شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض ؛ ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين . وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ؛ ثم يخرجوا منها فيبعثوا .. ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره ، فى نهاية الرحلة الكبرى ..

وانتهت الجولة الأولى لتتبعها جولات وجولات ، ينتصر فيها الإنسان ماعاذ بربه . وينهزم فيها ما تولى عدوه .

* * *

وبعد فإنها ليست قصة ! إنما هو عرض لحقيقة الإنسان لتعريفه بحقيقة طبيعته ونشأته ، والعوالم المحيطة به ، والقدر الذى يصرف حياته ، والمنهج الذى يرضاه الله له ، والابتلاء الذى يصادفه ، والمصير الذى ينتظره .. وكلها حقائق تشارك فى تقرير « مقومات التصور الإسلامى » ..

وسنحاول أن نلم بها بقدر مايسمح منهج الظلال ، ونبقى تفصيلاتها للبحث المتخصص عن « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » ..

• إن الحقيقة الأولى التى نستلهمها من قصة النشأة الإنسانية ، هى ــ كما قلنا من قبل ــ التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنسانى . والتقدير الإلهى المحيط بالكون والإنسان؛

(١) يراجع فى الجزء السابع تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » .. ص ٢٤٧ ــ ص ٢٦٢

Marfat.com

والذى يجعل هـذه النشأة قدرا مرسوما لا فلتة عارضة ، كما يجعل التوافق بينهما هو القـاعدة .

والذين لايعرفون الله سبحانه ، ولايقدرونه حق قدره ، يقيسون أقداره وأفعاله بمقاييسهم البشرية الصغيرة . فإذا نظروا فوجدوا الـكائن الإنسانى مخلوقا من مخلوقات هذه الأرض . ووجدوا هذه الأرض ذرة صغيرة كالهباءة فى خضم الـكون . قالوا : إنه ليس من « المعقول »! أن يكون وراء نشأة هذا الإنسان قصد ؛ فوق أن يكون لهذا الإنسان شأن فى نظام الـكون ! وزعم بعضهم أن وجوده كان فلتة ، وأن الـكون من حوله معاد لنشأته ونشأة الحياة جملة ! .. وإن هى إلا تخرصات منشؤها قياس أقدار الله وأفعاله بمقاييس البشر الصغيرة !

وحقا لوكان الإنسان هو الذى له هذا الملك الهائل ماعنى بهذه الأرض ، ولا بمثل هذا الـكائن يدب عليها ! لأن اهتمام الإنسان لايتسع للعناية بكل شىء فى مثل هذا الملك الهائل ؛ ولا بتقدير كل شىء فيه وتدبيره ، والتنسيق بين جميع الأشياء فيه .. غير أن الله ـ سبحانه ـ هو الله ! هو الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . هو صاحب هذا الملك الـكبير الذى لايقوم شىء منه إلا برعايته ؛ كما أنه لم يوجد منه شىء إلا بمشيئته .. إنما آفة هذا الإنسان ، حين ينحرف عن هدى الله ويستقل بهواه ـ ولو كان يسميه علما ! ـ أن ينسى أنه الله . ويتصوره ـ سبحانه ـ على هواه ! ويقيس أقداره وأفعاله بمقاييس الإنسان الصغيرة ! ثم يتبجح فيملى هواه هذا على الحقيقة !

يقول سير جيمس جينز ـ كمثل على التصورات البشرية الضالة الـكثيرة ـ فى كتاب : « الـكون الغامض » :

«ونحن إذ نقف على أرضنا ـ تلك الحبيبة الرملية المتناهية فى الصغر ـ نحاول أن نـكشف عن طبيعة الـكون الذى يحيط بموطننا فى الفضاء والزمن ، وعن الغرض من وجوده ، نحس فى أول الأمر بما يشبه الذعر والهلع . وكيف لا يكون الـكون مخيفا مرعبا ، وهذه أبعاده هائلة لا تستطيع عقولنا إدراك مداها ؟ وقد مرت عليه أحقاب طويلة لايمكن تصورها ؟ ويتضاءل إلى جانبها تاريخ الإنسان حتى يبدو وكأنه لمح البصر ؟ .. وهو مخيف مرعب لما نشعر به من وحدة مرهوبة ، وما نعلمه من ضآلة موطننا فى الفضاء . ذلك الموطن الذى لايزيد على جزء من مليون

Marfat.com

جزء من إحدى حبيبات الرمال التي في بحار العالم !.. ولكن أخوف ما يخيف العالم من أجله : أنه لا يعني - كما يلوح - بحياة مثل حياتنا . وكأن عواطفنا ومطامعنا وأعمالنا وفنوننا وأدياننا كلها غريبة عن نظامه وخطته . وقد يكون من الحق أن نقول : إن بينه وبين حياة كحياتنا عداء قويا. ذلك بأن الفضاء في أكثر أجزائه بارد إلى حد تتجمد فيه كل أنواع الحياة .. كما أن أكثر المادة التي في الفضاء تبلغ من الحرارة حدا يجعل الحياة فيه مستحيلة ؛ وأن الفضاء تذرعه إشعاعات مختلفة الأنواع ، لا تنفك تصدم ما فيه من أجرام فلكية ؛ وقد يكون كثير من هذه الإشعاعات معاديا للحياة أو مبيداً لها ..

« هذا هو الكون الذي ألقت بنا فيه الظروف . وإذا لم يكن حقا أن ظهورنا حدث بسبب غلطة وقعت فيه ، فلا أقل من أن يكون نتيجة لما يصح أن يوصف بحق أنه مصادفة ! »

وقد بينا من قبل أن افتراض عداء الكون لنشأة الحياة مع افتراض عدم وجود تقدير وتدبير من قوة مهيمنة .. ثم وجود الحياة بعد ذلك فعلا .. أمور لا يتصورها عقل عاقل ! فضلا على أن يكون عقل عالم ! وإلا فكيف أمكن ظهور الحياة في الكون المادي لها مع افتراض عدم وجود قوة مهيمنة مقدِّرة ! هل الحياة أقوى من الكون بحيث تظهر رغم أنفه ؟ ! ورغم عدائه لها بطبيعة تكوينه ؟! هل هذا الكائن الإنساني مثلا - قبل أن ينشأ - أقوى من هذا الكون الموجود فعلا ، ومن ثم طلع هكذا في الكون ، وأنف الكون راغم ؟ !

إنها تصورات لا تستحق عناء النظر ! ولو أن هؤلاء « العلماء » يكتفون بأن يقولوا لنا فقط ما تصل إليه وسائلهم من وصف للموجودات ، دون أن يدخلوا في أمثال هذه التخرصات « الميتافيزيقية » التي لا تستند على أساس ، لأدوا دورهم - ولو ناقصا - في تعريف الناس بالكون من حولهم ! ولكنهم يتجاوزون دائرة المعرفة المأمونة إلى تيه الفروض والظنون ، بلا دليل إلا الهوى الإنساني الصغير !

ونحن - بحمد الله وهداه - ننظر إلى هذا الكون الهائل فلا نشعر بالذعر والهلع الذي يقول عنه سير جيمس جينز ! إنما نشعر بالرهبة والإجلال لبارئ هذا الكون ؛ ونشعر بالعظمة والجمال المتجليين في خلقه ؛ ونشعر بالطمأنينة والأنس ، لهذا الكون الصديق ، الذي أنشأه الله وأنشأنا فيه عن توافق وتنسيق.. وتروعنا ضخامته كما تروعنا دقته ؛ ولكننا لا نفزع ولا نجزع،

Marfat.com

ولا تشعر بالضياع، ولا تتوقع الهلاك .. فإن ربنا وربه الله .. ونتعامل معه في يسر ومودة وأنس وثقة ؛ ونتوقع أن نجد فيه أرزاقنا وأقواتنا ومعايشنا ومتاعنا . . ونرجو أن نكون من الشاكرين :

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش. قليلا ما تشكرون » ..

• والحقيقة الثانية المستلهمة من قصة النشأة الإنسانية : هى كرامة هذا الكائن الفريد فى العوالم الحية ؛ وضخامة دوره المنوط به ؛ وسعة الآفاق والمجالات التى يتحرك فيها ؛ وتنوع العوالم التى يتعامل معها ـ فى حدود عبوديته لله وحده ـ مما يتناقض تماما مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التى تهدر قيمته كعامل أساسى مؤثر فى الكون ، حيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية . ومع مذهب النشوء والارتقاء الذى يلحقه بعالم الحيوان ولا يكاد يحفل خصائصه الإنسانية المتميزة ؛ أو مذهب التحليل النفسى الفرويدى الذى يصوره غارقا فى وحل الجنس حتى مايتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه ! .. إلا أن هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد ، لا تجعل من الإنسان « إلها » كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول[1] . إنما هو الحق والاعتدال فى التصور الإسلامى السليم .

لقد أعلن ميلاد هذا الكائن المتفرد ، الذى نرجح من مجموعة النصوص القرآنية ـ ولا نجزم ـ أن نشأته كانت مستقلة ـ أعلن هذا الميلاد فى حفل كونى كان شهوده الملأ الأعلى . وأعلن ميلاده الجليل العظيم فى هذا الملأ وفى الوجود كله .. وفى الآية الأخرى فى سورة البقرة أنه أعلن كذلك خلافته فى الأرض منذ خلقه ؛ وكان الابتلاء الأول له فى الجنة تمهيدا وإعدادا لهذه الخلافة . كما تعلن الآيات القرآنية فى سور متعددة ، أن الله جعل هذا الكون ـ لا الأرض وحدها ـ عونا له فى هذه الخلافة . وسخر له مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه . .

وكذلك تظهر ضخامة الدور الذى أعطاه بارئه له . فإن عمارة كوكب وسيادته بخلافة الله فيه ـ أيا كان حجم هذا الكوكب ـ إنها لأمر عظيم !

---

(١) يراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الأول .

Marfat.com

والذى يتضح من القصة ومن مجموعة النصوص القرآنية أنه كذلك خلق متفرد لا فى الأرض وحدها ، ولكن فى الكون كله . فالعوالم الأخرى من ملائكة وجن وما لا يعلمه إلا الله من الخلق ؛ لها وظائف أخرى ، كما أنها خلقت من طبائع أخرى تناسب هذه الوظائف . وتفرد الإنسان وحده بخصائصه هذه ووظائفه . يدل على ذلك قول الله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا » . . وإذن فهو متفرد فى الكون كله بخصائص .. ومنها الظلم والجهل ! . . إلى جانب الاختيار النسبي والاستعداد للمعرفة المترقية ، والإرادة الذاتية . والقدرة على العدل والعلم ، بقدر القدرة على الظلم والجهل ! .. فهذا الازدواج ذاته هو ميزته التى تفرده .

كل أولئك يلغى تلك النظرة للإنسان القائمة على صغر حجم الكوكب الذى يعيش عليه ؛ بالقياس إلى أحجام الكون الهائلة . فالحجم ليس هو كل شىء . وخصيصة العقل القابل للمعرفة ، والإرادة القابلة للاستقلال – فى حدود العبودية لله – والاختيار والترجيح الذاتى . . كل أولئك يفوق فى قيمته ، الحجم الذى يقيم عليه سير جيمس جينز وأمثاله نظرتهم إلى قيمة الإنسان ودوره .

هذه الأهمية التى تخلعها القصة ومجموع النصوص القرآنية على هذا الكائن الإنسانى لا تقتصر على دوره فى خلافة الأرض ، بهذه الخصائص المتفردة ؛ ولكن سورتها تكمل بتأمل الآفاق والمجالات التى يتحرك فيها ، والعوالم التى يتعامل معها . .

إنه يتعامل تعاملا مباشرا مع ربه الجليل سبحانه ؛ هو الذى أنشأه بيده ، وأعلن ميلاده فى الملأ الأعلى وفى الوجود كله بنطقه ، وخوله الجنة يأكل منها حيث يشاء – إلا الشجرة المحظورة – ثم خوله خلافة الأرض بعد ذلك بأمره ؛ وعلمه أساس المعرفة – كما فى آية البقرة « وعلم آدم الأسماء كلها » – وهو ما نرجح أنه القدرة على الرمز باللفظ والاسم للمدلول والمسمى، وهو القاعدة التى يقوم عليها إمكان تبادل المعرفة وتعميمها فى الجنس كله – كما قلنا فى سورة البقرة[1] – وأوصاه وصيته فى الجنة وبعدها ، وأودعه الاستعدادات الخاصة التى تفرد جنسه

(١) الجزء الأول ص ٦٧ .

Marfat.com

بخصائصه ، وأرسل له الرسل ـ منه ـ بهداه ؛ وكتب على نفسه الرحمة أن يقيل عثرته ويقبل توبته .. إلى آخر نعمة الله على هذا الكائن المتفرد فى الكون كله .

ثم هو يتعامل مع الملأ الأعلى .. أسجد الله له الملائكة ، وجعل منهم حفظة عليه ، كما جعل منهم من يبلغ الرسل وحيه ، وأنزلهم على الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا يثبتونهم ويبشرونهم ، وعلى المجاهدين فى سبيل الله ينصرونهم ويبشرونهم كذلك . وسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم ويستلون أرواحهم منهم فى تأنيب وتعذيب .. إلى آخر ما بين الملائكة والإنسان من تعامل فى الدنيا وفى الآخرة كذلك .

ويتعامل مع الجن : صالحيهم وشياطينهم .. وقد شهدنا منذ لحظات تشخيص المعركة الأولى بينه وبين الشيطان . وهى معركة ممتدة إلى يوم الوقت المعلوم . كما أن تعامله مع صالحى الجن مذكور فى نصوص قرآنية أخرى . وتسخير الجن أحيانا له ثابت كما فى قصة سليمان عليه السلام .

كذلك هو يتعامل مع هذا الكون المادى ـ وبخاصة الأرض والكواكب والنجوم القريبة منها ـ وهو الخليفة فى هذه الأرض عن الله ؛ المسخرة له قواها وطاقاتها وأرزاقها ومدخراتها ، وعنده الاستعداد اللدنى لفتح بعض مغاليق أسرارها ، والتعرف إلى بعض نواميسها التى تعينه معرفتها على أداء دوره العظيم .. ومن ثم يتعامل كذلك مع جميع الأحياء فيها .. وأخيرا فإنه بازدواج طبيعته واستعداداته يتحرك فى مجال بعيد الآماد من نفسه ذاتها ! إنه يعرج إلى السماوات العلى ويتجاوز مراتب الملائكة ، حين يخلص عبوديته لله ويترقى فيها إلى منتهاها . كما أنه يهبط إلى مادون مستوى البهيمة حين يتخذ إلهه هواه ويتخلى عن خصائص « إنسانيته » ويتمرغ فى الوحل الحيوانى .. وبين هذين الحالين أبعاد أضخم مما بين السماوات والأرض فى عالم الحس وأبعد مدى !

وليس هذا كله لغير الإنسان كما تلهمه هذه القصة وبقية النصوص الأخرى ..

• والحقيقة الثالثة : أن هذا الكائن ـ على كل تفرده هذا أو بسبب تفرده هذا ـ ضعيف فى بعض جوانب تكوينه ، حتى ليمكن قيادته إلى الشر والارتكاس إلى الدرك الأسفل ، من

Marfat.com

خطام شهواته . . وفى أولها ضعفه تجاه حب البقاء ، وضعفه تجاه حب الملك . .وهو يكون فى أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله ، ويستسلم لهواه ، أو يستسلم لعدوه العنيد الذى أخذ على عاتقه إغواءه ، فى جهد ناصب ، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل !

وقد اقتضت رحمة الله به – من ثم – ألا يتركه لفطرته وحدها ، ولا لعقله وحده ، وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير – كما سيجىء فى آية تالية فى معرض التعقيب على القصة – وهذه هى صخرة النجاة بالنسبة له ... النجاة من شهواته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله . والنجاة من عدوه الذى يخنس ويتوارى عند ذكره لربه ، وتذكر رحمته وغضبه ، وثوابه وعقابه . .

وهذه كلها مقويات لإرادته ، حتى يستعلى على ضعفه وشهواته . . وقد كان أول تدريب له فى الجنة هو فرص « المحظور » عليه ؛ لتقوية هذه الإرادة ، وإبرازها فى مواجهة الإغراء والضعف . وإذا كان قد فشل فى التجربة الأولى ، فقد كانت هذه التجربة رصيدا له فيما سيأتى !

ومن رحمة الله به كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحا له فى كل لحظة . فإذا نسى ثم تذكر ؛ وإذا عثر ثم نهض ؛ وإذا غوى ثم تاب . . وجد الباب مفتوحاً له ، وقبل الله توبته ، وأقال عثرته . فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات ، وضاعف له ما شاء . ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته . . فليست هنالك خطيئة أبدية . وليست هنالك خطيئة موروثة – ولا تزر وازرة وزر أخرى .

وهذه الحقيقة فى التصور الإسلامى تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التى تقوم عليها التصورات الكنسية فى المسيحية ؛ والتى يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من الأساطير والخرافات . خطيئة آدم التى تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب ! حتى يتمثل الإله فى صورة ابن الإنسان (المسيح) ويصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة ؛ ومن ثم يكتب (الغفران) لمن يتحد بالمسيح الذى كفر بدمه عن خطيئة آدم التى ورثتها البشرية !

Marfat.com

إن الأمر فى التصور الإسلامى أيسر من هذا بكثير . . لقد نسى آدم وأخطأ . . ولقد تاب واستغفر . ولقد قبل الله توبته وغفر له . . وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى . ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذى يعين الجنس البشرى فى صراعه الطويل المدى . .

أية بساطة ! وأى وضوح ! وأى يسر فى هذه العقيدة !

◆ والحقيقة الرابعة : هى جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها ، واستمرارها وضراوتها . .

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان فى كل حالة ، وعلى إتيانه من كل صوب وجهة ، وعلى اتباعه فى كل ساعة ولحظة :

« قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ؛ ولا تجد أكثرهم شاكرين » . .

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد ، وأن يُنظر ليزاوله على المدى الطويل . . اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته فى معصيته عيانا وقد سمع أمره مواجهة ! ثم بين أنه سيقعد لهم على طريق الله لا يمكنهم من سلوكه ؛ وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه .

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة . ولا عاصم لهم منه إلا بالتقوى بالإيمان والذكر والتقوى على إغوائه ووسوسته ، والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى الله .

والمعركة مع الشيطان هى المعركة الرئيسية . إنها المعركة مع الهوى باتباع الهدى . والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة . والمعركة مع الشر والفساد فى الأرض الذى يقود الشيطان أولياءه إليه باتباع شريعة الله المصلحة للأرض .. والمعركة فى الضمير والمعركة فى الحياة الواقعية متصلتان لا منفصلتان . فالشيطان وراءهما جميعا !

والطواغيت التى تقوم فى الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها وقيمها وموازينها ، وتستبعد حاكمية الله وشرعه والقيم والموازين المنبثقة من دينه . . إنما هى شياطين الإنس

Marfat.com

التي توحي لهما شياطين الجن . والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه . وليست بعيدة عنها .

وهكذا تتركز المعركة الكبرى الطويلة الضارية في المعركة مع الشيطان ذاته . ومع أوليائه . ويشعر المسلم وهو يخوض المعركة مع هواه وشهواته ؛ وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأذنابهم ؛ وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئونه في الأرض من حولهم .. يشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك كلها ، أنه إنما يخوض معركة واحدة جدية صارمة ضارية ، لأن عدوه فيها مصر ماض في طريقه .. وأن الجهاد - من ثم - ماض إلى يوم القيامة . في كل صوره ومجالاته .

◆ وأخيرا فإن القصة والتعقيبات عليها - كما سيجيء - تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته . وهو الحياء من التعري وانكشاف سوأته :

« فوسوس لهما الشيطان ، ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما » ..

« فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » ..

« يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم ، وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله » ..

« يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » ..

وكلها توحي بأهمية هذه المسألة ، وعمقها في الفطرة البشرية . فاللباس ، وستر العورة ، زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية . كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية . والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية ، وتحرص على سترها ومواراتها .. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس ، وتعرية النفس من التقوى ، ومن الحياء من الله ومن الناس ؛ والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها

Marfat.com

لتأصيل هذه المحاولة ـ فى شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة ـ هم الذين يريدون سلب « الإنسان » خصائص فطرته ، وخصائص « إنسانيته » التى بها صار إنسانا . وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته ! وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة . وقد فقدت مقوماتها الإنسانية !

إن العرى فطرة حيوانية . ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان . وإن رؤية العرى جمالا هو انتكاس فى الذوق البشرى قطعا . والمتخلفون فى أواسط إفريقية عراة . والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة ! فأما فى الجاهلية الحديثة « التقدمية » فهم يرتكسون إلى الوهدة التى ينتشل الإسلام المتخلفين منها ، وينقلهم إلى مستوى « الحضارة » بمفهومها الإسلامى الذى يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها .

والعرى النفسى من الحياء والتقوى ـ وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام ـ هو النكسة والردة إلى الجاهلية . وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدربة الموجهة أن توسوس [1] !

وقصة النشأة الإنسانية فى القرآن توحى بهذه القيم والموازين الأصيلة وتبينها خير بيان . .

والحمد لله الذى هدانا إليه وأنقذنا من وسوسة الشيطان ووحل الجاهلية !!!

« يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ

(١) يراجع ما سبق فى هذا الجزء عن معنى الحضارة فى تفسير قوله تعالى : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه » ص ١٢٨

Marfat.com

هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . قُلْ : إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ * قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَى ، وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ـ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ـ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (٣٤)

هذه وقفة من وقفات التعقيب فى سياق السورة . وهى وقفة طويلة بعد المشهد الأول فى قصة البشرية الكبرى . وفى سياق السورة وقفات كهذه عند كل مرحلة . كأنما ليقال : قفوا هنا تتدبر ما فى هذه المرحلة من عبرة قبل أن نمضى قدما فى الرحلة الكبرى !

وهى وقفة فى مواجهة المعركة التى بانت طلائعها بين الشيطان والبشرية . وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله ؛ والكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلا فى صور وأشكال شتى . .

Marfat.com

ولكن المنهج القرآني لا يعرض توجيها إلا لمواجهة حالة قائمة ؛ ولا يقص قصصا إلا لأن له موقعا في واقع الحركة الإسلامية .. إنه كما قلنا لا يعرض قصصا لمجرد المتاع الفني ! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظري . . إن واقعية الإسلام وجديته تجعلان توجيهاته وتقريراته ، لمواجهة حالات واقعة بالفعل في مواجهة الحركة الإسلامية .

وقد كان واقع الجاهلية العربية هو الذي يواجهه التعقيب هنا عقب المرحلة الأولى من قصة البشرية الكبرى .. كانت قريش قد ابتدعت لنفسها حقوقا على بقية مشركي العرب الذين يفدون لحج بيت الله ـ الذي جعلوه بيتا للأصنام وسدنتها ! ـ وأقامت هذه الحقوق على تصورات اعتقادية زعمت أنها من دين الله ؛ وصاغتها في شرائع ، زعمت أنها من شرع الله ! وذلك لتخضع لها أعناق المشركين ؛ كما يصنع السدنة والكهنة والرؤساء في كل جاهلية على وجه التقريب .. وكانت قريش سمت نفسها اسما خاصا وهو « الحُمس » وجعلوا لأنفسهم حقوقا ليست لسائر العرب . ومن هذه الحقوق ـ فيما يختص بالطواف بالبيت ـ أنهم هم وحدهم لهم حق الطواف في ثيابهم . فأما بقية العرب فلا تطوف في ثياب لبستها من قبل . فلابد أن تستعير من ثياب الحمس للطواف أو تستجد ثيابا لم تلبسها من قبل وإلا طافوا عرايا وفيهم النساء !

قال ابن كثير في التفسير : (كانت العرب ـ ماعدا قريشا ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ! وكانت قريش ـ وهم الحمس ـ يطوفون في ثيابهم . ومن أعاره أحمسي ثوبا طاف فيه ؛ ومن معه ثوب جديد طاف فيه . ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ! ومن لم يجد ثوبا جديدا ، ولا أعاره أحمسي ثوبا طاف عريانا ! وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر . . . وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل . وكان هذا شيئا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ؛ فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . . فقال تعالى ردا عليهم : « قل » . أي يا محمد لمن ادعى ذلك . « إن الله لا يأمر بالفحشاء » أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك . « أتقولون على الله مالا تعلمون » .. أي أتسندون

Marfat.com

إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته . وقوله تعالى : « قل : أمر ربي بالقسط » . . أي بالعدل . والاستقامة : « وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين » . . أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها ، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات ، فيما أخبروا به عن الله ، وما جاءوا به من الشرائع ، وبالإخلاص له في عبادته . فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : (أي أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، وأن يكون خالصا من الشرك) .

ففي مواجهة هذا الواقع الجاهلي في شؤون التشريع للعبادة والطواف واللباس ـ مضافا إليه مايختص بتقاليد كهذه في الطعام يزعمون أنها من شرع الله وليست من شرع الله ـ في مواجهة هذا الواقع جاءت تلك التعقيبات على قصة البشرية الأولى . وجاء ذكر الأكل من ثمر الجنة ـ إلا ماحرم الله ـ وجاء ذكر اللباس خاصة ، ونزع الشيطان له عن آدم وزوجه بإغوائه لهما بتناول المحظور ؛ وجاء ذكر حيائهما الفطري من كشف السوآت ، وخصفهما على سوآتهما من ورق الجنة ..

فما ذكر من أحداث القصة ، وماجاء في التعقيب الأول عليها ، هو مواجهة واقعية لواقع معين في الجاهلية .. والقصة تذكر في مواضع أخرى من القرآن ، في سور أخرى ، لمواجهة حالات أخرى ، فتذكر منها مواقف ومشاهد ، وتذكر بعدها تقريرات وتعقيبات تواجه هذه الحالات الأخرى .. وكله حق .. ولكن تفصيل القرآن لمواجهة الواقع البشري هو الذي يقتضي هذا الاختيار والتناسق . بين حلقات القصص المعروض في كل معرض ، وطبيعة الجو والموضوع في كل معرض (١) .

* * *

« يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا . ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » . .

هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة .. مشهد العري وتكشف

(١) يراجع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » . .

Marfat.com

السوآت والخصف من ورق الجنة .. لقد كان هذا ثمرة للخطيئة .. والخطيئة كانت فى معصية أمر الله ، وتناول المحظور الذى نهى عنه الله .. وليست هى الخطيئة التى تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس !) والتى تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات « فرويد » المسمومة .. لم تكن هى الأكل من « شجرة المعرفة » ـ كما تقول أساطير العهد القديم . وغيرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ من « الإنسان » وخوفه ـ تعالى عن وصفهم علوا كبيرا ـ من أن يأكل من شجرة الحياة أيضا فيصبح كواحد من الآلهة ! كما تزعم تلك الأساطير(١) . ولم تكن كذلك هى المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربى دائما حول مستنقع الوحل الجنسى ، لتفسر به كل نشاط الحياة كما علمهم فرويد اليهودى ! ..

وفى مواجهة مشهد العرى الذى أعقب الخطيئة ومواجهة العرى الذى كان يزاوله المشركون فى الجاهلية يذكر السياق فى هذا النداء نعمة الله على البشر وقد علمهم ويسر لهم ، وشرع لهم كذلك ، اللباس الذى يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة ـ بهذا الستر ـ وجمالا ، بدل قبح العرى وشناعته ـ ولذلك يقول : « أنزلنا » أى : شرعنا لكم فى التنزيل . واللباس قد يطلق على ما يوارى السوأة وهو اللباس الداخلى والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب . كما قد يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال .. وهى كلها معانٍ متداخلة ومتلازمة :

« يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا » ..

كذلك يذكر هنا « لباس التقوى » ويصفه بأنه « خير » :

« ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله . » ..

قال عبد الرحمن ابن أسلم : (يتقى الله فيوارى عورته ، فذاك لباس التقوى) ..

فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى .. كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب ويزينه . وذاك يستر عورات الجسم ويزينه . وهما متلازمان . فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه . ومن لا يستحى من

---

(١) يراجع فصل : « تيه وركام » فى القسم الأول من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

Marfat.com

الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العرى . . العرى من الحياء والتقوى ، والعرى من اللباس وكشف السوأة !

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى ـ كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التى تتضمنها مقررات حكماء صهيون ـ إنما هى فطرة خلقها الله فى الإنسان ؛ ثم هى شريعة أنزلها الله للبشر ؛ وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم فى الأرض من مقدرات وأرزاق .

والله يذكر بنى آدم بنعمته عليهم فى تشريع اللباس والستر ، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفى تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل :

« لعلهم يذكرون » . .

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم ؛ والدعوة السافرة لهم إلى العرى الجسدى ـ باسم الزينة والحضارة والمودة ! ـ وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم ، والتعجيل بانحلالهم ، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين فى صورة عواطف غامضة فى أعماق النفوس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق ، بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العرى النفسى والبدنى الذى تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود فى كل مكان ! والزينة « الإنسانية » هى زينة الستر ، بينما الزينة « الحيوانية » هى زينة العرى . . ولكن « الآدميين » فى هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة . فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها !!!

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ قل : أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » . .

إنه النداء الثانى لبنى آدم ، فى وقفة التعقيب على قصة أبويهم ، وما جرى لهما مع

Marfat.com

الشيطان ؛ وعلى مشهد العرى الذى أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما .

وهذا النداء يصبح مفهوما بما قدمناه من الحديث عن تقاليد الجاهلية العربية فى حكاية العرى عند الطواف بالبيت ؛ وزعمهم أن ما وجدوا عليه آباءهم هو من أمر الله وشرعه !

لقد كان النداء الأول تذكيرا لبنى آدم بذلك المشهد الذى عاناه أبواهم ؛ وبنعمة الله فى إنزال اللباس الذى يستر العورة والرياش الذى يتجمل به .. أما هذا النداء الثانى فهو التحذير لبنى آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام فى الطليعة ، أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة ـ كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ـ فالعرى والتكشف الذى يزاولونه ـ والذى هو طابع كل جاهلية قديما وحديثا ـ هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة فى إغواء آدم وبنيه ؛ وهو طرف من المعركة التى لا تهدأ بين الإنسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ؛ وأن ينتصر فى هذه المعركة ، وأن يملأ منهم جهنم فى نهاية المطاف !

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » .

وزيادة فى التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لايرونهم . وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ؛ وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كى لا يأخذهم على غرة :

« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » ..

ثم الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى .. إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لايؤمنون.. ويا ويل من كان عدوه وليه ! إنه إذن يسيطر عليه ويستهويه ويقوده حيث شاء ، بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله :

« إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون » ..

Marfat.com

وإنها لحقيقة .. أن الشيطان ولى الذين لايؤمنون ؛ كما أن الله هو ولى المؤمنين .. وهى حقيقة رهيبة ، ولها نتائجها الخطيرة .. وهى تذكر هكذا مطلقة ؛ ثم يواجه بها المشركون كحالة واقعة ؛ فنرى كيف تكون ولاية الشيطان، وكيف تفعل فى تصورات الناس وحياتهم .. وهذا نموذج منها :

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » ..

وذلك ماكان يفعله ويقول به مشركو العرب ؛ وهم يزاولون فاحشة التعرى فى الطواف ببيت الله الحرام ـ وفيهم النساء ! ـ ثم يزعمون أن الله أمرهم بها . فقد كان أمر آباءهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها !

وهم ـ على شركهم ـ لم يكونوا يتبجحون تبجح الجاهليات الحديثة التى تقول : ماللدين وشؤون الحياة ؟ وتزعم أنها هى صاحبة الحق فى اتخاذ الأوضاع والشرائع والقيم والموازين والعادات والتقاليد من دون الله ! إنما كانوا يفترون الفرية ، ويشرعون الشريعة ، ثم يقولون: الله أمرنا بها ! وقد تكون هذه خطة الأم وأخبث ، لأنها تخدع الذين فى قلوبهم بقية من عاطفة دينية ؛ فتوهمهم أن هذه الشريعة من عند الله .. ولكنها على كل حال أقل تبجحا ممن يزعم أن له الحق فى التشريع للناس بما يراه أصلح لأحوالهم من دون الله !

والله ـ سبحانه ـ يأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ؛ وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة ، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها :

« قل : إن الله لايأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ » :

إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقا ـ والفاحشة : كل ما يفحش أى يتجاوز الحد ـ والعرى من هذه الفاحشة ، فالله لايأمر به . وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده ؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذى أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء . إن أوامره وشرائعه واردة فى كتبه على رسله . وليس هناك مصدر آخر يعلم منه قول الله وشرعه . وليس لإنسان أن يزعم عن أمر أنه من شريعة الله ، إلا أن يستند إلى كتاب الله وإلى تبليغ رسوله الله . فالعلم المستيقن بكلام الله هو الذى يستند إليه من يقول فى دين الله .. وإلا فأى فوضى يمكن أن

Marfat.com

تـكون إذا قدم كل إنسان هواه ، وهو يزعم أنه دين الله !!

إن الجاهلية هي الجاهلية . وهي دائما تحتفظ بخصائصها الأصيلة . وفي كل مرة يرتد الناس إلى الجاهلية يقولون كلاما متشابها ؛ وتسود فيهم تصورات متشابهة ،على تباعد الزمان والمكان.. وفي هذه الجاهلية التي نعيش فيها اليوم لايفتأ يطلع علينا كاذب مفتر يقول ما عليه عليه هواه ثم يقول : شريعة الله ! ولا يفتأ يطلع علينامتبجح وقح ينـكر أوامر الدين ونواهيه المنصوص عليها، وهو يقول : إن الدين لايمكن أن يكون كذلك ! إن الدين لا يمكن أن يأمر بهذا ! إن الدين لايمكن أن ينهى عن ذاك ، .. وحجته هي هواه !!!

« أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ » ..

وبعد أن ينـكر عليهم دعواهم في أن الله أمرهم بهذه الفاحشة ، يبين لهم أن أمر الله يجري في اتجاه مضاد .. لقد أمر الله بالعدل والاعتدال في الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز . وأمر بالاستقامة على منهج الله في العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء في كتابه على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول فيها كل إنسان بهواه ، ثم يزعم أنه من الله . وأمر بأن تـكون الدينونة خالصة له ، والعبودية كاملة ؛ فلا يدين أحد لأحد لذاته ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته :

« قل أمر ربي بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين » ..

هذا ما أمر الله به ، وهو يضاد ماهم عليه .. يضاد اتباعهم لآبائهم وللشرائع التي وضعها لهم عباد مثلهم ، مع دعواهم أن الله أمرهم بها .. ويضاد العري والتكشف وقد امتن الله على بني آدم بأنه أنزل عليهم لباسا يواري سوآتهم وريشا يتجملون به كذلك .. ويضاد هذا الشرك الذي يزاولونه بازدواج مصادر التشريع لحياتهم ولعبادتهم ..

وعند هذا المقطع من البيان يجيء التذكير والإنذار ؛ ويلوّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ما هم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ؛ ويشهدهم في العودة وهم فريقان : الفريق الذي اتبع أمر الله ، والفريق الذي اتبع أمر الشيطان :

Marfat.com

« كما بدأكم تعودون : فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » ..

إنها لقطة واحدة عجيبة تجمع نقطة البدء فى الرحلة الكبرى ونقطة النهاية . نقطة الانطلاق فى البدء ونقطة المآب فى الانتهاء :

« كما بدأكم تعودون » ..

وقد بدأوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه . والشيطان وقبيله .. وكذلك سيعودون .. الطائعون سيعودون فريقا مع أبيهم آدم وأمهم حواء المسلمين المؤمنين بالله المتبعين لأمر الله .. والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله . يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون .

لقد هدى الله من جعل ولايته لله . وأضل من جعل ولايته للشيطان .. وهاهم أولاء عائدين فريقين :

« فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » ..

هاهم أولاء عائدين . فى لمحة تضم طرفى الرحلة ! على طريقة القرآن ، التى يتعذر أن تتحقق فى غير أسلوب القرآن !

* * *

ثم يتكرر النداء إلى « بنى آدم » فى هذه الوقفة كذلك ؛ قبل أن يتابع السياق الرحلة المديدة ؛ فى الطريق المرسوم :

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولاتسرفوا ، إنه لايحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؛ والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . .

إنه التوكيد بعد التوكيد على الحقائق الأساسية للعقيدة ، فى مواجهة ما عليه المشركون العرب فى الجاهلية ؛ وذلك فى سياق النداء إلى بنى آدم كافة ، وفى مواجهة قصة البشرية الكبرى . .

Marfat.com

وأظهر هذه الحقائق هو الربط بين ما يحرمونه من الطيبات التي أخرجها الله لعباده دون إذن منه ولا شرع ؛ وبين الشرك الذي هو الوصف المباشر لمن يزاول هذا التحريم ، ويقول على الله ما لا يعلم ، ويزعم من ذلك ما يزعم .

إنه يناديهم أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذي أنزله الله عليهم . وهو الرياش . عند كل عبادة ؛ ومنها الطواف الذي يزاولونه عرايا ، ويحرمون اللباس الذي لم يحرمه الله ، بل أنعم به على العباد . فأولى أن يعبدوه بطاعته فيما أنزل لهم ، لا بخلعه ولا بالفحش الذي يزاولونه :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » .

ويناديهم كذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف :

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . إنه لا يحب المسرفين » .

وقد ورد أنه كان هناك تحريم في الطعام كالتحريم في الثياب . وكان هـذا من مبتدعات قريش كذلك !

في صحيح مسلم عن هشام عن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ، والحمس قريش وماولدت . كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثيابا ، فيعطى الرجال الرجال ، والنساء النساء . وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة ؛ وكان الناس يبلغون عرفات . ويقولون : نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوبا ، ولا يسار يستأجره به كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عريانا وإما أن يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يسمى اللقى » . .

وجاء في تفسير القرطبي المسمى « أحكام القرآن » : « وقيل إن العرب في الجاهلية كانوا لا يأكلون دسما في أيام حجهم ، ويكتفون باليسير من الطعام ، ويطوفون عراة . فقيل لهم : « خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا » أي لا تسرفوا في تحريم

Marfat.com

ما لم يحرم عليكم » . . والإسراف يكون بتجاوز الحد ، كما قد يكون بتحريم الحلال . كلاهما تجاوز للحد . هذا باعتبار ، وذاك باعتبار .

ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب . بل يستنكر تحريم هذه الزينة التى أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق . فمن المستنكر أن يحرم أحد - برأيه - ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطيبات . فتحريم شىء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله :

« قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى حق للذين آمنوا - بحكم إيمانهم بربهم الذى أخرجها لهم - ولئن كان سواهم يشاركهم فيها فى هذه الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الذين كفروا :

« قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » . .

ولن يكون الشأن كذلك ، ثم تكون محرمة عليهم ؛ فما يخصهم الله فى الآخرة بشىء هو حرام !

« كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

والذين « يعلمون » حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان .

فأما الذى حرمه الله حقا ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب - فى غير سرف ولا مخيلة - إنما الذى حرمه الله حقا هو الذى يزاولونه فعلا !

« قل : إنما حرم ربى الفواحش - ما ظهر منها وما بطن - والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » . .

هذا هو الذى حرمه الله . الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . ظاهرة للناس أو خافية . والإثم . وهو كل معصية لله على وجه الإجمال . والبغى بغير الحق . وهو الظلم الذى يخالف الحق والعدل - كما بينها الله أيضا - وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطانا مع الله

Marfat.com

ـ سبحانه ـ فى خصائصه . ومنه هذا الذى كان واقعا فى الجاهلية ، وهو الواقع فى كل جاهلية . من إشراك غير الله ليشرع للناس ؛ ويزاول خصائص الألوهية . وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . كالذى كانوا يقولونه من التحليل والتحريم . ومن نسبتهم هذا إلى أمر الله غير علم ولا يقين . .

ومن عجيب ما روى من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ؛ ووجه إلهم هذا الاستنكار الوارد فى قوله تعالىٰ : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده . . » ما رواه الكلبي قال :

« لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها . . فنزلت الآية . . »

فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التى يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء فى الجنة : « فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » . . فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، فى زينة الله التى أنعم بها على البشر ؛ لإرادته بهم الكرامة والستر ؛ ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية فى سلامتها وجمالها الفطرى ؛ وليتميزوا عن العرى الحيوانى . الجسمى والنفسى . . إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله فى زينة الله وفق فطرة الله « عيروهم » !

إنه هكذا تصنع الجاهلية بالناس . . هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ! وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس فى هذا الأمر غير الذى فعلته بالناس فى جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين فى كل زمان وكل مكان ؟ !

ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رقيا وحضارة وتجديدا ؛ ثم تعير الكاسيات من الحرائر العفيفات المسلمات ، بأنهن « رجعيات » . « تقليديات » . « ريفيات » !

المسخ هو المسخ . والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس . وانقلاب الموازين هو انقلاب

Marfat.com

الموازين . والتبجح بعد ذلك هو التبجح . . « أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! » .

وما الفرق كذلك فى علاقة هذا العرى ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية ، وهذا التبجح ، بالشرك ، وبالأرباب التى تشرع للناس من دون الله ؟

لئن كان مشركو العرب قد تلقوا فى شأن ذلك التعرى من الأرباب الأرضية التى كانت تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم ، لضمان السيادة لها فى الجزيرة . . ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التى تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء . . فإن مشركى اليوم ومشركاته يتلقون فى هذا عن الأرباب الأرضية كذلك . . ولا يملكون لأمرهم ردا . .

إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها ، لهى الأرباب التى تكمن وراء هذا الخبل الذى لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية فى أرجاء الأرض طاعة مزرية ! وسواء كان الزى الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أولا تصلح ، فهى تطيع صاغرة . . تطيع تلك الأرباب . وإلا « عيرت » من بقية البهائم المغلوبة على أمرها !

ومن ذا الذى يقبع وراء بيوت الأزياء ؟ ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العرى والتكشف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص ، والمجلات والصحف ، التى تقود هذه الحملة المسعورة . . وبعضها يبلغ فى هذا إلى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخورا . . ملا للدعارة ؟!

من الذى يقبع وراء هذا كله ؟

الذى يقبع وراء هذه الأجهزة كلها ، فى العالم كله . . يهود . .

يهود يقومون بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ! ويبلغون أهدافهم كلها من إطلاق هذه الموجات المسعورة فى كل مكان . . أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ؛ وإشاعة الانحلال النفسى والخلقى من ورائه ، وإفساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة فى أيدى مصممى الأزياء والتجميل ! ثم تحقيق الأهداف الاقتصادية من وراء الإسراف فى

Marfat.com

استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التى تقوم على هـذا السعار وتغذيه !

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلةعن شرع الله ومنهجه للحياة .. ومن ثم ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك فى السياق .

إنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى :

إنها تتعلق قبل كل شيء بالربوبية ، وتحديد الجهة التى تشرع للناس فى هذه الأمور ، ذات التأثير العميق فى الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة

كذلك تتعلق بإبراز خصائص «الإنسان» فى الجنس البشرى، وتغليب الطابع «الإنسانى» فى هذا الجنس على الطابع الحيوانى .

والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق . وتجعل العرى ـ الحيوانى ـ تقدما ورقيا . والستر ـ الإنسانى ـ تأخرا ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : ماللدين والزى ؟ ماللدين وملابس النساء ؟ ماللدين والتجميل ؟ .. إنه للمسخ الذى يصيب الناس فى الجاهلية فى كل زمان وفى كل مكان !!!

ولأن هذه القضية التى تبدو فرعية ، لها كل هذه الأهمية فى ميزان الله وفى حساب الإسلام ، لارتباطها أولا بقضية التوحيد والشرك ؛ ولارتباطها ثانيا بصلاح فطرة الإنسان وخلقه ومجتمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله .. فإن السياق يعقب عليها بإيقاع قوى مؤثر ؛ يوقع به عادة فى مواقف العقيدة الكبيرة . . إنه يعقب بتنبيه بنى آدم ، إلى أن بقاءهم فى هذه الأرض محدود مرسوم ؛ وأنه إذا جاء الأجل فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون :

« ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة ، يوقع بها السياق على أوتار القلوب الغافلة ـ غير الذاكرة ولا الشاكرة ـ لتستيقظ ، فلا يغرها امتداد الحياة !

و لأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذى يقطع الحياة . وإما

Marfat.com

أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمدالمقدر لقوتها فى الأرض واستخلافها.. وسواء هذا الأجل أو ذاك فإنه مرسوم لا يتقدمون عنه ولا يستأخرون .

***

وقبل أن نترك هذه الجولة نسجل مالاحظناه من التشابه العجيب فى مواجهة المنهج القرآنى للجاهلية فى شأن الذبائح والنذور والتحليل فيها والتحريم ـ فى سورة الأنعام ـ[1] ومواجهته للجاهلية ـ هنا فى شأن اللباس والطعام . .

ففى شأن الذبائح والنذور فى الأنعام والثمار ، بدأ أولا بالحديث عما تزاوله الجاهلية فعلا من هذه التقاليد ؛ وعما تزعمه ـ افتراء على الله ـ من أن هذا الذى تزاوله هو من شرع الله. ثم طلب إليهم الدليل الذى يستندون إليه فى أن الله حرم هذا الذى يحرمونه ، وأحل هذا الذى يحلونه : « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .. ثم واجه هروبهم من هذه المواجهة بإحالة الأمر إلى قدر الله وإلى أمره لهم بهذا الشرك الممثل فى مزاولة الحاكمية وهى من خصائص الألوهية : «سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ! كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن، وإن أنتم إلا تخرصون : قل : فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين. قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون» .. حتى إذا انتهى من تفنيد هذا الباطل الذى يدعونه ويفترونه ، قال لهم : تعالوا لأبين لكم حقيقة ماحرم الله عليكم وحقيقة ماأمركم به : عن المصدر الصحيح الوحيد المعتمد فى هذا الشأن ؛ والذى لايجوز الأخذ عن غيره : « قل : تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا . .. الخ » ..

وهنا كذلك سار على نفس النسق ، وعلى ذات الخطوات .. ذكر ماهم عليه من فاحشة

---

(١) ص ٣٠ـ٨٢ فى هذا الجزء الثامن .

Marfat.com

العرى ومن الشرك فى مزاولة الحاكمية فى التحريم والتحليل فى اللباس والطعام . وحذرهم ما هم عليه من الفاحشة والشرك ، وذكرهم مأساة العرى التى واجهها أبواهما فى الجنة بفعل الشيطان وكيده ؛ ونعمة الله عليهم فى إنزال اللباس والرياش . . ثم استنكر دعواهم أن مايزاولونه من التحريم والتحليل هو من شرع الله وأمره : « قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا . خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » . مشيرا هنا إلى العلم اليقينى لا الظن والخرص الذى يبنون عليه دينهم وشعائرهم وعباداتهم وشرائعهم .. حتى إذا أبطل دعواهم فيما يزاولون عاد ليقرر لهم ماحرمه ربهم عليهم فعلا : «قل إنما حرم ربى الفواحش ـ ماظهر منها ومابطن ـ والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » . . كما أنه قد بين لهم من قبل حقيقة ما أمر الله به فى شأن اللباس والطعام ـ لا مايدعونه هم وينسبونه إلى الله ـ : « قل : أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » ..

وفى كلتا الواجهتين عالج القضية كلها بقضية الإيمان والشرك . لأنها فى صميمها هى قضية الحاكمية ، ومن الذى يزاولها فى حياة البشر . وقضية عبودية الناس ولمن تكون !

ذات القضية ، وذات المنهج فى مواجهتها . وذات الخطوات . . وصدق الله العظيم : « ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وهذه الوحدة فى المنهج تبدو أهميتها ويزداد بروزها حين نذكر طبيعة سورة الأنعام وطبيعة سورة الأعراف والمجالين المختلفين اللذين تعالجان فيهما قضيه العقيدة .. فإن اختلاف المجال لم يمنع وحدة المنهج فى مواجهة الجاهلية فى القضايا الأساسية .. وسبحان منزل هذا القرآن ! ..

« يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي : فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا

Marfat.com

أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا : أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ : ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ . قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ، وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ـ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ـ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ، تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . وَنُودُوا : أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

« وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ : أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا . فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ! فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ : أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ .

« وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ : أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . . لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ

Marfat.com

أبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قَالُوا : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ .

« وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ : أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٥٣)

الآن بعد تلك الوقفة الطويلة للتعقيب على قصة النشأة الأولى ؛ ومواجهة واقع الجاهلية العربية ـ وواقع الجاهلية البشرية كلها من ورائها ـ فى شأن ستر الجسم باللباس وستر الروح بالتقوى ؛ وعلاقة القضية كلها بقضية العقيدة الكبرى ..

الآن يبدأ نداء جديد لبنى آدم . . نداء بشأن القضية الكلية التى ربطت بها قضية اللباس فى الوقفة السابقة .. قضية التلقى والاتباع فى شعائر الدين وفى شرائعه ، وفى أمر الحياة كلها وأوضاعها . وذلك لتحديد الجهة التى يتلقون منها .. إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم . وعلى أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة للرسل يكون الحساب والجزاء ، فى نهاية الرحلة التى يعرضها السياق فى هذه الجولة :

Marfat.com

« يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا : فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

هذا هو عهد الله لآدم وبنيه ، وهذا هو شرطه فى الخلافة عنه - سبحانه - فى أرضه التى خلقها وقدر فيها أقواتها ، واستخلف فيها هذا الجنس ، ومكنه فيها ، ليؤدى دوره وفق هذا الشرط وذلك العهد ؛ وإلا فإن عمله ردٌّ فى الدنيا لا يقبله ولا يمضيه مسلم لله ؛ وهو فى الآخرة وزر جزاؤه جهنم لا يقبل الله من أصحابه صرفا ولا عدلا .

« فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

لأن التقوى تنأى بهم عن الآثام والفواحش - وأفحش الفواحش الشرك بالله واغتصاب سلطانه وادعاء خصائص ألوهيته - وتقودهم إلى الطيبات والطاعات ؛ وتنتهى بهم إلى الأمن من الخوف والرضى عن المصير .

« والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. لأن التكذيب والاستكبار عن الاستسلام لعهد الله وشرطه يلحق المستكبرين بوليهم إبليس فى النار ؛ حيث يحق وعد الله : « لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » ..

* **

ومن هنا يأخذ السياق فى عرض مشهد الاحتضار - عند نهاية الأجل المشار إليه فى نهاية الجولة الماضية : « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .. ثم مشهد الحشر والحساب . ومشهد الفصل والجزاء . . كأنها تفصيل لذلك الإجمال عن شأن المتقين والمستكبرين ؛ وتصوير لحال المتقين وحال المستكبرين ، بعد الأجل المعلوم . تصوير على طريقة القرآن الفريدة التى تستحضر المشهد حيا متحركا يراه قارىء القرآن وسامعه ؛ ويشهده بكل كينونته .

لقد عنى المنهج القرآنى بمشاهد القيامة .. البعث والحساب ، والنعيم والعذاب .. عناية واضحة . فلم يعد ذلك العالم الذى وعده الله الناس ، بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفا فحسب ،

Marfat.com

بل عاد مصورا محسوسا ، وحيا متحركا ، وبارزا شاخصا .. وعاش المسلمون فى ذلك العالم عيشة كاملة . رأوا مشاهده وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى فى نفوسهم الفزع مرة ، وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولاح لهم من بعيد لفح النار ، ورفت إليهم من الجنة أنسام ! ومن ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود . . والذى يراجع كتاباتهم ومشاعرهم عن ذلك العالم يحس أنهم كانوا يعيشون فيه عيشة أعمق وأصدق من حياتهم فى هذه الدار الدنيا ؛ وكانوا ينتقلون بحسهم كله إليه ، كما ينتقل الإنسان من دار إلى دار ، ومن أرض إلى أرض ، فى هذه الحياة المشهودة المحسوسة .. ولم يكن ذلك العالم مستقبلا موعودا فى حسهم ، وإنما كان واقعا مشهودا ..

وربما كانت هذه المشاهد – المعروضة هنا – أطول مشاهد القيامة فى القرآن ، وأحفلها بالحركة ، وبالمناظر المتتابعة ، وبالحوار المتنوع ، فى حيوية فائضة يعجب الإنسان كيف تنقلها الألفاظ ، حيث لا ينقلها للحس هكذا إلا المشاهدة !

وهى تجىء فى السورة – كما أسلفنا – تعقيبا على قصة آدم ، وخروجه من الجنة هو وزوجه بإغواء الشيطان لهما ، وتحذير الله لبنى آدم أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، وتحذيرهم من اتباع عدوهم القديم فيما يوحى به إليهم ويوسوس ، وتهديدهم بتولية الشيطان لهم إن هم اختاروا اتباعه على اتباع ما يرسل به الرسل إليهم من الهدى والشريعة .. ثم يأخذ فى عرض مشهد الاحتضار ، ومشاهد القيامة – وكأنها تالية له بلا فاصل من الزمان ! – فإذا الذى يقع فيها مصداق ما نبىء به هؤلاء الرسل ، وإذا الذين يطيعون الشيطان قد حرموا العودة إلى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج أبويهم منها . وإذا الذين خالفوا الشيطان فأطاعوا الله ، قد ردوا إلى الجنة ، ونودوا من الملأ الأعلى : « أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » . . فكأنما هى أوبة المهاجرين ، وعودة المغتربين ، إلى دار النعيم !

وفى هذا التناسق بين القصة السابقة والتعقيبات عليها ، ومشاهد القيامة اللاحقة من مبدئها إلى منتهاها من الجمال ما فيه . فهى قصة تبدأ فى الملأ الأعلى ، على مشهد من الملائكة – يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما الجنة ، فدلاهما الشيطان عن مرتبة الطاعة والعبودية الكاملة الخالصة ، وأخرجهما من الجنة – وتنتهى كذلك فى الملأ الأعلى على مشهد من الملائكة . .

Marfat.com

فيتصل البدء بالنهاية . ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا ومشهد الاحتضار فى نهايتها . وهو يتسق فى الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق .

والآن نأخذ فى استعراض هذه المشاهد العجيبة :

* * *

هانحن أولاء أمام مشهد الاحتضار . احتضار الذين افتروا على الله الكذب ، فزعموا أن ماورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام ، أمرهم به الله ، والذين كذبوا بآيات الله التى جاءهم بها الرسل — وهى شرع الله المستيقن — وآثروا الظن والحرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذى كتب لهم ، ومن فترة الابتلاء التى قدرها الله ، كما نالوا نصيبهم من آيات الله التى أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » ..

ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذبا أو كذبوا بآياته ؛ وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم : فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار :

« قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ » ..

أين دعاويكم التى افتريتم على الله ؟ وأين آلهتكم التى توليتم فى الدنيا ، وفتنتم بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة؟ فلا تجدون لكم عاصما من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذى أجله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لامعدى عنه ، ولامغالطة فيه :

« قالوا : ضلوا عنا » !

غابوا عنا وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقرا ، ولاهم يسلكون إلينا طريقا ! .. فما أضيع عبادا لاتهتدى إليهم آلهتهم ، ولاتسعفهم فى مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدى إلى عبادها . فى مثل هذا الأوان !

Marfat.com

« وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » ..

وكذلك شهدناهم من قبل في سياق السورة عند ماجاءهم بأس الله في الدنيا : « فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين » !

* * *

فإذا انتهى مشهد الاحتضار ، فنحن أمام المشهد التالى ، وهؤلاء المحتضرون فى النار ! .. ويسكت السياق عما بينها ، ويسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار !

« قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار . قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » .

« ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار » .

انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس .. هنا فى النار .. أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم من الجنة وزوجه ؟ وهو الذى أغوى من أغوى من أبنائه ؟ وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم فى النار ؟ .. فادخلوا إذن جميعا .. ادخلوا سابقين ولاحقين .. فكلكم أولياء .. وكلكم سواء !

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ؛ ويملى متبوعها لتابعها .. فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها :

« كلما دخلت أمة لعنت أختها » !

فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ؛ ويتنكر فيها الولى لمولاه !

« حتى إذا اداركوا فيها جميعا » ..

وتلاحق آخرهم وأولهم ، واجتمع قاصيهم بدانيهم ، بدأ الخصام والجدال :

Marfat.com

« قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار » ..

وهكذا تبدأ مهزلتهم أو مأساتهم ! ويكشف المشهد عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون. أعداء ؛ يتهم بعضهم بعضا ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويطلب له من « ربنا » شر الجزاء .. من « ربنا » الذى كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته ؛ وهم اليوم ينيبون إليه وحده ويتوجهون إليه بالدعاء ! فيكون الجواب استجابة للدعاء . ولكن أية استجابة ؟ !

« قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون » .

لكم ولهم جميعا ماطلبتم من مضاعفة العذاب !

وكأنما شمت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة .. كلنا سواء .. فى هذا الجزاء :

« وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل . فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » !

وبهذا ينتهى ذلك المشهد الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذى لن يتبدل - وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين فى دار النعيم - :

« إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين . لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وكذلك نجزى الظالمين » ..

ودونك فقف بتصورك ماتشاء أمام هذا المشهد العجيب .. مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة . حين يتفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ - وحينئذ فقط - أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فتقبل دعاءهم أو توبتهم - وقد فات الأوان - وأن يدخلوا إلى جنات النعيم ! ! الآن وإلى أن يلج الجمل فى سم الخياط ، فهم هنا فى النار ، التى تداركوا فيها جميعا وتلاحقوا ؛ وتلاوموا فيها وتلاعنوا ، وطلب بعضهم لبعض سوء الجزاء ، ونالوا جميعا ماطلبه الأولياء للأولياء !

« وكذلك نجزى المجرمين » ..

Marfat.com

ثم إليك هيئتهم في النار :

« لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش » ..

فلهم من نار جهنم من تحتهم فراش ، يدعوه – للسخرية – مهادا ، وما هو مهد ولا لين ولا مريح ! – ولهم من نار جهنم أغطية تغشاهم من فوقهم !

« وكذلك نجزى الظالمين » ..

والظالمون هم المجرمون . والظالمون هم المشركون المكذبون بآيات الله ، المفترون الكذب على الله .. كلها أوصاف مترادفة في تعبير القرآن .

والآن فلننظر إلى المشهد المقابل :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات – لا نكلف نفسا إلا وسعها – أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا – وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله – لقد جاءت رسل ربنا بالحق . ونودوا : أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » ..

هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، لا يكلفون إلا طاقتهم .. هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم ! إنهم أصحابها – بإذن الله وفضله – ورثها لهم – برحمته – بعملهم الصالح مع الإيمان .. جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان . وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم – في حدود طاقتهم – وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « لن يدخل أحدا منكم الجنة عمله » . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » (١) وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن ، وقول رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهو لا ينطق عن الهوى .. وكل ماثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين ، إنما ثار عن الهوى ! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة . ولا بحق نعمة واحدة من نعمه

---

(١) أخرجه مسلم .

Marfat.com

عليهم فى الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة ؛ وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلا منه ورحمة ، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة ..

وبعد ، فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون فى النار ويتخاصمون ، وتغلى صدورهم بالسخائم والأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء .. فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون ، يرف عليهم السلام والولاء :

« ونزعنا مافى صدورهم من غل » ..

فهم بشر . وهم عاشوا بشرا . وقد يثور بينهم فى الحياة الدنيا غيظ يكظمونه ، وغل يغالبونه ويغلبونه .. ولكن تبقى فى القلب منه آثار .

قال القرطبي فى تفسيره المسمى أحكام القرآن : (قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : « الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين » .. وروى عن على – رضى الله عنه – أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : « ونزعنا مافى صدورهم من غل » .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجرى من تحتهم الأنهار ؛ فترف على الجو كله أنسام :

« تجرى من تحتهم الأنهار » ..

وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام ، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف :

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق » ..

وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب : « ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار » .. فإن هؤلاء ينادون بالتأهيل والتكريم :

« ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

Marfat.com

ثم يستمر العرض ، فإذا نحن أمام مشهد لاحق للمشهد السابق . . لقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم ؛ واستيقن أصحاب النار من مصيرهم وإذا الأولون ينادون الآخرين ، يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم :

« ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار : أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ قالوا : نعم ! فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » . .

وفي هذا السؤال من السخرية المرة ما فيه . . إن المؤمنين على ثقة من تحقق وعيد الله كثقتهم من تحقق وعده . ولكنهم يسألون !

ويجيء الجواب في كلمة واحدة . . نعم . . !

وعندئذ ينتهي الجواب ، ويقطع الحوار :

« فأذن مؤذن بينهم : أن لعنة الله على الظالمين . . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة كافرون » . .

فيتحدد معنى « الظالمين » المقصود . وهو مرادف لمعنى « الكافرين » . فهم الذين يصدون عن سبيل الله ، ويريدون الطريق عوجا لااستقامة فيه ، وهم بالآخرة كافرون .

وفي هذا الوصف : « ويبغونها عوجا » . . إيحاء بحقيقة ما يريده الذين يصدون عن سبيل الله . إنهم يريدون الطريق العوجاء؛ ولا يريدون الطريق المستقيم . يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة : صورة المضي على طريق الله ونهجه وشرعه . وكل ما عداه فهو أعوج ؛ وهو إرادة للعوج . وهذه الإرادة تلتقي مع الكفر بالآخرة . فما يؤمن بالآخرة أحد ،ويستيقن أنه راجع إلى ربه ؛ ثم يصد عن سبيل الله ، ويحيد عن نهجه وشرعه . . وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعا غير شرع الله . التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الداخلي الصحيح .

* * *

ثم يتوجه النظر إلى المشهد من ظاهره . فإذا هنالك حاجز يفصل بين الجنة والنار ؛ عليه رجال يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلاماتهم . . فلننظر من هؤلاء ، وما شأنهم مع أصحاب الجنة وأصحاب النار ؟

Marfat.com

« وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة : أن سلام عليكم .. لم يدخلوها وهم يطمعون .وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون » ..

روى أن هؤلاء الرجال الذين يقفون على الأعراف ـ الحجاب الحاجز بين الجنة والنار ـ جماعة من البشر ، تعادلت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم تصل بهم تلك إلى الجنة مع أصحاب الجنة ، ولم تؤد بهم هذه إلى النار مع أصحاب النار .. وهم بين بين ، ينتظرون فضل الله ويرجون رحمته.. وهم يعرفون أهل الجنة بسيماهم ـ ربما ببياض الوجود ونضرتها أو بالنور الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ـ ويعرفون أهل النار بسيماهم ـ ربما بسواد الوجوه وقترتها ، أو بالوسم الذى على أنوفهم التى كانوا يشمخون بها فى الدنيا ، كالذى جاء فى سورة القلم : « سنسمه على الخرطوم »! وهاهم أولاء يتوجهون إلى أهل الجنة بالسلام .. يقولونها وهم يطمعون أن يدخلهم الله الجنة معهم ! .. فإذا وقعت أبصارهم على أصحاب النار ـ وكأنما يصرفون إليهم صرفا لا عن إرادة منهم ـ استعاذوا بالله أن يكون مصيرهم معهم !

« وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . ونادوا أصحاب الجنة : أن سلام عليكم .. لم يدخلوها وهم يطمعون .. وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » ..

ـ ثم يبصرون برجال من كبار المجرمين معروفين لهم بسيماهم . فيتجهون إليهم بالتبكيت والتأنيب :

« ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » !

فها أنتم هؤلاء فى النار ، لا جمعكم نفعكم ، ولا استكباركم أغنى عنكم !

ثم يذكرونهم بما كانوا يقولونه عن المؤمنين فى الدنيا من أنهم ضالون ، لا ينالهم الله برحمة :

Marfat.com

« أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ » !

انظروا الآن أين هم ؟ وماذا قيل لهم :

« ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » ..

* * *

وأخيرا . ها نحن أولاء نسمع صوتا آتيا من قبل النار ، ملؤه الرجاء والاستجداء :

« ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » !

وها نحن أولاء نلتفت إلى الجانب الآخر نسمع الجواب ملؤه التذكير الأليم المرير :

« قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا » ..

ثم إذا صوت البشر عامة يتوارى ، لينطق رب العزة والجلالة ، وصاحب الملك والحكم :

« فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا . وما كانوا بآياتنا يجحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل . قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

وهكذا تتوالى صفحات المشهد جيئة وذهوبا . . لمحة في الآخرة ولمحة في الدنيا . لمحة مع المعذبين في النار ، للنسيين كما نسوا لقاء يومهم هذا وكما جحدوا بآيات الله ، وقد جاءهم بها كتاب مفصل مبين . فصله الله - سبحانه - على علم - فتركوه واتبعوا الأهواء والأوهام والظنون . . ولمحة معهم - وهم بعد في الدنيا - ينتظرون مآل هذا الكتاب وعاقبة ما جاءهم فيه من النذير ؛ وهم يُحذَّرون أن يجيئهم هذا المآل . . فالمآل هو ما يرون في هذا المشهد من واقع الحال !

إنها خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض ؛ لا يجليها هكذا إلا هذا الكتاب العجيب !

وهكذا ينتهي ذلك الاستعراض الكبير ؛ ويجيء التعقيب عليه متناسقا مع الابتداء . تذكيرا بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيرا من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار

Marfat.com

تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة فى الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

نعم .. هكذا ينتهى الاستعراض العجيب . فنفيق منه كما نفيق من مشهد أخاذ كنا نراه . ونعود منه إلى هذه الدنيا التى فيها نحن ! وقد قطعنا رحلة طويلة طويلة فى الذهاب والمجىء ! إنها رحلة الحياة كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها .. ومر قبل كنا مع البشرية فى نشأتها الأولى ، وفى هبوطها إلى الأرض وسيرها فيها !

وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر هذه الآماد والأكوان والأزمان . يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون .. كله فى لحظات .. لعلها تتذكر ، ولعلها تسمع للنذير :

« كتاب أنزل إليك ، فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء ، قليلا ما تذكرون » . .

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا . كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » ﴿٥٨﴾

Marfat.com

بعد تلك الرحلة الواسعة الآماد، من المنشأ إلى المعاد، يأخذ السياق بأيدى البشر إلى رحلة أخرى فى ضمير الكون، وفى صفحته المعروضة للأنظار. فيعرض قصة خلق السماوات والأرض بعد قصة خلق الإنسان. ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره، وإلى ظواهره وأحواله — إلى الليل الذى يطلب النهار فى ذلك الفلك الدوار. وإلى الشمس والقمر والنجوم وهن مسخرات بأمر الله. وإلى الرياح الدائرة فى الجواء، تقل السحاب إلى البلد الميت — بإذن الله — فإذا هو حى، وإذا الموات يؤتى من كل الثمرات.

هذه السبحات فى ملكوت الله، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية؛ وبعد تصوير طرف الرحلة؛ وبعد الحديث عن اتباع الشيطان والاستكبار عن اتباع رسل الله؛ وبعد عرض التصورات الجاهلية والتقاليد التى يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع .. يرتاد السياق هذه السبحات ليرد البشر إلى ربهم، الذى خلق هذا الوجود وسخره، والذى يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره، والذى له الخلق والأمر وحده . .

إنه الإيقاع القوى العميق بعبودية الوجود كلها لبارئه، والذى يبدو استكبار الإنسان فيه عن هذه العبودية نشازا فى الوجود، يجعل الناشز غريبا شائها فى الوجود.

وفى ظل تلك المشاهد؛ وفى مواجهة هذا الإيقاع يدعوهم :

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية، إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفا وطمعا، إن رحمة الله قريب من المحسنين » ..

إن إخلاص الدين لله، وتقرير عبودية البشر له، إن هى إلا فرع من إسلام الوجود كله، وعبودية الوجود كله لسلطانه . . وهذا هو الإيحاء الذى يستهدف المنهج القرآنى تقريره وتعميقه فى القلب البشرى .. وأيما قلب أو عقل يتجه بوعى ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المستسرة، وظواهره الناطقة بتلك النواميس المستسرة .. لا بد يستشعر تأثيرا لا يرد سلطانه؛ ولا بد يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر المقدر صاحب الخلق والأمر .. وهذه هى الخطوة الأولى لدفع هذا القلب إلى الاستجابة لداعى الله؛ والاستسلام لسلطانه الذى يستسلم له هذا الوجود كله ولا يتخطاه.

Marfat.com

ومن ثم يتخذ المنهج القرآني من هذا الوجود مجاله الأول لتجلية حقيقة الألوهية؛ وتعبيد البشر لربهم وحده؛ وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية، وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق المطمئن؛ الذي يستشعر أن كل ماحوله وكل من حوله من خلق الله، يتجاوب وإياه!

إنه ليس البرهان العقلي وحده هو الذي يستهدفه المنهج القرآني باستعراض عبودية الوجود لله، وتسخيره بأمره، واستسلام هذا الوجود في طواعية ويسر ودقة وعمق لأمره وحكمه.. إنما هو مذاق آخر - وراء البرهان العقلي ومع هذا البرهان العقلي - مذاق المشاركة مع الوجود والتجاوب. ومذاق الطمأنينة واليسر؛ والانسياق مع موكب الإيمان الشامل.

إنه مذاق العبودية الراضية، التي لا يسوقها القسر، ولا يحركها القهر.. إنما تحركها - قبل الأمر والتكليف - عاطفة الود والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله.. فلا تفكر في التهرب من الأمر، ولا التفلت من القهر؛ لأنها إنما تلبي حاجتها الفطرية في الاستسلام الجميل المريح.. الاستسلام لله الذي يرفع الجباه عن الدينونة لغيره أو العبودية لسواه. الاستسلام الرفيع الكريم لرب العالمين..

هذا الاستسلام هو الذي يمثل معنى الإيمان، ويعطيه طعمه ومذاقه.. وهذه العبودية هي التي تحقق معنى الإسلام، وتعطيه حيويته وروحه.. وهي هي القاعدة التي لابد أن تقام وتستقر، قبل التكليف والأمر؛ وقبل الشعائر والشرائع.. ومن ثم هذه العناية الكبرى بإنشائها وتقريرها وتعميقها وتثبيتها في المنهج القرآني الحكيم..

* * *

«إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين»..

إن عقيدة التوحيد الإسلامية، لا تدع مجالا لأي تصور بشري عن ذات الله سبحانه؛ ولا عن كيفيات أفعاله.. فالله سبحانه ليس كمثله شيء.. ومن ثم لا مجال للتصور البشري

Marfat.com

لينشيء صورة عن ذات الله . فكل التصورات البشرية إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء . فإذا كان الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء ، توقف التصور البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى . ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنه يتوقف تبعاً لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعاً ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله .. وهذا هو مجاله ..

ومن ثم تصبح أسئلة كهذه : كيف خلق الله السماوات والأرض ؟ كيف استوى على العرش ؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه ؟! ... تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لغواً يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي . أما الإجابة عليها فهي اللغو الأشد الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداء ! ولقد خاضت الطوائف ـ مع الأسف ـ في هذه المسائل خوضاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي ، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقية !

فأما الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض ، فهي كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله جميعاً : «ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم».. وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن .

إنها قد تكون ست مراحل . وقد تكون ستة أطوار . وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشيء من قياس حركة الأجرام ـ إذ لم تكن قبل الخلق هذه الأجرام التي نقيس نحن بحركتها الزمان ! .. وقد تكون شيئاً آخر .. فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. وكل حمل لهذا النص ومثله على « تخمينات » البشرية التي لا تتجاوز مرتبة الفرض والظن ـ باسم « العلم ! » ـ هو محاولة تحكمية ، منشؤها الهزيمة الروحية أمام « العلم » الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض !

ونخلص نحن من هذه المباحث التي لا تضيف شيئاً إلى هدف النص ووجهته . لنرتاد مع النصوص الجليلة تلك الرحلة الموحية في أقطار الكون المنظور ، وفي أسراره المكنونة :

* * *

« إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ،

Marfat.com

يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين » ..

إن الله الذى خلق هـذا الكون المشهود فى ضخامته وفخامته . والذى استعلى على هذا الكون يدبره بأمره ويصرفه بقدره . يُغشى الليلَ النهارَ يطلبه حثيثا .. فى هـذه الدورة الدائبة : دورة الليل يطلب النهار فى هـذا الفلك الدوار . والذى جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . . إن الله الخالق المهيمن المصرف المدبر ، هو « ربكم » .. هو الذى يستحق أن يكون ربا لكم . يربيكم بمنهجه ، ويجمعكم بنظامه ، ويشرع لكم بإذنه ، ويقضى بينكم بحكمه . . إنه هو صاحب الخلق والأمر . . وكما أنه لا خالق معه . فكذلك لا آمر معه .. هـذه هى القضية التى يستهدفها هـذا الاستعراض .. قضية الألوهية والربوبية والحاكمية ، وإفراد الله سبحانه بها .. وهى قضية العبودية من البشر فى شريعة حياتهم . فهذا هو الموضوع الذى يواجهه سياق السورة ممثلا فى مسائل اللباس والطعام . كما كان سياق سورة الأنعام يواجهه كذلك فى مسائل الأنعام والزروع والشعائر والنذور .

ولا ينسينا الهدف العظيم الذى يستهدفه السياق القرآنى بهـذا الاستعراض ، أن نقف لحظات أمام روعة المشاهد وحيويتها وحركتها وإيحاءاتها العجيبة . فهى من هذه الوجهة كفء للهدف العظيم الذى تتوخاه ..

إن دورة التصور والشعور مع دورة الليل والنهار فى هذا الفلك الدوار ، والليل يطلب النهار حثيثا ، ويريده مجتهدا ! لهى دورة لا يملك الوجدان ألا يتابعها ؛ وألا يدور معها ! وألا يرقب هذا السباق الجبار بين الليل والنهار ، بقلب مرتعش ونفس لاهث ! وكله وتوفز ، وكله تطلع وانتظار !

إن جمال الحركة وحيويتها و « تشخيص » الليل والنهار فى سمت الشخص الواعى ذى الإرادة والقصد .. إن هذا كله مستوى من جمال التصور والتعبير لا يرقى إليه فنّ بشرى على الإطلاق !

إن الألفة التى تقتل الكون ومشاهده فى الحس ؛ وتطبع النظرة إليه بطابع البلادة

Marfat.com

والغفلة .. إن هذه الألفة لتتوارى ، ليحل محلها وقع المشهد الجديد الرائع الذى يطالع الفطرة كأنما لأول وهلة ! .. إن الليل والنهار فى هذا التعبير ليسا مجرد ظاهرتين طبيعيتين مكررتين . وإنما هما حيان ذوا حس وروح وقصد واتجاه . يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة ؛ وحركة الصراع والمنافسة والسباق التى تطبع الحياة !

كذلك هذه الشمس والقمر والنجوم . . إنها كائنات حية ذات روح ! إنها تتلقى أمر الله وتنفذه ، وتخضع له وتسير وفقه . إنها مسخرة ، تتلقى وتستجيب ، وتمضى حيث أمرت كما يمضى الأحياء فى طاعة الله !

ومن هنا يهتز الضمير البشرى ؛ وينساق للاستجابة ، فى موكب الأحياء المستجيبة . ومن هنا هذا السلطان للقرآن الذى ليس لكلام البشر . . إنه يخاطب فطرة الإنسان بهذا السلطان المستمد من قائله — سبحانه — الخبير بمداخل القلوب وأسرار الفطر . .

***

وعند ما يصل السياق إلى هذا المقطع ، وقد ارتعش الوجدان البشرى لمشاهد الكون الحية ، التى كان يمر عليها فى بلادة وغفلة . وقد تجلى له خضوع هذه الخلائق الهائلة وعبوديتها لسلطان الخالق وأمره .. عندئذ يوجه البشر إلى ربهم — الذى لا رب غيره — ليدعوه فى إنابة وخشوع ؛ وليلتزموا بربوبيته لهم ، فيلتزموا حدود عبوديتهم له ؛ لا يعتدون على سلطانه ؛ ولا يفسدون فى الأرض بترك شرعه إلى هواهم ، بعد أن أصلحها الله بمنهجه :

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها . وادعوه خوفا وطمعا ، إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

إنه التوجيه فى أنسب حالة نفسية صالحة ، إلى الدعاء والإنابة . . تضرعا وتذللا ؛ وخفية لا صياحا وتصدية ! فالتضرع الخفى أنسب وأليق بجلال الله وبقرب الصلة بين العبد ومولاه .

أخرج مسلم — بإسناده عن أبى موسى — قال : كنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سفر — وفى رواية غزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال رسول الله — صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم - « أيها الناس أربعوا (أى ارفقوا وهونوا) على أنفسكم . إنكم لستم تدعون أصم ولا غائبا . إنكم تدعون سميعا قريبا . وهو معكم » . .

فهذا الحس الإيمانى بجلال الله وقربه معاً ، هو الذى يؤكده المنهج القرآنى هنا ويقرره فى صورته الحركية الواقعية عند الدعاء . ذلك أن الذى يستشعر جلاله فعلا يستحي من الصياح فى دعائه ؛ والذى يستشعر قرب الله حقا لا يجد ما يدعو إلى هذا الصياح !

وفى ظل مشهد التضرع فى الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ، ينهى عن الاعتداء على سلطان الله ، فيما يدعونه لأنفسهم - فى الجاهلية - من الحاكمية التى لا تكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشريعة .. والنفس التى تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب ، لا تعتدى كذلك ولا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها . . فبين الانفعالين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس . وهو منهج من خلق الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

« وادعوه خوفا وطمعا » . .

خوفا من غضبه وعقابه . وطمعا فى رضوانه وثوابه .

« إن رحمة الله قريب من المحسنين » . .

الذين يعبدون الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهو يراهم . . كما جاء فى الوصف النبوى للإحسان .

* * *

ومرة أخرى يفتح السياق للقلب البشرى صفحة من صفحات الكون المعروضة للأنظار ؛ ولكن القلوب تمر بها غافلة بليدة ؛ لا تسمع نطقها ، ولا تستشعر إيقاعها . . إنها صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله فى الآية السابقة ؛ نموذجا لرحمة الله فى صورة الماء الهاطل ، والزرع النامى ، والحياة النابضة بعد الموت والجمود :

« وهو الذى يرسل الرياح ، بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا

Marfat.com

سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . .

إنها آثار الربوبية فى الكون . آثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير . وكلها من صنع الله ؛ الذى لا ينبغى أن يكون للناس رب سواه . وهو الخالق الرازق بهذه الأسباب التى ينشئها برحمته للعباد .

وفى كل لحظة تهب ريح . وفى كل وقت تحمل الريح سحابا . وفى كل فترة ينزل من السحاب ماء . ولكن ربط هذا كله بفعل الله — كما هو فى الحقيقة — هو الجديد الذى يعرضه القرآن هذا العرض المرتسم فى المشاهد المتحركة ، كأن العين تراه .

إنه هو الذى يرسل الرياح مبشرات برحمته . والرياح تهب وفق النواميس الكونية التى أودعها الله هذا الكون — فما كان الكون لينشئ نفسه ، ثم يضع لنفسه هذه النواميس التى تحكمه ! — ولكن التصور الإسلامى يقوم على اعتقاد أن كل حدث يجرى فى الكون — ولو أنه يجرى وفق الناموس الذى قدره الله — إنما يقع ويتحقق — وفق الناموس — بقدر خاص ينشئه ويبرزه فى عالم الواقع . وأن الأمر القدرى بجريان السنة ، لايتعارض مع تعلق قدر الله بكل حادث فردى من الأحداث التى تجرى وفق هذه السنة . فإرسال الرياح — وفق النواميس الإلهية فى الكون — حدث من الأحداث ، يقع بمفرده وفق قدر خاص (١) .

وحمل الرياح للسحاب يجرى وفق نواميس الله فى الكون أيضا . ولكنه يقع بقدر خاص. ثم يسوق الله السحاب — بقدر خاص منه — إلى « بلد ميت » .. صحراء أو جدباء .. فينزل منه الماء — بقدر كذلك خاص — فيخرج من كل الثمرات — بقدر منه خاص — يجرى كل أولئك وفق النواميس التى أودعها طبيعة الكون وطبيعة الحياة .

إن التصور الإسلامى فى هذا الجانب ينفى المغوبة والمصادفة فى كل ما يجرى فى الكون . ابتداء من نشأته وبروزه ، إلى كل حركة فيه وكل تغيير وكل تعديل . كما ينفى الجبرية الآلية ،

---

(١) يراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » فى مواضع متعددة فى فصول : « حقيقة الألوهية » . « حقيقة الكون » . « حقيقة الإنسان » فى القسم الثانى من البحث .

Marfat.com

التى تتصور الكون كأنه آلة ، فرغ صانعها منها ، وأودعها القوانين التى تتحرك بها ، ثم تركها تتحرك حركة آلية جبرية حتمية وفق هذه القوانين التى تصبح بذلك عمياء !

إنه يثبت الخلق بمشيئة وقدر . ثم يثبت الناموس الثابت والسنة الجارية . ولكنه يجعل معها القدر المصاحب لكل حركة من حركات الناموس ولكل مرة تتحقق فيها السنة . القدر الذى ينشىء الحركة ويحقق السنة ، وفق المشيئة الطليقة من وراء السنن والنواميس الثابتة .

إنه تصور حى . ينفى عن القلب البلادة . بلادة الآلية والجبرية . ويدعها أبدا فى يقظة وفى رقابة .. كلما حدث حدث وفق سنة الله . وكلما تمت حركة وفق ناموس الله . انتفض هذا القلب ، يرى قدر الله المنفذ ، ويرى يد الله الفاعلة ؛ ويسبح لله ويذكره ويراقبه ، ولا يغفل عنه بالآلية الجبرية ولا ينساه !

هذا تصور يستحيي القلوب ، ويستجيش العقول ، ويطلقها جميعا بفاعلية الخالق المتجددة ؛ وبتسبيح البارىء الحاضر فى كل لحظة وفى كل حركة وفى كل حدث آناء الليل وأطراف النهار .

كذلك يربط السياق القرآنى بين حقيقة الحياة الناشئة بإرادة الله وقدره فى هذه الأرض ، وبين النشأة الآخرة ، التى تتحقق كذلك بمشيئة الله وقدره ؛ على النهج الذى يراه الأحياء فى نشأة هذه الحياة :

« كذلك نخرج الموتى ، لعلكم تذكرون » ..

إن معجزة الحياة ذات طبيعة واحدة ، من وراء أشكالها وصورها وملابساتها .. هذا ما يوحى به هذا التعقيب .. وكما يخرج الله الحياة من الموات فى هذه الأرض ، فكذلك يخرج الحياة من الموتى فى نهاية المطاف .. إن المشيئة التى تبث الحياة فى صور الحياة وأشكالها فى هذه الأرض ، هى المشيئة التى ترد الحياة فى الأموات . وإن القدر الذى يجرى بإخراج الحياة من الموات فى الدنيا ، لهو ذاته القدر الذى يجرى بجريان الحياة فى الموتى مرة أخرى ..

« لعلكم تذكرون » ..

فالناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة ؛ ويغرقون فى الضلالات والأوهام !

* * *

Marfat.com

ويختم السياق هذه الرحلة فى أقطار الكون وأسرار الوجود ، بمثل يضربه للطيب وللخبيث من القلوب . ينتزعه من جو المشهد المعروض ، مراعاة للتناسق فى المرائى والمشاهد ، وفى الطبائع والحقائق :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا . كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » .

والقلب الطيب يشبه فى القرآن الكريم وفى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالأرض الطيبة ، وبالتربة الطيبة . والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة وبالتربة الخبيثة . فكلاهما .. القلب والتربة .. منبت زرع ، ومأتى ثمر . القلب ينبت نوايا ومشاعر ، وانفعالات واستجابات ، واتجاهات وعزائم ، وأعمالا بعد ذلك وآثارا فى واقع الحياة . والأرض تنبت زرعا وثمرا مختلفا أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه . .

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » . .

طيباً خيرا ، سهلا ميسرا .

« والذى خبث لا يخرج إلا نكدا » . .

فى إيذاء وجفوة ، وفى عسر ومشقة . .

والهدى والآيات والموعظة والنصيحة تنزل على القلب كما ينزل الماء على التربة . فإن كان القلب طيبا كالبلد الطيب ، تفتح واستقبل ، وزكا وفاض بالخير . وإن كان فاسدا شريرا - كالذى خبث من البلاد والأماكن - استغلق وقسا ، وفاض بالشر والنكر والفساد والضر . وأخرج الشوك والأذى ، كما تخرج الأرض النكدة !

« كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » .

والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب . ولهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقى والاستجابة تصرف الآيات . فهم الذين ينتفعون بها ، ويصلحون لها ، ويصلحون بها .

Marfat.com

والشكر هو لازمة هذه السورة التي يتكرر ذكرها فيها .. كالإنذار والتذكير . وقد صادفنا هذا التعبير فيما مضى من السياق ، وسنصادفه فيما هو آت .. فهو من ملامح السورة المميزة في التعبير ، كالإنذار والتذكير ..

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ : يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنصَحُ لَكُمْ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَلِتَتَّقُوا ، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ ، فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ .

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ، قَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ : يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ، وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم

Marfat.com

مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ؟ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ : هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ، وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ، وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا - لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ - : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَقَالُوا : يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ .

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ؟ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ؟ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا : أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ،

Marfat.com

إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ، إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ : يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ، وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ
وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا ، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (1) ﴿٨٧﴾

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . قَالَ : أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ ﴿٨٨﴾
قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ،
وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ـ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ، وَأَنتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ
إِذًا لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا
شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ
آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟ » ﴿٩٣﴾

(١) الى هنا ينتهى الجزء الثامن . ولكننا تابعنا السياق لإتمام قصة شعيب إلى نهايتها فى الجزء التاسع .

Marfat.com

نحن مع موكب الإيمان .. هذه أعلامه .. وهذه علاماته .. وهذه هي معالم طريقه .. وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة في هذا الكوكب الأرضي .. يواجهها كلما التوت بها الطريق؛ وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم؛ وكلما تفرقت بها السبل. تحت ضغط الشهوات، التي يقودها الشيطان من خطامها، محاولا أن يرضي حقده؛ وأن ينفذ وعيده، وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم؛ فإذا الموكب الكريم يواجه البشرية بالهدى، ويلوح لها بالنور، ويتروح بها ريح الجنة، ويحذرها لفحات السموم، ونزغات الشيطان الرجيم، عدوها القديم ..

.. إنه مشهد رائع .. مشهد الصراع العميق، في خضم الحياة، على طول الطريق ..

إن التاريخ البشري يمضي في تشابك معقد كل التعقيد .. إن هذا الكائن المزدوج الطبيعة، المعقد التركيب .. الذي يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره .. عنصر الطين الذي نشأ منه، وعنصر النفخة من روح الله، التي جعلت من هذا الطين إنسانا .. إن هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك، معقدة كل التعقيد .. يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التي أسلفنا في قصة آدم الحديث عنها (1) .. يتعامل مع الحقيقة الإلهية: مشيئتها وقدرها، وقدرتها وجبروتها، ورحمتها وفضلها ... الخ ... ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته .. ويتعامل مع إبليس وقبيله .. ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه .. ويتعامل مع الأحياء في هذه الأرض .. ويتعامل مع بعضه البعض .. يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم ..

وفي هذا الخضم المتشابك من العلاقات والروابط، يجري تاريخه .. ومن القوة في كيانه والضعف. ومن التقوى والهدى. ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود. ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوى الروحية، ومن التعامل مع قدر الله في النهاية ... من هذا كله يتكون تاريخه .. وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه.

والذين يفسرون التاريخ الإنساني تفسيرا « اقتصاديا » أو «سياسيا». والذين يفسرونه

(1) ص ١٣٥–١٣٨ من هذا الجزء.

Marfat.com

تفسيرا « بيولوجيا » . والذين يفسرونه تفسيرا « روحيا » أو « نفسيا » . والذين يفسرونه تفسيرا « عقليا » ... كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة . والعوالم المتباعدة ، التي يتعامل معها الإنسان ؛ ويتألف من تعامله معها تاريخه .. والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع ، ويحيط به ؛ وينظر إلى التاريخ الإنساني من خلاله .[1]

ونحن هنا أمام مشاهد صادقة من هذا الخضم.. لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية؛ وقد تجمعت في المشهد كل العوالم والآفاق والعناصر ـ الظاهرة والخفية ـ التي يتعامل معها هذا الكائن منذ اللحظة الأولى .. ولقد شهدنا هذا الكائن باستعداداته الأساسية .. شهدنا تكريمه في الملأ الأعلى وإسجاد الملائكة له ؛ والبارئ العظيم يعلن ميلاده .. وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه .. وشهدنا مهبطه إلى الأرض .. وانطلاقه في التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية ..

ولقد شهدناه يهبط إلى هذه الأرض مؤمنا بربه ؛ مستغفرا لذنبه ؛ مأخوذا عليه عهد الخلافة: أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى ، مزودا بتلك التجربة الأولى في حياته . .

ثم مضى به الزمن ؛ وتقاذفته الأمواج في الخضم ؛ وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته وفي الوجود من حوله . تفاعلت في واقعه وفي ضميره . ثم ها نحن أولاء في هذا الدرس نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة إلى الجاهلية !!!

إنه ينسى .. وقد نسي .. إنه يضعف .. وقد ضعف .. إن الشيطان يغلبه .. وقد غلبه .. ولابد من الإنقاذ مرة أخرى !!!

لقد هبط إلى هذه الأرض مهتديا تائبا موحدا .. ولكن ها نحن أولاء نلتقي به ضالا مفتريا مشركا !!!

لقد تقاذفته الأمواج في الخضم .. ولكن هنالك معلما في طريقه .. هنالك الرسالة ترده إلى ربه . فمن رحمة ربه به أن لا يتركه وحده !

---

(1) يراجع فصل : «حقيقة الإنسان» في كتاب : «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» القسم الثاني.

Marfat.com

وها نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان ، يرفع أعلامه رسل الله الكرام : نوح . وهود . وصالح . ولوط . وشعيب . وموسى . ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا . ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم - بتوجيه الله وتعليمه - إنقاذ الركب البشرى من الهوة التي يقوده إليها الشيطان ، وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان . كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال . وبين الحق والباطل ، وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس .. ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة ، ونجاة المؤمنين ، بعد الإنذار والتذكير ..

والقصص في القرآن لا يتبع دائما ذلك الخط التاريخي . ولكنه في هذه السورة يتبع هذا الخط . ذلك أنه يعرض سير الركب البشرى منذ النشأة الأولى ، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماما عن معالم الطريق ، وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم !

وفي وقفتنا أمام المشهد الكلي الرائع نلمح جملة معالم نلخصها هنا قبل مواجهة النصوص .

◆ إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة .. ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة - بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الإنسان ذاته، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها .. وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك . فيهلك من يهلك ، ويحيا من يحيا . والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلها واحدا ، واستسلموا بكليتهم إلى هذا الإله الواحد . هم الذين سمعوا قول رسولهم لهم : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ، ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ .. فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها ، فنسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى - على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل .. وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين .. والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل - صلوات الله عليهم - مع اختلاف لغاتهم .. يوحد حكاية ماقالوه ، ويوحد ترجمته في نص واحد : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. وذلك لتحقيق معنى وحدة

Marfat.com

العقيدة السماوية – على مدار التاريخ – حتى فى صورتها الفظيه ! لأن هذه العبارة دقيقة فى التعبير عن حقيقة العقيدة ، ولأن عرضها فى السياق بذاتها يصور وحدة العقيدة تصويراً حسياً.. ولهذا كله دلالته فى تقرير المنهج القرآنى عن تاريخ العقيدة ..

وفى ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج « الأديان المقارنة » مع المنهج القرآنى.. يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا « تطور » فى مفهوم العقيدة الأساسى ، الذى جاءت به الرسل كلها من عند الله ، وأن الذين يتحدثون عن « تطور » المعتقدات وتدرجها ؛ ويدمجون العقيدة الربانية فى هذا التدرج « والتطور » يقولون غير ما يقوله الله سبحانه ! فهذه العقيدة – كما نرى فى القرآن الكريم – جاءت دائماً بحقيقة واحدة . وحكيت العبارة عنها فى ألفاظ بعينها : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ». وهذا الإله الذى دعا الرسل كلهم إليه هو « رب العالمين ».. الذى يحاسب الناس فى يوم عظيم .. فلم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى رب قبيلة ، أو رب أمة ، أو رب جنس .. كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى إلهين اثنين أو آلهة متعددة .. وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا إلى عبادة طوطمية ، أو نجمية ، أو « أرواحية ! » ، أو صنمية ! ولم يكن هناك دين من عند الله ليس فيه عالم آخر .. كما يزعم من يسمونهم « علماء الأديان » وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة ، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هى الديانات التى عرفتها البشرية فى هذه الأزمان ، دون غيرها !

لقد جاءت الرسل – رسولا بعد رسول – بالتوحيد الخالص ، وبربوبية رب العالمين ! وبالحساب فى يوم الدين .. ولكن الانحرافات فى خط الاعتقاد ، مع الجاهليات الطارئة بعد كل رسالة ، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة فى تكوين الإنسان ذاته وفى العوالم التى يتعامل معها . هذه الانحرافات تمثلت فى صور شتى من المعتقدات الجاهلية .. هى هذه التى يدرسها « علماء الأديان ! » ثم يزعمون أنها الخط الصاعد فى تدرج الديانات وتطورها !

وعلى أية حال فهذا هو قول الله – سبحانه – وهو أحق أن يتبع ، وبخاصة ممن يكتبون عن هذا الموضوع فى صدد عرض العقيدة الإسلامية ، أو صدد الدفاع عنها ! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، فهم وما هم فيه .. والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

• إن كل رسول من الرسل – صلوات الله عليهم جميعا – قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم

Marfat.com

عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم الذي سبقه .. فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين - كما كانت عقيدة آدم وزوجه - ثم انحرفوا بفعل العوامل التي أسلفنا - حتى إذا جاء نوح - عليه السلام - دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى . ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون . وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين - كما علمهم نوح - وبذراريهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة ... وهكذا ..

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه . فقال : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. وقال كل رسول لقومه : « إني لكم ناصح أمين » . معبرا عن ثقل التبعة ؛ وخطورة مايعلمه من عاقبة ماهم فيه من الجاهلية في الدنيا والآخرة ؛ ورغبته في هداية قومه ، وهو منهم وهم منه .. وفي كل مرة وقف « الملأ » من علية القوم وكبرائهم في وجه كلمة الحق هذه ؛ ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين . وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده - وهي القضية التي قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله كله - وهنا يصدع كل رسول بالحق في وجه الطاغوت .. ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة . وتنبتُّ وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية ؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها . وإذا « القوم » الواحد ، أمتين متفاصلتين لاقربى بينها ولا علاقة ! .. وعندئذ يجيء الفتح .. ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجي الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة . وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده . وقبل أن يثبتوا في وجه الطاغوت بإيمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم .. وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

● إن التركيز في كل رسالة كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده - رب العالمين - ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه ، هو القاعدة التي لايقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر . ولم يذكر القرآن إلا قليلا من التفصيلات بعد هذه القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعا . ذلك أن كل تفصيل - بعد قاعدة العقيدة - في الدين ، إنما يرجع إلى هذه القاعدة ولا يخرج عنها . وأهمية هذه القاعدة في ميزان الله هي

Marfat.com

التي جعلت المنهج القرآني يبرزها هكذا، ويفردها بالذكر في استعراض موكب الإيمان؛ بل في القرآن كله .. ولنذكر - كما قلنا في التعريف بسورة الأنعام (١) أن هذا كان هو موضوع القرآن المكي كله؛ كما كان هو موضوع القرآن المدني كلما عرضت مناسبة لتشريع أو توجيه.

إن لهذا الدين « حقيقة » ؛ و « منهجا » لعرض هذه الحقيقة. « والمنهج » في هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن « الحقيقة » فيه .. وعلينا أن نعرف الحقيقة الأساسية التي جاء بها هذا الدين . كما أن علينا أن نلتزم المنهج الذي عرض به هذه الحقيقة .. وفي هذا المنهج إبراز وإفراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية .. ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والإبراز والإفراد لهذه القاعدة في قصص هذه السورة ..

• إن هذا القصص يصور طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر في نفوس البشر ؛ ويعرض نموذجا مكررا للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجا مكررا للقلوب المستعدة للكفر أيضا .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن في قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ؛ ولم يعجبوا أن يختار الله واحدا منهم لينذرهم ويبلغهم. فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم ، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر ، وأن يسمعوا لواحد منهم .. كانوا هم « الملأ » من الحكام والكبار والوجهاء وذوي السلطان في قومهم .. ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين .. إنها عقدة الحاكمية والسلطان .. فالملأ كانوا يحسون دائما ما في قول رسولهم لهم : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. « ولكني رسول من رب العالمين » .. كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعني - أول ما تعني - نزع السلطان المغتصب من أيديهم ؛ ورده إلى صاحبه الشرعي .. إلى الله رب العالمين .. وهذا ما كانوا يقاومون في سبيله حتى يكونوا من الهالكين ! وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر ، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك ، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك ! ..

إن مصارع المكذبين - كما يعرضها هذا القصص - تجري على سنة لا تتبدل : نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه . إنذار من الله للغافلين على يد رسول . استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين . اغترار بالرخاء واستهزاء بالإنذار واستعجال للعذاب . طغيان وتهديد

---

(١) الجزء السابع : ص ٧٧ - ٩٤

Marfat.com

وإيذاء المؤمنين . ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة .. ثم الصرع الذى يأتى وفق سنة الله على مدار التاريخ !

◆ وأخيرا فإن طاغوت الباطل لايطيق مجرد وجود الحق .. وحتى حين يريد الحق أن يعيش فى عزلة عن الباطل - تاركا مصيرها لفتح الله وقضائه - فإن الباطل لايقبل منه هذا الموقف . بل يتابع الحق وينازله ويطارده .. ولقد قال شعيب لقومه : « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » .. ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة ، ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش ؛ ولا رؤية جماعة تدين لله وحده وتخرج من سلطان الطواغيت : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » .. وهنا صدع شعيب بالحق رافضا هذا الذى يعرضه عليهم الطواغيت : « قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . . »

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضا ، وأنه لايجديهم فتيلا أن يتقوها ويتجنبوها . فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية ، ويعودوا إلى ملة الطواغيت بعد إذ نجاهم الله منها. وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده .. فلا مفر من خوض المعركة ، والصبر عليها ، وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها ؛ وأن يقولوا مع شعيب: « على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .. ثم تجرى سنة الله بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ ..

ونكتفى بهذه المعالم فى طريق القصص القرآنى، حتى نستعرض النصوص بالتفصيل :

* * *

إن موكب الإيمان الذى يسير فى مقدمته رسل الله الكرام ، مسبوق فى السياق بموكب الإيمان فى الكون كله . فى الفقرة السابقة مباشرة : « إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ..

وإن الدينونة لهذا الإله ، الذى خلق السماوات والأرض ، والذى استوى على العرش ، والذى

Marfat.com

يحرك الليل يطلب النهار ، والذى تجرى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، والذى له الخلق والأمر . إن الدينونة لهذا الإله وحده هى التى يدعو إليها الرسل كافة . هى التى يدعون إليها البشرية كلها ، كلما قعد لها الشيطان على صراط الله فأضلها عنه ؛ وردها إلى الجاهلية التى تتبدى فى صور شتى ؛ ولكنها كلها تتسم بإشراك غير الله معه فى الربوبية .

والمنهج القرآنى يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله ، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذى يعيشون فيه ؛ والإسلام لله الذى أسلم له الكون كله ؛ والذى يتحرك مسخرا بأمره . ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشرى هزاً ؛ وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط فى سلك العبادة المتسلمة ؛ فلا يكون هو وحده نشازا فى نظام الوجود كله !

إن الرسل الكرام لايدعون البشرية لأمر شاذ ؛ إنما يدعونها إلى الأصل الذى يقوم عليه الوجود كله ؛ وإلى الحقيقة المركوزة فى ضمير هذا الوجود .. وهى ذاتها الحقيقة المركوزة فى فطرة البشر ؛ والتى تهتف بها فطرتهم حين لاتلوى بها الشهوات ، ولا يقودها الشيطان بعيدا عن حقيقتها الأصيلة ..

وهذه هى اللمسة المستفادة من تتابع السياق القرآنى فى السورة على النحو الذى تتابع به.

* * *

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين . قال : ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالاتعلمون . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين » .

تعرض القصة هنا باختصار ، ليست فيها التفصيلات التى ترد فى مواضع أخرى من القرآن فى سياق يتطلب تلك التفصيلات ، كالذى جاء فى سورة هود ، وفى سورة نوح .. إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التى تحدثنا عنها آنفا .. طبيعة العقيدة . طريقة التبليغ. طبيعة استقبال القوم

Marfat.com

لها ، حقيقة مشاعر الرسول . تحقق النذير ... لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم ، على منهج القصص القرآني .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » ..

على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه ، وبلسانهم ، تأليفا لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيرا على البشر في التفاهم والتعارف . وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون ، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ! وإن هي إلا تعلة . وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى ، مهما جاءهم من أي طريق !

لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول :

« فقال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

فهي الكلمة التي لا تتبدل ، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره ، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

إن دين الله منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره . والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية ، وقيامها على شريعته وأمره ، تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده .. كلها حزمة واحدة .. غير قابلة للتجزئة . وإلا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه !

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفي صدق الرائد الناصح لأهله :

« إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ..

وهنا نرى أن ديانة نوح .. أقدم الديانات .. كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب

Marfat.com

والجزاء فى يوم عظيم ، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب .. وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره فى شأن العقيدة ، ومناهج الخابطين فى الظلام من « علماء الأديان » وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن .

فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة ؟

« قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين » !

كما قال مشركو العرب لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه صبأ ، ورجع عن دين إبراهيم !

وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال ! بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعد ما يبلغ المسخ فى الفطر ! .. هكذا تنقلب الموازين ، وتبطل الضوابط ، ويحكم الهوى ؛ مادام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذى لا ينحرف ولا يميل .

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله ؟ إنها تسميهم الضالين ، وتعد من يهتدى منهم ويرجع بالرضى والقبول ! .. أجل من يهتدى إلى المستنقع الكريه ، وإلى الوحل الذى تتمرغ الجاهلية فيه !

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التى لاتكشف عن لحمها ؟ وماذا تقول للفتى الذى يستقذر اللحم الرخيص ؟ إنها تسمى ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما « رجعية » وتخلفا وجمودا وريفية! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما فى الوحل الذى تتمرغ فيه فى المستنقع الكريه !

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ؛ وجنون الأفلام والسينما والتليفزيون وما إليه ؛ وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهى ؟ إنها تقول عنه : إنه « جامد » . ومغلق على نفسه ، وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته ..

إن الجاهلية هى الجاهلية .. فلا تتغير إلا الأشكال والظروف !

وينفى نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه . إنما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة.

Marfat.com

ويعلم من الله ما لا يعلمون . فهو يجده فى نفسه ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون :

« قال : ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » ..

ونلمح هنا فجوة فى السياق .. فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر من بينهم ، يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علما عن ربه لا يجده الآخرون ، الذين لم يختاروا هذا الاختيار .. هذه الفجوة فى السياق يدل عليها ما بعدها :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ » ..

وما من عجب فى هذا الاختيار . فهذا الكائن الإنسانى شأنه كله عجيب .. إنه يتعامل مع العوالم كلها ، ويتصل بربه بما ركب فى طبيعته من نفخة الله فيه من روحه .. فإذا اختار الله من بينه رسوله ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ فإنما يتلقى هذا المختار عنه ، بما أودع فى كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقى عنه ، بذلك السر اللطيف الذى به معنى الإنسان ، والذى هو مناط التكريم العلوى لهذا الكائن العجيب التكوين..

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة :

« لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون » ..

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ، ليظفروا فى النهاية برحمة الله .. ولا شىء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ولا هدف ، إلا هذا الهدف السامى النبيل.

ولكن الفطرة حين تبلغ حدا معينا من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير :

« فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين » ..

ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير.. فبعماهم هذا كذبوا . وبعماهم لاقوا هذا المصير !

* * *

Marfat.com

وتمضى عجلة التاريخ ، ويمضى معها السياق ، فإذا نحن أمام عاد قوم هود :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين . قال : ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين. أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بصطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا ، إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين » .

إنها نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة .. إنها السنة الماضية ، والناموس الجارى ، والقانون الواحد ..

إن قوم عاد هؤلاء من ذرارى نوح والذين نجوا معه فى السفينة ، وقيل : كان عددهم ثلاثة عشر . . وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين فى السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام ـ وهو الإسلام ـ كانوا يعبدون الله وحده ، مالهم من إله غيره ، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين ، فهكذا قال لهم نوح : « ولكنى رسول من رب العالمين » .. فلما طال عليهم الأمد ، وتفرقوا فى الأرض ، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية ، وقادهم من شهواتهم ـ وفى أولها شهوة الملك وشهوات المتاع ـ وفق الهوى لا وفق شريعة الله ، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . أفلا تتقون ؟ » .. القولة التى قالها نوح من قبله ، والتى كذب بها قومه ، فأصابهم ما أصابهم ، واستخلف الله عادا من بعدهم ـ ولا يذكر هنا أين كان موطنهم ، وفى سورة أخرى نعلم أنهم كانوا بالأحقاف ، وهى الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت ـ وقد ساروا فى الطريق الذى سار فيه من قبل قوم نوح ، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا فى هذا الطريق . لذلك

Marfat.com

يضيف هود في خطابه لهم قوله : « أفلا تتقون ؟ » استنكارا لقلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب .

وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى ، وأن يستنكر منهم قلة التقوى ؛ ورأوا فيه سفاهة وحماقة ، وتجاوزا للحد ، وسوء تقدير للمقام ! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعا في غير تحرج ولا حياء :

« قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين » .. هكذا جزافا بلا تروّ ولا تدبر ولا دليل !

« قال : ياقوم ليس بي سفاهة، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين » ..

لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق - كما نفى عن نفسه الضلالة - وقد كشف لهم - كما كشف نوح من قبل - عن مصدر رسالته وهدفها ؛ وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها. وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين .

ولابد أن يكون القوم قد عجبوا - كما عجب قوم نوح من قبل - من هذا الاختيار ، ومن تلك الرسالة ، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل ، كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ » ..

ثم يزيد عليه ما يليه واقعهم .. واقع استخلافهم في الأرض من بعد قوم نوح ، وإعطائهم قوة في الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية ، وإعطائهم كذلك السلطان والسيطرة :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بصطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » ..

فلقد كان من حق هذا الاستخلاف ، وهذه القوة والبصطة ، أن تستوجب شكر النعمة ، والحذر من البطر ، واتقاء مصير الغابرين . وهم لم يأخذوا على الله عهدا : أن تتوقف سنته التي لا تتبدل ، والتي تجري وفق الناموس المرسوم ، بقدر معلوم . وذكر النعم يوحي بشكرها ؛ وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها ؛ ومن ثم يكون الفلاح في الدنيا والآخرة .

Marfat.com

ولكن الفطرة حين تنحرف لاتتفكر ولاتتدبر ولاتتذكر .. وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم ، واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار:

« قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ..

لكأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه ، ولا يصبرون على النظر فيه :

« أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ » !

إنه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول . هذا الاستعباد الذى يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصيلة : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد . ويدعه عبدا للعادة والتقليد ، وعبدا للعرف والمألوف ، وعبدا لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور ..

وهكذا استعجل القوم العذاب فرارا من مواجهة الحق ، بل فرارا من تدبر تفاهة الباطل الذى هم له عبيد ؛ وقالوا لنبيهم الناصح الأمين :

« فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » !

ومن ثم كان الجواب حاسما وسريعا فى رد الرسول :

« قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ، إنى معكم من المنتظرين » .

لقد أبلغهم العاقبة التى أنبأه بها ربه ، والتى قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص .. إنه العذاب الذى لادافع له ، وغضب الله الصاحب له .. ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذى استعجلوه ؛ يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم :

« أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ » ..

إن ما تعبدون مع الله ليس شيئا ذا حقيقة ! إنها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم ؛ من عند أنفسكم ، لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها إذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان .

والتعبير المتكرر فى القرآن : « ما نزل الله بها من سلطان » . . هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة .. إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ،

Marfat.com

سريع الزوال . . إن الفطرة تتلق هذا كله فى استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذى يودعها إياه .

وكم من كلمات براقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين . . ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه ـ سبحانه ـ سلطان !

وفى ثقة المطمئن ، وقوة المتمكن ، يواجه هود قومه بالتحدى :

« فانتظروا ، إنى معكم من المنتظرين » . .

إن هذه الثقة هى مناط القوة التى يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله . . إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال . كما أنه على يقين من سلطان الحق الذى معه وقوته بما فيه من سلطان الله .

ولا يطول الانتظار فى السياق :

« فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين » . .

فهو المحق الكامل الذى لا يتخلف منه أحد . وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد فى الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين . وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير . . ولا يفصل السياق هنا ما يفصله من أمر هذا الهلاك فى السور الأخرى . فنقف نحن فى ظلال النص الذى يهدف إلى الاستعراض السريع ؛ ولا نخوض فى تفصيل له مواضعه فى النصوص .

* * *

وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ـ لمن آمن منهم ـ : أتعلمون أن صالحا مرسل من

Marfat.com

ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين : فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، ولكن لاتحبون الناصحين » ..

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ؛ وهى تمضى فى خضم التاريخ . وهاهى ذى نكسة أخرى إلى الجاهلية ؛ ومشهد من مشاهد اللقاء بين الحق والباطل ، ومصرع جديد من مصارع المكذبين ..

« وإلى ثمود أخاهم صالحا . قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ..

ذات الكلمة الواحدة التى بها بدأ هذا الخلق وإليها يعود . وذات المنهج الواحد فى الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ ..

ويزيد هنا تلك المعجزة التى صاحبت دعوة صالح ، حين طلبها قومه للتصديق :

« قد جئتكم ببينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية » ..

والسياق هنا ، لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ، ولعاقبة الإيمان بها وعاقبة التكذيب ، لايذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة . وكذلك لايذكر تفصيلا عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم ، وأنها ناقة الله وفيها آية منه . ومن هذا الإسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية ، أو أنها أخرجت لهم إخراجا غير عادى . مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على صدق نبوته .. ولا نزيد على هذا شيئا مما لم يرد ذكره من أمرها فى هذا المصدر المستيقن - وفيما جاء فى هذه الإشارة كفاية عن كل تفصيل آخر - فنمضى نحن مع النصوص ونعيش فى ظلالها :

« فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » ..

إنها ناقة الله ، فذروها تأكل فى أرض الله ، وإلا فهو النذير بسوء المصير ..

وبعد عرض الآية والإنذار بالعاقبة ، يأخذ صالح فى النصح لقومه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصائر الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض ، تتخذون من سهولها

Marfat.com

قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكروا آلاء الله ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين » .

ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر فى سورة أخرى أنهم كانوا فى الحجر ـ وهى بين الحجاز والشام .. ونلمح من تذكير صالح لهم ، أثر النعمة والتمكين فى الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذى كانوا يعيشون فيه . فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت . فهى حضارة عمرانية واضحة المعالم فى هذا النص القصير .. وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا فى أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضا . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين فى الأرض ، محكمين فيها . وهو ينهاهم عن الانطلاق فى الأرض بالفساد ، اغترارا بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة فى عاد الغابرين !

وهنا كذلك نلمح فجوة فى السياق على سبيل الإيجاز والاختصار . فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة . والملأ هم آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض ، وترده إلى إله واحد هو رب العالمين ! ولابد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد !

وهكذا نرى الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد :

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ـ لمن آمن منهم ـ : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ » ..

وواضح أنه سؤال التهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه .

ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافا ! لقد سكب الإيمان بالله القوة فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم .. إنهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ؟ وماذا تجدى السخرية والاستنكار .. من الملأ المستكبرين ؟ :

« قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون »

Marfat.com

ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم فى صراحة تحمل طابع التهديد :

« قالوا : إنا بالذى آمنتم به كافرون » . .

على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح . والتى لاتدع ريبة لمستريب .. إنه ليست البينة هى التى تنقص الملأ للتصديق . . إنه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد .. إنها عقدة الحاكمية والسلطان ، إنها شهوة الملك العميقة فى الإنسان ! إنه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الحطام !

وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التى جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه فى دعواه ؛ والتى حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم :

« فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ؛ وقالوا : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » . .

إنه التبجح الذى يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله : « عتوا » لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسى المصاحب لها . والذى يعبر عنه كذلك ذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير :

ولا يستأنى السياق فى إعلان الخاتمة ، ولايفصل كذلك :

« فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » . .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح . فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد العجز عن الحراك . وماأجدر العاتى أن يرتجف ، وما أجدر المتدى أن يعجز . جزاء وفاقاً للمصير . وفى التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

ويدعهم السياق على هيئتهم .. « جاثمين » .. ليرسم لنا مشهد صالح الذى كذبوه وتحدوه :

« فتولى عنهم ، وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين » .

إنه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح ؛ والبراءة من المصير الذى جلبوه لأنفسهم بالعتو والتكذيب. .. وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين..

* * *

Marfat.com

وتمضى عجلة التاريخ ، فيظلنا عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكن السياق لايتعرض هنا لقصة إبراهيم . ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين ؛ متناسقا مع ماجاء فى أول السورة :
« وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون » .. وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال فى إهلاك القرى التى كذبت بالنذير .. وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يطلب من ربه هلاكهم . بل اعتزلهم ومايدعون من دون الله .. إنما تجىء هنا قصة قوم لوط ـ ابن أخى إبراهيم ـ ومعاصره ، بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك . يتمشى مع ظلال السياق ، على طريقة القرآن :

« ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال ـ شهوة ـ من دون النساء . بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » ..

وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة ؛ وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التى كانت مدار القصص السابق . ولكنها فى الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد .. إن الاعتقاد فى الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه . وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكرا وأنثى ، وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ؛ وأن يتم الامتداد فى هذا الجنس عن طريق النسل ؛ وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى .. ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء ، مجهزين عضويا ونفسيا لهذا الالتقاء .. وجعل اللذة التى ينالانها عندئذ عميقة ، والرغبة فى إتيانها أصيلة ، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله فى امتداد الحياة ؛ ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعا فى مقابل المتاعب التى يلقيانها بعد ذلك فى الذرية . من حمل ووضع ورضاعة . ومن نفقة وتربية وكفالة .. ثم لتكون كذلك ضمانا لبقائهما ملتصقين فى أسرة ، تكفل الأطفال الناشئين ، الذين تطول فترة حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان ، ويحتاجون إلى رعاية أطول من الجيل القديم !

هذه هى سنة الله التى يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد فى الله وحكمته ولطف

Marfat.com

تدبيره وتقديره . ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلا بالانحراف عن العقيدة ، وعن منهج الله للحياة .

ويبدو انحراف الفطرة واضحا فى قصة قوم لوط ، حتى أن لوطا ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها ، وأنهم فى هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين :

« ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ؟ إنكم لتأتون الرجال ـ شهوة ـ من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » ..

والإسراف الذى يدمغهم به لوط هو الإسراف فى تجاوز منهج الله الممثل فى الفطرة السوية . والإسراف فى الطاقة التى وهبهم الله إياها ، لأداء دورهم فى امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها فى غير موضع الإخصاب . فهى مجرد « شهوة » شاذة . لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة فى تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها فى نقيض هذه السنة ، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطرى ، قبل أن يكون فساد الأخلاق .. ولا فرق فى الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هى الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد .

إن التكوين العضوى للأنثى ـ كالتكوين النفسى ـ هو الذى يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر فى هذا الالتقاء ، الذى لا يقصد به مجرد « الشهوة » . إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة ، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته فى امتداد الحياة ، مصحوبا بلذة تعادل مشقة التكليف ! فأما التكوين العضوى للذكر ـ بالنسبة للذكر ـ فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة ؛ بل إن شعور الاستقذار ليسبق ، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة .

وطبيعة التصور الاعتقادى ، ونظام الحياة الذى يقوم عليه ، ذو أثر حاسم فى هذا الشأن .. فهذه هى الجاهلية الحديثة فى أوربا وفى أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسى الشاذ انتشارا ذريعا . بغير ما مبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح ، وعن منهج الحياة الذى يقوم عليه .

وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التى يوجهها اليهود فى الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود ، بإشاعة الانحلال العقيدى والأخلاقى .. كانت هناك دعوى عريضة من هذه

Marfat.com

الأجهزة الموجهة بأن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات ! ولكن شهادة الواقع تخرق العيون . ففي أوربا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى - كما في عالم البهائم ! - وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص ! ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال ؛ بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء.. ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ : « السلوك الجنسي عند الرجال » و « السلوك الجنسي عند النساء » في تقرير « كنزي » الأمريكي.. ولكن هذه الأجهزة الموجهة ما تزال تردد هذه الأكذوبة ، وتسندها إلى حجاب المرأة . لتؤدي ما تريده بروتوكولات صهيون ، ووصايا مؤتمرات المبشرين ! (1)

ونعود إلى قوم لوط ! فيتجلى لنا الأعراف مرة أخرى في جوابهم لنبيهم :

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون » !

ياعجبا ! أو من يتطهر يخرج من القرية إخراجا ، ليبقى فيها الملوثون المدنسون ؟!

ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية - وتسميه تقدمية وتحطيما للأغلال عن المرأة وغير المرأة - أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين؟! إنه منطق الجاهلية في كل حين !!

وتعرض الخاتمة سريعا بلا تفصيل ولا تطويل كالذي يجيء في السياقات الأخرى :

« فأنجيناه وأهله - إلا امرأته كانت من الغابرين - وأمطرنا عليهم مطرا ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » ..

إنها النجاة لمن تهددهم العصاة . كما أنها هي الفصل بين القوم على أساس العقيدة والمنهج . فامرأته - وهي ألصق الناس به - لم تنج من الهلاك . لأن صلتها كانت بالغابرين الهالكين من قومه في المنهج والاعتقاد .

وقد أمطروا مطرا مهلكا مع ما صاحبه من عواصف .. ترى كان هذا المطر المغرق ، والماء

---

(1) يراجع كتاب : « هل نحن مسلمون » وكتاب : « التطور والثبات في حياة البشرية » لمحمد قطب.

Marfat.com

الدافق ، لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذى كانوا فيه ، والوحل الذى عاشوا وماتوا فيه ؟!
على أية حال لقد طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين المجرمين !

* * *

ونأتى للصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة فى تلك الحقبة من التاريخ .. صفحة مدين وأخيهم شعيب :

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين(١)..

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ـ إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ـ على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ »..

إننا نجد شيئا من الإطالة فى هذه القصة ، بالقياس إلى نظائرها فى هذا الموضع ، ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئا عن المعاملات ، وإن كانت القصة سائرة على منهج الاستعراض الإجمالى فى هذا السياق .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

---

(١) إلى هنا ينتهى الجزء الثامن

Marfat.com

فهى قاعدة الدعوة التى لاتغيير فيها ولا تبديل .. ثم تبدأ بعدها بعض التفصيلات فى رسالة النبى الجديد :

« قد جاءتكم بينة من ربكم » ..

ولايذكر السياق نوع هذه البينة - كما ذكرها فى قصة صالح - ولا نعرف لها تحديدا من مواضع القصة فى السور الأخرى . ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بينة جاءهم بها ، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله . ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان ، والنهى عن الإفساد فى الأرض ، والكف عن قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوه :

« فأوفوا الكيل والميزان ، ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » ..

وندرك من هذا النهى أن قوم شعيب ، كانوا قوما مشركين لايعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده فى سلطانه ؛ وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم إلى شرع الله العادل ؛ إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل - ولعل شركهم إنما كان فى هذه الخصلة - وأنهم - لذلك - كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ؛ كما كانوا مفسدين فى الأرض ، يقطعون الطريق على سواهم . ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ؛ ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لاتمضى على استقامتها كما هى فى منهج الله .

ويبدأ شعيب - عليه السلام - بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله .

يبدأ شعيب - عليه السلام - فى دعوتهم من هذه القاعدة ؛ التى يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ؛ كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل . ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه القاعدة .

Marfat.com

ويستصحب فى دعوتهم إلى الدينونة لله وحده ، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد فى الأرض بالهوى بعدما أصلحها الله بالشريعة .. يستصحب فى دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية .. يذكرهم نعمة الله عليهم :

« واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم » ..

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم :

« وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » ..

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر ؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين . وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين . إن كانوا هم لايريدون أن يكونوا مؤمنين :

« وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » ..

لقد دعاهم إلى أعدل خطة . ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كل وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لايرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس لاتدين للطاغوت .. إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض ، لاتدين إلا لله ، ولاتعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولاتحكم فى حياتها شرعا إلا شرعه ، ولا تتبع فى حياتها منهجا إلا منهجه .. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ــ حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة ــ حتى لوآثرت هى ألا تخوض معه المعركة ــ إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل .. إنها سنة الله لابد أن تجرى ..

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا »

Marfat.com

هكذا في تبجح سافر ، وفي إصرار على المعركة لايقبل المهادنة والتعايش !

إلا أن قوة العقيدة لاتتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .. لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة . . نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء ؛ وأن يدين للسلطان الذي يشاء : في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت .. وإلا تنازل كلية عن الحق الذي يمثله وخانه .. فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكا بعلمه ، كارها أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :

« قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . وما يكون لنا أن نعود فيها - إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شيء علما - على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين » ..

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الإيمان ، ومذاقه في نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع .. مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه .

« قال : أو لو كنا كارهين » ؟

يستنكر تلك القولة الفاجرة : « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا » .. يقول لهم : أتجبروننا على مانكره من ملتكم التي نجانا الله منها ؟!

« قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » . .

إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية ، التي لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتي يتخذ الناس فيها أربابا من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .. إن الذي يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيرا فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها - على الأقل - أن لملة الطاغوت حقا في الوجود ، وشرعية

Marfat.com

فى السلطان ؛ وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله .. وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام . شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة !

وكذلك يستنكر شعيب - عليه السلام - مايتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التى أنجاهم الله منها :

« وما يكون لنا أن نعود فيها » ..

وما من شأننا أصلا ؛ وما ينبغى لنا قطعا أن نعود فيها .. يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التى تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف فى إنسانية الإنسان ذاته . فهذه « الإنسانية » لاتوجد ، والإنسان عبد للإنسان - وأى عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟! .. وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟! .. وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟! وأى عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟!

على ان الأمر لايقف عند حد هذه المعانى الرفيعة .. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - فى حكم الطواغيت - أموالهم التى لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ماشاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات. فوق ما يتحكم فى أرواحهم وفى حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ! ثم يكلفهم أعراضهم فى النهاية .. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التى يريدها بها الطواغيت ، سواء فى صورة النصب للباشير - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو فى صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبا مباحا

Marfat.com

للشهوات تحت أي شعار ! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار .. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع !

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال .. ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة . فضلا على وزنها في ميزان الله ..

يقول السيد أبو الأعلى المودودي في كتاب : الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية :

« ... وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية ، لايخفى عليه أن المسألة – التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها . وذلك كما تشاهد في القطار أنه لايجرى إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأنه لابد للركاب أن يسافروا – طوعا أو كرها – إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لايجرى قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لاتستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرا ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية ، وإنشاء النظام الجماعي ، وتحديد القيم الخلقية . فإذا كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه .. فلابد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الجناة الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل مايكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لاتربو . إن لم تمحق وتنقرض آثارها . وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب

Marfat.com

والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ... »

... « والظاهر أن أول مايطالب به دين الله عباده ، أن يدخلوا فى عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد ، حتى لايبقى فى أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمى الكريم - صلى الله عليه وسلم - ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه . وهذه الغايات السامية لايمكن أن يتحقق منها شىء مادامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم فى الأرض بأيدى أئمة الكفر والضلال ؛ ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين فى زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتنمين مايتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات ! ومن هنا يظهر ماللإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأى عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها .. ألم تروا ما جاء فى الكتاب والسنة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعرة - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقى وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه فى الأرض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية ، والذى يضعضع القوة الجماعية ويفت فى عضدها ، يجنى على الإسلام وأهله جناية لايمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالإقرار بكلمة التوحيد .. ثم انظروا إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة فى الدين ، حتى إن القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض ؛ ذلك أن « الجهاد » هو السعى المتواصل والكفاح المستمر فى سبيل إقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذى يجعله القرآن ميزانا يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه للدين . وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله لايمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل ، أو يقعد عن بذل نفسه وماله فى سبيل إقامة نظام الحق .. فكل من يبدو فى أعماله شىء من الضعف والاستكانة

Marfat.com

فى هذا الباب ، فاعلم أنه مدخول فى إيمانه ، مرتاب فى أمره ، فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟ »...

... « إن إقامة الإمامة الصالحة فى أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة فى نظام الإسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لاينتهى عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته فى قالب الإسلام ، ولاتبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه فى انتزاع زمام الأمر من أيدى الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم فى الأرض ذلك النظام الحق المرضى عند الله الذى به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها »(1)...

إن الإسلام حين يدعو الناس إلى انتزاع السلطان من أيدى غاصبيه من البشر ورده كله لله ، إنما يدعوهم لإنقاذ إنسانيتهم وتحرير رقابهم من العبودية للعبيد ؛ كما يدعوهم إلى إنقاذ أرواحهم وأموالهم من هوى الطواغيت وشهواتهم .. إنه يكلفهم أعباء المعركة مع الطاغوت — تحت رايته — بكل مافيها من تضحيات ؛ ولكنه يتقدم من تضحيات أكبر وأطول ، كما أنها أذل وأحقر ! .. إنه يدعوهم للكرامة ، وللسلامة ، فى آن ..

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة :

« قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها .... » ..

ولكن شعيبا بقدر مايرفع رأسه ، وبقدر مايرفع صوته ، فى مواجهة طواغيت البشر من الملأ الذين استكبروا من قومه .. بقدر مايخفض هامته ، ويسلم وجهه فى مواجهة ربه الجليل ، الذى وسع كل شىء علما . فهو فى مواجهة ربه ، لا يتألى عليه ولا يجزم بشىء أمام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :

« إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما » ..

إنه يفوض الأمر لله ربه ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه .. إنه يملك

---

(1) مقتطفات من مقدمات كتاب « الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية » للسيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

رفض مايعرضه عليه الطواغيت . من العودة فى ملتهم ؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة ؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته . . ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شيء علما . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله . الأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتألى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق :

« على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » . .

وهنا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجلى حقيقة « الألوهية » فى نفس ولى الله ونبيه . . إنه يعرف مصدر القوة . وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذى يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده فى خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتى ليس منها مفر . إلا بفتح من ربه ونصر .

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ، ليفتنوهم عن دينهم : « وقال الملأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون » . .

إنها ملامح المعركة التى تتكرر ولا تتغير . . إن الطواغيت يتوجهون أولا إلى الداعية ليكف عن الدعوة . فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته ، ولم يرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل . . تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب . . إنهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ؛ ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم ــ وبخاصة تلك التى عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل ــ ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الإيمان ، الذى أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان .

ولكنه من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجها لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف . . وهكذا كان . .

Marfat.com

« فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » ..

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الأيدى بالأذى والفتنة ..

ويرد السياق على قولتهم . « لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون » . . وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر – فى تهكم واضح – أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، إنما كان من نصيب قوم آخرين :

« الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » . .

فنى ومضة هانحن أولاء نراهم فى دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار !

ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال ، من رسولهم الذى كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم ، وعلى ضيعتهم فى الغابرين :

« فتولى عنهم ، وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » ..

إنه من ملة وهم من ملة . فهو أمة وهم أمة . أما صلة الأنساب والأقوام ، فلا اعتبار لها فى هذا الدين ، ولا وزن لها فى ميزان الله . . فالوشيجة الباقية هى وشيجة هذا الدين ، والارتباط بين الناس إنما يكون فى حبل الله المتين ..

انتهى الجزء الثامن

ويليه الجزء التاسع مبدوءا بقوله تعالى :

« قال الملأ الذين استكبروا »

Marfat.com

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء التاسع

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من بقية سورة الأعراف وأول سورة الأنفال

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء - التاسع - يتألف من شطرين : الشطر الأول هو بقية « سورة الأعراف » - من القرآن المكي - وهو يؤلف ثلاثة أرباع هذا الجزء .. والشطر الثاني هو نصف الحزب الأول من سورة الأنفال - من القرآن المدني - وهو يؤلف الربع الباقي من الجزء ..

وسنكتفي هنا بالعرض الإجمالي للشطر الأول . ونرجئ الشطر الثاني إلى موضعه . حيث تقدم - إن شاء الله - سورة الأنفال ؛ وفق المنهج الذي اتبعناه في التعريف بسور القرآن ..

* * *

مضى في الجزء الثامن - في الشطر الذي استعرضناه هناك من سورة الأعراف - قصص الرسل والرسالات والأقوام بعد آدم عليه السلام . وعرضنا من موكب الإيمان هناك قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم السلام - ومصارع المكذبين من أقوامهم ونجاة المؤمنين.

فالآن يبدأ هذا الجزء بتكملة لقصة شعيب - عليه السلام - وقد اخترنا أن نضمها إلى نهاية الجزء الثامن تكملة للقصة هناك ..

ثم يقف سياق السورة وقفة للتعقيب على ذلك القصص - وفق منهج السورة - فيكشف في هذا التعقيب عن خطوات قدر الله بالمكذبين .. كيف يأخذهم بالبأساء والضراء لعل قلوبهم تصحو وترق ، وتلجأ إلى الله وتتضرع إليه ، فإذا لم تستيقظ هذه القلوب ولم تتفتح ولم تنتفع بالابتلاء ، أخذهم الله بالسراء - وهي أشد في الابتلاء - حتى يزدادوا عن قدر الله غفلة ، ويظنوا الحياة لهوا ولعبا . وعندئذ يأخذهم الله بغتة على حين غفلة : « وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » ..

وهنا يكشف السياق كذلك عن العلاقة بين القيم الإيمانية وسنن الله في أخذ الناس ، حيث لا انفصال في خطوات قدر الله بين هذه السنن وتلك القيم . هذه العلاقة التي تخفى على الغافلين، لأن آثارها قد لاتبدو في المدى القريب ؛ ولكنها لابد واقعة في المدى الطويل : « ولو أن أهل

Marfat.com

القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ؛ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ..

ويعقب الكشف عن خطوات قدر الله بالمكذبين ؛ وسنته وعلاقتها بالقيم الإيمانية في حياة البشر ؛ لمسات من التهديد تهز القلوب ؛ ولفتات إلى مصارع المكذبين توقظ الغافلين : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » . .

وينتهي هذا التعقيب بلفتة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذا القصص ؛ وتلخيص لأمر الأقوام التي كذبت من قبل ؛ ووصف لحقيقة حالهم ونسيانهم لعهد الله معهم على الاعتراف بألوهيته ووحدانيته ؛ وعدم جدوى الآيات والبينات والخوارق التي جاءهم بها رسلهم ، بسبب تعطل فطرتهم وغفلة قلوبهم : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها . ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ..

* * *

وبعد هذه الوقفة للتعقيب على مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب .. تجيء قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه أولا ؛ ثم مع قومه بني إسرائيل أخيرا .. وتشغل قصة موسى في هذه السورة أوسع مساحة وأكبر قدر شغلته في سورة واحدة من سور القرآن كلها .. وقد وردت حلقات من قصة بني إسرائيل في مواطن كثيرة ؛ وذلك عدا الإشارات القصيرة إليها في مواضع من القرآن أخرى .. وكانت أكثر القصص ورودا في القرآن كله .. ولعل ذلك التفصيل في قصة هذه الأمة كان للحكمة التي أشرنا إليها من قبل ـ في هذه الظلال ـ في الجزء السادس في صفحتي ١٢٤ و ١٢٥ على النحو التالي :

« من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها . فقد كانوا حربا على الجماعة المسلمة منذ

Marfat.com

اليوم الأول . هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين فى المدينة ؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا . وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة . وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد فى الصف المسلم ؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة . وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم فى الحرب المعلنة الصريحة .. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة ، لتعرف من هم أعداؤها : ما طبيعتهم ؟ وما تاريخهم ؟ وما وسائلهم ؟ وما حقيقة المعركة التى تخوضها معهم ؟

« ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة فى تاريخها كله ؛ كما كانوا أعداء هدى الله فى ماضيهم كله . فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفا ؛ ووسائلهم كلها مكشوفة .

« ومن جوانب هذه الحكمة أن بنى إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة ؛ ووقعت الانحرافات فى عقيدتهم ؛ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ؛ ووقع فى حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف ، كما وقع فى أخلاقهم وتقاليدهم .. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة ــ وهى وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ــ بتاريخ القوم ، وتقلبات هذا التاريخ ؛ وتعرف مزالق الطريق وعواقبها ، ممثلة فى حياة بنى إسرائيل وأخلاقهم ، لتضم هذه التجربة ــ فى حقل العقيدة والحياة ــ إلى حصيلة تجاربها ؛ وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون . ولتتقى ــ بصفة خاصة ــ مزالق الطريق ، ومداخل الشيطان ، وبوادر الانحراف ، على هدى التجارب الأولى .

« ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بنى إسرائيل ذات صحائف شتى فى المدى الطويل . وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها ، وتنحرف أجيال منها ؛ وأن الأمة المسلمة التى سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ، ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بنى إسرائيل ؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددى الدعوة فى أجيالها الكثيرة ، نماذج من العقابيل التى تلم بالأمم ؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هى القلوب التى عرفت ثم انحرفت ! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة ، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها ، وينفض عنها الركام ،

Marfat.com

لجدته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد الذى يطرق فطرتها لأول مرة . فأما القلوب التى نوديت من قبل ، فالنداء الثانى لا تكون له جدته . ولا تكون له هزته ؛ ولايقع فيها الإحساس بضخامته وجديته ؛ ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف ، وإلى الصبر الطويل ! » ..

« . . . الخ

وقد وردت حلقات من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وبنى إسرائيل من قبل فى هذه الظلال ـ للرتبة وفق ترتيب السور فى المصحف لا وفق ترتيب النزول ـ فى سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنعام .. ولكن إذا اعتبرنا ترتيب النزول ، فإن هذه الحلقات الواردة منها هنا فى سورة الأعراف المكية تكون سابقة على ما ورد منها فى السور المدنية . وذلك ظاهر من طبيعة عرضها هنا وطبيعة عرضها هناك .فهى هنا تعرض على طريقة الحكاية والقصص . وهناك تعرض على سبيل مواجهة بنى إسرائيل بها ، وتذكيرهم بأحداثها ووقائعها ومواقفهم فيها .

ولقد وردت القصة فى أكثر من ثلاثين موضعا فى القرآن كله ـ مكية ومدنية ـ ولكن ورودها مفصلة اقتصر على عشرة مواضع فى عشر سور منها ستة مواضع هى أكثرها تفصيلا . والذى ورد منها فى سورة الأعراف كان هو أول تفصيل .. كما أنه هو أوسع مساحة . وإن تكن الحلقات التى وردت فى هذه المساحة أقل مما ورد منها فى سورة طه (١) .

وهى تبدأ هنا من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة . بينما تبدأ فى سورة طه من حلقة النداء لموسى ـ عليه السلام ـ فى جانب الطور . وتبدأ فى سورة القصص من حلقة مولد موسى فى فترة اضطهاد بنى إسرائيل .. ويبدأ عرضها ـ متناسقا مع جو السورة وأهدافها على طريقة القرآن فى سياقة القصص كله (٢) ـ بالتوجيه إلى عاقبة تكذيب فرعون وملئه . وذلك منذ اللحظة الأولى فى عرضها : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

ثم تمضى حلقات القصة ومشاهدها .. أولا .. فى مواجهة فرعون وملئه .. وأخيرا فى مواجهة بنى إسرائيل ، والتوائهم وزيغهم وانحرافهم !

---

(١) يراجع فصل : «القصة فى القرآن» فى كتاب : «التصوير الفنى فى القرآن » (٢) يراجع المصدر السابق

Marfat.com

ولما كنا سنستعرض القصة ـ فيما بعد ـ بالتفصيل . فإننا نكتفي هنا بالوقوف أمام معالمها البارزة وموحياتها الكلية :

• إن موسى ـ عليه السلام ـ يواجه فرعون وملأه بأنه رسول من رب العالمين : « وقال موسى : يافرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق. فأرسل معي بني إسرائيل » .. كذلك حين تقع المباراة بينه وبين سحرة فرعون فيغلبون ويؤمنون ، فإنهم يؤمنون برب العالمين : « وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون » .. وحين يهددهم فرعون بالعذاب الرعيب : فإنهم يتجهون إلى ربهم ، ويعلنون أنهم عائدون إليه في حياتهم ومماتهم وبعثهم وفي أمرهم كله : « قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » . .

ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ وهو يعلم قومه في مواضع كثيرة يعرفهم بربهم الحق .. فعندما أعلن فرعون أنه سيعيد اضطهاد بني إسرائيل بقتل ذكورهم واستحياء إناثهم « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .. « قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا . قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » .. وعندما جاوز بهم البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم وطلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلها كما لهؤلاء القوم آلهة ! « قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؟ » ..

فهذه النصوص القرآنية في القصة تثبت حقيقة الدين الذي جاء به موسى عليه السلام ؛ وحقيقة التصور الاعتقادي الذي تنشئه هذه الحقيقة .. وهو التصور الصحيح الذي جاء به الإسلام ؛ وتضمنه دين الله في جميع الرسالات . كما أنها تثبت زيف النظريات والتكهنات التي يدلي بها الباحثون في تاريخ الأديان من الغربيين ومن يأخذ بمنهجهم وتقريراتهم ممن يكتبون عن تطور العقيدة !

كذلك تثبت هذه النصوص ألوان الانحراف التي صاحبت تاريخ بني إسرائيل وجبلتهم

Marfat.com

الملتوية – حتى بعد بعثة موسى عليه السلام . ذلك من مثل قولهم : « ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » .. ومثل اتخاذهم العجل فى غيبة موسى على الجبل لميقاته مع ربه ! ومثل طلبهم رؤية الله جهرة وإلا فإنهم لا يؤمنون ! ولكن هذه الانحرافات لاتمثل حقيقة العقيدة التى جاء بها موسى من ربه . إنما هى انحرافات عن هذه العقيدة . فكيف تحسب الانحرافات إذن على العقيدة ذاتها ؟ ويقال : إنها « تطورت » إلى التوحيد ؟!

◆ كذلك تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله وبين الجاهلية كلها . وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين ؛ وكيف يحس فيه الخطر على وجوده ؛ كما تبين كيف يدرك المؤمنون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت !

إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون : « يافرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، فأرسل معى بنى إسرائيل » .. تبين مدلول هذه الدعوة إلى « رب العالمين » .. إنه رد السلطان كله إلى الله برد عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين ! وبناء على هذا المدلول طلب موسى إطلاق سراح بنى إسرائيل . فإنه إذ كان الله رب العالمين ، فما يكون لعبد من عبيده – وهو فرعون المتجبر الطاغى – أن يعبدهم لنفسه ، فهم ليسوا عبيدا إلا لرب العالمين .. إن رد الربوبية كلها لله سبحانه معناه رد الحاكمية كلها له . فالحاكمية هى مظهر ربوبية الله للناس – وهم من العالمين – وهى تتجلى فى العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده . فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده ؛ وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية .. أو بتعبير آخر لهذه الحاكمية .. وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره . لا يحكمهم بشرعه .

ولقد أدرك فرعون وملؤه خطر الدعوة إلى « رب العالمين » . وأحسوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون – وسلطانهم المستمد منه – فعبروا عن هذا الخطر بأن موسى يريد أن يخرجهم من أرضهم : « قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ » .. « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟ » .. وما أرادوا إلا أن هذه الدعوة إلى رب العالمين لاتحمل إلا مدلولا واحدا هو انتزاع السلطان من يد العبيد – الطواغيت – ورده إلى

Marfat.com

صاحبه ـ سبحانه ـ وهذا معناه ـ من وجهة نظرهم ـ الإفساد فى الأرض ! أو كما يقال اليوم فى قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها : إنها محاولة لقلب نظام الحكم ! ومن وجهة نظر الطواغيت الجاهلية التى تغتصب سلطان الله ـ أى تغتصب ربوبيته وتزاول اختصاصاتها ولو لم تقل هذا باللسان ـ يكون هذا « قلبا » لنظام الحكم . لأن نظام الحكم فى الجاهليات يقوم على ربوبية عبد من العبيد لبقية العبيد . بينما الدعوة إلى رب العالمين تعنى أن تكون الربوبية على العبيد لخالق العبيد ! وكذلك قال فرعون للسحرة الذين بهرهم الحق فآمنوا برب العالمين ؛ وخلعوا ربقة العبودية له بهذا الإعلان : إنهم يمكرون لإخراج أهل المدينة من مدينتهم . وهددهم بأبشع العذاب والنكال : « قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ! إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين » ..

ومن الجانب الآخر كان هؤلاء السحرة الذين آمنوا برب العالمين ؛ وأسلموا لله وحده ؛ وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها .. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت . إنها المعركة على العقيدة . لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين . بل بمجرد إعلان أن الله رب العالمين ! ومن ثم قالوا لفرعون ردا على اتهامه لهم بأن هذا مكر مكروه فى المدينة ليخرجوا منها أهلها ـ وهو مرادف للاتهام فى الجاهليات الحديثة لكل من يعلن ربوبية الله للعالمين بمعناها الجاد بأنه يعمل على قلب نظام الحكم ! ـ : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » .. ثم لجأوا إلى ربهم الذى آمنوا به فتمردوا على العبودية لغيره قائلين : « ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » .. فكان هذا فرقانا جعله الله فى قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام لله فيها .

◆ ومن خلال عرض الآيات التى جاء بها موسى لفرعون وملئه ؛ وما أخذهم الله به من السنين ونقص الثمرات ، وما أرسله عليهم من الآفات . ومواجهتهم لهذا كله بالعناد والمراوغة والإصرار فى النهاية على ما هم فيه حتى أهلكهم الله كما يقول تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم

Marfat.com

سيئة يطيروا بموسى ومن معه - ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون - وقالوا: «مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز قالوا: ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك. لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز - إلى أجل هم بالغوه - إذا هم ينكثون. فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» .. من خلال عرض هذا كله يتبين مدى إصرار الطاغوت على الباطل فى وجه الحق. ومدى مقاومته للدعوة إلى «رب العالمين» .. ذلك أنه يعلم علم اليقين أن هذه الدعوة بذاتها هى حرب عليه، بإنكار شرعية قيامه من أساسه! وما يمكن أن يسمح الطاغوت بإعلان أن لا إله إلا الله. أو أن الله هو رب العالمين. إلا حين تفقد هذه الكلمات مدلولها الحقيقى، وتصبح مجرد كلمات لا مدلول لها.. وهى فى مثل هذه الحالة لا تؤذيه! لأنها لا تعنيه! فأما حين تأخذ عصبة من الناس هذه الكلمات جدا بمدلولها الحقيقى، فإن الطاغوت الذى يزاول الربوبية - بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله، وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إسلامهم لله - لا يطيق هذه العصبة. كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين، وإعلان السحرة المؤمنين أنهم آمنوا برب العالمين. وكما ظل هو والملأ من قومه مصرين على رد هذه الدعوة، والآيات تتوالى عليهم، والنكبات كذلك تتوالى عليهم من الجدب والآفات والجوع والبلاء .. ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية الله للعالمين. لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم هم عن مزاولة هذا السلطان المغتصب، الذى يعبدون به الناس لغير رب العالمين!

كذلك تتجلى من خلال عرض هذه الآيات خطوات قدر الله بالمكذبين .. من أخذهم بالبأساء والضراء. ثم أخذهم بالرخاء والسراء. ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر فى نهاية المطاف! والتمكين للمؤمنين الذين كانوا يستضعفون: «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون» ..

◆ ولكن بنى إسرائيل غلبت عليهم جبلتهم الملتوية الخبيثة. ففسقوا عن أمر الله - كما

Marfat.com

يجلو السياق القرآني ذلك – وراوغوا موسى نبيهم وزعيمهم ومنقذهم مراوغة مؤذية ؛ وعصوا وبطروا النعمة ولم يستقيموا ولم يشكروا ؛ وتكرر منهم ذلك كله بعد مغفرة الله لهم وقبولهم مرة بعد مرة ، إلى أن حقت عليهم كلمة الله في النهاية : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » ..

ولقد صدق وعيد الله .. ولابد أن يصدق في مقبل الأيام .. وإنما هي دورات لهم في التاريخ . حتى إذا عتوا وأفسدوا وتجبروا واشتد أذاهم ، بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة !

◆ وأخيرا فإن هذه السورة مكية . وقد ورد فيها عن التواء بني إسرائيل ومعصيتهم وسوء جبلتهم الكثير .. بينما يزعم المستشرقون – اليهود والصليبيون سواء – أن محمدا – صلى الله عليه وسلم – لم يهاجم اليهود – بزعمهم – بهذا القرآن إلا بعد أن يئس في المدينة من استجابتهم له . وأنه كان يحاسنهم في مكة ، وفي أول عهده بالمدينة . فيقول – بزعمهم – قرآنا لا يهاجمهم فيه ؛ إنما يحدثهم عن التقاء العرب بهم في النسب إلى جدهم إبراهيم ! طمعا في إسلامهم له ! فلما يئس منهم هاجمهم هذا الهجوم .. وكذبوا . فهذه سورة مكية تصف الحق في شأنهم ، لا فرق بين ما جاء فيها وما جاء في سورة البقرة المدنية في هذا الحق الذي لا يتبدل .. وإذا نحن تجاوزنا عن الآيات من ١٦٣ إلى ١٧٠ في هذه السورة بوصفها مدنية ، وهي التي ورد فيها تأذن الله – سبحانه – بأن يرسل عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، فإن الآيات التي قبلها والتي بعدها والتي لاشك في أنها مكية تضمنت الحق في جبلة بني إسرائيل . وفيها ذكر عبادتهم للعجل . وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلها صنما بينما هم خارجون من مصر باسم الله الواحد ! وأخذ الرجفة لهم لأنهم أبوا الإيمان إلا أن يروا الله جهرة . وتبديلهم قول الله لهم وهم يدخلون القرية ... الخ مما يدمغ أولئك الزاعمين من المستشرقين بالافتراء على التاريخ بعد الافتراء على الله ورسوله .. وهؤلاء هم الذين يتخذهم بعض من يكتبون عن الإسلام أساتذة لهم فيما يكتبون !

وحسبنا هذه المعالم في القصة حتى نواجه نصوصها بالتفصيل .

* * *

Marfat.com

وإذا كانت القصة بطولها مسوقة فى هذه السورة ـ فى استعراض موكب الإيمان ـ لتدل على خطوات قدر الله مع المكذبين ، ولتصور العلاقة بين القيم الإيمانية وسنة الله فى الحياة البشرية ، فإنها مسوقة كذلك لبيان طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ؛ ممثلتين فى شخوص القصة وأطرافها . وقد ختمت بمشهد أخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، تحت المعاينة الكاملة لبأس الله الشديد : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مافيه لعلكم تتقون » ..

لذلك أعقب هذا المشهد مشهد أخذ الميثاق على فطرة البشر كافة : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا .. أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » ..

وأعقب هذا المشهد مشهد الذى ينسلخ من هذا العهد ، كما ينسلخ من العلم بآيات الله بعد إذ أراه إياها .. وهو مشهد مثير .. وفيه لمسات قوية للتنفير من هذا الانسلاخ ، والتحذير من مآله المنظور : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون » ..

ثم بيان لطبيعة الهدى وطبيعة الكفر . يكشف عن أن الكفر تعطل فى أجهزة الفطرة يحول دون تلقى هدى الله ، وينتهى بالخسارة المطلقة : « من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون » ..

تعقب هذا البيان لفتة إلى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام فى مكة بالتكذيب ، ويلحدون فى أسماء الله فيشتقون منها أسماء الآلهة المفتراة . وتهديد لهم باستدراج الله . ودعوة لهم كذلك أن يتفكروا تفكرا عميقا بعيدا عن الهوى فى أمر صاحبهم الذى يدعوهم إلى الهدى

Marfat.com

- صلى الله عليه وسلم - فينبزونه بأن به جنة اوإلى أن ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما فى صفحات الوجود من موحيات الهدى ؛ ولمسة لهم بالموت الذى يترقبهم وهم عنه غافلون : « وقه الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه . سيجزون ما كانوا يعملون. وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين .. أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة . إن هو إلا نذير مبين . أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » ..

ومواجهة كذلك لهؤلاء المشركين فى تكذيبهم بالساعة ، وسؤالهم عن موعدها .. مواجهة بضخامة هذا الشأن الذى يسألون عنه مستهينين ، وهول هذا الأمر الذى يتناولونه مستخفين. وجلاء كذلك لطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وتقرير لحقيقة الألوهية وتفرد الله سبحانه بكل خصائصها . ومنها علم الغيب ؛ وتجلية الساعة ؛ « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربى ، لايجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السماوات والأرض ، لاتأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها ! قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . قل : لاأملك لنفسى نفعا ولا ضرا - إلا ما شاء الله - ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ..

وفى سياق مواجهة المشركين يجىء بيان عن طبيعة الشرك وقصة الانحراف عن عهد الفطرة بتوحيد الله ، وكيف يقع فى النفس هذا الانحراف .. وكأنما هو تصوير لانحراف جيل المشركين بعد أن كان أسلافهم الأولون على دين إبراهيم الحنيف : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون . أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون؟ » .. إنه تمثيل للأجيال المتلاحقة بصورة الحالات المتتابعة فى النفس الواحدة.. وهو تصوير ذو دلالات عجيبة فى صدقها وفى جمالها جميعا ..

Marfat.com

ولأن المقصود هو تمثيل حالة المشركين الذين كان هذا القرآن يواجههم فإن السياق ينتقل مباشرة من المثل إلى مخاطبتهم مواجهة ، ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تحديهم هم وآلهتهم : « وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا . وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون » ..

* * *

وفى نهاية السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى الأمة المسلمة .. يوجهه إلى اليسر فى أخذ الناس فى هذه الدعوة ؛ ونهنهة النفس عن الغضب مما يبدر منهم من تقاعس واعتراض ؛ والاستعاذة من الشيطان الذى يثير الغضب ويحنق الصدر : « خذ العفو . وأمر بالعرف ؛ وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قل : إنما أتبع مايوحى إلى من ربى ، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

وهذا التوجيه يذكرنا بما ورد فى مطلع السورة : « كتاب أنزل إليك ، فلايكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » .. فهو يشى بثقل هذا العبء - عبء دعوة الناس ، ومواجهة ما فى نفوسهم من رواسب وركام وعقابيل ، والتواءات وأغراض وشهوات ، وغفلة وثقلة وتقاعس . وضرورة الصبر .. وضرورة اليسر . وضرورة السير أيضا فى الطريق !

ثم توجيه إلى الزاد المعين على مشاق الطريق .. الاستماع والإنصات إلى القرآن .. وذكر الله فى كل آن وفى كل حال . والحذر من الغفلة . والاقتداء بالمقربين من الملائكة فى الذكر والعبادة : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك فى نفسك

Marfat.com

تضرعا وخيفة ، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولاتكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » ..

إنه زاد الطريق . وأدب العبادة . ومنهج المقربين للوصولين ..

وحسبنا هذه الإشارات المجملة لنواجه النصوص بالتفصيل ..

قال الملأ الذين استكبروا من قومه ... (١)

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

« أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ؟

« تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ، وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » ﴿١٠٢﴾

---

(١) سبق تفسير الآيات من ٨٨ ــ ٩٣ من هذا الجزء في نهاية الجزء الثامن لتكملة القصة.

Marfat.com

هذه وقفة فى سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب .. وقفة لبيان سنة الله التى جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين فى كل قرية ـ والقرية هى المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية ـ وهى سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ؛ ويتشكل بها تاريخ الإنسان فى جانب منه أصيل .. أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ؛ لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله ، وتعرف حقيقة ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهيـة القاهرة . فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء ، وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون .. كل ذلك للابتلاء .. حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة ، وحسبوا أن الأمور تمضى جزافا بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل لأن الأمور تمضى هكذا بلا تدبير : « وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء » ! أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون فى هذه الغفلة . لم يدركوا حكمة الله فى الابتلاء بالضراء والسراء ، ولم يتدبروا حكمته فى تقلب الأمور بالعباد ، ولم يتقوا غضبه على المستهترين الغافلين ، وعاشوا كالأنعام بل أضل حتى جاءهم بأس الله .. ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال ، ولحلت عليهم البركات ، ولأفاض الله عليهم من رزقه فى السماء والأرض ، ولأنعم عليهم نعيمه المبارك الذى تطمئن به الحياة ، ولا يعقبه النكال والبوار ..

ثم يحذر الله الذين يرثون الأرض من بعد أهلها .. يحذرهم الغفلة والغرة ، ويدعوهم إلى اليقظة والتقوى ، ويلفتهم إلى العبرة فى مصارع الغابرين الذين ورثوا هم الأرض من بعدهم ؛ فإنما تنتظرهم سنة الله التى لاتتبدل ، والتى يتشكيف بها تاريخ البشر على مدارج القرون .

وتنتهى الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ... » لإظهاره على سنة الله فيها ، وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .. فهذا الرسول الأخير وأمته هم الوارثون لحصيلة رسالة الله كلها ، وهم الذين يفيدون من أنبائها وعظاتها ...

* * *

« وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا

Marfat.com

مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء . فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ؛ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ..

إن السياق القرآني هنا لايروى حادثة ، إنما يكشف عن سنة . ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر .. ومن ثم يتكشف أن هناك ناموسا تجرى عليه الأمور ؛ وتتم وفقه الأحداث ؛ ويتحرك به تاريخ « الإنسان » في هذه الأرض . وأن الرسالة ذاتها ـ على عظم قدرها ـ هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس ـ وهو أكبر من الرسالة وأشمل ـ وأن الأمور لاتمضى جزافا ؛ وأن الإنسان لايقوم وحده في هذه الأرض ـ كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان ! ـ وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير ، ويصدر عن حكمة ، ويتجه إلى غاية . وأن هنالك في النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة ؛ التي وضعت السنة ، وارتضت الناموس . .

ووفقا لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان ، مما حكاه السياق . ويكون من أمر غيرها ما يكون !

إن إرادة الإنسان وحركته ـ في التصور الإسلامي ـ عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ أيضا . ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل .. والله بكل شيء محيط .. وإرادة الإنسان وحركته ـ في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل ـ يتعاملان مع الوجود كله ؛ ويتأثران ويؤثران في هذا الوجود أيضا .. فهناك زحمة من العوامل والعوالم المحركة للتاريخ الإنساني ؛ وهناك سعة وعمق في مجال هذه الحركة؛ مما يبدو إلى جانبه « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ، و « التفسير البيولوجي للتاريخ » ، و « التفسير الجغرافي للتاريخ » ... بقعا صغيرة في الرقعة الكبيرة . وعبثا صغيرا من عبث الإنسان الصغير ! (١)

« وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون » ..

فليس للعبث ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ يأخذ الله عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم

---

(١) يراجع ماجاء عن هذا الموضوع في الجزء الثامن من الطبعة الثانية ص ١٤٦ ـ ص ١٥٠

Marfat.com

وأرزاقهم وأموالهم . وليس لإرواء غلة ولا شفاء إحنة - كما كانت أساطير الوثنيات تقول عن آلهتها العابثة الحاقدة [1] ! إنما يأخذ الله المكذبين برسله بالبأساء والضراء ، لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أن يوقظ الفطرة التي مازال فيها خير يرجى ؛ وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمد متى كانت فيها بقية ؛ وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار ؛ يتضرعون إليه ؛ ويطلبون رحمته وعفوه ؛ ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له - والعبودية لله غاية الوجود الإنساني - وما بالله سبحانه من حاجة إلى تضرع العباد وإعلان العبودية : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .. ولو اجتمع الإنس والجن - على قلب رجل واحد - على طاعة الله ما زاد هذا في ملكه شيئا . ولو اجتمع الإنس والجن - على قلب رجل واحد - على معصيته - سبحانه - ما نقصوا في ملكه شيئا (كما جاء في الحديث القدسي) .. ولكن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم هم ؛ ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك .. فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه .. تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم - كما جاء في أوائل السورة - وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم . وتحرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم ؛ واستحيوا أن يتبعوا خطوات الشيطان ؛ واستحيوا أن يغضبوا الله بعمل أو نية وهم يتجهون إليه في الشدة ويتضرعون ، واستقاموا على الطريقة التي تحررهم وتطهرهم وتزكيهم ، وترفعهم من العبودية للهوى والعبودية للعبيد !

لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية يرسل إليها نبيا فتكذبه ، بالبأساء في أنفسهم وأرواحهم ، وبالضراء في أبدانهم وأموالهم . استحياء لقلوبهم بالألم . والألم خير مهذب، وخير مفجر لينابيع الخير المستكنة ، وخير مرهف للحساسية في الضمائر الحية ، وخير موجه إلى ظلال الرحمة التي تنسم على الضعاف المكروبين نسمات الراحة والعافية في ساعات العسرة والضيق ..

« لعلهم يضرعون » ..

« ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة » ..

فإذا الرخاء مكان الشدة ، واليسر مكان العسر ، والنعمة مكان الشظف ، والعافية مكان

---

(١) يراجع في القسم الأول من كتاب: « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » فصل : « تيه وركام » وفصل « الإيجابية »

Marfat.com

الضر ، والذرية مكان العقر ، والكثرة مكان القلة ، والأمن مكان الخوف . وإذا هو متاع ورخاء ، وهينة ونماء ، وكثرة وامتلاء .. وإنما هو فى الحقيقة اختبار وابتلاء ..

والابتلاء بالشدة قد يصبر عليه الكثيرون ، ويحتمل مشقاته الكثيرون . فالشدة تستثير عناصر المقاومة . وقد تذكر صاحبها بالله – إن كان فيه خير – فيتجه إليه ويتضرع بين يديه ، ويجد فى ظله طمأنينة ، وفى رحابه فسحة ، وفى فرجه أملا ، وفى وعده بشرى .. فأما الابتلاء بالرخاء فالذين يصبرون عليه قليلون . فالرخاء ينسى ، والمتاع يلهى ، والثراء يطغى . فلا يصبر عليه إلا الأقلون من عباد الله .

« ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ،وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء » ..

أى حتى كثروا وانتشروا ، واستسهلوا العيش ، واستيسروا الحياة : ولم يعودوا يجدون فى أنفسهم تحرجا من شىء يعملونه ، ولا تخوفا من أمر يصنعونه .. والتعبير : « عفوا » –إلى جانب دلالته على الكثرة – يوحى بحالة نفسية خاصة : حالة قلة المبالاة . حالة الاستخفاف والاستهتار . حالة استسهال كل أمر ، واتباع عفو الخاطر فى الشعور والسلوك سواء .. وهى حالة مشاهدة فى أهل الرخاء واليسار والنعمة ، حين يطول بهم العهد فى اليسار والنعمة والرخاء – أفرادا وأمما – كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئا ، أو تحسب حسابا لشىء . فهم ينفقون فى يسر ويلتذون فى يسر ، ويلهون فى يسر ، ويبطشون كذلك فى استهتار ! ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان ، فى يسر واطمئنان ! وهم لايتقون غضب الله ، ولا لوم الناس ، فكل شىء يصدر منهم عفوا بلا تحرج ولا مبالاة . وهم لا يفطنون لسنة الله فى الكون ، ولا يتدبرون اختباراته وابتلاءاته للناس . ومن ثم يحسبونها تمضى هكذا جزافا ، بلا سبب معلوم ، وبلا قصد مرسوم :

« وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء » ..

وقد أخذنا دورنا فى الضراء وجاء دورنا فى السراء ! وهاهى ذى ماضية بلا عاقبة ، فهى تمضى هكذا خبط عشواء !

عندئذ . . وفى ساعة الغفلة السادرة ، وثمرة للنسيان واللهو والطغيان ، تجىء العاقبة وفق السنة الجارية :

Marfat.com

« فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون » ..

جزاء بما نسوا واغتروا وبعدوا عن الله ؛ وأطلقوا لشهواتهم العنان ، فما عادوا يتحرجون من فعل ، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال !

هكذا تمضى سنة الله أبدا . وفق مشيئته فى عباده . وهكذا يتحرك التاريخ الإنسانى بإرادة الإنسان وعمله - فى إطار سنة الله ومشيئته - وها هو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة ؛ ويحذرهم الفتنة .. فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء .. وينبه فيهم دواعى الحرص واليقظة ، واتقاء العاقبة التى لاتتخلف ، جزاء وفاقا على اتجاههم وكسبهم . فمن لم يتيقظ ، ومن لم يتحرج ، ومن لم يتق ، فهو الذى يظلم نفسه ، ويعرضها لبأس الله الذى لا يرد . ولن تظلم نفس شيئا .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ..

فذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية . فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الاستهتار ؛ لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض .. هكذا .. « بركات من السماء والأرض » مفتوحة بلا حساب . من فوقهم ومن تحت أرجلهم . والتعبير القرآنى بعمومه وشموله يلقى ظلال الفيض الغامر ، الذى لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات . .

وأمام هذا النص - والنص الذى قبله - نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة فى تاريخ الإنسان ، تغفل عنه المذاهب الوضعية وتغفله كل الإغفال . بل تنكره كل الإنكار ! ..

إن العقيدة الإيمانية فى الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان .

إن الإيمان بالله ، وتقواه ، ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض . وعدا من الله . ومن أوفى بعهده من الله ؟

ونحن - المؤمنين بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن ، فنصدقه ابتداء ، لانسأل عن علله

Marfat.com

وأسبابه ؛ ولا تردد لحظة فى توقع مدلوله .. نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعده بمقتضى هذا الإيمان ..

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر - كما يأمرنا إيماننا كذلك - فنجد علته وسببه !

إن الإيمان بالله دليل على حيوية فى الفطرة ؛ وسلامة فى أجهزة الاستقبال الفطرية ؛ وصدق فى الإدراك الإنسانى ، وحيوية فى البنية البشرية ، ورحابة فى مجال الإحساس بحقائق الوجود .. وهذه كلها من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله قوة دافعة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها ، وتتجه بها إلى وجهة واحدة ، وتطلقها تستمد من قوة الله ، وتعمل لتحقيق مشيئته فى خلافة الأرض وعمارتها ، وفى دفع الفساد والفتنة عنها ، وفى ترقية الحياة ونمائها .. وهذه كذلك من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد . وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله ، أقدر على الخلافة فى الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد للهوى ولبعضهم بعضا !

وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور ، فى دفعة الحركة ودفعة الحياة .. وتوجه الجهد البشرى فى حذر وتحرج ، فلا يعتدى ، ولا يتهور ، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح .

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح ، عاملة فى الأرض ، متطلعة إلى السماء ، متحررة من الهوى والطغيان البشرى ، عابدة خاشعة لله .. تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه . فلا جرم تحفها البركة ، ويعمها الخير ، ويظلها الفلاح .. والمسألة - من هذا الجانب - مسألة واقع منظور - إلى جانب لطف الله المستور - واقع له علله وأسبابه الظاهرة ، إلى جانب قدر الله الغيبى الموعود ..

والبركات التى يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون ، فى توكيد ويقين ، ألوان شتى لا يفصلها النص ولا يحددها . وإيحاء النص القرآنى يصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان . فهى البركات بكل أنواعها وألوانها ، وبكل صورها

Marfat.com

وأشكالها ، ما يعهده الناس وما يتخيلونه ، وما لم يتهيأ لهم فى واقع ولا خيال !

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة ، لاصلة لها بواقع الناس فى الأرض ، لا يعرفون الإيمان ولا يعرفون الحياة ! وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله - سبحانه - وكفى بالله شهيدا . ويحققها النظر بأسبابها التى يعرفها الناس :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ..

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمما - يقولون : إنهم مسلمون - مضيقا عليهم فى الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق ! .. ويرى أمما لايؤمنون ولا يتقون ، مفتوحا عليهم فى الرزق والقوة والنفوذ .. فيتساءل : وأين إذن هى السنة التى لاتتخلف ؟

ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون .. لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون فى واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم - سواء القوانين أو القيم والتقاليد - وما أولئك بالمؤمنين . فالمؤمن لايدع عبدا من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبدا من العبيد ربه الذى يصرف حياته بشرعه وأمره .. ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقا . دانت لهم الدنيا، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم فى الرزق .. فهذه هى السنة : « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء » ! فهو الابتلاء بالنعمة الذى مر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة ..وفرق بينه وبين البركات التى يعدها الله من يؤمنون ويتقون. فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح .. وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش فى شقوة ، مهددة فى أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهى قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى . وهى وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذى يعقبه النكال ..

Marfat.com

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى ، بركات فى الأشياء ، وبركات فى النفوس ، وبركات فى المشاعر ، وبركات فى طيبات الحياة .. بركات تنمى الحياة وترفعها فى آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردى والانحلال (١) .

* * *

وبعد أن يقرر السياق القرآنى تلك السنة الجارية . التى يشهد بها تاريخ القرى الخالية . وفى اللحظة التى تنتفض فيها المشاعر ، وترتعش فيها الوجدان ، على مصارع المكذبين الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا ؛ وغرهم ما كانوا فيه من رخاء ونعماء ، فغفلوا عن حكمة الله فى الابتلاء .. فى هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله فى أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون فى النوم واللهو والمتاع :

« أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » ..

أفأمن أهل القرى ــ وتلك سنة الله فى الابتلاء بالضراء والسراء ، والبأساء والنعماء ، وتلك مصارع المكذبين السادرين ، الذين كانوا قبلهم يعمرون هذه القرى ثم تركوها خلفوهم فيها ــ أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله فى غفلة من غفلاتهم ، وغرة من غراتهم ؟ أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله بالهلاك والدمار .. بياتا وهم نائمون .. والإنسان فى نومه مسلوب الإرادة ، مسلوب القوة ، لا يملك أن يحتاط ولا يملك أن يدفع عادية من حشرة صغيرة .. فكيف ببأس الله الجبار ؟ الذى لا يقف له الإنسان فى أشد ساعات صحوه واحتياطه وقوته ؟

أفأمنوا أن يأتيهم بأس الله .. ضحى وهم يلعبون .. واللعب يستغرق اليقظة والتحفز ، ويلهى عن الأهبة والاحتياط . فلا يملك الإنسان ، وهو غارٌ فى لعبه ، أن يدفع عن نفسه مغيرا . فكيف بغارة الله التى لا يقف لها الإنسان وهو فى أشد ساعات جده وتأهبه للدفاع ؟

---

(١) يراجع فصل : « تخبط واضطراب » فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » للمؤلف . وفصل « شهادة التاريخ » وفصل : « شهادة القرن العشرين » فى كتاب : « التطور والثبات » لمحمد قطب

Marfat.com

وإن بأس الله لأشد من أن يقفوا له نائمين أم صاحين . لاعبين أم جادين . ولكن السياق القرآنى يعرض لحظات الضعف الإنسانى ، ليلمس الوجدان البشرى بقوة ، ويثير حذره وانتباهه ، حين يترقب الغارة الطامة الغامرة ، فى لحظة من لحظات الضعف والغرة والفجاءة . وما هو بناج فى يقظة أو غرة . فهذه كتلك أمام بأس الله سواء !

« أفأمنوا مكر الله ؟ »

وتدبيره الخفى للغيب على البشر .. ليتقوه ويحذروه ..

« فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ..

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار . وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار !

أفأمنوا مكر الله ؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين ، الذين هلكوا بذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم ؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم ؟

« أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » ..

إن سنة الله لاتتخلف ؛ ومشيئة الله لاتتوقف . فما الذى يؤمنهم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟ وأن يطبع على قلوبهم فلا يهتدون بعد ذلك ، بل لا يستمعوا إلى دلائل الهدى، ثم ينالهم جزاء الضلال فى الدنيا والآخرة .. ألا إن مصارع الخالين قبلهم ، ووراثتهم لهم ،وسنة الله الجارية .. كل أولئك كان نذيرا لهم أن يتقوا ويحذروا ؛ وأن يطرحوا عنهم الأمن الكاذب ، والاستهتار السادر ، والغفلة المردية ؛ وأن يعتبروا بما كان فى الذين خلوا من قبلهم . عسى ألا يكون فيهم . لوكانوا يسمعون !

وما يريد الله للناس بهذا التحذير فى القرآن أن يعيشوا مفزعين قلقين ؛ يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم فى لحظة من ليل أو نهار . فالفزع الدائم من المجهول ، والقلق الدائم من المستقبل ، وتوقع الدمار فى كل لحظة .. قد تشل طاقة البشر وتشلها ؛ وقد تنتهى بهم إلى اليأس من العمل والنتاج وتنمية الحياة وعمارة الأرض .. إنما يريد الله منهم اليقظة والحساسية والتقوى ، ومراقبة النفس ، والعظة بتجارب البشر ، ورؤية محركات التاريخ الإنسانى ، وإدامة

Marfat.com

الاتصال بالله، وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة.

والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح فى الدنيا والآخرة، إذا هم أرهفوا حساسيتهم به، وإذا هم أخلصوا العبودية له؛ وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحياة. فهو يدعوهم إلى الأمن فى جوار الله لا فى جوار النعيم المادى المغرى. وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة. وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الحياة.

ولقد سلف من المؤمنين بالله المتقين لله سلف ما كان يأمن مكر الله. وما كان يركن إلى سواه. وكان بهذا وذاك عامر القلب بالإيمان، مطمئنا بذكر الله، قويا على الشيطان وعلى هواه، مصلحا فى الأرض بهدى الله، لايخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وهكذا ينبغى أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذى لايدفع، ومن مكر الله الذى لايدرك. لندرك أنه لا يدعو إلى القلق إنما يدعو إلى اليقظة، ولا يؤدى إلى الفزع إنما يؤدى إلى الحساسية، ولا يعطل الحياة إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان.

والمنهج القرآنى ـ مع ذلك ـ إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة، وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة، ويطب لكل منها بالطب المناسب فى الوقت الملائم. فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار الله، حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة. ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله، حين تركن إلى قوى الأرض ومغريات الحياة. وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير [(١)]..

* * *

والآن ـ وقد انتهى السياق من بيان السنة الجارية، ولمس بها الوجدان البشرى تلك اللمسات الموحية ـ يتجه بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى، وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان، ثم عن طبيعة البشر الغالبة كما تجلت فى هذه الأقوام:

« تلك القرى نقص عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات، فما كانوا ليؤمنوا بما

---

(١) راجع بتوسع فصل: « خطوط متقابلة فى النفس الإنسانية » فى كتاب: « منهج التربية الإسلامية » وكتاب: « دراسات فى النفس الإنسانية » لمحمد قطب.

Marfat.com

كذبوا من قبل . كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ..

فهو قصص من عند الله ، ما كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - به من علم ، إنما هو وحى الله وتعليمه .

« ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات » ..

فلم تنفعهم البينات . وظلوا يكذبون بعدها ، كما كذبوا قبلها . ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه . فالبينات لا تؤدى بالمكذبين إلى الإيمان . وليست البينة هى ما كان ينقصهم ليؤمنوا . إنما كان ينقصهم القلب المفتوح ، والحس المرهف والتوجه إلى الهدى . كان ينقصهم الفطرة الحية التى تستقبل وتنفعل وتستجيب . فلما لم يوجهوا قلوبهم إلى موحيات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها ، فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب :

« كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » ..

ولقد تكشفت تلك التجارب عن طبيعة غالبة :

« وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ..

والعهد الذى يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر ، الذى ورد ذكره فى أواخر السورة : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا » ..

وقد يكون هو عهد الإيمان الذى أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسل . ثم انحرفت الخلائف، كما يقع فى كل جاهلية . إذ تظل الأجيال تنحرف شيئا فشيئا حتى تخرج من عهد الإيمان ، وترتد إلى الجاهلية .

وأيا كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به ، ويثبتون عليه . إنما هو الهوى المتقلب ، والطبيعة التى لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم .

« وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ..

منحرفين عن دين الله وعهده القديم .. وهذه ثمرة التقلب ، ونقض العهد ، واتباع

Marfat.com

الهوى .. ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيما على طريقه ، مسترشدا بهداه . فلابد أن تتفرق به السبل ، ولابد أن ينحرف ، ولابد أن يفسق .. وكذلك كان أهل تلك القرى . وكذلك انتهى بهم المطاف ..

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

« وَقَالَ مُوسَى : يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَلَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ : إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ . وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ، قَالُوا : إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ؟ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

« قَالُوا : يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ : أَلْقُوا . فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى : أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ : آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ! إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

Marfat.com

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا : إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ .

« وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ : عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

« وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ . أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا : مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا : يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ » (١٧)

Marfat.com

يتضمن هذا الدرس قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه . من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين ، إلى حلقة إغراقهم أجمعين . ومابين هذه وتلك من المباراة مع السحرة . وغلبة الحق على الباطل . وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون . وتوعد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل . واستعلان الحق فى نفوسهم على هذا التوعد وانتصار العقيدة فى قلوبهم على حب الحياة . ثم ماتلا ذلك من التنكيل ببنى إسرائيل . وأخذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات . ثم أخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وهم يستغيثون بموسى فى كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب . حتى إذا رفع عنهم عادوا لما كانوا فيه ؛ وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . حتى حقت عليهم كلمة الله فى النهاية فأغرقوا فى اليم بتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة ابتلائه ـ وفق السنة الجارية فى أخذ المكذبين بالضراء والسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك ـ ثم إعطاء الخلافة فى الأرض لقوم موسى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة .. لتعقبها فتنة الرخاء ..

وقد اخترنا أن نجعل هذا القطاع من القصة درسا ؛ ونجعل القطاع الآخر الخاص بقصة موسى ـ عليه السلام ـ مع قومه بعد ذلك درسا يليه لاختلاف طبيعة القطاعين ، واختلاف مجالها كذلك ..

والقصة تبدأ هنا بمجمل عن بدئها ونهايتها ، يوحى بالغرض الذى جاءت من أجله فى سياق هذه السورة [1] :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

فيصرح النص بالغرض من سياقة القصة فى هذا الموضع .. إنه النظر إلى عاقبة المفسدين .. وبعد ذلك الإجمال الموحى بالغاية ، تعرض الحلقات التى تفى بهذه الغاية ، وتصورها تفصيلا .

والقصة تقطع إلى مشاهد حية ، تموج بالحركة وبالحوار ، وتزخر بالانفعالات والسمات ، وتتخللها التوجيهات إلى مواضع العبرة فى السياق ، وتكشف عن طبيعة المعركة بين الدعوة إلى « رب العالمين » وبين الطواغيت المتسلطة على عباد الله ، المدعية للربوبية من دون الله ،

(١) يراجع بتوسع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

كما تتجلى روعة العقيدة حين تستعلن ، فلا تخشى سلطان الطواغيت ، ولا تحفل التهديد والوعيد الشديد ..

* * *

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها ، كانت بعثة موسى .. والسياق يعرض القصة من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة ، ثم يعجل بالكشف عن خلاصة استقبالهم لها. كما يعجل بالإشارة إلى العاقبة التى انتهوا إليها . لقد ظلموا بهذه الآيات - أى كفروا وجحدوا - والتعبير القرآنى يكثر من ذكر كلمة « الظلم » وكلمة « الفسق » فى موضع كلمة « الكفر » أو كلمة « الشرك » . وهذه من تلك المواضع التى يكثر ورودها فى التعبير القرآنى ذلك أن الشرك أو الكفر هو أقبح الظلم ، كما أنه كذلك هو أشنع الفسق .. والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى - حقيقة الألوهية وحقيقة التوحيد - ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة فى الدنيا والآخرة . ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة والأرباب المتفرقة .. وليس بعد ذلك ظلم .. ومن ثم فالكفر هو الظلم « والكافرون هم الظالمون » كما يقول التعبير القرآنى الكريم .. وكذلك الذى يكفر أو يشرك إنما يفسق ويخرج عن طريق الله وصراطه المستقيم إلى السبل التى لا تؤدى إليه - سبحانه - إنما تؤدى إلى الجحيم !

ولقد ظلم فرعون وملؤه بآيات الله : أى كفروا بها وجحدوا .

« فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

وهذه العاقبة ستجيء فى السياق عن قريب .. أما الآن فننظر كذلك فى مدلول كلمة : « المفسدين » وهى مرادف لكلمة « الكافرين » أو « الظالمين » فى هذا الموضع .. إنهم ظلموا بآيات الله : أى كفروا بها وجحدوا فانظر كيف كان عاقبة « المفسدين » هؤلاء .

إنهم مفسدون لأنهم « ظلموا » - أى « كفروا وجحدوا » .. ذلك أن الكفر هو أشنع الفساد وأشنع الإفساد .. إن الحياة لا تستقيم ولا تصلح إلا على أساس الإيمان بالله

Marfat.com

الواحد ، والعبودية لإله واحد .. وإن الأرض لتفسد حين لا تتمحض العبودية لله في حياة الناس .. إن العبودية لله وحده معناها أن يكون للناس سيد واحد ، يتوجهون إليه بالعبادة وبالعبودية كذلك ، ويخضعون لشريعته وحدها فتخلص حياتهم من الخضوع لأهواء البشر المتقلبة ، وشهوات البشر الصغيرة ! .. إن الفساد يصيب تصورات الناس كما يصيب حياتهم الاجتماعية حين يكون هناك أرباب متفرقون يتحكمون في رقاب العباد ـ من دون الله ـ وما صلحت الأرض قط ولا استقامت حياة الناس إلا أيام أن كانت عبوديتهم لله وحده ـ عقيدة وعبادة وشريعة ـ وما تحرر « الإنسان » قط إلا في ظلال الربوبية الواحدة .. ومن ثم يقول الله سبحانه عن فرعون وملئه :

« فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » ..

وكل طاغوت يُخضع العباد لشريعة من عنده ، وينبذ شريعة الله ، هو من « المفسدين » الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون !

* * *

وافتتاح القصة على ذلك النحو هو طريقة من طرق العرض القرآنية للقصص . وهذه الطريقة هي المناسبة هنا لسياق السورة ، وللمحور الذي تدور حوله . لأنها تعجل بالعاقبة منذ اللحظة الأولى ـ تحقيقا للهدف من سياقتها ـ ثم تأخذ في التفصيل بعد الإجمال ، فنرى كيف سارت الأحداث إلى نهايتها .

فما الذي كان بين موسى وفرعون وملئه ؟

هنا يبدأ المشهد الأول بينهما :

« وقال موسى : يافرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل . قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم » . .

إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفر .. مشهد اللقاء الأول

Marfat.com

بين الدعوة إلى « رب العالمين » وبين الطاغوت الذى يدعى ويزاول الربوبية من دون رب العالمين !

« وقال موسى : يافرعون ، إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق . قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسل معى بنى إسرائيل » ..

« يافرعون » .. لم يقل له : يامولاى ! كما يقول الذين لايعرفون من هو المولى الحق ! ولكن ناداه بلقبه فى أدب واعتزاز . ناداه ليقرر له حقيقة أمره ، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود :

« إنى رسول من رب العالمين » ..

لقد جاء موسى ـ عليه السلام ـ بهذه الحقيقة التى جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعا .. ألوهية واحدة وعبودية شاملة .. لا. كما يقول الخابطون فى الظلام من « علماء الأديان » ومن يتبعهم فى زعمهم عن « تطور العقيدة » إطلاقا ، وبدون استثناء لما جاء به الرسل من ربهم أجمعين ! .. إن العقيدة التى جاء بها الرسل جميعا عقيدة واحدة ثابتة؛ تقرر ألوهية واحدة للعوالم جميعها . ولا تتطور من الآلهة المتعددة ، إلى التثنية ، إلى الوحدانية فى نهاية المطاف .. فأما جاهليات البشر ـ حين ينحرفون عن العقيدة الربانية ـ فلا حد لتخبطها بين الطواطم والأرواح والآلهة المتعددة والعبادات الشمسية والتثنية والتوحيد المشوب برواسب الوثنية ... وسائر أنواع العقائد الجاهلية .. ولايجوز الخلط بين العقائد السماوية التى جاءت كلها بالتوحيد الصحيح ، الذى يقرر إلها واحدا للعالمين ؛ وتلك التخبطات الجاهلية المنحرفة عن دين الله الصحيح .

ولقد واجه موسى ـ عليه السلام ـ فرعون وملأه بهذه الحقيقة الواحدة ، التى واجه بها كل نبى ـ قبله أو بعده ـ عقائد الجاهلية الفاسدة .. واجهه بها وهو يعلم أنها تعنى الثورة على فرعون وملئه ودولته ونظام حكمه .. إن ربوبية الله للعالمين تعنى ـ أول ما تعنى ـ إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره ؛ وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له ـ من دون الله ـ بإخضاعهم لشرعه هو وأمره .. واجهه بهذه الحقيقة الهائلة بوصفه رسولا من رب العالمين .. ملزما ومأخوذا بقول الحق على ربه الذى أرسله

Marfat.com

« حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق » ..

فما كان الرسول الذي يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو يعلم قدره ؟ ويجد حقيقته - سبحانه - في نفسه ..

« قد جئتكم ببينة من ربكم » ..

تدلكم على صدق قولي : إني رسول من رب العالمين .

وباسم تلك الحقيقة الكبيرة .. حقيقة الربوبية الشاملة للعالمين . . طلب موسى من فرعون أن يطلق معه بني إسرائيل ..

إن بني إسرائيل عبيد لله وحده ؛ فما ينبغي أن يعبدهم فرعون لنفسه ! إن الإنسان لا يخدم سيدين ، ولا يعبد إلهين . فمن كان عبدا لله ، فما يمكن أن يكون عبدا لسواه . وإذ كان فرعون إنما يعبد بني إسرائيل لهواه ؛ فقد أعلن له موسى أن رب العالمين هو الله . وإعلان هذه الحقيقة ينهي شرعية ما يزاوله فرعون من تعبيد بني إسرائيل !

إن إعلان ربوبية الله للعالمين هي بذاتها إعلان تحرير الإنسان . تحريره من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله . تحريره من شرع البشر ، ومن هوى البشر ، ومن تقاليد البشر ، ومن حكم البشر .

وإعلان ربوبية الله للعالمين لا يجتمع مع خضوع أحد من العالمين لغير الله ؛ ولا يجتمع مع حاكمية أحد بشريعة من عنده للناس .. والذين يظنون أنهم مسلمون بينما هم خاضعون لشريعة من صنع البشر - أي لربوبية غير ربوبية الله - واهمون إذا ظنوا لحظة واحدة أنهم مسلمون ! إنهم لا يكونون في دين الله لحظة واحدة وحاكمهم غير الله ، وقانونهم غير شريعة الله . إنما هم في دين حاكمهم ذاك . في دين الملك لا في دين الله !

وعلى هذه الحقيقة أمر موسى - عليه السلام - أن يبني طلبه من فرعون إطلاق بني إسرائيل :

« يا فرعون إني رسول من رب العالمين » ... « فأرسل معي بني إسرائيل » ...

مقدمة ونتيجة .. تتلازمان ولا تفترقان ..

ولم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان . إعلان ربوبية الله للعالمين .. لم يغب عنهم أن

Marfat.com

هذا الإعلان يحمل فى طياته هدم ملك فرعون ، وقلب نظام حكمه ، وإنكار شرعيته ، وكشف عدوانه وطغيانه .. ولكن كان أمام فرعون وملئه فرصة أن يظهروا موسى بمظهر الكاذب الذى يزعم أنه رسول من رب العالمين بلا بينة ولا دليل :

« قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين » ..

ذلك أنه إذا اتضح أن هذا الداعية إلى ربوبية رب العالمين كاذب فى دعواه ؛ سقطت دعوته، وهان أمره ؛ ولم يعد لهذه الدعوة الخطيرة من خطر — وصاحبها دعىّ لا بينة عنده ولا دليل !

ولكن موسى يجيب :

« فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » ..

إنها المفاجأة ! إن العصا تنقلب ثعبانا لا شك فى ثعبانيته .. « مبين » .. وكما قيل فى سورة أخرى : « فإذا هى حية تسعى »(١) .. ثم إن يده السمراء — وقد كان موسى عليه السلام « آدم » أى مائلا إلى السمرة — يخرجها من جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء ، بيضاء ليست عن مرض ، ولكنها المعجزة ، فإذا أعادها إلى جيبه عادت سمراء !

هذه هى البينة والآية على الدعوى التى جاء بها موسى .. إنى رسول من رب العالمين .

ولكن هل يستسلم فرعون وملؤه لهذه الدعوى الخطيرة ؟ هل يستسلمون لربوبية رب العالمين ؟ وعلام إذن يقوم عرش فرعون وتاجه وملكه وحكمه ؟ وعلام يقوم الملأ من قومه ومراكزهم التى هى من عطاء فرعون ورسمه وحكمه ؟

علام يقوم هذا كله إن كان الله هو « رب العالمين » ؟

إنه إن كان الله هو « رب العالمين » فلا حكم إلا لشريعة الله ، ولا طاعة إلا لأمر الله .. فأين يذهب شرع فرعون وأمره إذن ، وهو لا يقوم على شريعة الله ولا يرتكن إلى أمره ؟ .. إن الناس لا يكون لهم « رب » آخر يعبدهم لحكمه وشرعه وأمره ، إن كان الله هو ربهم .. إنما يخضع الناس لشرع فرعون وأمره حين يكون ربهم هو فرعون . فالحاكم — بأمره وشرعه — هو رب الناس . وهم فى دينه أيا كان !

---

(١) علماء الحيوان يفرقون بين « الثعابين » و « الحيات » ولكنها من فصيلة واحدة ..

Marfat.com

كلا ! إن الطاغوت لايستسلم هكذا من قريب . ولايسلم ببطلان حكمه وعدم شرعية سلطانه بمثل هذه السهولة !

وفرعون وملؤه لايخطئون فهم مدلول هذه الحقيقة الهائلة التى يعلنها موسى . بل إنهم ليعلنونها صريحة . ولكن مع تحويل الأنظار عن دلالتها الخطيرة ، باتهام موسى بأنه ساحر عليم :

« قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ » . .

إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التى تتقرر من إعلان تلك الحقيقة .. إنها الخروج من الأرض .. إنها ذهاب السلطان .. إنها إبطال شرعية الحكم .. أو .. محاولة قلب نظام الحكم ! .. بالتعبير العصرى الحديث !

إن الأرض لله . والعباد لله . فإذا ردت الحاكمية فى أرض لله ، فقد خرج منها الطغاة ، الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى ، فيعبدون الناس لهذه الأرباب !

هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة .. وكذلك يدركها الطواغيت فى كل مرة .. لقد قال الرجل العربى - بفطرته وسليقته - حين سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله : « هذا أمر تكرهه الملوك ! » . وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته : « إذن تحاربك العرب والعجم » .. لقد كان هذا العربى وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عربا كانوا أم عجما ! كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها فى حس هؤلاء العرب ، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيدا . فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع فى قلب واحد ، ولا فى أرض واحدة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، مع الحكم بغير شرع الله ! فيكون هناك آلهة مع الله ! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم « مسلمين » .. ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل !

Marfat.com

وهكذا قال الملأ من قوم فرعون ، يتشاورون مع فرعون :

« إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم . فماذا تأمرون ؟ »

واستقر رأيهم على أمر :

« قالوا : أرجه وأخاه ، وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم » ..

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد . وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر . ففي الوثنيات كلها تقريبا يقترن الدين بالسحر ؛ ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها « علماء الأديان ! » فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ! ويقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما بطل السحر ! وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر ! .. إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه : « العلم » !

وقد استقر رأي الملأ من قوم فرعون ، على أن يرجىء فرعون موسى إلى موعد . وأن يرسل في أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة . ذلك ليواجهوا « سحر موسى » - بزعمهم - بسحر مثله .

وعلى كل ما عرف من طغيان فرعون ، فقد كان في تصرفه هذا أقل طغيانا من طواغيت كثيرة في القرن العشرين ؛ في مواجهة دعوة الدعاة إلى ربوبية رب العالمين ! وتهديد السلطان الباطل بهذه الدعوة الخطيرة !

* * *

ويطوي السياق القرآني إجراء فرعون وملئه في جمع السحرة من المدائن ؛ ويسدل الستار على المشهد الأول ، ليرفعه على المشهد التالي .. وذلك من بدائع العرض القرآني للقصص ، كأنه واقع منظور ، لا حكاية تروى (١) !

« وجاء السحرة فرعون ، قالوا : إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم لمن المقربين » ..

إنهم محترفون ... يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة ! والأجر هو هدف الاحتراف في هذا

(١) يراجع بتوسع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

Marfat.com

وذلك ! وخدمة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هى وظيفة المحترفين من رجال الدين ! وكلما انحرفت الأوضاع عن إخلاص العبودية لله ، وإفراده - سبحانه - بالحاكمية ؛ وقام سلطان الطاغوت مقام شريعة الله ، احتاج الطاغوت إلى هؤلاء المحترفين ، وكافأهم على الاحتراف ، وتبادل وإياهم الصفقة : هم يقرون سلطانه باسم الدين ! وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين !

ولقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم ، ووعدهم مع الأجر القربى منه ، زيادة فى الإغراء ، وتشجيعا على بذل غاية الجهد .. وهو وهم لايعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل ؛ إنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة القاهرة ، التى لايقف لها الساحرون ولا المتجبرون !

* * *

ولقد اطمأن السحرة على الأجر ، واشرأبت أعناقهم إلى القربى من فرعون ، واستعدوا للحلبة .. ثم هاهم أولاء يتوجهون إلى موسى - عليه السلام - بالتحدى .. ثم يكون من أمرهم ما قسم الله لهم من الخير الذى لم يكونوا يحتسبون ، ومن الأجر الذى لم يكونوا يتوقعون :

« قالوا : ياموسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .. قال : ألقوا » ..

ويبدو التحدى واضحا فى تخييرهم لموسى . وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة ! .. وفى الجانب الآخر تتجلى ثقة موسى - عليه السلام - واستهانته بالتحدى : « قال ألقوا » .. فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة ، وتلقى ظل الثقة الكامنة وراءها فى نفس موسى . على طريقة القرآن الكريم فى إلقاء الظلال ، بالكلمة المفردة فى كثير من الأحايين (١)

ولكن السياق يفاجئنا بما فوجئ به موسى - عليه السلام (٢) - وبينما نحن فى ظلال الاستهانة وعدم المبالاة ، إذا بنا أمام مظهر السحر البارع ، الذى يرهب ويخيف :

---

(١) يراجع فصل : « التناسق الفنى » فى المصدر السابق .

(٢) هذه المفاجأة لموسى لم ينص عليها هنا وإنما جاءت فى سورة طه : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى » .

Marfat.com

« فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم » .

وحسبنا أن يقرر القرآن أنه سحر عظيم ، لندرك أى سحر كان . وحسبنا أن نعلم أنهم سحروا « أعين الناس » وأثاروا الرهبة فى قلوبهم : « واسترهبوهم » لنتصور أى سحر كان . ولفظ « استرهب » ذاته لفظ مصور . فهم استجاشوا إحساس الرهبة فى الناس وقسروهم عليه قسرا . ثم حسبنا أن نعلم من النص القرآنى الآخر فى سورة طه ، أن موسى عليه السلام قد أوجس فى نفسه خيفة لنتصور حقيقة ما كان !

ولكن مفاجأة أخرى تطالع فرعون وملأه ، وتطالع السحرة الكهنة ، وتطالع جماهير الناس فى الساحة الكبرى التى شهدت ذلك السحر المعظم :

« وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ، فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين » . .

إنه الباطل ينتفش ، ويسحر العيون ، ويسترهب القلوب ، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف ، وأنه مُحيق ! وماهو إلا أن يواجه الحق الهادىء الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفىء كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور .. والتعبير القرآنى هنا يلقى هذه الظلال ، وهو يصور الحق واقعا ذا ثقل : « فوقع الحق » .. وثبت ، واستقر .. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود : « وبطل ما كانوا يعملون » .. وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذى كان يبهر العيون :

« فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين » ..

ولكن المفاجأة لم تختم بعد . والمشهد مايزال يحمل مفاجأة أخرى .. مفاجأة كبرى ..

« وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » ..

إنها صولة الحق فى الضمائر . ونور الحق فى المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقى الحق والنور واليقين .. إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه . وهم أعرف الناس بالذى جاء به موسى إن كان من السحر ، والبشر أم من القدرة التى وراء مقدور البشر والسحر . والعالم فى فنه هو أكثر الناس استمدادا للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له ،

Marfat.com

لأنه أقرب إدراكا لهذه الحقيقة ، ممن لايعرفون فى هذا الفن إلا القشور .. ومن هنا تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق ، الذى يجدون برهانه فى أنفسهم عن يقين ..

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب ــ وهى بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ــ . ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذى لم يدرك دبيبه فى القلوب ولم يتابع خطاه فى النفوس ؛ ولم يفطن إلى مداخله فى شعاب الضمائر .. ثم هزته المفاجأة الخطيرة التى تزلزل العرش من تحته : مفاجأة استسلام السحرة ــ وهم من كهنة المعابد ــ لرب العالمين . رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! .. والعرش والسلطان هما كل شئ فى حياة الطواغيت .. وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج فى سبيل المحافظة على الطاغوت :

« قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ! إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها . فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين » ..

هكذا .. « آمنتم به قبل أن آذن لكم ! » .. كأنما كان عليهم أن يستأذنوه فى أن تنتفض قلوبهم للحق ــ وهم أنفسهم لاسلطان لهم عليها ــ أو يستأذنوه فى أن ترتعش وجداناتهم ــ وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئا ــ أو يستأذنوه فى أن تشرق أرواحهم ــ وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها . أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق . أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار . أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين !

ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس ؛ وهو فى الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور !

ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز :

« إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها » ..

وفى نص آخر : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » !

والمسألة واضحة المعالم .. إنها دعوة موسى إلى « رب العالمين » .. هى التى تزعج

Marfat.com

وتخيف .. إنه لا بقاء ولاقرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين . وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته . وإقامة أنفسهم أربابا من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون ، ويعبدون الناس لما يشرعون ! .. إنهما منهجان لا يجتمعان ... أو هما دينان لا يجتمعان .. أو هما ربان لا يجتمعان .. وفرعون كان يعرف وملؤه كانوا يعرفون .. ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين . فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون ، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين !

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشى الفظيع :

« فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين » ..

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل .. وسيلة الطواغيت فى مواجهة الحق ، الذى لايملكون دفعه بالحجة والبرهان . . وعدة الباطل فى وجه الحق الصريح ..

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ، تستعلى على قوة الأرض ، وتستهين بأس الطغاة ؛ وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم . إنها لاتقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى فى الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ .. لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك ، فهى لاتنظر إلى شيء فى الطريق ..

« قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا ، وتوفنا مسلمين » ..

إنه الايمان الذى لا يفزع ولا يتزعزع . كما أنه لا يخضع أو يخنع . الإيمان الذى يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره :

« قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون » ..

والذى يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت .. وأنها معركة العقيدة فى الصميم .. لا يداهن ولا يناور .. ولايرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة ، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة :

Marfat.com

« وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » ..

والذى يعرف أين يتجه فى المعركة ، وإلى من يتجه ؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية. إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام :

« ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين »

ويقف الطغيان عاجزا أمام الإيمان ، وأمام الوعى ، وأمام الاطمئنان .. يقف الطغيان عاجزا أمام القلوب التى خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف فى الأجسام . فإذا هى مستعصية عليه ، لأنها من أمر الله ، لا يملك أمرها إلا الله .. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب فى جوار الله ؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله ؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان !

إنه موقف من المواقف الحاسمة فى تاريخ البشرية . هذا الذى كان بين فرعون وملئه ، والمؤمنين من السحرة .. السابقين ..

إنه موقف حاسم فى تاريخ البشرية . بانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار « الإنسان » على « الشيطان » !

إنه موقف حاسم فى تاريخ البشرية . بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية . فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة . والاستهانة بالقوة المادية التى تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح . ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية فى هذه القلوب .

إنه موقف حاسم فى تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية ! فهذه القلة التى كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز ، وتمنى بالقرب من السلطان .. هى ذاتها التى تستعلى على فرعون ؛ وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب . وما تغير فى حياتها شىء ، ولا تغير من حولها شىء — فى عالم المادة — إنما وقعت اللمسة الخفية التى تسلك الكوكب الفرد فى الدورة الكبرى . وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت ، وتصل الفرد الفانى بقوة الأزل والأبد .. وقعت اللمسة التى تحول الإبرة ، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة ،

Marfat.com

ويتسمع الضمير أصداء الهداية ، وتتلقى البصيرة إشراقات النور .. وقعت اللمسة التى لا تنتظر أى تغيير فى الواقع المادى ؛ ولكنها هى تغير الواقع المادى ؛ وترفع « الإنسان » فى عالم الواقع إلى الآفاق التى لم يكن يطمح إليها الخيال !

ويذهب التهديد . ويتلاشى الوعيد . ويمضى الإيمان فى طريقه . لايتلفت ، ولا يتردد ، ولا يحيد !

ويسدل السياق القرآنى الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد .. إن روعة الموقف تبلغ ذروتها ؛ وتنتهى إلى غايتها . وعندئذ يتلاقى الجمال الفنى فى العرض ؛ مع الهدف النفسى للقصة ، على طريقة القرآن فى مخاطبة الوجـدان الإيمانى بلغة الجمال الفنى ، فى تناسق لا يبلغه إلا القرآن . (١)

* * *

ولكننا نحن فى هذه الظلال ينبغى أن نقف وقفة قصيرة أمام هذا المشهد الباهر الأخاذ ..

◆ نقف ابتداء أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين ، رب موسى وهارون ، يمثل خطرا على نظام ملكهم وحكمهم ؛ لتعارض القاعدة التى يقوم عليها هذا الإيمان ، مع القاعدة التى يقوم عليها ذلك السلطان .. وقد عرضنا لهذا الأمر من قبل .. ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدها .. إنه لايجتمع فى قلب واحد ، ولا فى بلد واحد ، ولا فى نظام حكم واحد ، أن يكون الله رب العالمين ، وأن يكون السلطان فى حياة الناس لعبد من العبيد ، يباشره بتشريع من عنده وقوانين .. فهذا دين وذلك دين ..

◆ ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة ــ بعد أن أشرق نور الإيمان فى قلوبهم ، وجعل لهم فرقانا فى تصورهم ــ أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هى معركة العقيدة ؛ وأنه لاينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين . فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ؛ ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون .. أو بتعبير آخر مرادف : من ربوبية فرعون ؛ ويهدد القيم التى يقوم عليها المجتمع الوثنى كله .. وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضرورى لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده . فهو وحده الذى أهل هؤلاء

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ..

Marfat.com

للمؤمنين للاستهانة بما يلقونه فى سبيله .. إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ؛ وأن عدوهم على دين غير دينهم ؛ لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين .. فهو إذن من الكافرين .. وما يمكن أن يمضى المؤمنون فى طريق الدعوة إلى رب العالمين – على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل – إلا بمثل هذا اليقين بشقيه : أنهم هم المؤمنون ، وأن أعداءهم هم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، ولا ينقمون منهم إلا الدين .

◆ ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة . وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار « الإنسان » على الشيطان . وهو مشهد بالغ الروعة . . نعترف أننا نعجز عن القول فيه . فندعه كما صوره النص القرآنى الكريم !

* * *

ثم نعود إلى سياق القصة القرآنى . . حيث يرفع الستار عن مشهد رابع جديد . . إنه مشهد التآمر والتناجى بالإثم والتحريض . بعد الهزيمة والخذلان فى معركة الإيمان والطغيان . مشهد الملأ من قوم فرعون يكبر عليهم أن يذهب موسى ناجيا والذين آمنوا معه – وما آمن له إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . كما جاء فى موضع آخر من القرآن – فإذا الملأ يتناجون بالشر والإثم ، وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه ؛ ويخوفونه عاقبة التهاون فى أمرهم ؛ من ضياع الهيبة والسلطان ؛ باستشراء العقيدة الجديدة ، فى ربوبية الله العالمين. فإذا هو هائج مائج ، مهدد متوعد ، مستعز بالقوة الغاشمة التى بين يديه ، وبالسلطان المادى الذى يرتكن إليه !

« وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال : سنقتل أبناءهم ، ونستحيى نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون » . .

إن فرعون لم يكن يدعى الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره ؛ أو أن له سلطانا فى عالم الأسباب الكونية . إنما كان يدعى الألوهية على شعبه المستذل ! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقانونه ؛ وأنه بإرادته وأمره تمضى الشئون وتقضى الأمور . وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه ، وتمضى الشؤون وتقضى الأمور بإرادته وأمره

Marfat.com

ـ وهـذه هي الربوبية بمعناها اللغوى والواقعي ـ كذلك لم يكن الناس في مصر يعبدون فرعون بمعنى تقديم الشعائر التعبدية له ـ فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها كذلك ، كما هو ظاهر من قول الملأ له : « ويذرك وآلهتك » وكما يثبت المعروف من تاريخ مصر الفرعونية . إنما هم كانوا يعبدونه بمعنى أنهم خاضعون لما يريده بهم ، لا يعصون له أمرا ، ولا ينقضون له شرعا . . وهذا هو المعنى اللغوى والواقعي والاصطلاحي للعبادة . . فأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه ، وذلك هو تفسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله... الآية » عندما سمعها منه عدى ابن حاتم ـ وكان نصرانيا جاء ليسلم ـ فقال : يارسول الله ما عبدوهم . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ؛ فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » ... (أخرجه الترمذى) .

أما قول فرعون لقومه : « ما علمت لكم من إله غيرى » . . فيفسره قوله الذى حكاه القرآن عنه : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هـذا الذى هو مهين . ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟ » . . وظاهر أنه كان يوازن بين ما هو فيه من ملك ومن أسورة الذهب التى يحلى بها الملوك ، وبين ما فيه موسى من تجرد من السلطان والزينة ! . . وما قصد بقوله : « ما علمت لكم من إله غيرى » إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذى يسيرهم كما يشاء ؛ والذى يتبعون كلمته بلا معارض ! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوى ! وهى فى الواقع ألوهية . فالإله هو الذى يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم ! سواء قالها أم لم يقلها[1] !

وعلى ضوء هذا البيان نملك أن نفهم مدلول قول ملأ فرعون :

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك ؟ » ..

فالإفساد فى الأرض ـ من وجهة نظرهم ـ هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده ؛ حيث يترتب عليها تلقائيا بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إذ أن هـذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره ـ أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه ـ وإذن فهو

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « المصطلحات الأربعة » للمسلم الصادق السيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان .

Marfat.com

- بزعمهم - الإفساد فى الأرض ، بقلب نظام الحكم ، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماما لهذه الأوضاع ، الربوبية فيه لله لا للبشر . ومن ثم قرنوا الإفساد فى الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التى يعبدها هو وقومه . .

ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التى تعبد فيها هذه الآلهة . . بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة ! وهى بنوة ليست حسية ! فلقد كان الناس يعرفون جيدا أن الفرعون مولود من أب وأم بشريين . إنما كانت بنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته . فإذا عبد موسى وقومه رب العالمين ، وتركوا هذه الآلهة التى يعبدها المصريون ، فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذى يستمد منه فرعون سلطانه الروحى على شعبه المستخف ؛ الذى إنما يطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح . . وذلك كما يقول الله سبحانه : « فاستخف قومه فأطاعوه . . إنهم كانوا قوما فاسقين » فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ . . وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه ، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله . . فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت ، ولا يمكن أن يطيع له أمرا ، وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله . . ومن هنا كان يجىء التهديد لنظام حكم فرعون كله بدعوة موسى - عليه السلام - إلى « رب العالمين » وإيمان السحرة بهذا الدين ، وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك وعبادتهم لرب العالمين . . ومن هنا يجىء التهديد لكل وضع يقوم على ربوبية البشر للبشر من الدعوة إلى ربوبية الله وحده . . أو من شهادة أن لا إله إلا الله . . حين تؤخذ بمدلولها الجدى الذى كان الناس يدخلون به فى الإسلام . لا بمدلولها الباهت الهزيل الذى صار لها فى هذه الأيام !

ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فرعون ، وأشعرته بالخطر الحقيقى على نظامه كله فانطلق يعلن عزمه الوحشى البشع :

« قال : سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون » :

وكان بنو إسرائيل قد عانوا من قبل - فى إبان مولد موسى - مثل هذا التنكيل الوحشى

Marfat.com

من فرعون وملئه كما يقول الله تعالى فى سورة القصص : « إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين » ..

إنه الطغيان فى كل مكان وفى كل زمان . لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام ..!

***

ويدع السياق فرعون وملأه يتآمرون ، ويسدل الستار على مشهد التآمر والوعيد ، ليرفعه على مشهد خامس من مشاهد القصة ندرك منه أن فرعون قد مضى ينفذ الوعيد .. إنه مشهد النبي موسى - عليه السلام - مع قومه ، يحدثهم بقلب النبي ولغته ، ومعرفته بحقيقة ربه ؛ وبسنته وقدره ، فيوصيهم باحتمال الفتنة ، والصبر على البلية ، والاستعانة بالله عليها . ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني . فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده . والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحدا سواه .. فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذى يحل بهم قد حل بهم من قبل أن يأتيهم ، وهو يحل بهم كذلك بعد ماجاءهم ، حيث لا تبدو له نهاية ، ولا يلوح له آخر ! أعلن لهم رجاءه فى ربه أن يهلك عدوهم ، ويستخلفهم فى الأرض ليبتليهم فى أمانة الخلافة :

« قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا . قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون » .

إنها رؤية « النبي » لحقيقة الألوهية وإشراقها فى قلبه . ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التى تعمل فيه . ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون ..

إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد ، وهو الملاذ الحصين الأمين ، وإلا ولى واحد وهو الولى القوى المتين . وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى بالنصرة فى الوقت الذى يقدره بحكمته وعلمه . وألا يعجلوا ، فهم لا يطلعون الغيب ، ولا يعلمون الخير ..

وإن الأرض لله . وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها . والله يورثها من يشاء من عباده -

Marfat.com

وفق سنته وحكمته ـ فلا ينظر الداعون الى رب العالمين ، إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها .. فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها !

وإن العاقبة المتقين .. طال الزمن أم قصر . . فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير . ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد ، فيحسبونهم باقين ..

إنها رؤية « النبي » لحقائق الوجود الكبير . .

ولكن إسرائيل هي إسرائيل !

« قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا » .:

إنها كلمات ذات ظل ! وإنها لتشى بما وراءها من تبرم ! أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيء بمجيئك . وطال هذا الأذى حتى ماتبدو له نهاية !

ويمضي النبي الكريم على نهجه . يذكرهم بالله ، ويعلق رجاءهم به ، ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم . واستخلافهم في الأرض . مع التحذير من فتنة الاستخلاف .

« قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض ، فينظر كيف تعملون » .

إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله ، تجرى وفق وعده ، للصابرين ، وللجاحدين ! ويرى من خلال سنة الله هلاك الطاغوت وأهله ، واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده . فيدفع قومه دفعا إلى الطريق لتجرى بهم سنة الله إلى مايريد . . وهو يعلمهم – منذ البدء ـ أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم : ليس أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ كما زعموا ـ فلا يعذبهم بذنوبهم ! وليس جزافا بلا غاية . وليس خلودا بلا توقيت . إنه استخلاف للامتحان : «فينظر كيف تعملون » . . وهو سبحانه يعلم ماذا سيكون قبل أن يكون . ولكنها سنة الله وعدله ألا يحاسب البشر حتى يقع منهم في العيان ، ماهو مكشوف من الغيب لعلمه القديم .

***

ويدع السياق موسى وقومه ويسدل عليهم الستار ، ليرفعه من الجانب الآخر على مشهد سادس : مشهد فرعون وآله ، يأخذهم الله بعاقبة الظلم والطغيان ؛ ويحقق وعد موسى لقومه ،

Marfat.com

ورجاءه فى ربه ؛ ويصدق النذير الذى يظلل جو السورة ، وتساق القصة كلها لتصديقه .

ويبدأ المشهد هونا ؛ ولكن العاصفة تتمشى فيه شيئا فشيئا ، فإذا كان قبيل إسدال الستار دمدمت العاصفة ، فدمرت كل شىء ، وعصفت بكل شىء ، وخلا وجه الأرض من الطاغية وذيول الطاغية ، وعلمنا أن بنى إسرائيل قد صبروا فلقوا جزاء صبرهم الحسنى ، وأن فرعون وآله فجروا فلقوا جزاء فجورهم الدمار وصدق وعد الله ووعيده ؛ وجرت سنة الله فى أخذ المكذبين بالهلاك بعد أخذهم بالضراء والسراء :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ! وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم .. آيات مفصلات . . فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا : ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ؛ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل . . بما صبروا . . ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » . .

لقد مضى فرعون وملؤه إذن فى جبروتهم ؛ ونفذ فرعون وعيده وتهديده ، فقتل الرجال واستحيا النساء . ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون فرج الله ، ويصبرون على الابتلاء . . وعندئذ . . عند ما تمحص الموقف : إيمان يقابله الكفر . وطغيان يقابله الصبر . وقوة أرضية تتحدى الله . . عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين المتجبرين والصابرين :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » . .

إنها إشارة التحذير الأولى . . الجدب ونقص الثمرات .. و « السنين » تطلق فى اللغة

Marfat.com

على سنى الجدب والشدة والقحط . وهى فى أرض مصر ، المخصبة المثمرة المعطاء ، تبدو ظاهرة تلفت النظر ، وتهز القلب ، وتثير القلق ، وتدعو إلى اليقظة والتفكر ؛ لولا أن الطاغوت والذين يستخفهم الطاغوت ــ بفسقهم عن دين الله ــ فيطيعونه ، لا يريدون أن يتدبروا ولا أن يتفكروا ؛ ولا يريدون أن يروا يد الله فى جدب الأرض ونقص الثمرات ؛ ولا يريدون أن يتذكروا سنن الله ووعده ووعيده ؛ ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية .. لأن هذه العلاقة من عالم الغيب .. وهم أغلظ حسا وأجهل قلبا من أن يروا وراء الواقع المحسوس – الذى تراه البهائم وتحسه ولا ترى غيره ولا تحسه ـ شيئا ! وإذا رأوا شيئا من عالم الغيب لم يتفطنوا إلى سنة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة ؛ وإنما نسبوه إلى المصادفات العابرة ، التى لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة(١) .

وكذلك لم يتنبه آل فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالة على رحمة الله بعباده ــ حتى وهم يكفرون ويفجرون . كانت الوثنية وخرافاتها قد أفسدت فطرتهم ؛ وقطعت مابينهم وبين إدراك النواميس الدقيقة الصحيحة التى تصرف هذا الكون ، كما تصرف حياة الناس ؛ والتى لا يراها ولا يدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيمانا صحيحا .. الذين يدركون أن هذا الوجود لم يخلق سدى ، ولا يمضى عبثا ، إنما تحكمه قوانين صارمة صادقة .. وهذه هى « العقلية العلمية » الحقيقية . وهى عقلية لا تنكر « غيب الله » لأنه لاتعارض بين « العلمية » الحقيقية و « الغيبية » ؛ ولاتنكر العلاقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة ، لأن وراءها الله الفعال لما يريد ؛ الذي يريد من عباده الإيمان وهو يريد منهم الخلافة فى الأرض ، والذى يسن لهم من شريعته ما يتناسق مع القوانين الكونية ليقع التناسق بين حركة قلوبهم وحركتهم فى الأرض ..

لم يتنبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله ، وبغيهم وظلمهم لعباد الله .. وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات .. فى مصر التى تفيض بالخصب والعطاء ، ولا

---

(١) عندما نقصت الغلات فى روسيا الشيوعية وفى المعسكر الشيوعى كله .. لم يجد خروشوف إلا أن يقول : إن « الطبيعة » تعاكسنا ! وهو الرجل الذى يدعى « الاشتراكية العلمية ! » وينكر « الغيبية » ! .. إنه العمى عن رؤية يد الله القاهرة .. وإلا فما هى هذه « الطبيعة » التى لها إرادة « تعاكس » بها البشر ؟

Marfat.com

تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لتسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون !

لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التي شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقا طبيعيا لهم ! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم .

« فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ! وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » ..

وحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله ، فإنها لا ترى يده - سبحانه - في تصريف هذا الوجود ؛ ولا ترى قدره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث . وعندئذ تفقد إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية الثابتة النافذة . فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة . لا صلة بينها ولا قاعدة ولا ترابط ؛ وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة ؛ لا تلتقي عند قاعدة ، ولا تجتمع وفق نظام - وذلك كالذي قاله خروشوف صاحب الاشتراكية « العلمية ! » عن معاكسة « الطبيعة ! » لهم في تعليل نقص الثمرات والغلات ! وكما يقول الذين يعضون مع هذه « العلمية » الدعاة في تعليل مثل هذه الأحداث .. وهم ينكرون قدر الله .. وفيهم من يدعى بعد استنكار غيب الله وقدر الله أنه « مسلم » وهو ينكر أصول الإيمان بالله !

وهكذا مضى فرعون وآله يعللون الأحداث .. الحسنة التي تصيبهم هي من حسن حظهم وهم يستحقونها . والسيئة التي تصيبهم هي بشؤم موسى ومن معه عليهم ، ومن تحت رأسهم !

وأصل « التطير » في لغة العرب ما كان الجاهليون في وثنيتهم وشركهم وبعدهم عن إدراك سنن الله وقدره يزاولونه .. فقد كان الرجل منهم إذا أراد أمرا ، جاء إلى عش طائر فهيجه عنه ، فإذا طار عن يمينه - وهو السانح - استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يريده . وإذا طار الطائر عن شماله - وهو البارح - تشاءم به ورجع عما عزم عليه ! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي ؛ وأحل محله التفكير « العلمى » - العلمي الصحيح - وأرجع الأمور إلى سنن الله الثابتة في الوجود ؛ وإلى قدر الله الذي يحقق هذه السنن في كل مرة تتحقق فيها ؛ وأقام الأمور على أسس « علمية » يحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده ؛ وتوضع في موضعها الصحيح ، في إطار المشيئة الإلهية الطليقة ، وقدره النافذ المحيط :

Marfat.com

« ألا إنما طائرهم عند الله ؛ ولـكن أكثرهم لا يعلمون » ..

إن مايقع لهم مصدره كله واحد .. إنه من أمر الله .. ومن هـذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء . وتصيبهم السيئة للابتلاء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .. ويصيبهم النكال للجزاء .. ولـكن أكثرهم لا يعلمون .. كالذين ينكرون غيب الله وقدره فى هـذه الأيام باسم « العقلية العلمية » ! وكالذين ينسبون إلى الطبيعة الماكسة باسم « الاشتراكية العلمية » كذلك !!! وكلهم جهال .. وكلهم لا يعلمون !

ويمضى آل فرعون فى عتوهم ، تأخذهم العزة بالإثم ؛ ويزيدهم الابتلاء شماسا وعنادا :

« وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » ..

فهو الجموح الذى لا تروضه تذكرة ؛ ولا يرده برهان ؛ ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر ، لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان ـ قطعا للطريق على البرهان ! ـ وهى حالة نفسية تصيب المتجبرين حين يدمغهم الحق ، وتجبههم البينة ، ويطاردهم الدليل .. بينما هواهم ومصلحتهم وملكهم وسلطانهم .. كله فى جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل !

عندئذ تتدخل القوة الكبرى سافرة بوسائلها الجبارة :

« فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .. آيات مفصلات .. »

للإنذار والابتلاء .. آيات مفصلات .. واضحة الدلالة ، منسقة الخطوات ، تتبع الواحدة منها الأخرى ، وتصدق اللاحقة منها السابقة .

ولقد جمع السياق هنا تلك الآيات المفصلة ، التى جاءتهم مفرقة . واحدة واحدة . وهم فى كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو لهم ربه لينقذهم منها ؛ ويعدونه أن يرسلوا معه بنى إسرائيل إذا أنجاهم منها ، وإذا رفع عنهم هـذا « الرجز » ، أى العذاب ، الذى لا قبل لهم بدفعه :

« ولما وقع عليهم الرجز قالوا : ياموسى ادع لنا ربك ـ بما عهد عندك ـ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل » ..

وفى كل مرة ينقضون عهدهم ، ويعودون إلى ماكانوا فيه قبل رفع العذاب عنهم وفق قدر الله فى تأجيلهم إلى أجلهم المقدور لهم :

Marfat.com

« فلما كشفنا عنهم الرجز - إلى أجل هم بالغوه - إذا هم ينكثون » ..

جمع السياق الآيات كلها ، كأنما جاءتهم مرة واحدة . وكأنما وقع النكث منهم مرة واحدة. ذلك أن التجارب كلها كانت واحدة ، وكانت نهايتها واحدة كذلك . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصص يجمع فيها البدايات لتماثلها ؛ ويجمع فيه النهايات لتماثلها كذلك .. ذلك أن القلب المغلق المطموس يتلقى التجارب المنوعة وكأنها واحدة ؛ لا يفيد منها شيئا ، ولا يجد فيها عبرة ..

فأما كيف وقعت هذه الآيات ، فليس لنا وراء النص القرآني شيء . ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها شيئا . ونحن على طريقتنا في هذه « الظلال » نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع . لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة. وذلك تحرزا من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها ؛ والتي تسربت - مع الأسف - إلى التفاسير القديمة كلها ، حتى ماينجو منها تفسير واحد من هذه التفاسير ؛ وحتى إن تفسير الإمام ابن جرير الطبري - على نفاسة قيمته - وتفسير ابن كثير كذلك - على عظيم قدره - لم ينجوا من هذه الظاهرة الخطيرة ..

وقد وردت روايات شتى في شأن هذه الآيات عن ابن عباس ، وعن سعيد ابن جبير ، وعن قتادة ، وعن ابن إسحاق .. رواها أبو جعفر ابن جرير الطبري في تاريخه وفي تفسيره . وهذه واحدة منها :

« حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يعقوب القمي ، عن جعفر ابن المغيرة ، عن سعيد ابن جبير قال : لما أتى موسى فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل ، فأبى عليه ، فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئا ، فخافوا أن يكون عذابا ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ! فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ؛ فأنبت لهم في تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ . فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ! فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع . فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك

Marfat.com

فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ! فدعا ربه ، فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ! فداسوا [1] وأحرزوا فى البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ! فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو السوس الذى يخرج منه ـ فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة [2] . فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل ، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ! فدعا ربه فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل . فبينا هو جالس عند فرعون ، إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ماتلق أنت وقومك من هـذا ! فقال : وماعسى أن يكون كيد هذا ؟ ! فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ، ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع فى فيـه . فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هـذه الضفادع ، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ! فكشف عنهم فلم يؤمنوا . فأرسل الله عليهم الدم،فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار ، أو ما كان فى أوعيتهم، وجدوه دما عبيطا [3] . فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم ، وليس لنا شراب ! فقال : إنه قد سحركم ! فقالوا : من أين سحرنا ، ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا ؟ فأتوه فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هـذا الدم ، فنؤمن لك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ! فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل » .

والله أعلم أى ذلك كان .. والصورة التى جاءت بها هذه الآيات لا يؤثر اختلافها فى طبيعة هذه الآيات . فالله ـ سبحانه ـ أرسلها بقدره ، فى وقت معين ، ابتلاء لقوم معينين ؛ وفق سنته فى أخذ المكذبين بالضراء لعلهم يتضرعون .

ولقد كان قوم فرعون على وثنيتهم وجاهليتهم،وعلى استخفاف فرعون بهم لفسقهم ، يلجأون إلى موسى ـ عليه السلام ـ ليدعو ربه بما عهد عنده ، ليكشف عنهم البلاء .. وإن كانت السلطات الحاكمة بعد ذلك تنكث ولا تستجيب . لأنها تقوم على ربوبية فرعون للبشر؛وتفزع من ربوبية الله لهم . إذ أن ذلك معناه هـدم نظام الحكم الذى يقوم على حاكمية فرعون

(١) داسوا : درسوا . (٢) الجريب والقفيز مكيالان للحبوب ، والجريب أربعة أقفزة .
(٣) عبيطا : طريا .

Marfat.com

لا حاكمية الله ! .. أما أهل الجاهلية الحديثة فإن الله يسلط الآفات على زروعهم ، فلا يريدون أن يرجعوا إلى الله البتة ! وإذا أحس أصحاب الزروع من الفلاحين يد الله فى هذه الآفات ، ـ وهو الشعور الفطرى حتى فى النفوس الكافرة فى ساعات الخطر والشدة ! ـ واتجهوا إلى الله بالدعاء أن يكشف عنهم البلاء ، قال لهم أصحاب « العلمية ! » الكاذبة : هـذا الاتجاه خرافة « غيبية ! » وتنـدروا عليهم وسخروا منهم ! ليردوهم إلى كفر أشـد وأشنـع من كفر الوثنيين !

ثم تجىء الخاتمة ـ وفق سنة الله فى أخذ المكذبين بعد الابتلاء بالضراء والسراء ـ وتقع الواقعة . ويدمر الله على فرعون وملئه ـ بعد إذ أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه ـ ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين ، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين .

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » ..

والسياق يختصر هنا فى حادث الإغراق ، ولا يفصل أحداثه كما يفصلها فى مواضع أخرى من السور . ذلك أن الجو هنا هو جو الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ؛ فلا يعرض لشىء من التفصيل .. إن الحسم السريع هنا أوقع فى النفس وأرهب للحس !

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » ..

ضربة واحدة ، فإذا هم هالكون . ومن التعالى والتطاول والاستكبار ، إلى الهوىّ فى الأعماق والأغوار ، جزاء وفاقا :

« بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » ..

فيربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها ، وبين هذا المصير المقدور . ويقرر أن الأحداث لا تجرى مصادفة ، ولا تمضى فلتات عابرة ، كما يظن الغافلون !

وتنسيقا للجو الحاسم يعجل السياق كذلك بعرض الصفحة الأخرى ـ صفحة استخلاف المستضعفين ـ ذلك أن استخلاف بنى إسرائيل ـ فى الفترة التى كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى

Marfat.com

الصلاح وقبل أن يزيغوا فيكتب عليهم الذل والتشرد ـ لم يكن فى مصر ، ولم يكن فى مكان فرعون وآله . إنما كان فى أرض الشام ، وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون ـ بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة كما جاء فى السورة الأخرى ـ ولكن السياق يطوى الزمان والأحداث ، ويعجل بعرض الاستخلاف هنا تنسيقا لصفحتى المشهد المتقابلتين :

« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها. ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون (١) » ..

على أننا نحن البشر ـ الفانين المقيدين بالزمان ـ إنما نقول « قبل » و « بعد » لأننا نؤرخ للأحداث بوقت مرورها بنا وإدراكنا لها ! لذلك نقول : إن استخلاف القوم الذين كانوا يستضعفون ، كان متأخرا عن حادث الإغراق .. ذلك إدراكنا البشرى .. فأما الوجود المطلق والعلم المطلق فما « قبل » عنده وما « بعد » ؟ ! والصفحة كلها معروضة له سواء ، مكشوفة لا يحجبها زمان ولا مكان .. ولله المثل الأعلى . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ..

وهكذا يسدل الستار على مشهد الهلاك والدمار فى جانب ؛ وعلى مشهد الاستخلاف والعمار فى الجانب الآخر .. وإذا فرعون الطاغية المتجبر وقومه مغرقون ، وإذا كل ما كانوا يصنعون للحياة ، وما كانوا يقيمون من عمائر فخمة قائمة على عمد وأركان ، وما كانوا يعرشون من كروم وثمار .. إذا هذا كله حطام ، فى ومضة عين ، أو فى بضع كلمات قصار !

مثل يضربه الله للقلة المؤمنة فى مكة ، المطاردة من الشرك وأهله ؛ ورؤيا فى الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته ، مالقيه الذين كانوا يستضعفون فى الأرض ، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة ـ بما صبروا ـ لينظر كيف يعملون !

---

(١) أى يبنون .. وقد يراد بها ما كانوا يعرشون من الحدائق ، وأكثر مايكون فى إقامة كروم العنب على عرائش .

Marfat.com

« وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ،
قَالُوا : يَامُوسَى ! اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَؤُلَاءِ
مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : يُقَتِّلُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ،
وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ، وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ *
وَلَمَّا جَاءَ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ : لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ
انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي . فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ
دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ *
قَالَ : يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ
مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ
عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ،
أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ

Marfat.com

فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قَالُوا : لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ : بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ! أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ : ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ .

« وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ، إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ : عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ،

Marfat.com

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝

« قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

« وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

« وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ : اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ، وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَقُولُوا : حِطَّةٌ ، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۞ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ .

« وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ : لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ؟ قَالُوا : مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ

Marfat.com

رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ؟ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ .

« وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١٧١)

فى هذا الدرس تمضى قصة موسى – عليه السلام – فى حلقة أخرى . . مع قومه بنى إسرائيل ؛ بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ؛ وأغرق فرعون وملأه ؛ ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون . . إن موسى – عليه السلام – لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه ؛ فقد انتهت المعركة مع الطاغوت .. ولكنه يواجه معركة أخرى – لعلها أشد وأقسى وأطول أمدا – إنه يواجه المعركة مع « النفس البشرية ! » يواجهها مع رواسب الجاهلية فى هذه النفس ؛ ويواجهها مع رواسب الذل الذى أفسد طبيعة بنى إسرائيل ؛ وملأها بالالتواء من ناحية ؛ وبالقسوة من ناحية ؛ وبالجبن من ناحية ؛ وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية . وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعا . . فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلا ؛ ومن الحياة فى ظل الإرهاب والخوف والتخفى والالتواء لتفادى الأخطار والعذاب ، والحركة فى الظلام ، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء !

Marfat.com

ولقد عاش بنو إسرائيل فى هـذا العذاب طويلا ؛ عاشوا فى ظل الإرهاب ؛ وفى ظل الوثنية الفرعونية كذلك . عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نساءهم . فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشى ، عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال .

وفسدت نفوسهم ؛ وفسدت طبيعتهم ؛ والتوت فطرتهم ؛ وانحرفت تصوراتهم ؛ وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر .. وهما جانبان متلازمان فى النفس البشرية حيثما تعرضت طويلا للإرهاب والطغيان . .

لقد كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ينظر بنور الله ، فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبيعتها ؛ وهو يقول لعماله على الأمصار موصيا لهم بالناس : « ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم » . . كان يعلم أن ضرب البشرة يذل الناس . وكان الإسلام فى قلبه يريد منه ألا يذل الناس فى حكومة الإسلام وفى مملكة الله . فالناس فى مملكة الله أعزاء ، ويجب أن يكونوا أعزاء ؛ وألا يضربهم الحكام فيذلوهم ، لأنهم ليسوا عبيدا للحكام . . إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله . .

ولقد ضربت أبشار بنى إسرائيل فى طاغوت الفرعونية حتى ذلوا . بل كان ضرب الأبشار هو أخف ما يتعرضون له من الأذى فى فترات الرخاء ! ولقد ضربت أبشار المصريين كذلك حتى ذلوا هم الآخرون واستخفهم فرعون ! ضربت أبشارهم فى عهود الطاغوت الفرعونى ؛ ثم ضربت أبشارهم فى عهود الطاغوت الرومانى .. ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام ، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر .. فلما أن ضرب ابن عمرو ابن العاص ـ فاتح مصر وحاكمها المسلم ـ ظهر ابن قبطى من أهل مصر ـ لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره ما تزال ـ غضب القبطى لسوط واحد يصيب ابنه ـ من ابن فاتح مصر وحاكمها ـ وسافر شهرا على ظهر ناقة ، ليشكو إلى عمر بن الخطاب ـ الخليفة المسلم ـ هذا السوط الواحد الذى نال ابنه ! ـ وكان هو يصبر على السياط منذ سنوات قلائل فى عهد الرومان ـ وكانت هذه هى معجزة البعث الإسلامى لنفوس الأقباط فى مصر ، وللنفوس فى كل مكان ـ حتى لمن لم يعتنقوا الإسلام ـ كانت هذه هى معجزة هذا البعث الذى يستنقذ الأرواح

Marfat.com

من ركام آلاف السنين من الذل القديم ، فتنتفض هكذا انتفاضة الكرامة التى أطلقها الإسلام فى أرواحهم ؛ وما كان غير الإسلام ليطلقها فى مثل هذه الأرواح .

عملية استصلاح نفوس بنى إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعونى هى التى سيواجهها موسى عليه السلام فى هذه الحلقة ـ بعد خروجه ببنى إسرائيل من مصر وتجاوزه بهم البحر ـ وسنرى من خلال القصص القرآنى هذه النفوس ، وهى تواجه الحرية بكل رواسب الذل ؛ وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية ؛ وتواجه موسى ـ عليه السلام ـ بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التى ترسبت فيها على الزمن الطويل !

وسنرى متاعب موسى ـ عليه السلام ـ فى المحاولة الضخمة التى يحاولها ؛ وثقلة الجبلات التى أخلدت إلى الأرض طويلا ، حتى ما تريد أن تنهض من الوحل الذى تمرغت فيه طويلا ، وقد حسبته الأمر العادى الذى ليس غيره !

وسنرى من خلال متاعب موسى ـ عليه السلام ـ متاعب كل صاحب دعوة ، يواجه نفوسا طال عليها الأمد ، وهى تستمرئ حياة الذل تحت قهر الطاغوت ـ وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التى يدعوها إليها ، ثم طال عليها الأمد ، فبهتت صورتها ، وعادت شكلا لا روح فيه !

إن جهد صاحب الدعوة ـ فى مثل هذه الحال ـ لهو جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفا كذلك . . يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات ، وثقلة الطبائع وتفاهة الاهتمامات ؛ ويجب أن يصبر على الانتكاس الذى يفاجئه فى هذه النفوس بعد كل مرحلة ، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة !

ولعل هذا جانب من حكمة الله فى عرض قصة بنى إسرائيل على الأمة المسلمة ، فى هذه الصورة المفصلة المكررة . لترى فيها هذه التجربة . كما قلنا من قبل . ولعل فيها زادا لأصحاب الدعوة إلى الله فى كل جيل .

* * *

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

Marfat.com

قال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؟ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب : يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ..

إنه المشهد السابع فى القصة ـ مشهد بنى إسرائيل بعد تجاوز البحر ـ ونحن فيه وجها لوجه أمام طبيعة القوم المنحرفة المستعصية على التقويم ؛ بما ترسب فيها من ذلك التاريخ القديم . . إن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون الخسف فى ظل الوثنيـة الجاهلية عند فرعون وملئه ؛ ومنذ أن أنقذهم نبيهم وزعيمهم موسى ـ عليه السلام ـ باسم الله الواحد ـ رب العالمين ـ الذى أهلك عدوهم ؛ وشق لهم البحر ؛ وأنجاهم من العذاب الوحشى الفظيع الذى كانوا يسامون . . إنهم خارجون للتو واللحظة من مصر ووثنيتها ؛ ولكن ها هم أولاء ما إن يجاوزوا البحر حتى تقع أبصارهم على قوم وثنيين ، عاكفين على أصنام لهم ، مستغرقين فى طقوسهم الوثنية ؛ وإذا هم يطلبون إلى موسى ـ رسول رب العالمين ـ الذى أخرجهم من مصر باسم الإسلام والتوحيد ، أن يتخذ لهم وثنا يعبدونه من جديد !

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » !

إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام ! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية . وطبيعة بنى إسرائيل ـ كما عرضها القرآن الكريم عرضا صادقا دقيقا أمينا فى شتى المناسبات ـ طبيعة مخلخلة العزيمة ، ضعيفة الروح ، ما تكاد تهتدى حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط ، وما تكاد تمضى فى الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس . . ذلك إلى غلظ فى الكبد ، وتصلب عن الحق ، وقساوة فى الحس والشعور ! وها هم أولاء على طبيعتهم تلك ، ها هم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى ينسو تعليم أكثر من عشرين عاما منذ أن جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ بالتوحيد ـ فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى فى مصر ثلاثة وعشرين عاما منذ أن واجه فرعون وملأه برسالته إلى يوم الخروج من مصر مجتازا ببنى إسرائيل البحر ـ بل حتى ينسوا معجزة اللحظة التى أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين ! وهؤلاء كانوا وثنيين ، وباسم هذه الوثنية استذلوهم ـ حتى إن للملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم : « أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض

Marfat.com

ويذرك وآلهتك ؟ » . . ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم : رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه . . آلهة ! ولو أنهم هم بأنفسهم اتخذوا لهم آلهة لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة . . ولكنها هي إسرائيل ! . .

ويغضب موسى - عليه السلام - غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين - يغضب لربه - سبحانه - ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب:

« قال : إنكم قوم تجهلون » . .

ولم يقل تجهلون ماذا ؟ ليكون في إطلاق اللفظ ما يعني الجهل الكامل الشامل . . الجهل من الجهالة ضد المعرفة ، والجهل من الحماقة ضد العقل ! فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود ! ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة ؛ وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد ؛ وأنه ما من علم ولا عقل يقود إلى غير هذا الطريق . .

إن العلم والعقل يواجهان هذا الكون بنواميسه التي تشهد بوجود الخالق المدبر ؛ وبوحدانية هذا الخالق المدبر . فعنصر التقدير والتدبير بارز في هذه النواميس ، وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفي آثارها التي يكشفها النظر والتدبر - وفق المنهج الصحيح - وما يغفل عن ذلك كله ، أو يعرض عن ذلك كله ، إلا الحمقى والجهال . ولو ادعوا « العلم » كما يدعيه الكثيرون !

ويمضي موسى - عليه السلام - يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون ، بالكشف عن سوء عقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ، فأرادوا أن يقلدوهم :

« إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون » . .

إن ما هم فيه من شرك ، وعكوف على الآلهة ، وحياة تقوم على هذا الشرك ، وتتعدد فيها الأرباب ، ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة ، ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط ... إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد في التصورات وفساد في الحياة ... إن هذا كله هالك باطل ؛ ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار في نهاية المطاف !

Marfat.com

ثم ترتفع نغمة الغيرة فى كلمات موسى - عليه السلام - على ربه والغضب له - سبحانه - والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم - وهى حاضرة ظاهرة - :

« قال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ؟ » ..

والتفضيل على العالمين - فى زمانهم - يتجلى فى اختيارهم لرسالة التوحيد من بين المشركين. وليس وراء ذلك فضل ولا منة . فهذا ما لا يعدله فضل ولا منة . كما أنه اختارهم ليورثهم الأرض المقدسة - التى كانت إذ ذاك فى أيد مشركة - فكيف بعد هذا كله يطلبون إلى نبيهم أن يطلب لهم إلها غير الله ؟ وهم فى نعمته وفضله يتقلبون ؟!

وعلى طريقة القرآن الكريم فى وصل ما يحكيه عن أولياء الله بما يحكيه عن الله - سبحانه - يستطرد السياق بخطاب من الله تعالى موصول بكلام موسى - عليه السلام - موجه كذلك لقومه :

« وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ..

وفى مثل هذا الوصل فى القرآن الكريم ، بين كلام الله - سبحانه - وما يحكيه من كلام أوليائه ، تكريم أى تكريم لهؤلاء الأولياء لا ريب فيه !

وهذه المنة التى يمتنها الله على بنى إسرائيل - فى هذا الموضع - كانت حاضرة فى أذهانهم وأعصابهم . ولقد كانت هذه المنة وحدها كفيلة بأن تذكر وتشكر . . والله سبحانه وتعالى يوجه قلوبهم لما فى ذلك الابتلاء من عبرة .. ابتلاء العذاب وابتلاء النجاة . الابتلاء بالشدة والابتلاء بالرخاء ..

« وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

فما كان شيء من ذلك كله جزافا بلا تقدير . ولكنه الابتلاء للموعظة والتذكير . وللتمحيص والتدريب . وللإعذار قبل الأخذ الشديد . إن لم يفلح الابتلاء فى استصلاح القلوب!

* * *

وينتهى هذا المشهد بين موسى وقومه ، ليبدأ المشهد الثامن الذى يليه .. مشهد تهيؤ موسى - عليه السلام - للقاء ربه العظيم ؛ واستعداده للموقف الهائل بين يديه فى هذه الحياة الدنيا ؛ ووصيته لأخيه هارون - عليه السلام - قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم :

Marfat.com

«وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي ، وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » ..

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أرسل لها . انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه ؛ وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة ، في طريقهم إلى الأرض المقدسة .. ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى .. مهمة الخلافة في الأرض بدين الله .. ولقد رأينا كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ؛ وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى - عليه السلام - ولم يمض إلا القليل ! فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم ؛ وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم .. ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويتلقى عنه . وكانت هذه المواعدة إعدادا لموسى لنفسه ، كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم ، ويستعد لتلقيه .

وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة ، أضيفت إليها عشر ، فبلغت عدتها أربعين ليلة ، يروض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود ؛ وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء ؛ ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل ؛ وتصفو روحه وتشف وتستضيء ؛ وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة ..

وألقى موسى إلى أخيه هارون - قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه - بوصيته تلك :

« وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »..

ذلك وموسى يعلم أن هارون نبي مرسل من ربه معه . ولكن المسلم للمسلم ناصح . والنصيحة حق وواجب للمسلم على المسلم .. ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة ، وهو يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل ! .. وقد تلقى هارون النصيحة . لم تثقل على نفسه ! فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ؛ وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار ، الذين يحسون في النصيحة تنقصا لأقدارهم ! .. إن الصغير هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده ؛ ليظهر أنه كبير !!!

Marfat.com

وأما قصة الليالى الثلاثين وإتمامها بالعشر الليالى فقال عنها ابن كثير فى التفسير : « فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون: فصامها موسى ـ عليه السلام ـ وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين » ..

* * *

ثم يأتى السياق للمشهد التاسع . المشهد الفذ الذى اختص الله به نبيه موسى ـ عليه السلام ـ مشهد الخطاب المباشر بين الجليل ـ سبحانه ـ وعبد من عباده . المشهد الذى تتصل فيه الذرة المحدودة الفانية بالوجود الأزلى الأبدى بلا وساطة ؛ ويطيق الكائن البشرى أن يتلقى عن الخالق الأبدى، وهو بعد على هذه الأرض .. ولا ندرى نحن كيف .. لا ندرى كيف كان كلام الله ـ سبحانه ـ لعبده موسى . ولا ندرى بأية حاسة أو جارحة أو أداة تلقى موسى كلمات الله . فتصوير هذا على وجه الحقيقة متعذر علينا نحن البشر المحكومين فى تصوراتنا بنصيبنا المحدود من الطاقة المدركة ؛ وبرصيدنا المحدود من التجارب الواقعة . ولكننا نملك بالسر اللطيف المستمد من روح الله الذى فى كياننا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق السامق الوضىء . ثم نقف عند هذا الاستشراف لا نحاول أن نفسده بسؤالنا عن الكيفية ، نريد أن نتصورها بإدراكنا القريب المحدود !

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك . قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال : سبحانك ! تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال : ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها . سأريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » .

إننا لفى حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد فى خيالنا وفى أعصابنا وفى كياننا كله .. فى حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تصوره ؛ ولنشعر بشىء من مشاعر موسى عليه السلام فيه ..

Marfat.com

« ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك » ..

إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه ؛ وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى مايشوق ! فينسى من هو ، وينسى ماهو ، ويطلب مالا يكون لبشر فى هذه الأرض ، ومالا يطيقه بشر فى هذه الأرض . . يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع فى زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود .. حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة :

« قال : لن ترانى » ..

ثم يترفق به الرب العظيم الجليل ، فيعلمه لماذا لن يراه .. إنه لا يطيق ..

« ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى » ..

والجبل أمكن وأثبت . والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثراً واستجابة من الكيان البشرى .. ومع ذلك فماذا ؟

« فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » ..

فكيف كان هذا التجلى؟ نحن لا نملك أن نصفه ، ولا نملك أن ندركه . ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التى تصلنا بالله ، حين تشف أرواحنا وتصفو ، وتتجه بكليتها إلى مصدرها . فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئا .. لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلى .. ونحن أميل إلى اطراح كل الروايات التى وردت فى تفسيره ؛ وليس منها رواية عن المعصوم — صلى الله عليه وسلم — والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئا .

« فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » ..

وقد ساخت نتوءاته فبدا مسوَّى بالأرض مدكوكا .. وأدركت موسى رهبة الموقف ، وسرت فى كيانه البشرى الضعيف :

« وخر موسى صعقا » .

مغشيا عليه ، غائبا عن وعيه .

« فلما أفاق » ..

وثاب إلى نفسه ، وأدرك مدى طاقته ، واستشعر أنه تجاوز المدى فى سؤاله :

« قال : سبحانك ! » ..

Marfat.com

تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك .

« تبت إليك » ..

عن تجاوزى للمدى فى سؤالك !

« وأنا أول المؤمنين » ..

والرسل دائما هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله ، وبما ينزله عليهم من كلماته . وربهم يأمرهم أن يعلنوا هذا ، والقرآن الكريم يحكى عنهم هذا الإعلان فى مواضع منه شتى .

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى ؛ فإذا هو يتلقى منه البشرى .. بشرى الاصطفاء ، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص .. وكانت رسالته إلى فرعون وملئه من أجل هذا الخلاص :

« قال : ياموسى ، إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » ..

ونفهم من قول الله سبحانه لموسى - عليه السلام - « إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى » .. أن المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه - فالرسل كانوا قبل موسى وبعده - فهو الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة . أما الكلام فهو الذى تفرد به موسى - عليه السلام - أما أمر الله تعالى لموسى بأخذ ما آتاه ، والشكر على الاصطفاء والعطاء ، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغى أن تقابل به نعمة الله . والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - قدوة للناس ، وللناس فيهم أسوة ؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من النعمة ؛ وإصلاحا للقلب ؛ وتحرزا من البطر ؛ واتصالا بالله ..

ثم يبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة ، وكيف أوتيها موسى :

« وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » ..

وتختلف الروايات والمفسرون فى شأن هذه الألواح ؛ ويصفها بعضهم أوصافا مفصلة - نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التى تسربت إلى التفسير - ولا نجد فى هذا كله شيئا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنكتفى بالوقوف عند النص القرآنى الصادق لا نتعداه .

Marfat.com

وما تزيد تلك الأوصاف شيئا أو تنقص من حقيقة هذه الألواح . أما ما هى وكيف كتبت فلا يعنينا هذا فى شىء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شىء . والمهم هو ما فى هذه الألواح. إن فيها من كل شىء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التى أفسدها الذل وطول الأمد سواء !

« فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » ..

والأمر الإلهى الجليل لموسى ـ عليه السلام ـ أن يأخذ الألواح بقوة وعزم ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم .. هذا الأمر على هذا النحو فضلا على أنه يشى بضرورة هذا الأسلوب فى أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية ، التى أفسدها الذل وطول الأمد ، بالعزم والجد ،لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة ، فإنه ـ كذلك ـ يوحى بالمنهج الواجب فى أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها ..

إن العقيدة أمر هائل عند الله ـ سبحانه ـ وأمر هائل فى حساب هذا الكون ، وقدر الله الذى يصرفه ، وأمر هائل فى تاريخ « الإنسان » وحياته فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة كذلك .. والمنهج الذى تشرعه العقيدة فى وحدانية الله ـ سبحانه ـ وعبودية البشر لربوبيته وحده ، منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها ،ويقيم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذى تجرى عليه فى الجاهلية ، حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله سبحانه ، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذى ينبثق من تلك العقيدة .

وأمر له هذه الخطورة عند الله ، وفى حساب الكون ، وفى طبيعة الحياة وفى تاريخ « الإنسان » .. يجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جديته فى النفس ، وصراحته وحسمه. ولا ينبغى أن يؤخذ فى رخاوة ، ولا فى تميع ، ولا فى ترخص ، ذلك أنه أمر هائل فى ذاته ، فضلا على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها من طبيعته الرخاوة والتميع والترخص ، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر .. .

وليس معنى هذا ـ بطبيعة الحال ـ هو التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض ! فهذا ليس من طبيعة دين الله .. ولكن معناه الجد والهمة والحسم والصراحة .. وهى صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض !

Marfat.com

ولقد كانت طبيعة بنى إسرائيل - بصفة خاصة - بعد ما أفسدها طول الذل والعبودية فى مصر ، تحتاج إلى هذا التوجيه . لذلك نلحظ أن كل الأوامر لبنى إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد ، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية ، على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة ..

ومثل طبيعة بنى إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ما تعرضوا له من طول العبودية والذل ، والخضوع للإرهاب والتعبد للطواغيت ، فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال ، والأخذ بالأسهل تجنبا للمشقة .. كما هو الملحوظ فى واقع كثير من الجماعات البشرية التى نطالعها فى زماننا هذا ، والتى تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها ، وتسير مع القطيع ؛ لأن السير مع القطيع لا يكلفها شيئا !

وفى مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يمكن لهم فى الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه :

« سأريكم دار الفاسقين » ..

والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التى كانت - فى ذلك الزمان - فى قبضة الوثنيين، وأنها بشارة لهم بدخولها .. وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها فى عهد موسى - عليه السلام - لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت ، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قومت ، فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم : «ياموسى إن فيها قوما جبارين . وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ! » .. ثم لما ألح عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله ، فى الدخول والاقتحام ، أجابوا موسى بتوقح الجبان - كالدابة التى ترفس سائقها ! - : « قالوا : إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ! » .. مما يصور تلك الطبيعة الخائرة المتكسة الملتوية التى كانت تعالجها العقيدة والشريعة التى جاء بها موسى عليه السلام ، وأمر هذا الأمر الألهى الجليل أن يأخذها بقوة ، وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة ..

وفى نهاية المشهد والتكليم يجىء بيان لعاقبة الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ،

Marfat.com

ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته ، يتضمن تصويرا دقيقا لطبيعة هذا الصنف من الناس ، فى نصاعة وجمال التصوير القرآنى الفريد لأنماط الطبائع ونماذج النفوس :

« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » ..

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته فى شأن أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . . إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها .. آياته فى كتاب الكون المنظور ، وآياته فى كتبه المنزلة على رسله .. ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين .

وإن هذا النموذج من الناس ليرتسم من خلال الكلمات القرآنية ، كأنما تراه بسماته وحركاته !

« الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » ..

وما يتكبر عبد من عبيد الله فى أرضه بالحق أبدا . فالكبرياء صفة الله وحده . لا يقبل فيها شريكا . وحيثما تكبر إنسان فى الأرض كان ذلك تكبرا بغير الحق ! وشر التكبر ادعاء حق الربوبية فى الأرض على عباد الله ، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله ؟ وتعبيدهم لهذا التشريع الباطل ، ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر . فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث . ومن ثم تجىء بقية الملامح :

« وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » ..

فهى جبلة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رأته ، وتجنح إلى سبيل الغى حيثما لاح لها ؛ كأنما بآلية فى تركيبها لاتتخلف ! وهذه هى السمة التى يرسمها التعبير ، ويطبع بها هذا النموذج المتكبر ، الذى قضت مشيئة الله أن يجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبدا !

Marfat.com

وإن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الخلق بوصفه هذا وسمته وملامحه ، فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه ، ودون تفكير ولا تدبير ! فهو يعمى عن طريق الرشد ويتجنبه ، وينشرح لطريق الغي ويتبعه ! وهو في الوقت ذاته مصروف عن آيات الله لايراها ولايتدبرها ولا تلتقط أجهزته إيحاءاتها وإيقاعاتها !

وسبحان الله ! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصا بارزا حتى ليكاد القارئ يصيح لتوه : نعم . نعم . أعرف هذا الصنف من الخلق . . إنه فلان ! ! ! وإنه للمعنى الموصوف بهذه الكلمات !!!

وما يظلم الله هـذا الصنف من الخلق بهـذا الجزاء المردي المؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة . . إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها ، ويتكبر في الأرض بغير الحق ، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه ، ويهرع إلى سبيل الغي حيثما لاح له ! فإنما بعمله جوزي ؛ وبسلوكه أورد موارد الهلاك .

« ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . .

« والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمـالهم . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » . .

وحبوط الأعمال مأخوذ من قولهم : حبطت الناقة . . إذا رعت نباتا ساما ، فانتفخ بطنها ثم نفقت . . وهو وصف ملحوظ فيه طبيعة الباطل الذي يصدر من المكذبين بآيات الله ولقاء الآخرة . فهو ينتفخ حتى يظنه الناس من عظمة وقوة ! ثم ينفق كما تنفق الناقة التي رعت ذلك النبات السام !

وإنه لجزاء كذلك حق أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة . .

ولـكن كيف تحبط هذه الأعمال ؟

من ناحية الاعتقاد . . نحن نؤمن بصدق وعيد الله لا محالة ؛ أيا كانت الظواهر التي تخالف هذه العاقبة المحتومة . فحيثما كذب أحد بآيات الله ولقائه في الآخرة حبط عمله وبطل ، وهلك في النهاية وذهب كأن لم يكن . .

ومن ناحية النظر . . نحن نجد السبب واضحا في حياة البشر . . إن الذي يكذب بآيات

Marfat.com

الله المبثوثة فى صفحات هذا الكون المنشور ، أو آياته المصاحبة للرسالات ، أو التى يحملها الرسل ؛ ويكذب تبعا لهذا بلقاء الله فى اليوم الآخر . . إن هذا الكائن الممسوخ روح ضالة شاردة عن طبيعة هذا الكون المؤمن المسلم ونواميسه . لا تربطه بهذا الكون رابطة . وهو منقطع عن دوافع الحركة الصادقة الموصولة بغاية الوجود واتجاهه . وكل عمل يصدر عن مثل هذا الممسوخ المقطوع هو عمل حابط ضائع ، ولو بدا أنه قائم وناجح . لأنه لا ينبعث عن البواعث الأصيلة العميقة فى بنية هذا الوجود ؛ ولا يتجه إلى الغاية الكبيرة التى يتجه إليها الكون كله . شأنه شأن الجدول الذى ينقطع عن النبع الأول ؛ فمآله إلى الجفاف والضياع فى يوم قريب أو بعيد !

والذين لا يرون العلاقة الوثيقة بين تلك القيم الإيمانية وحركة التاريخ الإنسانى ؛ والذين يغفلون عن قدر الله الذى يجرى بعاقبة الذين يتنكرون لهذه القيم . . هؤلاء إنما هم الغافلون الذين أعلن الله ـ سبحانه ـ عن مشيئته فى أمرهم ، بصرفهم عن رؤية آياته ، وتدبر سننه . . وقدر الله يتربص بهم وهم عنه غافلون ..

والذين يخدعهم ما يرونه فى الأمد القصير المحدود ، من فلاح بعض الذين يغفلون عن تلك القيم الإيمانية ونجاحهم ؛ إنما يخدعهم الانتفاخ الذى يصيب الدابة وقد رعت النبت السام ؛ فيحسبونه شحما وسمنة وعافية وصحة . . والهلاك يترصدها بعد الانتفاخ والحبوط !

والأمم التى خلت شاهد واقع . ولكن الذين سكنوا مساكنهم من بعدهم ، لا يأخذون منهم عبرة ، ولا يرون سنة الله التى تعمل ولا تتخلف ؛ وقدر الله الذى يجرى ولا يتوقف . . والله من ورائهم محيط . .

* * *

وبينما كان موسى ـ عليه السلام ـ فى حضرة ربه ، فى ذلك الموقف الفريد ، الذى تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار . . كان قوم موسى من بعده يرتكسون وينتكسون ، ويتخذون لهم عجلا جسدا له خوار ـ لا حياة فيه ـ يعبدونه من دون الله !

ويفاجئنا السياق القرآنى بنقلة بعيدة من المشهد التاسع إلى المشهد العاشر . نقلة هائلة من

Marfat.com

الجو العلوى السامق المشرق بسبحاته وأشواقه وابتهالاته وكلماته إلى الجو الهابط المتردى بانحرافاته وخرافاته وارتكاساته وانتكاساته :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار . ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » . .

إنها طبيعة إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق ؛ والتى ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية فى التصور والاعتقاد ؛ والتى يسهل انتكاسها كلما فتر عنها التوجيه والتسديد . .

لقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلها يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم ! فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم ردا شديدا . فلما خلوا إلى أنفسهم ، ورأوا عجلا جسدا من الذهب ـ لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد ـ صنعه لهم السامرى ـ رجل من السامرة كما يجىء تفصيل قصته فى سورة طه ـ واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتا كصوت خوار الثيران . . لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا إليه ، وتهافتوا عليه حين قال لهم السامرى : « هذا إلهكم وإله موسى » الذى خرج موسى لميقاته معه ؛ فنسى موسى موعده معه ـ ربما لزيادة الليالى العشر الأخيرة فى الميقات التى لم يكن القوم يعلمونها ، فلما زاد عن الثلاثين ولم يرجع قال لهم السامرى : لقد نسى موسى موعده مع إلهه فهذا إلهه ! ـ ولم يتذكروا وصية نبيهم لهم من قبل بعبادة ربهم الذى لا تراه الأبصار ـ رب العالمين ـ ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل الذى صنعه لهم واحد منهم ! . . وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التى كان عليها القوم . صورة يعجب منها القرآن الكريم ؛ وهو يعرضها على المشركين فى مكة وهم يعبدون الأصنام !

« ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين ! » . .

وهل أظلم ممن يعبد خلقا من صنع أيدى البشر . والله خلقهم وما يصنعون ؟!

وكان فيهم هارون ـ عليه السلام ـ فلم يملك لهم ردا عن هذا الضلال السخيف . وكان

Marfat.com

فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل الجسد ــ وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل !

وأخيرا هدأت الهيجة ، وانكشفت الحقيقة ، وتبين السخف ، ووضح الضلال ، وجاءت نوبة الندم والإقرار :

« ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » . .

يقال : سقط في يده إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر . . ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا ــ بهذه النكسة ــ إلى موقف لا يملكون دفعه فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا قولتهم هذه :

« لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » . .

وهذه القولة تدل على أنه كان فيهم – إلى ذلك الحين – بقية من استعداد صالح . فلم تكن قلوبهم قد قست كما قست من بعد ــ فهي كالحجارة أو أشد قسوة كما يصفهم من هو أعلم بهم ! ــ فلما أن تبين لهم ضلالهم ندموا وعرفوا أنه لا ينقذهم من عاقبة ما أتوا إلا أن تدركهم رحمة ربهم ومغفرته . . وهذه علامة طيبة على بقية من استعداد في الفطرة للصلاح . .

* * *

كل ذلك وموسى – عليه السلام – بين يدي ربه ، في مناجاة وكلام ، لا يدرى ما أحدث القوم بعده . . إلا أن ينبئه ربه . . وهنا يرفع الستار عن المشهد الحادي عشر :

« ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا . قال : بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني . فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال : رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين » . .

لقد عاد موسى إلى قومه غضبان أشد الغضب . يبدو انفعال الغضب في قوله وفعله . . يبدو في قوله لقومه :

« بئسما خلفتموني من بعدي ! أعجلتم أمر ربكم ؟ » . .

Marfat.com

ويبدو فى فعله إذ يأخذ برأس أخيه يجره إليه ويعنفه.

« وأخذ برأس أخيه يجره إليه ! » ..

وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية . والنقلة بعيدة :

« بئسما خلفتمونى من بعدى »

تركتكم على الهدى فخلفتمونى بالضلال ، وتركتكم على عبادة الله فخلفتمونى بعبادة عجل جسد له خوار !

« أعجلتم أمر ربكم ؟ » ..

أى استعجلتم قضاءه وعقابه ! أو ربما كان يعنى : استعجلتم موعده وميقاته !

« وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه » ..

وهى حركة تدل على شدة الانفعال .. فهذه الألواح هى التى كانت تحمل كلمات ربه . وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه . وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه . وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب !

فأما هارون فيستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يقصر فى نصح القوم ومحاولة هدايتهم :

« قال : ابن أم ، إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ! » ..

وهنا ندرك كيف كان القوم فى هياجهم واندفاعهم إلى العجل الذهب ؛ حتى لهموا بهارون إذ حاول ردهم عن التردى والانتكاس :

« ابن أم » .. بهذا النداء الرقيق وبهذه الوشيجة الرحيمة .

« إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى » .. بهذا البيان المصور لحقيقة موقفه .

« فلا تشمت بى الأعداء » .. وهذه أخرى يستجيش بها هارون وجدان الأخوة الناصرة المعينة ، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون !

« ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » ..

Marfat.com

القوم الذين ضلوا وكفروا بربهم الحق ؛ فأنا لم أضل ولم أكفر معهم ،، وأنا بريء منهم !

عندئذ تهدأ ثائرة موسى أمام هذه الوداعة وأمام هذا البيان . وعندئذ يتوجه إلى ربه ، يطلب المغفرة له ولأخيه ، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين :

« قال : رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين » ..

وهنا يجيء الحكم الفاصل ممن يملكه سبحانه ! ويتصل كلام الله سبحانه بما يحكيه القرآن الكريم من كلام عبده موسى ، على النسق الذي يتكرر في السياق القرآني :

« إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا . وكذلك نجزي المفترين . والذين عملوا السيئات ، ثم تابوا من بعدها وآمنوا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم » ..

إنه حكم ووعد .. إن القوم الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا .. ذلك مع قيام القاعدة الدائمة : إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته .. وإذن فقد علم الله أن الذين اتخذوا العجل لن يتوبوا توبة موصولة ؛ وأنهم سيرتكبون مايخرجهم من تلك القاعدة .. وهكذا كان . فقد ظل بنو إسرائيل يرتكبون الخطيئة بعد الخطيئة ؛ ويسامحهم الله المرة بعد المرة . حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة :

« وكذلك نجزي المفترين » ..

كل المفترين إلى يوم الدين .. فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله ، من بني إسرائيل ، ومن غير بني إسرائيل ..

ووعد الله صادق لا محالة . وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة . وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض ؛ ويستعلون بنفوذهم على الأميين – أو كما يقولون عنهم في التلمود : « الجوييم » ! – وأنهم يملكون سلطان المال ، وسلطان أجهزة الإعلام ؛

Marfat.com

وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التى تنفذ لهم مايريدون ؛ وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم فى وحشية ؛ والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم . . . إلى آخر ماتراه فى هذا الزمان ... فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم ، ولا لما كتبه عليهم .. فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة فى قلوب البشر ؛ ويهيئون الرصيد الذى يدمرهم من السخط والغضب .. إنما هم يستطيلون على الناس فى فلسطين مثلا لأن الناس لم يعد لهم دين ! ولم يعودوا مسلمين ! .. إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية ؛ ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية ! وهم من ثم يخيبون ويفشلون ؛ وتأكلهم إسرائيل ! غير أن هذه حال لن تدوم ! إنها فترة الغيبوبة عن السلاح الوحيد ، والمنهج الوحيد ، والراية الوحيدة ، التى غلبوا بها ألف عام ، والتى بها يَغلبون ، وبغيرها يُغلبون ! إنها فترة الغيبوبة بحكم السموم التى بثتها اليهودية والصليبية فى كيان الأمة « الإسلامية » ! والتى تحرسها بالأوضاع التى تقيمها فى هذه الأرض « الإسلامية » .. ولكن هذا كله لن يدوم .. ستجىء الصحوة من هذه الغيبوبة .. وسيفىء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين .. ومن يدرى فقد تصحو البشرية كلها يوما على طغيان اليهود ! لتحقق وعيد الله لهم ، وتردهم إلى الذلة التى كتبها الله عليهم .. فإن لم تصح البشرية فسيصحو أخلاف المسلمين .. هذا عندنا يقين ..

***

وكانت هذه وقفة للتعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله ، تتوسط المشهد . ثم يمضى السياق يكمل المشهد :

« ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » ..

والتعبير القرآنى يشخص الغضب ، فكأنما هو حى ، وكأنما هو مسلط على موسى ، يدفعه ويحركه .. حتى إذا « سكت » عنه . وتركه لشأنه ! عاد موسى إلى نفسه ، فأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه .. ثم يقرر السياق مرة أخرى أن فى هذه الألواح هدى ، وأن فيها رحمة ، لمن يخشون ربهم ويرهبونه ؛ فتتفتح قلوبهم للهدى ، وينالون

Marfat.com

به الرحمة .. والهدى ذاته رحمة . فليس أشقى من القلب الضال ، الذى لا يجد النور . وليس أشقى من الروح الشارد الحائر الذى لا يجد الهدى ولا يجد اليقين .. ورهبة الله وخشيته هى التى تفتح القلوب للهدى ؛ وتوقظها من الغفلة ، وتهيئها للاستجابة والاستقامة .. إن الله خالق هذه القلوب هو الذى يقرر هذه الحقيقة . ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب ؟

* * *

ويمضى السياق بالقصة ، فإذا نحن أمام مشهد جديد . المشهد الثانى عشر . مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين لقاء ربه :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا . فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى . أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة، إنا هدنا إليك . قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » ..

وتختلف الروايات فى سبب هذا الميقات . وربما كان لإعلان التوبة ، وطلب المغفرة لبنى إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة ــ وفى سورة البقرة أن التكفير الذى فرض على بنى إسرائيل هو : أن يقتلوا أنفسهم ، فيقتل المطيع منهم من عصى ؛ وقد فعلوا حتى أذن لهم الله بالكف عن ذلك ، وقبل كفارتهم ــ وهؤلاء السبعون كانوا من شيوخهم ومن خيرتهم . أو كانوا هم خلاصتهم التى تمثلهم، فصيغة العبارة : «واختار موسى قومه سبعين رجلا .. لميقاتنا». تجعلهم بدلا من القوم جميعا فى الاختيار ..

ومع هذا فما الذى كان من هؤلاء المختارين ؟ لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا . ذلك أنهم ــ

Marfat.com

كما ورد فى السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض فى الألواح(١) .. وهى شاهدة بطبيعة بنى إسرائيل ، التى تشمل خيارهم وشرارهم ، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار . وأعجب شىء أن يقولوها وهم فى مقام التوبة والاستغفار !

فأما موسى ــ عليه السلام ــ فقد توجه إلى ربه ، يتوسل إليه ، ويطلب المغفرة والرحمة ، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة :

« فلما أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى » ..

فهو التسليم المطلق للقدرة المطلقة من قبل ومن بعد ، يقدمه موسى بين يدى دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه ؛ وأن يرد عنهم فتنته ، وألا يهلكهم بفعلة السفهاء منهم :

« أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ » ..

وقد جاء الرجاء بصيغة الاستفهام . زيادة فى طلب استبعاد الهلاك .. أى : رب إنه لمستبعد على رحمتك أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا .

« إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » ..

يعلن موسى ــ عليه السلام ــ إدراكه لطبيعة مايقع ؛ ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء ؛ فما هو بغافل عن مشيئة ربه وفعله كالغافلين ! . وهذا هو الشأن فى كل فتنة : أن يهدى الله بها من يدركون طبيعتها ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين . وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ومن يمرون بها غافلين ، ويخرجون منها ضالين .. وموسى ــ عليه السلام ــ يقرر هذا الأصل تمهيدا لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء :

« أنت ولينا » ..

فامنحنا عونك ومددك لاجتياز فتنتك ، ونيل مغفرتك ورحمتك :

---

(١) لم ينص هنا على سبب الرجفة : ولكن جاء فى مثل هذا الموضع من القصة فى سورة البقرة : « وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » ... والظاهر من السياق أنها هى هى . وليست حادثة أخرى فى تاريخ بنى إسرائيل مع موسى .

Marfat.com

« فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » ..

« واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك » .

رجعنا إليك ، والتجأنا إلى حماك ، وطلبنا نصرتك .

وهكذا قدم موسى ـ عليه السلام ـ لطلب المغفرة والرحمة ، بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه ، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه . فكان دعاؤه نموذجا لأدب العبد الصالح فى حق الرب الكريم ؛ ونموذجا لأدب الدعاء فى البدء والختام .

ثم يجيئه الجواب :

« قال : عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء » ..

تقريرا لطلاقة المشيئة ، التى تضع الناموس اختيارا ، وتجريه اختيارا : وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضا ، لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف فى كل ماتجرى به مشيئته ، لأنه هكذا أراد .. فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب .. وبذلك تجرى مشيئته . . أما رحمته فقد وسعت كل شىء ؛ وهى تنال من يستحقها عنده كذلك . . وبذلك تجرى مشيئته ، ولا تجرى مشيئته ـ سبحانه ـ بالعذاب أو بالرحمة جزافا أو مصادفة . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وبعد تقرير القاعدة يطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل ، إذ يطلعه على نبأ الملة الأخيرة التى سيكتب الله لها رحمته التى وسعت كل شىء . . بهذا التعبير الذى يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذى خلقه ، والذى لا يدرك البشر مداه .. فيالها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله !

« فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

Marfat.com

وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بنى إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمى ، على يدى نبيهم موسى ونبيهم عيسى ـ عليهما السلام ـ منذ أمد بعيد . جاءهم الخبراليقين ببعثه ، وبصفاته وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته . فهو « النبي الأمى » ، وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وهو يضع عمن يؤمنون به من بنى إسرائيل الأثقال والأغلال التى علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبي الأمى حين يؤمنون به . وأتباع هذا النبي يتقون ربهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله . . وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمى ، ويعظمونه ويوقرونه ، وينصرونه ويؤيدونه ، ويتبعون النور الهادى الذى معه « أولئك هم المفلحون » . .

وبذلك البلاغ المبكر لبنى إسرائيل ـ على يد نبيهم موسى عليه السلام ـ كشف الله سبحانه عن مستقبل دينه . وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه ، وعن مستقر رحمته . . فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة ، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين .

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام ـ وهو والسبعون المختارون من قومه فى ميقات ربه ـ يكشف كذلك عن مدى جريمة بنى إسرائيل فى استقبالهم لهذا النبي الأمى وللدين الذى جاء به . وفيه التخفيف عنهم والتيسير ، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين !

إنها الجريمة عن علم وعن بينة ! والجريمة التى لم يألوا فيها جهدا . . فقد سجل التاريخ أن بنى إسرائيل كانوا هم الأم خلق وقف لهذا النبي وللدين الذى جاء به . . اليهود أولا والصليبيون أخيرا . . وأن الحرب التى شنوها على هذا النبي ودينه وأهل دينه كانت حربا خبيثة ماكرة لئيمة قاسية ؛ وأنهم أصروا عليها ودأبوا ؛ وما يزالون يصرون ويدأبون !

والذى يراجع ـ فقط ـ ما حكاه القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ـ وقد سبق منه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ما سبق ـ يطلع على المدى الواسع المتطاول الذى أداروا فيه المعركة مع هذا الدين فى عناد لئيم !

والذى يراجع التاريخ بعد ذلك ـ منذ اليوم الذى استعلن فيه الإسلام بالمدينة ، وقامت له

Marfat.com

دولة - إلى اللحظة الحاضرة ، يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود !

ولقد استخدمت الصهيونية والصليبية فى العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية . . وهى فى هذه الفترة بالذات تعالج إزالة هذا الدين بجملته ؛ وتحسب أنها تدخل معه فى المعركة الأخيرة الفاصلة . . لذلك تستخدم جميع الأساليب التى جربتها فى القرون الماضية كلها - بالإضافة إلى ما استحدثته منها - جملة واحدة !

ذلك فى الوقت الذى يقوم ممن ينتسبون إلى الإسلام ناس يدعون فى غرارة ساذجة إلى التعاون بين أهل الإسلام وأهل بقية الأديان للوقوف فى وجه تيار المادية والإلحاد ! أهل بقية الأديان الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام فى كل مكان ؛ ويشنون عليهم حربا تتسم بكل بشاعة الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش فى الأندلس - سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة فى المستعمرات فى آسيا وإفريقية أو عن طريق الأوضاع التى يقيمونها ويسندونها فى البلاد (المستقلة !) لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية ! تنكر « الغيبية » لأنها « علمية » ! و « تطوّر » الأخلاق لتصبح هى أخلاق البهائم التى ينزو بعضها على بعض فى « حرية ! » و « تطوّر » كذلك الفقه الإسلامى ، وتقيم له مؤتمرات المستشرقين لتطويره . كما يحل الربا والاختلاط الجنسى وسائر المحرمات الإسلامية ! !

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب مع هذا الدين ، الذى بشروا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد . ولكنهم تلقوه هذا التلقى اللئيم الخبيث العنيد !

* * *

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد من مشاهد القصة ، يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى النبى الأمى - صلى الله عليه وسلم - يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعا ، تصديقا لوعد الله القديم :

« قل : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ، الذى له ملك السماوات والأرض ،

Marfat.com

لا إله إلا هو يحيي ويميت . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » . .

إنها الرسالة الأخيرة ، فهي الرسالة الشاملة ، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل . . ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان - مابين عهدي رسولين - وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة ، تأهيلا لها للرسالة الأخيرة . وكانت كل رسالة تتضمن تعديلا وتحويرا في الشريعة يناسب تدرج البشرية . حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها ، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها ، وجاءت للبشر جميعا ، لأنه ليست هنالك رسالات بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان . وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعا . ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية - كما خرجت من يد الله - إلا تعليم الله . فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس ! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعا :

« قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا » . .

وهذه الآية التي يؤمر فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يواجه برسالته الناس جميعا ، هي آية مكية في سورة مكية . . وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب ، الذين يزعمون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها ، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشا ، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب ، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها . . كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف ! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنوها قديما على هذا الدين وأهله . وما يزالون ماضين فيها !

وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله . وأن يكون « المستشرقون » الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله . . إنما البلية الكبرى أن كثيرا من السذج الأغرار ممن يسمون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزورين على نبيهم ودينهم ، المحاربين لهم ولعقيدتهم ، أساتذة لهم ، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه ، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه ، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم « مثقفون ! » . .

Marfat.com

ونعود إلى السياق القرآني بعد تكليف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن رسالته للناس جميعا . فنجد بقية التكليف هي تعريف الناس جميعا بربهم الحق سبحانه :

« الذى له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت » ..

إنه - صلى الله عليه وسلم - رسول للناس جميعا من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله - وهم من هذا الوجود - والذى يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد . والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيي ويميت ..

والذى يملك الوجود كله ، والذى له الألوهية على الخلائق وحده ، والذى يملك الحياة والموت للناس جميعا . هو الذى يستحق أن يدين الناس بدينه ، الذى يبلغه إليهم رسوله .. فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له ، وطاعتهم لرسوله :

« فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » ..

وهذا النداء الأخير فى هذا التعقيب يتضمن لفتات دقيقة ينبغى أن نقف أمامها لحظات :

- إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله .. وهو ماتتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فى صورة أخرى من صور هذا المضمون الذى لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام .. ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه فى الآية التعريف بصفاته تعالى : « الذى له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت » .. فالأمر بالإيمان هو أمر بالإيمان بالله الذى هذه صفاته الحقة . كما سبقه التعريف برسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس جميعا .

- ثم يتضمن ثانية أن النبي الأمى - صلوات الله وسلامه عليه - يؤمن بالله وكلماته .. ومع أن هذه بديهية ، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها قيمتها . فالدعوة لابد أن يسبقها إيمان الداعى بحقيقة ما يدعو إليه ، ووضوحه فى نفسه ، ويقينه منه . لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعا بأنه « الذى يؤمن بالله وكلماته » .. وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه ..

- ثم يتضمن أخيرا لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذى يدعوهم إليه . وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه ، واتباعه كذلك فى سنته وعمله . وهو ما يقرره قول الله سبحانه : « فاتبعوه

Marfat.com

لعلكم تهتدون » .. فليس هناك رجاء فى أن يهتدى الناس بما يدعوهم إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا باتباعه فيه . ولا يكفى أن يؤمنوا به فى قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملى .. وهو الإسلام ..

إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته فى كل مناسبة .. إنه ليس مجرد عقيدة تستكن فى الضمير .. كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس .. إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وفيما يشرعه ويسنه .. والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب . ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب . ولكنه أبلغهم شريعة الله فى قوله وفعله . ولا رجاء فى أن يهتدى الناس إلا إذا اتبعوه فى هذا كله .. فهذا هو دين الله .. وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التى تشير إليها هذه اللفتة : « واتبعوه لعلكم تهتدون » بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله .. ولو كان الأمر فى هذا الدين أمر اعتقاد وكفى ، لكان فى قوله : « فآمنوا بالله ورسوله » الكفاية !

* * *

ثم تمضى القصة فى سياقها بعد الرجفة التى أخذت رجالات بنى إسرائيل .. ولا يذكر السياق هنا ماذا كان من أمرهم بعد دعوات موسى - عليه السلام - وابتهالاته . ولكنا نعرف من سياق القصة فى سور أخرى أن الله أحياهم بعد الرجفة ، فعادوا إلى قومهم مؤمنين .

وقبل أن يمضى السياق هنا فى حلقة جديدة ، يقرر حقيقة عن قوم موسى .. أنهم لم يكونوا جميعا ضالين :

« ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

هكذا كانوا على عهد موسى ؛ وهكذا كانت منهم طائفة تهدى بالحق وتحكم بالعدل من بعد موسى .. ومن هؤلاء من استقبلوا رسالة النبى الأمى فى آخر الزمان بالقبول والاستسلام ، لما يعرفونه عنها فى التوراة التى كانت بين أيديهم على مبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى أولهم الصحابى الجليل : عبد الله ابن سلام رضى الله عنه . الذى كان يواجه يهود زمانه بما عندهم فى التوراة عن النبى الأمى ، وما عندهم كذلك من شرائع تصدقها شرائع الإسلام .

Marfat.com

وبعد تقرير تلك الحقيقة تمضى القصة فى أحداثها بعد الرجفة :

« وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما ؛ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كل أناس مشربهم . وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم . وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

إنها رعاية الله ما زالت تظلل موسى وقومه ـ بعد أن كفروا فعبدوا العجل ، ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله ، فتاب عليهم . وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة ، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم . . تتجلى هذه الرعاية فى تنظيمهم حسب فروعهم فى اثنتى عشرة أمة ـ أى جماعة كبيرة ـ ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفدة جدهم يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية .

« وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما » . .

وتبدو فى تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم ، فلا يعتدى بعضهم على بعض .

« وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا . . قد علم كل أناس مشربهم . . »

وتبدو فى تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ؛ وإنزال المن ـ وهو نوع من العسل البرى ـ والسلوى ، وهو طائر السمانى ؛ وتيسيره لهم ضمانا لطعامهم بعد ضمان شرابهم :

« وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى » . .

وتبدو فى إباحة كل هذه الطيبات لهم ، حيث لم يكن قد حرم عليهم بعد شىء بسبب عصيانهم :

« كلوا من طيبات ما رزقناكم » . .

والرعاية واضحة فى هذا كله ؛ ولكن هذه الجبلة ما تزال بعد عصية على الهدى والاستقامة كما يبدو من ختام هذه الآية التى تذكر كل هذه النعم وكل هذه الخوارق : من تفجير العيون لهم

Marfat.com

من الصخر بضربة من عصا موسى . ومن تظليل الغمام لهم فى الصحراء الجافة . ومن تيسير الطعام الفاخر من المن والسلوى :

« وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

وسيعرض السياق نماذج من ظلمهم لأنفسهم ؛ بالمعصية عن أمر الله والالتواء عن طريقه . . وما يبلغون بهذا الالتواء وتلك المعصية أن يظلموا الله - سبحانه - فالله غنى عنهم وعن العالمين أجمعين . وما ينقص من ملكه أن يجتمعوا هم والعالمون على معصيته ؛ وما يزيد فى ملكه أن يجتمعوا هم والعالمون على طاعته . إنما هم يؤذون أنفسهم ويظلمونها بالمعصية والالتواء ، فى الدنيا وفى الآخرة سواء .

* * *

والآن فلننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم ؛ وكيف سارت خطواتهم للتوبة على طول الطريق :

« وإذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا : حطة ، وادخلوا الباب سجدا ، نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون » . .

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ؛ وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل . ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم . . ثم ها هم أولاء تلتوى بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق ! ها هم أولاء يعصون الأمر ، ويبدلون القول ! ها هم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها - أى مدينة كبيرة - لا يعين القرآن اسمها - لأنه لا يزيد فى مغزى القصة شيئا - وتباح لهم خيراتها جميعا ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجدا ، إعلانا للخضوع لله فى ساعة النصر والاستعلاء - وذلك كما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة فى عام الفتح ساجدا على ظهر دابته - وفى مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين فى حسناتهم . . فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التى أمروا بها ؛ ويبدلون الهيئة التى كلفوا أن يدخلوا عليها . . لماذا ؟ تلبية للأعراف الذى يلوى نفوسهم عن الاستقامة :

Marfat.com

« فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » . .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذابا . . السماء التى تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام ! .

فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون » .

وهكذا كان ظلم فريق منهم ـ أى كفرهم ـ ظلما لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله . .

ولا يفصل القرآن نوع العذاب الذى أصابهم فى هذه المرة . لأن غرض القصة يتم بدون تعيينه فالغرض هو بيان عاقبة المعصية عن أمر الله ، وتحقيق النذر ، ووقوع الجزاء العادل الذى لا يفلت منه العصاة .

* * *

ومرة أخرى يقع القوم فى المعصية والخطيئة . . وهم فى هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه ، لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع :

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟ قالوا : معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين . وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » . .

يعدل السياق هنا عن أسلوب الحكاية عن ماضى بنى إسرائيل ، إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التى كانت تواجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة . . والآيات من هنا إلى قوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » آيات مدنية . نزلت فى المدينة لمواجهة اليهود فيها ؛ وضمت إلى هذه السورة المكية فى هذا الموضع ، تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بنى إسرائيل مع نبيهم موسى . .

Marfat.com

يأمر الله سبحانه رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم في تاريخ أسلافهم . وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ؛ ويذكرهم بعصيانهم القديم ، وما جره على فريق منهم من المسخ في الدنيا ؛ وما جره عليهم جميعا من كتابة الذل عليهم والغضب أبدا . . اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبي ، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التي كانت حاضرة البحر ؛ فهي معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية . . وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة ؛ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش، فجعل لهم السبت . . ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع . . وكان ذلك ضروريا لبني إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلا ؛ ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية ، لتعتاد الصمود والثبات . فضلا على أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله ؛ ويؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض . . وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء . . فلم يصمدا له واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذي لا بد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بامانة الاستخلاف في الأرض . . إنما يختلف شكل الابتلاء ، ولا تتغير فحواه !

ولم يصمد فريق من بني إسرائيل - في هذه المرة - للابتلاء الذي كتبه الله عليهم بسبب ماتكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم .. لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تتراءى لهم على الساحل ، قريبة المأخذ ، سهلة الصيد . فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة ، كما كانوا يجدونها يوم الحرم ! ..وهذا ماأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يذكرهم به ، ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا :

Marfat.com

« واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر . إذ يعدون في السبت . إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » .

فأما كيف وقع لهم هذا ، وكيف جعلت الأسماك تحاورهم هذه المحاورة ، وتداورهم هذه المداورة .. فهي الخارقة التي تقع بإذن الله عندما يشاء الله .. والذين لا يعلمون ينكرون أن تجرى مشيئة الله بغير ما يسمونه هم « قوانين الطبيعة » ! والأمر في التصور الإسلامي – وفي الواقع – ليس على هذا النحو . . إن الله سبحانه هو الذي خلق هذا الكون ، وأودعه القوانين التي يسير عليها بمشيئته الطليقة . ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين لا تملك أن تجرى إلا بها . . لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين كما كانت طليقة . . وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون . . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين ؛ فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين . . فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفا لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر . . ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجرى فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة . فهي لا تجرى جريانا آليا لا تدخل لقدر الله فيه .. وهذا مع ثباتها في طريقها ما لم يشأ الله أن تجرى بغير ذلك . . وعلى أساس أن كل ما يقع – سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها – إنما يقع بقدر من الله خاص ، فإنه تستوى الخارقة والقانون الثابت في جريانه بهذا القدر . . ولا آلية في نظام الكون في مرة واحدة – كما يظن الذين لا يعلمون ! – ولقد بدأوا يدركون هذا في ربع القرن الأخير(١) !

على أية حال ، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل . . فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء ، فتتهاوى عزائمهم ، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم ، فيحتالون الحيل – على طريقة اليهود – للصيد في يوم السبت! وما أكثر الحيل عند ما يلتوي القلب ، وتقل التقوى ، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص ، ويراد التفلت من ظاهر النصوص ! . . إن القانون لا تحرسه نصوصه ، ولا يحميه حراسه . إنما تحرسه القلوب

---

(١) يراجع ما جاء في الجزء السابع من الطبعة الثانية المنقحة في هذه الظلال عند تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ص ٢٥٠ – ص ٢٦٢ .

Marfat.com

التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته ، فتحرس هي القانون وتحميه . وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه ! مامن قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية ! وان تستطيع الدولة ـ كائنا ماكان الإرهاب فيها ـ أن تضع على رأس كل فرد حارسا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته ؛ مالم تكن خشية الله في قلوب الناس ، ومراقبتهم له في السر والعلن ..

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية . وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله . ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها . وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها !

وهكذا راح فريق من سكان القرية التي كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت ، الذي حرم عليهم الصيد فيه . . وروى أنهم كانوا يقيمون الحواجز على السمك ويحوطون عليه في يوم السبت ؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا : إنهم لم يصطادوه في السبت ، فقد كان في الماء ـ وراء الحواجز ـ غير مصيد !

وراح فريق منهم آخر يرى مايفعلون من الاحتيال على الله ! فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله ! وينكر عليه مايزاوله من الاحتيال !

بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر : مافائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟

« وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟ »

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم . بعد ما كتب الله عليهم الهلاك أو العذاب الشديد ؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله .

« قالوا : معذرة إلى ربكم ، ولعلهم يتقون » ..

فهو واجب لله نؤديه : واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمات ، لنبلغ إلى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى ..

Marfat.com

وهكذا انقسم سكان الحاضرة إلى ثلاث فرق . أو ثلاث أمم . . فالأمة فى التعريف الإسلامى هى مجموعة الناس التى تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة ، وليست كما هى فى المفهوم الجاهلى القديم أو الحديث ، مجموعة الناس التى تسكن فى إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة ! فهذا مفهوم لا يعرفه الإسلام ، إنما هى من مصطلحات الجاهلية القديمة أو الحديثة ![1]

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم : أمة عاصية محتالة . وأمة تقف فى وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة . وأمة تدع المنكر وأهله ، وتقف موقف الإنكار السلبى ولا تدفعه بعمل إيجابى . . وهى طرائق متعددة من التصور والحركة ، تجعل الفرق الثلاث أمما ثلاثا !

فلما لم يجد النصح ، ولم تنفع العظة ، وسدر السادرون فى غيهم ، حقت كلمة الله ، وتحققت نذره . فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء فى نجوة من السوء . وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد الذى سيأتى بيانه . فأما الفرقة الثالثة ـ أو الأمة الثالثة ـ فقد سكت النص عنها . . ربما تهوينا لشأنها ـ وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابى ، ووقفت عند حدود الإنكار السلبى . فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب :

« فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » . .

لقد كان العذاب البئيس ـ أى الشديد ـ الذى حل بالعصاة المحتالين ، جزاء إمعانهم فى المعصية ـ التى يعتبرها النص هى الكفر ، الذى يعبر عنه بالظلم مرة وبالفسق مرة كما هو الغالب فى التعبير القرآنى عن الكفر والشرك بالظلم والفسق ؛ وهو تعبير يختلف عن المصطلح الفقهى المتأخر عن هذه الألفاظ إذ أن مدلولها القرآنى ليس هو المدلول الذى جعل يشيع فى التعبير

---

(١) ترد كلمة « أمة » بمعنى الجماعة من الناس إطلاقاً كقوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » ، وترد بمعنى القيادة والإمامة كقوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً » ، وهى هنا تتضمن معنى أنه كان فريقاً وحده . . وإن كان هذا لا يؤثر فى المدلول الاصطلاحى الإسلامى للفظ أمة وهو الجماعة من الناس ذات العقيدة الواحدة والتصور الواحد .

Marfat.com

الفقهى المتأخر ـ كان ذلك العذاب البئيس هو المسخ عن الصورة الآدمية إلى الصورة القردية !
لقد تنازلوا هم عن آدميتهم، حين تنازلوا عن أخص خصائصها ـ وهو الإرادة التى تسيطر على الرغبة ـ وانتكسوا إلى عالم « الحيوان » حين تخلوا عن خصائص « الإنسان » . فقيل لهم أن يكونوا حيث أرادوا لأنفسهم من الانتكاس والهوان !

أما كيف صاروا قردة ؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة ؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه ؟ أم تناسلوا وهم قردة ؟ ... إلى آخر هذه المسائل التى تتعدد فيها روايات التفسير ... فهذا كله مسكوت عنه فى القرآن الكريم ؛ وليس وراءه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شىء .. فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه .

لقد جرت كلمة الله التى يجرى بها الخلق والتكوين ابتداء ؛ كما يجرى بها التحوير والتغيير .. كلمة « كن ».

« قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين » ..

فكانوا قردة مهينين . كما جرى القول الذى لا راد له ؛ ولا يعجز قائله عن شىء سبحانه !

ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع ـ إلا الذين يؤمنون بالنبى الأمى ويتبعونه ـ بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التى لاتنتهى ؛ وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذى لاراد له ولا معقب عليه :

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » ..

فهو إذنُ الأبد الذى تحقق منذ صدوره ؛ فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب . والذى سيظل نافذا فى عمومه ، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية ، التى لاتخرج من معصية إلا لتقع فى معصية ؛ ولا تتوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف ..

ولقد يبدو أحيانا أن اللعنة قد توقفت ، وأن يهود قد عزت واستطالت ! وإن هى إلا فترة

Marfat.com

عارضة من فترات التاريخ .. ولا يدرى إلا الله من ذا الذى سيسلط عليهم فى الجولة التالية ، وما بعدها إلى يوم القيامة .

لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة - كما أخبر الله نبيه فى قرآنه - معقبا على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه فى العذاب والرحمة :

« إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » ..

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمته بالعذاب - كما أخذ القرية التى كانت حاضرة البحر - وهو بمغفرته ورحمته يقبل التوبة ممن يتوب من بنى إسرائيل ، ممن يتبعون الرسول النبى الذى يجدونه مكتوبا عندهم ، فى التوراة والإنجيل .. فليس عذابه - سبحانه - عن نقمة ولا إحنة . إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه ، ووراءه المغفرة والرحمة ..

* * *

ثم تمضى خطوات القصة مع خطوات التاريخ ، من بعد موسى وخلفائه ، مع الأجيال التالية فى بنى إسرائيل إلى الجيل الذى كان يواجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - والجماعة المسلمة فى المدينة :

« وقطعناهم فى الأرض أمما .. منهم الصالحون ومنهم دون ذلك .. وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون. فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لانضيع أجر المصلحين » ..

وهذه بقية الآيات المدنية الواردة فى هذا السياق تكملة لقصة بنى إسرائيل من بعد موسى.. ذلك حين تفرق اليهود فى الأرض ؛ جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ، مختلفة المشارب والمسالك . فكان منهم الصالحون ، وكان منهم من هم دون الصلاح . وظلت العناية الإلهية توالیهم بالابتلاءات . تارة بالنعماء وتارة بالبأساء ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويستقيمون على طريقهم :

« وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » ..

Marfat.com

والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد ، وتذكير دائم لهم . ووقاية من النسيان المؤدي إلى الاغترار والبوار ..

« ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » ..

وصفة هذا الخلف الذي جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى : أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه .. ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم .. شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ .. وكلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه ، ثم تأولوا وقالوا : « سيغفر لنا » .. وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد !

ويسأل سؤال استنكار :

« ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ؟ ودرسوا مافيه ؟ » .

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله في الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق . . فما بالهم يقولون : « سيغفر لنا » ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقا ؛ ويقلعون عن المعصية فعلا ؛ وليس هذا حالهم ، فهم يعودون كلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا ؛ وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا مافيه !

بلى ! ولكن الدراسة لا تجدي مالم تخالط القلوب . وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد . إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا . : وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ؛ ولا يأخذونه عقيدة ؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه ؟ !

« والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون ؟ » .

نعم ! إنها الدار الآخرة ! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا . . نعم إنها هي التي

Marfat.com

لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها .. وإلا فما الذى يعدل فى النفس البشرية الرغبة الملحة فى حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض ؟ وما الذى يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغى ؟ وما الذى يهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذى يطمئنها فى صراع الحياة الدنيا على النصيب الذى لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذى يثبتها فى المعركة بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى ؟

لا شىء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال فى هذا الخضم الهائج وفى هذه المعركة الكبرى ؛ إلا اليقين فى الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون ، ويعفون ، ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير فى وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون فى الطريق لا يتلفتون .. مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين(١) ..

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذى يريد دعاة « الاشتراكية العلمية » أن يلغوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا ؛ ويحلوا محله تصورا كافرا جاهلا مطموسا يسمونه : « العلمية » ..

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة ، وتفسد النفوس ؛ وينطلق السعار المجنون الذى لا يكبحه إلا ذلك اليقين .. ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان . وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة فى كل مجال ..

إن « العلمية » التى تناقض « الغيبية » جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر . جهالة يرجع عنها « العلم البشرى » ذاته ، ولا يبقى يرددها فى القرن العشرين إلا الجهال(٢) ! جهالة تناقض فطرة « الإنسان » ومن ثم تفسد « الحياة » ذلك الإفساد الذى يهدد البشرية بالدمار ! ولكنه المخطط الصهيونى الرهيب الذى يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها ، ليسهل تطويعها لملك صهيون فى نهاية المطاف !

---

(١) يراجع ما جاء عن عقيدة الآخرة فى الجزء السابع من الظلال ص ١٧٨ — ص ١٨٤ الطبعة الثانية المنقحة.

(٢) يراجع ما جاء فى الجزء السابع عن « العلم » و « الغيب » عند تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ص ٢٥٠ — ٢٦٢

Marfat.com

والذى تردده الببغاوات هنا وهناك ، بينما الأوضاع التى أقامتها الصهيونية وكفلتها فى أنحاء الأرض تمضى عن علم فى تنفيذ المخطط الرهيب هنا وهناك !

ولأن قضية الآخرة ، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان فى العقيدة وفى الحياة ، يحيل السياق القرآنى المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى .. عرض الحياة الدنيا .. إلى العقل :

« والدار الآخرة خير للذين يتقون .. أفلا تعقلون ؟ » ..

ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى . ولو كان العلم الحق لا الجهالة التى تسمى العلم هو الذى يقضى . . لكانت الدار الآخرة خيراً من عرض هذا الأدنى . ولكانت التقوى زادا للدين والدنيا جميعا :

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ، إنا لا نضيع أجر المصلحين » .

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ؛ ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذى درسوه ، ولا يعملون به ، ولا يحكمونه فى تصوراتهم وحركاتهم ؛ ولا فى سلوكهم وحياتهم . . غير أن الآية تبقى ـ من وراء ذلك التعريض ـ مطلقة ، تعطى مدلولها كاملا ، لكل جيل ولكل حالة .

إن الصيغة اللفظية : « يمسكون » . . تصور مدلولا يكاد يحس ويرى . . إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة . . الصورة التى يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه . . فى غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت . . فالجد والقوة والصرامة شىء والتعنت والتنطع والتزمت شىء آخر . . إن الجد والقوة والصرامة لا تنافى اليسر ولكنها تنافى التميع ! ولا تنافى سعة الأفق ولكنها تنافى الاستهتار ! ولا تنافى مراعاة الواقع ولكنها تنافى أن يكون « الواقع » هو الحكم فى شريعة الله ! فهو الذى يجب أن يظل محكوما بشريعة الله !

والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة ؛ وإقامة الصلاة ـ أى شعائر العبادة ـ هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة . . والتمسك بالكتاب فى هذه العبارة مقرونا إلى الشعائر يعنى مدلولا معينا . إذ يعنى تحكيم هذا الكتاب فى حياة الناس لإصلاح هذه الحياة ، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس . فهما طرفان للمنهج الذى تصلح به الحياة والنفوس ، ولا تصلح بسواه . . والإشارة إلى الإصلاح فى الآية :

Marfat.com

« إنا لا نضيع أجر المصلحين » . .

يشير إلى هذه الحقيقة . . حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملا ، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين .

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفى هذا المنهج الربانى . . ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه فى حياة الناس ؛ وترك العبادة التى تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص ، كالذى كان يصنعه أهل الكتاب ؛ وكالذى يصنعه أهل كل كتاب ، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله . .

إنه منهج متكامل . يقيم الحكم على أساس الكتاب ؛ ويقيم القلب على أساس العبادة . . ومن ثم تتوافق القلوب مع الكتاب ؛ فتصلح القلوب ، وتصلح الحياة .

إنه منهج الله ، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجا آخر ، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب !

* * *

وفى ختام حلقات القصة فى هذه السورة يذكر كيف كان الله قد أخذ على بنى إسرائيل الميثاق :

« وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم . خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » .

إنه ميثاق لا ينسى . . فقد أخذ فى ظرف لا ينسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ؛ فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس . ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة ، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق . وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى . وتظل موصولة بالله لا تنساه !

ولكن إسرائيل هى إسرائيل ! نقضت الميثاق ، ونسيت الله ، ولجت فى المعصية ، حتى استحقت غضب الله ولعنته . وحق عليها القول ، بعد ما اختارها الله على العالمين فى زمانها ،

Marfat.com

وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة ، ولم ترع العهد ، ولم تذكر الميثاق .. وما ربك بظلام للعبيد ..

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا . أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا : إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ؟ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ .

« مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ؟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ

Marfat.com

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟

« مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا . قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ: لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا : لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ؟ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ قُلِ : ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ »(١٩)

Marfat.com

هذا الدرس كله يدور حول قضية التوحيد والشرك .. بعد مادار قصص السورة كله حول هذه القضية ، متخذا صورة التذكير من الرسل جميعا بحقيقة التوحيد ، والتحذير من عاقبة الشرك ؛ ثم تحقق النذر بعد التذكير والتحذير .

فالآن فى هذا الدرس تعرض قضية التوحيد من زاوية جديدة ، وزاوية عميقة .. تعرض من زاوية الفطرة التى فطر الله عليها البشر ؛ وأخذ بها عليهم الميثاق فى ذات أنفسهم ، وذات تكوينهم ؛ وهم بعد فى عالم الذر ! .. إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة فى الكيان البشرى . فطرة أودعها الخالق فى هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره فى أعماقها من هذه الحقيقة . أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ؛ فيحتاجون إلى التذكير والتحذير .. إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى ، فلاحجة لهم فى نقض الميثاق ــ حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم ــ ولكن رحمته وحدهااقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ؛ وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التى أعطاها لهم فقد تضل؛ وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل !

ومن هذه الزاوية ، التى تعرض منها قضية التوحيد فى هذا الدرس ، يتخذ السياق خطوطا شتى حول هذه القضية الكبرى .

منها خط قصصى عن حالة ترد بعض الروايات بأنها وقعت فى تاريخ بنى إسرائيل .. ولكن الأرجح أنها نموذج غير مقيد بزمان ولا مكان ، إنما هو تصوير لحالة مكرورة فى النفوس والتاريخ . كلما أوتى بعض الناس نصيبا من العلم كان خليقا أن يقوده إلى الحق والهدى ، فإذا هو ينسلخ مما أوتى من العلم ، فلا ينتفع به شيئا ، ويسير فى طريق الضلالة كمن لم يؤتوا من العلم شيئا . بل يصير أنكد وأضل وأشقى بهذا العلم الذى لم تخالطه بشاشة الإيمان ، الذى يحول هذا العلم إلى مشكاة هادية فى ظلام الطريق !

ومنها خط قصصى آخر عن حالة تصويرية لخطوات انحراف الفطرة من التوحيد إلى الشرك .. ممثلة فى زوجين من البشر ، يرجوان الخير فى الجنين القادم لهما ؛ وتتجه فطرتهما إلى الله ربهما ،

Marfat.com

ويقطعان لله العهود لئن آتاهما خلفا صالحا ليكونن من الشاكرين .. ثم تزيغ قلوبهما بعد أن يستجيب الله لهما ، فإذا هما يجعلان لله شركاء فيما آتاهما !

ومنها خط تصويرى لتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية فى الكينونة البشرية ، حتى تنتهى إلى الضلال الذى يهبط بالبشر عن مرتبة الأنعام ، ويجعلهم وقودا لجهنم عن جدارة واستحقاق .. فتكون لهم قلوب لا يفقهون بها ، وتكون لهم أعين لايبصرون بها ، وتكون لهم آذان لايسمعون بها .. ويكون وراء ذلك الضلال الذى لارجعة منه ولامآب !

ومنها خط إيحائى لاستجاشة هذه الأجهزة المعطلة ، وإيقاظها للتدبر والتفكر ، وتوجيهها إلى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شىء ، ولمسها بالأجل المغيب الذى يكمن وراء الموت ، ودعوتها إلى النظر فى حال هذا الرسول الكريم الذى يدعو إلى الهدى ، فيرميه الضالون بالجنون !

ومنها خط جدلى حول آلهتهم المدعاة ، وهى مجردة من خصائص الألوهية . بل من خصائص الحياة !

وينتهى هذا كله بتوجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى تحديهم وتحدى آلهتهم ، وإعلان مفاصلته ومفارقته لهم ولمعبوداتهم وعبادتهم ، والالتجاء إلى الولى الذى لا ولى غيره : « الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . .

ولقد كانت نهاية الدرس السابق فى قصة بنى إسرائيل هى مشهد الميثاق الذى أخذه الله عليهم فى ظل الجبل المرفوع . فهذا الدرس الجديد يتابعه فيبدأ بقضية الميثاق الأكبر الذى أخذه الله على فطرة البشر . فى مشهد لايدانيه فى الجلال والروعة مشهد الجبل المرفوع !

* * *

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم – من ظهورهم – ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم؟ قالوا : بلى شهدنا ! أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل .. وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ .. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » ..

Marfat.com

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد ـ على طريقة القرآن الغالبة (١) ـ وإنه لمشهد فريد .. مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق ، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود ، تؤخذ في قبضة الخالق المربي ، فيسألها : « ألست بربكم؟ » . . فتعترف له ـ سبحانه ـ بالربوبية ؛ وتقر له ـ سبحانه ـ بالعبودية ؛ وتشهد له ـ سبحانه ـ بالوحدانية ؛ وهي منثورة كالذر ؛ مجموعة في قبضة الخالق العظيم !

إنه مشهد كوني رائع باهر ، لانعرف اللغة له نظيرا في تصوراتها المأثورة ! وإنه لمشهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته ! وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى ، وهي تجمع وتقبض . وهي تخاطب خطاب العقلاء ـ بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التي أودعها إياها الخالق المبدع ـ وهي تستجيب استجابة العقلاء ، فتعترف وتقر وتشهد ؛ ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب !

وإن الكيان البشري ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد .وهو يتمثل الذر السابح . وفي كل خلية حياة . وفي كل خلية استعداد كامن . وفي كل خلية كائن إنساني مكتمل الصفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصورة المكنونة له في ضمير الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق ، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم !

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة في أعماق الفطرة الإنسانية وفي أعماق الوجود .. عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان ، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام ! ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة . فإذا « العلم » يقرر أن الناسلات ، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل « الإنسان» وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب .. أن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر ، وتكمن فيها خصائصهم كلها ، لا تزيد حجمها على سنتيمتر مكعب ، أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة ! .. كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال ! وصدق الله العظيم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» ..

(١) يراجع بتوسع كتاب : « التصوير الفني في القرآن »

Marfat.com

أخرج ابن جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس قال: « مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ... فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم: « ألست بربكم؟ قالوا: بلى » .. وروى مرفوعا وموقوفا على ابن عباس. وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت ..

فأما كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم: « ألست بربكم » وكيف أجابوا: « بلى شهدنا » ؟ ... فالجواب عليه: أن كيفيات فعل الله - سبحانه - غيب كذاته. ولا يملك الإدراك البشرى أن يدرك كيفيات أفعال الله مادام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله. إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية. وكل فعل ينسب لله سبحانه مثل الذى يحكيه قوله هذا كقوله تعالى: « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ... » .. « ثم استوى على العرش » . . « يمحو الله مايشاء ويثبت » . . « والسماوات مطويات بيمينه » . . « وجاء ربك والملك صفا صفا » . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » ... إلى آخر ما تحكيه النصوص الصحيحة عن فعل الله سبحانه، لا مناص من التسليم بوقوعه، دون محاولة إدراك كيفيته .. إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية كما قلنا. والله ليس كمثله شيء. فلاسبيل إلى إدراك ذاته ولا إلى إدراك كيفيات أفعاله. إذ أنه. لا سبيل إلى تشبيه فعله بفعل أى شيء، ما دام أن ليس كمثله شيء. . وكل محاولة لتصور كيفيات أفعاله على مثال كيفيات أفعال خلقه، هى محاولة مضللة، لاختلاف ماهيته - سبحانه - عن ماهيات خلقه. وما يترتب على هذا من اختلاف كيفيات أفعاله عن كيفيات أفعال خلقه . . وكذلك جهل وضل كل من حاولوا - من الفلاسفة والمتكلمين - وصف كيفيات أفعال الله، وخلطوا خلطا شديدا! (١)

على أن هناك تفسيرا لهذا النص بأن هذا العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم هو عهد الفطرة .. فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده. أودع هذا فطرتهم فهى تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، ويميل بها عن فطرتها.

قال ابن كثير فى التفسير: قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو

---

(١) يراجع فصل: « حقيقة الألوهية » فى كتاب: « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الثانى

Marfat.com

فطرهم على التوحيد – كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض ابن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود ابن سريع – وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا : ولهذا قال : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم » ولم يقل : من آدم .. « من ظهورهم » .. ولم يقل من ظهره .. « ذرياتهم » أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى :« وهو الذى جعلكم خلفاء الأرض » .. وقال: « ويجعلكم خلفاء الأرض » .. وقال : « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » .. ثم قال : « وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم؟ قالوا : بلى ! »أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له .. حالا .. وقالوا : والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : « قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .. وتارة تكون حالا كقوله تعالى : « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » .. أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك .. وكذلك قوله تعالى: « وإنه على ذلك لشهيد » .. كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال . كقوله : « وآتاكم من كل ماسألتموه » .. قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك . فلو كان قد وقع هذا ، كما قال من قال ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول – صلى الله عليه وسلم – به كاف فى وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد. ولهذا قال : « أن تقولوا » .. أى لئلا تقولوا« يوم القيامة إنا كنا عن هذا » . أىالتوحيد . « غافلين ، أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا » ... الآية) .

أما الأحاديث التى أشار إليها فى أول هذه الفقرة فهى :

فى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال رسول الله – صلى الله عليهوسلم – . « كل مولود يولد على الفطرة – وفى رواية . « على هذه الملة » – فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

وفى صحيح مسلم عن عياض ابن حمار قال : قال رسول الله – صلى الله عليهوسلم : «يقول اللهإنى خلقتعبادىحنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتعليهم ماأحللتلهم».

Marfat.com

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير ـ رحمه الله ـ حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني السرى ابن يحيى ، أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاشتد عليه ، ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ » . فقال رجل : يا رسول الله . أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إن خياركم أبناء المشركين ! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها » . . قال الحسن : لقد قال في كتابه : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم » . . . الآية .

ونحن لا نستبعد أن يكون قول الله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم . . الآيات) على وجهه لا على سبيل الحال . لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله سبحانه . وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشاؤه .. ولكنا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير ، وذكره الحسن البصري واستشهد له بالآية .. والله أعلم أي ذلك كان . .

وفي أي من الحالين يخلص لنا أن هناك عهدا من الله على فطرة البشر أن توحده . وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة ؛ يخرج بها كل مولود إلى الوجود ؛ فلا يميل عنها إلا أن يفسد فطرته عامل خارجي عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشري للهدى وللضلال . وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيز الوجود ملابسات وظروف(١) .

إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة « الإنسان » وحده ؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هـذا الوجود من حوله ـ وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله ، موصولة به غير منقطعة عنه ، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه ـ بينما هي تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة . .

إن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود ، واضح الأثر في شكل الكون ، وتنسيقه ،

---

(١) يراجع فصل : « حقيقة الإنسان » في كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » القسم الثاني .

Marfat.com

وتناسق أجزائه ، وانتظام حركته ، واطراد قوانينه ، وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين . . وأخيرا ـ حسب العلم القليل الذى وصل إليه البشر ـ وحدة الجوهر الذى تتألف منه ذراته ، وهو الإشعاع الذى تنتهى إليه المواد جميعا عند تحطيم ذراتها وإطلاق شحناتها . .

ويوما بعد يوم يكشف البشر أطرافا من ناموس الوحدة فى طبيعة هذا الكون ، وطبيعة قوانينه التى تحكم تصرفاته ـ فى غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله مطرد متجدد وفق مشيئة الله الطليقة ـ ولكننا نحن لا نعتمد على هذا الذى يكشفه علم البشر الظنى ـ الذى لا يمكن أن يكون يقينيا بحكم وسائله البشرية ـ فى تقرير هذا الناموس . إنما نحن نستأنس به مجرد استئناس . واعتمادنا الأول فى تقرير أية حقيقة كونية مطلقة ، على ما قرره لنا الخالق العليم بما خلق . والقرآن الكريم لا يدع مجالا للشك فى أن الناموس الذى يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة ، الذى أنشأته المشيئة الواحدة للخالق الواحد سبحانه . كما أنه لا يدع مجالا للشك فى عبودية هذا الكون لربه . واعترافه بوحدانيته ، وعبادته له بالكيفية التى يعلمها الله ولا نعرف عنها إلا ما يخبرنا به ؛ وما نراه من آثارها فى انتظامه ودأبه واطراده (١) .

هذا الناموس الذى يصرف الكون كله ـ بقدر الله المطرد المتجدد وفق مشيئة الله الطليقة ـ سار كذلك فى كيان الإنسان ـ بوصفه من كائنات هذا الكون ـ مستقر فى فطرته ، لا يحتاج إلى وعى عقلى للإحساس به ؛ فهو مدرك بالفطرة ، مستقر فى صميمها ، تستشعره بذاتها ، وتتصرف وفقه ، ما لم يطرأ عليها الخلل والفساد ، فتنحرف عن إدراكها الذاتى له ، وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها ، بدلا من أن تسير وفق قانونها الداخلى القويم .

هذا الناموس ـ بذاته ـ هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها . ميثاق مودع فى كيانها . مودع فى كل خلية حية منذ نشأتها . وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات . وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ، ذى المشيئة الواحدة ، للمنشئة للناموس الواحد الذى يحكمها ويصرفها . فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها ـ سواء أكان بلسان الحال هذا أم بلسان

---

(١) يراجع فصل : « حقيقة الكون » فى المصدر السابق

Marfat.com

المقال كما فى بعض الآثار ـ لا سبيل إلى أن يقول أحد : إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد ، وعن رسالات الله التى دعت إلى هذا التوحيد . أو يقول : إننى خرجت إلى هـذا الوجود ، فوجدت آبائى قد أشركوا فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيـد إنما ضل آبائى فضللت فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هـذا التعقيب على تلك الشهادة :

« أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » .

ولكن الله ـ سبحانه ـ رحمة منه بعباده ، لما يعلمه من أن فى استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا ، وأن فطرتهم هـذه تتعرض لعوامل الانحراف ـ كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفعل شياطين الجن والإنس ؛ الذين يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقط الضعف ! . .

رحمة من الله بعباده قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هـذا ؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به ؛ حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات(١) . ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ؛ ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها . ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هى الرسالة :

« وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » . .

يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله ؛ وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك ـ فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد فى القلوب ؛ وردها

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فى الجزء السادس من هذه الظلال ص ٢٥ ـ ص ٣٥ من الطبعة الثانية المنقحة

Marfat.com

إلى بارئها الوحيد ، الذى فطرها على عقيدة التوحيد . ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير(١) .

* * *

وكمثل للانحراف عن سواء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها . . ذلك الذى آتاه الله آياته ، فكانت فى متناول نظره وفكره ؛ ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع الهوى ؛ فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ؛ فاستولى عليه الشيطان ؛ وأمسى مطرودا من حمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار . .

ولكن البيان القرآنى المعجز لا يصوغ للمثل هذه الصياغة ! إنما يصوره فى مشهد حى متحرك ، عنيف الحركة ، شاخص السمات ، بارز الملامح ، واضح الانفعالات ؛ يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة ، إلى جانب إيقاعات العبارة الموحية(٢) :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب . . إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ! » . .

إنه مشهد من المشاهد العجيبة ، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات .. إنسان يؤتيه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع .. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخا . ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه .. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان ؟ .. ها هو ذا ينسلخ من آيات الله ؛ ويتجرد من الغطاء الواقى ، والدرع الحامى ؛ وينحرف عن

---

(١) يراجع فصل : « ألوهية وعبودية » وفصل : « حقيقة الإنسان » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » ..

(٢) يراجع بتوسع فصل : « طريقة القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » ..

Marfat.com

الهدى ليتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم ؛ فيصبح غرضا للشيطان لايقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام ؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه .. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد .. إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقا بالأرض ، ملوثا بالطين . ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب ، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد .. . كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى ؛ والخيال شاخص يتبعها فى انفعال وانبهار وتأثر .. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها .. مشهد اللهاث الذى لاينقطع .. سمع التعليق المرهوب للوحى ، على المشهد كله :

« ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » ..

ذلك مثلهم ! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم . ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخا . ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان ، هابطون عن مكان « الإنسان » إلى مكان الحيوان .. مكان الكلب الذى يتمرغ فى الطين .. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين ؛ وكانوا من فطرتهم الأولى فى أحسن تقويم ، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين !

« ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ! » ..

وهل أسوأ من هذا المثل مثلا ؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعرى من الهدى ؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى ؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا ؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامى ، ويدعها غرضا للشيطان يلزمها ويركبها ، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض ، الحائر القلق ، اللاهث لهاث الكلب أبدا !!!

وهل يبلغ قول قائل فى وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد ؟ إلا هذا القرآن العجيب الفريد !!

وبعد .. فهل هو نبأ يتلى ؟ أم إنه مثل يضرب فى صورة النبأ لأنه يقع كثيرا . فهو من هذا الجانب خبر يروى ؟

تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحا فى فلسطين ـ قبل دخول بنى إسرائيل ـ وتروى بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهياره ؛ على نحو لايأمن الذى تمرس بالإسرائيليات

Marfat.com

الكثيرة المدسوسة فى كتب التفاسير ، أن يكون واحدة منها ؛ ولا يطمئن على الأقل لكل تفصيلاته التى ورد فيها ؛ ثم إن فى هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب مايدعو إلى زيادة الحذر .. فقد روى أن الرجل من بنى إسرائيل (بلعام ابن باعوراء) ، وروى أنه كان من أهل فلسطين الجبابرة . وروى أنه كان من العرب (أمية ابن الصلت) . وروى أنه كان من المعاصرين لبعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - (أبو عامر الفاسق) وروى أنه كان معاصرا لموسى عليه السلام . وروى أنه كان بعده على عهد يوشع ابن نون الذى حارب الجبارين ببنى إسرائيل بعد تيه الأربعين سنة على إثر رفض بنى إسرائيل الدخول ، وقولهم لموسى - عليه السلام - ماحكاه القرآن الكريم : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » .. كذلك روى فى تفسير الآيات التى أعطيها أنه كان (اسم الله العظيم) الذى يدعو به فيجاب ؛ كما روى أنه كتاب منزل وأنه كان نبيا .. ثم اختلفت تفصيلات النبأ بعد ذلك اختلافات شتى ..

لذلك رأينا - على منهجنا فى ظلال القرآن - ألا ندخل فى شىء من هذا كله . بما أنه ليس فى النص القرآنى منه شىء . ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه شىء . وأن نأخذ من النبأ ماوراءه . فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لايستقيموا عليها .. وما أكثر مايتكرر هذا النبأ فى حياة البشر ؛ ما أكثر الذين يعطون علم دين الله ، ثم لايهتدون به ، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه . واتباع الهوى به .. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم - فى وهمهم - عرض الحياة الدنيا .

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها . ويعلن غيرها . ويستخدم علمه فى التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ! يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الله وحرماته فى الأرض جميعا !

لقد رأينا من هؤلاء من يعلم ويقول : إن التشريع حق من حقوق الله - سبحانه - من ادعاه فقد ادعى الألوهيـة . ومن ادعى الألوهية فقد كفر . ومن أقر له بهـذا الحق وتابعه عليه فقد كفر أيضا ! . . ومع ذلك . . مع علمه بهذه الحقيقة ، التى يعلمها من الدين بالضرورة ، فإنه يدعو للطواغيت الذين يدّعون حق التشريع ، ويدّعون الألوهية بادعاء هذا

Marfat.com

الحق .. ممن حكم عليهم هو بالكفر ! ويسميهم «المسلمين» ! ويسمى مايزاولونه إسلاما لا إسلام بعده ! .. ولقد رأينا من هؤلاء من يكتب فى تحريم الربا كله عاما ؛ ثم يكتب فى حله كذلك عاما آخر .. ورأينا منهم من يبارك الفجور وإشاعة الفاحشة بين الناس ، ويخلع على هذا الوحل رداء الدين وشاراته وعناوينه . .

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقا لنبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ؟ وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذى يحكيه الله سبحانه عن صاحب النبأ : « ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ! » .. ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته . ولكنه - سبحانه - لم يشأ ، لأن ذلك الذى علم الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ولم يتبع الآيات ..

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ؛ فلم ينتفع بهذا العلم ؛ ولم يستقم على طريق الإيمان. وانسلخ من نعمة الله . ليصبح تابعا ذليلا للشيطان . ولينتهى إلى المسخ فى مرتبة الحيوان !

ثم ماهذا اللهاث الذى لا ينقطع ؟

إنه - فى حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده فى القرآن - ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التى من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها . ذلك اللهاث القلق الذى لايطمئن أبداً . والذى لا يتركه صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه ؛ فهو منطلق فيه أبدا !

والحياة البشرية ماتنى تطلع علينا بهذا المثل فى كل مكان وفى كل زمان وفى كل بيئة .. حتى إنه لتمر فترات كثيرة ، وما تكاد العين تقع على عالم إلا وهذا مثله . فما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله ، ممن لا ينسلخون من آيات الله ، ولا يخلدون إلى الأرض ؛ ولا يتبعون الهوى ؛ ولا يستذلهم الشيطان ؛ ولايلهثون وراء الحطام الذى يملكه أصحاب السلطان ! .. فهو مثل لاينقطع وروده ووجوده ؛ وما هو بمحصور فى قصة وقعت ، فى جيل من الزمان !

وقد أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتلوه على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله ، كى لاينسلخوا منها وقد أوتوها . ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى ، ليحذر الذين

Marfat.com

يعلمون من علم الله شيئا أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة ؛ وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذى لاينقطع أبدا ؛ وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذى لا يظلمه عدو لعدو . فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة !

ولقد رأينا من هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ فى زماننا هذا من كان كأنما يحرص على ظلم نفسه ؛ أو كن يعض بالنواجذ على مكان له فى قعر جهنم يخشى أن ينازعه إياه أحد من المتسابقين معه فى الحلبة! فهو ماينى يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا فى جهنم ! ومايني يلهث وراء هذا المطمع لهاثا لا ينقطع حتى يفارق هذه الحياة الدنيا !

اللهم اعصمنا ، وثبت أقدامنا ، وأفرغ علينا صبرا ، وتوفنا مسلمين ..

* * *

ثم نقف أمام هذا النبأ والتعبير القرآنى عنه وقفة أخرى . .

إنه مثل للعلم الذى لا يعصم صاحبه أن تثقل به شهواته ورغباته فيخلد إلى الأرض لا ينطلق من ثقلتها وجاذبيتها ؛ وأن يتبع هواه فيتبعه الشيطان ويلزمه ويقوده من خطام هذا الهوى . .

ومن أجل أن العلم لا يعصم يجعل المنهج القرآنى طريقه لتكوين النفوس المسلمة والحياة الإسلامية ، ليس العلم وحده لمجرد المعرفة ؛ ولكن يجعل العلم عقيدة حارة دافعة متحركة لتحقيق مدلولها فى عالم الضمير وفى عالم الحياة أيضا . .

إن المنهج القرآنى لا يقدم العقيدة فى صورة « نظرية » للدراسة . . فهذا مجرد علم لا ينشىء فى عالم الضمير ولا فى عالم الحياة شيئا . . إنه علم بارد لا يعصم من الهوى ، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئا . ولا يدفع الشيطان بل ربما ذلل له الطريق وعبدها !

كذلك هو لا يقدم هذا الدين دراسات فى « النظام الإسلامى » ولا فى « الفقه الإسلامى » ولا فى « الاقتصاد الإسلامى » ولا فى « العلوم الكونية » ولا فى « العلوم النفسية » ولا فى أية صورة من صور الدراسة المعرفية !

إنما يقدم هذا الدين عقيدة دافعة دافقة حية موقظة رافعة مستعلية ؛ تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملى فور استقرارها فى القلب والعقل ؛ وتحيي موات القلب فينبض ويتحرك

Marfat.com

ويتطلع ؛ وتوقظ أجهزة الاستقبال والاستجابة فى الفطرة فترجع إلى عهد الله الأول ؛ وترفع الاهتمامات والغايات فلا تثقلها جاذبية الطين ولا تخلد إلى الأرض أبدا .

ويقدمه منهجا للنظر والتدبر ؛ يتميز ويتفرد دون مناهج البشر فى النظر ، لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء ، وثقلة الأبدان ، وإغواء الشيطان !

ويقدمه ميزانا للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم ، وتقاس به وتوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم ؛ فما قبله منها هذا الميزان كان صحيحا لتمضى فيه ؛ وما رفضه هذا الميزان كان خاطئا يجب الإقلاع عنه .

ويقدمه منهجا للحركة يقود البشرية خطوة خطوة فى الطريق الصاعد إلى القمة السامقة . وفق خطاه هو ووفق تقديراته .. وفى أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظام حياتهم ، وأصول شريعتهم ، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم . ثم يصوغ الناس بعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية ، وعلومهم الكونية والنفسية ، وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية .. يصوغونها وفى نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها ، وجدية الشريعة وواقعيتها ؛ واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها .

هذا هو المنهج القرآنى فى صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية .. أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة ، فهذا هو العلم الذى لايعصم من ثقلة الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان ؛ ولا يقدم للحياة البشرية خيرا (١) !

* * *

ويقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب على ذلك المثل الشاخص فى ذلك المشهد ، للذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، بأن الهدى هدى الله . فمن هداه الله فهو المهتدى حقا ؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذى لايربح شيئا :

« من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » ..

والله سبحانه يهدى من يجاهد ليهتدى ، كما قال تعالى فى السورة الأخرى : « والذين

---

(١) يراجع التعريف بسورة الأنعام فى الجزء السابع ص ٧٧ ــ ص ١١٦ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .. وكما قال : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. وكما قال : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ..

كذلك يضل الله من يبغى الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها . وذلك كما جاء فى الآية التالية فى السياق : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .. وكما قال تعالى : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » .. وكما قال : « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم طريقا ، إلا طريق جهنم خالدين فيها ... »

ومن مراجعة مجموعة النصوص التى تذكر الهدى والضلال ، والتنسيق بين مدلولاتها جميعا يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذى أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية ، والذى أثاره اللاهوت المسيحى والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموما ..

إن مشيئة الله سبحانه التى يجرى بها قدره فى الكائن الإنسانى ، هى أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال .. وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها . ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى . ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل .. ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذى خلق الإنسان به ، وفق مشيئة الله التى جرى بها قدره .

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجرى قدر الله بهداية من يجاهد للهدى . وأن يجرى قدر الله كذلك بإضلال من لايستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع فى إدراك الآيات المبثوثة فى صفحات الكون ، وفى رسالات الرسل ، الموحية بالهدى .

وفى كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولايتحقق سواها ، ويقع ما يقع بقدر الله لابقوة سواه . وما كان الأمر ليكون هكذا إلا أن الله شاءه هكذا . وما كان شىء ليقع إلا أن يوقعه قدر الله . فليس فى هذا الوجود مشيئة أخرى تجرى وفقها الأمور ، كما أنه ليس هناك قوة إلا قدر الله

Marfat.com

ينشئ الأحداث . . وفى إطار هذه الحقيقة الكبيرة يتحرك الإنسان بنفسه ، ويقع له ما يقع من الهدى والضلال أيضا ..

وهذا هو التصور الإسلامى الذى تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة ، حين لاتؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل ، وحين لا يوضع بعضها فى مواجهة البعض الآخر ، على سبيل الاحتجاج والجدل (١) !

وفى هذا النص الذى يواجهنا هنا :

« من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون »

يقرر أن من يهديه الله ـ وفق سنته التى صورناها فى الفقرة السابقة ـ فهو المهتدى حقا ، الواصل يقينا ، الذى يعرف الطريق ، ويسير على الصراط ، ويصل إلى الفلاح فى الآخرة .. وأن الذى يضله الله ـ وفق سنته تلك ـ فهو الخاسر الذى خسر كل شىء ولم يربح شيئا . . مهما ملك ، ومهما أخذ ؛ فكل ذلك هباء أو هواء ! وإنه لكذلك إذا نظرنا إليه من زاوية أن هذا الضال قد خسر نفسه . وماذا يأخذ وماذا يكسب من خسر نفسه ؟ !

* * *

ويؤيد ما ذهبنا إليه فى فهم الآية السابقة وأخواتها نص الآية التالية :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . . أولئك هم الغافلون » . .

إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ! وهم مهيأون لها ! فما بالهم كذلك ؟

هنالك اعتباران :

الاعتبار الأول : أنه مكشوف لعلم الله الأزلى أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم . .

---

(١) يراجع فصل . « التوازن » وفصل « الشمول » فى القسم الأول من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وفصل : « حقيقة الألوهية » وفصل « حقيقة الإنسان » فى القسم الثانى من الكتاب ذاته .

Marfat.com

وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذى يستحقون به جهنم إلى عالم الواقع الفعلى لهم . فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل فى عالم العباد الحادث .

والاعتبار الثانى : أن هذا العلم الأزلى ــ الذى لا يتعلق بزمان ولا حركة فى عالم العباد الحادث ــ ليس هو الذى يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذى تستحق به جهنم . إنما هم كما تنص الآية :

« لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها » . .

فهم لم يفتحوا القلوب التى أعطوها ليفقهوا ــ ودلائل الإيمان والهدى حاضرة فى الوجود وفى الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة ــ وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية . ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة . . لقد عطلوا هذه الأجهزة التى وهبوها ولم يستخدموها . . لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون :

« أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . .

والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله فى الكون وفى الحياة ؛ والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير فلا يرون فيها يد الله . . أولئك كالأنعام بل هم أضل . . فللأنعام استعدادات فطرية تهديها . أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعى والعين المبصرة والأذن الملتقطة . فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا . إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ؛ ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ؛ ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها . . فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية . . ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجرى بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا . فكانوا ــ كما هم فى علم الله القديم ــ حصب جهنم منذ كانوا !

* * *

وبعد استعراض مشهد الميثاق الكونى بالتوحيد ؛ واستعراض مثل للمنحرف عن هذا الميثاق وعن آيات الله بعد إذ آتاه الله إياها . . يعقب بالتوجيه الآخر باهمال المنحرفين ــ الذين

Marfat.com

كانوا يتمثلون فى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام بالشرك - الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها ، فيسمون بها الشركاء المزعومين :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون » . .

والإلحاد هو الانحراف أو التحريف . . وقد حرف المشركون فى الجزيرة أسماء الله الحسنى ، فسموا بها آلهتهم المدعاة . . حرفوا اسم « الله » فسموا به « اللات » . واسم « العزيز » فسموا به « العزى » . . فالآية تقرر أن هذه الأسماء الحسنى لله وحده . وتأمر أن يدعوه المؤمنون وحده بها ، دون تحريف ولا ميل ؛ وأن يدعوا المحرفين المنحرفين ؛ فلا يحفلوهم ولا يأبهوا لما هم فيه من الإلحاد . فأمرهم موكول إلى الله ؛ وهم ملاقون جزاءهم الذى ينتظرهم منه . . ويأله من وعيد ! . .

وهذا الأمر بإهمال شأن الذين يلحدون فى أسماء الله ؛ لا يقتصر على تلك المناسبة التاريخية ، ولا على الإلحاد فى أسماء الله بتحريفها اللفظى إلى الآلهة المدعاة . إنما هو ينسحب على كل ألوان الإلحاد فى شتى صوره . . ينسحب على الذين يلحدون - أى يحرفون أو ينحرفون - فى تصورهم لحقيقة الألوهية على الإطلاق . كالذين يدعون له الولد . وكالذين يدّعون أن مشيئته - سبحانه - مقيدة بنواميس الطبيعة الكونية ! وكالذين يدعون له كيفيات أعمال تشبه كيفيات أعمال البشر - وهو سبحانه ليس كمثله شىء - وكذلك من يدعون أنه سبحانه إله فى السماء ، وفى تصريف نظام الكون ، وفى حساب الناس فى الآخرة . ولكنه ليس إلها فى الأرض ، ولا فى حياة الناس ، فليس له - فى زعمهم - أن يشرع لحياة الناس ؛ إنما الناس هم الذين يشرعون لأنفسهم بعقولهم وتجاربهم ومصالحهم - كما يرونها هم - فالناس - فى هذا - هم آلهة أنفسهم . أو بعضهم آلهة بعض ! . . وكله إلحاد فى الله وصفاته وخصائص ألوهيته . . والمسلمون مأمورون بالإعراض عن هذا كله وإهماله ؛ والملحدون موعدون بجزاء الله لهم على ما كانوا يعملون !

* * *

ثم يمضى السياق يفصل صنوف الخلق . . بعد ما ذكر منهم من قبل أولئك الذين ذرأهم

Marfat.com

الله لجهنم « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ... » ومنهم هؤلاء الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها . . ثم إن منهم أمة يستمسكون بالحق ، ويدعون الناس إليه ، ويحكمون به ولا ينحرفون عنه . . وأمة - على الضد - ينكرون الحق ، ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم فى الأرض وجودا ثابتا لا شك فيه ؛ وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون ، ويزيغ عنه الزائغون ؛ وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يبقون هم عليه صامدين . وأما الآخرون فيكشف عن مصير لهم مخيف ، وكيد لله إزاءهم متين :

« وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين » . .

وما كانت البشرية لتستحق التكريم لو لم تكن فيها دائما - وفى أحلك الظروف - تلك الجماعة - التى يسميها الله « أمة » بالمصطلح الإسلامى للأمة وهى : الجماعة التى تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على آصرتها ؛ وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة - فهذه الأمة الثابتة على الحق ، العاملة به فى كل حين ، هى الحارسة لأمانة الله فى الأرض ، الشاهدة بعهده على الناس ، التى تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده فى كل جيل .

ونقف لحظة أمام صفة هذه الأمة :

« يهدون بالحق . وبه يعدلون » . .

إن صفة هذه الأمة - التى لا ينقطع وجودها من الأرض أيا كان عددها - أنهم « يهدون بالحق » . . فهم دعاة إلى الحق ، لا يسكتون عن الدعوة به ، وإليه ، ولا يتقوقعون على أنفسهم ؛ ولا ينزوون بالحق الذى يعرفونه . ولكنهم يهدون به غيرهم . فلهم قيادة فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق ، المتنكرين لذلك العهد ؛ ولهم عمل إيجابى لا يقتصر على معرفة الحق ، إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه .

« وبه يعدلون » . . فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق فى حياة الناس والحكم به بينهم ، تحقيقا للعدل الذى لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق .. فما جاء هذا الحق ليكون مجرد علم يعرف ويدرس . ولا مجرد وعظ يهدى به ويعرف ! إنما جاء هذا الحق

Marfat.com

ليحكم أمر الناس كله . يحكم تصوراتهم الاعتقادية فيصححها ويقيمها على وفقه . ويحكم شعائرهم التعبدية فيجعلها ترجمة عنه فى صلة العبد بربه . ويحكم حياتهم الواقعية فيقيم نظامها وأوضاعها وفق منهجه ومبادئه ويقضى فيها بشريعته وقوانينه المستمدة من هذه الشريعة . ويحكم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وسلوكهم فيقيمها كلها على التصورات الصحيحة المستمدة منه . ويحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم وثقافاتهم كلها ويضبطها بموازينه . . . وبهذا كله يوجد هذا الحق فى حياة الناس ، ويقوم العدل الذى لا يقوم إلا بهذا الحق . . وهذا ما تزاوله تلك الأمة بعد التعريف بالحق والهداية به . .

إن طبيعة هذا الدين واضحة لا تحتمل التلبيس ! صلبة لا تقبل التمييع ! والذين يلحدون فى هذا الدين يجدون مشقة فى تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة . . وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهودا لا تكل ، وحملات لا تنقطع ، ويستخدمون فى تحريفه عن وجهته وفى تمييع طبيعته ، كل الوسائل وكل الأجهزة ، وكل التجارب . . هم يسحقون سحقا وحشيا كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة فى كل مكان على وجه الأرض عن طريق الأوضاع التى يقيمونها ويكفلونها فى كل بقاع الأرض ! وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويحلون ماحرم الله ، ويميعون ماشرعه ، ويباركون الفجور والفاحشة ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه ! وهم يزحلقون المخدوعين فى الحضارات المادية ،المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة الإسلام فى التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع ، ورفع شعاراتها ، أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها ! وهم يصورون الإسلام الذى يحكم الحياة حادثا تاريخيا مضى ولا تمكن إعادته ، ويشيدون بعظمة هذا الماضى ليخدروا مشاعر المسلمين ، ثم ليقولوا لهم ـ فى ظل هذا التخدير ـ : إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش فى نفوس أهله عقيدة وعبادة ، لا شريعة ونظاما ، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخى القديم ! هذا وإلا فإن على هذا الدين أن « يتطور » فيصبح محكوما بواقع البشر ، يبصم لهم على كل مايقدمونه له من تصورات وقوانين . وهم يضعون للأوضاع التى يقيمونها فى العالم ـ الذى كان إسلاميا ـ نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين ، لتحل محل ذلك الدين القديم ! وينزلون لها قرآنا يتلى ويدرس ، ليحل محل ذلك القرآن القديم ! وهم يحاولون تغيير طبيعة

Marfat.com

المجتمعات ـ كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين ـ كوسيلة أخيرة ، حتى لا يجد هذا الدين قلوبا تصلح للهداية به ؛ فيحولون المجتمعات إلى فتات غارق فى وحل الجنس والفاحشة والفجور ، مشغول بلقمة العيش لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد ، كى لا يفيق ، بعد اللقمة والجنس ، ليستمع إلى هدى ، أو يفىء إلى دين !

إنها المعركة الضارية مع هذا الدين والأمة التى تهتدى به وتحاول أن تعدل به . . المعركة التى تستخدم فيها جميع الأسلحة بلا تحرج ، وجميع الوسائل بلا حساب ؛ والتى تجند لها القوى والكفايات وأجهزة الإعلام العالمية ؛ والتى تسخر لها الأجهزة والتشكيلات الدولية ؛ والتى تكفل من أجلها أوضاع ما كانت لتبقى يوما واحدا لولا هذه الكفالة العالمية !

ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ماتزال صامدة لهذه المعركة الضارية . والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق ـ على قلة العدد وضعف العدة ـ ماتزال صامدة لعمليات السحق الوحشية .. والله غالب على أمره .

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين » ..

وهذه هى القوة التى لا يحسبون حسابها وهم يشنون هذه المعركة الضارية ضد هذا الدين وضد الأمة المستمسكة به الملتقية عليه المتجمعة على آصرته.. هذه هى القوة التى يغفلها المكذبون بآيات الله .. إنهم لا يتصورون أبدا أنه استدراج الله لهم من حيث لا يعلمون . ولا يحسبون أنه إملاء الله لهم إلى حين . . فهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ! . . إنهم يتولى بعضهم بعضا ويرون قوة أوليائهم ظاهرة فى الأرض فينسون القوة الكبرى ! . . إنها سنة الله مع المكذبين .. يرخى لهم العنان ، ويملى لهم فى العصيان والطغيان ، استدراجا لهم فى طريق الملكة ، وإمعانا فى الكيد لهم والتدبير . ومن الذى يكيد ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين ! ولكنهم غافلون ! والعاقبة للمتقين . الذين يهدون بالحق وبه يعدلون ..

* * *

ولقد كان القرآن يواجه بذلك التهديد الرعيب قوما من المكذبين بآيات الله فى مكة ـ والنص القرآنى دائما أبعد مدى من المناسبة الخاصة ـ وكان يتوعدهم بما موقفهم من الجماعة

Marfat.com

المسلمة – التي يسميها آمة وفق المصطلح الإسلامي – بالإملاء لهم والاستدراج والكيد المتين .. ثم كان يدعوهم – بعد هذا التهديد – إلى استخدام قلوبهم وعيونهم وآذانهم . فلا يكونوا من ذرء جهنم ولا يكونوا من الغافلين . . كان يدعوهم إلى التدبر في أمر رسولهم الذى يدعوهم إلى الحق ويهديهم به ؛ وإلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض وآيات الله المبثوثة فى هذا الملكوت ؛ وكان يوقظهم إلى مرور الوقت وما يؤذن به من اقتراب الأجل المجهول ، وهم غافلون :

« أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين . أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » .

إن القرآن يهزهم من غفوتهم ، ويوقظهم من غفلتهم ، ويستنقذ – من تحت الركام – فطرتهم وعقولهم ومشاعرهم . . إنه يخاطب كينونتهم البشرية كلها ، بكل ما فيها من أجهزة الاستقبال والاستجابة . . إنه لا يوجه إليهم جدلا ذهنيا باردا ؛ إنما هو يستنقذ كينونتهم كلها وينفضها من أعماقها :

« أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين » . .

لقد كانوا يقولون عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى حرب الدعاية التى يشنها ضده الملأ من قريش يخدعون بها الجماهير : إن محمدا به جنة . وهو من ثم ينطق بهذا الكلام الغريب ، غير المعهود فى أساليب البشر العاديين !

ولقد كان الملأ من قريش يعلمون أنهم كاذبون ! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق فى أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعمق التأثر .. وقصة الأخنس ابن شريق ، وأبى سفيان ابن حرب ، وعمرو ابن هشام – أبى جهل – فى الاستماع لهذا القرآن خلسة ، ليالى ثلاثا ، وما وجدوه فى أنفسهم منه معروفة(١) .. وكذلك قصة عتبة بن ربيعة وسماعه سورة فصلت من النبى صلى الله عليه وسلم وهزته أمام إيقاعاتها المزلزلة (٢) .. ومثلها قصة تآمرهم

(١) يراجع الجزء السادس من الظلال ص ٥٠ – ٥١ الطبعة الثانية المنقحة .
(٢) تراجع فى الجزء السابع ص ١٨٨ – ١٨٩ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

قبيل موسم الحج فيما يقولون للناس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما معه من القرآن ؛ وانتهاء الوليد ابن المغيرة إلى أن يقولوا للوفود : إنه سحر يؤثر(١) .. كل هذه الروايات تثبت أنهم ما كانوا جاهلين لحقيقة هذا الأمر ؛ إنما هم كانوا يستكبرون عنه ؛ ويخشونه على سلطانهم الذى تهدده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ التى تسلب البشر حق تعبيد البشر لغير الله .. وتهدد كل طاغوت بشرى على العموم !

من ثم كانوا يستغلون تفرد هذا القرآن العجيب وتميزه عن قول البشر المعهود ؛ كما يستغلون الصورة التى كانت معهودة فيهم وفيمن قبلهم ، عن الصلة بين التنبؤ والجنون ! والنطق بكلمات ورموز يؤولها الصاحبون لمن بهم جنة وفق ما يريدون ؛ ويزعمون أنها تأتيهم من عالم غير منظور !.. كانوا يستغلون هذه الرواسب فى التمويه على الجماهير بأن الذى يقوله محمد ، إنما يقوله عن جنة به ؛ وأنه يأتى بالغريب العجيب من القول ، لأنه مجنون(٢) !

والقرآن يدعوهم إلى التفكر والتدبر فى أمر صاحبهم الذى عرفوه من قبل وخبروه . فلم يعرفوا عنه من قبل خللا عن السواء ؛ وشهدوا له بالأمانة والصدق ، كما شهدوا له بالحكمة ؛ وحكموه فى الحجر الأسود وارتضوا حكمه واتقوا بهذا الحكم الحكيم فتنة بينهم كادت تثور . واستأمنوه على ودائعهم وظلت عنده حتى خرج مهاجرا فردها لهم عنه ابن عمه على كرم الله وجهه !

القرآن يدعوهم إلى التفكر والتدبر فى أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله . . أفهذا به جنة ؟ .. أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ؟ .. كلا :

« ما بصاحبهم من جنة .. إن هو إلا نذير مبين » ..

لا اختلاط فى عقله ولا فى قوله . إنما هو منذر مفصح مبين . لا يلتبس قوله بقول المجانين ، ولا تشتبه حاله بحال المجانين .

---

(١) يراجع تفسير سورة المدثر فى الجزء التاسع والعشرين من هذه الظلال : ص ١٨٧ ص ١٩٠ من الطبعة الأولى .

(٢) يراجع ماجاء عن صورة « النبى » وعلاقتها بالجنون فى الجاهليات المختلفة فى الجزء السابع من الظلال ص ٢٢١ ص ٢٢٧ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

ثم ..

« أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء ؟ » ..

وهى هزة أخرى أمام هذا الكون العجيب . . والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة فى هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، يكفى وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام ؛ وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه ، والإبداع الذى يشهد به ، والإعجاز الذى يدل على البارئ الواحد القدير . . والنظر إلى ماخلق الله من شئ – وكم فى ملكوت السماوات والأرض من شئ – يدهش القلب ويحير الفكر ، ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله ، وعن الإرادة التى أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور .

لماذا كانت الخلائق على هذا النحو الذى كانت به ؛ ولم تكن على أى نحو آخر من الإمكانيات التى لا حصر لها فى الكينونة ؟ لماذا سارت فى هذا الطريق ولم تسر فى أى طريق آخر من الطرق الممكنة الأخرى ؟ لماذا استقامت على طريقها هذا ومن الذى يمسكها على نشأتها ؟ ماسر هذه الوحدة السارية فى طبيعتها إن لم يكن هذا هو الناموس الواحد ، الصادر عن الإرادة الواحدة، التى يجرى بها قدر مطرد مقصود ؟

إن الجسم الحى . لابل الخلية الحية . لمعجزة لاينقضى منها العجب .. وجودها . تركيبها . تصرفها . عمليات التحول الدائمة التى تتم فيها كل لحظة مع محافظتها على وجودها ؛ وتضمنها كذلك لوسيلة التجدد فى أنسال منها ؛ ومعرفتها لوظيفتها ولامتداد هذه الوظيفة فى أنسالها ! .. فمن ذا الذى ينظر إلى هذه الخلية الواحدة ، ثم يطمئن عقله – بله فطرته وضميره – إلى أن هذا الكون بلا إله ، أو أن هناك آلهة مع الله ؟

إن امتداد الحياة عن طريق الزوجية والنسل ليقوم شاهدا يهتف لكل قلب وكل عقل بتدبير الخالق الواحد المدبر .. وإلا فمن ذا الذى يضمن للحياة وجود الذكر والأنثى دائما فى نسلها بالمقادير التى يتم بها هذا التزاوج ؟ لماذا لايأتى زمن على الحياة تنسل ذكورا فقط أو إناثا فقط .. ولوحدث هذا لانقطع النسل عند هذا الجيل .. فمن ذا الذى يمسك بعجلة التوازن دائما فى الأجيال جميعا ؟

Marfat.com

إن التوازن ملحوظ فى ملكوت السماوات والأرض جميعا ـ لا فى هذه الظاهرة الحيوية وحدها ـ إنه ملحوظ فى بناء الذرة كما هو ملحوظ فى بناء المجرة ! وملحوظ فى التوازن بين الأحياء وبين الأشياء سواء .. ولو اختل هذا التوازن شعرة ماظل هذا الكون قائما لحظة افمن الذى يمسك بعجلة التوازن الكبرى فى السماوات والأرض جميعا ؟ (١)

وعرب الجزيرة الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ما كانوا يدركون بعلومهم مدى هذا التوازن والتناسق فى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شيء .. ولكن الفطرة الإنسانية بذاتها تلتقى مع هذا الكون فى أعماقها ؛ وتتجاوب معه بلغة غير منطوقة إلا فى هذه الأعماق . ويكفى أن ينظر الإنسان بالقلب المفتوح والعين المبصرة إلى هذا الكون حتى يتلقى إيقاعاته وإيحاءاته تلقيا موحيا هاديا .

ولقد اهتدى الإنسان بفطرته ـ وهو يتلقى إيقاعات هذا الوجود فى حسه ـ إلى أن له إلها. ولم تغب عن حسه قط هذه الحقيقة . إنما كان يخطىء فى تحديد صفة الإله الحق ، حتى تهديه الرسالات إلى الرؤية الصحيحة (٢).. فأما الملحدون الجدد ـ أصحاب « الاشتراكية العلمية » ! ـ فهم أمساخ شائهو الفطرة . بل إنهم إنما ينكرون الفطرة ، ويعاندون ما يجدونه فى أنفسهم من إلحاحها .. وعندما صعد أحدهم إلى الفضاء الجوى ، ورأى ذلك المشهد الباهر ـ مشهد الأرض كرة معلقة فى الفضاء ـ هتفت فطرته : ما الذى يمسكها هكذا فى الفضاء ؟ ولكنه حين هبط إلى الأرض ، وتذكر إرهاب الدولة ، قال : إنه لم يجد الله هناك ! وكتم إلحاح فطرته وصراخها فى أعماقه ، أمام شيء من ملكوت السماوات والأرض !

إن الله الذى يخاطب الإنسان بهذا القرآن لهو الذى خلق هذا الإنسان ، والذى يعلم فطرة هذا الإنسان !

وأخيرا يلمس قلوبهم بطائف الموت الذى قد يكون مخبأ لهم ـ من قريب ـ فى عالم المجهول المغيب ؛ وهم عنه غافلون :

« وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » ..

---

(١) يراجع فصل : « حقيقة الكون » وفصل : « حقيقة الحياة » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الثانى.

(٢) يراجع فصل « ألوهية وعبودية » وفصل : « حقيقة الإنسان » فى المصدر السابق .

Marfat.com

فما يدريهم أن أجلهم قريب ؟ وما يقيهم فى غفلتهم سادرين ؟ وهم عن غيب الله محجوبون ؟ وهم فى قبضته لايفلتون ؟

إن هذه اللمسة بالأجل المغيب ـ الذى قد يكون قد اقترب ـ لتهز القلب البشرى هزة عميقة! لعله أن يستيقظ ويتفتح ويرى .. والله منزل هذا القرآن وخالق هذا الإنسان يعلم أن هذه اللمسة لاتبقى قلبا غافلا .. ولكن بعض القلوب قد يعاند بعد ذلك ويكابر !

« فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » !

وما بعد هذا الحديث من حديث تهتز له القلوب أو تلين ؟

إن هذه اللمسات التى تعددت فى الآية الواحدة ؛ لتكشف لنا عن منهج هذا القرآن فى خطاب الكينونة البشرية . . إنه لايدع جانبا واحدا منها لايخاطبه ؛ ولايدع وترا منها واحدا لايوقع عليه ؛ إنه لايخاطب الذهن ولكنه لايهمله ؛ ففى الطريق ـ وهو يهز الكيان البشرى كله ـ يلمسه ويوقظه . إنه لايسلك إليه طريق الجدل البارد ، ولكنه يستحييه لينظر ويتفكر وحرارة الحياة تسرى فيه وتيارها الدافق .. وهكذا ينبغى أن يتجه منهج الدعوة إلى الله دائما .. فالإنسان هو الإنسان لم يتبدل خلقا آخر . والقرآن هو القرآن كلام الله الباقى ، وخطاب الله لهذا الإنسان الذى لايتغير .. مهما تعلم ومهما « تطور ! » ..

* * *

وهنا يقف السياق وقفة قصيرة للتعقيب .. يقرر فيها سنة الله الجارية بالهدى والضلال ؛ وفق ما أرادته مشيئته من هداية من يطلب الهدى ويجاهد فيه ؛ وإضلال من يصرف قلبه عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان . وذلك بمناسبة ما عرضه السياق قبل ذلك من حال أولئك القوم الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن ؛ على طريقة القرآن الكريم فى عرض القاعدة العامة بمناسبة المثل الفرد ؛ ومن بيان السنة الثابتة بمناسبة الحادث العابر :

« من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

إن الذين يضلون ، إنما يضلون لأنهم غافلون عن النظر والتدبر . ومن يغفل عن النظر فى آيات الله وتدبرها يضله الله ؛ ومن يضله الله لايهديه أحد من بعده :

« من يضلل الله فلا هادى له » ..

ومن يكتب الله عليه الضلال ـ وفق سنته تلك ـ يظل فى طغيانه عن الحق وعماه عنه أبدا :

Marfat.com

« ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » ..

وما فى تركهم فى عماهم من ظلم ، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم ، وهم الذين عطلوا قلوبهم وجوارحهم ، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق وأسرار الوجود ، وشهادة الأشياء ـ التى يوجههم إليها فى الآية السابقة ـ وحيثما امتد البصر فى هذا الكون وجد عجيبة ، وحيثما فتحت العين وقعت على آية ، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به ، لمس الإعجاز فى تكوينه وفيما حوله من شىء . فإذا عمه ـ أى عمى ـ عن هذا كله ، ترك فى عماه ، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك فى طغيانه حتى يسلمه إلى البوار :

« ويذرهم فى طغيانهم يعمهون »

* * *

هؤلاء الغافلون عما حولهم ، العمىُ عما يحيط بهم .. يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الساعة البعيدة المغيبة فى المجهول . كالذى لا يرى ما تحت قدميه ويريد أن يرى ما فى الأفق البعيد !

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها ! قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل : لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » . .

لقد كانت عقيدة الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء ، تفاجئ المشركين فى الجزيرة مفاجأة كاملة . . ومع أن هذه العقيدة أصيلة فى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو جد هؤلاء المشركين ؛ وفى دين إسماعيل أبيهم الكريم ؛ إلا أنه كان قد طال عليهم الأمد ، وبعد ما بينهم وبين أصول الإسلام الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل . حتى لقد اندثرت عقيدة الآخرة تماما من تصوراتهم ؛ فكانت أغرب شىء عليهم وأبعده عن تصورهم . حتى لقد كانوا يعجبون ويعجبون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه يحدثهم عن الحياة بعد الموت ؛ وعن البعث والنشور والحساب والجزاء ؛ كما حكى عنهم القرآن الكريم فى السورة الأخرى :

Marfat.com

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم ، إذا مزقتم كل ممزق ، إنكم لفي خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا ؟ أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » . . (سبأ : ٧ - ٨)

ولقد علم الله أن أمة من الأمم لا تملك أن تقود البشرية وتشهد عليها - كما هي وظيفة الأمة المسلمة - إلا أن تكون عقيدة الآخرة واضحة لها راسخة في ضميرها . . فتصور الحياة على أنها هذه الفترة المحدودة بحدود هذه الحياة الدنيا ، وحدود هذه الأرض الصغيرة ، لا يمكن أن ينشئ أمة هذه صفتها وهذه وظيفتها !

إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور ، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة . . كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة ؛ ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة ، عن المضي في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة ، والتضحيات الأليمة وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة . .

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس « الإنسان » ، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك « الحيوان » ! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة !

لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله . . ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح . . . حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلا . . وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني[1] !

ونحن في هذا الموضع من سياق سورة الأعراف أمام صورة من صور الاستغراب

---

(١) يراجع ما جاء في الجزء السابع من هذه الظلال ص١٧٨ - ص١٨٤ من الطبعة الثانية المنقحة . . كما يراجع كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن »

Marfat.com

والاستنكار الذى يواجـه به المشركون عقيدة الآخرة ، تبدو فى سؤالهم عن الساعة سؤال الساخر المستنكر المستهتر :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ »

إن الساعة غيب ، من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه . . ولـكن المشركين يسألون الرسول عنها . . إما سؤال المختبر الممتحن ! وإما سؤال المتعجب المستغرب ! وإما سؤال المستهين المستهتر ! « أيان مرساها ؟ » . . أى متى موعدها الذى إليه تستقر وترسو ؟ !

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشر لا يدعى علم الغيب ، مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه ، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية ، وأنه هو بشر لا يدعى شيئا خارج بشريته ولا يتعدى حدودها ، إنما يعلمه ربه ويوحى إليه ما يشاء :

« قل : إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو » . .

فهو ـ سبحانه ـ مختص بعلمها ، وهو لا يـكشف عنها إلا فى حينها ، ولا يـكشف غـيره عنها .

ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها ، إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها ، وإلى الشعور بهولها وضخامتها . . . ألا وإن أمرها لعظيم ، ألا وإن عبئها لثقيل . ألا وإنها لتثقل فى السماوات والأرضين . وهى ـ بعد ذلك ـ لا تأتى إلا بغتة والغافلون عنها غافلون :

« ثقلت فى السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة » . .

فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتى بغتة ؛ فلا ينفع معها الحذر ، ولا تجدى عندها الحيطة ، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها ، وما لم يستعدوا لها ، وفى الوقت متسع وفى العمر بقية . وما يدرى أحد متى تجىء ، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع ، وألا يضيع بعد ساعة ، قد تفجؤه بعدها الساعة !

ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الساعة .. إنهم لايدركون طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ ولايعرفون حقيقة الألوهية ، وأدب الرسول فى جانب ربه العظيم .

Marfat.com

« يسألونك كأنك حفى عنها ! »

أى كأنك دائم السؤال عنها ! مكلف أن تكشف عن موعدها ! ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه :

« قل : إنما علمها عند الله » . .

قد اختص سبحانه به ؛ ولم يطلع عليه أحدا من خلقه .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

وليس الأمر أمر الساعة وحده . إنما هو أمر الغيب كله فلله وحده علم هذا الغيب . لا يطلع على شيء منه إلا من شاء ، بالقدر الذى يشاء ، فى الوقت الذى يشاء .. لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعا ولا ضرا .. فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم ، ولكن عاقبته تكون هى الضر لهم . وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم ، ولكن عاقبته للغية تجره عليهم ! وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هى الخير ؛ ويفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هى الضر : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . .

والشاعر الذى يقول :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ! ومن أين والغايات بعد المذاهب (١)

إنما يمثل موقف البشرية أمام الغيب المجهول ومهما يعلم الإنسان ومهما يتعلم ، فإن موقفه أمام باب الغيب الموصد ، وأمام ستر الغيب المسدل ، سيظل يذكره ببشريته المحجوبة أمام عالم الغيب المحجوب (٢) .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من هو ؛ وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام غيب الله بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ، ولا يرى مآل أفعاله ؛ ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله

---

(١) من قصيدة لابن الرومى .

(٢) يراجع ما جاء فى الجزء السابع عند تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ص ٢٥٠ ـ ص ٢٦٢ من الطبعة الثانية .

Marfat.com

بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيرا أقدم ، وإن رآها سوءا أحجم . إنما هو يعمل ، والعاقبة تجيء كما قدر الله في غيبه المكنون :

« قل : لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ـ إلا ماشاء الله ـ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ..

وبهذا الإعلان تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق ، من الشرك فى أية صورة من صوره . وتتفرد الذات الإلهية بخصائص لايشاركها البشر فى شىء منها . ولوكان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية ، ويقف العلم البشرى . وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتتحدد وظيفته (١) :

« إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ..

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذير وبشير للناس أجمعين . ولكن الذين « يؤمنون » هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة ؛ فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ؛ وهم الذين يدركون ماوراء هذا الذى جاء به . ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها ، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين ..

إن الكلمة لا تعطى مدلولها الحقيق إلا للقلب المفتوح لها ، والعقل الذى يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ، ولا يعطى ثماره ، إلا لقوم يؤمنون . ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن .. وهذا الإيمان هو الذى كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ، ويصنعون به تلك الخوارق التى صنعوها فى أقصر وقت من الزمان .

لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد من حلاوة القرآن ، ومن نوره ، ومن فرقانه ، ما لا يجده إلا الذين يؤمنون إيمان ذلك الجيل . ولئن كان القرآن هو الذى أخذ بأرواحهم إلى الإيمان ، لقد كان الإيمان هو الذى فتح لهم فى القرآن ما لا يفتحه إلا الإيمان !

(١) يراجع ما جاء فى الجزء السابع عن طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ص ٢١٧ ـ ص ٢٢٧ من الطبعة الثانية المنقحة.

Marfat.com

لقد عاشوا بهذا القرآن ، وعاشوا له كذلك .. ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذى لم يتكرر - بهذه الكثرة وبهذا التوافق على ذلك المستوى - فى التاريخ كله .. اللهم إلا فى صورة أفراد على مدار التاريخ يسيرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب !

لقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، فلم تشب نبعه الرائق شائبة من قول البشر ، اللهم إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهديه .. وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك .. ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان .

وما أجدر الذين يحاولون أداء ما أداه ذلك الجيل أن ينهجوا نهجه ، فيعيشوا بهذا القرآن ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، لا يخالط عقولهم وقلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان ! (١)

* * *

ثم جولة جديدة فى قضية التوحيد . تأخذ فى أولها صورة القصة ، لتصور خطوات الانحراف من التوحيد إلى الشرك فى النفس . وكأنما هى قصة انحراف هؤلاء المشركين عن دين أبيهم إبراهيم .. ثم تنتهى إلى مواجهتهم بالسخف الذى يزاولونه فى عبادة آلهتهم التى كانوا يشركون بها ، وهى ظاهرة البطلان لأول نظرة ولأول تفكير . وتختم بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تحديهم هم وهؤلاء الآلهة التى يعبدونها من دون الله ، وأن يعلن التجاءه إلى الله وحده ، وليه وناصره :

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون ! أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ؟

« وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل :

---

(١) يراجع فصل : « جيل متفرد » فى كتاب : « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين. والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون » ..

إنها جولة مع الجاهلية فى تصوراتها التى متى انحرفت عن العبودية لله الواحد لم تقف عند حد من السخف والضلال ؛ ولم ترجع إلى تدبر ولا تفكير ! وتصوير لخطوات الانحراف فى مدارجه الأولى ؛ وكيف ينتهى إلى ذلك الضلال البعيد !

* * *

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها . فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ، فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » ..

إنها الفطرة التى فطر الله الناس عليها .. أن يتوجهوا إلى الله ربهم ، معترفين له بالربوبية الخالصة ، عند الخوف وعند الطمع .. والمثل المضروب هنا للفطرة يبدأ من أصل الخليقة ، وتركيب الزوجية وطبيعتها :

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها » ..

فهى نفس واحدة فى طبيعة تكوينها ، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى . وإنما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها .. وهذه هى نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان . ووظيفة الزوجية فى تكوينه . وهى نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرنا . يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنسانى ، وتعتبرها لعنة ونجسا وفخا للغواية تحذر منه تحذيرا شديدا ، ويوم أن كانت الوثنيات ـ ولا تزال ـ تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادما أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له فى ذاته على الإطلاق .

والأصل فى التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار . ليظلل السكون والأمن جو المحضن الذى تنمو فيه الفراخ الزغب ، وينتج فيه المحصول البشرى الثمين ، ويؤهل فيه الجيل الناشىء لحمل تراث التمدن البشرى والإضافة إليه . ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة . كما أنه لم يجعله شقاقا ونزاعا ، وتعارضا بين الاختصاصات والوظائف،

Marfat.com

أو تكرارا للاختصاصات والوظائف ؛ كما تخبط الجاهليات فى القديم والحديث سواء ! (١)

وبعد ذلك تبدأ القصة .. تبدأ من المرحلة الأولى ..

« فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به » ..

والتعبير القرآنى يلطف ويدق ويشف عند تصوير العلاقة الأولية بين الزوجين .. « فلما تغشاها » .. تنسيقا لصورة المباشرة مع جو السكن ؛ وترقيقا لحاشية الفعل حتى ليبدو امتزاج طائفين لا التقاء جسدين . إيحاء « للإنسان » بالصورة « الإنسانية » فى المباشرة . وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة ! .. كذلك تصوير الحمل فى أول أمره .. « خفيفا » .. تمر به الأم بلا ثقلة كأنها لا تحسه .

ثم تأتى المرحلة الثانية :

« فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » ..

لقد تبين الحمل ، وتعلقت به قلوب الزوجين ، وجاء دور الطمع فى أن يكون المولود سليما صحيحا صبوحا .. إلى آخر ما يطمع الآباء والأمهات أن تكون عليه ذريتهم ، وهى أجنة فى ظلام البطون وظلام الغيوب .. وعند الطمع تستيقظ الفطرة ، فتتوجه إلى الله ، تعترف له بالربوبية وحده ، وتطمع فى فضله وحده ، لإحساسها اللدنى بمصدر القوة والنعمة والإفضال الوحيد فى هذا الوجود . لذلك « دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » ..

« فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون ! » ..

إن بعض الروايات فى التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء .. إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين . فجاء إليها الشيطان فأغرى حواء أن تسمى ما فى بطنها « عبد الحارث » .. والحارث اسم لإبليس .. ليولد صحيحا ويعيش ؛ ففعلت وأغرت آدم معها ! وظاهر مافى هذه الرواية من طابع إسرائيلى .. ذلك أن التصور الإسرائيلى المسيحى - كما حرفوا دياناتهم - هو الذى يلقى عبء الغواية على حواء ، وهو مخالف تماما للتصور الإسلامى الصحيح .

---

(١) تراجع فقرة : « المرأة وعلاقات الجنسين » فى فصل : « تخبط واضطراب » ، فى كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » ، كذلك يراجع فصل : « حقيقة الإنسان » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الثانى .

Marfat.com

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني .. فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية .. ولقد كان المشركون على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقبله ، ينذرون بعض أبنائهم للآلهة ، أو لخدمة معابد الآلهة ! تقربا وزلفى إلى الله ! ومع توجههم في أول الأمر لله ، فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر ! كما يجعل الناس اليوم نصيبا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين . كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس . أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك . مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد . ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة . والناس هم الناس !

« فتعالى الله عما يشركون ! » .

وتنزه عن الشرك الذي يعتقدون ويزاولون !

على أننا نرى في زماننا هذا صنوفا وألوانا من الشرك ؛ ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له ، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التي ترسمها هذه النصوص .

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها « القوم » ويسمونها « الوطن » ، ويسمونها « الشعب » .. إلى آخر ما يسمون . وهي لا تعدو أن تكون أصناما غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون . ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - في خلقه ، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة ! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاق واسع !

إن الناس يعترفون بالله ربا . ولكنهم ينبذون أوامره وشرائعه من ورائهم ظهريا ، بينما يجعلون أوامر هذه الآلهة ومطالبها « مقدسة » . تخالف في سبيلها أوامر الله وشرائعه ، بل تنبذ نبذا . فكيف تكون الآلهة ؟ وكيف يكون الشرك ؟ وكيف يكون نصيب الشركاء في الأبناء .. إن لم يكن هو هذا الذي تزاوله الجاهلية الحديثة !!

ولقد كانت الجاهلية القديمة أكثر أدبا مع الله .. لقد كانت تتخذ من دونه آلهة تقدم لها هذه التقدمات من الشرك في الأبناء والثمار والذبائح لتقرب الناس من الله زلفى ! فكان الله في

Marfat.com

فى حسها هو الأعلى . فأما الجاهلية الحديثة فهى تجعل الآلهة الأخرى أعلى من الله عندها . فتقدس ماتأمر به هذه الآلهة وتنبذ مايأمر به الله نبذا !

إننا نخدع أنفسنا حين نقف بالوثنية عند الشكل الساذج للأصنام والآلهة القديمة ، والشعائر التى كان الناس يزاولونها فى عبادتها واتخاذها شفعاء عند الله .. إن شكل الأصنام والوثنية فقط هو الذى تغير . كما أن الشعائر هى التى تعقدت ، واتخذت لها عنوانات جديدة .. أما طبيعة الشرك وحقيقته فهى القائمة من وراء الأشكال والشعائر المتغيرة ..

وهذا ماينبغى ألا يخدعنا عن الحقيقة !

إن الله ـ سبحانه ـ يأمر بالعفة والحشمة والفضيلة . ولكن « الوطن » أو « الإنتاج » يأمر بأن تخرج المرأة وتتبرج وتتعرى وتعمل مضيفة فى الفنادق فى صورة فتيات الجيشا فى اليابان الوثنية ! فمن الإله الذى تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه ؟ أم إنها الآلهة المدعاة ؟

إن الله ـ سبحانه ـ يأمر أن تكون رابطة التجمع هى العقيدة . . ولكن « القومية » أو « الوطن » يأمر باستبعاد العقيدة من قاعدة التجمع ؛ وأن يكون الجنس أو القوم هو القاعدة ! .. فمن هو الإله الذى تتبع أوامره ؟ أهو الله ـ سبحانه ـ أم هى الآلهة المدعاة ؟!

إن الله ـ سبحانه ـ يأمر أن تكون شريعته هى الحاكمة . ولكن عبدا من العبيد ـ أو مجموعة من « الشعب » ـ تقول : كلا ! إن العبيد هم الذين يشرعون وشريعتهم هى الحاكمة .. فمن هو الإله الذى تتبع أوامره ؟ أهو الله سبحانه أم هى الآلهة المدعاة ؟!

إنها أمثلة لما يجرى فى الأرض كلها اليوم ؛ ولما تتعارف عليه البشرية الضالة . . أمثلة تكشف عن حقيقة الوثنية السائدة ، وحقيقة الأصنام المعبودة ، القائمة اليوم بديلا من تلك الوثنية الصريحة ، ومن تلك الأصنام المنظورة ! ويجب ألا تخدعنا الأشكال المتغيرة للوثنية والشرك عن حقيقتها الثابتة !!!

ولقد كان القرآن يحاور أصحاب تلك الوثنية الساذجة ؛ وتلك الجاهلية الصريحة ؛ ويخاطب عقولهم البشرية لإيقاظها من تلك الغفلة التى لا تليق بالعقل البشرى ـ أيا كانت طفولته ـ فيعقب على ذلك المثل الذى ضربه لهم ، وصور فيه مدارج الشرك فى النفس :

Marfat.com

« أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ؟ » . .

إن الذى يخلق هو الذى يستحق أن يعبد ! وآلهتهم المدعاة - كلها - لا تخلق شيئا بل هى تخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شركا مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم ؟

وإن الذى يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذى ينبغى أن يعبد . فالقوة والقهر والسلطان هى خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية .. وآلهتهم المدعاة - كلها - لاقوة لها ولا سلطان ؛ فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم ! فكيف يجعلون لهاشركا مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم ؟

ومع أن برهان الخلق والقدرة هذا كان يوجه إلى أصحاب تلك الجاهلية الساذجة ، فهو مازال هو هو الذى يحاج به أصحاب الجاهلية الحاضرة ! إنهم يقيمون لهم أصناما أخرى يعبدونها ويتبعون ماتأمر به . ويجعلون لها شركا فى أنفسهم وأبنائهم وأموالهم .. فمن منها يخلق من السماوات والأرض شيئا ؟ ومن منها يملك لهم أو لنفسه نصرا ؟

إن العقل البشرى - لو خلى بينه وبين هذا الواقع - لا يقره ، ولا يرضاه ! ولكنها الشهوات والأهواء والتضليل والخداع ... هى التى تجعل البشرية بعد أربعة عشر قرنا من نزول هذا القرآن ترتد إلى هذه الجاهلية - فى صورتها الجديدة - فتشرك مالا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون !

إن هذه البشرية لفى حاجة اليوم - كما كانت فى حاجة بالأمس - إلى أن تخاطب بهذا القرآن مرة أخرى . فى حاجة إلى من يقودها من الجاهلية إلى الإسلام ؛ ومن يخرجها من الظلمات إلى النور ؛ ومن ينقذ عقولها وقلوبها من هذه الوثنية الجديدة ؛ بل من هذا السخف الجديد الذى تلج فيه ؛ كما أنقذها هذا الدين أول مرة !

إن صيغة التعبير القرآنية توحى بأنه كان يعنى كذلك تقريعهم على اتخاذ آلهة من البشر :

« أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون ، لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون » ..

فهذه الواو والنون تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشرا من « العقلاء » الذين يعبر

Marfat.com

عنهم بضمير « العاقل » ! . . وما علمنا أن العرب في وثنيتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر ـ بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم ـ إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام في النزاعات ـ أي الحاكمية الأرضية ـ وأن القرآن يعبر عن هـذا بالشرك ، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء . وهـذا هو الاعتبار الإسلامي لهذا اللون من الشرك . فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه ، كما اعتبر الذين يتقبلون الشرائع والأحكام من الأحبار والرهبان مشركين . مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بألوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم الشعائر كذلك . . فكله شرك وخروج عن التوحيد الذي يقوم عليه دين الله ؛ والذي تعبر عنه شهادة أن لا إله إلا الله [1] . . مما يتفق تماما مع ماقررناه من شرك الجاهلية الحديثة !

* * *

ولما كان الحديث عن قصة الانحراف في النفس ـ ذلك المتمثل في قصة الزوجين ـ هو حديث كل شرك ! والمقصود به هو تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، إلى سخف ماهم عليه من الشرك ، واتخاذ تلك الآلهة التي لا تخلق شيئا بل هي تخلق ، ولا تنصر عبادها بل لا تملك لأنفسها نصرا ، سواء أكانت من البشر أم من غيرهم ، فهي كلها لا تخلق ولا تنصر ـ لما كان هذا هو اتجاه السياق القرآني ، فإن ينتقل من القصة ومن أسلوب الحكاية في الفقرة السابقة ، إلى مواجهة مشركي العرب وإلى أسلوب الخطاب انتقالا مباشرا ، كأنه امتداد للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة !

« وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ »

---

(١) يراجع الحديث الذي أخرجه الترمذي عن تفسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعنى قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » : في فصل « التوحيد » من كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » . .

Marfat.com

لقد كانت وثنية مشركى العرب وثنية ساذجة ـ كما أسلفنا ـ سخيفة فى ميزان العقل البشرى فى أية مرحلة من مراحله ! ومن ثم كان القرآن ينبه فيهم هذا العقل ؛ وهو يواجههم بسخافة ما يزاولونه من الشرك بمثل هذه الآلهة .

إن أصنامهم هذه الساذجة بهيئتها الظاهرة : ليس لها أرجل تمشى بها ، وليس لها أيد تبطش بها . وليس لها أعين تبصر بها ، وليس لها آذان تسمع بها .. هذه الجوارح التى تتوافر لهم هم . فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الجامدة ؟

فأما مايرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حينا ، ومن الآباء والأجداد حينا .. فهم عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم . لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون !

والازدواج فى عقائد مشركى العرب بين الأصنام الظاهرة ، والرموز الباطنة هو ـ فيما نحسب ـ سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة : مرة بضمير العاقل ملحوظا فيها ماوراء الأصنام من الرمز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها ، وأنها فاقدة للحياة والحركة ! وهى فى مجموعها ظاهرة البطلان فى منطق العقل البشرى ذاته ، الذى يوقظه القرآن ، ويرفعه عن هذه الغفلة المزرية !

***

وفى نهاية هذه المحاجة يوجه الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يتحداهم ويتحدى آلهتهم العاجزة ـ كلها ـ وأن يعلن عن عقيدته الناصعة فى تولى الله ـ وحده ـ له :

« قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون .. وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » ..

إنها كلمة صاحب الدعوة ، فى وجه الجاهلية . . ولقد قالها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أمره ربه ؛ وتحدى بها المشركين فى زمانه وآلهتهم المدعاة :

« قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » ..

Marfat.com

لقد قذف فى وجوههم ووجوه آلهتهم الدعاة بهذا التحدى . . وقال لهم : ألا يألوا جهدا فى جمع كيدهم وكيد آلهتهم ؛ بلا إمهال ولا إنظار ! وقالها فى لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذى يرتكن إليه ، ويحتمى به من كيدهم جميعا :

« إن ولي الله ، الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » . .

فأعلن بها عمن إليه يرتكن . إنه يرتكن إلى الله . . الذى نزل الكتاب . . فدل بتنزيله على إرادته — سبحانه — فى أن يواجه رسوله الناس بالحق الذى فيه ؛ كما قدر أن يعلى هذا الحق على باطل المبطلين . . وأن يحمى عباده الصالحين الذين يبلغونه ويحملونه ويثقون فيه .

وإنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله — بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى كل مكان وفى كل زمان :

« قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » . . « إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

إنه لابد لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرد من أسناد الأرض ؛ وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض . .

إنها فى ذاتها واهية واهنة ، مهما بدت قوية قادرة : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب ! » . . « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ! » . .

وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وماذا تساوى فى حسه ؟ حتى لو قدرت على أذاه ؟ ! إنما تقدر على أذاه بإذن ربه الذى يتولاه . لا عجزا من ربه عن حمايته من أذاها — سبحانه وتعالى ! — ولا تخليا منه سبحانه عن نصرة أوليائه . . ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب . واستدراجاً لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين !

Marfat.com

لقد كان أبو بكر - رضى الله عنه - يردد ، والمشركون يتناولونه بالأذى ؛ ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه ، حتى تركوه ومايعرف له فم من عين ! .. كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! ... » كان يعرف فى قرارة نفسه ماوراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقا أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ؛ كما كان واثقا أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !

ولقد كان عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - يقول ، وقد تناوله المشركون بالأذى - لأنه أسمعهم القرآن فى ناديهم إلى جوار الكعبة - حتى تركوه وهو يترنح لا يصلب قامته ! .. كان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجر الذى ناله : « والله ما كانوا أهون علىّ منهم حينذاك ! » .. كان يعرف أنهم يحادون الله - سبحانه - وكان يستيقن أن الذى يحاد الله مغلوب هين على الله . فينبغى أن يكون مهينا عند أولياء الله .

ولقد كان عبد الله ابن مظعون - رضى الله عنه - يقول ، وقد خرج من جوار عتبة ابن ربيعة المشرك ، لأنه لم يستسغ لنفسه أن يحتمى بجوار مشرك فيكف عنه الأذى ، وإخوان له فى الله يؤذون فى سبيل الله . وقد تجمع عليه المشركون - بعد خروجه من جوار عتبة - فآذوه حتى خسروا عينه .. كان يقول لعتبة وهو يراه فى هذه الحال فيدعوه أن يعود إلى جواره : « لأنا فى جوار من هو أعز منك ! » .. وكان يرد على عتبة إذ قال له : « يا ابن أخى لقد كانت عينك فى غنى عما أصابها ! » .. يقول : « لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها فى سبيل الله ! » .. كان يعلم أن جوار ربه أعز من جوار العبيد . وكان يستيقن أن ربه لا يتخلى عنه ، ولو تركه يؤذى فى سبيله هذا الأذى لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب : « لا والله . وللأخرى أحق لما يصلحها فى سبيل الله » ..

هذه نماذج من ذلك الجيل السامق الذى تربى بالقرآن فى حجر محمد - صلى الله عليه وسلم - فى ظلال ذلك التوجيه الربانى الكريم :

« قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » ..

Marfat.com

ثم ماذا كان بعد هذا الأذى الذى احتملوه من كيد المشركين . وهذا الاعتصام بالله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ؟

كان مايعرفه التاريخ ! كانت الغلبة والعزة والتمكين لأولياء الله . وكانت الهزيمة والهوان والدثور للطواغيت الذين فتلهم الصالحون . وكانت التبعية ممن بقى منهم - ممن شرح الله صدره للإسلام - لهؤلاء السابقين ، الذين احتملوا الأذى بثقة فى الله لا تتزعزع ، وبعزمة فى الله لا تلين !

إن صاحب الدعوة إلى الله - فى كل زمان وفى كل مكان - لن يبلغ شيئا إلا بمثل هذه الثقة ، وإلا بمثل هذه العزمة ، وإلا بمثل ذلك اليقين :

« إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » ..

لقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى المشركين . فتحداهم . وأمر أن يبين لهم عجز آلهتهم وسخف الشرك بها فبين لهم :

« والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » ..

« وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » ..

وإذا كان هذا التقرير ينطبق على آلهة الوثنية الساذجة فى جاهلية العرب القديمة .. فإنه ينطبق كذلك على كل الآلهة المدعاة فى الجاهلية الحديثة ..

إن هؤلاء المشركين الجدد يدعون من دون الله أولياء من أصحاب السلطان الظاهر فى الأرض ! ولكن هؤلاء الأولياء لا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون . حين يجرى قدر الله بما يشاء فى أمر العباد فى الموعد المرسوم .

وإذا كانت آلهة العرب الساذجة لا تسمع ، وعيونها المصنوعة من الخرز أو الجوهر تنظر ولا تبصر ! فإن بعض الآلهة الجديدة كذلك لاتسمع ولا تبصر .. الوطن . والقوم . والإنتاج . والآلة . وحتمية التاريخ ! إلى آخر تلك الآلهة المدعاة فى الجاهلية الحديثة ! والذى يبصر منها ويسمع - وهى الآلهة المدعاة من البشر ، التى تعطى خصائص الألوهية فتشرع بأمرها وتحكم - هى كذلك لا تسمع ولا تبصر .. هى من الذين يقول الله فيهم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من

Marfat.com

الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » !

إن صاحب الدعوة إلى الله ، إنما يصادف حالة واحدة من الجاهليات المتعددة .. وإنما ينبغى أن يقول ما أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول :

« قل : ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولىي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . . فإنما هم هم .. فى كل أرض وفى كل حين !!!

« خُذِ ٱلْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا : لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ! قُلْ : إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ مِن رَّبِّى . هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

« وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ، وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَيُسَبِّحُونَهُ ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ » ﴿٢٠٦﴾

تجىء هذه التوجيهات الربانية فى نهاية السورة ، من الله سبحانه إلى أوليائه . . رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والذين آمنوا معه . . وهم بعد فى مكة ؛ وفى مواجهة تلك الجاهلية من حولهم فى الجزيرة العربية وفى الأرض كافة . . هذه التوجيهات الربانية فى مواجهة تلك الجاهلية

Marfat.com

الفاحشة ، وفى مواجهة هذه البشرية الضالة ، تدعو صاحب الدعوة ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى السماحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذى تعرفه فطرة البشر فى بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد . والإعراض عن الجاهلية فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم ، ولا يحفلهم .. فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد ، ونفخ الشيطان فى هذا الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . . .

ثم يعرفه بطبيعة أولئك الجاهلين ؛ والوسوسة التى وراءهم والتى تمدهم فى الغى والضلال . ويذكر طرفا من سلوكهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلبهم الخوارق ؛ ليوجهه إلى ما يقول لهم ، ليعرفهم بطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ، وليصحح لهم تصوراتهم عنها وعنه وعن علاقته بربه الكريم : « وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قل : إنما أتبع ما يوحى إلى ربى من . هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن ، يجىء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن ؛ وأدب ذكر الله ؛ مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر ، وعدم الغفلة عنه . فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون ، فما أولى البشر الخطائين أن لا يغفلوا عن الذكر والتسبيح والسجود : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » . .

* * *

« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم . إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . .

Marfat.com

خذ العفو لليسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب إليهم الكمال ، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق . واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم . . كل أولئك فى المعاملات الشخصية لا فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية . فليس فى عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضى والتسامح . ولكن فى الأخذ والعطاء والصحبة والجوار . وبذلك تمضى الحياة سهلة لينة . فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه ، والسماحة معه ، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء . ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ راع وهاد ومعلم ومرب . فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء .. وكذلك كان صلى الله عليه وسلم .. لم يغضب لنفسه قط . فإذا كان فى دين الله لم يقم لغضبه شئ ! .. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة صدر ، وسماحة طبع ، ويسرا وتيسيرا فى غير تهاون ولا تفريط فى دين الله ..

« وأمر بالعرف » ..وهو الخير المعروف الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ؛ والذى تلتقى عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة .. والنفس حين تعتاد هذا المعروف يسلس قيادها بعد ذلك ، وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف وما يصد النفس عن الخير شئ مثلما يصدها التعقيد والمشقة والشد فى أول معرفتها بالتكاليف ! ورياضة النفوس تقتضى أخذها فى أول الطريق بالميسور للمعروف من هذه التكاليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هى بذاتها النهوض بما فوق ذلك فى يسر وطواعية ولين ..

« وأعرض عن الجاهلين » .. من الجهالة ضد الرشد ، والجهالة ضد العلم .. وهما قريب من قريب .. والإعراض يكون بالترك والإهمال ؛ والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال ؛ والمرور بها مر الكرام ؛ وعدم الدخول معهم فى جدال لا ينتهى إلى شئ إلا الشد والجذب ، وإضاعة الوقت والجهد .. وقد ينتهى السكوت عنهم ، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها ، بدلا من الفحش فى الرد واللجاج فى العناد . فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم ، فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين فى قلوبهم خير . إذ يرون صاحب الدعوة محتملا معرضا عن اللغو ، ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويعزلون !

Marfat.com

وما أجدر صاحب الدعوة أن يتبع هذا التوجيه الربانى العليم بدخائل النفوس !

ولكن رسول لله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشر . وقد يثور غضبه على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء وحمق الحمق .. وإذا قدر عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد يعجز عنها من وراءه من أصحاب الدعوة .. وعند الغضب ينزغ الشيطان فى النفس ، وهى ثائرة هائجة مفقودة الزمام ! .. لذا يأمره ربه أن يستعيذ بالله ؛ لينفثئ غضبه ، ويأخذ على الشيطان طريقه :

« وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » .

وهذا التعقيب : « إنه سميع عليم » .. يقرر أن الله سبحانه سميع لجهل الجاهلين وسفاهتهم ؛ عليم بما تحمله نفسك من أذاهم .. وفى هذا ترضية وتسرية للنفس .. فحسبها أن الجليل العظيم يسمع ويعلم ! وماذا تبتغى نفس بعد ما يسمع الله ويعلم ما تلقى من السفاهة والجهل وهى تدعو إليه الجاهلين ؟!

ثم يتخذ السياق القرآنى طريقا آخر للإيحاء إلى نفس صاحب الدعوة بالرضى والقبول ، وذكر الله عند الغضب لأخذ الطريق على الشيطان ونزغه الشم :

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » ..

وتكشف هذه الآية القصيرة عن إيحاءات عجيبة ، وحقائق عميقة ، يتضمنها التعبير القرآنى المعجز الجميل .. إن اختتام الآية بقوله : « فإذا هم مبصرون » ليضيف معانى كثيرة إلى صدر الآية . ليس لها ألفاظ تقابلها هناك .. إنه يفيد أن مس الشيطان يعمى ويطمس ويغلق البصيرة . ولكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه .. تلك الوشيجة التى تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه .. تذكر المتقين . فإذا تذكروا تفتحت بصائرهم ؛ وتكشفت الغشاوة عن عيونهم : « فإذا هم مبصرون » .. إن مس الشيطان عمى ، وإن تذكر الله إبصار .. إن مس الشيطان ظلمة ، وإن الاتجاه إلى الله نور .. إن مس الشيطان تجلوه التقوى ، فما للشيطان على المتقين من سلطان ..

* * *

ذلك شأن المتقين : « إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .. جاء

Marfat.com

بيان هذا الشأن معترضا بين أمر الله سبحانه بالإعراض عن الجاهلين ؛ وبيان ماذا ومن ذا وراء هؤلاء الجاهلين ، يدفعهم إلى الجهل والحق والسفه الذى يزاولون .. فلما انتهى التعقيب عاد السياق يحدث عن الجاهلين :

« وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون . وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها . قل : إنما أتبع مايوحى إلى من ربى . هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

وإخوانهم الذين يمدونهم فى الغى هم شياطين الجن .. وقد يكونون هم شياطين الإنس أيضا .. إنهم يزيدون لهم فى الضلال ، لا يكلون ولا يسأمون ولا يسكتون ! وهم من ثم يحمقون ويجهلون ! ويظلون فيما هم فيه سادرين .

ولقد كان المشركون لا يكفون عن طلب الخوارق من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والسياق هنا يحكى بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول :

« وإذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! » ..

أى .. لولا ألححت على ربك حتى ينزلها ! .. أو هلا فعلتها أنت من نفسك ؟ ألست نبيا ؟! ..

إنهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته ؛ كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه ؛ وأنه يتلقى منه مايعطيه ؛ ولا يقدم بين يدى ربه ولا يقترح عليه ؛ ولا يأتى كذلك الشىء من عند نفسه .. والله يأمره أن يبين لهم :

« قل : إنما أتبع مايوحى إلى من ربى » ..

فلا أقترح ، ولا أبتدع ، ولا أملك إلا مايوحيه إلى ربى . ولا آتى إلا ما يأمرنى به ..

لقد كانت الصورة الزائفة للتنبئين فى الجاهليات تتراءى لهم ، ولم يكن لهم فقه ولا معرفة بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول :

كذلك يؤمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يبين لهم مافى هذا القرآن الذى جاءهم به ، وحقيقته التى يغفلون عنها ، ويطلبون الخوارق المادية ، وأمامهم هذا الهدى الذى يغفلون عنه :

« هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

Marfat.com

إنه هذا القرآن .. بصائر تهدى ، ورحمة تفيض .. لمن يؤمن به ، ويغتنم هذا الخير العميم ..

إنه هذا القرآن الذى كان الجاهلون من العرب ـ فى جاهليتهم ـ يعرضون عنه ، ويطلبون خارقة من الخوارق المادية مثل التى جرت على أيدى الرسل من قبل ، فى طفولة البشرية ، وفى الرسالات المحلية غير العالمية ، والتى لا تصلح إلا لزمانها ومكانها ، ولا تواجه إلا الذين يشاهدونها ، فكيف بمن بعدهم من الأجيال ، وكيف بمن وراءهم من الأقوام الذين لم يروا هذه الخارقة !

إنه هذا القرآن الذى لاتبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه ..من أى جانب من الجوانب شاء الناس للمعجزة فى أى زمان وفى أى مكان . . لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان !

فهذا جانبه التعبيرى .. ولعله كان بالقياس إلى العرب فى جاهليتهم أظهر جوانبه ـ بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البيانى ، ويتفاخرون به فى أسواقهم !ـ ها هو ذا كان وما يزال إلى اليوم معجزا لايتطاول إليه أحد من البشر . تحداهم الله به ومايزال هذا التحدى قائما . والذين يزاولون فن التعبير من البشر ، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه ، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآنى معجز معجز .. سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أو لايؤمنون .. فالتحدى فى هذا الجانب قائم على أسس موضوعية يستوى أمامها المؤمنون والجاحدون .. وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن ـ فى جاهليتهم ـ مالا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم ـ وهم جاحدون كارهون ـ كذلك يجد اليوم وغدا كل جاهلى جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون !

ويبقى وراء ذلك السر المعجز فى هذا الكتاب الفريد . . يبقى ذلك السلطان الذى له على الفطرة ـ متى خلى بينها وبينه لحظة ! ـ وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب ، وثقل فوقها الركام ، تنتفض قلوبهم أحيانا ؛ وتتململ قلوبهم أحيانا تحت وطأة هذا السلطان ؛ وهم يستمعون إلى هذا القرآن !

إن الذين يقولون كثيرون .. وقد يقولون كلاما يحتوى مبادىء ومذاهب وأفكارا واتجاهات .. ولكن هذا القرآن يتفرد فى إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول ! إنه

Marfat.com

قاهر غلاب بذلك السلطان الغلاب! .. ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين يستخفونهم ـ ويقولون لأنفسهم في الحقيقة ـ : « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .. لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لايقاوم ! وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب ! غير أن عن هذا القرآن يظل ـ مع ذلك كله ـ غلابا .. وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر ، حتى تتميز وتتفرد بإيقاعها ، وتستولى على الحس الداخلي للسامعين ، وتنحى ما عداها من قول البشر المجبر الذي تعب فيه القائلون ؟

ثم يبقى وراء ذلك مادة هذا القرآن وموضوعه .. وما تتسع صفحات عابرة ـ في ظلال القرآن ـ للحديث عن مادة هذا القرآن وموضوعه .. فالقول لاينتهي والمجال لايحد !

وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات ؟!

منهج هذا القرآن العجيب ، في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود .. وهو منهج يواجه هذه الكينونة بجملتها ، لايدع جانبا واحدا منها لايخاطبه في السياق الواحد ، ولايدع نافذة واحدة من نوافذها لا يدخل منها إليها ؛ ولايدع خاطرا فيها لايجاوبه ، ولايدع هاتفا فيها لايلبيه !

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يتناول قضايا هذا الوجود ، فيكشف منها ماتتلقاه فطرة الإنسان وقلبه وعقله بالتسليم المطلق ، والتجاوب الحي ، والرؤية الواضحة . وما يطابق كذلك حاجات هذه الفطرة ، ويوقظ فيها طاقاتها للكينونة ، ويوجهها الوجهة الصحيحة .

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ؛ ويصعد بها ـ في هينة ورفق ، وفي حيوية كذلك وحرارة ، وفي وضوح وعلى بصيرة ـ درجات السلم في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة .. في المعرفة والرؤية ، وفي الانفعال والاستجابة ، وفي التكيف والاستقامة ، وفي اليقين والثقة ، وفي الراحة والطمأنينة .. إلى حقائق هذا الوجود الصغيرة والكبيرة ..

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يلمس الفطرة الإنسانية ، من حيث لايحتسب أحد من البشر أن يكون هذا موضع لمسة ! أو أن يكون هذا وتر استجابة ! فإذا الفطرة تنتفض وتصوت وتستجيب . ذلك أن منزل هذا القرآن هو خالق هذا الإنسان الذي يعلم من خلق ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد !

Marfat.com

ذلك المنهج ؟ .. أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج .. وهنا ذلك الانفساح الذي لايبلغ منه القول شيئا .. « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مددا» .. « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » . .

إن الذي يكتب هذه الكلمات ، قضى - ولله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية الدارسة لهذا الكتاب خمسة وعشرين عاما . يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب ؛ في شتى حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقته معارف البشر وما لم تطرقه - ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب .. ويرى . . يرى ذلك الفيض الغامر للمفسح الواسع في هذا القرآن ؛ وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة ، وتلك النقر الصغيرة . . وتلك المستنقعات الآسنة أيضا !

في النظرة الكلية في هذا الوجود ، وطبيعته ، وحقيقته ، وجوانبه ، وأصله ، ونشأته ، وما وراءه من أسرار ؛ وما في كيانه من خبايا ومكنونات وما يضمه من أحياء وأشياء . . للموضوعات التي تطرق جوانب منها « فلسفة » البشر ! . .(١)

في النظرة الكلية إلى « الإنسان » ونفسه ، وأصله ، ونشأته ، ومكنونات طاقاته ، ومجالات نشاطه ؛ وطبيعة تركيبه ، وانفعالاته ، واستجاباته ، وأحواله وأسراره .. للموضوعات التي تطرق جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع ! والعقائد والأديان . . (٢)

في النظرة إلى نظام الحياة الإنسانية ؛ وجوانب النشاط الواقعي فيها ؛ ومجالات الارتباط والاحتكاك ، والحاجات المتجددة وتنظيم هذه الحاجات . . للموضوعات التي تطرق جوانب منها النظريات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . .(٣)

(١ ، ٢) يراجع كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » ، وكتاب « هذا الدين » وكتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » . وكتاب : « معالم في الطريق » للمؤلف . . وكتب : « الإنسان بين المادية والإسلام » و « دراسات في النفس الإنسانية » و « التطور والثبات في حياة البشرية » و« منهج التربية الإسلامية » و « منهج الفن الإسلامي » لمحمد قطب .

(٣) يراجع كتاب : « نحو مجتمع إسلامي » للمؤلف

Marfat.com

وفى كل حقل من هـذه الحقول يجد الدارس الواعى لهـذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات يحار فى كثرتها ووفرتها ! فوق ما فى هـذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة !

إننى لم أجد نفسى مرة واحدة - فى مواجهة هذه الموضوعات الأساسية - فى حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن - فيما عدا قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من آثار هذا القرآن - بل إن أى قول آخر ليبدو هزيلا - حتى لو كان صحيحا - إلى جانب ما يجده الباحث فى هذا الكتاب العجيب . .

إنها الممارسة الفعلية التى تنطق بهذه التقريرات ؛ والصحبة الطويلة فى ظل حاجات الرؤية والبحث والنظر فى هذه الموضوعات . . وما بى أن أثنى على هذا الكتاب . . ومن أنا ومن هؤلاء البشر جميعا ليضيفوا إلى كتاب الله شيئا بما يملكون من هذا الثناء !

لقد كان هذا الكتاب هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد . . جيل لم يتكرر بعد فى تاريخ البشرية - لا من قبل ولا من بعد - جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا فى تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممتد ، الذى لم يدرس حق دراسته إلى الآن . .

لقد كان هـذا المصدر هو الذى أنشأ - بمشيئة الله وقدره - هـذه المعجزة المجسمة فى عالم البشر . وهى المعجزة التى لا تطاولها جميع المعجزات والخوارق التى صحبت الرسالات جميعا . . وهى معجزة واقعة مشهودة . . أن كان ذلك الجيل الفريد ظاهرة تاريخية فريدة . . . (١)

ولقد كان المجتمع الذى تألف من ذلك الجيل أول مرة ، والذى ظل امتداده أكثر من ألف عام ، تحكمه الشريعة التى جاء بها هذا الكتاب ، ويقوم على قاعدة من قيمه وموازينه ، وتوجيهاته وإيحاءاته . . كان هذا المجتمع معجزة أخرى فى تاريخ البشرية . حين تقارن إليه

---

(١) يراجع فصل : « جيل متفرد » وفصل : « التصور الإسلامى والثقافة » . فى كتاب : « معالم فى الطريق » . .

Marfat.com

صور المجتمعات البشرية الأخرى ، التي تفوقه في الإمكانيات المادية - بحكم نمو التجربة البشرية في عالم المادة - ولكنها لا تطاوله في « الحضارة الإنسانية » ! (١)

إن الناس اليوم - في الجاهلية الحديثة ! - يطلبون حاجات نفوسهم ومجتمعاتهم وحياتهم خارج هذا القرآن ! كما كان الناس في الجاهلية العربية يطلبون خوارق غير هذا القرآن ! . . فأما هؤلاء فقد كانت تحول جاهليتهم الساذجة ، وجهالتهم العميقة - كما تحول أهواؤهم ومصالحهم الذاتية كذلك - دون رؤية الخارقة الكونية الماثلة في هذا الكتاب العجيب ! . . فأما أهل الجاهلية الحاضرة ، فيحول بينهم وبين هذا القرآن غرور « العلم البشري » الذي فتحه الله عليهم في عالم المادة . وغرور التنظيمات والتشكيلات المعقدة بتعقيد الحياة البشرية اليوم ؛ ونموها ونضجها من ناحية التنظيم والتشكيل . وهو أمر طبيعي مع امتداد الحياة وتراكم التجارب ، وتجدد الحاجات ، وتعقدها كذلك ! كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرنا من الحقد اليهودي والصليبي ؛ الذي لم يكف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم ؛ وعن محاولة إلهاء أهله عنه ؛ وإبعادهم عن توجيهه المباشر . بعد ما علم اليهود والصليبيون من تجاربهم الطويلة : أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين ، ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب ، عكوف الجيل الأول ، لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته ! . . هو كيد مطرد مصر لئيم خبيث . . ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها الناس الذين يسمون اليوم بالمسلمين - وما هم بالمسلمين ما لم يحكموا في حياتهم شريعة هذا الدين ! - وهذه المحاولات الأخرى في كل مكان للتعفية على آثار هذا الدين ؛ ولتدارس قرآن غير قرآنه ؛ يرجع إليه في تنظيم الحياة كلها ، ويرد إليه كل اختلاف ، وكل نزاع في التشريع والتقنين لهذه الحياة ؛ كما كان المسلمون يرجعون إلى كتاب الله في هذه الشئون !!!

إنه هذا القرآن الذي يجهله أهله اليوم . لأنهم لا يعرفونه إلا تراتيل وترانيم وتعاويذ وتهاويم ! بعد ما صرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم ، ومن الجهل المزري ، ومن التعالم المغرور ، ومن الفساد الشامل للفكر والقلب والواقع النكد الخبيث !

---

(١) يراجع فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » وفصل : « طبيعة المجتمع الإسلامي » في المصدر السابق . .

Marfat.com

إنه هذا القرآن الذى كان الجاهليون القدامى يصرفون عنه الجماهير بطلب الخوارق المادية . والذى يصرف عنه الجاهليون المحدثون الجماهير بالقرآن الجديد الذى يفترونه ، وبشتى وسائل الإعلام والتوجيه ! إنه هذا القرآن الذى يقول عنه العليم الخبير :

« هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . .

بصائر تكشف وتنير . وهدى يرشد ويهدى . ورحمة تغمر وتفيض .. «لقوم يؤمنون» فهم الذين يجدون هذا كله فى هذا القرآن الكريم . .

* * *

ولأن هذا هو القرآن يجىء مباشرة فى السياق هذا التوجيه للمؤمنين :

« وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . .

فتختم به السورة التى بدأت بالإشارة إلى هذا القرآن : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » . .

وتختلف الروايات المأثورة فى موضع هذا الأمر بالاستماع والإنصات إذا قرىء القرآن . . بعضهم يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة المكتوبة . حين يجهر الإمام بالقرآن ؛ فيجب أن يستمع المأموم وينصت ؛ ولا يقرأ هو مع قراءة الإمام الجهرية . ولا ينازع الإمام القرآن ! وذلك كالذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذى عنه : هذا حديث حسن ، وصححه أبو حاتم الرازى ، من حديث الزهرى عن أبى أكثمة الليثى عن أبى هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : « هل قرأ أحد منكم معى آنفا به » قال رجل : نعم يا رسول الله . قال : « إنى أقول : مالى أنازع القرآن » فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكالذى رواه ابن جرير فى التفسير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا المحاربى ، عن داود ابن أبى هند ، عن بشير ابن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناسا يقرأون مع الإمام . فلما انصرف قال : « أما آن لكم

Marfat.com

أن تفهموا ؟ أما آن لكم أن تعقلوا : « إذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » كما أمركم الله[١] !

وبعضهم يرى أن هذا كان توجيها للمسلمين أن لا يكونوا كالمشركين الذين كانوا يأتون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا صلى ، فقول بعضهم لبعض بمكة : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . فأنزل الله عز وجل جوابا لهم : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » .. قال القرطبي هذا وقال نزل فى الصلاة. روى عن ابن مسعود وأبى هريرة وجابر والزهرى وعبيد الله ابن عمير وعطاء ابن أبي رباح وسعيد ابن المسيب ..

وروى ابن جرير سببا للنزول قال حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر ابن عياش ، عن عاصم عن المسيب ابن رافع . قال ابن مسعود : كان يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة ، فجاء القرآن . « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » .

وقال القرطبي فى التفسير : قال محمد ابن كعب القرظى : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قرأ القرآن فى الصلاة أجابه من وراءه . إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم . قالوا مثل قوله ، حتى يقضى فاتحة الكتاب والسورة ، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث فنزل : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . وهذا يدل على أن المعنى بالإنصات ترك الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال القرطبي كذلك : وقال قتادة فى هذه الآية : كان الرجل يأتى وهم فى الصلاة فيسألهم : كم صليتم ؟ كم بقى ؟ فأنزل الله تعالى : « وإذ قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » .. وعن مجاهد أيضا : كانوا يتكلمون فى الصلاة بحاجتهم ، فنزل قوله تعالى : « ... لعلكم ترحمون » ..

والذين يرون أنها خاصة بقراءة القرآن فى الصلاة يستشهدون بما رواه ابن جرير : حدثنا حميد ابن مسعدة ، حدثنا بشر ابن المفضل ، حدثنا الجريرى ، عن طلحة ابن عبيد الله ابن كريز قال : رأيت عبيد ابن عمير وعطاء ابن أبى رباح يتحدثان والقاص يقص (يعنى والقارىء يقرأ)

(١) تختلف المذاهب فى قراءة المأموم : لا يقرأ المأموم فى صلاة جهرية أو سرية وقراءة الإمام قراءته .. لا يقرأ فى الجهرية مع الإمام ويقرأ فى السكتة بين الفاتحة والقراءة .. لا يقرأ فى الجهرية إطلاقا ويقرأ فى السرية .

Marfat.com

فقلت : ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ، (يعني قوله تعالى : «لعلكم ترحمون») قال: فنظرا إلى ثم أقبلا على حديثهما ؛ قال فأعدت، فنظرا إلى وأقبلا على حديثهما ! قال فأعدت الثالثة ، قال : فنظرا إلى فقالا : إنما ذلك فى الصلاة : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » .

قال ابن كثير وهو يروى هذا الخبر : وكذا قال سفيان الثورى عن أبى هاشم إسماعيل ابن كثير عن مجاهد فى قوله : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا » قال : فى الصلاة . وكذا رواه غير واحد عن مجاهد . وقال عبد الرازق ، عن الثورى عن ليث عن مجاهد ، قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم ..

وبعضهم يرى أنها فى الصلاة وفى الخطبة كذلك فى الجمع والعيدين، قاله سعيد ابن جبير ومجاهد وعطاء وعمرو ابن دينار ، ويزيد ابن أسلم ، والقاسم ابن مخيمرة ، ومسلم ابن يسار ، وشهر ابن حوشب وعبد الله ابن المبارك ، ولكن القرطبى قال : « وهذا ضعيف ، لأن القرآن فيها قليل ، والإنصات يجب فى جميعها . قاله ابن العربى والنقاش : والآية مكية ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة » .

وقال القرطبى فى التفسير : قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع فى الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس : وفى اللغة يجب أن يكون فى كل شىء ، إلا أن يدل دليل على اختصاص شىء .

ونحن لا نرى فى أسباب النزول التى وردت ما يخصص الآية بالصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ، ذلك أن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب . والأقرب أن يكون ذلك عاما لا يخصصه شىء ، فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له ـ حيثما قرئ ـ هو الأليق بجلال هذا القول ، وبجلال قائله سبحانه ! وإذا قال الله أفلا يستمع الناس وينصتون ؟! ثم رجاء الرحمة لهم : « لعلكم ترحمون » .. ماالذى يخصصه بالصلاة ؟ وحيثما قرئ القرآن ، واستمعت له النفس وأنصتت ، كان ذلك أرجى لأن تعى وتتأثر وتستجيب ؛ فكان ذلك أرجى أن ترحم فى الدنيا والآخرة جميعا ..

إن الناس يخسرون الخسارة التى لا يعوضها شىء بالانصراف عن هذا القرآن .. وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانا فى النفس ـ حين تستمع لها وتنصت ـ أعاجيب من الانفعال والتأثر

Marfat.com

والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك ، والطمأنينة والراحة ، والنقلة البعيدة فى المعرفة الواعية المستنيرة .. مما لايدركه إلا من ذاقه وعرفه !

وإن العكوف على هذا القرآن - فى وعى وتدبر لامجرد التلاوة والترنم ! - لينشئ فى القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى ؛ ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة ؛ ومن الحرارة والحيوية والانطلاق ؛ ومن الإيجابية والعزم والتصميم ؛ مالا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب !

وإن رؤية حقائق الوجود - من خلال التصور القرآنى - وحقائق الحياة ، ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التقريرات القرآنية ، لهى رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة . تهدى إلى معالجتها وإلى مزاولتها بروح أخرى ، غير ما توجه إليه سائر التصورات والتقريرات البشرية ..

وهذا كله أرجى إلى الرحمة .. وهو يكون فى الصلاة وفى غير الصلاة . وليس هناك ما يخصص هذا التوجيه القرآنى العام بالصلاة كما روى القرطبي عن النحاس .

* * *

ثم تنتهى السورة بالتوجيه إلى ذكر الله عامة .. فى الصلاة وفى غير الصلاة ..

« واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون »..

قال ابن كثير فى التفسير : « يأمر الله تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا . كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله : « فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » - وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء . وهذه الآية مكية - وقال هاهنا : بالغدو ، وهو أول النهار ، والآصال جمع أصيل - كما أن الأيمان جمع يمين - وأما قوله : « تضرعا وخيفة » أى اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة وبالقول ، لاجهرا ، ولهذا قال . « ودون الجهر من القول ». وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداء وجهرا بليغا . ولهذا لما سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا

Marfat.com

دعان » . . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إن الذى تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » . .

ولم يقبل قول ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة . . وقال : « فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فقال : « إن الذين عند بك لا يستكبرون عن عبادته » . . الآية . وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم » . .

ونحن نرى فيما أورده ابن كثير من المناسبة والأحاديث النبوية مدى ما كان هذا القرآن وكانت التربية النبوية تنقل إليه نفوس العرب من المعرفة بحقيقة ربهم ، وحقيقة الوجود من حولهم . وندرك من سؤالهم ومن الإجابة عليهم مدى النقلة التى نقلها لهم هـذا الدين ، بهذا الكتاب الكريم ، بالتوجيه النبوى القويم . . إنها نقلة بعيدة ، تتجلى فيها نعمة الله ورحمته لو كان الناس يعلمون . . !

وبعد ، فإن ذكر الله ـ كما توجه إليه هذه النصوص ـ ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان . ولكنه الذكر بالقلب والجنان . فذكر الله إن لم يرتعش له الوجدان ، وإن لم يخفق له القلب ، وإن لم تعش به النفس . . إن لم يكن مصحوبا بالتضرع والتذلل والخشية والخوف . . لن يكون ذكرا . . بل قد يكون سوء أدب فى حق الله سبحانه . إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة ، وبالخشية والتقوى . . إنما هو استحضار جلال الله وعظمته ، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه ، واستحضار الرجاء فيه والالتجاء إليه . . حتى يصفو الجوهر الروحى فى الإنسان ، ويتصل بمصدره اللدنى الشفيف المنير . .

فإذا تحرك اللسان مع القلب ؛ وإذا نبست الشفاه مع الروح ؛ فليكن ذلك فى صورة

Marfat.com

لا تخدش الخشوع ولا تناقض الضراعة . ليكن ذلك فى صوت خفيض ، لا مكاء وتصدية ، ولا صراخا وضجة ، ولا غناء وتطرية !

« واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول » . .

« بالغدو والآصال »

فى مطالع النهار وفى أواخره . فيظل القلب موصولا بالله طرفى النهار . وذكر الله لا يقتصر على هذه الآونة، فذكر الله ينبغى أن يكون فى القلب فى كل آن ؛ ومراقبة الله يجب أن تكون فى القلب فى كل لحظة . ولكن هذين الآنين إنما تطالع فيهما النفس التغير الواضح فى صفحة الكون . . من الليل إلى نهار . ومن نهار إلى ليل . ويتصل فيهما القلب بالوجود من حوله ؛ وهو يرى يد الله تقلب الليل والنهار ؛ وتغير الظواهر والأحوال . . وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم أن القلب البشرى يكون فى هذين الآنين أقرب ما يكون إلى التأثر والاستجابة . . ولقد كثر فى القرآن التوجيه إلى ذكر الله سبحانه وتسبيحه فى الآونة التى كأنما يشارك الكون كله فيها فى التأثير على القلب البشرى وترقيقه وإرهافه وتشويقه للاتصال بالله . . « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » . . « ومن الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » . . « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » . .

ولا داعى للقول بأن هذا الأمر بالذكر فى هذه الآونة قد كان قبل فرض الصلاة المكتوبة فى أوقاتها المعلومة . مما يوحى بأن فرض الصلاة المكتوبة قد أغنى عن هذا الأمر فى هذه الآونة . فهذا الذكر أشمل من الصلاة ، وأوقاته ليست مقصورة على مواقيت الصلاة المكتوبة . كما أنه قد يكون فى صور غير صورة الصلاة ـ المكتوبة وغير المكتوبة ـ فى صورة الذكر بالقلب ، أو بالقلب واللسان دون بقية حركات الصلاة .. بل إنه لأشمل من ذلك كذلك . إنه التذكر الدائم والاستحضار الدائم لجلال الله ـ سبحانه ـ ومراقبته فى السر والعلن ، وفى الصغيرة والكبيرة ، وفى الحركة والسكنة ، وفى العمل والنية . . وإنما ذكر البكرة والأصيل والليل .. لما فى هذه الآونة من مؤثرات خاصة يعلم الله ما تصنع فى القلب البشرى ، الذى يعلم خالقه فطرته وطبيعة تكوينه !

Marfat.com

« ولا تكن من الغافلين » ..

الغافلين عن ذكر الله .. لا بالشفة واللسان ، ولكن بالقلب والجنان .. الذكر الذي يخفق به القلب ؛ فلا يسلك صاحبه طريقا يخجل أن يطلع عليه الله فيه ؛ ويتحرك حركة يخجل أن يراه الله عليها ؛ ولا يأتي صغيرة أو كبيرة إلا وحساب الله فيها .. فذلك هو الذكر الذي يرد به الأمر هنا ؛ وإلا فما هو ذكر لله ، إذا كان لا يؤدي إلى الطاعة والعمل والسلوك والاتباع .

اذكر ربك ولا تغفل عن ذكره ؛ ولا يغفل قلبك عن مراقبته ؛ فالإنسان أحوج إلى أن يظل على اتصال بربه ، ليتقوى على نزغات الشيطان : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم » . ولقد كانت السورة من قبل معرضا للمعركة بين الإنسان والشيطان في أوائلها ، وظل سياقها يعرض موكب الإيمان وشياطين الجن والإنس تعترض طريقه ، كما ذكر الشيطان في نبأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . وكما ذكر في أواخرها نزغ الشيطان والاستعاذة منه بالله السميع العليم .. وهو سياق متصل ، ينتهي بالتوجيه إلى ذكر الله تضرعا وخيفة ، والنهي عن الغفلة .. ويأتي هذا الأمر وهذا النهي في صدد توجيه الله سبحانه لرسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين .. فإذا هو تكملة لمعالم الطريق ، وتزويد لصاحب الدعوة بالزاد الذي يقوى به على مشاق الطريق ..

ثم يضرب الله مثلا بالذين عنده من الملائكة المقربين : الذين لا ينزغ في أنفسهم شيطان، فليس له في تركيب طبيعتهم مكان ! ولا تستبد بهم نزوة ، ولا تغلبهم شهوة . ومع هذا فهم دائبون على تسبيح الله وذكره ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون . وللإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح . وطريقه شاق ! وطبيعته قابلة لنزغ الشيطان ! وقابلة للغفلة المردية ! وجهده محدود . لولا هذا الزاد في الطريق الكؤود :

« إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته . ويسبحونه . وله يسجدون » ..

إن العبادة والذكر عنصر أساسي في منهج هذا الدين .. إنه ليس منهج معرفة نظرية . وجدل لاهوتي . إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشري، وللواقع البشري جذوره وركائزه

Marfat.com

فى نفوس الناس وفى أوضاعهم سواء . وتغيير هذا الواقع الجاهلى إلى الواقع الربانى الذى يريده الله للناس وفق منهجه مسألة شاقة عسيرة ؛ تحتاج إلى جهد طويل ، وإلى صبر عميق . وطاقة صاحب الدعوة محدودة . ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاد يستمده من ربه . إنه ليس العلم وحده ، وليست المعرفة وحدها . إنما هى العبادة لله والاستمداد منه .. هى الزاد ، وهى السند ، وهى العون ؛ فى الطريق الشاق الطويل !

ومن ثم هذا التوجيه الأخير فى السورة التى بدأت بقول الله سبحانه لرسوله الكريم : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين » .. والتى تضمن سياقها عرض موكب الإيمان ، بقيادة الرهط الكريم من رسل الله الكرام ؛ وما يعترض طريقه من كيد الشيطان الرجيم ؛ ومن مكر شياطين الجن والإنس ؛ ومن معارضة المتجبرين فى الأرض ، وحرب الطواغيت المتسلطين على رقاب العباد .

إنه زاد الطريق . وعدة الموكب الكريم فى هذا الطريق ...

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنفال
مدنية وآياتها ٧٥

نعود الآن إلى القرآن المدنى ـ بعد سورتى الأنعام والأعراف المكيتين ـ وقد سبقت منه فى هذه الظلال ـ التى نسير فيها وفق ترتيب المصحف لاوفق ترتيب النزول ـ سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء والمائدة .. ذلك أن الترتيب الزمنى للنزول لايمكن القطع فيه الآن بشىء ـ اللهم إلا من ناحية أن هذا قرآن مكى وهذا قرآن مدنى على وجه الإجمال ، على مافى هذا من خلافات قليلة ـ فأما الترتيب الزمنى المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة ، فيكاد يكون متعذرا ؛ ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئا مستيقنا ـ إلا فى آيات معدودات تتواتر بشأنها الروايات أو تقطع بشأنها بعض الروايات .. وعلى كل مافى محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمنى للنزول من قيمة ، ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها ، فإن قلة اليقين فى هذا الترتيب تجعل الأمر شاقا ؛ كما أنها تجعل النتائج التى يتوصل إليها تقريبية ظنية ، وليست نهائية يقينية .. وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة .. لذلك آثرت فى هذه الظلال أن أعرض القرآن بترتيب سوره فى المصحف العثمانى ؛ مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سورة ـ على وجه الإجمال والترجيح ـ والاستئناس بهذا فى إيضاح الجو والملابسات المحيطة بالنص ـ على وجه الإجمال والترجيح أيضا ـ على النحو الذى سبق فى التعريف بالسور الماضية فى هذه الطبعة الجديدة من الظلال .. وعلى هذا النحو نمضى ـ بعون الله ـ فى هذه السورة ..(١)

---

(١) وقد حاولت فى كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » أن أعرض هذه المشاهد وفق ترتيب النزول للسور . ولكنى آثرت فى ظلال القرآن اتباع المنهج الآخر ..

Marfat.com

نزلت سورة الأنفال التي نعرض لها هنا بعد سورة البقرة .. نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة بعد تسعة عشر شهرا من الهجرة على الأرجح .. ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة لا يمثل حقيقة نهائية . فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ؛ بل إن منها مانزل في أوائل العهد بالمدينة ، ومنها مانزل في أواخر هذا العهد . وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات ! ومن المؤكد أن سورة الأنفال نزلت بين هذين الوعدين ؛ وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة ؛ تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الوعدين ، وتضم إليها وفق الأمر النبوي التوقيفي . ولكن المعول عليه في قولهم : إن هذه السورة نزلت بعد هذه السورة ، هو نزول أوائل السور . كما ذكرنا ذلك في التعريف بسورة البقرة (١).

وفي بعض الروايات أن الآيات من ٣٠ إلى غاية ٣٦ من سورة الأنفال مكية .. وهي هذه الآيات :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لايعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » ..

ولعل الذي دعا أصحاب هذه الروايات إلى القول بمكية هذه الآيات أنها تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة .. ولكن هذا ليس بسبب .. فإن هناك كثيرا من الآيات المدنية تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة . وفي هذه السورة نفسها آية : ٢٦ قبل هذه الآيات تتحدث عن مثل هذا الشأن :

---

(١) ص ٢٢ ــ ٢٣ من الجزء الأول : الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » . .

كما أن الآية : ٣٦ وهى الأخيرة من تلك الآيات تتحدث عن أمر كان بعد بدر ، خاص بإنفاق المشركين أموالهم للتجهيز لغزوة أحد :

« إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » . .

والروايات التى تذكر أن هذه الآيات مكية ذكرت فى سبب النزول مناسبة هى محل اعتراض . فقد جاء فيها : أن أبا طالب قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يأتمر به قومك ؟ قال : يريدون أن يسحرونى ويقتلونى ويخرجونى ! فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : ربى . قال : نعم الرب ربك . فاستوص به خيرا ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أنا أستوصى به ! بل هو يستوصى بى خيرا ! فنزلت : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » . . الآية . .

وقد ذكر ابن كثير هذه الرواية واعترض عليها بقوله : «وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا ، بل منكر . لأن هذه الآية مدنية . ثم إن هذه القصة ، واجتماع قريش على هذا الائتمار ، والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل ، إنما كانت ليلة الهجرة سواء . وذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين . لما تمكنوا منه واجترأوا عليه بسبب موت عمه أبى طالب ، الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه » . .

وقد ذكر ابن إسحاق . عن عبد الله ابن أبى نجيح . عن مجاهد . عن ابن عباس — وعنه كذلك من طريق آخر — حديثا طويلا عن تبييت قريش ومكرهم هذا ، جاء فى نهايته قوله : « . . وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، وأنزل عليه — بعد قدومه المدينة — «الأنفال» يذكره نعمه عليه ، وبلاءه عنده : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين » . .

وهذه الرواية عن ابن عباس — رضى الله عنهما — هى التى تتفق مع السياق القرآنى قبل هذه الآيات وبعدها . من تذكير الله سبحانه لنبيه — صلى الله عليه وسلم — وللمؤمنين بما أسلف

Marfat.com

إليهم من فضله؛ فى معرض تحريضهم على الجهاد فى سبيل الله والاستجابة لما يدعوهم إليه منه والثبات يوم الزحف . . إلى آخر ما تعالجه السورة من هذا الأمر كما سنبين . . والقول بأن هذه الآيات مدنية كالسورة كلها هو الأولى . .

وبعد ، فإنه من أجل مثل هذه الملابسات فى الروايات الواردة عن أسباب النزول ، آثرنا المنهج الذى جرينا عليه فى عرض القرآن الكريم كما هو ترتيب السور فى مصحف عثمان – رضى الله عنه – لا وفق ترتيب النزول الذى لا سبيل اليوم فيه إلى يقين . . مع محاولة الاستئناس بأسباب النزول وملابساته قدر ما يستطاع .

والله المستعان . .

* * *

هذه السورة نزلت فى غزوة بدر الكبرى . . وغزوة بدر – بملابساتها وبما ترتب عليها فى تاريخ الحركة الإسلامية وفى التاريخ البشرى جملة – تقوم معلما ضخما فى طريق تلك الحركة وفى طريق هذا التاريخ .

وقد سمى الله – سبحانه – يومها « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » . . كما أنه جعلها مفرق الطريق بين الناس فى الآخرة كذلك لا فى هذه الأرض وحدها ؛ ولا فى التاريخ البشرى على هذه الأرض فى الحياة الدنيا وحدها . فقال سبحانه : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم : فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها – من غم – أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق . . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . . » . . (الحج : ١٩ – ٢٤) وقد ورد أن هذه الآيات نزلت فى الفريقين اللذين التقيا يوم بدر . . يوم الفرقان . . لا فى الدنيا وحدها ، ولا فى التاريخ البشرى على الأرض وحدها ؛ ولكن كذلك فى الآخرة وفى الأبد الطويل . . وتكفى هذه الشهادة من الجليل – سبحانه – لتصوير ذلك اليوم وتقديره . . وسنعرف شيئا من قيمة هذا اليوم ، حين نستعرض الوقعة وملابساتها ونتائجها . .

Marfat.com

ومع كل عظمة هذه الغزوة ، فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها وحين نراها حلقة من حلقات « الجهاد فى الإسلام » ، وحين ندرك بواعث هذا الجهاد وأهدافه . كذلك نحن لا ندرك طبيعة « الجهاد فى الإسلام » وبواعثه وأهدافه ، قبل أن نعرف طبيعة هذا الدين ذاته . .

لقد لخص الإمام ابن القيم سيق الجهاد فى الإسلام فى « زاد المعاد » ، فى الفصل الذى عقده باسم : « فصل فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق . وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : « يا أيها المدثر . قم فأنذر » فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ« يا أيها المدثر » . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ؛ ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ؛ فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام : قسما أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسما لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ؛ أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ؛ فإذا انسلخت قاتلهم . . فقتل الناقض لعهده ؛ وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته ؛ فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى

Marfat.com

مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب . . وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ؛ ويكل سرائرهم إلى الله ؛ وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ؛ وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين » . .

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلا . ولكننا في هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة :

◆ السمة الأولى : هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعا بشريا . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ؛ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ؛ تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ؛ تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ؛ وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدهم لغير ربهم الجليل . . إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد . . وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجيء . . .

◆ والسمة الثانية في منهج هذا الدين . . هي الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ؛ وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في

Marfat.com

الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ؛ ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا ؛ يمثل القواعد النهائية في هذا الدين . ويقولون ـ وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـ : إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته . ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . . بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها . .

◆ والسمة الثالثة : هي أن هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الأول ـ سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين ، أو يخاطب قريشا ، أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين ، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ؛ ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد . . هو إخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد . . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين . . ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد ، في خطة مرسومة ؛ ذات مراحل محددة ؛ لكل مرحلة وسائلها المتجددة . . على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة .

◆ والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى ـ على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن « زاد المعاد » . وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه ؛ أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي ، أو قوة مادية . وأن تخلي بينه وبين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يحاربه !

Marfat.com

فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه !

* * *

والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن « الجهاد فى الإسلام » ليدفعوا عن الإسلام هـذا « الاتهام ! » . . يخلطون بين منهج هـذا الدين فى النص على استنكار الإكراه على العقيدة ، وبين منهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه ؛ والتى تعبد الناس للناس ؛ وتمنعهم من العبودية لله .. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.. ومن أجل هذا التخليط ـ وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة ! ـ يحاولون أن يحصروا الجهاد فى الإسلام فيما يسمونه اليوم : « الحرب الدفاعية » .. والجهاد فى الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك . . إن بواعث الجهاد فى الإسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة « الإسلام » ذاته ، ودوره فى هذه الأرض ، وأهدافه العليا التى قررها الله ؛ وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات :

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه أيضا وهى من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين .. إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ؛ والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور .. أو بتعبير آخر مرادف : الألوهية فيه للبشر فى صورة من الصور . . ذلك أن الحكم الذى مرد الأمر فيه إلى البشر ، ومصدر السلطات فيه هم البشر ، هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله .. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله ؛ وطرد المغتصبين له ؛ الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ؛ ويقوم الناس منهم مقام العبيد .. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله فى الأرض .. أو بالتعبير القرآنى الكريم :

« وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » ..

Marfat.com

« إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم .. » ..

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » ..

ومملكة الله فى الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال بأعيانهم ـ هم رجال الدين كما كان الأمر فى سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فى مايعرف باسم « الثيوقراطية » أو الحكم الإلهى المقدس !!! ـ ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هى الحاكمة ؛ وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ماقرره من شريعة مبينة .

وقيام مملكة الله فى الأرض ، وإزالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من أيدى مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده . وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان . لأن المتسلطين على رقاب العباد ، المغتصبين لسلطان الله فى الأرض ، لا يسلمون فى سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلا فما كان أيسر عمل الرسل فى إقرار دين الله فى الأرض ! وهذا عكس ماعرفه تاريخ الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال !

إن هذا الإعلان العام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل سلطان غير سلطان الله ، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا .. إنما كان إعلانا حركيا واقعيا إيجابيا .. إعلانا يراد له التحقيق العملى فى صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ؛ ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك . . ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل « الحركة » إلى جانب شكل « البيان » .. ذلك ليواجه « الواقع » البشرى بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه .

والواقع الإنسانى ، أمس واليوم وغدا ، يواجه هذا الدين ـ بوصفه إعلانا عاما لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل سلطان غير سلطان الله ـ بعقبات اعتقادية تصورية . وعقبات مادية واقعية .. عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، إلى جانب

Marfat.com

عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

وإذا كان « البيان » يواجه العقائد والتصورات ، فإن « الحركة » تواجه العقبات المادية الأخرى – وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية ، والعنصرية والطبقية ، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة .. وهما معاً – البيان والحركة – يواجهان « الواقع البشري » بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته .. وهما معاً لابد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض .. « الإنسان » كله في « الأرض » كلها .. وهذه نقطة هامة لابد من تقريرها مرة أخرى !

إن هذا الدين ليس إعلانا لتحرير الإنسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! .. إن موضوعه هو « الإنسان » .. نوع « الإنسان » .. ومجاله هو « الأرض » .. كل الأرض . إن الله – سبحانه – ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم .. إن الله هو « رب العالمين » .. وهذا الدين يريد أن يرد « العالمين » إلى ربهم ؛ وأن ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى – في نظر الإسلام – هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر .. وهذه هي « العبادة » التي يقرر أنها لا تكون إلا لله وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أن « الاتباع » في الشريعة والحكم هو « العبادة » التي صار بها اليهود والنصارى « مشركين » مخالفين لما أمروا به من « عبادة » الله وحده ..

أخرج الترمذي – بإسناده – عن عدي ابن حاتم – رضي الله عنه – أنه لما بلغته دعوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فر إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم منّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي عنقه (أي عدي) صليب من فضة وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا

Marfat.com

من دون الله » . . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » . .

وتفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقول الله سبحانه ، نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابا لبعض . . الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ، ويعلن تحرير « الإنسان » ، في « الأرض » من العبودية لغير الله . .

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في « الأرض » لإزالة « الواقع » المخالف لذلك الإعلان العام . . بالبيان وبالحركة مجتمعين . . وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله - أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه - والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى « البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد إزالة القوة المسيطرة - سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . . ولكن الإسلام ليس مجرد « عقيدة » . . إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان . . ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا - بالفعل - في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم - بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم - ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم ؛ أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيدا للعباد ! وأن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ! . . إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ؛ وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتنق كل فرد - في ظل هذا النظام العام - ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله . أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . . إن مدلول « الدين » أشمل من مدلول « العقيدة » . . إن الدين هو للنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة . ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة . . وفي الإسلام يمكن أن

Marfat.com

تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذى يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام ..

والذى يدرك طبيعة هذا الدين ـ على النحو المتقدم ـ يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى للإسلام فى صورة الجهاد بالسيف ـ إلى جانب الجهاد بالبيان ـ ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية ـ بالمعنى الضيق الذى يفهم اليوم من اصطلاح « الحرب الدفاعية » ـ كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد فى الإسلام ـ إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » . . بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشرى ؛ وفى مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة .

وإذا لم يكن بد من أن نسمى حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة «دفاع» . ونعتبره « دفاعا عن الإنسان » ذاته ، ضد جميع العوامل التى تقيد حريته وتعوق تحرره . . هذه العوامل التى تتمثل فى المعتقدات والتصورات ؛ كما تتمثل فى الأنظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التى كانت سائدة فى الأرض كلها يوم جاء الإسلام ؛ والتى مازال أشكال منها سائدة فى الجاهلية الحاضرة فى هذا الزمان !

وبهذا التوسع فى مفهوم كلمة « الدفاع » نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامى فى « الأرض » بالجهاد ؛ ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها ، وهى أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ؛ وتحطيم مملكة الهوى البشرى فى الأرض ، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية فى عالم الإنسان . .

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامى بالمعنى الضيق للمفهوم العصرى للحرب الدفاعية ؛ ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامى كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على « الوطن الإسلامى ! » ـ وهو فى عرف بعضهم جزيرة العرب ـ فهى محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذى جاء ليقوم به فى الأرض . كما أنها تشى بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ؛ وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الإسلامى !

Marfat.com

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان ـ رضى الله عنهم ـ قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض ؟ وكيف كانوا يدفعون هـذا المد ، وأمام الدعوة تلك العقبات المـادية ـ من أنظمة الدولة السياسية ؛ وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية النـاشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية ، والتى تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟!

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير « الإنسان » . . نوع الإنسان . . فى « الأرض » . . كل الأرض . . ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان ! . . إنها تجـاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات . . فهنا « لا إكراه فى الدين » . . أما حين توجد تلك العقبـات والمؤثرات المادية ، فلا بد من إزالتها أولا بالقوة ، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله ؛ وهو طليق من هذه الأغلال !

إن الجهاد ضرورة للدعوة . إذا كانت أهـدافها هى إعلان تحرير الإنسان إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فى كل جوانبه ؛ ولا يكتفى بالبيـان الفلسفى النظرى السـابى ! سواء كان الوطن الإسلامى ـ وبالتعبير الإسلامى الصحيح : دار الإسلام ـ آمنا أم مهددا من جيرانه . فالإسلام حين يسعى إلى السلم ، لا يقصد تلك السلم الرخيصة ؛ وهى مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التى يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد السلم التى يكون الدين فيها كله لله . أى تـكون عبودية الناس كلهم فيها لله ؛ والتى لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله . والعبرة بنهاية المراحل التى وصلت إليها الحركة الجهادية فى الإسلام ـ بأمر من الله ـ لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها . . ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم: « فاستقر أمر الـكفار معه ـ بعد نزول براءة ـ على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام . . فصاروا معه قسمين : محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة) وخائف محارب » . .

Marfat.com

وهذه هى المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه . لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام هجوم المستشرقين الماكر !

ولقد كف الله المسلمين عن القتال فى مكة ؛ وفى أول العهد بالهجرة إلى المدينة .. وقيل للمسلمين : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. ثم أذن لهم فيه ، فقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق - إلا أن يقولوا : ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » .. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .. وقيل لهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .. فكان القتال - كما يقول الإمام ابن القيم - « محرما ، ثم مأذونا به ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين » ..

إن جدية النصوص القرآنية الواردة فى الجهاد ؛ وجدية الأحاديث النبوية التى تحض عليه؛ وجدية الوقائع الجهادية فى صدر الإسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه ... إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول فى النفس ذلك التفسير الذى يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الإسلامى !

ومن ذا الذى يسمع قول الله سبحانه فى هذا الشأن وقول رسوله - صلى الله عليه وسلم - ويتابع وقائع الجهاد الإسلامى ؛ ثم يظنه شأنا عارضا مقيدا بملابسات تذهب وتجىء ؛ ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟!

لقد بين الله للمؤمنين فى أول ما نزل من الآيات التى أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل فى طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن الأرض : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير

Marfat.com

حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .. وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعايش الحق والباطل فى هذه الأرض . وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، رماه المغتصبون لسلطان الله فى الأرض ولم يسالموه قط ؛ وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن « الإنسان » فى « الأرض » ذلك السلطان الغاصب .. حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادى التحررى حتى يكون الدين كله لله .

إن الكف عن القتال فى مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة فى خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة . والذى بعث الجماعة المسلمة فى المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة .. هذا هدف أولى لابد منه . ولكنه ليس الهدف الأخير .. إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ؛ ويؤمن قاعدة الانطلاق .. الانطلاق لتحرير « الإنسان » ، ولإزالة العقبات التى تمنع « الإنسان » ذاته من الانطلاق !

وكف أيدى المسلمين فى مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفولا للدعوة فى مكة حرية البلاغ .. كان صاحبها — صلى الله عليه وسلم — يملك بحماية سيوف بنى هاشم ، أن يصدع بالدعوة ؛ ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ؛ ويواجه بها الأفراد .. لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة ، أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة — فى هذه المرحلة — لاستخدام القوة . وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة فى هذه المرحلة . وقد لخصناها عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ... » من سورة النساء . ولانرى بأسا فى إثبات بعض هذا التلخيص هنا مرة أخرى :

« ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، فى بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد فى مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربى على الصبر على مالا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ؛ ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة فى نظره

Marfat.com

ودافع الحركة فى حياته . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر – كما هى طبيعته – ولا يهتاج لأول مهيج . ليتم الاعتدال فى طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعا منظما له قيادة يرجع إليها فى كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به – مهما يكن مخالفا لمألوفه وعادته – وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى ، لإنشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقى المتحضر ، غير الهمجى أو القبلى !

« وربما كان ذلك أيضا ، لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثرا وأنفذ ، فى مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والشرف ؛ والتى قد يدفعها القتال معها – فى مثل هذه المرحلة – إلى زيادة العناد ، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التى أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، أعواما طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة فى أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبدا . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول تنسى معها وجهته الأساسية ، وهو فى مبدئه ، فلا تذكر أبدا !

« وربما كان ذلك أيضا ، اجتنابا لإنشاء معركة ومقتلة فى داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هى التى تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد ، يعذبونه ويفتنونه « ويؤدبونه ! » ومعنى الإذن بالقتال – فى مثل هذه البيئة – أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت .. ثم يقال : هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش فى الموسم ، فى أوساط العرب القادمين للحج والتجارة : إن محمدا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى .. فى كل بيت وفى كل محلة ؟ .

« وربما كان ذلك أيضا لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته .. ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء ؟!

« وربما كان ذلك أيضا ، لأن النخوة العربية ، فى بيئة قبلية ، من عادتها أن تثور للمظلوم الذى يحتمل الأذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم .. وقد

Marfat.com

وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عارا على العرب ! وعرض عليه جواره وحمايته .. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعد ما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما في بيئة أخرى من بيئات «الحضارة» القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم للمعتدي !

« وربما كان ذلك ، أيضا ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة ، أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة ، ولم يقم في الأرض للإسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعي .. وهو دين جاء ليكون منهاج حياة ، وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة .

« ... الخ » ... (١)

فأما في المدينة - في أول العهد بالهجرة - فقد كانت للمعاهدة التي عقدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك ..

أولا : لأن هناك مجالا للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ؛ وبقيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحا ولا يثير حربا ، ولا ينشىء علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان واضحا أن السلطة

---

(١) ص ١٠٦ - ص ١٠٩ من الجزء الخامس من الظلال . الطبعة المنقحة .

Marfat.com

الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال أمام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانيا : أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يريد التفرغ – في هذه المرحلة – لقريش؛ التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى ؛ الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بإرسال « السرايا » وكان أول لواء عقده لحمزة ابن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهرا . ثم على رأس ستة عشر شهرا . ثم كانت سرية عبدالله ابن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرا. وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال . وكان ذلك في الشهر الحرام . والتي نزلت فيها آيات البقرة : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل : قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ... » (١)

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة .. وهي التي نزلت فيها هذه السورة التي نحن بصددها .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالا للقول بأن « الدفاع » بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية . كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر !

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي ، إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية ، في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد المسلمين إسلام ! – إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحرير « الإنسان » في

---

(١) يراجع تفسير الآية والغزوة في الجزء الثاني من الظلال ص ١٦٢ – ص ١٦٨ من الطبعة المنقحة .

Marfat.com

« الأرض » من كل سلطان إلا سلطان الله ؛ ليكون الدين كله لله ـ فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد فى الإسلام !

والمد الإسلامى ليس فى حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التى حملتها النصوص القرآنية :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت،فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا »... (النساء : ٧٤-٧٦) .

« قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف،وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير » ... (الأنفال : ٣٨-٤٠) ..

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ؛ ولو كره الكافرون » ... (التوبة : ٢٩-٣٢) .

إنها مبررات تقرير ألوهية الله فى الأرض ؛ وتحقيق منهجه فى حياة الناس . ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين ؛ وتحطيم سلطان البشر الذى يتعبد الناس ، والناس عبيد الله وحده ، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه !

Marfat.com

وهذا يكفى .. مع تقرير مبدأ : « لا إكراه فى الدين » .. أى لا إكراه على اعتناق العقيدة، بعد الخروج من سلطان العبيد؛ والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله . أو أن الدين كله لله . بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحرير العام للإنسان فى الأرض . بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك .. وهذه وحدها تكفى .. ولقد كانت هذه المبررات ماثلة فى نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين ! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعى بن عامر ، وحذيفة ابن محصن ، والمغيرة ابن شعبة ، جميعا لرستم قائد جيش الفرس فى القادسية ، وهو يسألهم واحدا بعد واحد فى ثلاثة أيام متوالية ، قبل المعركة : ما الذى جاء بكم ؟ فيكون الجواب : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .. فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر » .

إن هناك مبررا ذاتيا فى طبيعة هذا الدين ذاته ؛ وفى إعلانه العام ، وفى منهجه الواقعى لمقابلة الواقع البشرى بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، فى مراحل محددة ، بوسائل متجددة .. وهذا المبرر الذاتى قائم ابتداء – ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها – إنه مبرر فى طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية فى المجتمعات البشرية .. لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة ، وموقوتة !

وإنه ليكفى أن يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله .. « فى سبيل الله » . فى سبيل هذه القيم التى لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتى ؛ ولا يخرجه لها مغنم ذاتى ..

إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد فى المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر فى نفسه

Marfat.com

مع الشيطان . . مع هواه وشهواته . . مع مطامعه ورغباته . . مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الإسلام . . ومع كل دافع إلا العبودية لله ، وتحقيق سلطانه فى الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله . .

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامى فى حماية « الوطن الإسلامى » يغضون من شأن « المنهج » ويعتبرونه أقل من « الوطن » ! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات .. إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامى ، فالعقيدة والمنهج الذى تتمثل فيه والمجتمع الذى يسود فيه هذا المنهج هى الاعتبارات الوحيدة فى الحس الإسلامى . أما الأرض ــ بذاتها ــ فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للأرض فى التصور الإسلامى إنما هى مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و« دار الإسلام » ونقطة الانطلاق لتحرير « الإنسان » . .

وحقيقة أن حماية «دار الإسلام» حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذى يسود فيه المنهج . ولكنها هى ليست الهدف النهائى . وليست حمايتها هى الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامى. إنما حمايتها هى الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها ، وإلى النوع الإنسانى بجملته . فالنوع الإنسانى هو موضوع هذا الدين ، والأرض هى مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهى تقوم فى وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ، ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة .. وهذه كلها هى التى ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة . كى يخلو له وجه الأفراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الأغلال المادية ؛ ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار ..

يجب ألا تخدعنا أو تفزعنا حملات المستشرقين على مبدأ « الجهاد » ، وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله فى ميزان القوى العالمية ، فنروح نبحث للجهاد الإسلامى عن مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين ، فى ملابسات دفاعية وقتية ، كان الجهاد سينطلق فى طريقه سواء وجدت هذه الملابسات أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخى ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية فى طبيعة هذا

Marfat.com

الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعى .. وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقا إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده ، فى صورة إعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا الوجود فى تجمع تنظيمى حركى تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية ، لأن الحاكمية فيه لله وحده .. إن مجرد وجود هذا الدين فى هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله ، القائمة على قاعدة العبودية للعباد ، أن تحاول سحقه ، دفاعا عن وجودها ذاته . ولا بد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه . .

هذه ملابسة لا بد منها . تولد مع ميلاد الإسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا ، ولا خيار له فى خوضها . وهذا صراع طبيعى بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا . .

هذا كله حق . . ووفق هذه النظرة يكون لابد للإسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضا . .

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . إن من طبيعة الوجود الإسلامى ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء ؛ لإنقاذ « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية لغير الله . ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ؛ ولا أن ينزوى داخل حدود عنصرية ؛ تاركا « الإنسان » . . نوع الإنسان . . فى « الأرض » . . كل الأرض . . للشر والفساد والعبودية لغير الله .

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام ، إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ؛ ورضى أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحررى العام ! . . ولكن الإسلام لا يهادنها ، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه فى صورة أداء الجزية ، ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

Marfat.com

هذه طبيعة هـذا الدين ، وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله فى الناس أجمعين !

وفرق بين تصور الإسلام على هـذه الطبيعة ، وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية ، لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه فى هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية فى الانطلاق !

إن مبررات الانطلاق الإسلامى تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية ، وليس منهج إنسان ، ولا مذهب شيعة من الناس ، ولا نظام جنس من الأجناس ! . . ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر فى حسنا هـذه الحقيقة الهائلة . . حين ننسى أن القضية هى قضية ألوهية الله وعبودية العباد . . إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامى !

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين تصور أن الإسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها ، بحكم وجوده الذاتى ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التى لا بد أن تهاجمه . وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء ، فيدخل فى هذه المعركة ..

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة . فهو فى كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتما . ولكنها فى نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة ، تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييرا كبيرا .. خطيرا ..

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجا إلهيا ، جاء ليقرر ألوهية الله فى الأرض ، وعبودية البشر جميعا لإله واحد ، ويصب هذا التقرير فى قالب واقعى ، هو المجتمع الإنسانى الذى يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، فلا تحكمهم إلا شريعة الله ، التى يتمثل فيها سلطان الله ، أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته .. فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ، ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسى ، أو أوضاع الناس الاجتماعية . . إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار

Marfat.com

الإسلام على هذا النحو ، واعتباره نظاما محليا فى وطن بعينه . فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه فى داخل حدوده الإقليمية!

هذا تصور .. وذاك تصور .. ولو أن الإسلام فى كلتا الحالتين سيجاهد .. ولكن التصور الكلى لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه ، يختلف اختلافا بعيدا ، يدخل فى صميم الاعتقاد كما يدخل فى صميم الخطة والاتجاه .

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء . فالإسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن، ولكنه منهج إله ، ونظام عالم .. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التى تغل من حرية « الإنسان » فى الاختيار . وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته . إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة ، المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الإسلام أن يخرج « الناس » من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .. ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين .. وعبادة الله وحده لا تتحقق - فى التصور الإسلامى وفى الواقع العملى - إلا فى ظل النظام الإسلامى . فهو وحده النظام الذى يشرع الله فيه للعباد كلهم . حاكمهم ومحكومهم . أسودهم وأبيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم. تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السواء .. أما فى سائر الأنظمة ، فيعبد الناس العباد ، لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية . فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصا وعملا ، سواء ادعاها قولا أم لم يعلن هذا الادعاء ! وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية ، سواء سماها باسمها أم لم يسمها !

والإسلام ليس مجرد عقيدة . حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان . إنما هو منهج يتمثل فى تجمع تنظيمى حركى يزحف لتحرير كل الناس . والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو . ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام . وهذا - كما قلنا من قبل - معنى أن يكون الدين كله لله . فلا تكون

Marfat.com

هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته ، كما هو الشان فى سائر الأنظمة التى تقوم على عبودية العباد للعباد !

إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر ، وتحت الهجوم الاستشراقى الماكر ، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة. لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيدا أن هذه ليست هى الحقيقة . ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامى بهذه الطريقة .. ومن ثم يقوم المنافحون - المهزومون - عن سمعة الإسلام ، بنفى هذا الاتهام ! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته ، وحقه فى « تحرير الإنسان » ابتداء .

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربى لطبيعة « الدين » .. وأنه مجرد « عقيدة » فى الضمير ؛ لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة .. ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهادا لفرض العقيدة على الضمير !

ولكن الأمر ليس كذلك فى الإسلام . فالإسلام منهج الله للحياة البشرية . وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية - متمثلة فى الحاكمية - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام . أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع ، فى ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات .. ومن ثم يختلف الأمر من أساسه ، وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الإسلامى ، الذى يتمثل فيه المنهج الإلهى ، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام . مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان .. فإذا كف الله أيدى الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد ، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ . مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة .. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة ، فى المراحل التاريخية المتجددة . ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية ، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل .

***

Marfat.com

وبعد ، فإن هناك بقية فى بيان طبيعة « الجهاد فى الإسلام » و « طبيعة هذا الدين » يمدنا بهـا البحث المجمل القيم الذى أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان ، بعنوان « الجهاد فى سبيل الله » .. وسنحتاج أن نقتبس منه فقرات طويلة ؛ لا غنى عنهـا لقارىء يريد رؤية واضحة دقيقة لهـذا الموضوع الخطير العميق فى بناء الحركة الإسلامية :

« لقـد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة « الجهاد » « بالحرب المقـدسة » (Holy War) إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيرا منـكرا ، وتفننوا فيها ، وألبسوها ثوبا فضفاضا من المعانى المموهة الملفقة . وقد بلغ الأمر فى ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم، وسحر بيانهم ، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة ، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هـذه الـكلمة .. الجهاد .. تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلتة سيوفها ، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب ، متطايرا من عيونهـا شرار الفتك والنهب ، عالية أصواتها بهتاف : « الله أكبر » ، زاحفة إلى الأمام ، ما إن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقه ، وجعلته بين أمرين : إما أن يقول كلمة : « لا إله إلا الله » فينجو بنفسـه ، وإما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دما !

« ولقد رسم الدهاة هـذه « الصورة » بلباقة فائقة ، وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ؛ وكان من دهائهم ولباقتهم فى هـذا الفن أن صبغوهـا بصبغ من النجيـع الأحمر ، وكتبوا تحتها :

« هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء ، وجشع إلى الفتك بالأبرياء » !

« والعجب كل العجب ، أن الذين عملوا على هـذه الصورة ؛ وقاموا بما كان لهم من حظ موفور فى إبرازها وعرضها على الأنظار ، هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقـاتلون ويتناحرون فيما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة وإطفـاء لأوار مطامعهم الأشعبية ، وتلك هى

Marfat.com

حربهم الملعونة غير المقدسة (Unholy War) التى أثاروها على الأمم المستضعفة فى مشارق الأرض ومغاربها ، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التى يريدون أن يستعمروها ، ويستبدوا بمنابع ثروتها دون أصحابها الشرعيين ، ويفتشون عن المناجم والمعادن ، وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التى يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم . يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه . وبين أيديهم الدبابات المدججة ، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة فى جو السماء ، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة يقطعون على البلاد سبل رزقها ، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة ، يريدون بذلك أن يهيئوا وقودا لنيران مطامعهم الفاحشة التى لا تزيدها الأيام إلا التهابا واضطراما . فلم تكن حروبهم فى « سبيل الله » ، وإنما كانت فى سبل شهواتهم الدنيئة ، وأهوائهم الذميمة ...

« هذه هى حال الذين يصموننا بالغزو والقتال ، الذى سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة . أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقترفونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم « المتحضر المتمدن ! » . وأى بلاد الله ، ياترى ، قد سلمت من عدوانهم ، ومانخضبت أراضيها بدماء أبنائها الزكية؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسيا وأفريقية وأمريكا ماذاقت وبال حروبهم الملعونة ؟ .. لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة ، وأبدأوا وأعادوا فى عرضها بشكل هائل بشع ، وقد سحب ذيل النسيان على صورتهم الدميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد بجنب الصورة المنكرة التى صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا . فما أعظم دهاءهم ! وما أبرعهم فى التزوير والتمويه !

« أما سذاجتنا وبله رجالنا ، فحدث عن البحر ولا حرج ! وأى بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التى صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ؟ ومادار بخلدنا أن ننظر إلى الأيدى الأثيمة التى عملت عملها فى رسم هذه الصورة المزورة ، وأن نبحث عن الأقلام الخفية التى تفننت فى تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم ، وانخداعنا بتلك الصورة المموهة أن اعترانا الخجل والندامة ، وعدنا نعتذر إلى القوم ، نبدل

Marfat.com

كلام الله ، ونحرف الكلم عن مواضعه ، ونقول لهم : « مالنا وللقتال ، أيها السادة ! إنما نحن دعاة مبشرون ، ندعو إلى دين الله ، دين الأمن والسلام والدعة بالحكمة والموعظة الحسنة ، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان والدراويش والصوفية ، ونجادل من يعارضنا بالتي هي أحسن ، بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة ! هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص ! أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت إليه بصلة . اللهم إلا أن يقال : إننا ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد ! ذلك أيضاً قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضا ! ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد « رسميا » ! ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل فيه السيف عمله ! حتى لا يقلق بالكم ولا يقض عليكم المضجع ! فما الجهاد اليوم إلا مواصلة الجهود باللسان والقلم ؛ وليس لنا إلا أن نلعب بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام ! أما المدافع والدبابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها ، فأنتم أحق بها وأهلها ! » .

«هذه مكايدهم السياسية التي كشفنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم . لكننا إذا أنعمنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية ، ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة « الجهاد في سبيل الله » ، واستكناه سرها على المسلمين أنفسهم فضلا عن غير المسلمين ، لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما ، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة :

« فالأول : أنهم ظنوا الإسلام نحلة (Religion) بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة « النحلة » (Religion) عامة ..

«والثاني : أنهم حسبوا المسلمين أمة[1] (Nation) بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال .

« فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين ، وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن ،

(١) يعني أمة قومية وهي التي تطلق عليها لفظة Nation وإلا فالمسلمون « أمة » بالمصطلح الإسلامي . وهي الجماعة من الناس المتجمعة على عقيدة الإسلام ، المنتظمة في تجمع قائم على هذا الأساس ، الخاضعة لقيادة تنفذ شريعة الله .

Marfat.com

وعاقهم عن إدراك مغزى الجهاد الإسلامي . بل الحق – والحق أحق أن يتبع – أن هذا الخطأ الأساسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الإسلامي بأسره ، وقلب الأمر ظهرا لبطن ، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجا ضيقا ، لا يرضاه الإسلام وتعاليمه الخالدة :

« فالنحلة [1] (Religion) على حسب الاصطلاح الشائع عندهم ، لايراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر : ولا جرم أن « النحلة » بهذا المعنى لاتعدو أن تكون مسألة شخصية . فأنت حر فيما تختاره من العقيدة؛ ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به ربا لنفسك . وإن أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض ، وتجوب بلاد الله الشاسعة ، داعيا إلى عقيدتها ، مدافعا عن كيانها بالحجج والبراهين ، مجادلا من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال ، فمالك ومالها في هذا الشأن ؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك ؟! وإن كان الإسلام نحلة (Religion) كنحل العالم ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ، فالظاهر أنه لاشأن فيها للسيف وأدوات الحرب ، كما قالوا . ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساغ للجهاد ، ولم يكن من الإسلام في ورد ولا صدر ؛ لكن الأمر على خلاف ذلك ، كما سوف تعرفه فيما يأتي من البيان . وكذلك كلمة « الأمة » (Nation) فما هي إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها (Homogeneous Group of Men) اجتمعت وتألفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية . فالطائفة التي تكون « أمة » ، بهذا المعنى ، لا يدفعها على استخدام السيف إلا أمران : إما أن يعتدي عليها أحد ، ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة؛ وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة . ففي الصورة الأولى منهما ، لها سعة في الأمر ، وهي لا تخلو من وازع خلق يلجئها إلى استخدام السيف والبطش بمن اعتدى عليها . وإن كان بعض المتشدقين بالأمن والسلام لايبيح ذلك أيضا ! – أما الصورة الثانية – أي الاعتداء على حقوق غيرها والإغارة على الشعوب والأمم من غير ما

---

(١) وردت في الأصل كلمة : « مذهب » التي ترادفها لفظة : (Religion) في الإنجليزية ... المترجم

Marfat.com

سبب - فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين (Dictators) حتى إن ساسة الدول الكبرى كبريطانيا وأمريكا أيضا لايقدرون أن يجترئوا على القول بجوازها !

« فإن كان الإسلام « نحلة » كالنحل الأخرى، والمسلمون « أمة » كغيرهم من أمم العالم، فلا جرم أن « الجهاد » الإسلامى يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التى جعلته رأس العبادات ودرة تاجها .. لكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة ، وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم .. بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلابية (Revolutionany) ومنهاج انقلابى يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعى بأسره ويأتى ببنيانه من القواعد ، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملى . . ومن هناك تعرف أن لفظ « المسلم » وصف للحزب الانقلابى العالمى (International Revolutionary Party) الذى يكونه الإسلام ، وينظم صفوفه ، ليكون أداة فى إحداث ذلك البرنامج الانقلابى الذى يرمى إليه الإسلام ، ويطمح إليه ببصره. والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابى (Revoluti:nary Struggle) عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التى يقام بها للوصول إلى هذه الغاية ، وإدراك هذا المبتغى .

« والإسلام يتجنب الكلمات الشائعة فى دعوته وبيان منهاجه العملى - شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلابية - بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات (Terminology) خاصة . لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات ، وبين الأفكار والتصورات الشائعة الرائجة . « فالجهاد » أيضا من الكلمات التى اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته . فأنت ترى أن الإسلام قد تجنب لفظة (الحرب) وغيرها من الكلمات التى تؤدى معنى القتال (War) فى اللغة العربية ، واستبدل بها كلمة (Struggle) فى اللغة الانجليزية . غير أن لفظة (الجهاد) أبلغ منها تأثيرا ، وأكثر منها إحاطة بالمعنى المقصود . فما الذى أفضى بالإسلام إلى أن يختار هذه الكلمة الجديدة ، صارفا بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ الذى أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحد : وهو أن لفظة « الحرب » (War) كانت ولاتزال تطلق على القتال الذى يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمآرب شخصية وأغراض ذاتية . والغايات التى ترمى إليها أمثال هذه الحروب لاتعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ، لاتكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ .

Marfat.com

وبما أن القتال المشروع فى الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة (الحرب) البتة . فإن الإسلام لاينظر إلى مصلح أمة دون أمة ؛ ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب ؛ وكذلك لايهمه فى قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولى عليها هذه المملكة أو تلك ؛ وإنما تهمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملى مختار لسعادة المجتمع البشرى والصعود به إلى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة ، ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الإسلام ، ويريد أن يقضى عليها قضاء مبرما؛ ولا يعنيه فى شىء بهذا الصدد أمر البلاد التى قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية ، أو الأمة التى ينتمى إليها القائمون بأمرها . فإن غايته استعلاء فكرته ، وتعميم منهاجه ، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ، بصرف النظر عمن يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس راية عدوانه وفساده ، والإسلام يتطلب « الأرض » ، ولا يقنع بقطعة أو جزء منها ؛ وإنما يتطلب ويستدعى المعمورة الأرضية كلها . ولا يتطلبها لتستولى عليها وتستبد بمنابع ثروتها أمة بعينها ، بعدما تنتزع من أمة أو أمم شتى ، بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشرى بأجمعه بفكرة السعادة البشرية ومنهاجها العملى اللذين أكرمه الله بهما ، وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع . وتحقيقا لهذه الغاية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التى يمكن استخدامها لإحداث انقلاب على شامل ؛ ويبذل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه الغاية العظمى ؛ ويسمى هذا الكفاح المستمر واستنفاد القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة «بالجهاد» . فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعى وبذل الجهد . وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت : إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم ، وإحداث انقلاب عقلى وفكرى بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد ، كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف ، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضا من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الأموال ، وتحمل المشاق ، ومكابدة الشدائد أيضا فصول وأبواب مهمة من كتاب « الجهاد » العظيم .

« لكن الجهاد الإسلامى ليس بجهاد لا غاية له ؛ وإنما هو الجهاد فى سبيل الله ؛ وقد لزمه هذا الشرط لاينفك عنه أبداً . وذلك أيضا من الكلمات التى اصطلح عليها الإسلام لتبيين فكرته

Marfat.com

وإيضاح تعاليمه ، كما أشرت إليه آنفا . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوى الظاهر ، وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الاسلام وإكراههم على قبولها هو « الجهاد فى سبيل الله » وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا بأنفسهم فوق ذلك ويحلقوا فى سماء أوسع من سمائهم . لكن الحق أن « سبيل الله » فى المصطلح الإسلامى أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون ، وأسمى غاية وأبعد مراما مما يظنون ويزعمون ...

« فالذى يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل ، أو جماعة من المسلمين ، تبذل جهودها ، وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة ، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الإسلامية ، فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض ، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ، لاتقصد من وراء جهودها ، وماتبذل فى سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس نظام عادل يقوم بالقسط والحق بين الناس ، ولا تبتغى بها بدلا فى هذه الحياة الفانية ، ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاء كلمة الله أن ينال جاها وشرفا أو سمعة وحسن أحدوثة . ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة والمساعى الغالية أن يسمو نفسه وعشيرته ، ويستبد بزمام الأمر ، ويتبوأ منصب الطواغيت الفجرة ، بعدما يعزل غيره من الجبابرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هو ذا القرآن الكريم ينادى بعلء صوته :

« الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » ... (النساء : ٧٦)

... « وقد تضمنت الآية الكريمة : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تشكرون » ... (البقرة : ٢١)

« لب هذه الدعوة ، دعوة الإسلام الانقلابية ، وجوهرها . فإنه لا يخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال ، أو الفلاحين ، أو الملاكين ، أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع ، ولا يسميهم بأسماء أحزابهم وطبقاتهم . وإنما يخاطب الإسلام بنى آدم كافة . ولا ينادهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشرى . فهو يأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا ، ولا يتخذوا إلها ولا ربا غيره . وكذلك يدعوهم ألا يعتوا عن أمر ربهم ، ولا يستنكفوا عن عبادته ، ولا يتكبروا فى أرض الله بغير الحق ، فإن الحكم والأمر لله وحده ، وبيده مقاليد السماوات

Marfat.com

والأرض ؛ فلا يجوز لأحد من خلقه ، كائنا من كان ، أن يعلو فى الأرض ويتكبر ، ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته . ودعوته لهم جميعا أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء فى هذه العبودية الشاملة ، كما ورد فى التنزيل :

« تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ... (آل عمران : ٦٤) .

« فهذه دعوة إلى انقلاب عالمى شامل ، لا غموض فيها ولا إبهام . فإنه قد نادى بملء صوته :

« إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم » ... (يوسف : ٤٠)

« فليس لأحد من بنى آدم أن ينصب نفسه ملكا على الناس ومسيطرا عليهم ، يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهى من غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى ، هو تكبر فى الأرض على الله بغير الحق ، وعتو عن أمره ، وطموح إلى مقام الألوهية (١) . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم ملوكا وأمراء إنما يشركون بالله ، وذلك مبعث الفساد فى الأرض ، ومنه تنفجر ينابيع الشر والطغيان .

***

« إن دعوة الإسلام إلى التوحيد ، وعبادة الله الواحد ، لم تكن قضية كلامية . أو عقيدة لاهوتية فحسب . شأن غيره من النحل والملل ؛ بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب اجتماعى (Social Revolution) أرادت فى أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية ؛ واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة . فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ؛ ومنهم من استأثر بالملك والإمرة ؛ وتحكم فى رقاب الناس ؛ ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض ؛ وجعل الناس عالة عليهم يتكففون ولا يجدون ما يتبلغون به .. فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعا وتستأصل شأفتهم استئصالا .. وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهرا وعلانية ؛ وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم ؛ وينقادوا لجبروتهم ؛ مستندين إلى حقوقهم التى ورثوها عن آبائهم ؛ أو استأثرت بها الطبقة التى ينتمون

(١) ولا يختلف الحال لو كانت هيئة ، أو كان « الشعب » هو الذى ينشىء شرائعه من غير سلطان من الملك الأعلى ... فالعبرة هى بهذا القيد .. سواء كان المشرع فردا أم جماعة أم شعبا !

Marfat.com

إلها ؛ فقالوا : « ماعلمت لكم من إله غيرى» .. و « أنا ربكم الأعلى » .. و « أنا أحي وأميت » .. و « من أشد منا قوة ؟ » .. إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغيا وعدوانا . وطورا استغلوا جهل الدهماء وسفههم، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهياكل آلهة ، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهياكل متوارين بأنفسهم من ورائها ، يلعبون بعقول الناس ، ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم وهم لا يشعرون(١) ! فيتبين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وتنديده بالكفر والشرك بالله ، واجتناب الأوثان والطواغيت .. كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها ، والذين يجدون فيها سندا لهم ، وعونا على قضاء حاجاتهم وأغراضهم .. ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة ، وخاطبهم قائلا : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره ، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلما وعدوانا .. خرجت تقاومه ، وتضع في سبيل الدعوة العقبات. وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية ، أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات (Metaphysical Proposition) وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي ، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين بمناصب العز والجاه ،المستبدين بمنابع الثراء ، ممن يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام !

***

« إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية ، وجملة من المناسك والشعائر ، كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل ، يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ، ويقطع دابرها ، ويستبدل بها نظاما صالحا ، ومنهاجا معتدلا ، يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاة للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان ، وسعادة له وفلاحا في العاجلة والآجلة معا .

---

(١) أما في الجاهليات الحاضرة فإن شكل الأصنام والهياكل فقط هو الذي تغير . وهي تقيم للمغفلين من الناس والمستخفين أصناما وهياكل معنوية من نوع آخر ينطق سدنتها باسمها ويقولون : إنها تريد كذا وكذا فيستجيب المغفلون والمستخفون !!!

Marfat.com

« يدعوته فى هذه السبيل ، سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء، عامة للجنس البشرى كافة ، لا تختص بأمة دون أمة ، أو طائفة دون طائفة. فهو يدعو بنى آدم جميعا إلى كلمته ؛ حتى إنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله فى أرضه ، واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس .. يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلا : لا تطغوا فى الأرض ،وادخلوا فى كنف حدود الله التى حدها لكم ، وكفوا أيديكم عما نهاكم الله عنه وحذركم إياه . فإن أسلمتم لأمر الله ، ودنتم لنظام الحق والعدل الذى أقامه للناس خيرا وبركة ، فلكم الأمن والدعة والسلامة فإن الحق لا يعادى أحدا ؛ وإنما يعادى الحق الجور ، والفساد والفحشاء ، وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية ، ويبتغى ماوراء ذلك ، مما لا حظ له فيه حسب سنن الكون ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها .

« فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن ، يصير عضوا فى « الجماعة الإسلامية» أو « الحزب الإسلامى » لافرق فى ذلك بين الأحمر منهم والأسود ،أو بين الغنى منهم والفقير. كلهم سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأمة على أمة . أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمى أو الأممى ، الذى سمى « حزب الله » بلسان الوحى

« وما إن يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد فى سبيل الغاية التى أنشىء لأجلها . فمن طبيعته، وما يستدعيه وجوده ، أن لا يألو جهدا فى القضاء على نظم الحكم التى أسس بنيانها على غير قواعد الإسلام ، واستئصال شأفتها ، وأن يستنفد مجهوده فى أن يستبدل بها نظاما للعمران والاجتماع معتدلا ، مؤسسا على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذى يسميه القرآن الكريم: « كلمة الله » . فإن لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع ، ولم يسع سعيه وراء تغيير نظم الحكم وإقامة نظام الحق .. نظام الحكم المؤسس على قواعد الإسلام .. ولم يجاهد حق جهاده فى هذه السبيل ، فاتته غايته . وقصر عن تحقيق البغية التى أنشىء لأجلها . فإنه ما أنشىء إلا لإدراك هذه الغاية ، وتحقيق هذه البغية .. بغية إقامة نظام الحق والعدل .. ولا غاية له ولا عمل إلا الجهاد فى هذه السبيل . وهذه الغاية الوحيدة التى بينها الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله :

Marfat.com

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .. (آل عمران : ١١٠) .

« ولايظن أحد أن هذا الحزب .. « حزب الله » بلسان الوحى .. مجرد جماعة من الوعاظ المبشرين ، يعظون الناس فى المساجد ، ويدعونهم إلى مذاهبهم ومسالكهم بالخطب والمقالات ليس إلا ! ليس الأمر كذلك ! وإنما هو حزب أنشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده ، ويكون شهيدا على الناس ؛ ومن مهمته التى ألقيت على كاهله من أول يوم أن يقضى على منابع الشر والعداون ، ويقطع دابر الجور والفساد فى الأرض والاستغلال الممقوت ؛ وأن يكبح جماح الآلهة الكاذبة ، الذين تكبروا فى أرض الله بغير الحق ؛ وجعلوا أنفسهم أربابا من دون الله ؛ ويستأصل شأفة ألوهيتهم . ويقيم نظاما للحكم والعمران صالحا يتفيأ ظلاله القاصى والدانى والغنى والفقير .. وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى فى غير واحدة من آى الذكر الحكيم :

« وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » ... (الأنفال : ٣٨)

« إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » ... (الأنفال : ٧٣)

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »... (التوبة : ٣٣)

« فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لابد له من امتلاك ناصية الأمر ؛ ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم ؛ لأن نظام العمران الفاسد لايقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد فى الأرض ؛ وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ، ويؤتى أكله ، إلا بعد ما ينتزع زمام الأمر من أيدى الطغاة المفسدين . ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ ولايريدون علوا فى الأرض ولافسادا .

« وأضف إلى ذلك أن هذا الحزب ؛ بصرف النظر عما يرمى إليه من إصلاح العالم ؛ وبث الخير والفضيلة فى أنحاء الأرض كافة ، لايقدر أن يبقى ثابتا على خطته ، متمسكا بمناهجه ، عاملا وفق مقتضياته مادام نظام الحكم قائما على أساس آخر ، سائرا على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزبا مؤمنا بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكن أن يعيش متمسكا بمبدئه عاملا حسب مقتضاه فى ظل نظام للحكم مؤسس على مبادىء وغايات غير المبادىء والغايات التى يؤمن بها ،

Marfat.com

ويريد السير على منهاجها . فإن رجلا يؤمن بمبادىء الشيوعية ، إن أراد أن يعيش فى بريطانيا أو ألمانيا ، متمسكا بعقيدته ، سائرا فى حياته على البرنامج الذى تقرره الشيوعية ، فلن يتمكن من ذلك أبدا ، لأن النظم التى تقررها الرأسمالية أو النازية[1] تكون مهيمنة عليه ، قاهرة بما أوتيت من سلطان ، فلا يمكنه أن يتخلص من براثنها أصلا . . وكذلك إن أراد المسلم أن يقضى حياته مستظلا بنظام للحكم مناقض لمبادىء الإسلام الخالدة (٢) وبوده أن يبقى مستمسكا بمبادىء الإسلام، سائرا وفق مقتضاه فى أعماله اليومية ، فلن يتسنى له ذلك ، ولا يمكنه أن ينجح فى بغيته هذه أبدا . لأن القوانين التى يراها باطلة ، والضرائب التى يعتقدها غرما ونهبا لأموال الناس ، والقضايا التى يحسبها جائرة عن الحق وافتئاتا على العدل ، والنظم التى يعرف أنها مبعث الفساد فى الأرض ، ومناهج التعليم التى يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ، ويرى فيها هلاكا للأمة .. يجد كل هذه مهيمنة عليه ، ومسيطرة على بيته وأهله وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من آثارها ونفوذها . فالذى يؤمن بعقيدة ونظام - فردا كان أو جماعة - مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعيه فى القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته ، ويبذل الجهد المستطاع فى إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التى يؤمن بها ؛ ويعتقد أن فيها سعادة للبشر . لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق . وإذا رأيت رجلا لا يسعى وراء غايته ، أو يغفل عن هذا الواجب ، فاعلم أنه كاذب فى دعواه . ولما يدخل الإيمان فى قلبه.

وبهذا المعنى ورد فى التنزيل :

« عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين . . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » ...

(التوبة : ٤٣ - ٤٥)

«وأى شهادة أصدق ؟ وأى حجة أنصع ؟ من شهادة القرآن وحجته ؟ ففى هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذى لا يلبى نداء الجهاد ؛ ولا يجاهد بماله ونفسه

---

(١) كتب هذا البحث سنة ١٩٣٨ والنظام النازى قائم فى ألمانيا .

(٢) وكل حكم لا تتمحض فيه العبودية لله ، بسيطرة شريعة الله كلها على الحياة كلها هو حكم مناقض للاسلام

Marfat.com

في سبيل إعلاء كلمة الله ، وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وتوطيد نظام الحكم المبنى على قواعده ، فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ...

***

« لعلك تبينت مما أسلفنا آنفا أن غاية (Objective) الجهاد في الإسلام ، هي هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه ، وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها استبدالها بها . وهذه المهمة .. مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام . غير منحصرة في قطر دون قطر . بل مما يريده الإسلام ، ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة .. هذه غايته العليا ، ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره . إلا أنه لا مندوحة للمسلمين ، أو أعضاء « الحزب الإسلامي » عن الشروع في مهمتهم إحداث الانقلاب المنشود ، والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل المحيط بجميع أنحاء الأرض (World Revolution) . وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعا إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين ، لا يمكنها أصلا أن تضيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر . بل الحق أنها مضطرة بسجيتها وجبلتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينيها ، ولا تغفل عنها طرفة عين . فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية ، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة ، ويقول لها مطالبا بحقه : ما بالكم تقولون : إن القضية الفلانية « حق » في هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلا ، ثم تعود القضية نفسها « باطلا » — بزعمكم — إذا جاوزنا ذلك الجبل أو النهر بأذرع ؟! الحق حق في كل محل وفي كل مكان ! وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية ؟! الحق ظله وارف ، وخيره عام شامل ، لا يختص ببيئة دون بيئة ، ولا قطر دون قطر . وأينما وجد « الإنسان » مقهورا فالحق من واجبه أن يدركه ، ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت « الإنسانية » في أبنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يلبوا نداءها ، ويأخذوا بناصرهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين ، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغمة بغيا وعدوانا . وبهذا المعنى نطق لسان الوحي ، حيث ورد في التنزيل :

Marfat.com

« ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » ... (النساء : ٧٥)

« وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية ـ على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية ، وأحدثت فيها من نزعات الشتات والاختلاف ـ قد تشتمل على تلاؤم شامل ، وتجانس عام بين أجزائها ؛ ربما يتعذر معه أن تسير مملكة فى قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة ، مادامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخططها ، ولا ترضى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها [1] . من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم ، حفظا لكيانه ، وابتغاء للإصلاح المنشود ، ألا يقنع بإقامة نظام الحكم الإسلامى فى قطر واحد بعينه. بل من واجبه الذى لامناص له منه بحال من الأحوال ، ألا يدخر جهدا فى توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه فى مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامى ، فى جانب ، وراء نشر الفكرة الإسلامية ، وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها فى أقصى الأرض وأدناها ؛ ويدعو سكان المعمورة ـ على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ، ويدينوا بهذا المنهاج الذى يضمن لهم السعادتين ، سعادتى الدنيا والآخرة .. وبجانب آخر ، يشمر عن ساق الجد ، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل بالقوة ، إذا استطاع ذلك وأعد له عدته ، ويقيم مكانها نظام العدل والنصفة ، المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التى لا تبلى ، ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالى

« هذه هى الخطة التى سلكها . وهذا هو المنهاج الذى انتهجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن جاء بعده ، وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين ، فإنهم بدأوا ببلاد العرب . ثم أشرقت شمس الإسلام من آفاقها . وأخضعوها أولا لحكم الإسلام ، وأدخلوها فى كنف المملكة الإسلامية الجديدة . ثم دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الملوك والأمراء والرؤساء فى مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والإذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه

---

(١) وبخاصة إذا كانت هذه المبادىء والخطط هى مبادىء الإسلام وخططه التى تنتزع السلطان من كل متسلط وترده إلى الله وحده . ومن ثم تتجمع فى وجهها جميع الأنظمة ، وجميع الحكومات ، وجميع المعسكرات التى تقوم على أساس عبودية البشر للبشر .. القاعدة التى تشترك فيها جميع أنظمة البشر !

Marfat.com

المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها ، والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن ، شرع في قتالهم وجهادهم .. ولما استخلف أبو بكر رضى الله عنه ، بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتحاقه بالرفيق الأعلى ، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الإسلامية .. مملكتي الروم والفرس . اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في الغى والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات التى بدأ بها الصديق ـ رضى الله عنه ـ غايتها فى عصر الفاروق الذى يرجع إليه الفضل العظيم فى توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى ، حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعا (١) » ... (انتهت المقتطفات)

* * *

على ضوء هذا البيان لطبيعة هذا الدين وحقيقته ، ولطبيعة الجهاد فيه وقيمته ، ولمنهج هـذا الدين وخطته الحركية فى الجهاد ومراحله . . نستطيع أن نمضى فى تقييم غزوة بدر الكبرى ، التى قال الله سبحانه عن يومها إنه « يوم الفرقان » . . وأن نمضى كذلك فى التعرف إلى سورة الأنفال ، التى نزلت فى هذه الغزوة ، على وجه الإجمال .

لم تكن غزوة بدر الكبرى هى أولى حركات الجهاد الإسلامى ـ كما بينا من قبل ـ فقد سبقتها عدة سرايا ، لم يقع قتال إلا فى واحدة منها ، هى سرية عبد الله ابن جحش فى رجب على رأس سبعة عشر شهرا من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . . وكانت كلها تمشيا مع القاعدة التى يقوم عليها الجهاد فى الإسلام . والتى أسلفت الحديث عنها من قبل . . نعم إنها كلها كانت موجهة إلى قريش التى أخرجت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين

---

(١) ولم تكن تلك الفتوحات التى بدأت على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسارت فى طريقها فى عهد الخليفتين الراشدين بعده .. مجرد عدوى من الروح الإمبراطورية السائدة فى الأرض فى ذلك الزمان كما يزعم بعض المستشرقين والمتأثرين بزعمهم ! فما كان هذا الدين الذى جاء ليبدل واقع الأرض وتصوراتها ليأخذ « العدوى » من واقع الأرض وتصوراتها ! وما كان رسول الله ليخدع عن حقيقة دين الله بهذه العدوى !

Marfat.com

الكرام ؛ ولم تحفظ حرمة البيت الحرام المحرمة فى الجاهلية وفى الإسلام ! ولكن هذا ليس الأصل فى انطلاقة الجهاد الإسلامى . إنما الأصل هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ؛ وبتقرير ألوهية الله فى الأرض ؛ وتحطيم الطواغيت التى تعبد الناس ، وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده .. وقريش كانت هى الطاغوت المباشر الذى يحول بين الناس فى الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده ؛ والدخول فى سلطانه وحده . فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت ، تمشيا مع خطته العامة ؛ وانتصافا فى الوقت ذاته من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ؛ ووقاية كذلك لدار الإسلام فى المدينة من الغزو والعدوان . . وإن كان ينبغى دائما ونحن نقرر هذه الأسباب المحلية القريبة أن نتذكر ـ ولا ننسى ـ طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التى تحتمها طبيعته هذه . وهى ألا يترك فى الأرض طاغوتا يغتصب سلطان الله ؛ ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال من الأحوال !

أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فنجملها هنا قبل استعراض سورة الأنفال التى نزلت فيها ، ذلك لنتنسم الجو الذى نزلت فيه السورة ؛ وندرك مرامى النصوص فيها ؛ وواقعيتها فى مواجهة الأحداث من ناحية ؛ وتوجيهها للأحداث من الناحية الأخرى . . ذلك أن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب !! إنما تدرك أولا وقبل كل شىء بالحياة فى جوها التاريخى الحركى ؛ وفى واقعيتها الإيجابية ؛ وتعاملها مع الواقع الحى . وهى ـ وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثرا من الواقع التاريخى الذى جاءت تواجهه ـ لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلا فى ضوء ذلك الواقع التاريخى . . ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم ، وفاعليتها المستمرة ، ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم ؛ ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ؛ ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون ! ولن تتكشف أسرار هذا القرآن قط للقاعدين ، الذين يعالجون نصوصه فى ضوء مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب . . وهم قاعدون ! . .

Marfat.com

قال ابن إسحاق(١) : ثم إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سمع بأبي سفيان ابن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارة من تجاراتهم . وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون ..

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد ابن مسلم الزهري ، وعاصم ابن عمر ابن قتادة ، وعبد الله ابن أبي بكر ،ويزيد ابن رومان ، عن عروة بن الزبير . وغيرهم من علمائنا ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . كل قد حدثني بعض الحديث ، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر ، قالوا :

لما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأبي سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم ، وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » فانتدب الناس ، فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يلقى حربا (وفي زاد المعاد وإمتاع الأسماع أنه صلى الله عليه وسلم أمر من كان ظهره – أي ما يركبه – حاضرا بالنهوض ، ولم يحتفل لها احتفالا كبيرا) .. وقال ابن القيم : « وجملة من حضر بدرا من المسلمين ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا : من المهاجرين ستة وثمانون . ومن الأوس واحد وستون . ومن الخزرج مئة وسبعون . وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج ، وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكة وأصبر عند اللقاء ، لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة ، وجاء النفير بغتة ، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرا . فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم ، فأبى . ولم يكن عزمهم على اللقاء ، ولا أعدوا له عدة ، ولا تأهبوا له أهبة . ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد » .

وكان أبو سفيان – حين دنا من الحجاز – يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، تخوفا على أمر الناس (أي على أموالهم التي معه في القافلة) حتى أصاب خبرا من بعض

---

(١) واعتمد ابن كثير على ابن إسحاق في روايته للغزوة في كتابه : « البداية والنهاية » ولم يفترق المقريزي في « إمتاع الأسماع » عن هذه الرواية في كثير . وكذلك رواها باختصار الإمام ابن قيم الجوزية في « زاد المعاد » والإمام ابن حزم في « جوامع السيرة » وقد استقينا من جميعها .

Marfat.com

الركبان : أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذرعند ذلك . فاستأجرضمضم ابن عمرو الغفارى ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لنا فى أصحابه . فخرج ضمضم ابن عمرو سريعا إلى مكة .

قال المقريزى فى « إمتاع الأسماع » : فلم يرع أهل مكة إلا وضمضم يقول : يامعشر قريش، يا آل لؤى ابن غالب ، اللطيمة (وهى العير التى تحمل الطيب والمسك والثياب وليس فيما تحمله طعام يؤكل) قد عرض لها محمد فى أصحابه . الغوث الغوث . والله ما أرى أن تدركوها ! وقد جدّع أذنى بعيره ، وشق قميصه ، وحول رَحله . فلم تملك قريش من أمرها شيئا حتى نفروا على الصعب والذلول ، وتجهزوا فى ثلاثة أيام . وقيل فى يومين . وأعان قويهم ضعيفهم . وقام سهيل ابن عمرو،وزمعة ابن الأسود ، وطعيمة ابن عدى، وحنظلة ابن أبى سفيان ، وعمرو ابن أبى سفيان ، يحضون الناس على الخروج . فقال سهيل : يا آل غالب ، أتاركون أنتم محمدا والصباة (أى المرتدين، يقصد المسلمين !) من أهل يثرب يأخذون عيراتكم وأموالكم ؟ من أراد مالا فهذا مال ، ومن أراد قوة فهذه قوة . فمدحه أمية ابن أبى الصلت بأبيات ! ومشى نوفل ابن معاوية الديلى إلى أهل القوة من قريش فكلمهم فى بذل النفقة والحُملان (أى مايحمل عليه من الدواب ، يقال فيما يكون هبة خاصة) لمن خرج . فقال عبد الله ابن أبى ربيعة : هذه خمسمئة دينار فضعها حيث رأيت . وأخذ من حويطب ابن عبد العزى مئتى دينار وثلاث مئة دينار قوى بها فى السلاح والظهر، وحمل طعيمة ابن عدى على عشرين بعيرا ، وقواهم وخلفهم فى أهلهم بمعونة . وكان لا يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعيثا . ومشوا إلى أبى لهب فأبى أن يخرج أو يبعث أحدا ، ويقال : إنه بعث مكانه العاصى ، ابن هشام ابن المغيرة ـ وكان له عليه دين ـ فقال : اخرج ،ودينى لك . فخرج عنه ! ... وأخذ عداس (وهو الغلام النصرانى الذى أرسله عتبة وشيبة ابنا ربيعة بقطف من العنب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج الى الطائف فرده أهله ردا قبيحا ، وأتبعوه السفهاء والصبية يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ، فلجأ منهم إلى بستان عتبة وشيبة . وقد وقع فى نفس عداس ماوقع من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكب على يديه وقدميه يقبلهما !) يخذل شيبة وعتبة ابنى ربيعة عن

Marfat.com

الخروج ، والعاص ابن منبه ابن الحجاج . وأبى أمية ابن خلف أن يخرج ، فأتاه عقبة ابن أبى معيط وأبو جهل فعنفاه . فقال : ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى ! فابتاعوا له جملا بثلاث مئة درهم من نعم بنى قشير ، فغنمه المسلمون !.. وما كان أحد منهم أكره للخروج من الحارث ابن عامر . ورأى ضمضم ابن عمرو أن وادى مكة يسيل دما من أسفله وأعلاه . ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤياها (وفيها نذير لقريش بالقتل والدم فى كل بيت)... فكره أهل الرأى المسير ، ومشى بعضهم إلى بعض ، فكان من أبطئهم عن ذلك الحارث ابن عامر ، وأمية ابن خلف ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وحكيم ابن حزام ، وأبو البخترى (ابن هشام) وعلى ابن أمية ابن خلف ، والعاص ابن منبه ؛ حتى بكتهم أبو جهل ، وأعانه عقبة ابن أبى معيط ، والنضر ابن الحارث ابن كلدة ، فأجمعوا المسير . . وخرجت قريش بالقيان والدفاف يغنين فى كل منهل ، وينحرون الجزر ، وهم تسعمئة وخمسون مقاتلا .. وقادوا مئة فرس ، عليها مئة دارع سوى دروع المشاة . وكانت إبلهم سبعمئة بعير . وهم كما ذكر الله تعالى عنهم بقوله : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » .. (الأنفال : ٤٧) .

وأقبلوا فى تجمل عظيم وحنق زائد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، لما يريدون من أخذ عيرهم ، وقد أصابوا من قبل عمرو ابن الحضرمى والعير التى كانت معه (فى سرية عبد الله ابن جحش) . . وأقبل أبو سفيان بالعير ومعها سبعون رجلا (فى رواية ابن إسحاق ثلاثون رجلا) منهم مخرمة ابن نوفل ، وعمرو ابن العاص ، فكانت عيرهم ألف بعير تحمل المال . وقد خافوا خوفا شديدا حين دنوا من المدينة ، واستبطأوا ضمضم ابن عمرو والنفير (الذين نفروا من قريش ليمنعوا عيرهم) .. فأصبح أبو سفيان ببدر قد تقدم العير وهو خائف من الرصد . فضرب وجه عيره ، فساحل بها (أى اتجه إلى ساحل البحر بعيدا عن طريق المدينة) وترك بدرا يسارا ، وانطلق سريعا .. وأقبلت قريش من مكة ينزلون كل منهل . يطعمون الطعام من أتاهم وينحرون الجزر . وأتاهم قيس ابن امرئ القيس من أبى سفيان يأمرهم بالرجوع ، ويخبرهم أن قد نجت عيرهم . فلا تحرزوا أنفسكم أهل يثرب (يعنى لا تعرضوا أنفسكم لأن يذبحكم أهل يثرب) فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك . إنما خرجتم لتمنعوا عير

Marfat.com

وأموالكم ، وقد نجاها الله ! فعالج قريشا فأبت الرجوع (من الجحفة) . : وقال أبو جهل : لا والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا ؛ فلن تزال العرب تهابنا أبدا .. وعاد قيس إلى أبي سفيان ، فأخبره بمضي قريش . فقال : واقوماه ! هذا عمل عمرو ابن هشام (يعنى أبا جهل) كره أن يرجع لأنه ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤم . إن أصاب محمد النفير ذللنا ..

قال ابن إسحاق : وقال الأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفى ، وكان حليفا لبنى زهرة ، وهم بالجحفة : يابنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة ابن نوفل . وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بى جبنها ، وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة . لا مايقول هذا (يعنى أبا جهل) فرجعوا ، فلم يشهدها زهرى واحد .. ولم يكن بقى من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس ، إلابنى عدى ابن كعب،لم يخرج منهم رجل واحد (فى إمتاع الأسماع أن طعمة ابن عدى حمل على عشرين بعيرا ، وقواهم وخلفهم فى أهلهم بمعونة) .. وكان بين طالب ابن أبى طالب - وكان فى القوم - وبين بعض قريش محاورة . فقالوا : والله لقد عرفنا يابنى هاشم ، وإن خرجتم معنا ، إن هواكم لمع محمد . فرجع طالب إلى مكة مع من رجع !

قال ابن إسحاق : وخرج رسول الله - صلى الله عليـه وسلم - فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه .

وكانت إبل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها (أى كانوا يركبونها بالتعاقب) فكان رسول الله - صلى الله عليـه وسلم - وعلى ابن أبى طالب ، ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا . وكان حمزة ابن عبد المطلب ، وزيد ابن حارثة، وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتقبون بعيرا . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن ابن عوف يعتقبون بعيرا ..

قال المقريزى فى إمتاع الأسماع :

ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش .

Marfat.com

فاستشار الناس ،فقام أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فقال فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن . ثم قال : يارسول الله ، إنها والله قريش وعزها ، والله ماذلت منذ عزت ، والله ما آمنت منذ كفرت ، والله لا تسلم عزها أبدا ، ولتقاتلنك ، فأتهب لذلك أهبته ، وأعد لذلك عدته . ثم قام المقداد ابن عمرو فقال : يارسول الله ، امض لأمر الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كماقالت بنو إسرائيل لنبيها : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون . والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا » (وبرك الغماد موضع بأقصى اليمن) فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيرا ودعا له بخير .. ثم قال : « أشيروا على أيها الناس » . وإنما يريد الأنصار .. وكان يظنهم لاينصرونه إلا فى الدار ، لأنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم (وذلك فى بيعة العقبة الثانية التى هاجر على أساسها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة) فقام سعد ابن معاذ ـ رضى الله عنه ـ فقال :أنا أجيب عن الأنصار ،كأنك يارسول الله تريدنا ا قال : « أجل». قال : إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر قد أوحى إليك فى غيره (يعنى كما يبدو أنك ربما تكون قد خرجت لأمر ثم أوحى إليك فى غيره إذ كان قد خرج للعير ثم عرض النفير) ، فإنا قد آمنا بك ، وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به حق ،فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة . فامض يانبى الله لما أردت . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك مابقى منا رجل . وصل من شئت ، واقطع من شئت ؛ وخذ من أموالنا ماشئت ؛ وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت . والذى نفسى بيده ماسلكت هذا الطريق قط ، ومالى بها من علم ؛ ومانكره أن نلقى عدونا غدا ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا بعض ماتقر به عيناك .. وفى رواية أن سعد ابن معاذ قال :إنا خلفنا من قومنا قوما مانحن بأشد حبا لك منهم ، ولا أطوع لك منهم ؛ ولكن إنما ظنوا أنها العير . نبنى لك عريشا فتكون فيه ، ونعد عندك رواحلك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه ، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت من وراءنا .. فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيرا .وقال : « أو يقضى الله خيرا من ذلك ياسعد » .فلما فرغ سعد من المشورة قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سيروا على بركة الله ، فإن الله قد وعدنى إحدى

Marfat.com

الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » .. فعلم القوم أنهم إنما يلاقون القتال وأن العير تفلت ؛ ورجوا النصر لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن يومئذ عقد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الألوية . وهى ثلاثة ، لواء يحمله مصعب ابن عمير . ورايتان سوداوان . إحداهما مع على ، والأخرى مع رجل من الأنصار (هو سعد ابن معاذ) وأظهر السلاح . وكان خرج من المدينة على غير لواء معقود .

. . . ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدنى بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من رمضان ، فبعث عليا والزبير وسعد ابن أبى وقاص وبسبس ابن عمرو رضى الله عنهم يتحسسون على الماء . وأشار لهم إلى ظريب (تصغير ظرب وهو الجبل الصغير المنبسط فى حجارة دقاق) وقال : أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذى يلى الظرب . فوجدوا على تلك القليب روايا قريش فيها سقاؤهم (الروايا من الإبل حوامل الماء وسُقاء جمع سَقاء) أفلت عامتهم ـ وفيهم عجير ـ فجاء قريشا ، فقال : يا آل غالب ، هذا ابن أبى كبشة (يعنى النبي صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قد أخذوا سقاءكم . فماج العسكر وكرهوا ذلك ، والسماء تمطر عليهم. وأخذ تلك الليلة أبو يسار غلام عبيدة ابن سعيد ابن العاص ، وأسلم غلام منبه ابن الحجاج ، وأبو رافع غلام أمية ابن خلف ، فأتى بهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى . فقالوا : نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهم فضربوهم . فقالوا : نحن لأبى سفيان ، ونحن فى العير ! فأمسكوا عنهم ! فسلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : «إن صدقوكم ضربتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم !» ثم أقبل عليهم يسألهم، فأخبروه أن قريشا خلف هذا الكثيب ، وأنهم ينحرون يوما عشرا ويوما تسعا ، وأعلموه بمن خرج من مكة . فقال صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين الألف والتسعمئة . وقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها » .

واستشار أصحابه فى المنزل ، فقال الحباب ابن المنذر ابن الجموح . . . انطلق بنا إلى أدنى بئر إلى القوم.فإنى عالم بها وبقلبها . بها قليب(أى بئر قديمة لا يعلم من حفرها) قد عرفت عذوبة مائه ، وماء كثير لا ينزح . ثم نبنى عليها حوضا ، ونقذف فيه الآنية فنشرب ونقاتل ؛ ونغور

Marfat.com

حاسواها من القلب . فقال : ياحباب أشرت بالرأى (وفى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق أن الحباب ابن المنذر قال : يارسول الله ، هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : يارسول الله ، هذا ليس بمنزل ... ثم أشار بما أشار) ونهض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنزل على القليب ببدر . وبات تلك الليلة يصلى إلى جذم شجرة (أى مابقى من جذعها بعد قطع أعلاه) . وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان . وفعل ماأشار به الحباب .. وبعث الله السماء ، فأصاب المسلمين مالبد الأرض ولم يمنع من السير . وأصاب قريشا من ذلك مالم يقدروا أن يرتحلوا منه . وإنما بينهم قوز من رمل . وكان مجىء المطر نعمة وقوة للمؤمنين ، وبلاء ونقمة على المشركين . وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقى عليهم . فناموا ، حتى إن أحدهم تكون ذقنه بين ثدييه ومايشعر حتى يقع على جنبه . واحتلم رفاعة ابن رافع ابن مالك حتى اغتسل آخر الليل .. وبعث ــ صلى الله عليه وسلم ــ عمار ابن ياسر وعبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنهما ــ فأطافا بالقوم ، ثم رجعا فأخبراه أن القوم مذعورون ، وأن السماء تسح عليهم .

وبنى لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما نزل على القليب ــ عريش من جريد . وقام سعد ابن معاذ على بابه متوشح السيف . ومشى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على موضع الوقعة ، وعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعا مصرعا ، يقول : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان .. فما عدا واحد منهم مضجعه الذى حد له الرسول . وعدل صلى الله عليه وسلم الصفوف . ورجع إلى العريش فدخل ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبو بكر رضى الله عنه .

قال ابن إسحاق : وقد ارتحلت قريش حتى أصبحت فأقبلت . فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ تصوب من العقنقل (وهو الكثيب الذى جاءوا منه) إلى الوادى ، قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك ، وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم الغداة » . وقد قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد رأى عتبة ابن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر ، فقال : « إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا »

Marfat.com

«وقد كان خُفاف ابن أيماء ابن رحضة الغفارى ـ أو أبوه أيماء ابن رحضة الغفارى ـ بعث إلى قريش ـ حين مروا به ـ ابنا له بجزائر (أى ذبائح) أهداها لهم . وقال : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا . قال : فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم . قد قضيت الذى عليك . فلعمرى لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله ، كما يزعم محمد ، فما لأحد بالله من طاقة .

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم حكيم ابن حزام . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « دعوهم » . فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل . إلا ما كان من حكيم ابن حزام فإنه لم يقتل . ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه . فكان إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجانى من يوم بدر :

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبى إسحاق ابن يسار وغيره من أهل العلم ، عن أشياخ من الأنصار قالوا : لما اطمأن القوم بعثوا عمير ابن وهب الجمحى ، فقالوا : احزر لنا أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) قال : فاستجال بفرسه حول العسكر ا ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاث مئة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون . ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد . قال : فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا ، فرجع إليهم ، فقال : ما وجدت شيئا ، ولكنى قد رأيت يامعشر قريش ، البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم !

فلما سمع حكيم ابن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة ابن ربيعة ، فقال : ياأبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وماذاك ياحكيم ؟ قال : ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو ابن الحضرمى . قال قد فعلت ، أنت علىّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلىّ عقله (أى دية أخيه الذى قتل فى سرية عبد الله ابن جحش كما سبق) وما أصيب من ماله . فأت ابن الحنظلية فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره . يعنى أبا جهل ابن هشام . ثم قام عتبة ابن ربيعة خطيبا فقال : يامعشر قريش ، إنكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا . والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى

Marfat.com

وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته . فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ماتريدون.

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أباجهل ، فوجدته قد نثل درعا له من جرابها فهو يهيئها . فقلت له: ياأبا الحكم، إن عتبةأرسلنى إليك بكذا وكذا ، للذى قال ، فقال : انتفخ والله سَحره (يعنى انتفخت رئته من الخوف !) حين رأى محمدا وأصحابه . كلا ! والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ماقال ، ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه (يعنى أبا حذيفه رضى الله عنه وكان مسلما مع المسلمين) فقد تخوفكم عليه !

ثم بعث إلى عامر ابن الحضرمى ، فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس . وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك (أى عهدك) ومقتل أخيك ! فقام عامر ابن الحضرمى فاكتشف ، ثم صرخ : واعمراه! فحميت الحرب ، وحقب أمر الناس (أى اشتد) واستوسقوا على ماهم عليه من الشر . فأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة. فلما بلغ عتبة قول أبى جهل: انتفخ والله سحره . قال : سيعلم مصفر استه (يريد أن يشبهه فى الجبن كالرجل الذى يتأنث !) من انتفخ سحره ؟ أنا أم هو !

قال ابن إسحاق : وقد خرج الأسود ابن عبد الأسد المخزومى ، وكان رجلا شرسا سيئ الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه . فلما خرج خرج إليه حمزة ابن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ فلما التقيا ضربه حمزة فأطنّ قدمه (أى أطارها) بنصف ساقه . وهو دون الحوض . فوقع على ظهره تشخب رجله دما نحو أصحابه ؛ ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد ـ زعم ـ أن يبر يمينه ، واتبعه حمزة ، فضربه حتى قتله فى الحوض !

ثم خرج بعده عتبة ابن ربيعة ، بين أخيه شيبة ابن ربيعة وابنه الوليد ابن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ، ورجل آخر يقال : هو عبد الله ابن رواحة . فقالوا من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار، قالوا: مالنا بكم من حاجة (وقال ابن إسحاق : إن عتبة قال

Marfat.com

للفتية من الأنصارحين انتسبوا إليه : أكفاء كرام ، إنما نريد قومنا) ثم نادى مناديهم : يامحمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . « قم ياعبيدة ابن الحارث ، قم ياحمزة ، قم ياعلى » . فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ! وقال حمزة : حمزة ! وقال على : على ! قالوا . نعم أكفاء كرام ! فبارز عبيدة ، وكان أسن القوم ، عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة ابن ربيعة ، وبارز على الوليد ابن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما على فلم يمهل الوليد أن قتله . واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه (أى جرحه جرحا لايملك معه الحركة) وكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فذففا عليه (أى أجهزا عليه) واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

قال ابن إسحاق : ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض . وقد أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم . قال : « إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل » ... ثم عدل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفوف ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه فيه أبو بكر ليس معه فيه غيره . ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد » وأبو بكر يقول : يانبي الله بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ماوعدك .

وفى إمتاع الأسماع للمقريزى: أن عبد الله ابن رواحة قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يارسول الله إنى أشير عليك ـ ورسول الله أعظم وأعلم من أن يشار عليه ـ إن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعده ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياابن رواحة ، ألا أنشد الله وعده؟ إن الله لايخلف الميعاد » .

قال ابن إسحاق : وقد خفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه ، فقال : « أبشر ياأبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذا بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع » (يعنى الغبار) .

وقد رمى مهجع مولى عمر ابن الخطاب بسهم فقتل ، فكان أول قتيل من المسلمين رحمه الله . ثم رمى حارثة ابن سراقة أحد بنى عدى ابن النجار ـ وهو يشرب من الحوض ـ بسهم، فأصاب نحره ، فقتل رحمه الله .

Marfat.com

ثم خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس فحرضهم وقال : « والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل ، صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، إلاأدخله الله الجنة».
فقال عمير ابن الحمام أخو بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ (كلمة تقال للإعجاب) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله تعالى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر ابن قتادة ، أن عوف ابن الحارث ـ وهو ابن عفراء ـ قال : يارسول الله ، مايضحك الرب من عبده ؟ قال : « غمسه يده فى العدو حاسرا » فنزع درعا كانت عليه ، فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رحمه الله .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهرى ، عن عبد الله ابن ثعلبة ابن صعير العذرى ، حليف بنى زهرة ، أنه حدثه ، أنه لما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قال أبو جهل ابن هشام : اللهم ، أقطعنا للرحم وآتانا بما لايعرف ، فأحنه الغداة ! فكان هو المستفتح .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : «شاهت الوجوه !» ثم نفحهم بها . وأمر أصحابه فقال : «شدوا» فكانت الهزيمة . فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم ..

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العريش ، وسعد ابن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متوشحا السيف ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخافون عليه كرة العدو ؛ ورأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكر لى ـ فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ؛ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم ! » قال : أجل والله يارسول الله ؛ كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال !

قال ابن إسحاق : وحدثنى العباس ابن عبد الله ابن معبد ؛ عن بعض أهله ؛ عن ابن عباس

Marfat.com

رضى الله عنهما . أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه يومئذ : « إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لاحاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى ابن هشام ابن الحارث ابن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس ابن عبد المطلب عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها » قال : فقال أبو حذيفة (إبن عتبة ابن ربيعة) : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟! والله لئن لقيته لألحمنه السيف ! قال : فبلغت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لعمر ابن الخطاب : « ياأبا حفص » قال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأبى حفص - « أيضرب وجه عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالسيف ؟ » فقال عمر : يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف ! فوالله لقد نافق ! فكان أبو حذيفة يقول : ماأنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ؛ ولاأزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة - فقتل يوم اليمامة (فى حروب الردة) شهيدا .

قال ابن هشام : وإنما نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكف القوم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة ، وكان لايؤذيه ولايبلغه عنه شىء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ... (وقد قتل لأنه رفض أن يستأسر) ...

قال ابن إسحاق : حدثنى يحى ابن عباد ابن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال : كان أمية ابن خلف لى صديقا بمكة . وكان اسمى عبد عمرو ، فتسميت حين أسلمت « عبد الرحمن » ونحن بمكة . فكان يلقانى إذ نحن بمكة فيقول : ياعبد عمرو ، أرغبت عن اسم سماكه أبواك ؟ فأقول : نعم ! فيقول : فإنى لاأعرف الرحمن ، فاجعل بينى وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلاتجيبنى باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لاأعرف ! قال فكان إذا دعانى ياعبد عمرو لم أجبه . قال : فقلت له : ياأبا على ، اجعل ماشئت . قال : فأنت عبد الإله . قال : قلت : نعم . قال : فكنت إذا مررت به قال : ياعبد الإله ، فأجيبه ، فأتحدث معه . حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه على ابن أمية آخذ بيده ؛ ومعى أدراع لى قد استلبتها فأنا أحملها . فلما رآنى قال لى : ياعبد عمرو ، فلم أجبه . فقال : ياعبد الإله ، فقلت : نعم ، قال : هل لك فى ؟ فأنا خير

Marfat.com

لك من هذه الأدراع التى معك ! : قال : قلت : نعم ! ها الله إذن . قال : فطرحت الأدراع من يدى ، وأخذت يده ويد ابنه (يعنى أسيرين) وهو يقول : مارأيت كاليوم قط ! أمالكم حاجة فى اللبن ؟ (يعنى أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن !) ثم خرجت أمشى بهما .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الواحد ابن أبى عون ، عن سعيد ابن ابراهيم ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن ابن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى أمية ابن خلف ، وأنا بينه وبين ابنه، آخذ بأيديهما : ياعبد الإله ، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟ قال . قلت : حمزة ابن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل .. قال عبد الرحمن : فو الله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى ، وكان هو الذى يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام ، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت ، فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ، فيقول بلال : أحد . أحد . قال : فلما رآه قال : رأس الكفر أمية ابن خلف لانجوت إن نجا ! قال : قلت : أى بلال ، أبأسيرى ؟ قال : لانجوت إن نجا ! قال : قلت : أتسمع ياابن السوداء ؟ قال : لانجوت إن نجا ! قال : ثم صرخ بأعلى صوته : ياأنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لانجوت إن نجا ! قالوا : فأحاطوا بنا ، حتى جعلونا فى مثل المسكة (أى السوار من عاج) وأنا أذب عنه قال : فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوقع ، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط . قال : فقلت : انج بنفسك ولا نجاء بك . فوالله ماأغنى عنك شيئا . قال : فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما .. فكان عبدالرحمن يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أدراعى. وفجعنى بأسيرى !

قال ابن إسحاق : فلما فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عدوه أمر بابى جهل ابن هشام أن يلتمس فى القتلى ، وكان أول من لقى أبا جهل ـ كما حدثنى ثور ابن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، وعبد الله ابن أبى بكر أيضا ؛ قد حدثنى ذلك ـ قالا : قال معاذ ابن عمرو ابن الجموح أخو بنى سلمة : سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحرجة (أى الشجر الملتف) وهم يقولون : أبو الحكم لايخلص إليه ، قال : فلما سمعتها جعلته من شأنى ، فصمدت نحوه ، فلما أمكننى حملت عليه ، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها ـ حين

Marfat.com

طاحت - إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها ،قال : وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي . فتعلقت بجلدة من جنبي ،وأجهضني القتال عنه ، فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها .

ثم مر بأبي جهل ، وهو عقير، معوذ ابن عفراء ، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق ،وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبد الله ابن مسعود بأبي جهل - حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتمس في القتلى - وقد قال لهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني : « انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته ، فإني ازدحمت يوما أنا وهو على مأدبة لعبد الله ابن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته ، فوقع على ركبتيه ، فجحش في إحداهما جحشا لم يزل أثره به » قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه . فوجدته بآخر رمق ، فعرفته فوضعت رجلي على عنقه ، قال وقد كان ضبث بي مرة بمكة فآذاني ولكزني (أي قبض علي ولزمني) . ثم قلت له : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟ قال : وبماذا أخزاني ؟ أأعمد من رجل قتلتموه (يريد أكبر من رجل قتلتموه ؟) أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال: قلت : لله ولرسوله .

قال ابن إسحاق : وزعم رجال من بني مخزوم أن ابن مسعود كان يقول : قال لي : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويعي الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ؛ ثم جئت به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يارسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الله الذي لا إله غيره » ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحمد الله .

قال ابن هشام : وحدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم بالمغازي ،أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال لسعيد ابن العاص - ومر به - إني أراك كأن في نفسك شيئا . أراك تظن أني قتلت أباك ؛ إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله ؛ ولكني قتلت خالي العاص ابن هشام ابن المغيرة . فأما أبوك فإني مررت به ، وهو يبحث بحث الثور بروقه (أي بقرنه) فحدت عنه ، وقصد له ابن عمه علي فقتله !

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد ابن رومان ، عن عروة ابن الزبير ، عن عائشة رضي

Marfat.com

الله عنها . قالت : لما أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالقتلى أن يطرحوا فى القليب طرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية ابن خلف . فإنه انتفخ فى درعه فملأها ، فذهبوا ليحركوه. فتزايل لحمه ، فأقروه وألقوا عليه ماغيبه من التراب والحجارة ، فلما ألقاهم فى القليب ، وقف عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا، فإنى قد وجدت ماوعدنى ربى حقا » قالت : فقال له أصحابه : يارسول الله ، أتكلم قوما موتى ؟ فقال لهم : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق » قالت عائشة : والناس يقولون : « لقد سمعوا ماقلت لهم » وإنما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد علموا » .

قال ابن إسحاق : ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم أن يلقوا فى القليب ، أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فيما بلغنى ــ فى وجه أبى حذيفة ابن عتبة ، فإذا هو كئيب قد تغير . فقال : « ياأبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء» أو كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : لا والله يارسول الله ، ماشككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت مامات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى ذلك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ، وقال له خيرا ..

ثم إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمر بما فى العسكر مما جمع الناس فجمع ، فاختلف المسلمون فيه . فقال من جمعه : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ماأصبتم .وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مخافة أن يخالف إليه العدو : والله ماأنتم بأحق به منا ، لقد رأينا المتاع حين لم يكن دونه مايمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كرة العدو، فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الرحمن ابن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان ابن موسى ، عن مكحول ، عن أبى أمامة الباهلى ، قال سألت عبادة ابن الصامت عن الأنفال .

Marfat.com

فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين عن بواء ، يقول : على السواء .

قال ابن إسحاق : وحدثني نبيه ابن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أقبل بالأسارى ، فرقهم في أصحابه ، وقال : استوصوا بالأسارى خيرا » . فكان أبو عزيز ابن عمير ابن هاشم ، أخو مصعب ابن عمير لأبيه وأمه ، في الأسارى . قال : فقال أبو عزيز : مربي أخي مصعب ابن عمير ، ورجل من الأنصار يأسرني ، فقال : شد يدك به ، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . قال : وكنت في رهط من الأنصار - حين أقبلوا بي من بدر - فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر ، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا ، ماتقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها . قال : فأستحي فأردها على أحدهم ، فيردها على مايمسها .

قال ابن هشام : وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر ، بعد النضر بن الحارث ، فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ماقال ، قال له أبو عزيز : يا أخي ، هذه وصاتك بي ؟ فقال له مصعب : إنه أخي دونك . . فسألت أمه عن أغلى مافدى به قرشي ، فقيل لها : أربعة آلاف درهم . فبعثت بأربعة آلاف درهم ، ففدته بها .

قال ابن إسحاق : ثم بعثت قريش في فداء الأسرى .

* * *

في هذه الغزوة التي أجملنا عرضها بقدر المستطاع ، نزلت سورة الأنفال . . نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، وتكشف عن قدر الله وتدبيره في وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله ؛ وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز . . وسيأتي تفصيل هذه المعاني في ثنايا استعراض النصوص القرآنية .. فأما الآن فنكتفي باستعراض الخطوط الأساسية في السورة :

Marfat.com

إن هنالك حادثا بعينه فى الغزوة يلقى ضوءا على خط سيرها . ذلك هو ماروواه ابن إسحاق – عن عبادة ابن الصامت – رضى الله عنه ، قال :

« فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا . فجعله إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم – عن بواء (يقول : على السواء) .

هذا الحادث يلقى ضوءا على افتتاح السورة وعلى خط سيرها كذلك :

لقد اختلفوا على الغنائم القليلة فى الوقعة التى جعلها الله فرقانا فى مجرى التاريخ البشرى إلى يوم القيامة !

ولقد أراد الله – سبحانه – أن يعلمهم ، وأن يعلم البشر كلهم من بعدهم أمورا عظاما ..

أراد أن يعلمهم ابتداء أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيرا من أمر الغنائم التى يختلفون عليها . فسمى يومها : « يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان » ..

وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره ، فى كل خطوة وفى كل حركة ، ليقضى من ورائه أمرا أراده ، فلم يكن لهم فى هذا النصر وماوراءه من عظائم الأمور يد ولا تدبير ، وسواء غنائمه الصغيرة وآثاره الكبيرة ، فكلها من فضل الله وتدبيره . إنما أبلاهم فيه بلاء حسنا من فضله !

وأراد أن يريهم مدى الفرق بين ماأرادوه هم لأنفسهم من الظفر بالعير ؛ وما أراده الله لهم ، وللبشرية كلها من ورائهم من إفلات العير ، ولقاء النفير . ليروا على مد البصر مدى مابين إرادتهم بأنفسهم وإرادة الله بهم ولهم من فرق كبير !

لقد بدأت السورة بتسجيل سؤالهم عن الأنفال وبيان حكم الله فيها وردها إلى الله والرسول ودعوتهم إلى تقوى الله ، وإصلاح ذات بينهم – بعد ماساءت أخلاقهم فى النفل كما يقول عبادة ابن الصامت – ودعوتهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول ، وتذكيرهم بإيمانهم وهذا مقتضاه . ورسم للمؤمنين صورة موحية تجف لها القلوب : « يسألونك عن الأنفال . قل : الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين . إنما

Marfat.com

المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . .

ثم جعل يذكرهم بأمرهم وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم ، ومدى مايرونه من واقع الأرض ومدى قدر الله من ورائه ومن ورائهم : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعد ماتبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » . .

ثم ذكرهم بما أمدهم به من العون ، ومايسره لهم من النصر ، وما قدره لهم بفضله من الأجر : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » .

وهكذا يمضى سياق السورة فى هذا المجال ؛ يسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره وقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفى سبيله . . ومن ثم تجريد المقاتلين ابتداء من الأنفال وتقرير أنها لله والرسول ، حتى إذا ردها الله عليهم كان ذلك منا منه وفضلا . وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم ، ليكون جهادهم فى سبيله خالصا له وحده . . فترد أمثال هذه النصوص :

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت — إذ رميت — ولكن الله رمى ، وليبلى

Marfat.com

المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » .

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » ..

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شيء قدير . إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور » ..

* * *

ولأن المعركة — كل معركة يخوضها المؤمنون — من صنع الله وتدبيره . بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . بفعله وقدره . له وفى سبيله - تتكرر الدعوة فى السورة إلى الثبات فيها ، والمضى معها ، والاستعداد لها ، والاطمئنان إلى تولى الله فيها ، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد ، والاستمساك بآدابها ، وعدم الخروج لها بطرا ورئاء الناس . ويؤمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بتحريض المؤمنين عليها . . وترد أمثال هذه النصوص فى بيان هذه المعانى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره — إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة — فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » ..

« ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » . .

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » .

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » ..

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » ..

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون .. » ..

* * *

وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها . فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ، إنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق :

« ا » في مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله ، والوجل عند ذكره ، وتعلق الإيمان بطاعة الله وطاعة رسوله : « يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين . إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

« ب » وفي خطة المعركة يردون إلى قدر الله وتدبيره ، وتصريفه لمراحلها جميعا : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ، ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا .. »

Marfat.com

« ج » وفى أحداثها ونتائجها يردون إلى قيادة الله لها ، ومدده وعونه فيها: « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا . . . » . .

« د » وفى الأمر بالثبات فيها يردون إلى ما يريده الله لهم بها من حياة ، وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم ، وإلى تكفله بنصر من يتوكل عليه : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون..
« ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » ..

« هـ » وفى تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .. « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » .. « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » ..

« و » وفى تنظيم العلاقات فى المجتمع المسلم وبينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى تبرز العقيدة قاعدة للتجمع والتميز ، وتجعل القيم العقيدية هى التى تقدم فى الصف أو تؤخر : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر – إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ؛ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم » ..

* * *

ويبرز فى سياق السورة بصفة خاصة – إلى جانب خط العقيدة – خط آخر هو خط الجهاد ، وبيان قيمته الإيمانية والحركية . وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية ؛ وإعطاؤه مبرراته

Marfat.com

الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان .. والسورة بجملتها تتضمن هذا الإيحاء . فنكتفي ببعض النصوص في هذا التعريف، وندع تفصيلها إلى موضعه عند مواجهة النصوص :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير »

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون »

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون » ..

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » ..

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة . والله عزيز حكيم » ..

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم » ..

* * *

وأخيرا فإن السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة كما أسلفنا ؛ وبيان الأحكام التي تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى في الحرب والسلم - إلى هذه الفترة التي نزلت فيها السورة - وأحكام الغنائم والمعاهدات وتضع خطوطا أصيلة في تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام في مثل هذه النصوص الواضحة المحددة :

« يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول » ..

Marfat.com

« ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقدباء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » ..

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولاتكونوا كالذين قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون » ..

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » .

« ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » ..

« قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ، وإن يعودوافقد مضت سنة الأولين. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » ..

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ..

« ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » ..

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين . ولايحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لايعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع

Marfat.com

العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ... » ...

« ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » ..

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم . ياأيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » .

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر - إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق - والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم » ..

* * *

هذا مجمل الخطوط الرئيسية .. فإذا كانت السورة بجملتها إنما نزلت فى غزوة بدر ، وفى التعقيب عليها ، فإننا ندرك من هذا طرفا من منهج القرآن فى تربية الجماعة المسلمة ، وإعدادها لقيادة البشرية ؛ وجانبا من نظرة هذا الدين إلى حقيقة مايجرى فى الأرض وفى حياة البشر ؛ مما يقوم منه تصور صحيح لهذه الحقيقة :

Marfat.com

لقد كانت هذه الغزوة هى أول وقعة كبيرة لقى فيها المسلمون أعداءهم من المشركين، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة .. ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية .. لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم ! فأراد الله للعصبة المسلمة غيرما أرادت لنفسها من الغنيمة .. أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة فى مكة؛ ومكروا مكرهم اقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بعدما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى ..

لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقانا بين الحق والباطل؛ وفرقانا فى خط سير التاريخ الإسلامى . ومن ثم فرقانا فى خط سير التاريخ الإنسانى .. وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم . وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة ، وتتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها ، وهى فى ميدان المعركة وأمام مشاهدها .

وتضمنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعانى الكبيرة؛ وإلى هذه الحقائق الضخمة الخطيرة . كما تضمنت الكثير من دستور السلم والحرب ، والغنائم والأسرى ، والمعاهدات والمواثيق ، وعوامل النصر وعوامل الهزيمة . كلها مصوغة فى أسلوب التوجيه المربى ، الذى ينشئ التصور الاعتقادى ، ويجعله هو المحرك الأول والأكبر فى النشاط الإنسانى .. وهذه هى سمة المنهج القرآنى فى عرض الأحداث وتوجيهها .

ثم إنها تضمنت مشاهد من الموقعة ، ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفى ثناياها وبعدها .. مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها؛ كأن قارئ القرآن يراها فيتجاوب معها تجاوبا عميقا .

واستطرد السياق أحيانا إلى صور من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحياة أصحابه فى مكة ، وهم قلة مستضعفون فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس . ذلك ليذكروا فضل الله عليهم فى ساعة النصر ، ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر الله ، وبهذا الدين الذى آثروه على المال والحياة . وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

Marfat.com

وبعدها . وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، لتقرير سنة الله التي لا تتخلف في الانتصار لأوليائه والتدمير على أعدائه .

هذه موضوعات السورة وملامحها - وهي وحدة واحدة - وإن كنا سنجتزئ في هذا الجزء بشطر منها . ثم تجيء بقيتها في الجزء العاشر بإذن الله تعالى ..

فنكتفي بهذا القدر في التعريف المجمل بها ؛ وننتقل إلى مواجهة النصوص القرآنية في سياقها ..

Marfat.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ . قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝

Marfat.com

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير * فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ـ ولكن الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين .

« إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون * إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب * واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم .

Marfat.com

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ﴿٢٩﴾

موضوع هذا الدرس الأول فى السورة ، هو بيان حكم الله فى الأنفال . . المغانم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم فى سبيل الله . . بعد ماثار بين أهل بدر من الجدال حول تقسيمها . فردهم الله إلى حكمه فيها ؛ كما ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله ؛ واستجاش فى قلوبهم وجدان الإيمان والتقوى .

ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا لأنفسهم من العير والغنيمة ، وما أراده الله لهم من النصر والعزة . وكيف سارت المعركة ، وهم قلة لاعدد لها ولا عدة ، وأعداؤهم كثرة فى الرجال والعتاد . وكيف ثبتهم بعدد من الملائكة ، وبالمطر يستقون منه ويغتسلون ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ فى الرمال ، وبالنعاس يغشاهم فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان . وكيف ألقى فى قلوب أعدائهم الرعب وأنزل بهم شديد العقاب .

ومن ثم يأمر المؤمنين أن يثبتوا فى كل قتال ، مهما خيل إليهم فى أول الأمر من قوة أعدائهم ، فإن الله هو الذى يقتل ، وهو الذى يرمى ، وهو الذى يدبر ، وإن هم إلا ستار لقدر الله وقدرته ، يفعل بهم مايشاء . .

ثم يسخر من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون ، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ، فيقول لهم : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » .

ويحذر المؤمنين أن يتشبهوا بالمنافقين الذين يسمعون ولكنهم لايسمعون ، لأنهم لايستجيبون !

وينهى الدرس بنداءات متكررة للذين آمنوا . ليستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ـ ولو خيل إليهم أنه الموت والقتل ـ وليذكرهم كيف كانوا قليلا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، فآواهم وأيدهم بنصره ؛ وليعدهم أن يجعل لهم فرقانا فى قلوبهم وفى حركتهم إن هم

* * *

Marfat.com

اتقوه ذلك إلى تكفير السيئات وغفران الذنوب؟ وما ينتظرهم من فضل الله الذى تتضاءل دونه الغنائم والأنفال . .

* * *

« يسألونك عن الأنفال . قل : الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » . .

ذكرنا من قبل فى التعريف الإجمالى بالسورة جانبا من الروايات التى وردت عن نزول هذه الآيات . ونضيف هنا إليها بعض الروايات ؛ زيادة فى استحضار الجو الذى نزلت فيه السورة جملة ، والذى نزلت فيه الآيات الخاصة بالغنائم والأنفال بوجه خاص ؛ واستحضار الملامح الواقعية للجماعة المسلمة فى أول وقعة كبيرة بعد قيام الدولة المسلمة فى المدينة .

قال ابن كثير فى التفسير: روى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه ـ واللفظ له ـ وابن حبان والحاكم من طرق عن داود ابن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » . فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم ، فقال الشيوخ : لاتستأثروا علينا ، فإنا كنا ردءا لكم ، لو انكشفتم لفئتم إلينا . فتنازعوا ، فأنزل الله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » . . . إلى قوله : « وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » . . وقال الثورى ، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » . فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يارسول الله ـ صلى الله عليك ـ أنت وعدتنا . فقام سعد ابن عبادة فقال : يارسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ، ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك . فتشاجروا ، ونزل القرآن : « يسألونك عن الأنفال قل : الأنفال لله والرسول » . . . قال : ونزل القرآن : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » . . . إلى آخر الآية . . .

Marfat.com

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا أبو إسحاق الشيبانى ، عن محمد ابن عبيد الله الثقفى . عن سعد ابن أبى وقاص ، قال : لما كان يوم بدر ، وقتل أخى عمير ، قتلت سعيد ابن العاص ؛ وأخذت سيفه . وكان يسمى ذا الكتيفة . فأتيت به النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « اذهب فاطرحه فى القبض » قال : فرجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى . قال : فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اذهب فخذ سلبك » .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أسود ابن عامر ، أخبرنا أبو بكر ، عن عاصم ابن أبى النجود ، عن مصعب ابن سعد ، عن سعد ابن مالك ، قال : قلت يارسول الله ، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف . فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضعه » . قال : فوضعته ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى . قال : فإذا رجل يدعونى من ورائى . قال : قلت : قد أنزل الله فىّ شيئا ؟ قال : « كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى ، وإنه قد وهب لى ، فهو لك » . قال : « وأنزل الله هذه الآية : « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول » . . ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن أبى بكر ابن عياش به ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

فهذه الروايات تصور لنا الجو الذى نزلت فيه آيات الأنفال . . ولقد يدهش الإنسان حين يرى أهل بدر يتكلمون فى الغنائم ؛ وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شىء ، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم ، لا يلوون على شىء من أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين ، وشاركوهم ديارهم وأموالهم ، لايبخلون بشىء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم : « يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . . ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة فى الروايات نفسها . . لقد كانت الأنفال مرتبطة فى الوقت ذاته بحسن البلاء فى المعركة؛ وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ؛ وكان الناس - يومئذ - حريصين على هذه الشهادة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن الله سبحانه وتعالى ، فى أول وقعة يشفى الله فيها صدورهم

Marfat.com

من المشركين ! . . ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكرهم الله سبحانه به ، وردهم إليه . . ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم في التعامل ، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر ؛ حتى أحسوا ذلك في مثل ما قاله عبادة ابن الصامت – رضي الله عنه – : « فينا – أصحاب بدر – نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . » .

ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولا وعملا . نزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقا لهم يتنازعون عليه ؛ إنما أصبح فضلا من الله عليهم ؛ يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه . . . وإلى جانب الإجراء العملي التربوي كان التوجيه المستطرد الطويل ، الذي بدأ بهذه الآيات ، واستطرد فيما تلاها كذلك . .

« يسألونك عن الأنفال . قل : الأنفال لله والرسول . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين » . .

لقد كان الهتاف لهذه القلوب التي تنازعت على الأنفال ، هو الهتاف بتقوى الله . . وسبحان خالق القلوب العليم بأسرار القلوب . . إنه لا يرد القلب البشري عن الشعور بأعراض الحياة الدنيا ، والنزاع عليها – وإن كان هذا النزاع متلبسا هنا بمعنى الشهادة بمحن البلاء – إلا استجاشة الشعور بتقوى الله وخوفه وتلمس رضاه في الدنيا والأخرى . . إن قلبا لا يتعلق بالله ، يخشى غضبه ويتلمس رضاه ، لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعرا بالانطلاق !

إن التقوى زمام هذه القلوب الذي يمكن أن تقاد منه طائعة ذلولة في يسر وفي هوادة . .

وبهذا الزمام يقود القرآن هذه القلوب إلى إصلاح ذات بينها :

« فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » . .

وبهذا الزمام يقودها إلى طاعة الله ورسوله :

« وأطيعوا الله ورسوله » .

Marfat.com

وأول الطاعة هنا طاعته في حكمه الذي قضاه في الأنفال . فقد خرجت من أن تكون لأحد من الغزاة على الإطلاق ، وارتدت ملكيتها ابتداء لله والرسول ، فانتهى حق التصرف فيها إلى الله والرسول . فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله وقسم رسول الله ؛ طيبة قلوبهم ، راضية نفوسهم ؛ وإلا أن يصلحوا علائقهم ومشاعرهم ، ويصفوا قلوبهم بعضهم لبعضهم . . ذلك :

« إن كنتم مؤمنين » . .

فلا بد للإيمان من صورة عملية واقعية . يتجلى فيها ،ليثبت وجوده ، ويترجم عن حقيقته . وكما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ليس الإيمان بالتمني ، ولا بالتحلي ولكن هو ماوقر في القلب وصدقه العمل (١) » . ومن ثم يرد مثل هذا التعقيب كثيرا في القرآن لتقرير هذا المعنى الذي يقرره قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولتعريف الإيمان وتحديده ؛ وإخراجه من أن يكون كلمة تقال باللسان ، أو تمنيا لا واقعية له في عالم العمل والواقع .

ثم يعقب بتقرير صفات الإيمان « الحق » كما يريده رب هذا الدين ؛ ليحددلهم مايعنيه قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » . . فماهو ذا الإيمان الذي يريده منهم رب هذا الدين :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

إن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي ليدل دلالة دقيقة على مدلوله المعنوي . وفي العبارة هنا قصر بلفظ : « إنما » وليس هنالك مبرر لتأويله - وفيه هذا الجزم الدقيق - ليقال : إن المقصود هو « الإيمان الكامل » ! فلو شاء الله - سبحانه - أن يقول هذا لقاله . إنما هو تعبير محدد دقيق الدلالة . إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون . فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بجملتها ليسوا بالمؤمنين . والتوكيد في آخر الآيات : « أولئك هم المؤمنون حقا » يقرر هذه الحقيقة . فغير المؤمنين « حقا » لايكونون مؤمنين أصلا . .

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس .

Marfat.com

والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضا . والله يقول : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » . فما لم يكن حقا فهو الضلال . وليس المقابل لوصف : « المؤمنون حقا » هو المؤمنون إيمانا غير كامل ! ولا يجوز أن يصبح التعبير القرآني الدقيق عرضة لمثل هذه التأويلات المميعة لكل تصور ولكل تعبير !

لذلك كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد في نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمنا أصلا . جاء في تفسير ابن كثير : قال علي ابن طلحة عن ابن عباس ، في قوله : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » « قال : المنافقون : لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا (أي عن أعين الناس) ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين . ثم وصف الله المؤمنين فقال : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فأدوا فرائضه . « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » يقول : زادتهم تصديقا . « وعلى ربهم يتوكلون » يقول : لا يرجون غيره .

وسنرى من طبيعة هذه الصفات أنه لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلا ؛ وأن الأمر فيها ليس أمر كمال الإيمان أو نقصه ؛ إنما هو أمر وجود الإيمان أو عدمه .

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ...

إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهي ؛ فيغشاه جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ؛ ويتمثل عظمة الله ومهابته ، إلى جانب تقصيره هو وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة ... أو هي كما قالت أم الدرداء — رضي الله عنها — فيما رواه الثوري ، عن عبد الله ابن عثمان ابن خثيم ، عن شهر ابن حوشب ، عن أم الدرداء قالت : « الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى . قالت : إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك. فإن الدعاء يذهب ذلك » ..

إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقر ا وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي ؛ فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله ، وجلا وتقوى لله .

Marfat.com

« وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »

والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن مايزيده إيمانا ، ومايتهى به إلى الاطمئنان .. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة ، ولا يحول بينه وبينه شىء إلا الكفر الذى يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه ؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن ، ووجد فى إيقاعاته المتكررة زيادة فى الإيمان تبلغ إلى الاطمئنان(١) .. وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيمانا ، فإن القلب المؤمن هو الذى يدرك هذه الإيقاعات التى تزيده إيمانا .. لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه الحقيقة فى أمثال قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للمؤمنين » .. « إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .. ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن ..

وبهذا الإيمان كانوا يجدون فى القرآن ذلك المذاق الخاص ، يساعدهم عليه ذلك الجو الذى كانوا يتنسمونه ؛ وهم يعيشون القرآن فعلا وواقعا ؛ ولا يزاولونه مجرد تذوق وإدراك ! وفى الروايات الواردة فى نزول الآية قول سعد ابن مالك وقد طلب أن ينفله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السيف ، قبل أن ينزل القرآن الذى يرد ملكية الأنفال للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيتصرف فيها بما يريد . وقد قال له : « إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضعه » فلما نودى سعد من ورائه بعد وضعه السيف وانصرافه ، توقع أن يكون الله ـ سبحانه ـ قد أنزل فيه شيئا ؛ قال : « قلت : قد أنزل الله فىّ شيئا ؟ » قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كنت سألتنى السيف وهو ليس لى ، وإنه قد وهب لى ، فهو لك » .. فهكذا كانوا يعيشون مع ربهم ، ومع هذا القرآن الذى يتنزل عليهم . وهو شىء هائل . وهى فترة عجيبة فى حياة البشر . ومن ثم كانوا يتذوقون القرآن هذا التذوق .. كما أن قيامهم بالحركة الواقعية فى ظل التوجيهات القرآنية المباشرة كان يجعل التفاعل مع هذا التذوق مضاعفا .. وإذا كانت الأولى لا تتكرر فى حياة البشر ؛ فإن هذه الثانية تتكرر كلما قامت فى الأرض عصبة مؤمنة تحاول بالحركة أن تنشىء هذا الدين فى واقع الناس كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تنشئه .. وهذه العصبة المؤمنة التى تتحرك بهذا

---

(١) هنا تعرض قضية : « الإيمان يزيد وينقص » وهى قضية من قضايا الفرق وقضايا علم الكلام فى فترة الترف العقلى والفراغ من الاهتمامات العملية الجادة .. فلا ندخل نحن الآن فيها !!!

Marfat.com

القرآن لإعادة إنشاء هذا الدين فى واقع الناس هى التى تتذوق هذا القرآن ؛ وتجد فى تلاوته مايزيد قلوبها إيمانا ؛ لأنها ابتداء مؤمنة . الدين عندها هو الحركة لإقامة هذا الدين بعد الجاهلية التى عادت فطغت على الأرض جميعا ! وليس الإيمان عندها بالتمنى ، لكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل !

« وعلى ربهم يتوكلون » ..

عليه وحده .. كما يفيده بناء العبارة . لايشركون معه أحدا يستعينون به ويتوكلون عليه .. أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير فى التفسير : « أى لايرجون سواه ، ولايقصدون إلا إياه ، ولايلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك لاشريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد ابن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان » ..

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ؛ وإخلاص العبادة له دون سواه مما يمكن أن يجتمع فى قلب واحد ، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه . والذين يجدون فى قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء فى قلوبهم عن الإيمان بالله !

وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها ؛ ولكنه لايجعل الأسباب هى التى تنشئ النتائج فيتكل عليها . إن الذى ينشئ النتائج — كما ينشئ الأسباب — هو قدر الله . ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى شعور المؤمن .. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة . وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لايقدر عليه إلا الله .. وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها ؛ وفى الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله فى استيفائها .

ولقد ظلت الجاهلية « العلمية ! » الحديثة تلج فيما تسميه « حتمية القوانين الطبيعية » . ذلك لتنفى « قدر الله » وتنفى « غيب الله » . حتى وقفت فى النهاية عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها ، أمام غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمى ! ولجأت إلى نظرية « الاحتمالات » فى عالم المادة . فكل ما كان حتميا صار احتماليا . وبقى « الغيب » سراً مختوما . وبقى قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة ؛ وبقى قول الله — سبحانه — « لاتدرى لعل الله

Marfat.com

يحدث بعد ذلك أمرا » هو القانون الحتمي الوحيد ، الذي يتحدث بصدق عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون ، بقدره النافذ الطليق !

يقول سير جيمس جينز الإنجليزي الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات :

« لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق ، أن الطبيعة لاتستطيع أن تسلك إلا طريقا واحدا ، وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأن لامناص من أن الحالة (ا) تتبعها الحالة (ب) .. أما العلم الحديث فكل مايستطيع أن يقوله حتى الآن ، هو أن الحالة (ا) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول: إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالا من حدوث الحالة (ج) وإن الحالة (ج) أكثر احتمالا من (د) ... وهكذا . بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و(ج) و(د) بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أي الحالات تتبع الأخرى. لأنه يتحدث دائما عما يحتمل . أما مايجب أن يحدث ، فأمره موكول إلى الأقدار . مهما تكن حقيقة هذه الأقدار »(١)

ومتى تخلص القلب من ضغط الأسباب الظاهرة ، لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله ابتداء . وقدر الله هو الذي يحدث كل مايحدث . وهو وحده الحقيقة المستيقنة . والأسباب الظاهرة لاتنشئ إلا احتمالات ظنية ! . . وهذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري ــ وللعقل البشري أيضا ــ النقلة التي تخبطت الجاهلية الحديثة ثلاثة قرون لتصل إلى أولى مراحلها من الناحية العقلية ؛ ولم تصل إلى شيء منها في الناحية الشعورية ، وما يترتب عليهما من نتائج عملية خطيرة في التعامل مع قدر الله ؛ والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية ! .. إنها نقلة التحرر العقلي ، والتحرر الشعوري ، والتحرر السياسي ، والتحرر الاجتماعي ، والتحرر الأخلاقي . . . إلى آخر أشكال التحرر وأوضاعه . . . وما يمكن أن يتحرر

(١) راجع بتوسع تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو » في الجزء السابع من الظلال الطبعة المنقحة . ص ٢٥٠ ــ ص ٢٦٢ .

Marfat.com

« الإنسان » أصلا إذا بقي عبداً للأسباب « الحتمية » وما وراءها من عبوديته لإرادة الناس . أو عبوديته لإرادة (الطبيعة !) فكل « حتمية » غير إرادة الله وقدره ، هي قاعدة لعبودية لغير الله وقدره . . ومن ثم هذا التوكيد على التوكل على الله وحده ، واعتباره شرطا لوجود الإيمان أو عدمه . . والتصور الاعتقادى فى الإسلام كل متكامل . ثم هو بدوره كل متكامل مع الصورة الواقعية التى يريدها هذا الدين لحياة الناس (١) .

« الذين يقيمون الصلاة » . .

وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة - بعد ما رأيناه فى الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة - ذلك أن الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل . فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التى لا بد من ظهورها للعيان ، لتشهد بالوجود الفعلى لهذا الإيمان .

وإقامة الصلاة ليست هى مجرد أدائها . إنما هى الأداء الذى يحقق حقيقتها . الأداء الكامل اللائق بوقفة العابد فى حضرة المعبود - سبحانه - لا مجرد القراءة والقيام والركوع والسجود والقلب غافل ! وهى فى صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلا .

« ومما رزقناهم ينفقون » . .

فى الزكاة وغير الزكاة . . وهم ينفقون « مما رزقناهم » . . فهو بعض مما رزقهم الرازق . . وللنص القرآنى دائما ظلاله وإيحاءاته . فهم لم يخلقوا هذا المال خلقا . إنما هو مما رزقهم الله إياه - من بين ما رزقهم وهو كثير لا يحصى - فإذا أنفقوا فإنما ينفقون بعضه ، ويحتفظون منه بقية . والأصل هو رزق الله وحده !

تلك هى الصفات التى حدد الله بها - فى هذا المقام - الإيمان . وهى تشمل الاعتقاد فى وحدانية الله ؛ والاستجابة الوجدانية لذكره ؛ والتأثر القلبى بآياته ؛ والتوكل عليه وحده ؛ وإقامة الصلاة له ، والإنفاق من بعض رزقه . .

وهى لا تمثل تفصيلات الإيمان - كما وردت فى النصوص الأخرى - إنما هى تواجه حالة واقعة . . حالة الخلاف على الأنفال وفساد ذات البين من جرائها . . فتذكر من صفات المؤمنين

(١) يراجع بتوسع كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » . .

Marfat.com

مايواجه هـذه الحالة . وهى فى الوقت ذاته تعين صفات من فقدها جملةً لم يجد حقيقة الإيمان فعلا . بغض النظر عما إذا كانت تستقصى شروط الإيمان أو لا تستقصيها . فنهج التربية الربانى بالقرآن هو الذى يتحكم فيما يذكر من هـذه الشروط والتوجيهات فى مواجهة الحالات الواقعية المختلفة . ذلك أنه منهج واقعى عملى حركى ، لامنهج نظرى معرفى ، مهمته بناء (نظرية) وعرضها لذاتها !

وعلى نفس القاعدة يجيء التعقيب الأخير :

« أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ، ومغفرة ، ورزق كريم » . .

فهـذه الصفات إنما يجدها فى نفسه وفى عمله المؤمن الحق . فمن لم يجدها جملة لم يجد صفة الإيمان . وهى فى الوقت ذاته تواجه الحالة التى تنزلت فيها الآيات . . ومن ثم تواجه الحرص على الشهادة بحسن البـلاء ، بأن هؤلاء الذين يجدون هـذه الصفات « لهم درجات عند ربهم » . . وتواجه ماوقع فى ذات البين من سوء أخلاق ــ كما قال عبادة ابن الصامت ــ بأن الذين يجدون هذه الصفات لهم عند ربهم « مغفرة » . . وتواجه ماوقع من نزاع على الأنفال بأن الذين يجدون هـذه الصفات لهم عند ربهم « رزق كريم » . . فتغطى الحالة كلها ، بكل ما لابسها من مشاعر ومواقف . وتقرر فى الوقت ذاته حقيقة موضوعية ؛ وهى أن هذه صفات المؤمنين ، من فقدها جملة لم يجد حقيقة الإيمان .

« أولئك هم المؤمنون حقا » . . .

وقد كانت العصبة المسلمة الأولى تعلم أن للإيمان حقيقة لابد أن يجدها الإنسان فى نفسه ، وأنه ليس الإيمان دعوى ، ولا كلمات لسان ، ولا هو بالتمنى . . قال الحافظ الطبرانى : حـدثنا محمد ابن عبد الله الحضرمى ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد ابن الحباب ، حـدثنا ابن لهيعة ، عن خالد ابن يزيد السكسكى ، عن سعيدابن أبى هلال ، عن محمد ابن أبى الجهم ، عن الحارث ابن مالك الأنصارى ، أنه مر برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال له : « كيف أصبحت ياحارث ؟ » قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « انظر ماتقول ، فإن لـكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلى وأظمأتُ نهارى . وكأنى أنظر

Marfat.com

إلى عرش ربي بارزا . وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال : « ياحارث . عرفت فالزم » . . . ثلاثا . . . ولقد ذكر هذا الصحابي الذي استحق شهادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له بالمعرفة من حال نفسه ، مايصور مشاعره ويشي بما وراء هذه المشاعر من عمل وحركة . فالذي كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزا ، وينظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار يتضاغون فيها ، لاينتهي إلى مجرد النظر . إنما هو يعيش ويعمل ويتحرك في ظل هـذه المشاعر القوية المسيطرة التي تصبغ كل حركة وتؤثر فيهـا . ذلك إلى جانب ما أسهر ليـله وأظمأ نهاره ، وكأنمـا هو ناظر إلى عرش ربه بارزا . . .

إن حقيقة الإيمان يجب أن ينظر إليها بالجد الواجب ؛ فلا تتميع حتى تصبح كلمة يقولها لسان ، ومن ورائها واقع يشهد شهادة ظاهرة بعكس ما يقرره اللسان ! إن التحرج ليس معناه التميع ! والشعور بجدية الحقيقة الإيمانية أوجب ؛ والتحرج في تصورها ألزم . وبخاصة في قلوب العصبة المؤمنة التي تحاول إعادة إنشاء هذا الدين في دنيا الواقع ، التي غلبت عليها الجاهلية، وصبغتها بصبغتها المنكرة القبيحة !

* * *

بعد ذلك يأخذ سياق السورة في الحديث عن الموقعة التي تخلفت عنها تلك الأنفال التي تنازعوا عليها ، وساءت أخلاقهم فيها - كما يقول عبادة ابن الصامت رضي الله عنـه في خلوص وصراحة ووضوح - ويستعرض مجمل أحداثها وملابساتها ، ومواقفهم فيها ، ومشاعرهم تجاهها . . . فيتبين من هذا الاستعراض أنهم هم لم يكونوا فيها إلا ستارا لقدر الله ؛ وأن كل ما كان فيها من أحداث ، وكل ما نشأ عنها من نتائج - بما فيها هذه الأنفال التي تنازعوا عليها - إنما كان بقدر الله وتوجيهه وتدبيره وعونه ومدده .. أما ما أرادوه هم لأنفسهم من الغزوة فقد كان شيئا صغيرا محدودا ، لايقاس إلى ما أراده الله لهم ، وبهم ، من هـذا الفرقان العظيم في السماوات وفي الأرض . ذلك الذي اشتغل به الملأ الأعلى إلى جانب ما اشتغل به الناس في الأرض ، وما اشتغل به التاريخ البشري على الإطلاق . . ويذكرهم أن فريقا منهم واجه المعركة كارها ؛ كما أن فريقا منهم كره تقسيم الأنفال وتنازع فيها ؛ ليروا أن مايرونه هم ، وما

Marfat.com

يكرهونه أو يحبونه ، ليس بشيء إلى جانب مايريده الله سبحانه ويقضي فيه بأمره ، وهو يعلم عاقبة الأمور :

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام . إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ؛ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب . ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار » . .

لقد رد الله الأنفال كلها إلى الله والرسول ، ليعيد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قسمتها بينهم على السواء ــ بعد استبقاء الخمس الذي سيأتي فيما بعد مصارفه ــ ذلك لتخلص نفوس العصبة المؤمنة من كل ملابسات الغنيمة ؛ فيمتنع التنازع عليها ، ويصير حق التصرف فيها إلى رسول الله كما يعلمه الله ، فلا يبقى في النفوس من أجلها شيء ؛ وليذهب ماحاك في نفوس الفئة التي حازت الغنائم ، ثم سويت مع الآخرين في القسمة على ماتقدم .

ثم ضرب الله هذا المثل من إرادتهم هم لأنفسهم ، ومن إرادة الله لهم ، وبهم ، ليستيقنوا أن الخيرة فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال ؛ وأن الناس لا يعلمون إلا ما بين أيديهم والغيب عنهم محجوب . . ضرب لهم هذا المثل من واقعهم الذي بين أيديهم . . من المعركة ذاتها تلك التي يتقاسمون أنفالها . . فما الذي كانوا يريدونه لأنفسهم فيها ؟ وما الذي أراده الله لهم ، وبهم ؟ وأين ما أرادوه مما أراده الله ؟ . . إنها نقلة بعيدة في واقع الأمر ؛ ونقلة بعيدة على مد الرؤية والتصور !

Marfat.com

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ؛ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » . .

إن رد الأنفال لله والرسول ، وقسمتها بينهم على السواء ، وكراهة بعض المؤمنين لهذه التسوية .. ومن قبل كراهة بعضهم لاختصاص بعض الشباب بالنصيب الأوفر منها . . إنها شأن يشبه شأن إخراج الله لك من بيتك - بالحق - لمقاتلة الفرقة ذات الشوكة ؛ وكراهة بعض المؤمنين للقتال . . وبين أيديهم العاقبة التى أنتجت هذه الأنفال . .

ولقد سبق لنا فى استعراض وقائع الغزوة - من كتب السيرة - أن أبا بكر وعمر قاما وأحسنا حين استشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس معه فى أمر القتال ، بعدما أفلتت القافلة ، وتبين أن قريشا قد جاءت بشوكتها وقوتها . وأن المقداد ابن عمرو قام فقال : يارسول الله ، امض لأمر الله ، فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . . . الخ » . وأن هذا كان كلام المهاجرين . فلما كرر رسول الله صلى الله عليه وسلم القول على الناس فهم الأنصار أنه إنما يعنيهم ، فقام سعد ابن معاذ فقال كلاما طويلا قاطعا مطمئنا [1] . .

ولكن هذا الذى قاله أبو بكر وعمر ، والذى قاله المقداد ، والذى قاله سعد ابن معاذ - رضى الله عنهم - لم يكن هو مقالة جميع الذين خرجوا من المدينة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلقد كره بعضهم القتال ، وعارض فيه ، لأنهم لم يستعدوا لقتال ، إنما خرجوا لملاقاة الفئة الضعيفة التى تحرس العير ؛ فلما أن علموا أن قريشا قد نفرت بخيلها ورجلها ، وشجعانها وفرسانها ، كرهوا لقاءها كراهية شديدة ، هى هذه الكراهية التى يرسم التعبير القرآنى صورتها بطريقة القرآن الفريدة :

---

(١) ص ٢٠٧ وما بعدها من هذا الجزء .

Marfat.com

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقامن المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعد ماتبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » !

روى الحافظ أبو بكر ابن مردويه في تفسيره - بإسناده - عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن بالمدينة: « إني أخبرت عن عير أبي سفيان بأنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها؟ » فقلنا: نعم. فخرج وخرجنا. فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: « ماترون في قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم! » فقلنا: لاوالله مالنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير! ثم قال: « ماترون في قتال القوم؟ » فقلنا مثل ذلك: فقال المقداد ابن عمرو: إذن لانقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى: « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ... » فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد ابن عمرو أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم! قال: فأنزل الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم -: « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ».

فهذا ماحاك في نفوس فريق من المسلمين يومئذ، وما كرهوا من أجله القتال، حتى ليقول عنهم القرآن الكريم: « كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » .. وذلك بعدما تبين الحق، وعلموا أن الله وعدهم إحدى الطائفتين؛ وأنه لم يبق لهم خيار بعد ما أفلتت إحدى الطائفتين - وهي العير - وأن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى، وقد قدر الله لهم لقاءها وقدر أنها ستكون لهم. كانت ما كانت. كانت العير أو كانت النفير. كانت الضعيفة التي لاشوكة لها أم كانت القوية ذات الشوكة والمنعة.

وإنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر؛ ويتجلى فيها أثر المواجهة الواقعية - على الرغم من الاعتقاد القلبي - والصورة التي يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع؛ فلا نغفل طاقة النفس البشرية وذبذباتها عند المواجهة؛ ولا نيئس من أنفسنا ولا من النفس البشرية جملة حين نراها تهتز في مواجهة الخطر - على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة - فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي

Marfat.com

فى الطريق ، وتواجه الخطر فعلا ، وتنتصر على الهزة الأولى ! .. لقد كان هؤلاء هم أهل بدر ، الذى قال فيهم رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر اطلاعة ، فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لـكم (١) » . . وهذا يكفى . .

ولقـد بقيت العصبة المسلمة تود أن لو كانت غـير ذات الشوكة هى التى كتب الله عليهم لقاءها :

« وإذ يعدكم الله إحـدى الطائفتين أنها لـكم وتودون أن غـير ذات الشوكة تـكون لـكم » . .

هـذا ماأرادته العصبة المسلمة لأنفسها يومذاك . أما ما أراده الله لهم ، وبهم ، فـكان أمرا آخر :

« ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الـكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » . .

لقد أراد الله ــ وله الفضل والمنة ــ أن تكون ملحمة لاغنيمة ؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه . وأراد أن يقطع دابر الـكافرين ، فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمـكن الله للعصبة المسلمة التى تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهـية الله فى الأرض ، وتحطيم طاغوت الطواغيت . وأراد أن يكون هذا التمـكين عن استحقاق لاعن جزاف ــ تعالى الله عن الجزاف ــ وبالجهد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها فى عالم الواقع وفى ميدان القتال .

نعم . أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة ؛ وأن يصبح لها قوة وسلطان . . وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها ، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزاد . . . إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التى لاتقف لها قوة العباد . وأن يـكون هذا كله عن تجربة

(١) أخرجه الشيخان .

Marfat.com

وافية ، لاعن مجرد تصور واعتقاد قلبي . ذلك لتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ؛ ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من القلة ويكن عدوها من الكثرة ؛ ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد . . وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان .

وينظر الناظر اليوم ، وبعد اليوم ، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها . بين ماحسبته خيرا لها وما قدره الله لها من الخير . . ينظر فيرى الآماد المتطاولة ؛ ويعلم كم يخطىء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيرا مما يختاره الله لهم ؛ وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى . بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال ، ولا بخيال !

فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها ؟ لقد كانت تمضي — لو كانت لهم غير ذات الشوكة — قصة غنيمة . قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة . قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل . قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ؛ والحق في قلة من العدد ، وضعف في الزاد والراحلة . قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي . بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها بيقينها الثابتة المستعلية على الواقع المادي ، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحانا ظاهرا في جانب الباطل ؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر ؛ فإذا الحق راجح غالب .

ألا إن غزوة بدر — بملابساتها هذه — لتمضي مثلا في التاريخ البشري . ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة ؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة . . الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية . . ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان ، لا تتبدل دلالته ولا تتغير طبيعتها . فهي آية من آيات الله ، وسنة من سننه الجارية في

Marfat.com

خلفه ، مادامت السماوات والأرض . . ألا وإن العصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية في الأرض - بعد ما غلبت عليها الجاهلية - لجديرة بأن تقف طويلا أمام (بدر) وقيمها الحاسمة التي تقررها ؛ والأبعاد الهائلة التي تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم :

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » . . .

إن العصبة المسلمة التي تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين في دنيا الناس وفي عالم الواقع ، قد لا تكون اليوم من الناحية الحركية في المرحلة التي كانت فيها العصبة المسلمة الأولى يوم بدر . ولكن الموازين والقيم والتوجيهات العامة لبدر وملابساتها ونتائجها والتعقيبات القرآنية عليها ماتزال تواجه وتوجه موقف العصبة المسلمة في كل مرحلة من مراحل الحركة ، ذلك أنها موازين وقيم وتوجيهات كلية ودائمة مادامت السماوات والأرض ، وما كانت عصبة مسلمة في هذه الأرض ، تجاهد في وجه الجاهلية لإعادة النشأة الإسلامية . . .

* * *

ثم يمضي السياق في استحضار جو المعركة وملابساتها ومواقفها ، حيث يتجلى كيف كانت حالهم ، وكيف دبر الله لهم ، وكيف كان النصر كله وليد تدبير الله أصلا . . . والتعبير القرآني الفريد يعيد تمثيل الموقف بمشاهده وحوادثه وانفعالاته وخفقاته ، ليعيشوه مرة أخرى ، ولكن في ضوء التوجيه القرآني ، فيروا أبعاده الحقيقية التي تتجاوز بدراً ، والجزيرة العربية ، والأرض كلها ؛ وتمتد عبر السماوات وتتناول الملأ الأعلى ؛ كما أنها تتجاوز يوم بدرا ، وتاريخ الجزيرة العربية ، وتاريخ البشرية في الأرض ، وتمتد وراء الحياة الدنيا ، حيث الحساب الختامي في الآخرة والجزاء الأوفى ، وحيث تشعر العصبة المسلمة بقيمتها في ميزان الله ، وقيمة أقدارها وأعمالها وحركتها بهذا الدين ومقامها الأعلى :

« إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله

Marfat.com

إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان : ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديدالعقاب . ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » . .

إنها المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره ؛ وتسير بجند الله وتوجيهه . . وهى شاخصة بحركاتها وخطراتها من خلال العبارة القرآنية المصورة المتحركة الحية المشهد الذى كان ، كأنه يكون الآن !

فأما قصة الاستغاثة فقد روى الإمام أحمد ــ بإسناده ــ عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة (١) . فاستقبل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبداً » قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يانبى الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ماوعدك فأنزل الله عز وجل : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . .

وتروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر : عددهم . وطريقة مشاركتهم فى المعركة . وماكانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين . . . ونحن ــ على طريقتنا فى الظلال ــ نكتفى فى مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة . والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . . فهذا عددهم . . « إذ يوحى ربك

---

(١) فى روايات أخرى أنهم بين الألف والتسع مئة .

Marfat.com

إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » . . فهذا عملهم . . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه الكفاية . . وبحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك اليوم ، وهى قلة والأعداء كثرة . وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله ــ سبحانه ــ فى كلماته . .

قال البخارى : باب شهود الملائكة بدرا : حدثنا إسحاق ابن إبراهيم ، حدثنا جرير ، عن يحى ابن سعيد ، عن معاذ ابن رفاعة ابن رافع الزرقى ، عن أبيه ــ وكان أبوه من أهل بدر ــ قال : جاء جبريل إلى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » ــ أو كلمة نحوها ــ قال : « وكذلك من شهد بدرا من الملائكة »... (انفرد بإخراجه البخارى) . . .

« إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم » . .

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين . . ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين فى ميزان الله ؛ إلا أن الله سبحانه لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببا ينشئ نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه ــ سبحانه ــ تصحيحا لعقيدة المسلم وتصوره . فهذه الاستجابة ، وهذا المدد ، وهذا الإخبار به . . . كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب . أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون . . هذه هى الحقيقة الاعتقادية التى يقررها السياق القرآنى هنا ، حتى لايتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلا . .

لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا مافى طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التى أصابت بعضهم فى مواجهة الخطر الواقعى ، وأن يمضوا فى طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله . . كان حسبهم هذا لينتهى دورهم ويجىء دور القدرة التى تصرفهم وتدبرهم . . وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتا للقلوب فى مواجهة الخطر الواقعى . . وإنه لحسب

Marfat.com

العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت فى المعركة . ثم يجيء النصر من عندالله وحده . حيث لايملك النصر غيره . وهو « العزيز » القادر الغالب على أمره . وهو « الحكيم » الذى يحل كل أمر محله . .

« إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » . .

أما قصة النعاس الذى غشى المسلمين قبل المعركة فهى قصة حالة نفسية عجيبة ، لاتكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره . . لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة فى مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته . . فإذا النعاس يغشاهم ، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم ؛ والطمأنينة تفيض على قلوبهم (وهكذا كان يوم أحد . . تكرر الفزع ، وتكرر النعاس ، وتكررت الطمأنينة) . . ولقد كنت أمر على هذه الآيات ، وأقرأ أخبار هذا النعاس ، فأدركه كحادث وقع ، يعلم الله سره ، ويحكى لنا خبره . . ثم إذا بى أقع فى شدة ، وتمر على لحظات من الضيق المكتوم ، والتوجس القلق ، فى ساعة غروب . . ثم تدركنى سنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق . . وأصحو إنسانا جديدا غير الذى كان . . ساكن النفس . مطمئن القلب . مستغرقا فى الطمأنينة الواثقة العميقة . . كيف تم هذا ؟ كيف وقع هذا التحول المفاجيء ؟ لست أدرى ! ولكنى بعدها أدرك قصة بدر وأحد . أدركها فى هذه المرة بكيانى كله لا بعقلى . وأستشعرها حية فى حسى لامجرد تصور . وأرى فيها يد الله وهى تعمل عملها الخفى المباشر . . ويطمئن قلبى . .

لقد كانت هذه الغشية ، وهذه الطمأنينة ، مددا من أمداد الله للعصبة المسلمة يوم بدر :

« إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » . .

ولفظ « يغشيكم » ولفظ « النعاس » ولفظ « أمنة » .. كلها تشترك فى إلقاء ظل لطيف شفيف ؛ وترسم الظل العام للمشهد ، وتصور حال المؤمنين يومذاك ، وتجلى قيمة هذه اللحظة النفسية الفاصلة بين حال المسلمين وحال

وأما قصة الماء :

Marfat.com

« وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » . .

فهى قصة مدد آخر من أمداد الله للعصبة المسلمة ، قبيل المعركة .

قال على ابن طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبي - صلى الله عليه وسلم - حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجس الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمئة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمئة مجنبة » . .

ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماأشار به الحباب ابن المنذر من النزول على ماء بدر ، وتغوير ماوراءها من القلب .

« والمعروف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما صار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أى أول ماء وجده - فتقدم إليه الحباب ابن المنذر فقال : يارسول الله ، هذا المنزل الذى نزلته ، منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » . فقال : يارسول الله ، ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ما وراءه من القلب ونسقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء . فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعل ذلك(١) »

فى هذه الليلة - وقبل إنفاذ مشورة الحباب ابن المنذر - كانت هذه الحالة التى يذكر الله بها العصبة التى شهدت بدرا . . والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : مادى وروحى . فالماء فى الصحراء مادة الحياة ، فضلا على أن يكون أداة النصر . والجيش الذى يفقد الماء فى الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة . ثم هذه الحالة النفسية التى صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان ! حالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء . (ولم يكن قد رخص لهم بعد فى التيمم ، فقد جاء هذا متأخرا فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة) . وهنا تثور الهواجس

(١) عن ابن كثير فى التفسير .

Marfat.com

والوساوس، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب . والنفوس التي تدخل المركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها .. وهنا يجيء المدد وتجيء النجدة ..

« وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » ..

ويتم المدد الروحي بالمدد المادي ؛ وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ؛ وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال .

ذلك إلى ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا ؛ وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ؛ وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلي في المركة :

« إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ..

إنه الأمر الهائل .. إنها معية الله سبحانه للملائكة في المركة ؛ واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة .. هذا هو الأمر الذي لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث: كيف اشتركت الملائكة؟ ولا كم قتيلا قتلت؟ ولا كيف قتلت؟ ... إن الحقيقة الكبيرة الهائلة في الموقف هي تلك الحقيقة.. إن حركة العصبة المسلمة في الأرض بهذا الدين أمر هائل عظيم.. أمر يستحق معية الله للملائكة في المركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة !

إننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة ؛ ولكننا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم . فلا نملك من إدراك الكيفية التي اشتركوا بها في نصر المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآني .. وقد أوحى إليهم ربهم : أني معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ، ففعلوا - لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندري كيف فعلوا . وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين وأن يضربوا منهم كل بنان . ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها ، فهذا فرع عن طبيعة إدراكنا نحن لطبيعة الملائكة، ونحن لا نعلم عنها إلا ما علمنا الله.. ولقد وعد الله سبحانه أن يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا . فكان ذلك ، ووعده الحق ، ولكننا كذلك لا نعلم

Marfat.com

كيف كان. فالله هو الذى خلق، وهو أعلم بمن خلق، وهو يحول بين المرء وقلبه؛ وهو أقرب إليه من حبل الوريد..

إن البحث التفصيلى فى كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة. وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة.. ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين، وتسلط الترف العقلى على النفوس والعقول.. وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله سبحانه للملائكة فى المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة، لهى أنفع وأجدى..

وفى نهاية هذا الاستعراض، وفى أعقاب المشهد الهائل الذى تتجلى فيه تلك الحقيقة الهائلة، يجىء التقرير الموضح لما وراء المعركة كلها، ووراء النصر فيها والهزيمة، من قاعدة ودستور لمجرى هذه الأمور:

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » ..

إنها ليست فلتة عارضة، ولا مصادفة عابرة، أن ينصر الله العصبة المسلمة، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المسلمة.. إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله، فاتخذوا لهم شقا غير شق الله ورسوله، وصفا غير صف الله ورسوله. ووقفوا موقف الخلاف والمشاقة هذا يصدون عن سبيل الله، ويحولون دون منهج الله للحياة.

« ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » ..

ينزل عقابه الشديد على الذين يشاقونه ويشاقون رسوله. وهو قادر على عقابهم وهم أضعف من أن يقفوا لعقابه..

قاعدة وسنة. لا فلتة ولا مصادفة. قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة فى الأرض لتقرير ألوهية الله وحده، وإقامة منهج الله وحده، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقون الله ورسوله. ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق، واطمأنت إلى ربها، وتوكلت عليه وحده، وهى تقطع الطريق.

Marfat.com

وفي نهاية المشهد يتوجه بالخطاب إلى أولئك الذين شاقوا الله ورسوله . . إن هذا الذى حل بكم فى الدنيا من الرعب والهزيمة ليس نهاية المطاف . فأمر هذا الدين والحركة به والوقوف فى طريقه ، ليس أمر هذه الأرض وحدها ، ولا أمر هذه الحياة الدنيا بمفردها . . إنه أمر يمتد إلى ماوراء هذه الأرض ، وإلى ما بعد هذه الحياة . . إن أبعاده تمتد وراء هذه الآماد القريبة :

« ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » . .

فهذه نهاية المطاف . وهذا هو العذاب الذى لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان !

* * *

والآن . . وقد أعاد عليهم مشاهد الوقعة وملابساتها ، وأراهم يد الله فيها وتدبيره ، وعونه ومدده ، وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستار لقدر الله وقدرته . . الله هو الذى أخرج رسوله من بيته بالحق ــ لم يخرجه بطرا ولا اعتداء ولا طغيانا ــ والله هو الذى اختار لهم إحدى الطائفتين لأمر يريده ، من قطع دابر الكافرين « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » . . والله هو الذى أمدهم بألف من الملائكة مردفين . . والله هو الذى غشاهم النعاس أمنة منه ، ونزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به ، ويذهب عنهم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبهم ويثبت به الأقدام . . والله هو الذى أوحى إلى الملائكة ليثبتوا الذين آمنوا ، وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .. والله هو الذى أشرك الملائكة فى المعركة وأمرهم أن يضربوا فوق الأعناق وأن يضربوا من المشركين كل بنان .والله هو الذى غنمهم الغنيمة ورزقهم من فضله بعد أن خرجوا بلا مال ولا ظهر ولا عتاد ..

الآن.. وقد استعرض السياق القرآنى هذا كله ، فأعاده حاضرا فى قلوبهم ، شاخصا لأبصارهم . وهو يتضمن صورة من النصر الحاسم الذى لا يستند إلى تدبير بشرى ، ولا إلى قوة العدد ولا قوة العدة ؛ إنما يستند إلى تدبير الله وتقديره وعونه ومدده ؛ كما يستند إلى التوكل على الله وحده ، والالتجاء إليه ، والاستغاثة به ، والسير مع تدبيره وتقديره ..

Marfat.com

الآن .. وهذا المشهد حاضر فى القلوب شاخص للأبصار .. الآن .. وفى أنسب اللحظات لاستجابة القلوب للتوجيه . . الآن يجىء الأمر للذين آمنوا ـ بصفتهم هذه ـ أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا ؛ وألا يولوهم الأدبار من الهزيمة والفرار ؛ مادام أن النصر والهزيمة موكولان إلى إرادة فوق إرادة الناس ؛ وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التى يراها الناس ؛ وما دام أن الله هو الذى يدبر أمر المعركة ـ كما يدبر الأمر كله ـ وهو الذى يقتل الكفار بأيدى المؤمنين؛ وهو الذى ينجح الرمية حين ترمى ـ وإنما المؤمنون ستار للقدرة يريد الله أن يجعل لهم ثواب الجهاد والبلاء فيه ـ وهو الذى يلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ويوهن تدبيرهم ويذيقهم العذاب فى الدنيا والآخرة لأنهم شاقوا الله ورسوله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » ..

ويبدو فى التعبير القرآنى شدة فى التحذير ؛ وتغليظ فى العقوبة ؛ وتهديد بغضب من الله ومأوى فى النار :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره ـ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ـ فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » ..

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا «زحفا» أى متدانين متقاربين متواجهين؛ فلا تفروا عنهم ، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب ، حيث تختارون موقعا أحسن ، أو تدبرون خطة أحكم ؛ أو أن يكون ذلك انضماما إلى فئة أخرى من المسلمين ، أو إلى قواعد المسلمين ، لتعاودوا القتال .. وأن من تولى ، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب : غضبا من الله ومأوى فى جهنم ..

وقد وردت بعض الأقوال فى اعتبار هذا الحكم خاصا بأهل بدر ، أو بالقتال الذى يكون

Marfat.com

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاضره . ولكن الجمهور على أنها عامة ، وأن التولى يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات . كما روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . .

وقد أورد الجصاص فى « أحكام القرآن » تفصيلا لا بأس من الإلمام به قال :

« قال الله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة » روى أبو نضرة عن أبى سعيد أن ذلك إنما كان يوم بدر . قال أبو نضرة لأنهم لو انحازوا يومئذ لانحازوا إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم . . وهذا الذى قاله أبو نضرة ليس بسديد ، لأنه قد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار ، ولم يأمرهم النبى عليه السلام بالخروج ، ولم يكونوا يرون أنه يكون قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيمن خف معه . فقول أبى نضرة إنه لم يكن هناك مسلم غيرهم وإنهم لو انحازوا انحازوا إلى المشركين ، غلط لما وصفنا . . وقد قيل : إنه لم يكن جائزا لهم الانحياز يومئذ لأنهم كانوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن الانحياز جائزا لهم عنه ، قال الله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » : فلم يكن يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينصرفوا عنه ويسلموه ، وإن كان الله قد تكفل بنصره وعصمه من الناس ، كما قال الله تعالى : « والله يعصمك من الناس » وكان ذلك فرضا عليهم ، قلت أعداؤهم أو كثروا ، وأيضا فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فئة المسلمين يومئذ ، ومن كان بمنحاز عن القتال فإنما كان يجوز له الانحياز على شرط أن يكون انحيازه إلى فئة ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فئتهم يومئذ ، ولم تكن فئة غيره . قال ابن عمر : كنت فى جيش ، فحاص الناس حيصة واحدة ورجعنا إلى المدينة ، فقلنا : نحن الفرارون. فقال النبى عليه السلام : « أنا فئتكم » . فمن كان بالبعد من النبى ـ ٠ ى الله عليه وسلم ـ إذا

Marfat.com

انحاز عن الكفار فإنما كان يجوز له الانحياز إلى فئة النبي - صلى الله عليه وسلم - وإذا كان معهم فى القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون إليه ، فلم يكن يجوز لهم الفرار . وقال الحسن فى قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره » قال : شددت على أهل بدر . وقال الله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » وذلك لأنهم فروا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وكذلك يوم حنين فروا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فعاقبهم الله على ذلك فى قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين » . . فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - قل العدو أو كثر ، إذا لم يجد الله فيه شيئا . . وقال الله تعالى فى آية أخرى : « يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا » وهذا - والله أعلم - فى الحال التى لم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - حاضرا معهم ، فكان على العشرين أن يقاتلوا المئتين لا يهربوا عنهم ، فإذا كان عدد العدو أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين فيهم نصرة لمعاودة القتال ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله » فروى عن ابن عباس أنه قال : كتب عليكم ألا يفر واحد من عشرة : ثم قلت : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » . . . الآية . فكتب عليكم ألا يفر مئة من مئتين . وقال ابن عباس : إن فر رجل من رجلين فقد فر ، وإن فر من ثلاثة فلم يفر - قال الشيخ يعنى بقوله : فقد فر : الفرار من الزحف المراد بالآية ، والذى فى الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار ، فإن زاد عدد الكفار على اثنين فجائز حينئذ للواحد التحيز إلى فئة من المسلمين فيها نصرة ، فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم فهو من أهل الوعيد المذكور فى قوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله » ولذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أنا فئة كل مسلم » . وقال عمر ابن الخطاب لما بلغه أن أبا عبيد ابن مسعود استقتل يوم الجيش حتى قتل ولم ينهزم : « رحم الله أبا عبيد ! لو انحاز إلى لكنت له فئة » . فلما رجع إليه أصحاب أبى عبيد قال : « أنا فئة لكم »

Marfat.com

ولم يمنفهم . . وهذا الحكم عندنا (يعنى عند الحنفية) ثابت ، مالم يبلغ عدد جيش المسلمين اثنى عشر ألفا لايجوز لهم أن ينهزموا عن مثليهم إلا متحرفين لقتال ، وهوأن يصيروامن موضع إلى غيره مكايدين لعدوهم ، ونحو ذلك ، مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب ، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم . فإذا بلغوا اثنى عشر ألفا فإن محمد ابن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من عدوهم ، وإن كثر عددهم ، ولم يذكر خلافا بين أصحابنا فيه (يعنى الحنفية) واحتج بحديث الزهرى عن عبيدالله ابن عبد الله ، أن ابن عباس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « خير الأصحاب أربعة . وخير السرايا أربع مئة . وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يؤتى اثنا عشر ألفا من قلة ولن يغلبوا » وفى بعضها: « ماغلب قوم يبلغون اثنى عشر ألفا إذا اجتمعت كلمتهم » . وذكر الطحاوى أن مالكا سئل ، فقيل له : أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها ؟ فقال مالك : إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك لم يسعك التخلف ، وإلا فأنت فى سعة من التخلف . . وكان السائل له عبد الله ابن عمر ابن عبد العزيز ابن عبد الله ابن عمر . وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد ابن الحسن . والذى روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى اثنى عشر ألفا فهو أصل فى هذا الباب ، وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله — صلى الله عليه وسلم — « إذا اجتمعت كلمتهم » . وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم » . . . انتهى .

كذلك أورد « ابن العربى » فى « أحكام القرآن » تعقيبا على الخلاف فى المقصود بهذا الحكم قال :

« اختلف الناس : هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر ، أم عام فى الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟ »

« فروى عن أبى سعيد الخدرى أن ذلك يوم بدر ، لم يكن لهم فئة إلا رسول الله ، وبه قال نافع ، والحسن ، وقتادة ، ويزيد ابن حبيب ، والضحاك .

« ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة ؛ وإنما شذ من

Marfat.com

شذ بخصوص ذلك يوم بدر بقوله : « ومن يولهم يومئذ دبره » فظن قوم أن ذلك إشارة إلى يوم بدر . وليس به . وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف .

« والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال ، وانقضاء الحرب ، وذهاب اليوم بما فيه . وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حسبما قدمناه فى الحديث الصحيح أن الكبائر كذا . . . وعدّ الفرار يوم الزحف . وهذا نص فى المسألة يرفع الخلاف ، ويبين الحكم ، وقد نبهنا على النكتة التى وقع الإشكال فيها لمن وقع باختصاصه بيوم بدر » . .

ونحن نأخذ بهذا الذى ذكره ابن العربى من رأى « ابن عباس وسائر العلماء » . . ذلك أن التولى يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية ؛ ولمساسه بأصل الاعتقاد من ناحية . .

إن قلب المؤمن ينبغى أن يكون راسخا ثابتا لاتهزمه فى الأرض قوة ، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده . . وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة - وهو يواجه الخطر - فإن هذه الهزة لايجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفرارا . والآجال بيد الله ، فما يجوز أن يولى المؤمن خوفا على الحياة . وليس فى هذا تكليف للنفس فوق طاقتها . فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانا . فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة . ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التى لا غالب لها . ثم إنه إلى الله إن كان حيا ، وإلى الله إن كتبت له الشهادة . فهو فى كل حالة أقوى من خصمه الذى يواجهه وهو يشاق الله ورسوله . . ومن ثم هذا الحكم القاطع :

« ومن يولهم يومئذ دبره - إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة - فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » .

ولا بد أن نقف هنا عند التعبير ذاته ، وما فيه من إيحاءات عجيبة : « فلا تولوهم الأدبار » . . « ومن يولهم يومئذ دبره » . . فهو تعبير عن الهزيمة فى صورتها الحسية ، مع التقبيح والتشنيع ، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء ! . . ثم : « فقد باء بغضب من الله » . . فالمهزوم مولّ ومعه « غضب من الله » يذهب به إلى مأواه : « ومأواه جهنم وبئس المصير » . .

Marfat.com

وهكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالته فى رسم الجو العام ؛ وتثير فى الوجدان شعور الاستقباح والاستنكار للتولى يوم الزحف والفرار .

ثم يمضى السياق بعد هذا التحذير من التولى يوم الزحف ؛ ليكشف لهم عن يد الله وهى تدير المعركة من ورائهم ؛ وتقتل لهم أعداءهم ، وترمى لهم وتصيب ... وهم ينالون أجر البلاء لأن الله يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء ، ليثيبهم عليه من فضله وهو الذى وهبهم إياه :

« فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت ـ إذ رميت ـ ولكن الله رمى . وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا . إن الله سميع عليم » . .

وتذهب الروايات المأثورة إلى تفسير الرمى هنا بأنه رمية الحصى التى حثاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى وجوه الكفار ، وهو يقول : « شاهت الوجوه . شاهت الوجوه » فأصابت وجوه المشركين ممن كتب عليهم القتل فى علم الله . .

ولكن دلالة الآية أعم . فهى تمثل تدبير الله للأمر كله من وراء الحركة الظاهرة للنبى صلى الله عليه وسلم والعصبة المسلمة معه . ولذلك تلاها قول الله تعالى :

« وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا » . .

أى ليرزقهم من عنده أن يبلوا البلاء الحسن الذى ينالون عليه الأجر ، بعد أن يكتب لهم به النصر . فهو الفضل المضاعف أولا وأخيرا .

« إن الله سميع عليم » . .

يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم ؛ ويجعلكم ستارا لقدرته ، متى علم منكم الخلوص له ؛ ويعطيكم النصر والأجر . . كما أعطاكم هذا وذاك فى بدر . .

« ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » . .

وهذه أخرى بعد تلك الأولى ! إن التدبير لاينتهى عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم ، ويصيبهم برمية رسولكم ، ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليه . . إنما هو يضيف إليه توهين

Marfat.com

كيد الكافرين، وإضعاف تدبيرهم وتقديرهم .. فلا مجال إذن للخوف، ولا مجال إذن للهزيمة، ولا مجال إذن لأن يولى المؤمنون الأدبار عند لقاء الكفار ..

ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة .. فإذا كان الله هو الذى قتل المشركين، وهو الذى رماهم، وهو الذى أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن، وهو الذى أوهن كيد الكافرين .. فما النزاع والاختلاف إذن فى الأنفال، والمعركة كلها أديرت بتدبير الله وبتقديره، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارا لهذا التدبير والتقدير ؟ !

* * *

وعندما يصل السياق إلى تقرير .. أن الله موهن كيد الكافرين .. يتجه بالخطاب إلى الكافرين، أولئك الذين استفتحوا قبيل المعركة، فدعوا الله أن يجعل الدائرة على أضل الفريقين وآتاهما بما لا يعرف وأقطعهما للرحم - كما كان دعاء أبى جهل وهو استفتاحه : أى طلبه الفتح من الله والفصل - فدارت الدائرة على المشركين ! .. يتوجه إليهم بالخطاب، ساخرا من استفتاحهم ذاك؛ مؤكدا لهم أن ماحدث فى بدر إنما هو نموذج من السنة الجارية وليس فلتة عارضة؛ وأن جموعهم وكثرتهم لن تغير من الأمر شيئا؛ لأنها السنة الجارية : أن يكون الله مع المؤمنين :

« إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . وإن تنتهوا فهو خير لكم . وإن تعودوا نعد، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت . وأن الله مع المؤمنين » ..

إن تستفتحوا فتطلبوا من الله أن يفتح بينكم وبين المسلمين، وأن يهلك أضل الفريقين وأقطعهما للرحم .. فقد استجاب الله، فجعل الدائرة عليكم، تصديقا لاستفتاحكم ! لقد دارت الدائرة على أضل الفريقين وأقطعهما للرحم ! ولقد علمتم - إن كنتم تريدون أن تعلموا - من هم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم !

وعلى ضوء هذه الحقيقة، وفى ظل هذا الإيحاء، يرغبهم فى الانتهاء عما هم فيه من الشرك والكفر والحرب للمسلمين، والمشاقة لله ورسوله :

« وإن تنتهوا فهو خير لكم » ..

ومع الترغيب الترهيب :

Marfat.com

« وإن تعودوا نعد » . .

والعاقبة معروفة ، لايغيرها تجمع ، ولا تبدلها كثرة :

« ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت » . .

وماذا تفعل الكثرة إذا كان الله فى جانب المؤمنين ؟

« وأن الله مع المؤمنين » . .

إن المعركة على هذا النحو لن تكون متكافئة أبدا ؛ لأن المؤمنين - ومعهم الله - سيكونون فى صف ؛ والكفار - وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم - سيكونون فى الصف الآخر . والمعركة على هذا النحو مقررة المصير !

ولقد كان مشركو العرب يعرفون هذه الحقيقة . فإن معرفتهم بالله سبحانه لم تكن قليلة ولا سطحية ولا غامضة ؛ كما يتصور الناس اليوم من خلال تأثرهم ببعض التعميمات التاريخية . ولم يكن شرك العرب متمثلا فى إنكار الله - سبحانه - ولا فى عدم معرفتهم الحقيقة . . إنما كان يتمثل أكثر مايتمثل فى عدم إخلاصهم العبودية له ؛ وذلك بتلقى منهج حياتهم وشرائعهم من غيره ؛ وهو ما لم يكن متفقا مع إقرارهم بألوهية الله ومعرفتهم لحقيقته . .

ولقد مر بنا فى استعراض أحداث الموقعة من كتب السيرة : أن خفاف ابن أيماء ابن رحضة الغفارى - أو أبوه أيماء ابن رحضة الغفارى - بعث إلى قريش ، حين مروا به ، ابنا له بجزائر أهداها لهم ؛ وقال لهم : إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. قال : فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم ! قد قضيت الذى عليك . فلعمرى لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم. ولئن كنا إنما نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله من طاقة .

كذلك مر بنا قول الأخنس ابن شريق لبنى زهرة - وهو مشرك وهم مشركون - : يابنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة ابن نوفل . . . إلخ

ومثله استفتاح أبى جهل نفسه - فرعون هذه الأمة كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : « اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لايعرف ، فأحنه الغداة » . .

Marfat.com

وكذلك قوله لحكيم ابن حزام وقد جاءه رسولا من عتبة ابن ربيعة ليرجع عن القتال : « كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد » !

فهكذا كان تصورهم للحقيقة الإلهية ، واستحضارهم لها في كل مناسبة . ولم يكن أمرهم أنهم لا يعرفون الله ؛ أو لا يعرفون أنه ما لأحد بالله من طاقة ، أو لا يعرفون أنه هو الذي يحكم ويفصل بين الجهتين حيث لا راد لحكمه ! إنما كان شركهم الحقيقي يتمثل ابتداء في تلقي منهج حياتهم وشرائعهم من غير الله ، الذي يعرفونه ويعترفون به على هذا النحو .. الأمر الذي يشاركهم فيه اليوم أقوام يظنون أنهم مسلمون — على دين محمد — كما كان المشركون يظنون أنهم مهتدون على دين أبيهم إبراهيم ! حتى لكان أبو جهل — وهو أبو جهل — يستفتح على الله فيقول : « اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف — وفي رواية : اللهم أضل الفريقين وأقطعهما للرحم — فأحنه الغداة » !

فأما تلك الأصنام التي عرف أنهم يعبدونها ، فما كان ذلك قط لاعتقادهم بألوهية لها كألوهية الله — سبحانه — ولقد صرح القرآن الكريم بحقيقة تصورهم الاعتقادي فيها وبسبب تقديمهم الشعائر لها في قوله تعالى : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . . فهذا كان مبلغ تصورهم لها . . مجرد شفعاء عند الله . . وما كان شركهم الحقيقي من هذه الجهة ؛ ولا كان إسلام من أسلم منهم متمثلا في مجرد التخلي عن الاستشفاع بهذه الأصنام . وإلا فإن الحنفاء ، الذين اعتزلوا عبادة الأصنام هذه وقدموا الشعائر لله وحده ما اعتبروا مسلمين ! إنما تمثل الإسلام في الاعتقاد والشعائر وإفراد الله سبحانه بالحاكمية . والذين لا يفردون الله سبحانه بالحاكمية — في أي زمان وفي أي مكان — هم مشركون . لا يخرجهم من هذا الشرك أن يكون اعتقادهم أن لا إله إلا الله — مجرد اعتقاد — ولا أن يقدموا الشعائر لله وحده . . فإلى هنا يكونون كالحنفاء الذين لم يعتبرهم أحد مسلمين — إنما يعتبر الناس مسلمين حين يتمون حلقات السلسلة ، أي حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر ، إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ورفضهم الاعتراف بشرعية حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد لم يصدر عن الله وحده . . وهذا وحده هو الإسلام ، لأنه وحده مدلول شهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمدا

Marfat.com

رسول الله ؛ كما عرف هذا المدلول فى الاعتقاد الإسلامى وفى الواقع الإسلامى سواء ! . . ثم أن يتجمع هؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله على هذا النحو وبهذا المدلول فى تجمع حركى بقيادة مسلمة وينسلخوا من التجمع الجاهلى وقيادته الجاهلية !

وهذا ماينبغى أن يتبينه الذين يريدون أن يكونوا « مسلمين » فلا تخدعهم عن حقيقة ماهم فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقادا وتعبدا . فإن هذا وحده لايجعل الناس « مسلمين » مالم يتحقق لهم أنهم يفردون الله سبحانه بالحاكمية ، ويرفضون حاكمية العبيد ، ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلى ولقيادته الجاهلية .

إن كثيرا من الطيبين المخلصين تخدعهم هذه الخدعة .. وهم يريدون لأنفسهم الإسلام ولكنهم يخدعون عنه . فأولى لهم أن يستيقنوا صورة الإسلام الحقيقية .. والوحيدة .. وأن يعرفوا أن المشركين من العرب الذين يحملون اسم « المشركين » لم يكونوا يختلفون عنهم فى شىء ! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقته ـ كما تبين ـ ويقدمون له شفعاء من أصنامهم. وكان شركهم الأساسى يتمثل ـ لا فى الاعتقاد ـ ولكن فى الحاكمية !

وإذا كان ينبغى للطيبين المخلصين الذين يريدون أن يكونوا مسلمين ، أن يتبينوا هذه الحقيقة ، فإن العصبة المسلمة التى تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين فى الأرض فى عالم الواقع يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق ؛ ويجب ألا تتلجلج فيها أى تلجلج ؛ ويجب أن تعرف الناس بها تعريفا صريحا واضحا جازما .. فهذه هى نقطة البدء والانطلاق .. فإذا انحرفت الحركة عنها ـ منذ البدء ـ أدنى انحراف ضلت طريقها كله وبنت على غير أساس ؛ مهما توافر لها من الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضى فى الطريق !

* * *

ثم يعود السياق إلى الهتاف للذين آمنوا ـ فى سلسلة متوالية من الهتافات الموحية ـ عقب ذكرهم: وذكر أن الله معهم .. يعود إليهم ليهتف بهم إلى طاعة الله ورسوله ؛ ويحذرهم التولى عنه ، والتشبه بأولئك الذين يسمعون آيات الله تتلى عليهم فكأنهم لم يسمعوها .. أولئك الصم البكم ، وإن كانت لهم آذان تسمع الأصوات وألسنة تنطق بالكلمات .. أولئك الذين هم شر الدواب التى تدب على هذه الأرض ؛ لأنهم لايهتدون بما يسمعون :

Marfat.com

« ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ،ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون .ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا، وهم لايسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون .ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

إن الهتاف هنا للذين آمنوا ليطيعوا الله ورسوله ،ولايتولوا عنه وهم يسمعون آياته وكلماته.. إن هذا الهتاف هنا إنما يجيء بعد جميع مقدماته الموحية .. يجيء بعد استعراض أحداث المعركة؛ وبعد رؤية يد الله فيها ، وتدبيره وتقديره ، وعونه ومدده ؛ وبعد توكيد أن الله مع المؤمنين ، وأن الله موهن كيد الكافرين . فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة لله والرسول . وإن التولى عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستنكرا قبيحا لايقدم عليه إنسان له قلب يتدبر وعقل يتفكر.. ومن هنا يجيء ذكر الدواب فى موضعه المناسب ! ولفظ «الدواب» يشمل الناس فيما يشمل ، فهم يدبون على الأرض، ولكن استعماله يكثر فى الدواب من الأنعام ، فيلقى ظله بمجرد إطلاقه؛ ويخلع على « الصم البكم الذين لايعقلون » صورة البهيمة فى الحس والخيال! وإنهم لكذلك ! إنهم لدواب بهذا الظل . بل هم شر الدواب ! فالبهائم لها آذان ولكنها لاتسمع إلا كلمات مبهمة ؛ ولها لسان ولكنها لاتنطق أصواتا مفهومة . إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية .أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذى لاينتفعون به . فهم شر الدواب قطعا !

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون » ..

« ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم » ..

أى لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم .. ولكنه -سبحانه- لم يعلم فيهم خيرا ولا رغبة فى الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة ؛ فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم، وما أفسدوا هم من فطرتهم. ولو جعلهم الله يدركون بعقولهم حقيقة مايدعون إليه، مافتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا :

« ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » ..

لأن العقل قد يدرك ، ولكن القلب المطموس لايستجيب . حتى لو أسمعهم الله سماع الفهم

Marfat.com

لتولوا هم عن الاستجابة. والاستجابة هي السماع الصحيح .وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب !

* * *

ومرة أخرى يتكرر الهتاف للذين آمنوا . الهتاف بهم ليستجيبوا لله والرسول ، مع الترغيب في الاستجابة والترهيب من الإعراض ؛ والتذكير بنعمة الله عليهم حين استجابوا لله وللرسول :

« ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه . وأنه إليه تحشرون . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب . واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » ..

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يدعوهم إلى ما يحييهم .. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة ، وبكل معاني الحياة ..

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة ،ومن ضغط الوهم والأسطورة ، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة ، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبيد أو للشهوات سواء ..

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله ؛تعلن تحرر « الإنسان » وتكريمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها ؛ لا يتحكم فرد في شعب ، ولا طبقة في أمة ، ولا جنس في جنس ، ولا قوم في قوم .. ولكنهم ينطلقون كلهم أحرارا متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد .

ويدعوهم إلى منهج للحياة ، ومنهج للفكر ،ومنهج للتصور ؛ يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة ، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان ، العليم بما خلق ؛ هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ؛ ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء .

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم ، والثقة بدينهم وبربهم ،

Marfat.com

والانطلاق في « الأرض » كلها لتحرير « الإنسان » بجملته ؛ وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده ؛ وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله ، فاستلبها منه الطغاة !

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله ، لتقرير ألوهية الله سبحانه — في الأرض وفي حياة الناس ؛ وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ؛ ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله — سبحانه — وحاكميته وسلطانه ؛ حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده ؛ وعندئذ يكون الدين كله لله . حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة .

ذلك مجمل مايدعوهم إليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة .

إن هذا الدين منهج حياة كاملة ، لا مجرد عقيدة مستسرة . منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى . ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها . وفي كل مجالاتها ودلالاتها. والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية :

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . .

استجيبوا له طائعين مختارين ؛ وإن كان الله — سبحانه — قادر على قهركم على الهدى لو أراد:

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » . .

ويالها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة . . « يحول بين المرء وقلبه » فيفصل بينه وبين قلبه ؛ ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه ، ويصرفه كيف شاء ، ويقلبه كما يريد . وصاحبه لا يملك منه شيئاً وهو قلبه الذي بين جنبيه !

إنها صورة رهيبة حقاً ؛ يتمثلها القلب في النص القرآني ، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب ، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس !

إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة ، والحذر الدائم ، والاحتياط الدائم . اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته ؛ والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقاً ؛ والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس . . والتعلق الدائم بالله — سبحانه — مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته ، أو غفلة من غفلاته ، أو دفعة من دفعاته . .

Marfat.com

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه : « اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينـك » . . فـكيف بالناس ، وهم غـير مرسلين ولا معصومين ؟ !

إنها صورة تهز القلب حقا ؛ ويجد لها المؤمن رجفة فى كيانه حين يخلو إليها لحظات ، ناظرا إلى قلبه الذى بين جنبيه ، وهو فى قبضة القاهر الجبار ؛ وهو لا يملك منه شيئا ، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير !

صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم :

« ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذ دعاكم لما يحييكم » . .

ليقول لهم : إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى ـ لو كان يريد ـ وعلى الاستجابة التى يدعوكم إليها هذه الدعوة، ولـكنه ـ سبحانه ـ يكرمكم ؛ فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر ؛ وعن إرادة تعلو بها إنسانيتـكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التى ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان . . أمانة الهداية المختارة ؛ وأمانة الخلافة الواعية ، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة .

« وأنه إليه تحشرون » . .

فقلوبكم بين يديه . وأنتم بعد ذلك محشورون إليه . فما لـكم منه مفر . لا فى دنيا ولا فى آخرة . وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور ، لا استجابة العبد المقهور .

ثم يحذرهم القعود عن الجهاد ، وعن تلبية دعوة الحيـاة ، والتراخى فى تغيير المنـكر فى أية صورة كان :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منـكم خاصة ، واعلموا أن الله شديد العقاب » : .

والفتنة : الابتلاء أو البلاء . . والجماعة التى تسمح لفريق منها بالظلم فى صورة من صوره ـ وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة ـ ولا تقف فى وجه الظالمين ؛ ولا تأخذ الطريق على المفسدين .. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين . . فالإسلام منهج تكافلى إيجابى لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنـكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله

Marfat.com

لا ينبغي ؛ بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها !) وهم ساكتون . ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون !

ولما كانت مقاومة الظلم تكلف الناس التكاليف في الأنفس والأموال ؛ فقد عاد القرآن يذكر العصبة المسلمة ـ التي كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة ـ بما كان من ضعفها وقلة عددها ، وبما كان من الأذى الذي ينالها ، والخوف الذي يظللها . . وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقا طيبا . . فلا تقعد إذن عن الحياة التي يدعوها إليها رسول الله . ولا عن تكاليف هذه الحياة ، التي أعزها بها الله ، وأعطاها وحماها :

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » ..

اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم ؛ واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صوره وأشكاله .. اذكروا أيام الضعف والخوف ، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين ، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون .. ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين . يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله !

ويرسم التعبير مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف :

« تخافون أن يتخطفكم الناس » ..

وهو مشهد التربص الوجل ، والترقب الفزع ، حتى لتكاد العين تبصر بالسمات الخائفة ، والحركات المفزّعة ، والعيون الزائغة . . والأيدي تمتد للتخطف ؛ والقلة المسلمة في ارتقاب وتوجس !

ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم ، في ظل الله الذي آواهم إلى حماه :

« فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات » ..

وفي ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا :

Marfat.com

« لعلكم تشكرون » .

فمن ذا الذى يتأمل هذه النقلة البعيدة ، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية .. صوت الرسول الأمين الكريم .. ثم من ذا الذى لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه ، وهذا المشهد وذلك معروضان عليه ، ولكل منهما إيقاعه وإيحاؤه ؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك . . كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم فى ماضيهم وحاضرهم . . ومن ثم كان لهذا القرآن فى حسهم ذلك المذاق . .

والعصبة المسلمة التى تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين فى واقع الأرض وفى حياة الناس ؛ قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين ، ولا تذوقت المذاقين . . ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك . ولئن كانت اليوم إنما تعيش فى قوله تعالى :

« إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » . .

فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التى يدعوها إليها رسول الله ؛ وأن ترتقب فى يقين وثقة ، موعود الله للعصبة المسلمة ، موعوده الذى حققه للعصبة الأولى ، ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه ، وتصبر على تكاليفه . . وأن تنتظر قوله تعالى :

« فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .

وهى إنما تتعامل مع وعد الله الصادق ـ لا مع ظواهر الواقع الخادع ـ ووعد الله هو واقع العصبة المسلمة الذى يرجح كل واقع !

* * *

ثم يتكرر الهتاف للذين آمنوا مرة أخرى . . إن الأموال والأولاد قد تقعد الناس عن الاستجابة خوفا وبخلا . والحياة التى يدعو إليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياة كريمة ، لا بد لها من تكاليف ، ولا بد لها من تضحيات . . لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد ـ فهى موضع ابتلاء واختبار وامتحان ـ وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان ؛ ومن التخلف عن دعوة الجهاد ؛ وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة . واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول ، وخيانة للأمانات التى تضطلع بها الأمة المسلمة فى

Marfat.com

الأرض ، وهى إعلاء كلمة الله وتقرير ألوهيته وحده للعباد ، والوصاية على البشرية بالحق والعدل . . ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد ، التى قد تُقعد الناس عن التضحية والجهاد :

« ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون . واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » . .

إن التخلى عن تكاليف الأمة المسلمة فى الأرض خيانة لله والرسول . فالقضية الأولى فى هذا الدين هى قضية : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . قضية إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ؛ والأخذ فى هذا بما بلغه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده . . والبشرية فى تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة ؛ ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى . أحيانا قليلة فى الاعتقاد والعبادة . وأحيانا كثيرة فى الحاكمية والسلطان ـ وهذا هو غالب الشرك ومعظمه ـ ومن ثم كانت القضية الأولى لهذا الدين ليست هى حمل الناس على الاعتقاد بألوهية الله . ولكن حملهم على إفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، أى إفراده بالحاكمية فى حياتهم الأرضية ـ كما أنهم مقرّون بحاكميته فى نظام الكون ـ تحقيقا لقول الله تعالى : « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » . . كذلك كانت هى حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله ؛ ومن ثم الالتزام بكل مايبلغهم إياه . .

هذه هى قضية هذا الدين ـ اعتقادا لتقريره فى الضمير ، وحركة لتقريره فى الحياة ـ ومن هنا كان التخلى عنها خيانة لله والرسول ؛ يحذر الله منها العصبة المسلمة التى آمنت به وأعلنت هـذا الإيمان ؛ فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعى ؛ والنهوض بتكاليف هذا الجهاد فى الأنفس والأموال والأولاد .

كذلك يحذرها خيانة الأمانة التى حملتها يوم بايعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام . فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، وليس مجرد عبارات وأدعيات . إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق . إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله ؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق ؛ ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته ، ورد

Marfat.com

الطغاة المتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء ؛ وتأمين الحق والعدل للناس جميعا ؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت ؛ وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله . .

وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها ؛ وخاس بعهده الذى عاهد الله عليه ، ونقض بيعته التى بايع بها رسوله .

وكل أولئك فى حاجة إلى التضحية والصبر والاحتمال ؛ وإلى الاستعلاء على فتنة الأموال والأولاد ، وإلى التطلع إلى ماعند الله من الأجر العظيم ، المدخر لعباده الأمناء على أماناته ، الصابرين المؤثرين المضحين :

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » . .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية ، بما يعلم خالقها من تركيبها الخفى ، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن ، وعلى المنحنيات والدروب والمسالك !

وهو - سبحانه - يعلم مواطن الضعف فى هذه الكينونة . ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها .. ومن هنا ينبهها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد .. لقد وهبها الله للناس ليبلوهم بها ويفتنهم فيها . فهى من زينة الحياة الدنيا التى تكون موضع امتحان وابتلاء ؛ ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه .. أيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها ؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها ؟ : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .. فالفتنة لا تكون بالشدة وبالحرمان وحدها .. إنها كذلك تكون بالرخاء وبالعطاء أيضا ! ومن الرخاء والعطاء هذه الأموال والأولاد . .

هذا هو التنبيه الأول :

« واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » . .

فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار ، كان ذلك عونا له على الحذر واليقظة والاحتياط ؛ أن يستغرق وينسى ويخفق فى الامتحان والفتنة .

ثم لا يدعه الله بلا عون منه ولا عوض .. فقد يضعف عن الأداء - بعد الانتباه - لثقل التضحية

Marfat.com

وضخامة التكليف ؛ وبخاصة فى موطن الضعف فى الأموال والأولاد إنما يلوح له بما هو خير وأبقى، ليستعين به على الفتنة ويتقوى :

« وأن الله عنده أجر عظيم » ..

إنه ـ سبحانه ـ هو الذى وهب الأموال والأولاد .. وعنده وراءها أجر عظيم لمن يستعلى على فتنة الأموال والأولاد ، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد .. وهذا هو العون والمدد للإنسان الضعيف ، الذى يعلم خالقه مواطن الضعف فيه : « وخلق الإنسان ضعيفا » . .

إنه منهج متكامل فى الاعتقاد والتصور ، والتربية والتوجيه ، والفرض والتكليف . منهج الله الذى يعلم؛ لأنه هو الذى خلق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ »

* * *

والهتاف الأخير للذين آمنوا ـ فى هذا المقطع من السورة ـ هو الهتاف بالتقوى . فما تنهض القلوب بهذه الأعباء الثقال ، إلا وهى على بينة من أمرها ونور يكشف الشبهات ويزيل الوساوس ويثبت الأقدام على الطريق الشائك الطويل . وما يكون لها هذا الفرقان إلا بحساسية التقوى وإلا بنور الله :

« يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم. والله ذو الفضل العظيم » ..

هذا هو الزاد ، وهذه هى عدة الطريق .. زاد التقوى التى تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقى . وعدة النور الهادى الذى يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مد البصر؛ فلا تغبشه الشبهات التى تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة.. ثم هو زاد للمغفرة الخطايا. الزاد المطمئن الذى يسكب الهدوء والقرار .. وزاد الأمل فى فضل الله العظيم يوم تنفد الأزواد وتقصر الأعمال .

إنها حقيقة : أن تقوى الله تجعل فى القلب فرقانا يكشف له منعرجات الطريق. ولكن هذه الحقيقة ـ ككل حقائق العقيدة ـ لا يعرفها إلا من ذاقها فعلا! إن الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقوها !

Marfat.com

إن الأمور تظل متشابكة فى الحس والعقل ؛ والطرق تظل متشابكة فى النظر والفكر ؛ والباطل يظل متلبسا بالحق عند مفارق الطريق ! وتظل الحجة تُفحم ولكن لا تُقنع . و تُسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل . ويظل الجدل عبثا والمناقشة جهدا ضائعا . . ذلك ما لم تكن هى التقوى . . فإذا كانت استنار العقل ، ووضح الحق ، وتكشف الطريق ، واطمأن القلب ، واستراح الضمير ، واستقرت القدم وثبتت على الطريق !

إن الحق فى ذاته لا يخفى على الفطرة . . إن هناك اصطلاحا من الفطرة على الحق الذى فطرت عليه ؛ والذى خلقت به السماوات والأرض . . ولكنه الهوى هو الذى يحول بين الحق والفطرة . . الهوى هو الذى ينشر الغبش ، ويحجب الرؤية ، ويُعمى المسالك ، ويخفى الدروب . . والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى . . تدفعه مخافة الله ، ومراقبته فى السر والعلن . . ومن ثم هذا الفرقان الذى ينير البصيرة ، ويرفع اللبس ، ويكشف الطريق .

وهو أمر لا يقدر بثمن . . ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب . ثم يضيف إليهما « الفضل العظيم » . .

ألا إنه العطاء العميم الذى لا يعطيه إلا الرب « الكريم » ذو الفضل العظيم !

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝

« وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

« وَإِذْ قَالُوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؟ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ؛ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *

Marfat.com

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، فَسَيُنفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ، وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » (٤٠)

يمضى السياق فى السورة ، يستعرض الماضى فى مواجهة الحاضر ؛ ويصور للعصبة المسلمة التى خاضت المعركة وانتصرت فيها ذلك النصر المؤزر، مدى النقلة الهائلة بين ذلك الماضى وهذا الحاضر ؛ ويريها فضل الله عليها فى تدبيره لها وتقديره . . الأمر الذى تتضاءل إلى جانبه الأنفال والغنائم ؛ كما تهون إلى جانبه التضحيات والمشاق .

ولقد سبق فى الدرس الماضى تصوير ما كان عليه موقف المسلمين فى مكة ـ وقبل هذه الغزوة ـ من القلة والضعف وقلة المنعة ، حتى ليخافون أن يتخطفهم الناس ؛ وتصوير ماصاروا إليه من الإيواء والعزة والنعمة بتدبير الله ورعايته وفضله . .

وهنا يستطرد إلى تصوير موقف المشركين وهم يبيتون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبيل الهجرة ويتآمرون . وهم يعرضون عما معه من الآيات ويزعمون أنهم قادرون على الإتيان بمثلها لو يشاءون ! وهم يعاندون ويلج بهم العناد حتى ليستعجلون العذاب ـ إن كان هذا هو الحق من عند الله ـ بدلا من أن يفيئوا إليه ويهتدوا به !

Marfat.com

ثم يذكر كيف ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، ويجمعوا لحرب رسول الله ؛ ويوعدهم بالخيبة والحسرة فى الدنيا ، والحشر إلى جهنم فى الآخرة ، والخسارة هنا وهناك من وراء الكيد والجمع والتدبير .

وفى النهاية يأمر الله نبيه أن يواجه الذين كفروا فيخيرهم بين أمرين :أن ينتهوا عن الكفر والعناد وحرب الله ورسوله فيغفر لهم ماسبق فى جاهليتهم من هذه المنكرات . أو أن يعودوا لما هم عليه وما حاولوه فيصيبهم ماأصاب الأولين من أمثالهم ؛ وتجرى عليه سنة الله بالعذاب الذى يشاؤه الله ويقدره كما يريد . . .

ثم يأمر الله المسلمين أن يقاتلوهم حتى لاتكون للكفر قوة يفتنون بها المسلمين ؛ وحتى تتقرر الألوهية فى الأرض لله وحده ـ فيكون الدين كله لله ـ فإن أعلنوا الاستسلام قبل منهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا ونيتهم يحاسبهم بها الله ، والله بما يعملون بصير . وإن تولوا وظلوا على حربهم وعنادهم وعدم اعترافهم بألوهية الله وحده ، وعدم استسلامهم لسلطان الله فى الأرض ، واصل المسلمون جهادهم ، مستيقنين أن الله مولاهم ، ونعم المولى ونعم النصير ..

***

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله . والله خير الماكرين » . .

إنه التذكير بما كان فى مكة ، قبل تغير الحال ، وتبدل الموقف . وإنه ليوحى بالثقة واليقين فى المستقبل ؛ كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضى به ويأمر . . ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ، يعرفون الحالين معرفة الذى عاش ورأى وذاق . وكان يكفى أن يذكروا بهذا الماضى القريب ، وما كان فيه من خوف وقلق ؛ فى مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة . . وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مواجهة ماصار إليه من غلبة عليهم ، لامجرد النجاة منهم !

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحبسوه حتى يموت ؛ أو ليقتلوه ويتخلصوا منه ؛ أو ليخرجوه من مكة منفيا مطرودا . . ولقد ائتمروا بهذا كله ثم

Marfat.com

اختاروا قتله ؛ على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعا ؛ ليتفرق دمه فى القبائل ؛ ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها ، فيرضوا بالدية وينتهى الأمر !

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، أخبرنى عثمان الجريرى ، عن مقسم مولى ابن عباس ، أخبره ابن عباس فى قوله : « وإذ يمكر بك » . . . قال : « تشاورت قريش ليلة بمكة . فقال بعضهم :إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبى صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ؛ فبات على - رضى الله عنه - على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى لحق بالغار . وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما أصبحوا ثاروا إليه ؛ فلما رأوه عليا رد الله تعالى عليهم مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى ! فاقتصوا أثره ؛ فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . . فمكث فيه ثلاث ليال » .

« ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

والصورة التى يرسمها قوله تعالى: « ويمكرون ويمكر الله » . . صورة عميقة التأثير . . ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون . . والله من ورائهم ، محيط ، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون !

إنها صورة ساخرة ، وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة . . فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكل شىء محيط ؟

والتعبير القرآنى يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة فى التصوير ؛ فيهز بها القلوب ، ويحرك بها أعماق الشعور .

* * *

ويمضى السياق فى وصف أحوال الكفار وأفعالهم ؛ ودعاويهم ومفترياتهم . حتى ليبلغ بهم

Marfat.com

الادعاء أن زعموا أن فى مقدورهم أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لو شاءوا ! مع وصف هذا القرآن الكريم ، بأنه أساطير الأولين :

« وإذا تتلى عليهم آياتنـا قالوا : قد سمعنا ! لو نشاء لقلنا مثـل هذا ! إن هـذا إلا أساطير الأولين » . .

ذكر ابن كثير فى التفسير ـ نقلا عن سعيد ابن جبير والسدى وابن جريج وغيرهم ـ أن القائل لذلك هو النضر ابن الحارث قال : « فإنه ـ لعنه الله ـ كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ؛ ولما قدم وجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن . فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ؛ ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصا ؟ أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى فيه يوم بدر ووقع فى الأسارى ، أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ، ففعل ذلك والحمد لله . وكان الذى أسره المقداد ابن الأسود رضى الله عنه . . كما قال ابن جرير : حدثنا محمد ابن بشار ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير قال : قتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر صبرا عقبة ابن أبى معيط ، وطعيمة ابن عدى ، والنضر ابن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يارسول الله ، أسيرى ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنه كان يقول فى كتاب الله عز وجل مايقول » . فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقتله ، فقال المقداد : يارسول الله ، أسيرى ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم أغن المقداد من فضلك » . فقال المقداد : هذا الذى أردت ! قال : وفيه أنزلت هـذه الآية : « وإذا تتلى عليهم آياتنـا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هـذا ، إن هـذا إلا أساطير الأولين »

ولقد تكررت فى القرآن حكاية قول المشركين عن القرآن : إنه أساطير الأولين : « وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . .

وما كان هـذا القول إلا حلقة من سلسلة المناورات التى كانوا يحاولون أن يقفوا بهـا فى

Marfat.com

وجه هذا القرآن ، وهو يخاطب الفطرة البشرية بالحق الذى تعرفه فى أعماقها فتهتز وتستجيب ؟ ويواجه القلوب بسلطانه القاهر فترتجف لإيقاعه ولا تتماسك . وهنا كان يلجأ العلية من قريش إلى مثل هذه المناورات . وهم يعلمون أنها مناورات ! ولكنهم كانوا يبحثون فى القرآن عن شيء يشبه الأساطير المعهودة فى أساطير الأمم من حولهم ليموهوا به على جماهير العرب ، الذين من أجلهم تطلق هذه المناورات ، للاحتفاظ بهم فى حظيرة العبودية للعبيد !

لقد كان الملأ من قريش يعرفون طبيعة هذه الدعوة ، مذ كانوا يعرفون مدلولات لغتهم الصحيحة ! كانوا يعرفون أن شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، معناها إعلان التمرد على سلطان البشر كافة ، والخروج من حاكمية العباد جملة ؛ والفرار إلى ألوهية الله وحده وحاكميته . ثم التلقى فى هذه العبودية لله عن محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحده ، دون الطغاة الذين يحكمون باسم الآلهة أو باسم الله ! . . وكانوا يرون الذين يشهدون هذه الشهادة يخرجون لتوهم من سلطان قريش وقيادتها وحاكميتها ؛ وينضمون إلى التجمع الحركى الذى يقوده محمد — صلى الله عليه وسلم — ويخضعون لقيادته وسلطانه ؛ وينتزعون ولاءهم للأسرة والعشيرة والقبيلة والمشيخة والقيادة الجاهلية ؛ ويتوجهون بولائهم كله للقيادة الجديدة ، وللعصبة المسلمة التى تقوم عليها هذه القيادة الجديدة . .

كان هذا كله هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . وكان هذا واقعا يشهده الملأ من قريش ؛ ويحسون خطره على كيانهم ، وعلى الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقيدية التى يقوم عليها كيانهم .

لم يكن مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، هو هذا المدلول الباهت الفارغ الهزيل الذى يعنيه اليوم من يزعمون أنهم مسلمون — لمجرد أنهم يشهدون هذه الشهادة بألسنتهم ؛ ويؤدون بعض الشعائر التعبدية ، بينما ألوهية الله فى الأرض وفى حياة الناس لا وجود لها ولا ظل ؛ وبينما القيادات الجاهلية والشرائع الجاهلية هى التى تحكم المجتمع وتصرف شؤونه .

وحقيقة إنه فى مكة لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة . . ولكن الذين كانوا ينطقون

Marfat.com

بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ؛ وينزعون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة ؛ كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها ؛ وينزعون ولاءهم من الأسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين . . فلم يكن الأمر هو هذا النطق الفارغ الباهت الهزيل . ولكن كانت دلالته الواقعية العملية هي التي تترجمه إلى حقيقة يقوم عليها الإسلام . .

وهذا هو الذي كان يزعج الملأ من قريش من زحف الإسلام ، ومن هذا القرآن . . إنه لم يزعجهم من قبل أن « الحنفاء » اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم ؛ واعتقدوا بألوهية الله وحده وقدموا له الشعائر وحده ، واجتنبوا عبادة الأصنام أصلا . . فإلى هنا لا يهم الطاغوت الجاهلي شيء ؛ لأنه لا خطر على الطاغوت من الاعتقاد السلبي والشعائر التعبدية ! إن هذا ليس هو الإسلام - كما يظن بعض الطيبين الخيرين الذين يريدون اليوم أن يكونوا مسلمين ، ولكنهم لا يعرفون ماهو الإسلام معرفة اليقين ! - إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين . . هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ؛ والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع . . وهذا ما كان يقض مضاجع الملأ من قريش ، فيقاومونه بشتى الأساليب . . ومنها هذا الأسلوب . . أسلوب الادعاء على القرآن الكريم ، بأنه أساطير الأولين ! وأنهم - لو شاءوا - قالوا مثله ! ذلك مع تحديهم به مرة ومرة ومرة . . وهم في كل مرة يعجزون ويخنسون !

والأساطير واحدتها أسطورة . وهي الحكاية المتلبسة - غالبا - بالتصورات الخرافية عن الآلهة ؛ وعن أقاصيص القدامى وبطولاتهم الخارقة ، وعن الأحداث التي يلعب فيها الخيال والخرافة دورا كبيرا . .

وقد كان الملأ من قريش يعمدون إلى ما في القرآن من قصص الأولين ؛ وقصص الخوارق والمعجزات ؛ وفعل الله بالمكذبين وإنجائه للمؤمنين . . . إلى آخر ما في القصص القرآني من هذه الموضوعات ؛ فيقولون للجماهير المستغفلة : إنها أساطير الأولين ؛ اكتتبها محمد ممن

Marfat.com

يجمعونها ؛ وجاء يتلوها عليكم ، زاعما أنه أوحى إليه بها من عند الله . . وكذلك كان النضر ابن الحارث يجلس فى مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد انتهائه ؛ أو يجلس مجلسا آخر يجاوره ؛ ويقص الأساطير الفارسية التى تعلمها من رحلاته فى بلاد فارس ؛ ليقول للناس : إن هذا من جنس مايقوله لكم محمد . وهأنذا لاأدعى النبوة ولا الوحى كما يدعى ! فإن هى إلا أساطير من نوع هذه الأساطير !

ولا بد أن نقدر أنه كان هناك تأثير لهذه البلبلة فى الوسط الجاهلى عند عامة الناس . وبخاصة فى أول الأمر ، قبل أن تتجلى الفوارق بين هذه الأساطير والقصص ، وبين القرآن الكريم . لندرك لم نادى منادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل المعركة فى بدر بقتل النضر ابن الحارث . ثم لما وجده أسيرا أمر بقتله هو والنفر القليل الذين أمر بقتلهم من الأسرى ؛ ولم يقبل فيه فدية كالآخرين .

على أن الذى انتهى إليه الأمر فى مكة أن هذه الأساليب لم تعش طويلا ؛ وأن هذا النوع من المناورات قد انكشف بعد حين ؛ وأن القرآن بسلطانه القاهر الذى يحمله من عند الله ؛ وبالحق العميق الذى تصطلح عليه الفطرة سريعا ، قد اكتسح هذه الأساليب وهذه المناورات ، فلم يقف له منها شيء ؛ وراح الملأ من قريش - فى ذعر - يقولون : « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ! » ووجد كبراؤهم ، من أمثال أبى سفيان ، وأبى جهل والأخنس ابن شريق أنفسهم يخالس بعضهم بعضا ليبيت ليلته يستمع خفية لهذا القرآن ؛ ولا يملك نفسه من أن تقوده قدماه ليلة بعد ليلة إلى حيث يستمع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى خفية عن الآخرين ؛ حتى تعاهدوا وأكدوا على أنفسهم العهود ، ألا يعودوا إليها ، مخافة أن يرام الفتية فيفتتنوا بهذا القرآن وبهذا الدين !

على أن محاولة النضر ابن الحارث أن يلهى الناس عن هذا القرآن بشيء آخر يخدعهم به عنه ، لم تكن هى المحاولة الأخيرة ولن تكون . . لقد تكررت فى صور شتى وسوف تتكرر . . لقد حاول أعداء هذا الدين دائما أن يصرفوا الناس نهائيا عن هذا القرآن . فلما عجزوا حولوه إلى تراتيل يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون ، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس

Marfat.com

فى جيوبهم وفى صدورهم وتحت وسائدهم . . . ويفهمون أنهم مسلمون ، ويظنون أنهم أدوا حق هذا القرآن وحق هذا الدين !

لم يعد القرآن فى حياة الناس هو مصدر التوجيه . . لقد صاغ لهم أعداء هذا الدين أبدالا منه يتلقون منها التوجيه فى شؤون الحياة كلها .. حتى ليتلقون منها تصوراتهم ومفاهيمهم ، إلى جانب مايتلقون منها شرائعهم وقوانينهم ، وقيمهم وموازينهم ! ثم قالوا لهم : إن هـذا الدين محترم ، وإن هـذا القرآن مصون . وهو يتلى عليكم صباحا ومساء وفى كل حين ؛ ويترنم به المترنمون ، ويرتله المرتلون . . فماذا تريدون من القرآن بعد هذا الترنم وهذا الترتيل ؟ ! فأما تصوراتكم ومفهوماتكم ، وأما أنظمتكم وأوضاعكم ، وأما شرائعكم وقوانينكم ، وأما قيمكم وموازينكم ، فإن هناك قرآنا آخر هو المرجع فيها كلها ، فإليه ترجعون !

إنها مناورة النضر ابن الحارث ؛ ولكن فى صورة متطورة معقدة ، تناسب تطور الزمان وتعقد الحياة . . ولكنها هى هى فى شكل من أشكالها الكثيرة ، التى عرفها تاريخ الكيد لهذا الدين ، على مدار القرون !

ولكن العجيب فى شأن هذا القرآن ، أنه ـ على طول الكيد وتعقده وتطوره وترقيه ـ مايزال يغلب ! . . إن لهـذا الكتاب من الخصائص العجيبة ، والسلطان القاهر على الفطرة ، مايغلب به كيد الجاهلية فى الأرض كلها وكيد الشياطين من اليهود والصليبيين ؛ وكيد الأجهزة العالمية التى يقيمها اليهود والصليبيون فى كل أرض وفى كل حين !

إن هذا الكتاب مايزال يلوى أعناق أعدائه فى الأرض كلها ليجعلوه مادة إذاعية فى جميع محطات العالم الإذاعية ؛ بحيث يذيعه ـ على السواء ـ اليهود ، ويذيعه الصليبيون ، ويذيعه عملاؤهم المستترون تحت أسماء المسلمين !

وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا فى تحويله فى نفوس الناس « المسلمين » ! ـ إلى مجرد أنغام وتراتيل ؛ أو مجرد تمائم وتعاويذ ! وبعد أن أبعدوه ـ حتى فى خاطر الناس . . المسلمين ! . . من أن يكون مصدر التوجيه للحياة ؛ وأقاموا مصادر غيره للتوجيه فى جميع الشؤون . . ولكن هذا الكتاب مايزال يعمل من وراء هذا الكيد ؛ وسيظل يعمل ؛ وما تزال فى أنحاء فى الأرض عصبة مسلمة تتجمع على جدية هذا الكتاب ؛ وتتخذه وحده مصدر

Marfat.com

التوجيه ؛ وهي ترتقب وعد الله لها بالنصر والتمكين . من وراء الكيد والسحق والقتل والتشريد . . وما كان مرة لابد أن سيكون . .

* * *

ثم يمضي السياق يصف العجب العاجب من عناد المشركين في وجه الحق الذي يغالبهم فيغلبهم ؛ فإذا الكبرياء تصدهم عن الاستسلام له والإذعان لسلطانه ؛ وإذا بهم يتمنون على الله - إن كان هذا هو الحق من عنده - أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، أو أن يأتيهم بعذاب أليم . بدلا من أن يسألوا الله أن يرزقهم اتباع هذا الحق والوقوف في صفه :

« وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » . .

وهو دعاء غريب ؛ يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق ، حتى ولو كان حقا ! . . إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق ، وأن يهديها إليه ، دون أن تجد في هذا غضاضة . ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة ، تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب ، على أن تخضع للحق عندما يكشف لها واضحا لاريب فيه . . وبمثل هذا العناد كان المشركون في مكة يواجهون دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن هذه الدعوة هي التي انتصرت في النهاية في وجه هذا العناد الجامح الشموس !

ويعقب السياق على هذا العناد ، وعلى هذا الدعاء ، بأنهم مع استحقاقهم لإمطار الحجارة عليهم من السماء والعذاب الأليم الذي طلبوه - إن كان هذا هو الحق من عنده - وإنه للحق . . مع هذا فإن الله قد أمسك عنهم عذاب الاستئصال الذي أخذ به المكذبين قبلهم . لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهم ، ولا يزال يدعوهم إلى الهدى . والله لا يعذبهم عذاب الاستئصال والرسول فيهم . كما أنه لا يعذبهم هذا العذاب على معاصيهم إذا كانوا يستغفرون منها ؛ وليس تأخير العذاب عنهم لمجرد أنهم أهل هذا البيت . فهم ليسوا بأولياء هذا البيت إنما أولياؤه المتقون :

Marfat.com

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون . ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لايعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية . فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » . .

إنها رحمة الله تمهلهم فلا يأخذهم الله بعنادهم ؛ ولا يأخذهم بصدهم عن المسجد الحرام - وقد كانوا يمنعون المسلمين أن يحجوا إليه ، وهم لايمنعون أحدا ولا يهيجونه عنه !

إنها رحمة الله تمهلهم عسى أن يستجيب للهدى منهم من تخالط بشاشة الإيمان قلبه - ولو بعد حين - وما دام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينهم ، يدعوهم ، فهنالك توقع لاستجابة البعض منهم ؛ فهم إكراما لوجود رسول الله بينهم يمهلون . والطريق أمامهم لاتقاء عذاب الاستئصال دائما مفتوح إذا هم استجابوا واستغفروا عما فرط منهم وأنابوا :

« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » . .

فأما لو عاملهم الله بما هم فيه فهم مستحقون لهذا العذاب :

« وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . وما كانوا أولياءه . إن أولياؤه إلا المتقون . ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

إنه لايمنع العذاب عنهم مايدعونه من أنهم ورثة إبراهيم وسدنة بيت الله الحرام . . فهذه ليست سوى دعوى لا أساس لها من الواقع . إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه . إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه ! إن بيت الله الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف . إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله . . ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم - عليه السلام - فوراثة إبراهيم ليست وراثة دم ونسب ؛ إنما هي وراثة دين وعقيدة . والمتقون هم ورثة إبراهيم وبيت الله الذي بناه لله ؛ فإذا هم يصدون عنه أولياءه الحقيقيين المؤمنين بدين إبراهيم !

إنهم ليسوا أولياء لهذا البيت وإن كانوا يصلون عنده صلاتهم . فما هذه بصلاة ! إنما كانت صفيرا بالأفواه وتصفيقا بالأيدي ، وهرجا ومرجا لاوقار فيه ، ولا استشعار لحرمة البيت ، ولا خشوع لهيبة الله .

Marfat.com

عن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ، ويصفقون ويصفرون .

وإن هذا ليخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين المرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم فى كثير من البلاد التى يسمونها « بلاد المسلمين » ! إنها الجاهلية تبرز فى صورة من صورها الكثيرة . بعدما برزت فى صورتها الواضحة الكبيرة : صورة ألوهية العبيد فى الأرض ، وحاكميتهم فى حياة الناس . . وإذا وقعت هذه فكل صور الجاهلية الأخرى إنما هى تبع لها ، وفرع منها !

« فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » . .

وهو ذلك العذاب الذى نزل بهم فى بدر بأيدى العصبة المسلمة . فأما العذاب الذى طلبوه ـ عذاب الاستئصال المعروف ـ فهو مؤجل عنهم ، رحمة من الله بهم ، وإكراما لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومقامه فيهم ، عسى أن ينتهى بهم الأمر إلى التوبة والاستغفار مما هم فيه .

* * *

والكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل الله . . هكذا فعلوا يوم بدر ، على نحو ما ذكرنا فى سياق الحديث عن الوقعة من كتب السيرة . . وهكذا ظلوا بعد بدر يستعدون للوقعة التالية . والله ينذرهم بالخيبة فيما يبغون وبالحسرة على ما ينفقون ، ويعدهم الهزيمة فى الدنيا وعذاب جهنم فى الآخرة :

« إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ؛ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعا ، فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون » . .

روى محمد ابن إسحاق عن الزهرى وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم ـ أى جيشهم المهزوم ـ إلى مكة ؛ ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله ابن ربيعة ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وصفوان ابن أمية ، فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم

Marfat.com

وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان ابن حرب ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يامعشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ! فأعينونا بهذا المال على حربه ،لعلنا أن ندرك منه ثأرا عن أصيب منا . ففعلوا . فقال : ففيهم – كما ذكر ابن عباس – أنزل الله عز وجل : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم . . . » .

وليس هذا الذى حدث قبل بدر وبعدها إلا نموذجا من الأسلوب التقليدى لأعداء هذا الدين . . إنهم ينفقون أموالهم ، ويبذلون جهودهم ، ويستنفدون كيدهم ، فى الصد عن سبيل الله ، وفى إقامة العقبات فى وجه هذا الدين . وفى حرب العصبة المسلمة فى كل أرض وفى كل حين . .

إن المعركة لن تكف . وأعداء هذا الدين لن يدعوه فى راحة . ولن يتركوا أولياء هذا الدين فى أمن . وسبيل هذا الدين هو أن يتحرك ليهاجم الجاهلية ، وسبيل أوليائه أن يتحركوا لتحطيم قدرة الجاهليـة على العدوان ؛ ثم لإعلاء راية الله حتى لايجرؤ عليها الطاغوت .

والله – سبحانه – ينذر الكفار الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله بأنها ستعود عليهم بالحسرة . . إنهم سينفقونها لتضيع فى النهاية ، وليغلبوا هم وينتصر الحق فى هـذه الدنيـا . وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، فتتم الحسرة الكبرى . . ذلك . .

« ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعا ؛ فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون » . .

فكيف ؟

إن هذا المال الذى ينفق يؤلب الباطل ويعلى له فى العدوان ؛ فيقابله الحق بالكفاح والجهاد ؛ وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة . . وفى هذا الاحتكاك المرير ، تتكشف الطباع ، ويتميز الحق من الباطل ، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل – حتى بين الصفوف التى تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ! – ويظهر الصامدون الصابرون الثابرون الذين يستحقون نصر الله ، لأنهم أهل لحمل أماناته ، والقيام عليها ، وعدم التفريط فيها تحت ضغط

Marfat.com

الفتنة والمحنة . . عند ذلك يجمع الله الخبيث على الخبيث ، فيلقى به فى جهنم . . وتلك غاية الخسران . .

والتعبير القرآنى يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم ، وكأنما هو كومة من الأقذار ، يقذف بها فى النار ، دون اهتمام ولا اعتبار !

« فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم » . .

وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعا أعمق فى الحس . . وتلك طريقة القرآن الكريم فى التعبير والتأثير . .

* * *

وعندما يصل السياق إلى هذا التقرير الحاسم ، عن مصير الكفر المتعاون ، ونهاية الخبث المتراكم ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينذر الكافرين إنذاره الأخير ، ويتجه بالخطاب كذلك إلى الجبهة المسلمة يأمرها بالقتال حتى لا تكون فى الأرض فتنة ، وحتى يكون الدين كله لله ، ويطمئن العصبة المسلمة المجاهدة إلى أن الله مولاها ونصيرها ، فلا غالب لها من الناس بحرب ولا بكيد ، والله وليها الناصر المعين :

« قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير » . .

قل للذين كفروا ـ فى ضوء ماسبق من قرار الخالق الجبار عن خيبتهم فى جمعهم، وحسرتهم على ماأنفقوا ، وصيرورتهم بعد الخزى والحسرة فى الدنيا إلى أن يركم الخبيث منهم على الخبيث فيجعل الخبيث كله فى جهنم . .

« قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » . .

فالفرصة أمامهم سانحة لينتهوا عما هم فيه من الكفر ، ومن التجمع [illegible] الإسلام وأهله، ومن إنفاق الأموال للصد عن سبيل الله . . والطريق أمامهم مفتوح ليتوبوا عن هذا كله ويرجعوا

Marfat.com

إلى الله ، ولهم عندئذ أن يغفر لهم ماقد سلف . فالإسلام يجب ماقبله ، ويدخله الإنسان بريئا من كل ماكان قبله كما ولدته أمه . . فأما إن هم عادوا ـ بعد هذا البيان ـ إلى ماهم فيه من الكفر والعدوان فإن سنة الله في الأولين لاتتخلف . ولقد مضت سنة الله أن يعذب المكذبين بعد التبليغ والتبيين ؛ وأن يرزق أولياءه النصر والعز والتمكين . . وهذه السنة ماضية لاتتخلف . . وللذين كفروا أن يختاروا وهم على مفرق الطريق !

بذلك ينتهي الحديث مع الذين كفروا ويتجه السياق إلى الذين آمنوا :

« وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير » . .

وهذه حدود الجهاد في سبيل الله في كل زمان ، لافي ذلك الزمان . . ومع أن النصوص المتعلقة بالجهاد في هذه السورة ، وبقوانين الحرب والسلام ، ليست هي النصوص النهائية ، فقد نزلت النصوص الأخيرة في هذا الباب في سورة براءة التي نزلت في السنة التاسعة ؛ ومع أن الإسلام ـ كما قلنا في تقديم السورة ـ حركة إيجابية تواجه الواقع البشري بوسائل مكافئة ، وأنه حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . .

مع هذا فإن قوله تعالى :

« وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . . .

يقرر حكما دائما للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم . .

ولقد جاء الإسلام ـ كما سبق في التعريف بالسورة ـ ليكون إعلانا عاما لتحرير « الإنسان » في « الأرض » من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين . . وأن معنى هذا الإعلان : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر في صورة من الصور . . . الخ (1) .

ولا بد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين :

أولهما: دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال . . وهذا لايتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ،

(1) ص ١٦٩ ـ ص ٢٠١ من هذا الجزء.

Marfat.com

وتنفذه فى عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدى بالأذى والفتنة على معتنق هـذا الدين ، أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه . .

وثانيهما : تحطيم كل قوة فى الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر ـ فى صورة من الصور ـ وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها فى الأرض كلها ، بحيث لاتكون هناك دينونة إلا لله وحده ـ فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله ـ وليس هو مجرد الاعتقاد..

ولا بد هنا من بيان الشبهة التى قد تحيك فى الصدور من هـذا القول ، على حين أن الله سبحانه يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . .

ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد فى الإسلام ـ وبخاصة فيما اقتطفناه من كتاب : « الجهاد فى سبيل الله » للأستاذ أبى الأعلى المودودى ، ما يكفى للبيان الواضح .. إلا أننا نزيد الأمر إيضاحا ، وذلك لكثرة مالبس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين !

إن الذى يعنيه هذا النص : « ويكون الدين كله لله » . . هو إزالة الحواجز المادية ، المتمثلة فى سلطان الطواغيت ، وفى الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكون هناك ـ حينئذ ـ سلطان فى الأرض لغير الله ، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله . . فإذا أزيلت هـذه الحواجز المادية ترك الناس أفرادا يختارون عقيدتهم أحرارا من كل ضغط . على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام فى تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين ، ويحول بها دون اهتداء من يرغبون فى الهدى ، ويفتن بها الذين يتحررون فعلا من كل سلطان إلا سلطان الله . . إن الناس أحرار فى اختيار عقيدتهم ، على أن يعتنقوا هـذه العقيدة أفرادا ، فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد . فالعباد لايدينون إلا لسلطان رب العباد .

ولن تنال البشرية الكرامة التى وهبها لها الله ، ولن يتحرر « الإنسان » فى « الأرض » ، إلا حين يكون الدين كله لله ، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه . .

ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة :

« حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله » . .

فمن قبل هذا المبدأ وأعلن استسلامه له ، قبل منه المسلمون إعلانه هـذا واستسلامه ، ولم يفتشوا عن نيته وما يخفى صدره ، وتركوا هذا لله :

« فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » . .

ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصرة الله :

Marfat.com

« وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم . نعم المولى ونعم النصير » . .

* * *

هذه تكاليف هذا الدين ؛ وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته في عالم الواقع ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده في دنيا الناس . .

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب ؛ للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة ! وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى ! كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه !

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان . . وهو منهج حركي واقعي ، يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة . . يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان . . ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله . .

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري . والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية ! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة ، ولا بد ــ كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئة ــ أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولا بد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونة لسواه .

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين . . لا ما يقوله المهزومون والمخدوعون . . ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من « المسلمين » ، ولكن تغيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين !

. . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . .

انتهى الجزء التاسع ويليه الجزء العاشر مبدوءا بقوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول » .

Marfat.com

فهرس المجلد الثالث

في ظلال القرآن

السورة		الآيات	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
من بقية سورة المائدة				٥ – ٧٨	السابع
تفسير الآيات	:	٨٢ – ٨٦	لتجدن اشد الناس عداوة	٨ – ٢١	
» »	:	٨٧ – ١٠٨	يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا ...	٢١ – ٦٦	
» »	:	١٠٩ – ١٢٠	يوم يجمع الله الرسل فيقول ...	٦٦ – ٧٨	
سورة الانعام : مكية واياتها ١٦٥				٧٩ – ٤٤٠	
تفسير الآيات	:	١ – ٣	الحمد لله الذي خلق السموات..	١١٩ – ١٢٨	
» »	:	٤ – ١١	وما تأتيهم من آية من	١٢٨ – ١٤٥	
» »	:	١٢ – ١٩	قل لمن ما في السموات... ...	١٤٥ – ١٦٥	
» »	:	٢٠ – ٣٢	الذين آتيناهم الكتاب	١٦٥ – ١٨٦	
» »	:	٣٣ – ٣٩	قد نعلم إنه ليحزنك	١٨٦ – ٢٠٦	
» »	:	٤٠ – ٤٩	قل : أرأيتكم إن أتاكم	٢٠٦ – ٢٢٠	
» »	:	٥٠ – ٥٥	قل : لا أقول لكم عندي	٢٢١ – ٢٤٢	
» »	:	٥٦ – ٦٥	قل : إني نهيت أن اعبد	٢٤٢ – ٢٧٢	
» »	:	٦٦ – ٧٠	وكذب به قومك	٢٧٢ – ٢٧٨	
» »	:	٧١ – ٧٣	قل : اندعو من دون الله	٢٧٨ – ٢٨٥	
» »	:	٧٤ – ٩٤	وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر	٢٨٦ – ٣٠٨	
» »	:	٩٥ – ١١٠	إن الله فالق الحب والنوى	٣٠٨ – ٣٣٨	
» »	:	١١١ – ١١٣	ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ...	٣٥١ – ٣٦٠	الثامن
» »	:	١١٤ – ١٢٧	افغير الله ابتغي حكمًا	٣٦١ – ٣٨٣	
» »	:	١٢٨ – ١٣٥	ويوم يحشرهم جميعًا	٣٨٣ – ٣٩٢	
» »	:	١٣٦ – ١٥٣	وجعلوا لله مما ذرأ من	٣٩٢ – ٤٢٨	
» »	:	١٥٤ – ١٦٥	ثم آتينا موسى الكتاب	٤٢٨ – ٤٤٠	

Marfat.com

السورة	مطالع الآيات		الصفحة	الجزء
سورة الاعراف : مكية وآياتها ٢٠٦			١٠٣ – ٧٢٧	
تفسير الآيات :	١ – ٩	المصّ كتاب انزل إليك	٤٥٨ – ٤٧٠	
« « :	١٠ – ٢٥	ولقد مكنا في الأرض	٤٧٠ – ٤٩٣	
« « :	٢٦ – ٣٤	يا بني آدم قد أنزلنا	٤٩٣ – ٥٠٩	
« « :	٣٥ – ٥٣	يا بني آدم إما يأتينكم	٥٠٩ – ٥٢٢	
« « :	٥٤ – ٥٨	إن ربكم الله الذي خلق	٥٢٢ – ٥٣٢	
« « :	٥٩ – ٨٨ – ٩٣	لقد ارسلنا نوحًا الى قومه	٥٣٢ – ٥٦٥	
« « :	٨٨ – ١٠٢	قال الملأ الذين استكبروا	٥٨١ – ٥٩٣	التاسع
« « :	١٠٣ – ١٣٧	ثم بعثنا من بعدهم	٥٩٣ – ٦٢١	
« « :	١٣٨ – ١٧١	وجاوزنا ببني اسرائيل	٦٢٢ – ٦٦٦	
« « :	١٧٢ – ١٩٨	وإذ أخذ ربك من بني آدم ...	٦٦٦ – ٧١٠	
« « :	١٩٩ – ٢٠٦	خذ العفو، وامر بالمعروف	٧١٠ – ٧٢٧	
سورة الانفال : مدنية وآياتها ٧٥			٧٢٨ – ٨٥٧	
تفسير الآيات :	١ – ٢٩	يسألونك عن الانفال	٧٩٥ – ٨٤١	
« « :	٣٠ – ٤٠	وإذ يمكر بك الذين كفروا ...	٨٤١ – ٨٥٧	

Marfat.com